مفاهيم القرآن

٣

معالم النبوة

في القرآن الكريم

يبحث عن عالمية الرسالة المحمدية وخاتميتها وأمية النبي الأكرم، واطلاعه على الغيب بإذن الله سبحانه وحياته في القرآن

تأليف

العلامة الأستاذ

الشيخ جعفر السبحاني



PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

This book is due on the latest date stamped below. Please return or renew by this date.

J. al-Subhani

مفاهيم القرآن

(٣)

معالم النبوة

في القرآن الكريم

يبحث عن عالمية الرسالة المحمدية وخاتميتها وأمية النبي الأكرم، واطلاعه على الغيب بإذن الله سبحانه وحياته في القرآن

تأليف

العلامة الأستاذ

الشيخ جعفر السبحاني

2273
.935
.3
V.3

مواصفات الكتاب

* اسم الكتاب ـ : معالم النبوة في القرآن الكريم
* المؤلف ـ : جعفر السبحانى
* الموضوع ـ : ابحاث حول النبى الاكرم (ص)
* القطع ـ : وزيرى
* عام الطبع ـ : ١٤٠٢ هـ
* المطبعة : قم مطبعة الخيام
* الناشر : مكتبة الامام امير المؤمنين (ع) العامة ـ اصفهان
* حقوق الطبع محفوظة

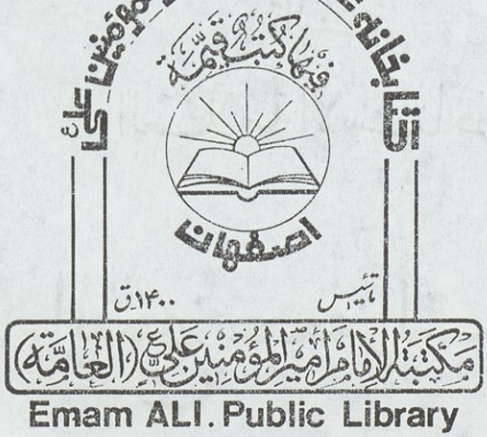

كلمة قيمة للمفكر الاسلامي الكبير والمفسر القدير
العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي مؤلف الكتاب
القيم « **الميزان في تفسير القرآن** » رحمه الله .

84-B58906-1

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين.

أما بعد، فان الكتاب الذي بين يديك سلسلة بحوث قيمة في القرآن الكريم وتفسيره على اساس « الوحدات الموضوعية » فيه . ويلاحظ الباحث فيها انها تعتمد .

قبل كل شيء على الاستفادة من نفس مفاهيم القرآن الكريم في عرض المواضيع كما يلاحظ الروح الموضوعية الهادفة والاسلوب الفخم ، والتتبع الدقيق ، والاسهاب في البحث ، والاستيفاء الكامل لكل جوانب الموضوع . فاسأل الله ان يوفق مؤلفنا الموفق لتنقيح سائر المواضيع في الاجزاء الاتية ، انه سميع بصير .

قم - ايران **محمد حسين الطباطبائي**

عام ١٣٩٣ هـ

اكبار وتقدير لهذه الموسوعة القرآنية من المحقق المتتبع العلامة الكبير الشيخ محمد تقى التسترى صاحب كتاب قاموس الرجال دام ظله .

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة العلامة فخر الايام الشيخ جعفر السبحانى دامت بركاته

وصلنى كتابكم الميمون ففتح علينا ابـواب البهجة والسرور كما وصلني مؤلفكم القيم « مفاهيم القرآن » وقد طالعته من اوله الى آخره والحق انكم بحثتم فيه عن موضوعات كثيرة وعالجتم فيه المسائل الاسلامية معالجة جديدة ، بعيدة عما حولها من آراء وافكار مهجورة فجزاكم الله عن الاسلام والدين والعلم خير الجزاء .

والعجب انكم رغم نشأتكم في ايران اخذتم بناصية اللغة العربية كاديب مصري او بغدادي، فأتيتم بتعابير عصرية رائجة، ادام الله في تأييدكم وزاد في تسديدكم.

محمد تقى التسترى الشيخ

التفاتة كريمة و كتاب مبارك من الاستاذ الفذ سماحة
العلامة الحجة الشيخ محمد الكرمي دام ظله الوارف
نقتطف منه ما يلي :

بسم الله الرحمن الرحيم

هزتني طرة عنوانه لانه مبتكر في بابه

كم بت اتململ ساعات طوالا من الليل ، وآناء كثيرة من اطراف النهار اجول بفكري في غضون الحياة لعلي اطلع من بعض منافذها على بصيص اجعله مناراً للخروج من حيرتي لاني اعرف للفضيلة مفهوما ولا اراه بين الناس وللدين أهمية عظمى ولا اجدها ظاهراً بينهم.. نعم قد تقع العين احيانا على فاضل متزن وكاتب متقن و كتاب متشخص فيلوح في الافاق كما تلوح النجمة اللامعة في شاشة الظلام الادكن ويحصل منها بصيص للمدرب يهون على سالكه المسير فلا يكون كخابط في ليلة ظلماء .

وفي مثل هذا الوقت المتلوي والظرف الحرج يتحفني صديق لي حميم وهو الاستاذ جعفر السبحاني بالجزء الاول من تفسيره الموضوعي للقرآن الكريم «فهزتني طرة عنوانه لانه مبتكر في بابه» فان كل من كتب في التفسير كتب على طبق تسلل السور من الفاتحة الى المعوذة بالترتيب الموجود للمصحف الشريف اما

صديقنا الفاضل فقد حاول خطة أخرى هي بنظري أصل من الخطط الدارجة وهي الماممه بجميع ما في القرآن من اهداف وموضوعات تحدث القرآن الكريم عنها واشخاص كل هدف في باب خاص والافاضة عنه بالايات التي رمت اليه في أية سورة كانت .

... لقد اتحفني صديقي السبحاني بالجزء الاول من تفسيره الموضوعي فقرأت مقدمته لاستجلي من مجملها تفاصيل ما دون او يريد تدوينه، فوقفت على مجمل مفعم بالمطالب الدقيقة و فتحت الكتاب عفواً فوقعت عيني على عنوان امية النبي في القرآن وسرحتها قصداً لترتع في هذه الجنائن الناظرة والحدائق الغناء فكان والحق يقال محققا لمادة المطلب مفتشا على كل مظنة توفي بها على ما يتوخى من بحثه وبعد ذلك مطبقا لما علق بنظره مبرهنا عليه طارداً للشبه والاشكالات التي توجه اليه .

فالسبحاني وان كان كتب في ابواب شتى وطرق مواضيع عديدة وساعدته الظروف فنشر ما كتب الا انه في كتابه هذا اذا وفق لاتمامه على اسلوب فانجز منه يكون قد جاء ببيت قصيده واسعفه الحظ بمقصوده ولا استكثر عليه ذلك .

لقد اتحفني صديقي الفاضل السبحاني كما ذكرت بالجزء الاول من موسوعته فرأيت لزاما علي ان اقدم لجزئه الثاني الجاهز للطبع واعرب عن الحق الذي تضمنه كتابه لاعن تذوقي وحده فجدير بالناشئة المؤمنة ان تطالع هذا الكتاب وتشبع بعض نهمتها منه وجدير بالاستاذ المؤلف ان يتابع خطوه في اتمام هذه الموسوعة التي تتقاضى منه جداً وجهدا وزمنا واذا ماطل هذه الصعوبات وانتصر عليها يكون قد فاز برضا من ربه وهذه هي الجائزة الموقرة . . والسلام عليه ورحمة الله وبركاته .

٢١/ج١/١٣٩٤ هـ

محمد الكرمي

عواطف خالصة يجود بها علينا أخ فى الله كريم
وعلم من اعلام الفكر والدين فضيلة الشيخ حسن
طراد العاملى نزيل النجف الاشرف .

بسم الله الرحمن الرحيم

فضيلة العلامة الجليل المجاهد الكبير سماحة الشيخ جعفر السبحاني المحترم
دام حفظه وتاييده .

تحية حب واخلاص وتقدير واجلال .

وبعد : فقد وصلتنى هديتك الثمينة التى تفضلت بها « مفاهيم القرآن » وقد كان لهذه الهدية الفكرية مدلول رائع ومحتوى مزدوج سامي، فهي تعبر من جهة فكرية عن فكر عميق ونظر دقيق وسعة اطلاع وفصاحة بيان وسداد منطق كما تعبر من جهة روحية عن سمو خلق ومتانة طبع ورحابة صدر وسماحة نفس ولهذا وذلك كان لهذه التحفة السنية بما عبرت عنه ودلت عليه ابلغ الاثر في نفسي حيث جعلت لك عندي منزلة سامية ومكانة مرموقة تستوجب التقدير والاجلال، كما بعثت وكونت لك فى قلبى حباً عميقا واخلاصاً وثيقا يجذبنى اليك بسلك الوفاء والولاء وقد كان من نتائج هذا التقدير وذلك الحب مقطوعة شعرية نظمتها

بوحي من اعجابي بفضلك وتقديري لشخصك واخلاصي لك وهي :

سر للامام مؤيداً بعزيمة ... كالطود لاتثنى ولا تتقهقر

وانشر من الدين الحنيف معارفا ... غراء تسطع بالرشاد وتزهر

واكشف دياجير الضلال بساطع ... من نور فكرك بالهدى يتمور

فالليل لا يجلوه الا كوكب ... بشعاعه ظل الدجى يتبخر

والغي لا يمحوه الا كاتب ... بفنون دستور السما متبحر

نشر الحقائق في العقول فاشرقت ... وعيا واضحت بالهدى تتنور

ليظل دستور العقيدة مشرقا ... تزهو بروعة ما حواه الاعصر

وختاما اشكر هديتك القيمة واقدر اخلاقك السامية وجهادك المثمر البناء والسلام عليك وعلى سائر الاعلام المجاهدين في حوزه قم المقدسة .

٧/ ربيع الاخر/ ١٣٩٤ هـ **حسن طراد العاملي نزيل النجف الاشرف**

مقدمة الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

القرآن كتاب القرون والاجيال

القرآن معجزة خالدة

لما كانت رسالة النبي الكريم محمد ـ صلى الله عليه وآله ـ ابدية خالدة الى يوم القيامة لانها خاتمة الرسالات ، ونبوته خاتمة النبوات .. وكانت النبوة و الرسالة ـ الخالـدة بحاجة الى المعجزة الخالدة لاقناع الاجيال المتلاحقـة امتازت معجزة الرسول الكريم محمد ـ صلى الله عليه وآله ـ عن معاجز غيره من الرسل الكرام بكونها خالـدة خلود النبوة المحمدية ، باقية بقاء الرسالـة الا سلامية، التي هي خاتمة الرسالات والحلقة الاخيرة المتكاملة في سلسلة الشرائع الالهية .

وهذا أمر يؤيده العقل، ويؤكده البرهان فالانبياء والرسل السابقون، رغم أنهم كانوا أصحاب معاجز كثيرة وعديدة، لكن تلك المعاجز كانت مؤقتة، لان رسالتهم كانت منحصرة على عصورهم واجيالهم أو تمتد الى عصور بعدهم بقليل ولذلك كانت معاجزهم باقية في الاذهان بقدر طول مدة نبوتهم ورسالتهم فكانت

تختفى بانتهاء مدة نبواتهم ـ عليهم السلام ـ ولم يبق منها الا أخبار وقصص في بطون الكتب ، وطيات التاريخ المدون .

أما الرسالة التى كلف بابلاغها الرسول الخاتم ـ صلى الله عليه وآله ـ فاذ لم تكن محدودة بزمن دون آخر ، ولا مقصورة على جيل دون آخر ، فهي الرسالة الخالدة وهي الدعوة الموجهة الى جميع الاجيال البشرية الى يوم القيامة ، كان من الضرورى والبديهي ان تقترن بمعجزة خالـدة ، تشهد على صدق صاحب الدعوة وحامل تلك الرسالة ، في جميع القرون والاعصار ، ولتكون (حجة) على جميع الاجيال المخاطبة بها ، والمدعوة اليها .. لان المعجزة وثيقة اثبات لايمكن تصديق رسالة ونبوة بدونها .

وكانت هذه المعجزة الخالـدة التي زود الله تعالى بها خاتم الانبياء محمد ـ صلى الله عليه وآله ـ هي (القرآن الكريم) الذي بقي على مر العصور والازمنة يشهد ـ بقوة ووضوح ـ على صدق النبوة المحمديـة وعلى صلته ـ صلى الله عليه وآله ـ بالله سبحانه وتعالى .

والجدير بالذكر أن اعجاز القرآن الكريم لا يقتصر على جهة دون جهة ، بل هو معجزة بمجموعه وفي جهات شتى نشير الى بعضها على سبيل المثال لا الحصر :

* * *

أوجه الاعجاز القرآنى

ان القرآن الكريم معجزة مستمرة وخالدة :

أولا/ من حيث فصاحته وبلاغته التى أخرست البلغاء والفصحاء ، لافي عصر نزوله خاصة ، بل في جميع الازمنة والدهور ، واعجزتهم عن معارضته ، وتحدتهم في معاقلهم ، وعقر دورهم .

ثانياً/من حيث احتواءه على أفضل القوانين والنظم ، وارقى التشريعات في جميع المجالات الحيوية ، واتيانه بما عجز عن الاتيان بـه أرقى الحضارات البشرية حتى يومنا هذا .

ثالثاً/من حيث اخباره بالامور المستقبلية واحتوائه على الامور الغيبية ، اذ أخبر عن وقائع وحوادث مستقبلية تحققت بعده حرفاً بحرف .

رابعاً/من حيث سلامته عن التناقض والاختلاف في النظم والاسلوب، وفي المعنى والمضمون رغم تدرجه في النزول على النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ وتنزله في ظروف مختلفة متباينة كيفاً وحالا، وخلال ثلاث وعشرين سنة محفوفة بالمشاكل الجسيمة ، والتطورات العنيفة .

خامساً/من حيث تناوله الدقيق للوقائع التاريخية الماضية، حيث قصها على نحو خال عن شائبة الاساطير والخرافات، وهو أمر يمكن معرفته بمقارنة القرآن الكريم مع التوراة والانجيل .

سادساً/من حيث اشتماله على اشارات رائعة عميقة الى حقايق كثيرة مـن العلوم الطبيعية التي توصل اليها العلم الحديث ـ في هذا العصر ـ بفضل الجهود الطويلة، المضنية وبواسطة المختبرات، والوسائل العلمية والتجارب والاختبارات العديدة .

سابعاً/من حيث قوة احتجاجه على خصومه ومعارضيه، وماجاء به من حجج لم يسبق لها نظير في علم المناظرة والاحتجاج وكانت ـ ولا تزال ـ انجح الحجج في افحام الخصوم واسكات المجادلين ، والمشككين ، بل وهدايتهم في اغلب الاحيان .

ثامناً/من جهة ماجاء به في مجال الاخلاق والتربية الاخلاقية للفرد والمجتمع حيث استقصى الاخلاق الفاضلة وحث على التزين بها بما توجبه الحكمة من البعث والترغيب ، وأحصى الاخلاق الرذيلة وزجر عن التلوث بها بما توجبه

الحكمة ، ويقتضيه الاصلاح من التخويف والتنفير وسلك في ذلك كله طريقة فريدة لها أبلغ الاثر حتى في أشد القلوب قساوة وتصلباً .

تاسعاً/من حيث روحانيته البالغة التي تنفذ الى الاعماق ، وتأخذ بمجامع القلوب، وتستميل المشاعر، فاذا بآياته روح تحيا بهانفوس الخلق، ونوريضيىء الوجود الانساني كما تضيىء الشمس الافاق، فتنشط الاحياء، وتتحرك الطبيعة.

عاشراً/من حيث تناوله لادق المعارف العقلية ، والقضايا الاعتقادية الرفيعة التي لا تصل اليها أفكار البشر، ولا تبلغها علومهم، مما يتعلق بالله سبحانه وصفاته واسمائه وافعاله ، وماأخبر به من عوالم غيبية في الملا الاعلى، والنشأة الاخرى.

الى غير ذلك من الجهات والوجوه التى يقصر البيان عـن الاحاطة بها ، واحصائها في هذا المختصر .

غير أن الجهة الاخيرة من هذه الجهات وهي التي كان يتوجب تناولها بالدراسة الوافية والتحليل الشامل ، وخاصة في عصرنا الحاضر ، قد اهملت في مؤلفات المفسرين غالباً فهم لم يدرسوها بجامعية تليق بالموضوع وتناسب أهميته، وتعطي حقه من العناية والبحث .

ولعل عذرهم في ذلك هوان تفسيرهم للكتاب العزيز كان على وجه التفسير التدريجي للقرآن ، اى التفسير سورة فسورة ، وآية فآية، ولم يتبادر الى اذهانهم ان هناك نوعاً آخر من التفسير هو التفسير الموضوعي الذي يفسر الكتاب العزيز حسب المفاهيم والموضوعات ، وهو النمط الذي اشرنا اليه في مقدمة الجزء الاول من هذه السلسلة القرآنية .

* * *

لزوم الاهتمام بالمعارف الالهية

وانما ينبغي اعطاء المزيد من الاهتمام بالمعارف الالهية التي ترتبط بـالله

سبحانه ، واسمائه وصفاته وافعاله وغير ذلك مماتناوله القرآن بالدقة المشهودة لان تناول القرآن لهذه المعارف بهذا الشكل يدل ـ بوضوح لا يقبل الجدل ـ على أن النبي الامي ـ ص ـ لم يأخذ هذه المعارف الامن مستقى (الوحى)، اذ من المستحيل لابن الجزيرة الخالية من اية حضارة وثقافة أن يأتي ـ في كتابه ـ بما أبهر عقول الفلاسفة والمفكرين، فى القديم والحديث، وذلك من لدن نفسه وصنع فكره ، أو يكون قد تلقاها في مدرسة ، أو اقتبسها من معلم في أرض لم يعرف أهلها الا الاوهام ، ولم يؤمنوا الا بالخرافة ، فلا ثقافة ولا مثقفين ، اللهم الا بضعة اشخاص (١) لم ينالوا من الثقافة الاصبابات هي الى الجهل أقرب منها الى العلم والمعرفة .

ان القرآن جاء بأصول وأفكار في مجال المعارف العقلية العليا لم يقف عليها حتى النوابغ من الفلاسفة ، في الشرق والغرب ، الا عن طريق ذلك الكتاب الالهى وهدايته .

ان من الظلم الفضيع اهمال دراسة هذه المعارف العليا بحجة أنها مسائل غيبية يجب الاعتقاد بها اجمالا ، وترك دراستها ومناقشتها وتحليلها .

والعجب انه روي عن الامام مالك انه جاء اليه رجل فقال : يا أبا عبدالله « الرحمان على العرش استوى » كيف استوى ؟

(١) لقد نقل البلاذرى فى كتابه فتوح البلدان ان الذين كانوا يعرفون الكتابة فى مكة ـ آنذاك ـ لايتجاوزون سبعة عشر شخصاً ، وفى المدينة أحد عشر شخصاً ، واليك نص ماقاله فى هذا المجال :

« دخل الاسلام وفى قريش سبعة عشر رجلا كلهم يكتب » ثم عدهم وذكر اسمائهم وقال :

«كان الكتاب بالعربية فى الاوس والخزرج قليلين... فجاء الاسلام وفى الاوس والخزرج عدة يكتبون » ثم ذكر اسماءهم راجع ص ٤٥٦ ـ ٤٥٩ باب فى أمر الخط، فتوح البلدان.

فاطرق مالك برأسه حتى علاه الرحضاء . ثم قال :

« الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول والايمان به واجب والسؤال عنه بدعة ، وما اراك الامبتدعاً » .

فامر به أن يخرج (١) .

ونحن نظن انه كان على الامـام ان يجيب على سؤال السائل ويهديه الى مراده سبحانه من هذه الاية بدل رميه بالابتداع واخراجه من المجلس .

كما ان من الظلم أيضاً مايرتكبه بعض كتابنا المسلمين المعاصرين ، حيث أخذ يفسر هذه المعارف العقلية الالهية بالامور المحسوسة ويحاول تطبيقها على الشؤون المادية فصار فعله بذلك من أوضح مصاديق (تفسير القرآن بالرأي) الذي تواترت الاحاديث الشريفة على نهيه من الرسول الاعظم ـ صلى الله عليه وآله ـ .

من اجل هذا، ولكى نسلم من التخبط والعشوائية في عرفان هذه المعارف والقضايا الاعتقادية يتعين علينا ان ندرسها بعناية بالغة على نمط (التفسير الموضوعي) من دون فرق بين موضوع وآخر ، حتى نقف ـ من هذا السبيل ـ على واحدة من أهم جهات الاعجاز القرآني ، وتكون من المتعمقين في القرآن ومعارفه .

وما روي عن الامام علي بن الحسين السجاد ـ عليه السلام ـ اذ قال ، لما سئل عن التوحيد :

« ان الله ـ عزوجل ـ علم أنه يكون في آخر الزمان أقوام متعمقون فانزل الله تعالى : قل هو الله أحد، والايات من سورة الحديد الى قوله: « وهو عليم بذات الصدور فمن رام وراء ذلك فقد هلك » (٢) .

أقول : ان ما روي عنه ـ عليه السلام ـ لا يعني أن الامام اراد حصر الايات الباحثة عن المعارف والقضايا الاعتقادية في هذه الايات بل لما كان ماجاء في

(١) مجموعة الرسائل الكبرى لابن تيمية ج ١ ص ٤٤٣ .

(٢) الكافي ج ١ باب النسبة الحديث ٣ .

هذه الايات في القمة من تلك المعارف، اشار اليها الامام خاصة دون ارادة الحصر.

ولاجل هذا جعلنا وجهة البحث في تفسيرنا منذ ان شرعنا في هذا النمط صوب : (المعارف الاعتقادية) على ضوء القرآن ، مبتدئين بالتوحيد، وماضين في هذا السبيل الى ما شاء الله . .

* * *

تقديم مباحث النبوة على الصفات

ولما انتهى البحث عن (التوحيد) وأقسامه في الجزء الاول من كتابنا الذي انتشر باسم «معالم التوحيد في القرآن الكريم» وفرغنا من استعراض أهم أصل من أصول الدين الاسلامي ، و انجر البحث عن توحيد حاكميته سبحانه الى توضيح صيغة الحكومة الاسلامية وخصصنا لبيانها جزءاً مستقلا وانتشر باسم : « معالم الحكومة الاسلامية » ، كان البحث الضرورى والمهم بعد ذلك الفصل هو البحث عن معالم النبوة مطلقا ، ونبوة نبينا محمد ـ صلى الله عليه وآله ـ خاصة واستعراض ماجاء حولهما من المسائل والمباحث التى يجب الاعتقادبها حسب نصوص القرآن الكريم وآياته .

نعم كان اللازم بعد البحث عن وجوده سبحانه وتوحيده هو البحث عن سائر صفاته الجمالية من علمه وقدرته وحياته الى غير ذلك من الصفات الثبوتيه، أو البحث عن صفاته الجلالية من كونه ليس بجسم ، ولا عرض، الى غير ذلك من الصفات السلبية .

نعم كان اللازم تقديم البحث عن صفاته على بحث النبوة، غير انه لما كان أهم صفاته الذي يدور عليه سائر صفاته هو التوحيد وقد اشبعنا الكلام فيها ضمن فصول ، قدمنا بحث النبوة (١) .

(١) نعم قد انتشرت مباحث هذا الجزء مستقلة لاول مرة عـام ١٣٩٣هـ ، ولما اردنا جعلها جزءاً من هذه السلسلة اعدنا النظر فيها فصارت منقحة ومزيدة .

وانما اخترنا مبحث النبوة ، بعد استيفاء البحث فى توحيد الله سبحانه ، لانه الاصل الثاني لتحقق الاسلام ، حيث كان الرسول الاعظم ـ صلى الله عليه وآله ـ يقبل اسلام من يعترف بالشهادتين: الشهادة بتوحيد الله سبحانه، والشهادة برسالة نبيه ـ ص ـ .

نعم سنقوم ، بعد استيفاء البحث عن : النبوة، بالبحث عن (المعاد في يوم القيامة) لان اى مسلك وديـن لا يمكن ان يصطبغ بصبغة الديـن الالهي بدون الاعتقاد بـ : (المعاد) .

ولاجل ذلك يعد الاعتقاد بهذه المسألة (اعنى المعاد) ركناً ثالثاً من اركان الاسلام ، بعد التوحيد والنبوة .

وتـدل على انحصار المهم من الاعتقاد في هـذه الامور والاصول الثلاثة روايات واحاديث منها ما عن علي بن أبي طالب عن النبي (ص) انه قال :

«لايؤمن عبد حتى يؤمن بأربع: يشهدان لااله الاالله وانى محمد رسول الله بعثني بالحق ويؤمن بالموت ويؤمن بالبعث بعد الموت ويؤمن بالقدر»(١).

كما روي ان رجلا من الانصار جاء الى رسول الله بجارية له سوداء فقال: يارسول الله علي رقبة مؤمنة افا عتق هذه؟ فقال لها رسول الله:

« أتشهدين ان لا اله الا الله ؟

قالت : نعم .

قال : أتشهدين ان محمداً رسول الله ؟

قالت : نعم .

قال : أتؤمنين بالبعث بعد الموت .

قالت : نعم .

قال رسول الله : اعتقها » (٢) .

(١) اخرجه الترمذى راجع جامع الاصول ج ١ ص ١٤٥ .
(٢) اخرجه صاحب الموطأ راجع ج ١ ص ١٤٥ .

مباحث النبوة

ان البحث عن (النبوة) يقع في موردين :

١ ـ النبوة العامة .

٢ ـ النبوة الخاصة .

والمراد من البحث في (النبوة العامة) هو دراسة ظاهرة « النبوة » ذلك الفيض الالهي الجاري من جانب الله سبحانه الى البشر بواسطة الانبياء والرسل من آدم ـ عليه السلام ـ الى خاتم النبيين ـ صلى الله عليه وآله ـ .

وفي مجال النبوة العامة لابد من البحث في الامور التالية التي يتكفل مجموعها شرح هذه الحقيقة الكبرى ، وبيانها :

الاول : لزوم بعث الانبياء الى البشر .

الثاني : الشرائط العامة اللازمة في النبي كالعصمة والخلو عن النقص والعيب .

الثالث : كيفية أخذ الانبياء الاحكام عن الله سبحانه ، وما هو الوحى .

الرابع : ما يعرف به النبي الحقيقي ويمتاز عن مدعي النبوة كذباً ، ومنتحلها زوراً ، ويبحث فيه عما يسمى بدلائل النبوة التي منها « المعاجز » .

تلك هي عناوين الابحاث في «النبوة العامة» التي تعرض لها القرآن الكريم في مواضع كثيرة من سوره وآياته .

وانما يجب البحث عن الموضوع الاول (اعنى لزوم ارسال الرسل وبعث الانبياء) دفعاً للمزاعم الواهية المنقولة عن البراهمة والبوذيين الذين انكروا ضرورة ارسال الرسل بوجوه ذكرها علماء الكلام في مؤلفاتهم الاعتقادية (١).

---

(١) ذكر بعضها المحقق الطوسى فى تجريد الاعتقاد وشرحه تلميذه العلامة الحلى فى كشف المراد راجع ذلك الكتاب ص ٢٧٥ طبعة صيدا .

وأما البحث عن الموضوع الثاني فلاجل توضيح ان النبوة لا تعطى الا لمن تتوفر فيه صفات خاصة ، ومؤهلات معينة وهو بحث يتطلبه مبحث النبوة العامة لمعرفة أهمية مسألة النبوة ، وأن هذا المنصب العظيم لن يعهد الا لمن تتوفر فيه صفات معينة .

ويتناول العنوان الثالث بالبحث لمعرفة أن أهمية النبوة وامتيازها عن اية ظاهرة فكرية بشرية انما هي بالوحي ، الذي هو كيفية اتصال الانبياء بالله سبحانه ، وهو الامر الذي يدحض الزعم الباطل القائل ان بالانبياء مجرد نوابغ وان مايأتى به الانبياء نظريات بشرية نابعة من صميم افكارهم.

ويتناول الموضوع الرابع بالدراسة لان معرفة النبي الصادق عن المتنبىء الكاذب متوقف على ما يتحقق على يد النبي من معاجز تثبت تأييد الله سبحانه له ، وان كان هناك طرقا أخرى لتمييز النبي الحقيقى عن المتنبيء أيضا وسيوافيك بيانها في محلها .

وهذه العناوين وان كان البحث عنها مهماً وضرورياً لمعرفة حقيقة النبوة بصورة عامة لكننا نقدم الحديث عن معالم النبوة الخاصة (أعني نبوة الرسول الاعظم محمد ـ صلى الله عليه وآله ـ) نظر لشدة الحاجة الى ذلك فعلا، وسنردف البحث هذا ، بدراسة الفصول ، والمسائل المتعلقة بالنبوة العامة التي ذكرناها عما قريب .

نعم كان الاولى في البحث عن النبوة الخاصة تقديم البحث عن دلائل نبوة سيدنا محمد (ص) .

غير انه لما كتبت في هذا الموضوع مؤلفات، ورسائل ، وكان البحث عن اعجاز القرآن بوجوهها العشرة الماضية أحسن دليل على صحة رسالته (ص) وقد استوفى علماؤنا البحث عن ذلك قديما وحديثا وجدنا قراءنا في غنى عن تكراره. ولاجل ذلك طرحنا بحوثا أخرى ترجع الى صفات رسالته ونبوته أو الى

حالاته الخاصة الواردة في الكتاب العزيز ، والتي لم تبحث الى الان بصورة مشبعة ومنقحة .

فلاجل ذلك نبحث في هذا الجزء عن الامور التالية :

١ـ رسالته(ص)عالمية وليست اقليمية ولاقومية وانه مبعوث الى البشر كافة.

٢ ـ ان رسالته خاتمة الرسالات ونبوته خاتمتها ، وكتابه خاتم الكتب.

وهذان البحثان يرجعان الى البحث عـن اوصاف رسالته ، من عموميتها وخصوصيتها .

٣ ـ انه (ص) كان اميا لا يقرأ ولا يكتب .

٤ ـ انه (ص) كان مطلعا على الغيب باذنه سبحانه .

وهذان البحثان يرجعان الى اوصافه الواردة في القرآن الكريم .

٥ ـ بيان اسمائه وصفاته وسيرته (ص) الواردة في القرآن الكريم .

نسأل الله سبحـانه ان يوفقنا لتوضيح هـذه المعالم التي نوه بهـا سبحانه وذكرها في كتابه العزيز، وان يوفق قراءنا للاستفادة من هذه البحوث القرآنية انه خير معين .

قم المشرفة ١٠ ربيع الثانى من شهور عام ١٤٠٢

مقدمة الطبعة الاولى

بسم الله الرحمن الرحيم

منهج متكامل في عالم التفسير

الاسلام دين الله الابدي الخالد وشريعته الدائمة الباقية مع مر العصور والأزمان ولابد لهذه الشريعة الباقية من سند قوي يسندها ، ودليل واضح يدل على انها حق لايتسرب اليه أي شك أوشبهة، فكان ذلك السند والدليل هو القرآن الكريم، الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والمعجزة الخالدة التي ستبقى سنداً حياً للشريعة الاسلامية الى يوم يقوم الناس فيه لرب العالمين .

لقد كانت المعاجز التي ظهرت على أيدي موسى بن عمران والمسيح بن مريم عليهما السلام ، معاجز تخص عصرهما ، فلم يشاهد منها شيء في العصور المتأخرة عنهما ، ذلك لان شريعتهما كانت خاصة بفترة زمنية معينة محدودة بحدود مؤقتة ، فكانت معاجزهما كافية لتلك الفترة التي تسري فيها شريعتهما .

أما نبوة نبي الاسلام محمد صلى الله عليه وآله التي هي آخر النبوات ، وشريعته التي هي خاتمة الشرائع ، فلابد لها من معجزة تناسبها ، وتواكب سيرها الزمني لتكون النبراس الذي يضيء الطريق للجيل المعاصر للرسول

والاجيال التي ستأتي بعده الى ما شاء الله تعالى ، ويمحو صدأ الشكوك عن أذهان كافة البشر ، ويدلهم دلالة واضحة الى طريق الحق اللاحب والصراط المستقيم .

القرآن وآفاقه اللامتناهية

لم يمض من نزول القرآن نصف قرن، الا وقد وضع علماء الاسلام علوماً جمة لفهمه وكشف أسراره ومعانيه ، ولو أمعنا النظر لرأينا أن كثيراً من العلوم، وضعت أولياتها لاستيضاح مداليل آيات القرآن وما يمكن أن يستخرج من جملها وعباراتها وذلك كالنحو ، والصرف ، واللغة ، والمعاني ، والبيان ، والبديع ، والقرائة ، والتجويد ، وقصص القرآن ، وشأن نزول الايات..

مع هذا الجهود الجبارة المبذولة من أعلام العلماء ، طيلة القرون الاربعة عشر الماضية ، ومئات المؤلفات الكبيرة والصغيرة المدونة في سبيل الكشف عن الاسرار الكامنة في الايات القرآنية . .

مع كل هذه المساعي ، لم يصلوا الى أعماق ما في القرآن من عجائب الاسرار وغرائب الحكم الكامنة فيه .

يسير الانسان حثيثاً في استجلاء معارف القرآن الفكرية وقوانينه الاجتماعية والاخلاقيه وسائر تعاليمه العالية .. ولكنه لم يزل ، يجد الجديد فيه عندما يتعمق في البحث ، ويرى ما قد غفل عنه الاقدمون ولم يصلوا اليه . . كأنه أمام بحر مواج بالحقائق العلمية لايدرك غوره ، ولا يتوصل الى اعماقه ، ولايمكن معرفة ما فيه من الاسرار والعجائب .

كأن القرآن الكريم ، هو النسخة الثانية لعالم الطبيعة ، الواسع الاطراف، الذي لايزيد البحث فيه والكشف عن حقائقه وأسراره ، الا معرفة أنه لايزال الانسان في الخطوات الاولى من التوصل الى مكامنه الخفية في أغواره .. فان

كتاب الله تعالى كذلك ، لايتوصل الى كل مافيه من الحقائق والاسرار ، لانه منزل من عند الله الذي لاتتصور له نهاية ، ولا يمكن تحديده بحدود وأبعاد ، فيجب ان تكون في كتابه لمعة من لمعاته ، ويثبت بنفسه أنه من عنده ، ويتوفر فيه مايدل على أنه كتاب سماوي ليس من صنع البشر، وهو خالد الى ماشاءالله تعالى .

ان نبي الاسلام العظيم صلى الله عليه وآله هو أول من لفت الانظار الى تلكم المزية وان هذه المزيه من أهم خصائصه ، حيث يقول في وصفه له : «له ظهر وبطن وظاهره حكم وباطنه علم، ظاهره أنيق وباطنه عميق، له نجوم وعلى نجومه نجوم ، لا تحصى عجائبه ، ولا تبلى غرائبه ، فيه مصابيح الهدى ومنار الحكمة » (١) .

وبعد النبي يأتي دور أول تلميذ لمدرسته وهو الامام أمير المؤمنين عليه السلام ليصف القرآن بقوله : « أنزل عليه الكتاب نوراً لا تطفأ مصابيحه ، وسراجاً لا يخبو توقده ، وبحراً لا يدرك قعره . . الى ان قال : وينابيع العلم وبحوره ، ورياض العدل وغدرانه ، وأثافي الاسلام وبنيانه ، وأودية الحق وغيطانه، وبحر لا ينزفه المنتزفون وعيون لا ينضبها الماتحون، ومناهل لايغيضها الواردون »(٢).

وسأل رجل علي بن موسى الرضا عليه السلام فقال: ما بال القرآن لا يزداد عند النشر والدرس الاغضاضة؟ فقال: « ان الله تعالى لم يجعله لزمان دون زمان ولا لناس دون ناس فهو في كل زمان جديد وعند كل قوم غض الى يوم القيامة»(٣).

نرى ان الرضا عليه السلام لا يشير في هذا الحديث الى موضوع خلود القرآن فقط ، بل يشير أيضاً الى سر خلوده وبقائه غضاً جديداً لا يتطرق اليه البلى

(١) الكافي ، كتاب القرآن ج ٢ ص ٥٩٩ .

(٢) شرح نهج البلاغة لعبده ج ٢ ص ٢٠٢ .

(٣) البرهان في تفسير القرآن ج ١ ص ٢٨ .

والذبول .

ويجب ان نذكر القارىء بأن النبي وأئمة أهل البيت عليهم السلام لم يكونوا وحدهم هم الذين لفتوا الانظار الى موضوع آفاقه اللامتناهية ، بل عظماء العرب والعارفون منهم أدركوا هذه الحقيقة في أيام الاسلام الاولى، واعترفوا بعجزهم عن الوصول الى أغواره ، والتوصل الى ما فيه من الاسرار والحكم .

هذا الوليد بن المغيرة حكيم العرب وريحانتهم وخطيبهم المنطيق يجلس الى النبي ليستمع ما كان يتلوه من آيات « سورة غافر » ، وبعد هنيئة ذهب الى قومه « بني مخزوم » ليقول لهم مصارحاً: « والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الانس ولا من كلام الجن ، وان له لحلاوة ، وان عليه لطلاوة، وان اعلاه لمثمر ، وان اسفله لمغدق ، وانه ليعلو وما يعلى » (١) .

يمكن اعتبار قولة الوليد هـذه ، أول تقريظ بشري صدر من انسان واع أدرك بفطرته وذوقه السليم أن القرآن « أعلاه لمثمر، وأسفله لمغدق ، وانه يعلو وما يعلى » .

التفسير في مختلف الاتجاهات

في القرن الثالث الهجرى ـ عند ما قطعت العلوم الاسلامية أشواطاً بعيدة، ووصلت الى مراحل عالية من النضج والرقي ـ حـدث في علم التفسير تطور ملموس ، فانه قبل هذه الفترة كان التفسير منحصراً بنقل أحاديث مروية عن النبي صلى الله عليه وآله أو آراء بعض الصحابة والتابعين وأحياناً بعض أهل الكتاب الذين اعتنقوا الاسلام ، أما في هذا القرن ومابعده فقد أدخل كل ذي اختصاص المباحث العائدة الى موضوع اختصاصه، في التفسير ، بل ربما لا يكتب بعضهم الا ما يدخل في اطار العلم الذي أصبح له اليد الطولى فيه .

(١) مجمع البيان ج ٥ ص ٣٨٧ .

فأعلام الادب العربي خصصوا كتبهم التي تتناول القرآن بمباحث الاعراب واللغة والاشتقاق، كما صنع الزجاج والواحدي مؤلف كتاب «البسيط» وأبو حيان مؤلف كتاب « البحر والنهر » .

وشيوخ البلاغة اهتموا بصورة خاصة بما يتعلق بفصاحة القرآن وأسراره البلاغية التي كانت العرب تدركها بفطرتها السليمة ، وذوقها المرهف ، وحاول هؤلاء الشيوخ اثبات اعجاز القرآن من هذه الزاوية التي تعود الى اللفظ والتركيب. ومن باب المثال نذكر منهم الزمخشري وكتابه « الكشاف » .

والفلاسفة والمتكلمون والمتصوفة اطالوا الكلام في الايات التي توافق اتجاههم الفكري ولم يهتموا اهتماماً كبيراً بالجوانب الاخرى من المباحث التفسيرية، بل نرى في كثير من كتاباتهم أنهم اولوا بعض الايات تأويلات بعيدة لايحتملها الذوق الخالي عن المسبقات الذهنية الفلسفية والكلامية والصوفية ، وذلك كما صنع الفخر الرازي في كتابه «مفاتيح الغيب» ومحي الدين بن العربي في التفسير المنسوب اليه ، وعبد الرزاق الكاشاني في كتابه « تأويل الايات » وقبلهم اخوان الصفا في رسائلهم المشهورة .

والفقهاء توفروا في تفاسيرهم على آيات الاحكام فأشبعوها بحثاً ودراسة ، ومروا على بقية الايات مروراً سريعاً كما صنع القرطبي في تفسيره ، بل خص جماعة من الفقهاء كتابهم بتفسير آيات الاحكام فقط ولم يتناولوا بقية الايات اصلا كالجصاص والفاضل المقداد والمقدس الاردبيلي والشيخ أحمد الجزائرى .

وجماعة آخرون خدموا القرآن بجمع قصصه ومايتعلق بأسباب نزول الايات والقراءات واختلاف القراء والقواعد التجويدية، كالواحدى في كتابه «أسباب النزول والدانى فى كتابه «التيسير» والجزري في «المقدمة الجزرية» والسجاوندي في كتابه « الوقوف » وغيرهم .

وقد خطا فريق من المفسرين خطوات أوسع، فحاولوا التوفر على كل هذه

الابحاث ودرجها بصورة مختصرة فى تفاسيرهم ، ومن هؤلاء الشيخ الطوسى فى « التبيان » والطبرسى فى «مجمع البيان» والنيسابورى فى «غرائب القرآن» والالوسى فى « روح البيان » .

المنهج الصحيح فى التفسير

المفسر الحقيقى هو الذى يتجرد عن ميوله الخاصة ، وعقائده الشخصية تجرداً كاملا ويعرض آراءه على الايات القرآنية لا الايات على مايعتقده .

والطريق المفيد لتفسير القرآن، انلايروم المفسر، تفسير كتاب الله سبحانه وقلبه ممتلىء باراء وافكارتخصه، ولا يتقدم اليه باحثا عما قديؤيد آراءه وافكاره بل ان يتقدم اليه ليكتشف مقاصده ومراميه، فان العقيدة التى يمتلىء بها الشخص تملك عليه كل تفكيره ، ولا تترك له سبيلا الى المقاصد التى يستهدفه الكتاب .

ان احسن المناهج المتبعة فى التفسير ، عرض بعض الايات على بعضها والاستمداد من الاحاديث الاسلامية الصحيحة لاستخراج المعانى والمفاهيم القرآنية استخراجاً صحيحاً. فيجب لاتباع الطريقة المستقيمة فى التفسير مراعاة الشرطين التاليين :

١ ـ تفسير القرآن بالقرآن :

ان القرآن الكريم يؤكد بانه تبيان لكل شىء حيث يقول : « ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شىء » (النحل ـ ٨٩) ، فالقرآن حيث يكون موضحاً لكل شيىء كما هو مصرح فى هذه الاية، فهوموضح لنفسه أيضاً، اذ لامعنى لان يكون القرآن تبياناً لكل شىء ولا يكون تبياناً لنفسه فلابد أن يوضح أيضاً ما يبدو أنه غامض فيه نفسه ، ومعنى هذا ، أنه يمكن استيضاح بعض الايات لفهم المراد من البعض الاخر .

القرآن كله « هدى » و « بينة » و « فرقان » و « نور » كما فى قوله تعالى : « شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » (البقرة : ١٨٥) ، وقوله تعالى « وأنزلنا اليكم نوراً مبيناً » (النساء : ١٧٤) .

والكتاب الذي يحتوي على هذه المزايا لا محيص من الاعتراف بانه يرفع عن نفسه ما يظن فيه من الالتباس والغموض، ذلك لانه لا يمكن أن يكون كتاباً فارقاً بين الحق والباطل، ونوراً هادياً للبشرية، وبرهاناً مرشداً الى مافيه الصواب ثم يكون فى جملة من آياته تعقيد يتيه الانسان فى فهمه والتوصل الى مفاهيمه . وعليه يجب الرجوع الى الايات نفسها لفهم ما أشكل من الايات الاخرى التى تشبهها .

قال النبى صلى الله عليه وآله : « ان القرآن يصدق بعضه بعضاً » .

وقال منعاً لحشر الاراء والنظريات الشخصية فى التفسير وحملها على الايات حملا : « من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار » (١) .

ان تفسير القرآن الكريم بعضه ببعض، وعرض الايات على مايشبهها فى المنطوق أو الهدف ، هو الطريقة المأثورة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام . فان الدقة فى الاحاديث التفسيرية المروية عن الائمة تثبت بوضوح ما نقوله ، وتدل على أن هذا المنهج كان المنهج المحبب اليهم فى ايضاح النصوص القرآنية لتلامذة مدرستهم .

ان الاحاديث التفسيرية المروية عن ائمة اهل البيت عليهم السلام تدل دلالة واضحة على انهم استعانوا بنفس الايات و عرض بعضها على بعض ، فى تفسيرها وبيان معانيها وايضاح مداليلها ومفاهيمها ولم يتصدوا فى وقت من الاوقات لحمل آرائهم الشخصية على الايات الكريمة حملا، بل استنتجوا من مقارنة الجمل والكلمات والالفاظ الموجودة فى بعض الايات لاستيضاح آيات اخرى مشابهة

(١) حديث متفق عليه بين الفريقين .

لها فى المنطوق أو المفهوم .

يقول على عليه السلام فى كلام له يصف فيه القرآن : «كتاب الله تبصرون به وتنطقون به وتسمعون به ، وينطق بعضه ببعض ويشهد بعضه على بعض، ولا يختلف فى الله ولا يخالف بمصاحبه عن الله » (١) .

ولابأس أن نقدم هنا نموذجاً من تفسير القرآن بعضه ببعض ليرى القارىء الكريم كيف يمكن رفع الالتباس عن الايات بهذه الطريقة :

يقول تعالى فى سورة الشعراء ـ ١٧٣ فى قوم لوط « وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين ». انهذه الاية واضحة كل الوضوح من جهة المفهوم ولكن فيها غموض من جهة المصداق ، فان الانسان يتحير فى المعنى المراد من المطر السوء، الا أن الاية ٧٤ من سورة الحجر، تبين هذا المعنى عندما تقول « وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل » .

ان اتباع هذه الطريقة تكشف كثيراً من الحقائق الخفية وتلقى اضواء على ما أبهم من الايات، شريطة أن يجعل الانسان الصبر على البحث، والدقة الكاملة والتأنى فى اصدار الحكم رائداً له .

٢ ـ على ضوء الاحاديث الاسلامية الصحيحة

ان بعض الايات تصرح بأن النبى الكريم صلى الله عليه وآله هو المبين للقرآن والمعلم لاياته ، فيقول تعالى : « وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس مانزل اليهم » (النحل : ٤٤) ، ويقول : « هوالذي بعث في الاميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب » (الجمعة ـ ٢) .

من هاتين الايتين نعرف أن ما ابهم من القرآن لمصالح لا نعلمها نحن ، يجب الرجوع للكشف عن غوامضها الى النبى وأهل بيته الذين هم عدل القرآن

(١) نهج البلاغة ج ٢ ص ٢٢ الخطبة ١٢٩ .

بشهادة حديث الثقلين المتفق على روايته عن الرسول صلى الله عليه وآله .

ولابد هنا أن نلفت الانظار الى أهمية معرفة الاحاديث الصحيحة، والتمييز بينها وبين الاحاديث غير الصحيحة، وانه لا يمكن الاعتماد على مانقل عن الصحابة والتابعين فى التفسير بصورة مرسلة غير مسندة ، بل يجب التثبت فيها والتأكد من أنها واجدة لشرائط الحجية التي هي مذكورة في محالها من مباحث علوم الحديث ، فلا يحسن الاستناد اليها في كشف ما أبهم من القرآن، بسبب بعد العهد من عصر الوحى أو كون الايات نزلت مجملة كذلك لمصالح خاصة ليس هنا محل تفصيلها (١) .

ولقد اثرت عن أهل البيت عليهم السلام في هذا المجال أحاديث لوحظ في أكثرها جانب التربية والتعليم والمحاولة لتقريب استفادة المعاني والنكات الى الاذهان، (من دون حشر رأى خاص فيها وحمله على الذي يستعرضه) بتدبر ودقة، وهذا موضوع يتضح جلياً لمن أمعن النظر في تلك الاحاديث التفسيرية . وهذه الاحاديث لها قيمتها الخاصة وان لم يصح اسناد بعضها ، لمجانبتها عن التفسير التعبدي ومحاولتها التعليم وارشاد القارىء الى كيفية استفادة المعاني من الاية نفسها من دون استناد الى شيىء آخر .

تأثير الحضارة الغربية فى المنهج التفسيرى

لقد أثرت ترجمة الفلسفة اليونانية وعلومها الى العربية في فهم معاني الايات والمفاهيم القرآنية تأثيراً بعيد المدى ، فقد أدخلت في التفسير جملة من المسائل الفلسفية والطبيعية التي لاتمت اليه بصلة ، وحملت عليه حملا لايمكن تقبلها لو تجردنا عن الاتجاه الفلسفي اليوناني الوافد .

ان بعض المفسرين أولوا كثيراً من الايات حسب المفاهيم الفلسفية الوافدة

(١) مثل الايات التى ذكرت فيها الصلاة الصوم والزكاة والحج و . . .

من المشائيين والاشراقيين وعلى ضوء القواعد البطلميوسية في الهيئة القديمة وعلم الفلك، وللتوفيق بين هذه الاراء والايات القرآنية والاحاديث التفسيرية، تشبثوا بنظريات بعيدة كل البعد عن السياق والمفهوم القرآني، وكانت محاولتهم فاشلة ، بعد تبدل النظريات العلمية والمكتشفات التجريبية .

وقد واجه القرآن هذه المشكلة أيضاً بل أعمق منها بكثير عندما وسعت اوربا الخطوات الى المدنية الحاضرة وكانت لها آراء حديثة في النظريات الفلكية والطبيعية والرياضية وغيرها وسخرت بمكتشفاتها العلمية الجديدة البحار والوديان، وراحت لتسيطر على ما في أجواء السماء .

وانتقل كثير من هذه النظريات الحديثة الى الشرق ممزوجاً بشيىء من سوء الظن بالنسبة الى المسائل الدينية والاصول المذهبية ، ذلك لان أوربا اتخذت القاعدة الأساسية لعلومها التجربة والحس ، وأهملت اهمالا كلياً ما يتعلق بما وراء الطبيعة وربما عملت على انكارها وابادتها وابعادها عن المجالات العلمية.

ان وفود هذا النوع من الفكر المزيج بسوء الظن بالمسائل الغيبية والمعارف الالهية ، دعا البعض الى الابتعاد عن الدين، والالحاد فيه ، كما دعا البعض الاخر الى تأويل الايات بما يوافق الاتجاه الفكري المعاصر ، وآل بهم الامر الى أن يأولوا الايات المصرحة بمعاجز الانبياء ، والروح، والجن ، والبرزخ، بتأويل يوافق الاسس المادية والطبيعية (١) .

كما ان تقدم العلوم الطبيعية في مجالات مختلفة ، دفع بعض الباحثين الى أن يفرطوا في تأويل الايات حسب الاسس الطبيعية والنواميس الكونية ، كأن القرآن كتاب في الكيمياء والفيزياء وليس له أهداف اخرى .

وفي مطاوي بعض الكتب التفسيرية المؤلفة في هذا القرن ، نرى الاتجاه

---

(١) هذه الظاهرة المادية تبرز بوضوح فى تفسير السيد احمد خان الهندى والطنطاوى وفى « المنار » وتلامذة مدرسته قليلا .

العلمي والفكري الغربي بوضوح، في عرض المسائل القرآنية وتحليلها، وهي تحاول بكل ما تملك من القوى أن توفق بين المفاهيم القرآنية الاجتماعية والاخلاقية ، وبين النظريات الغربية ، كأنها كتبت للتوفيق بين المدرسة الالهية والمدرسة الاروبية المعاصرة .

ان هذا الفريق من الباحثين جلبتهم العقيدة الدينية بالقرآن الكريم وتقديسه والاذعان به، وانجرفوا من جهة أخرى في تيار المدنية الغربية المبنية على أساس انكار المقدسات والمعنويات أوارضاء لميولهم الخاصة نحو هذه المدنية، عملوا جادين في تأويل الايات بالطريقة التي ذكرناها .

نزول القرآن نجوماً

لاشك ان الايات القرآنية نزلت تدريجاً ، على قلب الرسول صلى الله عليه وآله طيلة ثلاث وعشرين سنة ، ولا نريد في هذا المجال ، الحديث عن علة نزول القرآن هكذا لانه تحدث هو عن هذا في بعض الايات (١) .

وانما الذي يهمنا الحديث عنه هنا هو : ان القرآن لم يكن كتاباً من صنع البشر يتكون من أبواب وفصول ويبحث فى كل موضوع عن نقطة خاصة ، وانما هو كتاب سماوي أنزله الله تعالى لارشاد البشر الى المبدأ والمعاد والتكامل الروحي والجسمى ، ولايحتاج مثل هذا الكتاب الى التنظيم والالتزامات المتبعة في المؤلفات الاخرى ولا جل ذلك فله خصائص لا توجد في غيره ونشير الى بعضها فيما يلي :

١ ـ تنتقل الايات من موضوع الى موضوع آخر لمناسبات تستدعي الانتقال اذ ربما تذكر عدة مواضيع في سورة واحدة، هدفها الوعظ، والارشاد، وايقاظ

(١) « وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا » (الفرقان ـ ٣٢) .

الضمير ، والعطف نحو العقل والحكمة ، فجاءت تلكم المواضيع واحدة بعد أخرى ، يجمعها ذلك الهدف الخاص ، ولكن يسبق الى اذهان بعض ان لاربط وثيق بينها ، الا انه يجد عند الدقة والتدبر، نوعاً خاصاً من الارتباط الذي يسلك عقودها في سلك واحد ووجود هذا القسم من الايات الكثيرة، من الوفرة بحيث يغنينا عن التمثيل لها هنا .

٢ـ اهمية توجيه الفكر الانسانى، وفطرته نحو الهدى والحق من جانب وايقاظ الضمائر الميتة الكامنة، في نفوس مريضة من جانب آخر ، تستدعى تكرار بعض الموضوعات في مناسبات شتى، والعود اليها بمختلف الاساليب البيانية، وهذا في تكرار الخطابات من الاهمية بمكان وهو من المحسنات التي لابد منها في الكلام الموجه الى الناس بشكل عام .

مثلا اننا نرى القرآن الكريم يكرر في مناسبات شتى موضوع الاعتبار من حياة الامم السالفة والملوك والجبابرة والطغاة الماضين كما انه يذكر موضوع « سيروا في الارض » في اكثر من مناسبة واحدة ، وفلسفة هذا التكرار والعود الى الموضوع مرة بعد أخرى هي ما ذكرناه .

٣ ـ ربما يتحدث القرآن الكريم فى سورة عن جانب خاص من جوانب قصة أو موضوع متعدد الجوانب، واسع الاطراف لتعلق ذاك الجانب الخاص فقط بما يقصده من الكلام دون سائر جزئياتها وتفاصيلها ، ثم يعود فى سورة اخرى الى تلك القصة أو ذلك الموضوع ليذكرها بتفاصيلها وجزئياتها. واكثر ما نشاهد هذا فى قصص الامم الماضية للاعتبار بها، وهذه طريقة ضرورية لكتاب أنزل لهداية الناس وانتشالهم من الضلال .

٤ ـ يتبع القرآن طريقة التدرج، فى بيان مفاهيمه العقلية ومعارفه التربوية فيستدل مثلا على مفهوم من مفاهيمه فى بعض السور باستدلال ، ثم يعود الى استدلال اخر لنفس المفهوم فى سورة أخرى. وبهذا توزع الادلة فى عدة أمكنة

وتذكر حسب المناسبات التي تقتضي ذلك .

مثلا ان موضوع المعاد والرجوع الى حياة جديدة من المسائل الاسلامية والقرآنية المهمة التى ركز على اثباتها القرآن، فاستدل له بأدلة ستة (١) ولكنها موزعة ، لكل واحدة منها فى مكانها نكتة خاصة .

* * *

(١) ان الفكرة تتضح ابعادها، وتنكشف جوانبها، اذا تعددت الاستدلالات عليها من طرق شتى، والمثال على ذلك حديث البعث والمعاد فى القرآن الكريم ، فقد استدل القرآن على امكانه ووقوعه بطرق ستة ، ونحن نذكرها فى المقام على وجه الاجمال ونكتفى فى بيان كل طريق ، بآية واحدة ، مع كثرتها فى كل باب .

١ ـ الاستدلال بعموم قدرته على كل شىء كما فى قوله سبحانه : « الم يروا ان الله الذى خلق السماوات والارض ولم يعى بخلقهن ، بقادر على ان يحيى الموتى بلى انه على كل شىء قدير » (الاحقاف ـ ٣٣) .

٢ ـ قياس الاعادة على الابتداء كما فى قوله سبحانه «كما بدأنا اول خلق نعيده » (الانبياء ـ ١٠٤) .

٣ ـ الاستدلال على امكان احياء الموتى ، باحياء الارض بعد موتها بالمطر والنبات كما فى قوله سبحانه : « ويحيى الارض بعد موتها وكذلك تخرجون » (الروم ـ ١٩) .

٤ ـ قياس قدرة الاعادة ، على قدرة اخراج النار من الشجر الاخضر كما فى قوله سبحانه : «قل يحييها الذى أنشأها اول مرة وهو بكل خلق عليم ، الذى جعل لكم من الشجر الاخضر ناراً فاذا انتم منه توقدون » (يس ٧٩ ـ ٨٠) .

وسيوافيك فى بحث المعاد ان للاية معنى آخر الطف بكثير مما ذكره المفسرون ، ورائدنا فيه التدبر فى ذيل الاية ، وما كشفه العلم الحديث فى حقيقة الحرارة الكامنة فى الاشجار وحقيقة انطلاقها منها عند الاحتراق .

٥ ـ الاستدلال بالوقوع على الامكان فان أدل دليل على امكان الشىء وقوعه ولاجل ذلك نقل سبحانه قصة بقرة بنى اسرائيل (البقرة ٧٣ ـ ٦٧)، وحديث عزير (البقرة ـ ٢٥٩).

٦ ـ الاستدلال ببعض المنامات الطويلة التى امتدت ثلاث مئة سنين فان النوم اخو الموت ولاسيما الطويل منه كما ان القيام منه يشبه تجدد الحياة وتطورها .

هذه الخصائص القرآنية التى استعرضنا بعضها، تدفعنا الى أن نشبه القرآن الكريم بحديقة غناء مليئة بالازهار الملونة، والورود المنوعة، وقد وزعت توزيعاً طبيعياً جميلا تأخذ بالابصار، فهى بالرغم من أنها موزعة الان فيها طرافة وظرافة، لان كل واحد منها وضع فى مكانه اللائق به .

الجمود فى التفسير

ان استعراض كتب التفسير وملاحظتها بشىء من الامعان، توصلنا الى حقيقة غير خافية ، وهى : ان علماء الاسلام مع شدة اهتمامهم بالتفسير وفهم الايات والكشف عن معانيها ، لم تتطور مؤلفاتهم التفسيرية بالقدر الذي يجب أن تتطور طيلة القرون الاربعة عشر الماضية .

فمع غض النظر عن طائفة من التفاسير المهمة المعاصرة، نرى أن التفسير لم يتم ولم يتكامل عند السنة والشيعة منذ تفسير «الطبرى» الى «المنار» وتفسير « التبيان » الى « الميزان » .

ومن العوامل التى سببت الجمود المذكور، أن التفاسير سارت على وتيرة واحدة فى تفسير القرآن سورة فسورة ، ففسروها من البدء الى الختم أو فسروا بعضها على الترتيب المذكور، ولم يهتموا فى كتابة التفسير بالتفسير الموضوعى(١) الذى يقتضيه نزول الايات نجوماً وتوزع الايات الراجعة الى أكثر الموضوعات فى امكنة وسور من القرآن .

التفسير الموضوعى للقرآن الكريم

وما ذكرناه حول نزول القرآن التدريجى وألمعنا الى ما فيه من الخصائص

(١) نريد من « **التفسير الموضوعى** » تفسير القرآن على حسب الموضوعات التى وردت فيه وبحث عنها القرآن فى مواضع مختلفة مقابل تفسيره على حسب السور والايات.

يقتضى أن يفسر القرآن أيضاً حسب الموضوع الى جانب تفسيره على ترتيب السور، فتجمع آيات كل موضوع فى مكان وتفسر مجموعتها لئلا تتشتت الجوانب المختلفة .

مثلا المفسر الذي يحاول التعمق فى الحديث عن السماء والارض على ضوء القرآن الكريم ، أو يريد أن يبحث بحثاً مستوفى عن المعاد، أو يستعرض قصص بني اسرائيل ، أو يحكم فى أفعال الانسان من جهة الجبر والاختيار ، أو يكشف عن المعارف الاسلامية المتعلقة بافعال الله تعالى من قبيل الارادة والهداية والضلال والقضاء والقدر ... لابد أن يتبع الطريقة الموضوعية التي ذكرناها ليتمكن من جمع أطراف الموضوع جمعاً كاملا شاملا .

من جملة الاسباب التى دعت الى ظهور عقائد مختلفة بين المسلمين، وتشبث كل صاحب عقيدة بطائفة من الايات، أنهم وجهوا اهتمامهم الى آيات خاصة لتركيز معتقداتهم ، وأهملوا الايات التي تكشف لهم آفاقاً أخرى ، وتوضح لهم النقاط التى زلوا فيها ، ولو انهم كانوا يلاحظون فى كل مسألة من المسائل العقائدية الايات بمجموعها لدرأوا عن أنفسهم الوقوع فى هذه المهاوي السحيقة .

ومن باب المثال نذكر بهذا الصدد أصحاب مذهب الجبر فى افعال الانسان أو مذهب التفويض فيها فانهم ابتلوا بما ذكرناه وخبطوا خبط عشواء فى فهم المقاصد الالهية وتفسيرها .

أجل يمكن القول بأن العلامة المجلسى هو أول من استعمل اجمالا هذه الطريقة (التفسير حسب الموضوع) ، فانه فى كتابه «بحار الانوار» جمع الايات المربوطة بكل موضوع فى أول الابواب ، وفسرها تفسيراً سريعاً بلا استنتاج منه. وهذه الخطوة القصيرة خطوة جليلة في عالم التفسير نأسف على أن المفسرين بعده لم يسيروا على ضوئها. ولا يمكن تفسير القرآن بالقرآن، والاستفادة الكاملة منه ، وتلقى مفاهيمه العالية الصحيحة الا بالمنهج المذكور .

اوليات الطريقة الموضوعية فى التفسير

لاشك أن الطريقة الموضوعية فى التفسير التى نتحدث عنها فى هذا المجال طريقة ، لم ينهجها علماء التفسير حتى الان ، كما قلناه وعليه نعتقد أن فيها كثيراً من الصعوبات التى تعترض سيرها، فان تنظيم الايات وتقسيمها حسب الموضوعات أمر لا يتم بعمل فردي ، بل لابد من لجنة تتولى هذا العمل ، ويجب أن يكون أعضاء اللجنة اناساً علماء لهم الخبرة الطويلة، والاختصاص في الفروع العلمية المختلفة ، وممارسة طويلة فى الايات القرآنية وفهم معانيها واستنباط مقاصدها ودرك مفاهيمها العالية .

ونقترح أن تتبع هذه اللجنة الارشادات التالية :

١ ـ تقرأ الايات واحدة واحدة بدقة وامعان لافرازها موضوعياً، ثم يهيأ فهرس دقيق للموضوعات الواردة فى القرآن والمبحوث عنها فى آياتها ليعلم بصورة مؤكدة عدد ما جاء فيها من المباحث المختلفة ، وما ورد فى كل واحد منها ، من الايات .

٢ ـ تهيا بطاقات خاصة بكل موضوع ، لتكتب فيها آياته . والاحسن في هذا أن تصور هذه البطاقات في عدة نسخ ، لتوضع في متناول أيدى الباحثين والمحققين ليقرأوها ويبدوا ملاحظاتهم ونقودهم ، وبعد المداولة في شأنها من قبل العلماء ، تطبع بصورة نشرات حسب الحروف الهجائية وتوزع في اطار واسع ليطلع عليها المعنيون في الاقطار .

٣ـ وبعد ان تنتهي اللجنة من فهرسة الايات كما ذكرناه، يدعى كبار الشخصيات الاسلامية العلمية ليتولى كل واحد منهم، موضوعاً حسب اختصاصه، فتقدم اللجنة لهم الموضوعات التي تم فهرستها، ليختار هو الموضوع الذي جمعت آياته في البطاقات الخاصة به ، ويكتب حولها ما يرى من البحوث والدراسات .

والنتيجة الحاصلة من هذه الجهود المشتركة المبذولة من قبل كبار علماء الاسلام انه تكتب للقرآن الكريم دائرة معارف كبيرة ملؤها التحقيق والبحث العلمي لتبرز ما فيه من الحقائق التي لازالت خفية حتى الان .

ان هذا العمل الجبار بالاضافة الى ما يحتاج الى ميزانية ضخمة ، يحتاج الى لجنة مركزية تكون همزة وصل بين علماء الاسلام القاطنين في اقطار نائية بعيدة الاطراف فانه لايتم عمل كبير كهذا العمل الا باللجنة المركزية، فهي التي تنتخب الاعضاء الذين يقومون بفهرسة الايات، وهي التي تصور البطاقات وتعرضها على الباحثين والناقدين وبعد التنسيق الدقيق تنشرها في نشرات متسلسله، وهي التي تتصل بالشخصيات العلمية لكتابة التفسير كما ذكرناه.

ان هذا الاقتراح ربما يكون كبيراً وغيرقابل التنفيذ في راى البعض، الاأنه بسيط عند ذوي الهمم العالية والعاملين في حقول العلم والثقافة ، فقد قامت جمعيات دينية قبل هذا بأعمال مشابهة، لكتبهم المنسوبة الى السماء ، وكان جهدهم من الطرافة بحيث أظهر كتبهم المحرفة بحلل زاهية تأخذ بالابصار وتثير اعجاب القارئين لها .

ونحن نأمل أن يتصدى مراجع الدين وكبار العلماء لتحقيق هذه الامنية، فيتداولوا بينهم الامر لازالة العوائق عن الطريق وتيسير المقدمات الاولية وتعيين نقطة الانطلاق لهذا المشروع الديني العلمي .

منهجنا في هذا الكتاب

بعد ان أمضى مؤلف هذا الكتاب خمس عشرة (١) سنة في دراسة القرآن

(١) بدأ المؤلف بالبحث عن خصوص هذا النمط من التفسير منذ عام ١٣٨٨ هـ بعدما صرف شطراً من عمره في تفسيره على النمط الاخر اعني تفسير القرآن على حسب السور .

الكريم دراسة مستوعبة وكتابة تفاسير لبعض السور ، أجمع عزمه على كتابة نماذج من التفسير الموضوعي المقترح، ليعبد الطريق للمحققين الذين يحلو لهم السير في هذا السبيل ومن الطبيعي ان مثل هذا العمل الاسلامي الكبير خارج عن نطاق شخص واحد ، ويحتاج الى ذوي الاختصاص من العلماء كما ذكر سابقاً، ولكن بدىء به من زاوية ، كان المؤلف قد أشبعها بحثاً و دراسة وهيأ موادها من ذي قبل .

انه فكر في نفسه : ربما لا يتحقق هذا الامل الجديد ، أو لا يسعفه الاجل في أن يرى انجازه كما يتصوره ويود انجازه، فعزم على ان يخطو خطوة نحوه ورائده «الميسور لا يسقط بالمعسور» وعندما يهيء الله تعالى جماعة من محققى الاسلام لهذا المشروع ، يمكنهم اعتبار هذا الكتاب جزءاً من دائرة معارف القرآن بعد سد ما يرون فيه من النقص الذي هو من لوازم عمل الفرد .

* * *

لقد اخترنا من بين الموضوعات الكثيرة التي وردت في القرآن الكريم تفسير هذه المواضيع :

١ ـ الاسلام شريعة عالمية لا اقليمية .

٢ ـ الخاتمية في الذكر الحكيم وان الرسول الاعظم هو خاتم الانبياء .

٣ ـ النبى الامى في القرآن المجيد .

٤ ـ علم الغيب في الكتاب العزيز .

٥ ـ اسماء النبي وصفاته في القرآن العزيز .

ولما خرج هذا الجزء الى البياض، عرضته على الاستاذ العلامة ، المفكر الاسلامي الكبير السيد محمد حسين الطباطبائى ـ دام ظله الوارف ـ مؤلف الكتاب القيم « الميزان في تفسير القرآن » وغيره من الاثار الخالدة ، فقدره

واستحسنه وشجعني على مواصلة العمل ، وتفضل بكلمة (١) سجلتها في صدر الكتاب لتبقى ذكرى خالدة من عواطفه الكريمة المبذولة لاحد تلامذة مدرسته وللاستاذ ـ روحي فداه ـ مني تحية عبقة وتمنيات خالصة .

وفي الختام لو ترتب ثواب على عملي الضئيل فانما اهديه :

الى من أنا مدين له في كل شيء حتى في هذه الدراسات التي بين يديك.

الى اول من فتح قلبى على اشعة نور القرآن وأرشد عقلي الى الاهتداء بهداه.

الى سيدى الوالد آية الله الشيخ محمد حسين السبحانى (٢) تغمده الله برحمته والله ولى التوفيق . . .

قم ـ ايران **جعفر السبحانى**

٢٠ جمادى الاخرة ١٣٩٣ هـ

---

(١) وقد أتتنا كتب ورسائل من الشخصيات العلمية بعد انتشار هذا الجزء لاول مرة نشرنا بعضها فى مقدمة الجزء الثانى وقد وافاك بعضها فى اول هذا الجزء من هذه الطبعة.

(٢) لبى دعوة ربه ضحوة يوم الحادى عشر من شهور عام ١٣٩٢، سعيداً نقى الصحيفة ودفن فى مقبرة العلماء بقم بعدان شيع جنازته الزكية حشد من العلماء وشيوخ الحوزة العلمية وقدحك على صخرة قبره هذان البيتان :

ان الذى صنع الجميل مخلد **لاسيما فى العلم والعرفان**

فاذا انقضت ايام مدة عمره **فجميل صنع المرء عمرثان**

تجد ترجمته الضافية فى مقدمة كتابه «نخبة الاهاز» بقلم العلامة الحجة السيد احمد الاشكورى دام ظله. رحم الله الماضين من علمائنا العاملين ووفقنا للاهتداء بهداهم والسير على ضوء تعاليمهم انه خير موفق رحمين .

«١»

عالمية الاسلام

على ضوءِ القرآن المجيد

فى هذا الفصل

١ ـ مكاتيب النبى الى الملوك ورؤساء القبائل .

٢ ـ النصوص القرآنية فى عالمية الرسالته .

٣ ـ البرهان على عمومية رسالته بوجه آخر .

٤ ـ الدعوة الى الفطرة أساس الاحكام الاسلامية .

٥ ـ الاسلام يكافح المبادىء الرجعية .

٦ ـ نظرة فى الايات المشعرة بعدم العمومية.

٧ ـ هل كانت نبوة نوح عالمية .

٨ ـ هل كانت نبوة الكليم عالمية.

٩ ـ موقف الكليم من القبطيين وغيرهم .

١٠ ـ هل كانت نبوة المسيح عالمية.

١١ ـ اسئلة واجوبة فى المقام .

١٢ ـ ماالمراد باولى العزم من الرسل؟

عالمية الاسلام على ضوء القرآن الكريم

الحديث عن دعوة الرسول (ص) متعدد الجوانب ، واسع الابعاد ، بعيد الاغوار، وبالرغم من سعة مجالات القول، وجوانب البحث فيها ، فاننا نحاول بهذه النظرة الثاقبة الفاحصة ، أن نتحدث عن ناحية خاصة لدعوة الرسول(ص) وانها دعوة عالمية لااقليمية، وهي من أبرز الخطوط التي يستهدفها القرآن بشأن دعوته ورسالته .

نحن في رحاب القرآن الكريم ، نسمع نداءه العالمي ، وان فصلتنا عنه حقب بعيدة من الزمان ، ونعي صراحته ومجاهرته : بأن الاسلام عقيدة لا ينفرد بها شعب أو مجتمع بعينه ، ولا يختص ببلد ، أو بلاد معينة ، بل هو دين ذو قوانين تسري على الافراد على اختلافهم: في العنصر، والوطن، واللسان ، ولا يفترض لنفوذه حاجزاً بين بني الانسان ، ولا يعترف بأية فواصل وتحديدات جنسية ، أو اقليمية .

فهذا تاريخ دعوته ، وسيرته في نشر دينه، نتطلع اليه بشوق ولهفة ، حيث يبدد الدياجير من أمام أبصارنا ، وبصيرتنا ، ويقرب لنا الواقع دونما تكلف ، أو اصطناع .

كانت دعوة الرسول (ص) في بدء أمرها تدور بين أهله وعشيرته ، ممتثلا

لما أمره الله سبحانه بذلك ، بقوله : « وانذر عشيرتك الاقربين » (١) ، والسر فى ذلك ان النفوذ فى الال والعشيرة ألزم وأسهل من الاجانب والاباعد .

مضى رسول الله (ص) فى دعوته السرية ثلاث سنين ، وهو ينذر طيلة تلك المدة قومه وعشيرته ، ويؤمى الى عموم دعوته تارة ، ويجاهر بذلك أخرى ، ويستنتج ان دعوته وشريعته عالمية ، سوف تعم العالم كله ، ولا تحبس باطار خاص .

قال (ص) فى خطاب ألقاه فى داره ، حينما وفد اليه أعمامه وأخواله و من كانت له به صلة :

« والله الذي لا اله الا هو ، انى رسول الله اليكم خاصة ، والى الناس عامة (٢) والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، وأنها الجنة أبداً ، والنار أبداً » (٣) .

ثم انه كان ينتهز الفرص ، التى تسنح له للاجهار بدعوته ، الى ان أمره تعالى بان يصدع بما أمر به ، وأن ينادي الناس عامة باتباع دينه وشريعته ، امتثالا لما أمره سبحانه به ، بقوله :

« فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين » (٤) .

فصعد رسول الله (ص) على الصفا وهو يهتف ويقول : واصباحاه! فاجتمع الناس حوله ، فقال : ان اخبرتكم ان خيلا تخرج من سفح هذا الجبل تريد ان تغير عليكم ، أكنتم تكذبونى؟ قالوا : ماجربنا عليك كذبا ، فقال : يامعشر قريش انقذوا أنفسكم من النار ، فانى لا اغنى عنكم من الله شيئاً ، انى لكم نذير مبين

(١) الشعراء : ٢١٤ .
(٢) أليس هذا تصريحاً بعمومية رسالته فى بدء دعوته .
(٣) الكامل لابن الاثير ج ٢ ص ٤١ .
(٤) الحجر ـ ٩٤ .

بين يدي عذاب شديد، انما مثلي ومثلكم كمثل رجل رأى العدو، فانطلق يريد أهله فخشى أن يسبقوه الى أهله، فجعل يقول: ياصباحاه، ياأصباحاه وتيتم أو تيتم(١).

هكذا بدأت الدعوة الاسلامية ، وهو (ص) يخطو خطوات قصيرة ، يجابه ضوضاء الالحاد بحكمه وعظاته حتى دخل في الاسلام بعض الشخصيات البارزة ممن كانت لهم مكانة مرموقة بين الناس ، وانجذبت اليه قلوب كثير من الشبان وأصبحت أفئدتهم تهوى اليه، غير أن الجو المفعم بالاحن والضغائن عرقل خطى دعوته ، وتفاقمت جرائم قريش نحوه ، فأجمعوا أمرهم على أن يخفقوا ندائه ، بانهاء حياته واطفاء نوره ، حيث اجتمع سادتهم في دار الندوة ، وأجمعوا على أن يأخذوا من كل قبيلة فتى شاباً، ويسلموا له سيفاً صارماً، وأوصوا هؤلاء الشباب بأن يضربوه ضربة رجل واحد ، حتى يموت ، فيستريحوا منه ، وبذلك يتفرق دمه في القبائل جميعاً ، ولا يقدر بنو هاشم ، ثم على حربهم .

ولكن الله رد كيدهم ، وصدهم عن ذلك ، وخيب حيلتهم ، وأخبر الرسول صلى الله عليه وآله عن المكيدة الداهمة ، فغادر مكة متوجهاً الى « يثرب » حتى دخلها ، فاجتمع حوله رجال من الاوس والخزرج ، وبايعوه ، ووعدوه بالنصر ، والمؤازرة والحراسة .

والرسول (ص) وان غادر مكة ، وترك قومه، الا أن قومه لم يتركوه ، بل أججوا نار الشحناء عليه ، ودارت بينهم وبين الرسول حروب دامية، وحملات طاحنة ، وبذلت قريش آخر ما في وسعها ، ورمت كل ما في كنانتها ، وبالغت في تقويض الاسلام ، وهدم بنائه ، الى أن دخل العام السادس ، من الهجرة ، فتعاهد الفريقان في أرض الحديبية على هدنة تدوم عشر سنوات ، بشروط خاصة.

هذا الحلف الذي تحالف به المسلمون في الحديبية ، انقلب الى فتح مبين للاسلام ، فانتهز الرسول (ص) الفرصة لنشر دعوته في البلاد البعيدة ،

---

(١) السيرة الحلبية ج ١ ص ٣٢١ ، المقصود : هو جمتم من قبل العدو .

فبعث سفراءه وفى أيدى كل واحد كتاب خاص الى قيصر الروم، وكسرى فارس وعظيم القبط، وملك الحبشة، والحارث بن أبى شمر الغسانى، ملك تخوم الشام، وهوذة بن على الحنفى ملك اليمامة، بل الى رؤساء العرب، وشيوخ القبائل، والاساقفة، والمرازبة، والعمال، يدعوهم الى دين الاسلام، الذي هو دين السلام، ورسالته من الله وما انزل اليه من ربه.

وهذه المكاتيب أول دليل على أن رسالته، عالمية لا تحدد بحد، بل تجعل الارض كلها مجالا لاقامة هذا الدين، ودونك نماذج مماورد فى تلكم الرسائل:

١ ـ كتب الى كسرى، ملك فارس:

« بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله الى كسرى عظيم فارس: سلام على من اتبع الهدى ... أدعوك بدعاية الله فاني أنا رسول الله الى الناس كافة، لانذر من كان حياً، ويحق القول على الكافرين، أسلم تسلم، فان أبيت فعليك اثم المجوس » (١).

٢ ـ وكتب (ص) الى قيصر ملك الروم:

« بسم الله الرحمن الرحيم، الى هرقل عظيم الروم: سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فانى أدعوك بدعاية الاسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله اجرك مرتين فان توليت فانما عليك اثم الاريسيين » (٢).

وما ذكرناه نماذج من رسائله، وكتاباته الابلاغية، وفيه وفى غيره مصارحة شديدة بأنه رسول الله الى العرب والعجم، والى الناس كلهم، من غير فرق بين اللون، والجنس، والعنصر والوطن، ويمتد شعاع رسالته بامتداد الحضارة، ووجود الانسان، وانه (ص) يكافح كل مبدأ يضاد دينه، وكل رسالة تغاير رسالته، وقد جرى الرسول (ص) عليه طيلة حياته الرسالية، حتى التحق بالرفيق الاعلى.

(١) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٢٩٥، تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٦١ وغيرهما.

(٢) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٧٥، مسند احمد ج ١ ص ٢٦٣ وغيرهما.

يقول سير توماس ارنولد : « ان هذه الكتب قد بدت في نظر من ارسلت اليهم ضرباً من الخرق ، فقد برهنت الايام على انها لم تكن صادرة عن حماسة جوفاء . وتدل هذه الكتب دلالة اكثر وضوحاً وأشد صراحة على ماتردد ذكره في القرآن من مطالبة الناس جميعاً بقبول الاسلام ». فقد قال الله تعالى في سورة ص ٣٨ - ٨٧ - ٨٨ : « ان هو الا ذكر للعالمين ولتعلمن نبأه بعد حين ». وفي سورة يس : « وما علمناه الشعر وما ينبغي له ان هو الا ذكر وقرآن مبين، لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين » ٣٦ - ٦٩ - ٧٠ . وفي سورة الفرقان: «تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا» ٢٥ - ١. وقال سبحانه: « وما ارسلناك الا كافة للناس ، بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون » سورة سبأ ٣٤ - ٢٨ . وقال : « قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعاً » سورة الاعراف ٧ - ١٥٨. «ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الاخرة من الخاسرين » سورة آل عمران ٣ - ٨٥ . وقال: « ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفاً » سورة النساء ٤ - ١٢٥. وقال: « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الاخر ولا يحرمون ماحرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ، ذلك قولهم بأفواههم يضاهؤن قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون. اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما امروا الا ليعبدوا الهاً واحداً لا اله الا هو سبحانه عما يشركون. يريدون أن يطفؤا نور الله بأفواههم ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون» التوبة ٩-٢٩-٣٣، (١).

---

(١) الدعوة الى الاسلام ص ٣٤ .

تأثير تلكم الكتب :

ومما يدل على أن هذه الكتب لم تصدر عن حماسة جوفاء ، انه قد كانت لها أثر بديع فى أكثر هذه الاوساط، اذ تجاوبت معها شعور كثير منهم، فهبتهم من رقدتهم، ونهضتهم من كبوتهم، فأصبحوا متفكرين من ملب لدعوته، وخاضع لرسالته ، ومؤمن بما اتاه ، الى معظم لرسله ، ومجيز لهم ، ومكبر اياه بارسال التحف الثمينة ، ودونك صورة مصغرة مما أثارته تلكم الكتب فى هذه البيئات، وقد روى أصحاب السير والتاريخ أموراً كثيرة يطول بنا المقام بذكرها :

قال قيصر لاخيه ، حين أمره برمي الكتاب : أترى أرمي بكتاب رجل يأتيه الناموس الاكبر . وقال لابى سفيان : ان كان ما تقول حقاً فانه نبي، ليبلغن ملكه ما تحت قدمى .

وخرج ضغاطر اسقف الروم بعد قرائة الكتاب، الى الكنيسة وقال فى حشد من الناس : يا معشر الروم انه قد جاءنا كتاب أحمد، يدعونا الى الله وانى اشهد أن لا اله الا الله وأن أحمد رسول الله .

وقال المقوقس : انى قد نظرت فى أمر هذا النبي، فوجدته لا يأمر بمزهود فيه ، ولا ينهى عن مرغوب فيه ، ولم أجده ساحراً ضالا ، ولا كاهناً كذاباً .

وكتب فروة عامل قيصر بعمان الى رسول الله كتاباً ، اظهر فيه اسلامه ، فلما اطلع عليه قيصر اخذه واستتابه ، فأبى ، فأمر بقتله ، فقال حينما يقتل :

بلغ سراة المسلمين بأننى سلم لربي أعظمي وبناني

وكتب هوذة بن على ملك اليمامة الى رسول الله : ما أحسن ما تدعو اليه وأجمله .

ولبى المنذر بن ساوى ملك البحرين دعوة الرسول وأظهر اسلامه .

وأجابه ملوك حمير ، وأساقفة نجران ، ولباه عمال كسرى باليمن ، واقيال

حضر موت ، وملك ايلة ، ويهود مقنا بالاسلام ، أو باعطاء الجزية .

وكتب النجاشي ملك الحبشة، كتابه المعروف ، وأظهر اسلامه، الى درجة صلى عليه النبى (ص) عند ما بلغه موته (١) .

هذا غيض من فيض ، وقليل من كثير ، من تأثير دعوته العالمية ورسالته العامـة .

نعم قد شذ منهم كسرى ـ ومن لف لفه ـ وهو ذلك الملك الذي ورث السلطة والحكم عن اجداده من آل ساسان ، فأبى ان يكون تابعاً للعرب ، وخشى من هذا الدين على شخصه وملكه .

ولاجل ذلك لا تعجب اذا ثارت ثائرة كسرى، فمزق كتاب الرسول، وأرسل الى باذان ، عامله باليمن ، وكتب اليه : « ابعث الى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين جلدين فليأتيانى به » (٢) .

هذه صورة اجماليه من بدء دعوته الى ختامها ، أتينا بها بصورة مصغرة ، ليقف القارىء على ان دعوته لم تكن مقصورة على بلد خاص ، أو شعب خاص بل كانت عالمية غير محدودة، وان مرماه كان هو القضاء على جميع النزعات الاقليمية والمحلية والاديان السالفة ، وتذويبها فى اطار رسالته العالمية الواسعة النطاق ، وأنه (ص) كان يصرح بذلك فى بدء دعوته ، وأثنائها . . ومختتم أمره .

النصوص القرآنية فى عالمية رسالته :

هلم معنا نتلو عليك نصوص القرآن الدالة على ان رسالته ، رسالة عالمية وان دعوته لاتختص باقليم خاص، أوامة معينة، وان مرماه هو اصلاح المجتمع البشري على وجه الاطلاق . ويمكن الاستدلال على ذلك بوجوه :

---

(١) راجع لمعرفة نصوص ما دار بينهم وبين الرسول (ص) الى كتاب «مكاتيب الرسول».

(٢) الكامل ج ٢ ص ٨١ ، السيرة الحلبية ج ٣ ص ٢٧٨ ، الى غير ذلك .

الاول ـ ان كثيراً من الايات تصرح بأن رسالته عالمية ، وانه رسول الله الى الناس جميعاً ، وان الله أرسله رحمة للعالمين ، وأنه بشير ونذير للناس كافة ، وأنه ينذر بقرآنه كل من بلغه كتابه و هتافه ، من غير فرق بين شخص وشخص ، أو عنصر وآخر ، ودونك بعض النصوص من هذا القسم :

١ ـ « قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعاً » (الاعراف ـ ١٥٨)

٢ ـ « وما أرسلناك الا كافة للناس بشيراً ونذيراً » (سبأ ـ ٢٨)

٣ ـ « وأرسلناك للناس رسولا ، وكفى بالله شهيداً » (النساء ـ ٧٩)

٤ ـ « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » (الانبياء ـ ١٠٧)

٥ ـ « تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً »
(الفرقان ـ ١)

٦ ـ « وأوحي الي هذا القرآن لا نذركم به ومن بلغ ... » (الانعام ـ ١٩)
ـ أي كل من بلغه القرآن ، ووصلت اليه هدايته فى أقطار الارض ـ .

٧ ـ « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » (الصف ـ ٩)

٨ ـ «يأيها الناس قدجاءكم الرسول بالحق من ربكم فامنوا خيراً لكم...»
(النساء ـ ١٧٠)

٩ ـ «الكتاب انزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم»
(ابراهيم ـ ١)

١٠ ـ « هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين» (آل عمران ـ ١٣٨)

وهذه الايات ونظائرها ممالم ننقلها، صريحة في ان هتاف النبى(ص) لا يختص بأمة دون امة ، وأنه بعث الى الناس كافة مبشراً ومنذراً لهم جميعاً .

* * *

الثاني : ان القرآن كثيراً ما يوجه خطاباته الى الناس غير مقيدة بشيء، وهذا دليل واضح على أن هتافاتـه وتوجيهاته تعم الناس كافة ، ودونك نماذج من هذا القسم :

١ ـ « يـا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون » (البقرة ـ ٢١)

٢ ـ «ياأيها الناس كلوا ممافي الارض حلالا طيباً، ولاتتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين » (البقرة ـ ١٦٨) . الى غير ذلك . . .

فترى أنه يخاطب الناس ، ويقول : يا أيها الناس . . . تصريحاً منه على أن رسالته السماوية الى الناس كلهم ، لا الى صنف خاص منهم .

فلو كان الاسلام ديناً اقليمياً ، ورسالته طائفية ، فلماذا تأتي هتافاته بلفظ : **« يا أيها الناس »** ؟ ! .

فقد تكرر هذا النداء في الكتاب ستة عشر مرة .

بل لماذا يخاطب أهل الكتاب وينادیهم بقوله : « يا أهل الكتاب » ؟ فقد ورد هذا الخطاب في الذكر الحكيم اثنى عشر مرة .

وربما يستدل في المقام بالخطابات الواردة في القرآن موجهة الى بنى آدم لكن الاستدلال بها لا يخلو من الاشكال، كما سيوافيك بيانه عند البحث عن ختم الدين والرسالة (١) .

* * *

الثالث : ان القرآن ربما يأخذ العنوان العام موضوعاً لكثير من احكامه، من غير تقييد بلون ، أو عنصر، أو ملة أرض خاصة، وهذا يكشف عن أنه بعث الى اصلاح المجتمع البشرى في مشارق الارض ومغاربها ، وأن الرسالة التي القيت على عاتقه لا تتحدد بحد ، ودونك نماذج من هذا القسم :

---

(١) راجع الفصل الثانى من هذا الجزء .

١ ـ «ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا» (آل عمران ـ ٩٧)

فقد أوجب حج البيت على الناس اذا استطاعوا اليه ، عرباً كانوا ، أم غير عرب ، وهو سبحانه لم يقل : لله على الامة العربية ـ مثلا ـ حج بيته .

٢ ـ «والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد» (الحج ـ ٢٥)

٣ ـ « ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم » (لقمان ـ ٦) . فالجملة الخبرية بمعنى الانشاء وتحريم الاشتراء ولذا استدل الفقهاء بها على حرمة كسب المغنيات تبعا للسنة (١) .

فذم سبحانه كل من اشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله كائناً من كان الى غير ذلك من الايات .

* * *

الرابع : يقضى صريح القرآن بان هدايته لا تختص بمجتمع خاص، بل تعم كل من تظله السماء ، وتقله الارض . ودونك بعضها :

١ ـ « يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نوراً مبينا» (النساء ـ ١٧٤)

٢ ـ «شهر رمضان الذى انزل فيه القرآن هدى للناس ...» (البقرة ـ ١٨٥)

٣ ـ « ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون » ، (الزمر ـ ٢٧)

٤ ـ «الكتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور» (ابراهيم ١)

أليست هذه الايات صريحة في ان القرآن نور وهدى للناس كله، لا للعرب خاصة، ومع ذلك كيف يمكن ان نحمل رسالته على انها مختصة بأمة دون امة. هذا ونجد سبحانه يقول : « وآخرين منهم لما يلحقوا بهم و هو العزيز الحكيم » (الجمعة ـ ٢) وما المراد من «الاخرين منهم» اى من المؤمنين؟ أليس المراد كل

(١) راجع المكاسب ص ٣٨ للشيخ الاعظم الانصارى .

من جاء بعد الصحابة الى يوم القيامة من العرب والعجم(١) فالاية دالة على عمومية الرسالة مضافا الى خاتميتها .

هذه جوانب تلقي ضوءاً على البحث ، وتهدف الى أمر واحد : وهو أن رسالته ذات نزعة عالمية ، غير محدودة بحد، فلايحدها قطر، ولا يقيدها شيء آخر من ألوان التحديد والتقييد، نعم مبدأ البرهان في كل واحد منها يختلف مع ما في الاخر ـ كما يظهر ذلك بالامعان والتدبر ـ (٢) .

البرهان على عمومية رسالته بوجه آخر :

وهناك لون آخر من البحث يتصل اتصالا وثيقاً بطبيعة الاسلام ، وبفكرته الكلية، عن الكون والحياة والانسان، ونظرته الوسيعة الثاقبة في التقنين والتشريع وان شئت فاجعله خامس الوجوه :

بيانه : ان الحقائق الراهنة التي جاء بها الصادع بالحق، في مختلف الابواب والفصول ، لا تستهدف سوى تبني الواقع، ولا تأخذ غيره دعامة، ولا تخضع لشرط من الشرائط الزمانية الا لنفس الامر .

وان شئت فقل : ان الاسلام لا يعتمد في احكامه وتشريعاته وما يرجع الى الانسان في معاشه ومعاده، الا على مقتضى الفطرة التي فطر عليها كل بني الانسان والسائدة في كافة افراده، في عامة اقطار الارض جميعاً، واذا كان الحكم والتشريع موضوعاً على طبق الفطرة الانسانية السائدة في جميع الاقطار والافراد ، فلا

(١) مجمع البيان ج ٥ ص ٢٨٤ .

(٢) هذه الوجوه الاربعة تختلف في طريق البرهنة على المطلب ، فقد استدل في الوجه الاول بتصريح القرآن على عموم رسالته، واعتمد في الثاني على شمولية هتافات القرآن وعمومية خطاباته في الفروع والاصول ، وفي ثالثها على أن القرآن كثيراً ما يتخذ العنوان العام لموضوع أحكامه ، وفي رابعها على نص القرآن بأن هدايته وانذاره لايختص بشعب خاص .

وجه لاختصاصه باقليم دون اقليم ، أو بشعب دون شعب (١) .

ولا يجد الباحث مهما أوتي من مقدرة علمية كبيرة فى ماجاء به نبي الاسلام صلى الله عليه وآله ، على سعة نطاقه ، وبحثه فى شتى الجهات ، ومختلف النقاط أي طابع اقليمى، أوصبغة طائفية، وتلك آية واضحة على ان دعوته دعوة عالمية لا تتحيز الى فئة معينة ، ولا تنجرف الى طائفة خاصة .

هذا هو الاسلام وتعاليمه القيمة ومعارفه الاعتقادية ، وسننه التشريعية فأمعن فيها النظرة مرة بعد أخرى ، فهل تجد فيه ما يشير الى كونه ديناً اقليمياً خاصاً ، أو شريعة لفئة محدودة ، فان للدين الاقليمى علائم وامارات ، أهمها أنه يعتمد فى معارفه وتشريعاته على خصوصيات بيئية، أو شرائط محلية، بحيث لو انقلبت تلكم الخصوصيات الى غيرها، أصبحت السنن والطقوس المعتمدة عليها كسراب بقيعة يحسبه الظمأن ماء ، وصار النافع منها ضاراً ، فهل تجد أيها الباحث فى ما جاء به الاسلام شيئاً من تلكم الامارات .

هلم معى نحاسب بعض ماجاء به الاسلام فى مجالات العلم والعمل، ونضعها على طاولة الحساب ، فنكون على بصيرة كاملة فى هذا الموضوع : فقبل كل شيىء ، لاحظ كتاب الله العزيز ، ومعجزة الاسلام الخالدة ، فقد انبثق نوره منذ أربعة عشر قرناً ، حين كانت البشرية تسبح في ظلام دامس مخيف ، ضاعت فيه كرامة الانسان وحريته ، وساد العداء والتنازع بين الناس ، وكان نظام الغاب وحده ، مفزعاً للناس وملجأ اليهم .

وفى تلك الظروف جاء القرآن نوراً يستضيىء به العالم ، ويعيد للانسان كرامته ومكانته وحريته ، مؤسساً لمجتمع قائم على أساس وطيد من العدالة الاجتماعية ، سواء فى ذلك انسان الجزيرة العربية أم غيرها .

هلم معى نستعرض تعاليمه ، فهل نرى آية من آياته الباهرة ، أو قانوناً من

(١) سوف نرجع اليه فى ختام البحث ، ونجعله دليلا مستقلا على عمومية رسالته .

قوانينه ، أو حكمة من حكمه ومعارفه ، أو سنة من سننه ، أوفريضه من فرائضه تنفع في مجتمع دون آخر ؟ تفيد في اقليم دون اقليم ؟ تبلغ بمجتمع خاص الى قمة الرقى والحضارة ، وتسف بجماعة اخرى الى هوة الضلال والجهل؟!.

ليت شعري ماذا يريد القائل من كلمته القارصة، أو فريته الشائنة؟: « الاسلام دين طائفي ، أو مبدأ اصلاح اقليمي ، لا يصح لعامة المجتمعات ، ولا يصلح لعامة القارات ، ولا تسعد به الانسانية على اختلاف شعوبها وطبقاتها » .

ليت شعري ماذا يريد منها ؟ أيريد معارفه العليا في باب الصانع وصفاته ، وما جاء في ذلك الباب من الحقايق الغيبية، والكنوز العلمية، التى لم تحم حولها فكرة انسان قبله ، ولم توجد في زبر الاولين مثلها ، أو شبهها.

فلو اراد ذلك ، فتلك فرية بينة ، اذ الاسلام قد أتى بفلسفة صحيحة وعرفان رصين وتوحيد خالص ، فيه دواء المجتمع البشري في الاقطار كلها .

ترى ويرى كل من له المام بالاسلام انه كافح كل لون من ألوان الشرك، كافح عبدة الاصنام والاجرام السماوية ، كافح كل تعلق بغيره سبحانه، وتخضع لشيىء دون الخالق ، وأنقذ المجتمع البشرى من مخالب الشرك ، ومصائد الضلال، ونهاه عن عبادة حجر لا يعقل أوشجر لا يفهم ، أو حيوان لا يدفع عن نفسه، أوانسان محتاج مثله ، أو غيرها من الارباب الكاذبة، فأعاد للانسان كرامته وحريته ومكانته المرموقة سواء في ذلك انسان الجزيرة أم غيره .

ايحسب هذا القائل ان ذاك التوحيد ، وهذا العرفان مختصان بقوم دون قوم كيف؟ فاذا كان النبى لا يستهدف سوى الواقع ولا يتبنى غيره، وبعبارة صحيحة: اذا كان لا يوحى اليه سوى الحقيقة المجردة عن شوب كذب، فلا وجه لان يختص بأمة دون امة .

ودونك سورة الحديد والايات التى وقعت في صدرها، فاقرأها بامعان وتدبر فهل يعلق الشك بضميرك الحر، بانها تعاليم ومعارف تختص بمنطقة خاصة ولا

تصلح للتطبيق في مناطق أخرى ، الى غير ذلك من الايات الواردة في العقائد والمعارف .

أم يريد ان احكام الاسلام وتشريعاتـه في العبادات والمعاملات والاخلاق وغيرهـا ، قوانين اقليمية ، لا تصلح الا لظروف خاصة ، ولا تفيد الا في شبه الجزيرة العربية ، ولا يسعد بها الا انسانها ، دون اناس المناطق الاخرى، الأن تلك فريـة بينة ليست فيها مسحة من الحق أو لمسة من الصدق ، فهذه فروعـه ودساتيره وفرائضه واحكامه . لا تجد فيها أثراً للطائفية أو أمارة للاقليمية .

ضع يدك على النظام الاجتماعي الذي جـاء به الاسلام في أبواب النكاح والزواج ، وأحكام الاولاد والنشوز والطلاق والفرائض ، واصلاح حال اليتامى وانفاذ الوصايا ، والاصلاح بين الناس ، واداء الامانة ، وحسن السلوك معهم ، والتعاون والاحسان، الى غير ذلك ممايجده الباحث في النظام الاجتماعى للاسلام.

ضع يدك على النظام الاخلاقى الذي فاق به الاسلام ، كافة الانظمة الخلقية التي كانت قبله ، أو تأسست بعده، فأمر بالصدق وأداء الامانة، والصبر والثبات وحسن الظن بالناس، والعفو والغفران والقرى والضيافة، والتواضع ، والشكر والتوكل ، والاخلاص في العمل الى غير ذلك مما أمربه، أوما نهى عنه كالبخل والاختيال ، والبهتان والغضب ، والاثـرة ، والحسد ، والغش والبغي والخمر والميسر ، والجبن والغيبة والكذب ، والاستكبار والريـاء ، والعجب والتنابز بالالقاب والانتحار والغدر و . . .

ضع يدك على نظامه السياسى فى باب الحكم والسياسة، وما أتى به فى اصلاح نظام الحرب ، ودفع مفاسدهـا ، وقصرها على ما فيه من الخير للبشر ، وايثار السلم على الحرب ، وعلى الانظمة والقوانين التي جـاء بها في أبواب العقود والمعاملات ، فأوجب حفظ المال عن الضياع والاقتصاد فيه وجعل فيه حقوقاً مفروضة ومندوبة ، وأحل البيع وحرم الربا ، ونهى عن الغش والتطفيف ، الى

غير ذلك مما يجده المتعمق فى كتب الفقه والاحكام.

قل لى بربك هل تجد في هذه الانظمة، أوفي ثنايا هذه الابواب والاحكام حكماً أو أحكاماً فيها تفكير طـائفى أو نزعه اقليمية . وان كنت في ريب فاقرأ الايات التالية ومئات نظائرها ، تجدها دواء المجتمع الانسانى فى الاقطار كلها:

١ ـ « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عـن الفحشاء والمنكر والبغى، يعظكم لعلكم تذكرون» (النحل ـ ٩٠). أليست هذه القوانين عماد الاصلاح ، وسناد الفلاح في عامة القارات ؟

٢ ـ هلا كان منه قوله سبحانه : « ان الله يأمركم ان تؤدوا الامانات الـى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » (النساء ـ ٥٨)

وقـد ندد الله باليهود لتجويزهم خيانـة الاميين ، يعني العرب المشركين ومن ليس في دينهم ، وقال: « ومنهم من ان تأمنه بدينار لا يؤده اليك الامادمت عليه قائماً ذلك بأنهم قالـوا ليس علينا فى الاميين سبيـل ، و يقولون على الله الكذب وهم يعلمون » (آل عمران ـ ٧٥)

وليس هذا الا لان دينهم على زعمهم كان طائفياً، فالحرام عندهم هو خيانة يهودي ليهودي مثله لاغير، واما الاسلام فلما كان ديناً عالمياً غير مختص بطائفة دون أخرى، فحرم الخيانة مطلقاً على المسلم والكافر، وذلك آية كونه عالمياً لا طائفياً ولا اقليمياً .

٣ ـ أوليس منه قوله سبحانه: « ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » (آل عمرآن ـ ١٠٤)

وقدعرضنا هذه الايات على سبيل التنويه، فليس معنى هذا، ان ماجاء به الاسلام في طريق اصلاح المجتمع ، محصور في هذا النطاق، فان في كثير من الايات التي لم نأت بها تنويهاً بمختلف الاخلاق الفاضلة الانسانية، والشخصية والاجتماعية

من صدق ، وعدل ، وبر . وأمانة ، وصلة رحم ، ولين جانب ، ووفاء عهد ، ووعد ، ورحمة للضعيف، ومساعدة للمحتاج، ونصرة للمظلوم ، وصبر، ودعوة الى الخير ، وتواص بالحق ، وعدم اللجاج فيه ، والانفاق لله. والدعوة الى الله بالحكمة ، والموعظة الحسنة، والجدال بالتى هى أحسن ، والتعاون على البر والتقوى ، والرغبة في السلم .

كما احتوت آيات كثيرة تنديداً بمختلف الاخلاق السيئة والخصال المذمومة من كذب ، وظلم، وبغى ، واثم ، وقتل نفس، وارتكاب فاحشة ، وانتهاك عرض وافك وزور ، وعربدة سكر ، واسراف ، وتبذير ، وخيانة ، ونكث وغدر ، وخديعة ، وقطع رحم، وأكل أموال الناس بالباطل، وجبن ، وشح وأمر بمنكر وغلظة قلب ، وفظاظة خلق ، ورياء ومكابرة وانتقام باغ ، وتناقض بين القول والعمل وغرور ، وصد عن الحق، الى غير ذلك من مساوىء الاخلاق ومحاسنها التي تجد نصوصها مبثوثة فى القرآن الكريم. وتسهل عليك مراجعتها والاهتداء والتدبر فى معانيها اذا لاحظت كتاب « تفصيل آيات القرآن الكريم » (١) ، و « المعجم المفهرس » (٢) وغيرهما من الكتب والمعاجم .

هذا وقد عاشت الامة الاسلامية بل الانسانية جمعاء (٣) فى ظل هذه الدساتير ونظائرها الوافرة فى اجيال متتابعة ، وفى حقب من الزمان والمكان ، فلو كانت

---

(١) تأليف المسيو جول لابوم ، وقد وضع كتاباً باللغة الفرنسية ، جمع فيه آيات القرآن بحسب معانيها ، ووضع كلا منها فى باب أو أبواب خاصة ، حسب ما فهم منها ، ولكنه اخطأ فى كثير من معانيها، فانه اكتفى فى ترتيبه وتنسيقه بما فهمه من ظواهر الايات حسب اللغة العربية وقواعدها ، من دون أن يرجع الى أسباب النزول ، وسنة النبى وسيرته والائمة من بعده .

(٢) تأليف محمد فؤاد عبد الباقى المصرى .

(٣) اعترف به المستشرق غوستاف لوبون فى آخر كتابه .

مختصة باقليم خاص ، لادت الى التناحر والاندحار فى الاقاليم الاخر ، لا الى الرقى والحضارة (١) .

الدعوة الى الفطرة ، أساس الاحكام الاسلامية :

لقد بنى الاسلام احكامه وتوجيهه فى العلم والعمل على الفطرة الانسانية السائدة في جميع الاقطار والافراد ، فدعا الى التوحيد المطلق ، وقرر مبادىء العدالة والحرية والسماواة والاخاء بين الناس كافة والديمقراطية الحقة ، ونشر العلم والحضارة وقضى على الرذائل والمنكرات، والشهوات الجامحة، والتقاليد البالية ، والخرافات الكاذبة ، والرهبانية المبتدعة ، وأمر بالفضائل والصدق فى القول والوفاء بالعهد ، والاجتناب عن العزوبة بنكاح الحرائر الى غير ذلك من ألوف الاحكام والتشريعات التى اشرنا الى كثير منها وتعتبر بمجموعها دعائم الاصلاح في العالم كله ، ولا تنازع الفطرة بل تطابقها ولا تتخلف عنها قدر شعرة .

فاذا كانت الفطرة الانسانية واحدة فى الجميع ، وكانت الاحكام الاسلامية مبنية عليها فى جانب التشريع ، فلا وجه لان تختص بقوم دون قوم ، وهذا بحث لطيف سوف نرجع اليه ان شاء الله عند البحث عن كون نبي الاسلام خاتم النبيين ، ودينه خاتم الاديان وبه نجيب على الاشكال الدارج على ألسنة بعض المستهترين ممن لا يؤمن بصريح القرآن فى مسألة الخاتمية ويقول: « ان النصوص الشرعية فى الكتاب والسنة محدودة، وحوادث الناس ومقاصدهم متجددة ومتغيرة

(١) نعم كل امة ركنت الى الدعة والراحة ، وحنت الى تقليد عادات الاجانب فى معترك الحياة ، ونسيت مكانتها ورسالتها وقوانينها واخذت بغيرها ، رجعت الى ورائها القهقرى ، وعلى هذا الاساس تعيش الامة الاسلامية فى هذا العصر فى انحاء العالم، فتراها متفرقة الكلمة ممزقة ، تأكلها حثالات الارض .

ولا يمكن ان تفى النصوص المحدودة بالحوادث المتجدده الطارئـة » فارتقب حتى يأتيك الجواب والبيان .

الاسلام يكافح المبادىء الرجعية :

وأدل دليل على ان الاسلام رسالـة عالمية ، انه يكافح النزعـات الاقليمية والطائفية ولا يفرق بين اللون والجنس والعنصر ولا يفضل أحداً الا بالتقوى ، ويزيف كل مقياس سواه ويقول : « يـا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، ان اكرمكم عندالله اتقاكم » (الحجرات ـ ١٣)

كفى له فخراً انه أول من حارب العصبية والنعرات الطائفية ودعا الى الاخوة الانسانية ، والزمالة البشرية ، والانضواء تحت لواء واحد وهو لواء التوحيد المطلق .

أجل حارب العصبية، والنعرات الطائفية في ظل وحدات ثمان ، وهو أول من أسسها وأشاد بنيانها ، أعنى : وحدة الامة ، وحدة الجنس البشري ، وحدة الدين، وحدة التشريع، وحدة الاخوة الروحية ، وحدة الجنسية الدولية، وحدة القضاء ، بل وحدة اللغة الدينية (١) .

وقد بلغت بها الامة الاسلامية في العصور السالفة المزدهرة ، الذروة من المجد والعظمة ، فأصبحت ساسة البلاد وحكام العباد .

أوليس الرسول (ص) وهو قائل تلكم الكلم الدرية التالية، القاضية على كل نعرة طائفية ، والانتماء الى فئة خاصة والاتجاه الى نجاح شعب خاص، فكيف ترمى شريعته بالطائفية وانقاذ جماعة معينة دون غيرها ؟

---

(١) كل ذلك دليل على عالمية تشريعه، وسعة نطاق رسالته، ويجد الباحث فى الذكر الحكيم والاحاديث الاسلامية دلائل واضحة على كل واحـدة من هذه الوحدات ، فلا نقوم بذكرها لئلا يطول بنا المقام وقد بحثنا عنها فى الجزء الثانى.

١ ـ قال (ص) : « أيها الناس ان الله اذهب عنكم نخوة الجاهلية وتفاخرها بآبائها ، ألا انكم من آدم وآدم من طين، ألا ان خير عباد الله، عبد اتقاه »(١).

٢ ـ « ألا ان العربية ليست باب والد، ولكنها لسان ناطق ، فمن قصر عمله لم يبلغ به حسبه » (٢) .

٣ ـ « ان الناس من عهد آدم الى يومنا هذا ، مثل اسنان المشط ، لافضل لعربي على عجمي ، ولا لاحمر على أسود الا بالتقوى » (٣) .

٤ ـ « انما الناس رجلان : مؤمن تقى ، كريم على الله ، وفاجر شقى هين على الله » (٤) .

وللدكتور حسن ابراهيم حسن هنا كلمة قيمة ، يقول :

« ينكر بعض المؤرخين ان الاسلام قد قصد به مؤسسه في بادىء الامر أن يكون ديناً عالمياً برغم هذه الايات البينات ومن بينهم « وليم ميور » اذ يقول :

ان فكرة عموم الرسالة جاءت فيما بعد ، وان هذه الفكرة على الرغم من كثرة الايات والاحاديث التى تؤيدها ، لم يفكر فيها محمد نفسه ، وعلى فرض انه فكر فيها ، كان تفكيره تفكيراً غامضاً ، فان عالمه الذي كان يفكر فيه انما كان بلاد العرب كما ان هذا الدين الجديد لم يهيأ الا لها، وان محمداً لم يوجه دعوته منذ بعث الى أن مات الا للعرب دون غيرهم، وهكذا نرى ان نواة عالمية الاسلام قد غرست ولكنها اذا كانت قد اختمرت ونمت بعد ذلك فانما يرجع هذا الى الظروف والاحوال أكثر منه الى الخطط والمناهج .

وكذلك شك «كيتانى» في ان يكون النبي قد تخطى بفكره حدود الجزيرة العربية ليدعو امم العالم في ذلك الوقت الى هذا الدين .

(١ ـ ٢ ـ ٣ ـ ٤) راجع للوقوف على مصادر هذه الكلمات : روضة الكافى ص ٢٤٨ ، سيرة ابن هشام ج٢ ص ٤١٢، بحار الانوار ج ٢١ ص ١٠٥ ، والشرح الحديدى ج ١٧ ص ٢٨١ وقد اوردنا شطراً آخر من هذه الاحاديث فى الجزء الثانى ص.

ومن الغريب أن يشك «وليم ميور» فى صحة دعوى عموم الرسالة ، وأن يبنى شكه هذا على ان محمداً مـا كان يعرف غير الجزيرة ، وانها كانت عالمه الذي لم يفكر فى سواه ، وان هذا الدين لم يهيأ الا لتلك البلاد ، وأن محمداً منذ بعث الى ان مات لم يوجه دعوته الا للعرب دون غيرهم ، فهل خفيت على ذلك المؤرخ صلة قريش بدول ذلك العهد ، وما اتاحته لها التجارة من دربـة وخبرة بشؤون هذه الامم وأحوالهم ، ران محمداً بوجه خاص قد سافرغيرمرة للتجارة لبلاد الشام ، فقد سافر وهو صبي مع عمه « أبى طالب » فى تجاراتـه حتى اذا بلغ خديجة ما بلغها عـن خبرته وامانته ، القت بمالها بين يديه ، فكان من مهارته وحذقه ما جعلها تعرض عليه الزواج منها ، ثم ظـل يشتغل بالتجارة حتى بعث ، فبعد ذلك يمكن انيقال عنمحمد انه كان لا يعرف غيربلادالعرب وهو رجل عصامي لميكسب مركزه الممتاز فىمكة قبيل البعثة الامن ذكاء عقله وكفاية مواهبه .

هل يستبعد على محمد الذي خرج من مكة ناجياً بنفسه ونفس صاحبه ان يتخطفها الناس لائذاً بأهل المدينة الذين آووه ونصروه ، ثم صبر وصابر حتى عاد الى مكة بعد ثمانى سنين وهو السيد الامر فيها وفى الجزيرة ، تحوم حول شخصه مائة ألف من القلوب أوتزيد ، ومن ورائهم كثيرون من ارجاء الجزيرة العربية يدينون له بالطاعة يقدم عليه رؤساؤها وأكابرها؟ هليبعد علىهذا الرجل ان يرنوا بناظره الى مـا وراء الجزيرة ليبسط عليها سلطانه ، ان كان من محبى السلطة والحكم أو ليفيض عليها من فضل الله الذى غمر الجزيرة ومـلاها عدلا وأمناً ودعة وحباً .

لـو قيل ان الاسكندر المقدونى كان يعمل على تكوين امبراطورية تشمـل العالم القديم كله وتجعله يلتف حول هذا الشاب الاغريقى لصدقنا، ولو قيل ان « نابليون » كان يعمل على تكوين امبراطورية تشمل العالمين القديم والجديد،

ليجلس على عرشها الفتى الطليانى لصدقنا .

أما اذا قيل ان محمد بن عبدالله (ص) فكر فى ان يدعو خلق الله المتاخمين لجزيرة العرب المتصلين بقريش ـ اتصالا تعيش عليه قريش وينبنى على أساسه كل شيىء فى البنية القرشية ـ فذلك أمر يعز على البحث النزيه والعقل الحر (بزعم « وليم ميور ») ان يقبله الا أن يكون تفكير ذلك النبى في هذا الامر تفكيراً على نحو غامض .

وأما القول بأن ذلك الدين لم يهيأ الا لبلاد العرب ، فان ذلك لم يمنع محمداً من التفكير فى تعميم دينه ، لان هذا التفكير سواء أتحقق أم لم يتحقق ، انما يعتمد على اعتقاده ان دينه صالح لذلك ، وقد ثبت من القرآن انه كان يعتقد ان الاسلام قد هيىء لكل حالة ، وان القرآن قد تكفل بتبيان كل شيىء ، اذ يقول الله تعالى لرسوله فى غير آية : « ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين » (سورة النحل ٨٩) .

ويؤيد دعوى عموم الرسالة للجنس البشري قول محمد (ص) ان بلالا أول ثمار الحبشة ، وان صهيباً أول ثمار الروم ، وكذلك ماقاله عن سلمان الذي كان أول من أسلم من الفرس ، فكان عبداً نصرانياً بالمدينة اعتنق هذا الدين الجديد فى السنة الاولى من الهجرة ، وهكذا صرح الرسول فى وضوح وجلاء ، ان الاسلام ليس مقصوراً على الجنس العربي قبل ان يدور بخلد العرب أى شيىء يتعلق بحياة الفتح والغزو بزمن طويل ، ويؤيد ذلك ماورد فى القرآن الكريم فى تلك الايات البينات » (١) .

---

(١) تاريخ الاسلام السياسى ـ الطبعة الخامسة ـ ج ١ ص ١٦٧ ـ ١٧٠ ، وذكر فى المقام بعض الايات التى تدل على عمومية رسالته .

نظرة فى الايات المشعرة بعدم العمومية

قد عرفت ماهو الحق فى المقام بان القرآن الكريم والسنة النبوية، وسيرتها تدل بوضوح على عمومية رسالته لكل من فى الارض جميعاً .

غير ان هناك آيات ربما يستشم منها عدم عمومية رسالته ، وقد وقعت هذه الايات سنداً للخصم ، فنحن نذكر تلك الايات وتوضح المقصود منها .

* * *

١ ـ آيات الانذار :

ان بعض الايات فى هذا الصدد توجه انذار النبي (ص) الى قومه وربما تشعر باختصاص الرسالة ودونك هذه الايات :

١ ـ « ولكن رحمة من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك » (القصص ـ ٤٦)

٢ ـ « بل هو الحق من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك » (السجده ـ ٣)

٣ ـ « لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون » (يس ـ ٦)

٤ ـ «فانما يسرناه بلسانك لبشر به المتقين وتنذر به قوماً لداً» (مريم-٩٧)

فهذه الايات ونظائرها تخص انذار النبي (ص) بقوم خاص، وبذلك تضيق دائرة الدعوة .

الجواب :

ان الاجابة على الاستدلال بهذه الايات سهلة بعد الوقوف على ما ذكرنا من الايات المصرحة بعمومية الرسالة .

لانها اولا : لاتخرج من حد الاشعار الضعيف الذي لايعتمد عليه فى مقابل الايات المصرحة باشد التصريح بعمومية الدعوة .

وثانيا : ان هناك آيات فى هذا الصدد تصرح بعمومية الانذار ، ففى سورة يس التى ورد فيها « لتنذر قوما ما انذر آباؤهم » قوله سبحانه « لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين » (يس -٧٠)

فهذه الاية تشعر بان دائرة الانذار تشمل كل حي يعقل ويخاطب به وهو يعم كل مستعد للهداية سواء أكان من قومه وممن يعيش في الجزيرة العربية ام لا .

وقال سبحانه ايضا « وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً » (الكهف ـ٤)

وهو يعم امة الكليم والمسيح الذين قالوا : اتخذ الله ولداً .

فاليهود قالوا بان الله اتخذ عزيراً ولداً .

والنصارى قالوا : بان الله اتخذ المسيح ولداً .

وبذلك يظهر أن كل ما ورد في هذا الصدد من آيات الانذار لايدل على التخصيص بل هو خطاب بمقتضى المقام .

فقد تقتضى البلاغة توجيه الكلام الى قسم خاص كما تقتضي المصلحة في مقام آخر توجيه الكلام لكل من بعث لانذاره فلاحظ الايات التالية حيث يقول سبحانه :

« قل انما أنذركم بالوحي ولا يسمع الصم الدعاء ، اذا ما ينذرون »
(الانبياء - ٤٥)

بينما يخص الانذار بالمخاطبين في هذه الاية يعمم الانذار لكل الناس في اية اخرى ويقول: «أكان للناس عجبا ان اوحينا الى رجل منهم أن أنذرالناس» (يونس -- ٢).

* * *

٢ ـ عد بعض اهل الكتاب من الصالحين

ان القرآن الكريم يعد بعض اهل الكتاب من الصالحين حيث يقول :

« ليسوا سواء من اهل الكتاب امة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ، يؤمنون بالله واليوم الاخر ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات واولئك من الصالحين » (آل عمران ١١٣ -- ١١٤).

فلو كانت رسالة النبي الاكرم (ص) عالمية يجب ان يرجع الى شريعتها كل من يعيش تحت السماء من اصحاب الشرائع السماوية فعندئذ كيف يعد بعض من لم يرجع اليها من الصالحين ويصفهم بالاوصاف المذكورة فى هاتين الايتين؟

الجواب :

ان الاجابة عن هذا السؤال واضحة بعد الرجوع الى سياق الايات فانه سبحانه لما وصف اهل الكتاب بان اكثرهم الفاسقون وقال :

«ولو آمن اهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون واكثرهم الفاسقون» وقال: «لن يضروكم الا اذى وان يقاتلوكم يولوكم الادبار ثم لاينصرون».

وقال فى حق اليهود :

« ضربت عليهم الذلة اينما ثقفوا ...» (آل عمران الايات ١١٠، ١١١، ١١٢).

اراد سبحانه ان لايبخس حق الاقلية الصالحة منهم ، تمشياً مع الحقيقة ،

ووفاء للحق . وقال :

« ليسوا سواء ... » .

اى ليس الجميع ـ من اهل الكتاب ـ على وتيرة واحدة ، وانه يوجد بينهم من يستقيم على دينه ، ويثبت على امر الله ، ويتلو آيات الله فهم الذين يعدون من الصالحين اى الذين صلحت نفوسهم فاستقامت احوالهم وحسنت اعمالهم .

ومن المعلوم ان توصيف ثلة قليلة بالصلاح انما هو فى مقابل الاكثرية الموصوفة بالفسق والطغيان وقتل الانبياء والاعتداء .

وهذا التحسين النسبى لايدل على اقرار شريعتهم وعدم نسخه بالاسلام وانهم لو عملوا بشريعتهم لكانوا من الناجحين.

ويدل على ذلك انه سبحانه يصرح فى الاية ١١٠ بلزوم ايمان أهل الكتاب بما آمن به المسلمون ويقول :

« ولو آمن اهل الكتاب لكان خيراً لهم » .

وعلى ذلك يتضح مساق الاية وهدفها .

اجابة اخرى

غير ان المفسرين فسروا الاية على وجه آخر وقالوا : لما اسلم عبدالله بن سلام وجماعة قالت أحبار اليهود ما آمن بمحمد الا شرارنا فانزل الله : « ليسوا سواء ... الى قوله من الصالحين » .

روي ذلك عن ابن عباس وقتادة وابن جريح .

وقيل انها نزلت فى اربعين من اهل نجران واثنين وثلاثين من الحبشة وثمانية من الروم (١) .

---

(١) مجمع البيان ج ٤ ص ٤٨٨ راجع الدر المنثور ج ٢ ص ٦٤و٦٥ .

غير ان هذا التفسير لايلائم ظاهر الاية فالظاهر ان الموصوفين بالصلاح من اهل الكتاب حين نزول الاية كما هو ظاهر قوله : « ليسوا سواء من اهل الكتاب » ولو كان المراد هو المؤمنون المسلمون لما عبر عنهم بهذا العنوان ولا ينافى ما ذكرنا توصيفهم بأنهم يتلون آيات الله آناء الليل اذ عندهم من المناجات والادعية له شيء كثيرة لاسيما فى زبور داود.

٣ ـ تخصيص الانذار بام القرى ومن حولها

وهناك بعض الايات تخص الانذار بام القرى ومن حولها حيث يقول :

«وهذا كتاب انزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالاخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون » (الانعام ـ ٩٢)

وقال سبحانه :

« وكذلك اوحينا اليك قرآنا عربياً لتنذر ام القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لاريب فيه فريق فى الجنة وفريق فى السعير » (الشورى ـ ٧)

فهاتان الايتان يستظهر منهما اختصاص نطاق رسالته فى أطار أم القرى ومن حولها .

وام القرى اما علم من اعلام مكة او كلي اطلق عليها فى هذه الاية .

وعلى اى تقدير فتشعر اختصاص الرسالة بما ذكر فيها .

الجواب :

غير خفي على القارىء النابه ان ما ادعاه من الظهور ضعيف جداً ، ولو سلم فلا يتجاوز حد الاشعار الابتدائي (١) ولا يعتنى به تجاه الحجج الدامغة

(١) بل ذيل نفس الاية دليل على عموم رسالته ، حيث انه سبحانه قال : « والذين يؤمنون بالاخرة يؤمنون به » وظاهره ان كل من يؤمن بالاخرة من العرب والعجم يؤمن بهذا الكتاب ، وانه منزل من ربهم : مصدق لما تقدمه من الكتب ، فلو كانت دعوته اقليمية أو طائفية لما كان لايمان من ليس من تلك الطائفه، أولايعيش فى الجزيرة العربية، معنى صحيح.

الدالة على سعة نطاق رسالته وعدم محدوديتها بشيء من الحدود والقيود ، كما وافاك بيانها .

نحن نسأله لماذا نسي أو تناسى قوله سبحانه فى نفس هذه السورة (الانعام) الدال على عمومية رسالته ، وان الله سبحانه أمره ان ينذر بكتابه كل من بلغه هتافه فى اقطار الارض وأرجاء العالم . وقال سبحانه : « قل أي شيء أكبر شهادة ، قل الله شهيد بيني وبينكم ، وأوحى الي هذا القرآن لانذركم به ومن بلغ ، أئنكم لتشهدون ان مع الله آلهة اخرى ، قل لااشهد قل انما هو اله واحد وانني برىء مما تشركون » (الانعام ـ ١٩)

وصريح هذه الاية انه (ص) امر لينذر بقرآنه كل من بلغه ووصل اليه هتافه، عربياً كان أو أعجمياً، شرقياً كان أم غربياً، فلماذا اخذ الكاتب بالاشعار الضعيف وترك التصريح على خلافه مع كونهما فى سورة واحدة ؟ ! .

فلو انه كتب ما كتب بدافع التحقيق والبخوع للحقائق ، فلماذا فتح بصره وألقى اسدالا على بصيرته فاعتمد على الاشعار ورفض التصريح .

ومن المحتمل انه رأى الايتين ، لكنه حسب ان الله سبحانه نقض كلامه الوارد فى ابتداء السورة بختامها وهو سبحانه يقول : « قل لوكان من عندغير الله لوجدوا فيه اختلافاً كبيراً » (النساء ـ ٨٢) .

نحن لانميط الستر عن نواياه وضمائره وهو قد وقف على هذه الاية وغيرها مما سردناه من الايات الدالة على عالمية رسالته ، لكن الظاهر انه لا يستهدف بذلك الاتعكير الصفو وبث بذور الشك فى قلوب السذج ، والبسطاء من الامة الاسلامية لغاية هو اعرف بها وان كان لا يفوتنا عرفانها .

والحق انه (ص) لم يكن فى دعوته وانذاره بدعاً من الرسل ، فقد مشى فى ابلاغه على سنن من قبله من المرسلين ، فالمسيح كان رسول الله، الى امة كبيرة

أوسع من بني اسرائيل (١) ، ومع ذلك كله فقد بدأ هتافه بكونه رسولا الى بني اسرائيل مع انه رسول اليهم والى غيرهم وقال : « يا بني اسرائيل اني رسول الله اليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه احمد ... » (الصف ـ ٦) فخص خطابه ورسالته ببني اسرائيل مع كونه رسول الله الى غيرهم ايضاً ولاضير فى ذلك لان كونه رسولا اليهم لاينافي كونه رسولا الى غيرهم فان اثبات الحكم لموضوع لايلازم نفيه عن غيره .

وقد ضارعه نبي الاسلام ، فهو مع كونه رسول الله الى الناس جميعاً، ومع انه أمره الله ان ينذر بقرآنه قومه وكل من بلغه كتابه فى مشارق الارض ومغاربها(٢) امره الله سبحانه ان يقول : « لتنذر ام القرى ومن حولها » (٣) فان كونه مبعوثاً لانذار الامة العربية القاطنة فى عاصمتها مكة ومناطقها التابعة لها، لاينافي كونه مبعوثاً الى غيرها ايضاً ومنذراً بكتابه سواها .

وقد حذى الرسول حذو القرآن فى خطاباته الشخصية فى انديـة الانذار والابلاغ ، فقال (ص) حينما وفدت الى داره عشيرته وأقربوه : «اني رسول الله اليكم خاصة والى الناس عامة » وهو فى الوقت نفسه حين ماصعد على الصفا خص قريشاً بالخطاب وقال : « يا معشر قريش انقذوا انفسكم من النار » .

وقد وافيناكم بتلك الدرية فى صدر البحث (٤) .

---

(١) نعم لم يثبت كون المسيح مبعوثاً الى الناس اجمع ، كما سيوافيك بيانه فى هذا البحث بـل كان مبعوثا الى امة كبيرة اوسع مـن بنى اسرائيل ، لما ثبت مـن بعثه (ع) رسلا من حواريه وتلاميذه الى الامم التى لايمت الى بنى اسرائيل بصلة ، وهو دليل على اوسعية نطاق رسالته من بنى اسرائيل .

(٢) الانعام ـ ١١٩ .

(٣) الانعام ـ ٩٢ والشورى ـ ٧ .

(٤) انظر ص ٢٠ من كتابنا هذا .

هذه سيرة الرسول وسيرة من قبله، من أولي العزم من الرسل ، فهم يقتفون في توجيهاتهم ودعواتهم مقتضى الحال، مراعين في ذلك شرائط البلاغة، والقاء الكلام على وفق الحكمة ، فربما دعت المصلحة الى توجيه الكلام الى مجتمع خاص ، كما انه ربما اقتضت توجيه الى الناس عامة من دون أي تنافر وتناكر في التوجيهين .

وان شئت قلت : انه (ص) بعث الى عشيرته والعرب والناس جميعاً على سبيل « تعدد المطلوب » كما قال : « يا معشر قريش انقذوا أنفسكم من النار » وقال : « انى رسول الله اليكم خاصة والى الناس عامة » وكانت كل واحدة من هذه الطوائف الثلاث صالحة لان يبعث اليهم رسول خاص . وعلى ذلك فلهان يصرح حسب مقتضيات المقام بأحد الاغراض التى أرسل لاجلها ويسكت عن ذكر الاخرين بلا استنكار .

ويشير الى ذلك قوله (ص) : بعثت الى الناس كافة، فان لم يستجيبوا لى فالى العرب ، فان لم يستجيبوا لي ، فالى قريش ، فان لم يستجيبوا لى ، فالى بنى هاشم ، فان لم يستجيبوا لى ، فالى وحدى (١) .

وقال الامام الصادق (ع) :

ان الله تبارك وتعالى أعطى محمداً شرائع نوح وابراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام: التوحيد والاخلاص وخلع الانداد والفطرة الحنيفية السمحة ولا رهبانية ولا سياحة الى أن قال: ونصره بالرعب وجعل له الارض مسجداً وطهوراً وأرسله كافة الى الابيض والاسود والجن والانس (٢) .

---

(١) الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٩٢ .

(٢) الكافى ج ٢ ص ١٧ وسيوافيك بعض الروايات عند البحث عن « الخاتمية فى الاحاديث » .

ونظير ذلك لو بعثت انساناً لينجز لك أموراً مختلفة ، وكان كل واحدمنها صالحاً لان يبعث لانجازه شخص خاص ، فعند ذلك يصح لك ان تقول : بعثته ليعمل كذا وتذكر أحد الامور التي بعث لاجلها وتسكت عن ذكر الباقى كما يصح للمبعوث ان يقول : بعثت لافعل كذا ويذكر أحد الاهداف التى بعث لتحقيقها من دون ان يذكر الامرين الاخرين وهكذا . . .

على ان الاية التى استدل به القائل على ضيق نطاق رسالته، مكية ، وردت فى سورتى الانعام والشورى المكيتين ، ولم تكن الظروف في مكة تبيح له الاجهارغالباً بنفس رسالته،فضلا عن الاجهاربعالميتها، فلاعتب عليه لوخص خطابه بجمع دون جمع ، مع سعة نطاقها فى نفس الأمر ، اذا اقتضت المصلحة ذلك لان المرمى الاهم في هذه البيئة ، الاجهار بنفس الرسالة لاكمها ولاكيفها وان كان يصلح ان يصرح فى بعض الاوقات بعالمية رسالته اذا كان الظرف فى مكة صالحاً . كما في قوله سبحانه: « وماهو الا ذكر للعالمين » (القلم ـ ٥٢) والاية مكية بلا كلام. وكما فى قوله: «لا نذركم به ومن بلغ» (الانعام ـ ١٩) والسورة مكية ، وان شئت قلت : ان الظروف في مكة كانت مختلفة متلونة ، ولم تكن حياة الرسول رخاءاً وشدة على نسق واحد ، فتارة كانت بيئة مكة قاسية عنيفة لا تسمح بالجهر بنفس رسالته، فضلا عن المصارحة بكيفها وكمها، والمسلمون من ـ جانب اضطهاد قريش لهم ـ كانوا يعيشون فى حالة عصيبة وأخرى كانت الازمة قليلة مخففة بحلول أشهر الحج أوطروء حوادث تمنع العصابة المشركة المجرمة وتكفهم عن ايذاء المسلمين .

وعند ذاك كان يفسح المجال امام النبى و أصحابه بأن يبلغوا الدعوة وفق الظروف وحسب المقتضيات شدة وضعفاً ، فنراه فى مواقفه بمكة يصرح بجانب من جوانب الدعوة على صعيد خاص كقوله : يا معشر قريش انقذوا أنفسكم . . . وأخرى ينادى بعموم دعوته مما يستفاد منه انه بعث الى الناس كافة

ولاجل ذلك نواجه في سورة واحدة لونين من طريقة الدعوة ، فنرى انها في صدرها تأخذ بجميع جوانب دعوته وتصرح بعموم دعوته وعالمية رسالته ، وانه (ص) أمر من جانبه سبحانه ان ينذر بقرآنه قريشاً وكل من بلغه كتابه وانذاره حيث قال : «وأوحى الي هذا القرآن لانذركم به ومن بلغ» ، وفى الوقت نفسه نرى فى خلال السورة ، لوناً خاصاً من الدعوة حيث تخصها بمن فى أم القرى ومن حولها ويقول: «ولتنذر أم القرى ومن حولها». فيعلم من ذلك انه (ص) كان يوجه دعوته حسب ماتقتضيه المصلحة تبعاً للاحوال المختلفة وتبدل الظروف الزمانية والمكانية من دون توهم تناقض في طريق الدعوة ولونها .

جواب آخر عن الشبهة :

جاء بعض المعاصرين من الاجلاء ، فى تعاليقه القيمة على كتاب «الابطال» بجواب آخر (١) مبنى على أمرين :

الاول : ان المراد من « القرى » فى قوله تعالى : « لتنذر أم القرى ومن حولها » ما يعم المدن الواسعة ، وقد أطلق لفظ القرية في القرآن على المدينة أيضاً، كقوله تعالى:«واسئل القرية التى كنافيها، والعير التى اقبلنافيها وانالصادقون» (يوسف ـ ٨٢) والقرية التى اقترح أبناء يعقوب على أبيهم ان يسألها ، هي مدينة « مصر » وقد كانت يوم ذاك مدينة كبيرة ، ذات أبواب متفرقة ، لقوله سبحانه : « يا بنى لا تدخلوا من باب واحد ، وادخلوا من أبواب متفرقة » (يوسف ـ ٦٧)

الثانى : قد استفاضت الروايات من مهبط الوحى والتنزيل على ان الله سبحانه دحى الارض يوم دحاها، من تحت مكة ، والمراد من الدحو من تحتها

(١) ترى اجمال هذا الجواب فى مجمع البيان ج٣ ص٣٣٤ وج٥ ص٢٢ والمفردات للراغب مادة «ام» .

ان أرض مكة هى أول قطعة من الارض أخرجت من الماء، بعد ما كانت الارض بعامة اجزائها مغمورة بالماء ، ثم برز سائر اجزائها ، عن تحت الماء تدريجاً ، وبذلك صارت مكة أمـاً لسائر البلاد ، وأصلا لسائر القرى ومركزاً تكوينياً للارض .

قال : اذا كان اطلاق أم القرى على مكة بهذه المناسبة ، فيصير المراد من « أم القرى » ، أى أم البلاد الموجودة فى العالم ومركزها التكوينى كمايصير المراد من « ومن حولها » عامة من يعيش فى نواحى الارض وسائر اقطارها كلها واليه ذهب حبر الامـة عبدالله بن عباس ، وفسره الامام الطبرسى بقوله : « من سائر الناس وقرى الارض كلها » (١) فتصير الاية من الادلة الدالة على عالمية رسالته .

وفى هذا الجواب مجال للنظر والبحث :

أما أولا : فلان أم القرى ليست علماً لمكة، بل كلياً أطلق عليها فى هذه الاية بما انها احدى مصاديقه ، كيف وقـد قال سبحانه مبيناً لسنته فى الامـم الماضية جميعاً: «وماربك مهلك القرى ، حتى يبعث فى أمها رسولا» (القصص ـ ٥١٩) أى حتى يبعث فى أم تلك القرى رسولا يبلغ رسالات الله عليهم. وهذه سنة الله تعالى فى ابادة الامم الطاغية مطلقاً، غير مختصة بالامة العائشة بمكة ومن حولها.

وهذا امام اللغة ابن فارس ، يقول فى مقاييسه : « أم القرى ، مكة ، وكـل مدينة هى أم ما حولها من القرى » .

قال ابن فندق فى تاريخه : اذا تركزت أمور منطقة خاصة فى محل ، يقال له باعتبار القرى والقصبات التابعة له ، أم القرى ، ثم أتى بأمثلة وقال: فصنعاء أم القرى فى اليمن ، « وبغداد » أم القرى فى العراق ، بعد ما كانت « البصرة »

(١) مجمع البيان ج ٥ ص ٢٢ .

يوماً أم القرى ومرو أم القرى فى خراسان وهكذا . . (١) .

فهذا التركيب (أم القرى ومن حولها) ليس من مصطلحات القرآن واختصاصاته بل كان دارجاً فى عصر الرسالة وقبله وبعده، وقد نزل القرآن بلسان النبى الذي هو لسان قومه وليس له في هذا التركيب اصطلاح خاص ، بل هو والعرف فى ذلك سواسية، فلا يصلح أن يحمل على غير ماهو المتفاهم عندهم. فاذا قيل : « لتنذر أم القرى ومن حولها » وقامت القرينة على ان المراد من أم القرى مكة ، فلا يراد منه ومما عطف عليه الا ما يراد فى نظائرها . فاذا قيل : هذا امام البصرة أوسائسها ومن حولها، فلا يراد الا نفوذ حكمه فى نفس البصرة والمناطق التابعة لها ، حكماً وسياسة واقتصاداً ، أو غيرها من وشائج الارتباط ودوافع التبعية، لا انه امام الارض شرقاً وغرباً، وهكذا اذا قيل: بعث نبى الاسلام لينذر مكة ومن حولها، لا يراد منه الا انه بعث لينذر من يعيش فى مكة والمناطق التابعة لها عرفاً ، سياسة وحكماً أواقتصاداً وتجارة، أو غيرها من القرى القريبة المتاخمة لها، القائمة عند حدودها والمناطق التابعة لها فى العلاقات الاجتماعية لا انه بعث لينذر أهل العالم كله ، فان ارادة هذا المعنى من هذا التركيب غير معهود ، لو لم يكن مستهجناً .

وأما ثانياً : فلان ما ذكره من حديث دحو الارض الى آخره ، صحيح ، غير أن اطلاق أم القرى على مكة بهذه المناسبة التكوينية يحتاج الى دليل ، ودون اثباته خرط القتاد ، والعرب الجاهليون كانوا يطلقون أم القرى ، على مكة ، من غير أن يكون لهم علم ولا عهد بهذه المعارف ، وليس اطلاقها عليها من خصائص القرآن، بل هو يتبع في ذلك لما هو الدراج، والحق في الجواب ما أوضحناه .

* * *

(١) تاريخ بيهق ج ص ٢٢ بتعريب منا .

٤ ـ كل نبى مبعوث بلسان قومه

جـرت سنة الله على بعث رسله بلسان قومهم ، وهـذا هو الاصل لوكان الرسول مبعوثاً الى خصوص انقاذ قومه .

أما اذاكان مبعوثاً الى أمة أوسع من قومه، وكان كل قوم يتكلمون بلسانهم الخاص فعند ذلك لا حاجة الى نزول كتابه بجميع الالسنة ، لان الترجمة تنوب عن ذلك مع ما فى نزوله بلسانين أوأزيد من التطويل ، وامكان تطرق التحريف والتبديل والتنازع والاختلاف . فبقي ان ينزل بلسان واحـد . وأولى الالسنة لسان قوم النبي ولغتهم لانهم أقرب اليه، ولا معنى لرفض هدايتهم والتوجه الى غيرهم .

على ان ايمان قومه به ، وخضوعهم له ، ربما يثير رغبة الاخرين بالايمان به كما ان اعراض قومه جميعاً عن دعوته ورغبتهم عنه، تثير روح الشك والترديد في قلوب البعداء عنه ، قائلين بأنه لوكان في دعوته خير لما أعرض عنه قومه .

على ان فى ارسال رسول الله (ص) بلسان قومه نكتة اخرى وهو ان قومه (ص) كانوا يملكون نفسية خاصة و هـو عدم رضوخهم واستجابتهم بسهولة لعادات غيرهم والسنتهم .

فلو أنزل الله سبحانه كتابه اليهم بغير لسانهم لما آمنوا به كما قال سبحانـه «ولو أنزلناه على بعض الاعجمين فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين» (الشعراء ١٩٨-١٩٩) فلاجل ذلك بعثه الله سبحانه بلسان قومه حتى يسد باب العذيرة عليهم .

ولاجل هذه المهمة الاجتماعية يجب على الرسول صرف همته أولا فى هداية قومه وانقاذهم حتى يتسنى له هداية الاخرين، وهذه سنة متبعة فى الامور العادية، فضلا عن المبادىء العامة .

والى ذلك تهدف الاية التالية : « وما أرسلنا من رسول الا بلسانه قومه ،

ليبين لهم، فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء وهو العزيز الحكيم» (ابراهيم - ٤) ومفاد الاية انه سبحانه لم يجر في بعث رسله مجرى الاعجاز وخرق العادة، ولا فوض الى رسله من الهداية والضلال شيئاً، بل أرسلهم بلسانهم العادى الذي يتحاورون به كل يوم مع أقوامهم ليبينوا لهم مقاصد الوحى فليس لهم الا بيان ما أمروا به وأما الغاية من بعثهم، أعني الاهتداء فهو بيد الله سبحانه، لا يشاركه في ذلك رسول ولا غيره.

وعلى ذلك فليست في الاية دلالة ولا اشعار بلزوم اتحاد لغة الرسول مع لغة من ارسل اليهم، حتى يلزم منه اختصاص دعوته (ص) بقومه. اذ الاية تصرح بلزوم موافقة لغة الرسول مع لسان قومه، لا اتحاد لغته مع لسان كل من أرسل اليهم، كما هو اساس الشبهة، ومن الممكن المتحقق أن يكون المرسل اليه أوسع من قومه كما هو الحال في ثلة جليلة من الرسل، فقد دعا ابراهيم عرب الحجاز الى الحج، والوفود الى زيارة بيته، وأمر سبحانه كليمه بدعوة فرعون الى الايمان به، ودعا نبينا أمتى اليهود والنصارى الى الايمان برسالته، فآمن منهم من آمن. وبقي منهم من بقي.

* * *

مغالطة أخرى حول الاية:

نرى بعض من فسر الاية بأن مفادها «ان كل رسول من الله يوافق لسانه لسان من أرسل اليهم»، جاء بمغالطة شوهاء في مفاد الاية، وقال: اذا كان معنى الاية ما ذكر فهو ينعكس بعكس النقيض الى قولنا، من لا يوافق لسانه لسان من أرسل اليهم ليس رسولا منه سبحانه. فلو فرضنا ان نبينا (ص) كان مبعوثاً الى العالمين كلهم مع اختلافهم في اللسان، يلزم منه كونه غير مبعوث من الله سبحانه أصلا.

وعلى الجملة : تنتج عالمية رسالته ، وسعة نطاق دينه، كونه غير مرسل من جانبه عزوجل .

ومنشأ هذه المغالطة ماتخيله المغالط من مفادالاية، اذ ليس مفادها ماتصوره من ان كل رسول يوافق لسانه لسان من أرسل اليهم ، حتى يصح ما بني عليه ، بل مفاده. ان كل رسول يوافق لسانه لسان قومه، وفي الوقت نفسه يمكن أن يكون مبعوثاً الى أزيد من قومه (١) أو الى قومه فقط .

نعم تنعكس الاية الى قولنا : من لا يـوافق لسانه ، لسان قومه ليس رسولا من الله سبحانه ، وهو صحيح ، وأما نبي الاسلام فالمفروض ان لسان كتابه ولغة دعوته موافق مع لسان قومه .

وعلى أي تقدير فالمراد من القوم هم الذين عاش فيهم الرسول وخالطهم ولا يختص بالذين هومنهم نسباً، والشاهد على ذلك أنه سبحانه صرح بمهاجرة لوط من «كلدة» وهم سريانيو اللسان ، الى المؤتفكات وأهلها عبرانيون، وفي الوقت نفسه سماهم قومه ، وأرسله اليهم ، ثم أنجاه وأهله الا امرأته (١) .

---

(١) هذا أحد الاحتمالات فى اولى العزم، أعنى من ارسل الى ازيد من امة، راجع الميزان ج ١٢ ص ١٣ وسوف نحقق معنى هذه الكلمة على ضوء ماورد فى الذكر الحكيم فى فصول هذا الكتاب .

(١) الميزان ج ١٢ ص ١٣.

هل كانت نبوة نوح والكليم والمسيح عالمية؟

قد اتضح من هـذا البحث الضافى ان رسالة النبى الاكرم (ص) رسالة عالمية ، فهو مبعوث الى شرق الارض وغربها .

غير انه اكمالا للبحث نبحث عن نبوة ورسالة الانبياء الثلاثة ، فهل كانت نبواتهم ورسالاتهم عالمية أو كانت تقتصر على اقوامهم، أو المناطق التي ظهروا فيها؟

ونبحث في المقام عما يفيده القرآن في هذا الموضوع مع غض النظر عما يوجد في التوراة والانجيل وما يـدعيه علماء اليهود والنصارى لان البحث في المقام قرآني ينظر الى الموضوع من زاوية خاصة ، فيقع الكلام في مقامات :

الاول : في عمومية نبوة نوح وعدمها .

الثانى : في عمومية نبوة الكليم وعدمها .

الثالث : في عمومية نبوة المسيح وعدمها .

ويتضح مما ذكرنا حال رسالة الخليل (ع) أيضاً .

وليكن القارىء الكريم على ذكر من نكتة ، وهي ان ماسنذكره من الايات ونستدل بها لا يعدو عن كونها اشعارات واستظهارات ولا يمكن ان يستدل بكل واحدة منها على المقصود ، نعم يمكن اعتبار مجموعها دليلا مفيداً للاطمئنان.

على ان تلك الاشعارات انما تتم اذالم يكن هناك دليل صريح على خلافها والا فتكون النسبة بين تلك الاشعارات ومايدل على خلافها من قيل نسبة الاصل الى الدليل الاجتهادي الحاكم بالاشتغال .

فيرتفع الاصل بموضوعه عند وجود الدليل الاجتهادي .

هل رسالة نوح كانت مختصة بقومه ؟

يمكن استظهار الاختصاص من قوله سبحانه : «انا أرسلنا نوحاً الى قومه» (نوح - ١) فهو يشعر باختصاص رسالته بقومه (١) .

واما صيرورة رسالته بعد الطوفان عالمية، لانحصار الخلق في الموجودين بعد هلاك الناس ، فانما هو لامر عارض لا يضر بخصوصية رسالته .

أضف الى ذلك ان القدر المسلم هو ان الطوفان لم يكن عالمياً بل خاصاً بمنطقة من الارض التي كان يعيش فيها قومه ، ويؤيد ذلك انه لا وجه لتعذيب غيرهم واهلاكهم بتكذيب قومه خاصة .

فان الظاهر من القرآن هو ان التعذيب كان لتكذيب قومه ، قال سبحانه: « وأوحي الى نوح انه لن يؤمن من قومك الا من قدآمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون واصنع الفلك بـا عيننا ووحينـا ولا تخاطبنى في الذين ظلموا انهـم مغرقون » (هود ٣٦ - و٣٧) اضف الى ذلك ان عمومية الرسالة تتطلب وجود امكانيات تمكن الرسول من ايصال نداء رسالته وصوت دعوته الى جميع انحاء العالم ، وذلك لم يكن متوفراً في عهد نوح ، كما سيوافيك بيانه مفصلا.

تحقيق وتنقيب

ان العلامة الطباطبائى (رضوان الله عليه) قد طرح مسألة عمومية نبوة نوح

---

(١) لاحظ الايات ٢٥ - ٤٨ من سورة هود ، ترى فيها اشعارات كثيرة باختصاص رسالته بقومه .

(عليه السلام) في الجزء العاشر من تفسيره « الميزان » فقال :

المعروف عند الشيعة عموم رسالته (ع) وأما أهل السنة فمنهم من قال بعموم رسالته مستنداً الى ظاهر الايات الناطقة لشمول الطوفان لاهل الارض كلهم كقوله سبحانه : « رب لاتذر على الارض من الكافرين دياراً » (نوح - ٢٦) ، وقوله تعالى: « لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم » (هود - ٤٣) وقوله: « وجعلنا ذريته هم الباقين » (الصافات - ٧٧) .

وما ورد في الصحيح من حديث الشفاعة : ان نوحا أول رسول أرسله الله الى أهل الارض ، ولازم ذلك كونه مبعوثا اليهم كافة .

ومنهم من أنكر ذلك مستنداً الى ما ورد في الصحيح عن النبي « وكان كل نبي يبعث الى قومه خاصة وبعثت الى الناس كافة » .

وأجابوا عن الايات بانها قابلة للتأويل فمن الجائز ان يكون المراد بالارض هي التي كان يسكنها نوح وقومه ، وهي وطنهم كقول فرعون لموسى و هارون « وتكون لكما الكبرياء في الارض » (يونس - ٧٨)

فمعنى الاية الاولى: لا تذر على هذه الارض من كافري قومى دياراً، وكذا المراد بالثانية «لاعاصم اليوم لقومي من أمر الله» وكذا المراد بالثالثة « وجعلنا ذريته هم الباقين » من قومه .

ثم انه قدس الله سره أفاد بانه لم يستوفوا حق الكلام في هذا البحث.. ثم اختار هو عمومية نبوته ورسالته بتقديم مقدمة حاصلها :

ان الواجب في عناية الله ان يهدي الانسان الى سعادة حياته و كمال وجوده على حدما يهدي سائر الانواع اليه . ولا يكفى في هدايته ما جهز بـه الانسان من العقل البشري ، بل لابد من طريق آخر لهدايته وسوقه الى قمة الكمال وهو تعليم الانسان شريعة الحق ، ومنهج الكمال والسعادة ، وهـو طريق الوحى ، وهو نوع تكليم الهى يعلم الانسان ما يفوز بالعمل به ، والاعتقاد به في حياتـه

الدنيوية والاخروية فطريق النبوة مما لامناص منه في تربية النوع البشري بالنظر الى العناية الالهية .

وان شئت قلت : الواجب في عناية الله تزويد المجتمع الانسانى بشريعة يأخذ بها في حياته الاجتماعية دون ان يخص بها قوما ويترك الاخرين سدى لاعناية له بهم، ولازمه ان يكون أول شريعة نزلت على البشر شريعة عامة، وقد أخبر الله سبحانه ان شريعة نوح هي أول شريعة نزلت على المجتمع البشرى قال سبحانه : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا اليك وماوصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » (الشورى - ١٣)، ومقام الامتنان يقتضى بان الشرائع الالهية المنزلة على البشر عبارة عما جاء ذكرها في هذه الاية، وأول ما نزلت من الشرائع هي شريعة نوح ، ولولم تكن عامة للبشر ، بل كانت خاصة بقومه لكان هناك اما نبي آخر ، وشريعة أخرى لغير قوم نوح والحال انه لم يذكر في هذه الاية ولا في موضع آخر من كلامه سبحانه.

واما اهمال سائر الناس غير قومه في زمنه وبعده الى حين (١) .

ملاحظات فى كلام العلامة الطباطبائى

وفيما ذكره قدس سره ملاحظات نلفت نظر القارىء الكريم اليها :

أما أولا : فان ماذكره من انه يجب في عناية الله تكميل الانواع وان الشريعة الالهية تكمل النوع الانساني ، وان التشريع تكميل للتكوين مما لا كلام فيه ، غير ان الكلام هو فى قابلية سائر العناصر البشرية الاخرى المعاصرة لنوح، الساكنة في مناطق أخرى لتلقي الشريعة وأخذها والعمل بها، فان من المحتمل ان لاتكون تلك العناصر والافراد لبداوتها وبساطة شعورها وحياتها أهلا لارسال الشريعة اليهم وعدم بلوغهم بعد الى حد يستأهلون معه للتعليم الالهى ، فان من البديهى ان

(١) الميزان ج ١٠ ص ٢٧١ - ٢٧٢ .

البلوغ الجسماني وحده لا يكفي في تلقي الشريعة والعمل بها ، بل يجب ان يكون معه مقدرة فكرية واستعداد نفسي يؤهله لاستقبال الشريعة ، والدخول في مدرسة الوحي الالهي . فمثل بعض المجتمعات قبل ان تصل الى هذه المرتبة مثل الطفل الناشيء لايستأهل ولم يصبح صالحا للدخول في المدرسة وتلقي التربية المدرسية .

وثانيا : فان ما استفاده (رحمه الله) من الاية بـ « ان شريعة نوح أول شريعة نزلت الى البشر » اشعار كسائر الاشعارات فمن المحتمل ان تكون هناك شريعة أخرى نزلت قبل نوح ولكن لم تذكر لعدم بلوغها الى مرتبة الشرائع المذكورة في هذه الاية .

واما ثالثا : ان من الممكن ان يكون هناك شريعة في عرض شريعة نوح تختص بقوم آخر لكنه لم يذكرها القرآن ، كيف لا وان القرآن صرح بانه لم يستوعب قصص جميع الانبياء حيث قال « منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك » (غافر - ٧٨) وقال سبحانه : « ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك » (النساء - ١٦٤)

وفي الختام ان ما ذكرناه حول دعوة نوح كمثل ما نذكره حول الكليم والمسيح مجرد نظرية منبعثة من التدبر في آيات الذكر الحكيم فمن المحتمل ان لا تكون صائبة ، والعصمة لله سبحانه ولرسوله والائمة الهداة .

ثم انه دام ظله رتب على مختاره في تعميم رسالة نوح ان الطوفان كان عاما لجميع الارض حيث قال : تبين الجواب عن السؤال : هل الطوفان كان عاما لجميع الارض فان عموم دعوته يقضي بعموم العذاب .

ثم أيده بما جاء في كلامه تعالى انه أمر نوحا ان يحمل من كل زوجين اثنين ابقاء على الانواع الحيوانية فلو كان الطوفان خاصا بصقع من اصقاع الارض

وناحية من نواحيها كالعراق ـ كما قيل ـ لم تكن هناك اية حاجة الى أن يحمل فى السفينة من كل جنس من اجناس الحيوان زوجين اثنين (١) .

وقد تبين مما ذكرناه من اختصاص دعوة نوح وعدم عموميتها عدم صحة ما اعتمدت عليه النظرية .

واما ما استشهد به فيمكن ان يكون للحفاظ على الحيوانات فى منطقته اذ كان من العسير انتقال الحيوانات التى تعيش فى مناطق اخرى الى قومه ، والله سبحانه هو العالم .

* * *

هل كانت نبوة الكليم عالمية ؟

ان تنقيح الموضوع يتوقف على البحث في مقامين :

الاول : في عموم دعوته الى التوحيد .

الثانى : في عموم شريعته وشمول أحكامه .

ونعنى من عموم دعوته في مسألة التوحيد انه كان مبعوثاً الى بنى اسرائيل وغيرهم ، في دعوتهم جميعاً الى توحيده سبحانه وكسر كل صنم ووثن.

كما انه نعنى من عموم شريعته شمول كل ما جاء به موسى في التوراة من الفروع والاحكام لبنى اسرائيل وغيرهم (٢) وعموم دعوته الى التوحيد لا يلازم عموم شريعته ، دون العكس (٣) ولاجل ذلك جعلنا البحث في مقامين ، فنقول:

---

(١) الميزان ج ١٠ ص ٢٧٢ – ٢٧٣ .

(٢) وللفرق بين المقامين يعبر عن الاول بعموم الدعوة والنبوة وعن الثانى بعموم الشريعة والرسالة فلاحظ .

(٣) لامكان انحصار دعوته بالنسبة الى قوم فى الاصول ولا يمكن العكس اذلاتصح الدعوة الى الفروع منفكة عن الدعوة الى الاصول .

المقام الاول : في عموم دعوته في اصل التوحيد ورفض الاوثان والاصنام كلها .

الظاهر من الايات الواردة حول دعوة الكليم ، انه كان مبعوثاً الى خصوص بنى اسرائيل مثل قوله سبحانه :

« ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذ تم العجل من بعده وانتم ظالمون » (البقرة - ٩٢)

وقوله سبحانه : « واذ قال موسى لقومه ياقوم لم تؤذوننى وقد تعلمون انى رسول الله اليكم » (الصف - ٥)

وهذه الايات الكثيرة تشعر باختصاص دعوته بقوم موسى وانما قلنا «تشعر» لوضوح ان ارساله الى قومه ، لا يدل على عدم ارساله الى غيرهم ، فان شعيباً كان مرسلا من جانبه سبحانه الى أهل مدين كما يدل عليه قوله تعالى : « والى مدين اخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره » (الاعراف-٨٥)

وفي الوقت نفسه كان مبعوثاً الى أصحاب الايكة كما يدل عليه قوله سبحانه: «كذب أصحاب الايكة المرسلين . اذ قال لهم شعيب الا تتقون »

(الشعراء ١٧٦ - ١٧٧)

ولاجل ذلك قلنا ان مانستدل به لا يعدو عن كونه استظهارات واشعارات اذا توفرت تفيد الاطمئنان ولو كان هناك دليل صريح على عموم دعوته ونبوته، لسقطت هذه الاستظهارات عن الاعتبار .

* * *

موقف دعوة الكليم من القبطيين

يمكن ان يقال: بأن دعوة موسى فى مسألة التوحيد، كانت تعم بنى اسرائيل والقبطيين .

وتستفادعمومية دعوته اليهم أيضاً من بعض الايات مثل قوله سيحانه: « حقيق على ان لا أقول على الله الا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فارسل معى بنى اسرائيل » (الاعراف ـ ١٠٥)

وقوله سبحانه : « قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجزلنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى اسرائيل » (الاعراف ـ ١٣٤)

وقوله سبحانه : « اذهبا الى فرعون انه طغى فقولا له قولا ليناً لعله يتذكر أو يخشى .... فأتياه فقولا انا رسولا ربك فارسل معنا بنى اسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى » (طه ٤٣و٤٤ ـ ٤٧)

وقوله سبحانه : « فأتيا فرعون فقولا انا رسول رب العالمين ان ارسل معنا بنى اسرائيل » (الشعراء ١٦ ـ ١٧)

وقوله سبحانه حكاية عن فرعون: «ان رسولكم الذى ارسل اليكم لمجنون» (الشعراء ـ ٢٧)

وقوله سبحانه : « ولقد ارسلنا موسى باياتنا الى فرعون وملائه فقال انى رسول رب العالمين » (الزخرف ـ ٤٦)

وقوله سبحانه: «انا ارسلنا اليكم رسولا شاهداً عليكم كماارسلنا الى فرعون رسولا فعصى فرعون الرسول فاخذناه اخذاً وبيلا » (المزمل ١٥ ـ و١٦)

وقوله سبحانه : « وفي موسى اذ ارسلناه الى فرعون بسلطان مبين » (الذاريات ٣٨)

وهذه الايات ومايشابهها تفيد ان دعوته الى عبادة الله والانخلاع عن عبادة الاوثان كانت تعم بني اسرائيل والقبطيين ولاجل ذلك ضرب مع رئيسهم فرعون موعداً لايخلفه هو ولا ذاك، فاتفقا على ان يكون موعدهم يوم الزينة وان يحشر الناس ضحى فلما القى موسى ما القى وتلقف ما صنعوا من الكيد والسحر ،

القي السحرة ساجدين قائلين بانهم آمنوا برب موسى وهارون (١) .

هذا كله يفيد بوضوح شمول دعوته للقبطيين ايضاً وانه كان مأموراً من الله بدعوة فرعون وملائه الى الايمان بالله سبحانه وترك عبادة البشر والاستعلاء على عباد الله واستضعافهم، ويؤيده انه لما ادركه الغرق قال فرعون «آمنت انه لااله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل وانا من المسلمين» (يونس ـ ٩٠) ولم يك ينفع ايمانه ذلك الوقت ولاجله خاطبه سبحانه بقوله : «ألان وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين » (يونس ـ ٩١)

ومع ذلك كله ففى النفس من شمول دعوته ـ حتى بهذا المعنى للقبطيين، شيىء .

اما اولا: فلانه يحتمل انه كان نبياً ورسولا الى امة بنى اسرائيل فقط ليخلصهم وينجيهم من فرعون واعوانه ، غير ان انجائهم من ايديهم لما كان متوقفاً على اثبات نبوته وانه مأمور من جانب الله سبحانه ، اخذ يحاور فرعون ويرضيه بانجاء بنى اسرائيل ، ولو كان انجاؤهم غير موقوف على هذه المحاورات لما تحمل هذه المشاق ويؤيده انه سبحانه بعدما قال :

« ان فرعون علافى الارض وجعل اهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح ابنائهم ويستحي نساءهم انه كان من المفسدين (القصص ـ ٤) عقبها بقوله: «ونريد ان نمن على الذين استضعفوا فى الارض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين (القصص ـ ٥)

وظاهره يفيد ان الغاية من بعث موسى الى فرعون هو اطلاق سراح المستضفين من بني اسرائيل في الارض .

وان شئت قلت : ان محاورته مع فرعون وقيامه ضده وضد ملائه وعرض بيناته واحتجاجاته عليهم ، كانت مقدمة لانقاذ بني اسرائيل وارجاعهم الى الارض

(١) راجع سورة طه الايات ٤٢ ـ ٧٠ .

المقدسة ولو كان المطلوب حاصلا بلا مشاجرة ونزاع معهم لما نهض بين يديه محتجاً بآياته وبيناته ؟

وثانياً : انه كلما حاور مع فرعون واحتج عليه بانه رسول رب العالمين عقب كلامه بقوله : فارسل معى بني اسرائيل حيث قال سبحانه : قد جئتكم ببينة من ربكم فارسل معى بني اسرائيل » (الاعراف -- ١٠٥) وقال سبحانه : «فاتياه فقولا انا رسولا ربك فارسل معنا بنى اسرائيل ولا تعذبهم» (طه-- ٤٧).

والظاهر من الايتين ان الهدف الاقصى من بعث موسى هو انقاذ بني اسرائيل غير انه لما كان متوقفا على المحاورة مع فرعون واثبات انه رسول من الله سبحانه كلمه بانى رسول ربك ويقرب ذلك انه سبحانه لما اخذ آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات واوقع عليهم الرجز جعلوا جزاء موسى -- اذا استجيبت دعوته -- انهم يؤمنون به ويرسلون معه بنى اسرائيل كما حكى الله سبحانه عنهم « قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى اسرائيل (الاعراف - ١٣٤) .

وعلى ذلك فالمراد من ايمانهم بموسى، ايمانهم بانه مبعوث من الله سبحانه لهداية بني اسرائيل وانقاذهم من العذاب ، لا ايمانهم بانه نبي بعث الى القبطيين وبني اسرائيل جميعاً كما هو المدعى .

ولقائل ان يقول : انه اذا لم يكن مبعوثاً الى فرعون وملائه فلماذا امر الله سبحانه موسى واخاه هارون بقوله : «فقولا له قولا ليناً لعله يتذكر او يخشى» (طه -- ٤٤) وقوله «اذهب الى فرعون انه طغى، فقل هل لك الى ان تزكى واهديك الى ربك فتخشى» (النازعات -- ١٧).

وتمكن الاجابة عنه بان الذهاب اليه وتذكيره وتحذيره لاجل ان يعلم فرعون بان موسى مبعوث من جانبه سبحانه لانقاذ قومه حتى يرسل معه بني اسرائيل، كما يفيده ذيل الايات « فأتياه فقولا انا رسولا ربك ، فارسل معنا بنى اسرائيل

ولا تعذبهم » ، لاحظ سورة طه الايات ٤٣ - ٤٧، خصوصاً بالنظر الى ما فرع على قوله انا رسولا ربك قوله « فارسل معنا بنى اسرائيل » .

ويؤيد ذلك ايضاً انه لما لم ينجح النبي موسى في انقاذ قومه من سلطان فرعون وعساكره ، اراد سبحانه ان ينجيهم باسباب غير عادية كما قال سبحانه: ولقد اوحينا الى موسى ان أسر بعبادى فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً لا تخاف دركاً ولا تخشى» (طه - ٧٧) .

وقوله: «وجاوزنا ببني اسرائيل البحر فاتوا على قوم يعكفون على اصنام لهم» (الاعراف - ١٣٨)

وقوله سبحانه : وجاوزنا ببني اسرائيل البحر فاتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً » (يونس - ٩٠)

وقوله سبحانه : « فاسر بعبادي ليلا انكم متبعون واترك البحر رهواً انهم جند مغرقون » (الدخان ٢٣ - ٢٤)

وذلك يدل على ان الغاية من الرسالة هو انقاذ بنى اسرائيل فقط لا ارشاد فرعون وملائه .

ثالثاً: ان قوله سبحانه : «ثم بعثنا من بعده (١) رسلا الى قومهم فجاؤوهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل كذلك نطبع على قلوب المعتدين ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون الى فرعون وملائه بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين » (يونس ٧٤ - ٧٥)

يفيد ان رسالة الانبياء الذين تتراوح دعوتهم بين نوح وموسى بشهادة قوله: « بعثنا من بعده (أى نوح) رسلا الى قومهم » كانت مختصة بقومهم حتى ابراهيم كما ان دعوة موسى كانت مختصة بقومه لا تعدوهم الى فرعون أيضاً وملائه

(١) والضمير فى قوله « من بعده » يرجع الى نوح.

وعلى ذلك تصير دعوة كل من نوح وابراهيم وموسى غير عالمية لا تتعدى دعوة موسى بنى اسرائيل ، أو القبطيين .

* * *

موقف دعوة الكليم من غير القبطيين

الظاهر انه لم تكن دعوته شاملة لغيرهم لو فرضنا شمولها لهم ويشعر بذلك انهم لما نجاهم سبحانه من فرعون وجاوز بهم البحر فرأوا في ذلك الجانب، من ضفة البحر قوماً يعكفون على اصنام فطلب منه قومه ان يجعل لهم الهاً كما لهم الهة فرد عليهم موسى بـانكم قوم تجهلون (١) ولـم يتعرض موسى لعبدة الاصنام (٢) لا بالنقد والرد ولا بالمنع ولم يكن خضوعهم للاصنام أقل ضرراً من عبادة قوم فرعون له وانما تعرض لعمل فرعون دون عمل هذه الجماعة لاجل ان انقاذ بنى اسرائيل من مخالب فرعون وقومه كان متوقفا على المحاورة معه والاحتجاج عليه بانه رسول رب العالمين، دون المقام، فان العاكفين على الاصنام في ضفة البحر لم يكونوا مزاحمين لموسى وقومه ولذلك تركهم وشأنهم، ولم ينكر عليهم بحكم سكوت القرآن وعدم اظهار أى ردة فعل بالنسبة اليهم. وهذا يؤيد ما استظهرناه من عدم عمومية دعوته للقبطيين أيضا .

نعم ما نذكره من السكوت اشعار بالمدعى لا انه دليل قطعى .

ويؤيد خصوصية الدعوة انه لم يعهد منه بعد انجاء قومه من فرعون، انه دعا اقواماً آخرين ، بل لما عبر موسى بهم البحر وهلك فرعون ، أمرهم الله بدخول الارض المقدسة ، فلما نزلوا على نهر الاردن خافوا من الدخول فيها

(١) راجع الاية ١٣٨ من سورة الاعراف .

(٢) بحكم سكوت القرآن عن ذلك وان كان السكوت لايكون دليلا على عدم التعرض لكنه مشعر بذلك .

كما حكى الله سبحانه عن موسى قائلا : «يا قوم أدخلوا الارض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على ادباركم فتنقلبوا خاسرين، قالوا يا موسى ان فيها قوماً جبارين وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها، فان يخرجوا منها فانا داخلون» (المائدة ٢١ ـ ٢٢)

فاوحى الله اليه انهم يتيهون فـي الارض أربعين سنة فبقوا في التيه أربعين سنة وكان ينزل عليهم المن والسلوى ومات النقباء غير يوشع بن نون ومات أكثرهم ونشـأ ذراريهم وتوفي موسى وهارون في التيه ، توفى هارون قبل موسى بسنة وقد فتحها يوشع بعد موت موسى وقيل فتحها موسى وكان يوشع في مقدمته(١).

ولم يرد في القرآن شيء يستشم منه انه دعا الامم الاخرى طول حياته في التيه ، بل كان يعاشر قومه فقط ويرشدهم حسب استعدادهم وامكاناتهم .

أضف الـى ذلك فقدان الامكانيات وضعف المواصلات في تلكم الايام ، فتشريع نبوة عامة تشمل العالم أجمع مع فقدان الامكانيات اللازمة وقلة الترابط بين الامم أمر غير مفيد .

مضافاً الى ان تشريع النبوة على صعيد عالمي فرع التهيوء في روح المجتمع الانساني لقبولها، فان الناس كانوا عصابات واقوام متنافرة يتعصب كل منهم تجاه الاخر ولا ينزل واحد منهم على حكم الاخر ولا لنبي من قوم آخر، فالطريق الاصلح لهذا هو بعث الانبياء في داخل الامم كما قال سبحانه : « ولقد بعثنا في كل أمة رسولا ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت » (النحل ـ ٣٦) (٢)

أضف الى ذلك ان الامة اليهودية يخصون نبوة موسى بانفسهم ولذا لا ترى

---

(١) مجمع البيان ج ٢ ص ١٧٩.

(٢) نعم ذابت هـذه التعصبات القومية في المجتمع الانساني الى حد استعد مزاج الانسانية لبعث نبي عالمـي وكمل استعدادهم لقبول النداء العالمي ولاجل ذلـك لم يمض ربع قرن الا وقد ضرب الاسلام : بجرانه في شرق الارض وغربها .

منهم التبليغ والتبشير في مجتمعات العالم (١) .

ومع هذه الوجوه كيف يمكن القول بعمومية دعوته وعالميتها في عصره الى أن يبعث الله نبياً مثله .

وترشدك الى ما ذكرناه ، قصة موسى مع من آتاه الله الرحمة وعلمه من لدنه علماً ، وقال سبحانه : فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً . قال موسى هل اتبعك على ان تعلمن مما علمت رشداً »

(الكهف ٦٥ - ٦٦) (٢)

ووصفه بما ورد في الاية من الاوصاف يدل على كونه ولياً من أوليائه بل نبياً مثله و- مع ذلك - كيف تكون نبوة موسى عالميه مع عدم شمول نبوتها لمصاحبه ولا لامته اذا فرضنا للمصاحب أمة وليس من البعيد ان يكون ذلك المصاحب العايش في زمن موسى مثل لوط المعاصر لابراهيم وكل مبعوث الى أمة دون أمة ، وتعاصر النبين يكشف عن ضيق نطاق نبوتهم وعدم شمول أحدى النبوتين ، بما تشمله الاخرى .

قال سبحانه : ولما جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا : انا مهلكوا أهل هذه القرية ، ان أهلها كانوا ظالمين . قال ان فيها لوطاً ، قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله الا امرأته كانت من الغابرين (العنكبوت ٣١ - ٣٢)

المقام الثانى فى عموم شريعته (٣)

هل كانت الشريعة التي أتى بها موسى في الالواح التي يصفها الله سبحانه

---

(١) وان كان قول اليهود وفعلهم ليسا بحجة فانهم خصوا الله سبحانه بانه اله شعبهم فماظنك بهم فى رسالة موسى (ع) .

(٢) واحتمال انه كان من امة موسى ولكن الله جعل عنده علماً خاصاً لم يؤته موسى فصار موسى مأموراً بالتعلم منه ، رجم بالغيب وموجب لزيادة الفرع على الاصل واعلمية بعض الامة من نبيها مع ان سياق الايات لايناسب ذلك الاحتمال .

(٣) البحث عن عموم شريعته، فرع ثبوت سعة دعوته فى مسئلة عبادة الله وخلع عبادة -

بقوله : «وكتبنا له في الالواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء »
(الاعراف ـ ١٤٥)

مختصة بقومه أو تعم غيرهم ؟ ظاهر بعض الايات ، يفيد كون كتابه حجة على الناس كلهم حيث وصفه بكونه ، هدى ونوراً للناس وقال : «قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس» (الانعام ـ ٩١)

وقوله سبحانه: «ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياءاً وذكراً للمتقين»
(الانبياء ـ ٤٨)

فاذن ، هوضياء وذكر للمتقين سواء أكانوا من بنى اسرائيل أم غيرهم وقوله سبحانه : «قالوا يا قومنا انا سمعنا كتاباً انزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدى الى الحق والى طريق مستقيم » (الاحقاف ـ ٣٠)

فان وزان الاية ، وزان قوله سبحانه: «فقالوا انا سمعنا قرآناً عجباً. يهدى الى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً» (الجن ١ ـ ٢)

فان وصف الجن للقرآن بانه نزل من بعد كتاب موسى مع كون القرآن ومن جاء به مبعوثين الى الانس والجن ، يشعر بكون كتاب موسى مثله أيضاً نزلا الى كل من الفريقين، فكيف تجتمع خصوصية رسالته مع كون كتابه دليلا وحجة على الكل ؟

ويمكن الاجابة عن الاستدلال بهذه الايات أولا : بان كون الكتاب نوراً وهدى للناس ، لا يفيد تعميم شريعة موسى وأحكامه لغير بني اسرائيل ، اذ من الممكن ان يستفيد الغير مماورد في ذلك الكتاب من عظات وحكم وان لم يكن تابعاً لاحكام ذلك الكتاب. فنحن المسلمون، نستفيد فى هذا اليوم مما في التوراة والانجيل من المواعظ ولسنا تابعين لشريعة من انزلا اليه .

ـ الاوثان وقد عرفت عدم ثبوتها، فالبحث عن عموم شريعته مبنى على ثبوت عموم دعوته فى جانب الاصول .

فبذلك يظهر الجواب عـن الاستدلال بقوله سبحانه : « ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكراً للمتقين» (الانبياء -٤٨)

وثانياً : ان الظاهر من بعض الايات اختصاص كتاب موسى بقومه مثل قوله تعالى : « وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى اسرائيل » (الاسراء - ٢)

وقوله سبحانه : « ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بني اسرائيل الكتاب » (غافر - ٥٣)

فلو كان كتابه حجة على الناس كلهم لورثه الناس كلهم دون بني اسرائيل وحدهم (١) .

وقوله : «من أجل ذلك كتبنا على بني اسرائيل انه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الارض فكانما قتل الناس جميعاً » (المائدة - ٣٢)

وقد كتبه سبحانه عليهم في التوراة .

وقوله : «ولقد آتينا بنى اسرائيل الكتاب والحكم والنبوة»(الجاثيه - ١٦)

وان اردت ان تتوسع في البحث فلاحظ الايـات التالية فانها تخص بنى اسرائيل بانهم هم الذين اوتوا الكتاب، فان كونهم ممن اوتوا الكتاب وان كان لا يعارض كون غيرهم كذلك ، الا أن تكرار توصيفهم بانهم ، هم الذين أوتوا

---

(١) نعم يمكن ان يقال: ان تخصيص بنى اسرائيل بانهم الوارثون لكتاب موسى لاجل ان بنى اسرائيل وانبياءهم ، هم القائمون بامر الكتاب وحفظه دون سائر الناس ، فلاجل ذلك خصهم بالميراث ، وان كانت الشريعة عامة .

وهذا نظير قوله تعالى : «ثم اورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا» (فاطر-٣٢) فورث الكتاب العباد المصطفون وان كانت الشريعة عامة ، على انه يحتمل ان يكون المراد بالكتاب ، هو الوعد الذى وعده الله لا براهيم و موسى بان يدخلهم الارض التى كتبهـا الله لهم .

الكتاب يوجب ظهورها فی نفيه عن غيرهم(١) مثل: قوله سبحانه: «الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته» (البقرة ـ ١٢١)

وقوله سبحانه : « وان الذين أوتوا الكتاب ليعلمون انه الحق من ربهم » (البقرة ـ ١٤٤)

وقوله سبحانه : «الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون ابناءهم» (الانعام ـ ٢٠)

وقوله سبحانه: «الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون» (القصص ـ ٥٢)

وقوله سبحانه: «والذين آتيناهم الكتاب يعلمون انه منزل من ربك بالحق» (الانعام ـ ١١٤)

وقوله سبحانه : «والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما انزل اليك» (الرعد ـ ٣٦)

وقوله سبحانه: « فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به » (العنكبوت ـ ٤٧)

وقوله سبحانه: «حكاية عن المشركين بانه نزل الكتاب على الطائفتين المسيحية واليهودية ولم ينزل علينا : « ان تقولوا انما انزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وان كنا عن دراستهم لغافلين أو تقولوا لو انا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة » (الانعام ١٥٦ ـ ١٥٧)

فبهذه الايات وما تقدمها يمكن تفسير ما تقدمها من الايات المفيدة المشعرة بكون التوراة نازلة الى الناس كلهم بحمل ما دل على سعة التشريع ، على الاستغراق العرفی ، دون العقلی ، فيراد من قوله سبحانه : نوراً وهدى للناس ، أو ضياء وذكرا للمتقين ، الكتلة المتماسكة من بنی اسرائيل.

نعم ، يمكن ان يقال بعكس ذلك، فيقال: ان تخصيص بنی اسرائيل بالذكر

---

(١) اللهم الا ان يحمل التأكيد بانهم هم الذين اوتوا الكتاب على كون الكتاب نزل على بنی اسرائيل وليس معناه انه لايجوز لغيرهم العمل به.

لاجل ان التوراة كانت هـدى لبنى اسرائيل قبل ان تكون لغيرهم بشهادة بعث موسى فيهم وتولده ونشوئه بينهم ولاجل ذلـك خص الله ذلك القوم بالذكر وقال : «وجعلناه هدى لبنى اسرائيل» (الاسراء - ٢)

ولمامات وترك بينهم ذلك الكتاب الكريم، كانت تلك الطائفة أولى بميراث نبيهم ولاجل ذلك قال : «واورثنا بني اسرائيل الكتاب» (الغافر- ٥٣)

ولكن يؤيد الحمل الاول، اعنى كون الاستغراق عرفياً لاعقلياً، قوله سبحانه: «وكتبنا عليهم فيها ان النفس بالنفس والعين بالعين والانف بالانف» (المائدة -٤٥) وقد كتب الله لهم هذا الحكم في التوراة وتقييد الكتابة بلفظ (عليهم) يؤيد كون الكتاب نازلا لهدايتهم خاصة .

ويؤيد الحمل الثانى قوله سبحانه: «انا انزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والاحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء» (المائدة -٤٤)

فظاهر الايـة ان التوراة كانت محكمة بعد موسى عبر القرون يحكم بها النبيون فالاية تفيد سعة نطاق كتابه وشريعته .

ومع ذلك كله، فالامعان في الاية لا يفيد الا كون الكتاب حجة لبنى اسرائيل ومحكماً عليهم والانبياء الذين كانوا يحكمون به كانوا من بنى اسراتيل لامـن غيرهم ولقد بعثوا لهدايتهم وذلك لان الله يقول: «يحكم بها النبيون للذين هادوا» (لالغيرهم) الذى هو المطلوب .

هذا ما بلغ اليه فهمنا القاصر من التدبر في آيات الذكر الحكيم ولما كانت في المقام اسئلة حول المختار عقدنا لها الفصل التالى .

* * *

اسئلة واجوبة

السؤال الاول

ربما يستدل على كون دعوةنوح والخليل والكليم والمسيح عالمية بقوله سبحانه: « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً وما أوحينا اليك والذي وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » (الشورى - ١٣) ويستند في كيفية الاستدلال الى افاده العلامة الطباطبائى حيث قال :

يستفاد من الاية أمور :

أحدها: ان السياق بماانه يفيد الامتنان وخاصة بالنظر الى ذيل الاية، والاية التالية يعطى ان الشريعة المحمدية جامعة للشرائع الماضية ولا ينافيه قوله تعالى: « ولكل جعلنا منكم شرعة و منهاجا » (المائدة - ٤٨) لان كون الشريعة شريعة خاصة لاينافي جامعيتها .

الثانى: ان الشرائع الالهية المنتسبة الى الوحي انما هي شريعة نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد (ص) اذلو كان هناك غيرها لذكر قضاء لحق الجامعية المذكورة .

ولازم ذلك أولا : ان لا شريعة قبل نوح (ع) بمعنى القوانين الحاكمة في المجتمع الانسانى الرافعة للاختلافات الاجتماعية ، وقد تقدم نبذة من الكلام في ذلك في تفسير قوله تعالى : « كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين » (البقرة - ٢١٣)

وثانيا : ان الانبياء المبعوثين بعد نوح كانوا على شريعته الى بعثة ابراهيم وبعدها على شريعة ابراهيم الى بعثة موسى وهكذا .

الثالث : ان الانبياء أصحاب الشرائع وأولى العزم هم هؤلاء الخمسة

المذكورون فى الاية اذلو كان معهم غيرهم لذكر فهؤلاء سادة الانبياء ويدل على تقدمهم أيضاً قوله: «واذأخذنامن النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى بن مريم واخذنا منهم ميثاقا غليظاً » (الاحزاب - ٧) (١)

الجواب

انماذكره (رضوان الله) وان كان صحيحا لكنه لايدل على عمومية نبوة هؤلاء الاربعة ومنشأ الاشتباه (في الاستدلال بالاية واضرابها على عمومية الدعوة) هو الخلط بين عمومية دعوتهم وتداول شريعتهم بعدهم ، فقد جرت سنة الله على بعث انبياء غيرصاحب شريعة في المناطق التى بعث فيها نفس أصحاب الشرايع وهؤلاء المبعوثون كانوا يحملون النبوة والوحي، ويتشرفون بالبينات والمعجزات من دون ان تكون لهم شريعة مستقلة ، بل كانوا تابعين لاحدى الشرايع الاربع المتقدمة أو المتعاصرة وناشرين لها ، وكانت نبوتهم مختصة بقومهم ومنطقتهم غيران ظهور كل واحد منهم من منطقة من المناطق ، كان دليلا على انتهاء نبوة النبى صاحب الشريعة عند بعث النبى اللاحق ، بل كان دليلا على عدم سعتها من بدء الامر، كما اذا كان النبى المروج معاصراً للنبي صاحب الشريعة مثل لوط بالنسبة لابراهيم (ع) .

وهذا ، هو القرآن يحكى عن انبياء مروجين معاصرين لصاحب الشريعة او تالين له ، آخذين بشريعته .

فقد بعث الله هوداً الى عاد بشريعة مثل شريعة نوح التي كانت بسيطة غاية البساطة ، كما بعث صالحاً الى ثمود ، بمثل ما بعث به هوداً .

وقد بعث الله لوطاً الى قومه ، دون ان تكون له شريعة بل كان يتبع شريعة ابراهيم وكانا يعيشان فى عصرواحد كما بعث شعيباً الى اصحاب مدين والايكة،

(١) الميزان ج ١٨ ص٢٨ .

فاهلك مدين بصيحة جبرئيل ، والايكة بعذاب يوم الظلة ولم تكن له شريعة مستقلة ، بل كان يبتع شريعة الخليل ويروجها وينشرها .

وقد بعث الله يونس الى مأة الف او يزيدون وكان يعمل بشريعة موسى و هكذا حكم سائر الانبياء المبعوثين فى الاونة بعد الاونة ، فى ثنايا ازمنة اصحاب الشرائع .

فهؤلاء الانبياء المروجون لم يكونوا من علماء الامة حتى يكونوا مشمولين لدعوة اصحاب الشرايع ، بل كانوا ذوى دعوة وارشاد ، ووحى واعجاز ، خارجين عن دعوة من تقدمهم ، داعين الى انفسهم ونبوتهم وان كانوا آخذين بشريعته وكانت الامة التى بعث هؤلاء اليهم مكلفة تبلبية نداء هذا النبى الجديد، والاقتداء بهداه والاتباع لقوله وفعله وهذا دليل على انقطاع نبوة النبى السالف ورسالته اوعدم سعته من اول لامر كما اذا كانا متعاصرين مثل لوط وابراهيم .

نعم ، لم تكن هذه الجماعة كنفس اصحاب الشرايع ايضا ، انبياء عالميين بعثوا لهداية من في الشرق والغرب، بل كانوا انبياء محليين(١) مبعوثين الى اقوامهم ومناطقهم المستعدة للبعث كنفس اصحاب الشرايع .

فثبت بذلك ان نبوة مثل موسى كانت محدودة بامرين :

الاول : ان نبوته كانت اقليمية لاعالمية .

الثانى : ان نبوته كانت منقطعة، يبعث نبى بعده، وان لم يكن صاحب شريعة، بل مروجاً وتابعاً لشريعته ، وبقاء الشريعة ، غير عمومية النبوة .

نعم ، النبوة بمعنى الصفات الحاصلة للنبى مثل علمه ، لاترتفع بموته ، لبقاء روحه المقدسة ونفسه الكريمة ، والنبوة بهذا المعنى ، لاترتفع الى الابد، بل المراد ماتستتبعه هذه الصفات من كونه قائداً رسمياً من جانب الله سبحانه ، يجب على الناس الانتماء والانتساب اليه ، بحيث يعد الانسان من تابعيه واقعاً ،

(١) سيوافيك توضيحه عند الاجابة عن السؤال الثانى .

وهذا المعنى امر قابل للارتفاع بعد ظهور النبي اللاحق و ان كانت الشريعة باقيـة .

على ان الظاهر من بعض الايات ، تخصيص كل نبى لاحق وان كان تابعـاً لشريعة من قبله ، بشيء من الحكم، لم يكن موجوداً فى شريعة من قبله، فلم يكن وزانهم، وزان العلماء بحيث لايزيدون ولاينقصون، بل كان لهم بعض الخصائص من الاحكام والتعاليم ، كما يفيده قوله سبحانه :

« قل امنـا بالله وما انزل علينا ومـا انزل على ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وما اوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لانفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون » (آل عمران ـ ٨٤) .

فظهور الاية فى استقلالهم بالنبوة واختصاص كل واحد بشيء من الوحى، مما لاينكر ؟

* * *

نعم كون شريعة نوح محدودة ببعث ابراهيم او كون شريعة الاخير محدودة ببعث موسى عليهم السلام لاينافي كون الامة المحمدية مامورة باتباع ملة ابراهيم لا لاجل بقاء نبوته او شريعته بل لاجل وحدة الشريعتين في الجوهر والاصول التى أهمها التوحيد ورفض الاوثـان والاصنام ، قال سبحانه : «ان اولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولى المؤمنين »

(آل عمران ـ ٦٨)

وقوله : «فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين»

(آل عمران ـ ٩٥)

الى غير ذلك مما ورد من الامر بالاتباع لملة ابراهيم . وهذا لا يدل على بقاء الشريعة ، بل لما كان ابراهيم ، هو البطل الوحيد في كسر شوكة الاصنام

وتحطيم انوف المشركين وعبدة الاوثان وقد بعث النبي الاعظم محمد (ص) بنفس ما بعث به ابراهيم ، أمـر سبحانه بالاتباع لملته وطريقته قال : «ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل» (الحج - ٧٨)

ولاجل هـذه الملاحظة ، يقول يوسف لصاحبيه في السجن « واتبعت ملة آبائى ابراهيم واسحاق ويعقوب» (يوسف - ٣٨)

وما هذا الابقاء جوهر الدين في الشرايع السماوية كلها فالامة المسلمة كانت خليلية الى ان صارت موسوية ، فعيسوية فمحمدية على المعنى الذي عرفته.

* * *

السؤال الثانى

لو كانت نبوة موسى والمسيح اقليمية فماذا يعنى الحديث التالى ، والـى ماذا يشير :

«انما سمى أولوا العزم ، لانهم كانوا أصحاب العزائم والشرايع وذلك ان كل نبى كان بعـد نوح ، كان على شريعته ومنهاجه وتابعاً لكتابه ، الى زمـن ابراهيم الخليل وكل نبي كان في أيام ابراهيم الخليل وبعده ، كان على شريعة ابراهيم ومنهاجه وتابعاً لكتابه الى زمن موسى (ع) وكل نبى كان في زمن موسى وبعده ، كان على شريعته ومنهاجه وتابعاً لكتابه الى زمن عيسى (ع) وكل نبي كان في أيـام عيسى وبعده ، كان على منهاج عيسى وشريعته وتابعاً لكتابه الى زمن نبينا محمد (ص)، فهؤلاء الخمسة أولوا العزم وهم أفضل الانبياء والرسل وشريعة محمد (ص) لا تنسخ الى يوم القيامة ولا نبى بعده (١) .

الجواب : المستفاد من الحديث أمران :

---

(١) بحـار الانوار ج ١٥ ص ١٤٥ ورواه الكافى فى باب الشرائع ج ٢ ص ١٧ بادنى اختلاف .

الاول : الحديث يدل بصراحة على وجود انبياء في زمن هؤلاء الاربعة وهذا أقوى شاهد على عدم كون نبوتهم عالمية ، اذ لا وجه لبعث نبيين الى أمة واحدة ولم يثبت الاشتراك في النبوة الا في موسى لقوله سبحانه : «واشركه في أمري » (طه - ٣٢)

وقوله سبحانه : «فارسله معي ردءاً يصدقني» (القصص - ٣٤)

الثاني : ان الانبياء المبعوثين في زمنهم أو بعدهم، كانوا متمسكين بشرائع هؤلاء الاربعة وكانت شريعتهم متداولة بينهم .

والثابت تداول شريعتهم في المناطق التي بعث فيها هؤلاء ولعل تداول شريعتهم بين الامم السالفة، من دون تبديل، صار سبباً لتوهم كون نبوتهم عالمية لا اقليمية . ولكنه لم يثبت تداول شريعتهم بين أمم الارض جميعاً وانما القدر المتيقن تداولها في الشرق الاوسط وما ضاهاه لا اقطار الارض جميعاً ، نعم دلت الايات القرآنية على انه لم تخل أرض معمورة من نبي أو نذير قال سبحانه : « وان من أمة الا خلا فيها نذير » (فاطر - ٢٤)

وقال سبحانه: «ولقد بعثنا في كل أمة رسولا ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت» (النحل - ٣٦)

وقال سبحانه : « انما انت منذر ولكل قوم هاد » (الرعد - ٧)

وهذه الايات ومايشابهها تدل على شمول فيض النبوة لاقطار الارض وأممها وانه لم تخل أمة من تلك النعمة الالهية ويؤيد ذلك ماعن أمير المؤمنين : اللهم بلى لا تخلو الارض من قائم لله بحجة، اما ظاهراً مشهوراً أو خائفاً مغموراً لئلا تبطل حجج الله وبيناته (١) .

وعنه ذلك يتوجه السوال التالي :

* * *

(١) نهج البلاغة قسم الحكم الرقم ١٤٧ .

السؤال الثالث :

لوكانت نبوة هؤلاء الاربعة اقليمية وشريعتهم متداولة في الشرق الاوسط، فمن الذي بعثه الله الى هؤلاء الامم المبعثرة في أقطار الارض وارجائها ومن هم حجج الله وبيناته بين ظهرانييهم؟

الجواب : ان القرآن لم يقصص قصص الانبياء عامة ولم يأت باسمائهم جميعاً والمذكور منهم لا يتجاوز عن ستة وعشرين نفراً ، قال سبحانه : «ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك »

(االغافر - ٧٨)

وقال سبحانه: «ورسلا قدقصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك»

(النساء - ١٦٤)

ولم تحصل لنا الاحاطة بكل من بعثه الله الى الامم، وقيضهم لهداية الناس.

وقد روى الفريقان عن النبى ان عدد الانبياء مأة ألف وأربعة وعشرون ألفاً وقد جاء في التواريخ والادعية قسم كبير من اسماء الانبياء لانعرف عن احوالهم الا شيئاً يسيراً فلعله كانت هناك جماعة كبيرة وعظيمة من الانبياء مبعوثين الى هداية الناس ودعوتهم الى الله من دون ان نسمع لهم ذكراً أو نعرف لهم حالا وقد سأل السائل عن صادق الامة وامامها وقال : فاخبرنى عن المجوس افبعث الله اليهم نبياً فانى اجدلهم كتباً محكمة ومواعظ بليغة وامثالا شافية يقرون بالثواب والعقاب ولهم شرائع يعملون بها .

قال (ع) : ما من أمة الا خلا فيها نذير وقد بعث اليهم نبياً بكتاب من عند الله فانكروه ومجدوا كتابه (١) .

فلوكانت نبوة المجوس بعد موسى وقبل المسيح لما أمكن ان تكون نبوة موسى عالمية .

---

(١) الاحتجاج ج ٢ ص ٩١ .

هل كانت نبوة المسيح عالمية

بعد اسفر وجه الحقيقة من ثنايا البحث وظهر ان الحق هوان نبوة موسى كانت لقوم خاص ، وان كانت شريعته متداولة بين المبعوثين من بعده من الذين بعثوا في الاقوام التى بعث فيها نفس الكليم فلنشرع في تحقيق حال نبوة المسيح سعة وضيقاً فنقول :

ظاهر بعض الايات يفيد ان رسالته كانت لقوم خاص ايضاً وانه كان مبعوثاً الى بني اسرائيل خاصة قال سبحانه : «واذ قال عيسى بن مريم يا بني اسرائيل انى رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة» (الصف ـ ٦).

وقال سبحانه: ولما ضرب ابن مريم مثلا اذا قومك منه يصدون» (الزخرف ـ ٥٦) « ان هو الاعبد انعمنا عليه وجعلناه مثلا لنبي اسرائيل » (الزخرف ـ ٥٩) «ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولابين لكم بعض الذى تختلفون فيه فاتقوا الله واطيعون » (الزخرف ـ ٦٣) .

وقال سبحانه : « انا انزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين اسلموا للذين هادوا والربانيون والاحبار بما استحفظوا من كتاب الله » (المائدة ـ ٤٤) وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة » (المائدة ـ ٤٦)

فان تقفية النبيين الذين كانت نبوتهم لقوم خاص قطعاً بعيسى بن مريم و كونه مصدقاً للتوراة المختصة ببني اسرائيل تشعر بكون نبوته مثلهم ايضاً ، وقال سبحانه : «وقال المسيح يابني اسرائيل اعبدوا الله ربي ربكم » (المائده ـ ٧٢)

وقال سبحانه : « ورسولا الى بني اسرائيل انى قد جئتكم بآية من ربكم

اني اخلق لكم من الطين كهيئة الطير » (آل عمران ـ ٤٩).

وقال سبحانه: «لقد اخذنا ميثاق بني اسرائيل وارسلنا اليهم رسلا كلما جاءهم رسول بما لاتهوى انفسهم فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون» (المائدة ـ ٧٠) «لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح بن مريم وقال المسيح يابني اسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم » (المائدة ـ ٧٢) .

ولا يخفى على القارىء مافيها من الدلالة على كونه مبعوثاً الى بني اسرائيل حيث جعل محور الكلام في الايتين المرسلون الى بني اسرائيل وقال: « وارسلنا اليهم رسلا » ثم حكم بكفر من قال بان الله هو المسيح بن مريم مشعراً بذلك بان المسيح كان من المبعوثين اليهم وهم الذين البسوه لباس الالوهية وجعلوه الهـاً .

اضف الى ذلك ان المسيح جعل محور الخطاب قوم بنى اسرائيل وقال: «يا بني اسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم» (المائدة ـ ٧٢) .

نعم ظاهر بعض الايات يفيد عمومية نبوته ودعوته كما في قوله تعالى: «وانزل التوراة والانجيل من قبل ، هدى للناس وانزل الفرقان» (آل عمران ـ ٣و٤) ويعالج الاختلاف بما عالجنابه ما ورد في حق الكليم والتوراة ، بان الاستغراق في قوله « للناس » عرفى لاعقلى ويراد من قومه : الكثيرون .

وقال العلامه فى شرح التجريد : ذهب قوم من النصارى الى ان محمداً (ص) مبعوث الى العرب خاصة (١) .

فهذا اقرار منهم على عدم عمومية رسالة المسيح .

وقال الطبرسى (٢) فى تفسير قوله تعالى : «واذ قال عيسى بن مريم يابني

(١) كشف المراد ص ٢٨٣ ط قم .

(٢) مجمع البيان ج ٥ ص ٢٧٩ طبع صيدا .

اسرائيل انى وسول الله اليكم ....»

اى اذكر اذ قال عيسى بن مريم لقومه الذين بعث اليهم .

وقال العلامة فى تهذيبه عند البحث عن تعبد النبي، قبل بعثته بدينه لابدين من قبله من الرسل: الاقرب انه عليه السلام قبل النبوة لم يكن متعبداً بشرع احد والا لاشتهر ولا فتخربه اربابها ونمنع عموم دعوة من سبقه (ع) (١) .

وقد عد العلامة ذلك من خصائص بعثته الى الناس كافة (٢).

وهاهنا سؤال : وهو انه ان كانت نبوة المسيح مختصة ببني اسرائيل فلماذا جعل النبى نصارى العرب من اهل الذمة مثل يهود العرب وعامل النصارى واليهود معاملة واحدة مع انه ثبت ان الكليم كان مبعوثاً الى خصوص بني اسرائيل والاجابة عن هذا السؤال سهلة : لان من المحتمل جداً ان الرسول كان مأموراً بالحكم على كل متمسك بالكتاب السماوى احتراماً للعنوان ، لالكون الكتاب نازلا فيه كما هو الحال في اتباع المجوس ، فعامل الرسول مع المتمسكين بدين « زرادشت » معاملة المتمسك بدين المجوس مع ان اهل الكتاب هو الثاني دون الاول .

* * *

ويؤيد كون رساله المسيح (ع) لقوم خاص امور :

١ ـ ان اجداد النبي واسرة البيت الهاشمى وجميع الاحناف في الجزيرة العربية ، كانوا على دين ابراهيم ولم ينقل احد من اهل السير تهودهم او تنصرهم .

قال الزرقانى : ان العرب من عهد ابراهيم كانوا على دينه ولم يكفر احد منهم الى ان جاء عمرو بن لحي فهو اول من عبد الاصنام وغير دين ابراهيم وكان

(١) تهذيب الوصول الى علم الاصول ص ٥٦ الطبع الحجرى .

(٢) التذكرة ج ٢ اوائل كتاب النكاح والمطبوع منها غير مرقم .

قريباً من كنانة جد النبي (١) .

٢ ـ يظهر مما انشأه عبد المطلب فى قصة اصحاب الفيل انه وقومه كانوا متحرزين من النصارى على وجه الاطلاق حيث انه بعدما رجع من عند « قائد الجيش » « ابرهه » آيساً من انصرافه عن هدم الكعبة ، اخذ بحلقة الباب قائلا :

لا يغلبن صليبهم ومحا لهم عدواً محالك (٢)

٣ ـ ما رواه الحافظ البخارى : عن النبي (ص) انه قال : « اعطيت خمساً لم يعطهن احد قبلى . . . و اعطيت الشفاعة وكان النبي يبعث الى قومه وبعثت الى الناس عامة» (٣) وفى بعض الفاظ الحديث «وكان كل نبي يبعث الى قومه وبعثت الى كل احمر واسود» .

وقال الشيخ منصور على ناصف فى كتابه القيم التاج الجامع للاصول روى عن جابر عن النبي قال: «اعطيت خمساً لم يعطهن احد من قبل ، نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لي الارض مسجداً وطهوراً واعطيت الشفاعة وكان النبي يبعث الى قومه خاصة وبعثت الى الناس عامة ، رواه الخمسة الا ابا داود (٤).

٤ ـ روى الكلينى عن أبي عبدالله الصادق(ع): ان الله تبارك وتعالى أعطى محمداً شرايع نوح وابراهيم وموسى وعيسى وجعلت له الارض مسجداً وطهوراً وأرسله كافة الى الابيض والاسود والجن والانس (٥) .

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٧٩ .

(٢) بحار الانوار ج ١٥ ص ١٤٥ نقلا عن مناقب آل ابى طالب.

(٣) صحيح البخارى فى مختلف كتبه، التيمم الباب الاول، الغسل الباب ٣٦ الصلاة الباب ٥٤ .

(٤) يعنى رواه البخارى ومسلم والنسائى والترمذى وابن باجه راجع ج١ ص٣٠.

(٥) الكافى ج ٢ باب الشرائع ص ١٧ طبعة دار الكتب الاسلامية .

فقد ظهر من هذا البحث الحديثي ، انه لم تكن نبوة الكليم والمسيح فضلا عمن كان قبلهم من ابراهيم ونوح تعم العالم كله، بل كانت دعوتهم اقليمية أو لقوم خاص ليس غير واما الدعوة العالمية فتختص بالنبي الخاتم كما أوضحناه (١).

فان قلت : ان آدم قد بعث الى الناس كافة كما ان نوحاً كان مبعوثاً الى أهل الارض كافة بعد الطوفان لانه لم يبق معه الا من آمن به، وعليه فينتقض الحصر في الحديث المتفق عليه بين الفريقين .

قلت : الحديث منصرف عن بدء الخلقة وعن النبي الذي لم يكن على اديم الارض الا نفسه وولده ، اما نوح فقد تضافرت الايات انه كان مبعوثاً الى قومه كقوله سبحانه : «انا أرسلنا نوحاً الى قومه» (نوح - ١)

واما صيرورة رسالته عالمية بعد الطوفان ، لانحصار الخلق في الموجودين بعد هلاك الناس ، فانما هو لامر عارض لا يضر بخصوصية رسالته .

أضف الى ذلك ان القدر المسلم هو ان الطوفان لم يكن عالمياً، بل كان خاصاً بمنطقة من الارض التي كان يعيش فيها قومه ويؤيد ذلك انه اذا كان مبعوثاً الى قومه خاصة لم يكن وجه لتعذيب غيرهم واهلاكهم بتكذيب قومه اذا لم تصلهم دعوته كما هو الظاهر (٢) .

ههنا سؤال :

اذا كانت نبوة كل واحد من هؤلاء الاربعة اقليمية أو مختصة بقوم خاص، فما معنى « اولوا العزم من الرسل » الذي وصف الله به عدة من الرسل ؟ فان المشهور أن المقصود منهم من كانت رسالته عالمية موجهة الى الناس كافة .

ولاجل الاجابة على هذا السؤال عقدنا البحث التالي .

---

(١) راجع صفحات ٤١ - ٦١ من هذا الكتاب .

(٢) وقد وقفت على حقيقة الحال عند البحث عن حقيقة نبوة نوح (ع) .

ماالمراد باولى العزم من الرسل

لقد وصف الله بعض رسله أو كلهم بكونهم (١) أولى العزم من الرسل حيث قال : «فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون مايوعدون لم يلبثوا الا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك الا القوم الفاسقون» (الاحقاف ـ ٣٥)

فامر نبيه بالصبر والوقوف في وجه العدو كوقوفهم في وجه معانديهم ومخالفيهم وعندئذ يجب أن نتعرف على ماهو المراد من توصيفهم به وقبل كل شيء نأتي بنصوص أهل اللغة في معنى العزم :

١ ـ يظهر من ابن فارس في مقاييسه ان لهذا اللفظ معنى واحداً وهو القطع ضد الوصل واليه يرجع معناه الاخر وهو العزم وكأنه يقطع التحير والشك قال: « عزم » له أصل واحد صحيح يدل على الصريمة والقطع يقال : عزمت اعزم عزماً ـ الى أن قال ـ قال الخليل : العزم ما عقد عليه القلب من أمر انت فاعله أي متيقنه ويقال : ما لفلان عزيمة أي ما يعزم عليه كانه لا يمكنه ان يصرم الامر بل يختلط فيه ويتردد ومن قولهم: عزمت على الجنى وذلك ان تقرأ عليه من عزائم القرآن وهي الايات التي يرجى قطع الافة عن المؤوف واعتزم السائر اذا سلك القصد قاطعاً له والرجل يعتزم الطريق : يمضي فيه لا ينثني .

واولو العزم من الرسل الذين قطعوا العلائق (٢) بينهم وبين من لم يؤمن من الذين بعثوا اليهم كنوح عليه السلام اذا قال : «لا تذر على الارض من الكافرين ديارا» وكمحمد صلى الله عليه وآله اذ تبرأ من الكافر وبرأه الله تعالى منهم وأمره

(١) الترديد مبني على كون لفظة «من» تبعيضية او بيانية وان كان الظاهر هو الاول.

(٢) هذا التفسير لم يعهد من المفسرين.

بقتالهم في برائة من الله ورسوله (١) .

٢ـ وفسره الراغب بالقصد وعقد القلب، من غير اشارة الى أصله الذي أخذ منه هذا المعنى وقال : العزم والعزيمة عقد القلب على امضاء الامر قال : فاذا عزمت فتوكل على الله ، ولا تعزموا عقدة النكاح، وان عزموا الطلاق، ان ذلك من عزم الامور، ولم نجد له عزماً أى محافظة على ما أمر به وعزيمة على القيام، والعزيمة تعويذ كأنه تصور انك قد عقدت بها من الشيطان ان يمضى ارادته فيك وجمعها العزائم .

٣ـ وفسره الفيروز آبادى بقوله: عزم على الامر أراد فعله وقطع عليه، أوجد في الامر الى أن قال : واولو العزم من الرسل الذين عزموا على أمر الله فيما عهد اليهم ونقل عن الزمخشرى : أو لوالجد والثبات والصبر .

والمحصل من هذه النقول ان المعنى الاصيل لهذا اللفظ هو القطع ضد الوصل ، ثم يستعمل لاجل المناسبة في عقد القلب والثبات والصبر .

اما القرآن فالظاهر انه لم يستعمل فيه الا بمعنى عقد القلب مثل قوله :

«فاذا عزم الامر» (محمد ـ ٢١)

«فاذا عزمت فتوكل على الله» (آل عمران ـ ١٥٩)

«وان عزموا الطلاق» (البقرة ـ ٢٢٧)

«ولا تعزموا عقدة النكاح» (البقرة ـ ٢٣٥)

«وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الامور» (آل عمران ـ ١٨٦)

أى ان الصبر والتقى من الامور التي بان رشدها ويجب ان يعزم وينعقد القلب عليها وعقد القلب عليها يستلزم الصبر ويتوقف على الثبات في معارك الحياة فالصبر لازم العزم .

---

(١) المقائيس ج٤ ص ٣٠٨ .

ومثله قوله سبحانه : « واصبر على ما اصابك ان ذلك من عزم الأمور »
(لقمان - ١٧)

وقوله سبحانه: «ولمن صبروغفران ذلك لمن عزم الامور» (الشورى-٤٣)

والتدبر فى الايتين الاخيرتين يعطى ان العزم ليس مرادفاً للصبر والثبات وان فسره به الزمخشرى في كشافه حيث قال فى تفسيره: « اولو العزم أى اولو الجد والثبات والصبر » (١) .

وذلك لان اسم الاشارة في آية سورة لقمان اما راجع الى خصوص الصبر كما هو مقتضى الاقربية أو الى كل ما أوصى به لقمان من اقامة الصلاة والامر بالمعروف والنهى عن المنكر والصبر على ما اصابه وعلى أى تقدير لا يصح ان يفسر العزم بالصبر والثبات اذ يصير معنى الاية حينئذ : ان الصبر وحده أو هو مع غيره من عزم الامور .

وبذلك يظهر الحال في آية سورة الشورى فلاحظ .

وقوله سبحانه : « ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً »
(طه - ١١٥)

والمقصود لم نجد له عزماً حافظاً على عهده الذي عاهدناه .

نعم العزم على الشيىء والمحافظة على عقد القلب في طول الحياة لا ينفك عن الثبات والجد والوقوف في وجه المشاكل .

هذا معنى العزم في القرآن وبذلك يظهر معنى العزم في الاية التى نحن بصدد رفع الستر عن وجهها اعنى قوله سبحانه:«صبر كما فاصبر اولوا العزم من الرسل». فانه بمعنى اصحاب العزائم والقصود المؤكدة التي لا تنفصم أصلا وتدعوا الى العمل والسعى في سبيل الله سبحانه .

* * *

(١) الكشاف ج ٣ ص ١٢٦ .

من هم اولوا العزم من الرسل ؟

يجد القارىء الكريم حول الاية وجوهاً ومعانى حملت على الاية والاية لا تحتملها ودونك تلك الوجوه :

الوجه الاول :

١ ـ هم الذين بعثوا الى شرق الارض وغربها جنها وانسها (١) .

هذا المعنى أحد الوجوه التى تفسر بها الاية وعلى هذا يجب عد رسالة كل من قام الاجماع على كونه من الرسل اولى العزم أوعد منهم فى الاخبار الصحاح رسالة عالمية لا اقليمية وبما ان موسى والمسيح قامت الضرورة على كونهم من اولى العزم يجب ان يكون رسالتهم عالمية حسب هذا القول .

وقد عرفت ضعف هذا القول في البحث الماضى وان الايات تفيد كون رسالة الكليم والمسيح مختصة بقومهما وبالمناطق التى بعثا فيها فضلا عن كون رسالة نوح والخليل عليهما السلام عالمية .

وعلى ذلك فهذا الاحتمال في تفسير الاية لا يمكن الركون اليه فلنبحث عن المحتملات الاخر حول الموضوع .

الوجه الثانى :

ان يراد من اولى العزم كل الرسل ولم يبعث الله رسولا الاكان ذاعزم وحزم ورأى كمال وعقل وعلى هذا فلفظة «من» فى قوله: «من الرسل» تبيين لا تبعيض كما يقال : كسيته من الخز ، وكأنه قيل اصبر كما صبر المرسل من قبلك على اذى قومهم ، ووصفهم بالعزم لاجل صبرهم وثباتهم (٢) .

---

(١) حق اليقين للشبر ص١١١ ناقلا عن كامل الزيارة .

(٢) مجمع البيان ج ٥ ص ٩٤ .

ويؤيد ذلك قوله سبحانه : «واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً » (الاحزاب ـ ٧)

فان اضافة الميثاق الى النبيين دليل على ان الميثاق المأخوذ منهم بوصف كونهم من النبيين غير الميثاق المأخوذ منهم بوصف كونهم من بنى آدم الذي يشير الى ذلك الميثاق قوله سبحانه : «واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم واشهدهم على أنفسهم الست بربكم قالوا بلى » (الاعراف ـ ١٧٢)

فالاية الاولى تدل على أخذ الميثاق من النبيين عامة وأخذ الميثاق وان كان لا يدل على العزم الراسخ لكن سكوت القرآن عن نقضهم لهذا الميثاق وبما هم انبياء معصومون من كل عصيان ، يشعر أو يدل على قيامهم بالميثاق الغليظ الذي يتوقف على العزم الراسخ والارادة القوية التي تستتبع الصبر والثبات.

واما تخصيص الخمسة بالذكر فهو لعظمة شأنهم ورفعة مكانهم لكونهم أصحاب الشرائع والكتب لا لانحصار ذاك الوصف فيهم، كما يمكن ان يتوهم فقد خص الله سبحانه هؤلاء الخمسة بالذكر فى مورد آخر وقال : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » (الشورى ـ ١٣)

وقد اشار سبحانه الى أخذ الميثاق من الانبياء جميعاً فى قوله :

« واذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال ءأقررتم وأخذتم على ذلك اصرى قالوا اقررنا » (آل عمران ـ ٨١) (١)

وهذه الاية تحتمل معنيين:

الاول : انه سبحانه أخذ الميثاق من النبيين ولم يذكر متعلق الميثاق عندئذ وقوله «لما آتيتكم» ليس متعلقا لاخذ الميثاق منهم ، لكون اللام مفتوحة توطئة

(١) وقد بسط الطبرسى الكلام فى تفسير الايه فراجع ج ١ ص ٤٦٨ .

للقسم ، وقوله لتؤمنن جواب له، وعند ذلك يحتمل انيكون الميثاق المأخوذ منهم هووحدةالكلمة في الدين وعدم الاختلاف فيه واليه تؤمي آية سورة الشورى اعني قوله : « ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا » (الشورى ـ ١٣)

الثاني : انه سبحانه أخذ الميثاق من الامم على انبيائهم على تصديقهم والاقتداء بهم وعلى ذلك تخرج الاية عما نحن بصدد البحث عنه و المعنى الاول أظهر .

* * *

الوجه الثالث :

ان يكون من للتبعيض ويراد من «أولوا العزم» بعض الانبياء، قيل: هم نوح صبر على اذى قومه وكانوا يضربونه حتى يغشى عليه، وابراهيم على النار وذبح الولد ، واسحاق على الذبح، ويعقوب على فقدان الولد وذهاب البصر، ويوسف على الجب والسجن ، وايوب على الضر، وموسى اذ قال له قومه انا لمدركون قال ان معي ربي سيهدين ، وداود يبكي على زلته أربعين سنة وعيسى لم يضع لبنة على لبنة وقال انها معبرة فاعبروها ولا تعمروها وقال الله تعالى في آدم : لقد عهدنا الى آدم فنسي ولم نجد له عزماً، وفي يونس ولا تكن كصاحب الحوت اذ نادى ربه وهو مكظوم (١) .

وهذا القول أقرب الاقوال لولا ان فيه مسحة اسرائيلية حيث عد اسحاق ذبيحاً مع ان الذبيح هو اسماعيل ولكنه لايضر باصل المعنى ويؤيده كما اشير اليه نفي العزم عن آدم بعد ما عهد اليه ونسي ماعهد، والنسيان كناية عن الترك أطلق السبب واريد المسبب لان الشيء اذا نسي ترك والمراد من العهد هو النهي عن أكل الشجرة بمثل قوله : « ولا تقربا هذه الشجرة » (الاعراف ـ ١٩)

---

(١) مجمع البيان ج ٥ ص ١٩٤ ـ واحتمله الفخر راجع ج ٧ ص ٤٦٨ .

وعلى ذلك فالعزم اما بمعنى القصد الجازم كما هو الحق أو الصبر والثبات ويؤيده ما رواه القمى فى تفسير الاية حيث قال: وهم نوح وابراهيم وموسى وعيسى بن مريم ومعنى اولو العزم انهم سبقوا الانبياء الى الاقرار بالله واقروا بكل نبى كان قبلهم وبعدهم وعزموا على الصبر مع التكذيب لهم والاذى (١).

ولا يرد على هذه الرواية ما أوردناه على السابقه، نعم انحصاره في الخمسة المذكورة في الرواية يحتاج الى دليل قاطع.

ومع ذلك فهذا القول أقرب الاقوال لكن بتصرف فيه وهو ان جعل «اولو العزم» من الرسل حيث قال: اولوا العزم من الرسل، يدل على ان عزمهم القوى كان في تبليغ رسالتهم ونشرها بين الناس، لا مجرد ابتلائهم بالشدائد والبلايا ولو فى غير طريق نشر الدين، فابتلاء يعقوب ويوسف وايوب وغيرهم لا يجعلهم داخلا فى «اولوا العزم من الرسل» بما هم رسل ذووا رسالة من الله سبحانه الى عباده.

ويؤيده ان الاية بصدد تحريض النبي على تحمل المشاق في طريق دعوته ورسالته، والقرآن يصف نوحاً وابراهيم وموسى بكونهم ذوي عزائم قوية فى سبيل الدعوة وتبليغ الدين ولعل ههنا من يصفه القرآن بهذا الوصف أو هو كذلك وان لم يصفه القرآن ولكنا غير واقفين عليه.

* * *

الوجه الرابع:

من أتى بشريعة مستأنفة نسخت شريعة من تقدمه وهم خمسة أولهم نوح ثم ابراهيم ثم موسى ثم عيسى ثم محمد (ص) روي عن ابن عباس وقتادة وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبدالله (ع) قال: وهم سادة النبيين وعليهم دارت رحى المرسلين (٢).

---

(١) تفسير القمى.

(٢) مجمع البيان ج ٥ ص ١٩٤.

غير انه لم يثبت نسخ كل شريعة لاحقه لما تقدمها .

فذا هو عيسى بن مريم يبين الغاية من بعثته بقوله: «قد جئتكم بالحكمة ولابين لكم بعض الذى تختلفون فيه» (الزخرف ـ ٦٣)

فان معنى ذلك ان المسيح جاء مبينا لا ناسخاً لما تقدمه من الشرائع .

* * *

الوجه الخامس :

هم الـذين أمروا بالجهاد والقتال وجاهدوا في الـدين . نقل عن السدى والكلبى (١) .

وهذا الوجه ينطبق مع بعض المعانى المتقدمة خصوصاً الثالث .

* * *

الوجه السادس :

ان العزم بمعنى الوجوب والحتم واولو العزم من الرسل هم الذين شرعوا التشريع وأوجبوا على الناس الاخذ بها والانقطاع عن غيرها وخصهم القائـل بأربعة أعنى نوحاً وهوداً وابراهيم ومحمد (ص) (٢) .

وهذا المعنى مبنى على كون العزم بمعنى الحكم والشريعة مقابل الرخصة وهو الذي يؤيـده بعض الروايات المروية عن أهل البيت (ع) وقد روى في العيون عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: انما سمى أولوا العزم أولى العزم لانهم كانوا أصحاب العزائم والشرايع وذلك ان كل نبى كان بعد نوح كان على

(١) المصدر السابق ج٥ ص١٩٤.

(٢) المصدر السابق ج٥ ص١٩٤.

شريعته ومنهاجه وتابعاً لكتابه الى زمن ابراهيم الخليل (١) .

* * *

الوجه السابع :

المقصود هم الرسل الثمانية المذكورون في قوله سبحانه «وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء ان ربك حكيم عليم . ووهبنا له اسحاق ويعقوب ... » (الانعام ٨٣ - ٨٤)

والدليل على ذلك قوله سبحانه: «اولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده قل لا اسئلكم عليه أجراً ان هوالا ذكرى للعالمين » (الانعام - ٩٠)

وهذا المعنى من أبعد الاقوال عن الحق لانه سبحانه لم يخص الاهتداء بالثمانية الا وقد أشار الى آبائهم بقوله: «ومن آبائهم وذرياتهم واخوانهم واجتبياهم وهديناهم الى صراط مستقيم» (الانعام - ٨٧)

ثم قال سبحانه «اولئك الذين هدى الله فبهدهم اقتده» .

فيجب ان يكون الكل أولى العزم .

وهناك اقوال آخر يرجع الى الاختلاف فى عددهم بين كونها تسعة أوسبعة أو ستة أو خمسة أو أربعة وقد ضربنا عن ذكرها صفحاً .

وعرفت ان الحق هو الوجه الثالث بالتصرف الذي عرفته فيه وأوضحنا ان هذه اللفظة ليس علماً لعدة معينة بل هى وصف يشير الى الجماعة الذين صبروا في طريق رسالاتهم و تبليغ دين الله سبحانه وقد عرفت ان القرآن يصف ثلاثة من الرسل بهذا العنوان وهم عبارة عن نوح و الخليل والكليم ولعل هناك من صبر فى هذا الطريق ، وعرفه القرآن ولم نقف عليه ، عصمك الله وايانا من الزلل فى القول والعمل وجعلنا من أصحاب العزائم القوية فى نشر الحق .

---

(١) العيون ج١٢ الباب٣٢ ص٨٠ ونور الثقلين ج ٥ ص٢٢ .

شبهة واهية فى المقام

ذهب بعض المعترضين من لا المام له بحقيقة التعاليم الاسلامية ولا معرفة له بـأصول الدين المحمدي وفروعه الى انكار عالمية الاسلام ، تمسكاً بالامر التالي وهو :

ان الاسلام جاء بضرائب على الابل والبقر والغنم بمقادير دقيقة فـي غاية الدقة لان الجزيرة العربية كانت يوم ذاك تكثر فيها الجمال والمواشى دون غيرها من البلاد والقارات وذلك آية كونه دينا اقليميا لا عالميا، بل آية على ان تخصيطاته الاقتصادية ، وقوانينه في الضرائب وغيرهـا تناسب عصر الجمال والمواشى ، لاعصر الصاروخ والطائرة ، والمعامل الكبرى، والمصانع الخضمة، والاعمال التجارية الهائلة .

قلت : هـذه شبهة يتمسك بها تـارة على نفي كون الاسلام دينا عالميا ، وأخرى على نفى كونه دينا أبديا وخاتما لرسالات السماء بحجة ان ماجاء به الاسلام من تشريع فى مجال الضرائب ناقص لا يفى بالحاجات المتجددة فى العصور المتطورة والحضارات المتقدمة ، والنفقات المتزايدة .

وقد اجبنا عن هذه الشبهة مفصلا في الجزء الثانى من هذه الموسوعة عند البحث عن (المنابع المالية للحكومة الاسلامية) فلاحظ تجد فيها مايقطع جذور الشبهة من اساسها .

«٢»

الخاتمية في الذكر الحكيم

عرض وتحليل للآيات القرآنية الدالة على
أن محمداً (ص) خاتم النبيين، وان رسالته
خاتمة الرسالات وكتابه خاتم الكتب وفيه مأة
وست وثلثون حديثاً حول الخاتمية

فی هذا الفصل :

١ ـ وحدة الشرائع السماوية جوهراً واختلافها فی الطرق والمناهج لافی المقاصد والغايات .

٢ ـ التنصيص القرآنی علی ختم النبوة بالرسول اكرم (ص) .

٣ ـ الخاتم ومعناه فی اللغة والقرآن.

٤ ـ تشكيكان حول دلالة الاية والاجابة عنهما .

٥ ـ ختم النبوة يستلزم ختم الرسالة .

٦ ـ نصوص قرآنية اخری علی الخاتمية .

٧ ـ النبی الاكرم نذير للعالمين ، وتحقيق فی معنی « العالمين ».

٨ ـ الكتاب العزيز لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

٩ ـ النبی الاعظم ينذر بالقرآن كل من بلغه .

١٠ ـ الرسول الاكرم بعث الی الناس كافة .

١١ ـ القرآن مهيمن علی جميع الكتب النازلة من قبل .

١٢ ـ اشارات الی الخاتمية ، مأة وست تلزن حديثاً حول الخاتمية .

الخاتمية في الذكر الحكيم

اتفقت الامة الاسلامية عن بكرة أبيها على أن نبيهم محمداً خاتم النبيين ، وأن دينه خاتم الاديان ، وكتابه خاتم الكتب والصحف ، فهو (ص) آخر السفراء الالهيين ، اوصد به باب الرسالة والنبوة، وختمت به رسالة السماءالى الارض .

لقد اتفق المسلمون كافة على أن دين نبيهم، دين الله الابدي، وكتابه ، كتاب الله الخالد ، ودستوره الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه وقد أنهى الله اليه كل تشريع وأودع فيه أصول كل رقي ، وأناط به كل سعادة ورخاء ، فاكتملت بدينه وكتابه الشرايع السماوية التي هي رسالة السماء الى الارض .

توضيحه: ان الشريعة الحقة الالهية التي أنزلها الله الى أول سفرائه لاتفترق جوهراً عما أنزله على آخرهم ، بل كانت الشريعة السماوية في بدء أمرها كنواة قابلة للنمو والنشوء، فأخذت تنمو وتستكمل عبر القرون والاجيال، حسب تطور الزمان وتكامل الامم ، وتسرب الحصافة الى عقولهم ، وتسلل الحضارة الى حياتهم .

ويفصح عما ذكرنا قوله سبحانه: «شرع لكم من الدين ماوصى به نوحاً...» (الشورى ـ ١٣) فقد وصى نبينا محمداً بما وصى به نوحاً ، من توحيده

سبحانه وتنزيهه عن الشرك ، والدعوة الى مكارم الاخلاق ، والتنديد بالجرائم الخلقية ، والقضاء على أسبابها ، الى غير ذلك مما تجده في صحف الاولين والاخرين .

وتتجلى تلك الحقيقة الناصعة ، أي وحدة الشرايع السماوية ، جوهراً من مختلف الايات فى شتى المواضع ، قال سبحانه : « ان الدين عند الله الاسلام، وما اختلف الذين اوتوا الكتاب الا من بعد ماجاءهم العلم بغياً بينهم»(آل عمران - ١٩) وظاهر الاية يعطي ان الدين عند الله - لم يزل ولن يزال - هو الاسلام في طول القرون والاجيال، ويعاضدها قوله تعالى : « ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه » (آل عمران - ٨٥) .

وقد نبه سبحانه في مورد آخر على خطأ اليهود والنصارى في رمي - بطل التوحيد - ابراهيم باليهودية والنصرانية ، وقال : « ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين » (آل عمران - ٦٧) .

نعم المراد من الاسلام فى الايتين هو التسليم لله والامتثال لاوامره ونواهيه لاالمعنى العلمى منه ، الذي يقابل اليهودية والنصرانية .

وقد سئل علي (ع) عن حقيقة الاسلام، فقال: «لانسبن الاسلام نسبة لم ينسبها أحد قبلي : الاسلام هو التسليم، والتسليم هو اليقين» (١) ففسر الاسلام بالتسليم له سبحانه ، وحقيقة التسليم هنا هو ارجاع الامر والنهي اليه سبحانه ، فالواجب ما أمر به والحرام ما نهى عنه ، لاما أمر به الاحبار والرهبان ، أو نهوا عنه، ولا يتحقق التسليم الا برفض تحكيم الرجال فى الشريعة ، وردآراء الناس والاحبار والرهبان في الحلال والحرام .

فحقيقة الشرائع السماوية في جميع الادوار والاجيال كانت أمراً واحداً وهو التسليم لله في فرائضه وعزائمه وحده .

(١) نهج البلاغة : المختار من الحكم ١٢٥ .

ولاجل ذلك كتب الرسول الى قيصر عندما دعاه الى الاسلام، قوله سبحانه، «قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا اياه ولانشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » (١) .

وقد أمر سبحانه في آية أخرى رسوله بدعوة معشر اليهود أو الناس جميعاً الى اتباع ملة ابراهيم ، قال سبحانه : « فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين » (آل عمران ـ ٩٥) .

وصرح سبحانه بأن كل نبي جاء عقب نبي آخر ، كان يصرح بأنه مصدق بوجود ذلك النبي المتقدم عليه وكتابه ودينه ، فالمسيح مصدق لما بين يديه من التوراة ومحمد (ص) مصدق لما بين يديه من الكتب وكتابه مهيمن عليه، كما قال سبحانه : « وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة» « وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه » (المائدة ٤٦ ـ ٤٨) .

وهذه النصوص كلها تعبر عن وحدة أصول الشرائع وجذورها ولبابها .

وعلى هذا فرسالة السماء الى الارض ، رسالة واحدة في الحقيقة مقولة بالتشكيك ، متكاملة عبر القرون ، جاءت بها الرسل طوال الاجيال ، وكلهم يحملون الى المجتمع البشري رسالة واحدة لتصعد بهم الى مدارج الكمال، وتهديهم الى معالم الهداية ومكارم الاخلاق .

نعم كان البشر في أوليات حياتهم يعيشون في غاية البساطة والسذاجة ، فما كانت لهم دولة تسوسهم ، ولا مجتمع يخدمهم ولا ذرائع تربطهم ، وكانت أو اصر الوحدة ووشائج الارتباط بينهم ضعيفة جداً ، فلاجل ذاك القصور في العقل ، وقلة التقدم ، وضعف الرقي ، كانت تعاليم أنبيائهم ، والاحكام المشروعة

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٧٥ ، مسند أحمد ج ١ ص ٢٦٢ .

لهم ، طفيفة في غاية البساطة ، فلما أخذت الانسانية بالتقدم والرقي ، وكثرت المسائل يوماً فيوماً ، اتسع نطاق الشريعة واكتملت الاحكام تلو هذه الاحوال والتطورات .

فهذه الشرايع (مع اختلافها في بعض الفروع والاحكام نظراً الى الاحوال الاممية والشؤن الجغرافية) لا تختلف في أصولها ولبابها ، بل كلها تهدف الى أمر واحد ، وتسوق المجتمع الى هدف مفرد ، والاختلاف انما هو في الشريعة والمنهاج لا في المقاصد والغايات كما قال سبحانه: «لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات » (المائدة - ٤٨) (١)

وقال سبحانه: ثم جعلناك على شريعة من الامر فاتبعها ولا تتبع اهواء الذين لا يعلمون (الجاثية - ١٨)

وخلاصة القول : ان السنن مختلفة ، للتوراة شريعة ، وللانجيل شريعة ، وللقرآن شريعة ولكن الدين وهو الاصول و العقائد والاحكام التي تساير الفطرة الانسانية ولا يخالفها، واحد .

وهاتان الايتان لا تهدفان الى اختلاف الشرائع في جميع موادها، ومواردها اختلافا كليا بحيث يكون من النسبة بينها نسبة التباين ، كيف وهو سبحانه يأمر نبيه بالاقتداء بهدى انبيائه السالفين ويقول : « اولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » (الانعام - ٩٠)

وتخصيص الاقتداء بالتبعية لسننهم وسيرتهم فى دعوة اقوامهم الى الدين والصبر على اذاهم كما فى قوله سبحانه: «فاصبر كما أولوا العزم من الرسل ولا

(١) أى جعلنا لكل من موسى وعيسى ومحمد (ص) أو لكل من امم التوراة والانجيل والقرآن شريعة وطريقاً خاصاً الى ماهو الهدف الاقصى من بعث الرسل ومنهاجاً واضحاً، والاختلاف بين الكتب والشرائع جزئى لا كلى ، والنسخ فى بعض الاحكام لا فى جميعها .

تستعجل لهم » (الاحقاف ـ ٣٥) تخصيص بلا وجه .

فالقول بـاختلاف الشرائع وتباينها في جميع الموارد لا يرتضيه القرآن والقول باتحاد الشرائع بـاطل بالضرورة قال سبحانه لكل أمة جعلنا منسكاهم ناسكوه فلا ينازعنك في الامر (الحج ـ ٦٧)

والقول الوسط هو الاوسط ، والشريعة الكامله السمحة الصالحة لكل زمان وكل مكان هى الشريعة التى جاء بها الاسلام ونبيه الاكرم (ص) .

ثم انه سبحانه يصرح بحكمة اختلاف الشرايع وتعددها بقوله : « ولوشاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم » (المائدة ـ ٤٨)

فان الشريعة الواحدة انما تصلح لامة مخلوقة على استعداد واحد ، وحالة واحدة كسائر أنواع الخلق التي يقف استعدادها عند حد معين كالطير والنمل والنحل ، واما النوع الممتاز كالانسان الذي يرتقى فى اطوار الحياة بالتدريج وعلى سنة الارتقاء فلا تصلح له شريعة واحدة في كل طور من اطوار حياته ، فشدة أحكام الانجيل في الزهد وترك الدنيا والخضوع لكل حاكم وكل معتد لا يمكن ان يؤخذ به في هذا العصر ، ومثله ما في التوراة من أحكام شديدة كما لا يخفى .

نعم جاءت الرسل تترى ، وتواصلت حلقات النبوة في الادوار الماضية ، الى أن بعث الله آخر سفرائه ، فأتم به نعمته وأكمل به دينه ، فأصبح المجتمع البشري في ظل دينه الكامل وكتابه الجامع ، غنياً عن تواصل الرسالة وتعاقب النبوة ، واصبح البشر غير محتاجين الى ارسال أى رسول بعده ، اذ جاء الرسول بأكمل الشرائع وأتقنها وأجمعها للحقوق وبكل ما يحتاج اليه البشر في أدوار حياتهم وأنواع تطوراتهم وفي الوقت نفسه فيها مرونة تتمشى مع جميع الازمنة والاجيال ، من دون أن تمس جوهر الرسالة الاصلى بتحوير وتحريف .

ولنا عودة الى هذا الموضوع في الابحاث الاتية .

النصوص القرآنية الدالة على ختم النبوة :

لقدنص القرآن الكريم على ذلك تنصيصاً لايقبل الشك والترديد، ولايرتاب فيه من له أدنى المام باللغة العربية ، وذلك في مواضع :

النص الاول ، قوله سبحانه :

« ماكان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليماً » (الاحزاب ـ ٤٠)

توضيحه : تبنى رسول الله زيداً قبل عصر الرسالة ، وكان العرب ينزلون الادعياء منزلة الابناء في أحكام الزواج والميراث ، فأراد سبحانه أن ينسخ تلك السنة الجاهلية ، فأمر رسوله أن يتزوج زينب زوجة زيد، بعد مفارقته لها، فلما تزوجها رسول الله ، أوجد ذلك الزواج ضجة بين المنافقين والمتوغلين فى النزعات الجاهلية، والمنساقين وراءها، فردالله سبحانه مزاعمهم وطعنهم بقوله: « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم (من الذين لم يلدهم ومنهم زيد) ولكنه رسول الله(وهولايترك ماأمره الله به) وخاتم النبيين (وآخرهم ختمت به النبوة فلا نبي بعده ولا شريعة سوى شريعته، فنبوته أبدية وشريعته باقية الى يوم الدين).

الخاتم وما يراد منه :

الخاتم (سواء كان بفتح التاء كما عليه « عاصم » أم بكسرها ، كما عليه الباقون وعلى الفتح سواء أقلنا انه فعل كضارب بمعنى ختمهم ، أم اسم بمعنى آخرهم ، أو بمعنى ما يختم به أي المختوم به باب النبوة ، كما يختم بالطابع) لا يفهم منه في المقام الا معنى واحد وهو انه قد ختم به باب النبوة وأوصد بوجوده ودينه وكتابه باب الرسالة فلا نبي بعده أصلا .

وقد اصفقت على هذا كتب اللغة والتفسير والتاريخ طيلة أربعة عشر قرناً ولم

يختلف فيه اثنان، ولم ينبس أحد ببنت شفة على خلافه، فهذه معاجم اللغة وكتب التفسير المؤلفة في العهود الاسلامية السابقة، بيد أساطين اللغة وفطاحلها وأئمة التفسير وأبطاله ، ضع يدك على أي واحد منها ، تجدها متظافرة على ما قلناه وسوف ننقل بعض نصوصهم .

والاولى أن نرجع قبل كل شيء الى نفس القرآن وموارد استعمال هذه المادة فيه ، حتى نستعين بالقرآن الكريم نفسه ، فى رفع الابهام :

١ ـ «يسقون من رحيق مختوم» (المطففون ـ ٢٥) أي من الشراب الخالص الذي لا غش فيه ، تختم أوانيه من الاكواب والاباريق بمسك ، أو مختوم بابه بشيء مثل الشمع وغيره ، وذلك آية خلوصه .

٢ ـ «ختامه مسك وفى ذلك فليتنافس المتنافسون» (المطففون ـ ٢٦) مقطعه رائحة مسك اذا شرب .

٣ ـ «أم يقولون افترى على الله كذبا فان يشأ الله يختم على قبلك» (الشورى ـ ٢٤)

٤ ـ «اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم» (يس ـ ٦٥) أي طبع على أفواههم فتوصد أفواههم وتتكلم أيديهم .

٥ ـ «أفرأيت من اتخذ الهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وبصره» (الجاثية ـ ٢٣)

٦ ـ «ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة» (البقرة ـ ٧)

٧ ـ «قل أرأيتم ان أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من اله غير الله يأتيكم به» (الانعام ـ ٤٦)

فاذا انتهى الكافر من كفره الى حالة يعلم الله أنه لا يؤمن ، يطبع الله على قبله كما يطبع على الشيء بالشمع والطين فيصير قلبه كالمختوم عليه ، لا يدخله شيء ، ولا يخرج منه شيء ، فلا يدخله الايمان ولا يخرج منه الكفر .

فالختم على الشيء ، بمعنى الطبع عليه كناية عن ختم أمره ، فالختم على القلب يلازم انتهاء أمره وامتلاءه بالكفر والالحاد فلم يبق فيه موضع لنور الحق وكلماته ، كما أن ختم الورقة وطبعها بالطابع علامة أن الكاتب بلغ ما أراد من كتابته فيها ، وانتهى غرضه ومقصده .

والختم على النبوة عبارة عن أنه أوصد باب النبوة وطبع على بابها ، فهو مقفل الى يوم القيامة ، لا يفتح في وجه أحد .

وعلى أي تقدير فالناظر في هذه الايات لا يتلقى من تلك المادة الا معنى واحداً وهو الانتهاء ، أو ما يلازمه من الطبع على الشيء .

وقد أوضحه امام اللغة ابن فارس في معجمه وقال : «الختم» له أصل واحد وهو البلوغ آخر الشيء ، يقال ختمت العمل ، وختم القارىء السورة ، فأما الختم وهو الطبع على الشيء ، فذلك من هذا الباب أيضاً ، لان الطبع على الشيء لايكون الا بعد بلوغ آخره فى الاحراز ، والخاتم مشتق من الختم ، لانه به يختم ، ويقال : الخاتم بالكسر ، والخاتام والخيتام .

والنبي (ص) خاتم الانبياء لانه آخرهم ، وختام كل مشروب ، آخره ، قال الله تعالى : « ختامه مسك » ، أى أن آخر ما يجدونه عند شربهم اياه رائحة المسك .

وقال أبو البقاء العكبرى : الخاتم بفتح التاء على معنى المصدر ، أو هو فعل مثل قاتل بمعنى ختمهم ، وقال الاخرون : اسم بمعنى آخرهم ، وقيل : هو بمعنى المختوم به النبيون ، كما يختم بالطابع ويقرأ بكسرها ، بمعنى آخرهم (١) .

وقال الجوهري فى صحاحه : ختمه و يختمه ختماً وختاماً ، طبع على قلبه : جعله لا يفهم شيئاً ولا يخرج منه شيء ، وختم الشيء : بلغ آخره ، والختام ككتاب : الطين يختم به على الشيء ، والخاتم ما يوضع على الطينة ،

(١) التبيان فى اعراب القرآن ج ٢ ص ١٠٠ .

وحلي للاصبع ...

قال الفيروزآبادى في قاموسه : ختمت الشيىء ختماً فهو مختوم ومختم ، شدد للمبالغة ، وختم الله له بخير منه، وختمت القرآن: بلغت آخره، واختتمت الشيىء نقيض افتتحته، والخاتم بكسر التاء وفتحها، والخيتام والخاتام كله بمعنى واحد ، والجمع الخواتيم ، وتختمت اذا ألبسته ، وخاتمة الشيىء آخره .

ومحمد (ص) خاتم الانبياء .

والختام ، الطين الذي يختم به ، وقوله تعالى : « ختامه مسك » أي آخره، لان آخر ما يجدونه رائحة المسك .

قال ابـن منظور في لسان العرب : ختام القوم ، أقصاهم ، ختـام القوم وخاتمهم آخرهم ، محمد (ص) خاتم الانبياء ، والخاتم من أسماء النبي (ص) ففي التنزيل : « ما كان محمد (ص) أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » ، أى آخرهم ، وقـد قرأوا « خاتم » بالفتح ، ومن أسمائه « العاقب » أيضاً ومعناه آخر الانبياء .

قال أبو محمد الدميري في منظومته :

والخاتم الفاعل قل بالكسر وما به يختم ، فتحاً يجري (١)

وقال البيضاوي : وخاتم النبيين آخرهم الذي ختمهم ، أو ختموا بـه على قراءة عاصم بالفتح .

وفي تفسير الجلالين : وفي قراءة بفتح التاء ، كآلة الختم، أي به ختموا.

وقال الراغب في مفرداتـه : يطلق الختم على البلوغ الى آخر الشيء ، نحو ختمت القرآن ، أي انتهيت الى آخره ، وخاتم النبيين ، لانه ختم النبوة أي تممها بمجيئه .

الى غير ذلك من الكلمات الواردة والنصوص الدالة على تظافر اللغة والتفسير

(١) التيسير فى علوم التفسير ص ٩٠ .

على معنى واحد .

ولباب هـذه النصوص : ان لمادة هذه الكلمة معنى واحداً وهو الانتهاء والوصول الى آخره، وأما الخاتم المشتق منها فعلى الكسر بمعنى الاخر، وعلى الفتح اما فعل كضارب ، أو اسم بمعنى ما به يختم .

وأما اطلاقـه على الحلية التي تزين بها الاصبع ، فلاجل ان الدارج في عهد الرسالة طبع الكتاب بالخاتم ، فكانت خواتيمهم طوابعهم ، لا أنـه وضع لها ابتداء .

ويدل على ذلك ما رواه ابن سعد في طبقاته: ان رسول الله أرسل الرسل الى الملوك يـدعوهم الى الاسلام ، وكتب اليهم كتاباً فقيل يا رسول الله ان الملوك لا يقرؤن كتاباً الا مختوماً، فاتخذ رسول الله (ص) يومئذ خاتماً من فضة ـ فصه منه ـ نقشه ثلاثة أسطر : محمد رسول الله ، وختم به الكتب (١) .

قال ابن خلدون في مقدمته عند البحث عن شارات الملوك : أما الخاتـم فهو من الخطط السلطانية والوظائف الملوكية، والختم على الرسائل والصكوك معروف للملوك قبل الاسلام وبعده ، وقد ثبت في الصحيحين ، ان النبي (ص) أراد أن يكتب الى قيصر ، فقيل له : ان العجم لا يقبلون الكتاب، الا أن يكون مختوماً ، فاتخذ خاتماً من فضة ونقش فيه : محمد رسول الله .

قال البخاري : جعل ثلاث كلمات في ثلاثة أسطر وختم به وقال: لا ينقش أحد مثله ، قال : وتختم به أبو بكر وعمر وعثمان ، ثم سقط من يد عثمان في بئر اريس ...

وفي كيفية نقش الخاتم والختم به وجوه :

وذلك أن الخاتم يطلق على الالة التي تجعل في الاصبع ومنه تختم : اذا لبسه ومنه ختمت الامر : اذا بلغته، وختمت القرآن، ومنه خاتم النبيين، وخاتم

(١) الطبقات الكبرى ج ١ ص ٢٥٨ .

الامر ، ويطلق على السد الذي يسد به الاواني والدنان ، ويقال: ختام، وقدغلط من فسر هذا بالنهاية والتمام ، قال :آخر ما يجدونه في شرابهم ريح المسك ، وليس المعنىعليه وانما هومن الختام الذي هو السداد، لان الخمر يجعل لها في الدن سداد الطين أو القار ، يحفظها ويطيب عرفها وذوقها فبولغ في وصف خمر الجنة بأن سدادها من المسك وهو أطيب عرفاً وذوقاً من القار والطين المعهودين في الدنيا ..

وأن الخاتم اذا نقشت به كلمات أو أشكال ثم غمس في دواة من الطين أو المداد ، ووضع على صفح القرطاس بقى أكثر الكلمات في ذلك الصفح ، وكذلك اذا طبع به على جسم لين كالشمع فانه يبقى نقش ذلك المكتوب مرتسماً فيه ... الى أن قال :

ويكون هذا من معنى النهاية والتمام بمعنى صحة ذلك المكتوب ونفوذه كأن الكتاب انما يتم العمل به بهذه العلامات ، وهو من دونها ملغى ليس بتمام، ومن هذا خاتم القاضى الذي يبعث به للخصوم أى علامته وخطه الذي ينفذ بهما أحكامه ومنه خاتم السلطان أو الخليفة ، أي علامته ... الى آخر ما أفاده .

كل ماذكره ذلك الفيلسوف الخبير بأسرار التاريخ ، شواهد على ماذكرنا فراجع بقيه كلامه (١) .

تشكيكان حول دلالة الاية على كون نبى الاسلام خاتماً :

البهائية حزب سياسى، لها طابع المذهب، قد اختلقها الميرزا حسين على النورى المتوفى عام ١٣٠٩ هـ ق فى عكا ، ويليهم فى العقيدة والغاية «القاديانية» ومؤسسها « غلام أحمد القاديانى » ينسب الى احدى قرى البنجاب (قاديان) ، كان فى الرعيل الاول من فضلاء البنجاب وعلمائهم ، لكنه ادعى عام ١٨٩٢ أنه

(١) مقدمة ابن خلدون ج ١ ص ٢٢٠ .

المجدد للقرن الرابع عشر الهجرى ، وفق الحديث النبوى : سيأتى على رأس كل مأة سنة رجل يجدد لها دينها ، قال : أنا المبعوث لهذا القرن ، فاتبعونى لعلكم تفلحون، فأطاعته عدة من الخواص والعوام زرافات ووحدانا، ولما أحس بروح التبعية فيهم .

ادعى أنه المهدى والمسيح الموعود، ثم ادعى لنفسه النبوة وأنه نبى كمثل أنبياء بنى اسرائيل الذين كانوا معه ، وأنه نبى الامة الاسلامية بغير مصحف ، وعند ذلك هجم الناس عليه ليقتلوه ، لولا تدخل الحكومة الانكليزية ، وبقى على ما ادعى الى أن اخترمته المنية عام ١٩٠٨ ولم يستخلف أحداً ، فحدث بينهم خلاف عظيم ، فمالت فئة من أتباعه الى ابنه «بشير الدين أحمد» وتبعت فئة قليلة منهم « الامير محمد على » الذى شد أزر غلام أحمد من ابتداء الامر، وقرروا أن يجعلوا لهم جمعية اخرى، ويجتنبوا اتباع ابن غلام احمد، وجعلوا مركزهم فى « لاهور » عاصمة البنجاب، واشتهروا باسم الاحمدية اللاهورية، ومحمد علي هو مترجم القرآن بالانكليزية .

وبين الطائفتين اختلاف فى الاصول والفروع، فالاحمدية منهم مؤمنة بأن النبى خاتم الانبياء ولايؤمنون بنبوة غلام أحمد ولايكفرون المسلمين مهما كانت عقائدهم ، وهو وأتباعه يصلون خلف كل مسلم ، بشرط أن لايكفرهم ، وأما القاديانية منهم ، فهم يعتقدون أن غلام أحمد كان نبياً بلا كتاب سماوي ، كأنبياء بنى اسرائيل ، ويؤولون آية «ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » تأويلا يتوافق على زعم الطائفة المضلة ـ على ما سيأتى .

نعم تشترك الفئتان فى الاعتقاد بحرمة الجهاد ، لان مسيحهما قد بعث وجاء لنشر السلام العام والمحبة، ولزوم الخضوع والطاعة لمن تسلط، والكدوالكدح فى اكتساب الاموال والنقود ، وأن الوحي مستمر الى الابد ، الى غير ذلك من المخازى لتضليل بسطاء الامة عن الاسلام ، وعند التحقيق يظهر أن الاستعمار

خلق « البابية والقاديانية » لايجاد التشكيك بين عوام الشيعة والسنة ، وكلا الاخوين « حية بطن واد » (١) .

ولما أرادت الفرقة الضالة المضلة البهائية أن تعرف زعيمها وقائدها، رسولا من الله الى الناس، كسائر المرسلين، من موسى والمسيح ومحمد (ص) حاولت لتدعيم مدعاها أن تشكك في دلالة الاية على ما اتفق عليه المسلمون منذ نزولها الى الان، وقد جاءت فى ذلك بتشكيكين لايقصران عن شبه السوفسطائية في بداهة الامور ودونك بيانهما مع دحضهما بأوضح الوجوه :

التشكيك الاول :

خلاصة هذا الوجه ترجع الى التصرف في معنى «الخاتم» كما أن التشكيك الثاني يرجع الى التصرف في معنى « النبيين » .

بيانه ان قوله سبحانه : « وخاتم النبيين » لايدل على انتهاء النبوة بوجوده صلى الله عليه وآله لاحتمال كون المراد من «الخاتم» الحلية التي تزين بها الاصبع وعندئذ يصير الهدف من اطلاق «الخاتم» عليه (ص) واستعارته له هو تشبيه نبي الاسلام بالخاتم فى الزينة وانه (ص) بلغ من الكمال مبلغاً حتى صار زينة الانبياء، فهو بين تلك العصابة كالخاتم في يد لابسه .

وهنا احتمال آخر تسقط معه أيضاً دلالة الاية على ما يرتأيه المسلمون من اختتام النبوة به (ص) وهو جواز أن يكون المراد من خاتم النبيين انه مصدق للنبيين وما انزل اليهم من الصحف والكتب ، كما قال سبحانه : «وأنزلنا اليك الكتاب

(١) وقد تحدثت مجلة العرفان عن الاحمدية والقاديانية فى عدة من أعدادها، فراجع المجلد الثامن عشر فى مقال تحت عنوان : « الاسلام فى الهند » ، والمجلد التاسع عشر ص٩٤ والعشرين ص ٢٣٣ و٣٥٢ و٤٨٩ ، وفيها مقالات بأقلام جماعه من الباحثين تشرح لنا هوية هذه الفئة .

بالحق، مصدقاً لما بين يديه من الكتب ومهيمناً عليه» (المائدة ـ ٤٨) وقد تقدمت تصاريح التاريخ على أن الدارج في عصر الرسالة هو طبع الكتاب وتصديق ما فيه بالخاتم ، فيصير اطلاق الخاتم عليه (ص) واستعارته له ، لاجل انه (ص) خاتم النبيين ومصدقهم كالخاتم الذي هو مصدق لمضامين الكتب والصحف ، فأين الدلالة على انسداد باب النبوة (١) .

الجواب :

ان هذا التشكيك بمعزل عن التحقيق، بل لا يستحق ان يطلق عليه اسم التشكيك والشبهة ، ولا يعرج عليه أي عربي اصيل ، وأي عارف باللغة العربية ، بل أي شخص له ادنى المام بها ولا يتردد في مخيلة أي ابن انثى ، اذا كان ذا فكر سليم وذوق مستقيم ، ولا يوجد احتماله في كلمات القدامى والمتأخرين.

اذ لم تعهد استعارة الخاتم في مصطلح العرف للشخص ، لغاية الزينة والتصديق على وجه المجاز، أو استعماله فيهما على وجه الحقيقة منذ عصر الرسالة الى يومنا هذا .

وقد عرفت المعنى الحقيقي لتلك الكلمة ، ولم تكن الزينة أو التصديق أحد معانيه ، وأما استعماله فيهما مجازاً ، فيتوقف على حصول أمرين :

الاول : أن يكون الاستعمال متعارفاً ودارجاً بين أهل اللسان ، أو يكون مما يستحسنه الطبع والذوق ، وكلاهما منتفيان (٢) .

الثاني: وجود قرينة مقالية أو حالية صارفة عن المعنى الحقيقي، والا فيحمل على المعنى الموضوع له ، وهي أيضاً منتفية .

---

(١) الخاتمية ص ٢٣ .

(٢) ولاجل ذلك لا تجد في الاداب العربية ولا الفارسية ولا غيرها من اللغات استعارة الخاتم للزينة والتصديق .

ولما كانت هذه الشبهة أشبه شيء بحديث خرافة ، وشبه السوفسطائية لم يلتفت اليه أحد من مناوئي الاسلام، حتى مؤسس الفرقة الضالة وزعيمها الاكبر، بل فسر هو نفسه في بعض كتبه (١) « خاتم النبيين » على خلاف ما ذكر في الشبهة ، وقال : « والصلاة والسلام على سيد العالم ، ومربي الامم ، الذي به انتهت الرسالة والنبوة وعلى آله وأصحابه دائماً سرمداً ... ».

وصرح بذلك في « ايقانه » (٢) وفسره بالختم والانتهاء ، نعم أتى بعد ذلك بتأويلات باردة يشمئز منها الطبع، وانما أول ما اول ليمهد الطريق لدعوى نبوته وسفارته من الله سبحانه .

هلم معي نسأل مبدع الشبهة عن أنه لما خص سبحانه «الخاتم» بالاستعارة، مع أن التاج والاكليل ، أولى وأبلغ في بيان المقصود (الزينة)؟ .

هلم نسأله عن أنه لو صح ما أراد (من أن المراد أنه (ص) مصدق النبيين) ولن يصح، ولو صحت الاحلام، فلماذا عدل سبحانه عن أوضح التعابير وأفصحها، ولم يقل «مصدق النبيين» كما عبر به في غير واحد من السور (٣) عندما أراد توصيف النبي بكونه مصدقاً لمن تقدم عليه وأتى في المقام بتعبير غير مألوف ولا مأنوس .

نحن نسأله : ان تصديق من مضى من النبيين ، ليس صفة خاصة له (ص) فان المسيح كان أيضاً مصدقاً للماضين منهم، وما معهم من الكتب والصحف، كما حكى عنه سبحانه : « واذ قال عيسى بن مريم يا بني اسرائيل اني رسول الله اليكم ومصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد» (الصف ـ ٦)، وعند ذاك فلماذا عرفه سبحانه بوصف مشترك بين الانبياء

(١) اشراقات ص ٢٩٢ .

(٢) ايقان ص ١٣٦ .

(٣) سورة البقرة: ٤١ و٩١ و٩٧ ـ آل عمران : ٣ وغيرهما.

جميعاً .

ماذا يجيبنا المبدع اذا سألناه ، وقلنا له: ان تشبيه الرسول الاعظم بالخاتم فى التصديق وليد الأحلام الباطلة ، وشتان بينه (ص) وبين الخاتم ، حتى فى نفس وجه الشبه الذي اختلقه المبدع ، فان الخاتم ليس هو نفسه مصدقاً، وانما هو آلة التصديق وما يصدق به ، وانما المصدق انما هو كاتب الصحيفة ، وهـذا بخلاف النبي (ص) فانه هو المصدق نفسه .

لأدري ماذا يجيب المشكك عن هذه الاسئلة ؟ .

نعم اختلقت هـذا التشكيك بعض الاقلام المستأجرة ، لتأييد أقاويل تلك الفئة وتسويل أباطيلهم ، والكاتب أعرف ببطلانها ، وقـد عرفته الامة ، وعرفت نواياه ، وما تخلق به من روحيات ونفسيات .

التشكيك الثانى :

ان منصب النبوة غير الرسالة ، وما هو المختوم انما هو الاول دون الثانى فباب النبوة وان كان مختوماً بنص الاية، لكن باب الرسالة مفتوح على مصراعيه في وجه الامة ، ولم يوصد ولن يوصد أبداً .

واجلاء الحق في هذا المقام يتوقف على الوقوف على ما هو المقصود من النبي والرسول في الكتاب العزيز ، وقد عقدنا لبيان الفرق بين النبي والرسول فصلا خاصاً (١) وأوضحنا فيه حال هـذا التشكيك وجعلناه في مدحرة البطلان وأقمنا الدليل على أن ختم النبوة يلازم ختم الرسالة .

وخلاصة ما قلناه هناك : ان النبي حسب ما يظهر من آيات الذكر الحكيم وكلمات اعلام اللغة ، هو الانسان الموحى اليه من الله باحدى الطرق المعروفة،

(١) وسيوافيك هذا الفصل فى الجزء الرابع من هذه الموسوعة .

واما الرسول فهو الانسان (١) القائم بالسفارة من الله بابلاغ قول أو تنفيذ عمل وان شئت قلت : النبوة منصب معنوى يستدعى الاتصال بالغيب باحدى الطرق المألوفة ، والرسالة سفارة للمرسل (بالفتح) من جانبه سبحانه لتنفيذ ما تحمله منه فى الخارج أو ابلاغه الى المرسل اليهم .

وبعبارة ثالثة: النبوة تحمل الانباء من الله والرسالة تنفيذ ما تحمله من الانباء بالتبشير والانذار والتبليغ التنفيذ .

ولاجل ذلك يقترن لفظ الوحى بلفظ «النبيين» ويقول سبحانه: « انا اوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده » (النساء ـ ١٦٣)

ولو اقترن لفظ الوحى بالرسول فى آية أخرى ، فلمناسبة أخرى اقتضت العدول فيه كما انه يقترن فى القرآن الزام الانسان بتبليغ كلام عنه سبحانه أو تنفيذ عمل فى الخارج بلفظ «الرسول» ويقول سبحانه : « ياأيها الرسول بلغ ماأنزل اليك من ربك » (المائدة ـ ٦٧)

وقال سبحانه: «قال انما انا رسول ربك لاهب لك غلاماً زكياً»(مريم ـ ١٩)

وعلى ذلك فالنبي اما صيغة لازم بمعنى صاحب النبأ ومتحمله ، أو صيغة متعد بمعنى المخبر عنه سبحانه، والرسول هو الموظف لتحقيق ما تحمله النبى من جانب الله سبحانه عن طريق الوحى .

فلو فرض انه أوصد باب النبوة وختم نزول الوحى الى أى انسان كما تصرح به لفظ « خاتم النبيين » فعند ذاك يختم باب الرسالة الالهية أيضاً بلا ريب، لان الرسالة لا تهدف سوى تنفيذ ما يتحمله النبي من جانب الله عن طريق الوحى فاذا انقطع الوحى والاتصال بالمبدأ الاولى والاطلاع على ما عنده ، لا يبقى موضوع للرسالة أبداً، فاذا كان محمد (ص) خاتما للنبيين أى مختوماً به الوحى

(١) المقصود هو الرسول المصطلح فلاينافى اطلاقه على الملك والشخص العادى فى القرآن الكريم .

والاتصال فهو خاتم الرسل والمرسلين طبعاً ، لان رسالة الانسان من جانب الله سبحانه ، عبارة عن بيان أو تنفيذ ما أخذه عن طريق الوحى ، فلا تستقيم رسالة أى انسان من جانبه سبحانه اذا انقطع الوحى و الاتصال به تعالى ولا يقدر ان يقول أى ابن أنثى بالرسالة من ناحيته سبحانه اذا كانت النبوة موصدة باعترافه .

هذا خلاصة ما قلناه هناك وسيوافيك تفصيله بدلائله وشواهده من الكتاب والسنة وكلمات اعلام اللغة .

التنصيص الثانى (١) على الخاتمية :

هلم معى نقرأ النصوص الباقية الدالة على كون نبينا خاتم الرسل، وان رسالته خاتمة الرسالات حتى يتضح الحق بأجلى مظاهره، فمن النصوص قوله سبحانه:

---

(١) الهدف الاسمى من الاستدلال بهذه الاية وما تليها، هو نفى قسم خاص من أقسام النبوة ، أى النبوة التشريعية الناسخة، فهذه الاية وأمثالها تكذب كل من ادعى لنفسه منصب النبوة التشريعية ، وادعى أنه نبى كموسى وعيسى ومحمد ، وان له كتاباً وشريعة ناسخة لما قبلها من الكتب والشرائع، اذ لايعقل أن يكون لمجتمع واحد كتابان مختلفا الاهداف والاغراض ، أو نذيران متعددا الغايات .

فلا يصح أن يكون الفرقان والقرآن نذيراً لهم ، وفى الوقت نفسه يكون كتاب آخر ، يخالفه فى المضمون ، نذيراً لهم أيضاً ، وقس على ذلك ساير ما يرد عليك من الايات .

نعم هذه الاية ونظائرها لاتفى بنفى النبوة التبليغية المحضة، أو التشريعية غير الناسخة، بأن تكون النسبة بين الشريعتين نسبة الاقل الى الاكثر، أو المجمل الى المفصل، والدليل الوحيد فى القرآن ، على انسداد أبواب النبوت على اطلاقها ، هى الاية المتقدمة ، وما سيوافيك من الاحاديث المتواترة، الدالة على اغلاق باب النبوة على وجه الامة بعامة انواعها واقسامها فلاحظ .

« تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً » (١) .

وصريح النص أن الغاية من تنزيل الفرقان على عبده (رسولنا) كون القرآن نذيراً للعالمين ، أي الخلائق كلها من بدء نزوله الى يوم يبعثون.

قال « الراغب » فى مفرداته : العالم اسم للفلك وما يحويه من الجواهر والاعراض وهو في الاصل اسم لما يعلم به ، كالطابع والخاتم ، لما يطبع به وما يختم به ، وجعل بنائه على هذه الصفة، لكونه كالالة والعالم آلة ، في الدلالة لصانعه ، وأما جمعه فلان كل نوع من هذه قد يسمى عالماً ، فيقال عالم الانسان وعالم الماء ، وعالم النار ، وأما جمعه على السلامة فلكون الناس من جملتهم والانسان اذا شارك غيره في اللفظ غلب عليه حكمه، وقيل انما جمع هذا الجمع لانه عنى به أصناف الخلائق من الملائكة والجن والناس دون غيرها وروي هذا عن ابن عباس وقال جعفر بن محمد عنى به الناس ، وجعل كل واحد عالماً (٢) .

وقال : العالم عالمان : الكبير وهو الفلك بمافيه والصغير لانه مخلوق على هيئة العالم (٣) .

---

(١) الفرقان - ١ .

(٢) هذا هو الحق الذى لامرية فيه ، ويشهد له ما نقله سبحانه ، عن قوم لوط فى خطابهم له ، عند نزول ضيوفه: «قال ان هؤلاء ضيفى ، فلاتفضحون، واتقوا الله ولاتخزون. قالوا أو لم ننهك عن العالمين» (الحجر ٦٨ - ٧٠) أى قالوا فى جوابه : أو ليس كنا قد نهيناك عن أن تستضيف احداً من الناس ، ولا معنى لان ينهوه عن الاجرام السماوية ، أو الجن والملائكة .

ونظيره قوله سبحانه حكاية عن لوط فى الرد على قومه : « أتاتون الذكران من العالمين » (الشعراء - ١٦٥) فالمراد من العالمين فيه هو الناس بلا ريب .

(٣) المفردات للراغب ص ٣٤٩ .

قال الزمخشري : العالم اسم لذوي العلم من الملائكة والثقلين ، وقيل كل ما علم به الخالق من الاجسام والاعراض ، وجمع ليشمل كل جنس مما سمي به ، وأما جمعه بالواو والنون مع كونه اسماً غير صفة وانما يجمع بها صفات العقلاء ، أو ما فى حكمها من الاعلام ، فلاجل معنى الوصفية فيه وهي الدلالة على معنى العلم (١) .

وعلى أى تقدير سواء أكان المراد من العالمين فى الايات الاخر جميع المخلوقات التى يحويها الفلك من الجواهر والاعراض ، أم كان المراد الانس والجن ، فالمراد منه في الاية بقرينة كونه « نذيراً » خصوص الانسان أو مطلق من يعقل ، فالاية صريحة في أن انذاره لا يختص بناس دون ناس ، أو بزمان دون زمان ، فهو على اطلاقه يعطى كونه نذيراً للامة البشرية بلا قيد ولا حد .

ولقائل أن يعترض ويقول : ربما يطلق « العالمون » ويراد منه الجم الغفير من الناس كما في قوله سبحانه : في تفضيل بني اسرائيل : « يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم واني فضلتكم على العالمين » (البقرة ـ ٤٧) ويقال رأيت عالماً من الناس يراد به الكثرة وعند ذاك لا تكون الاية صريحة فيما نرتأيه .

والجواب: ان المتبادر من العالمين فى مصطلح العرف والقرآن هو المعنى العام وهو عبارة اما عن الخلائق عامة كما عليه قوله سبحانه: « قال فرعون وما رب العالمين قال رب السموات والارض وما بينهما ان كنتم موقنين »

(الشعراء ٢٣ ـ ٢٤)

وغيره من الايات الكثيرة التي استعملت فيها كلمة « العالمين » في الخلق كله ، أو نوع ما يعقل من الملائكة والانس والجن وعليه قوله تعالى: « ولكن الله ذو فضل على العالمين » (البقرة ـ ٢٥١)

---

(١) الكشاف ج ١ ص ٦ .

وقوله سبحانه : « وما الله يريد ظلماً للعالمين » (آل عمران ـ ١٠٨) ، أو خصوص الانس وعليه قوله تعالى: « ان أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين » (آل عمران ـ ٩٦)

وقوله سبحانه : « أتأتون الذكران من العالمين » (الشعراء ـ ١٦٥)

وقوله سبحانه : « أتأتون الفاحشة ماسبقكم بها من أحد من العالمين »

(الاعراف ـ ٨٠ ، وقريب منها ما فى العنكبوت ـ ٢٨)

وعلى ما ذكرنا فلا يسوغ أن يحمل هذا اللفظ على غير هذه المعانى ، الا بقرينة صارفة عن ظاهره وهي غير موجودة في المقام .

وأما قوله سبحانه : « واني فضلتكم على العالمين » فليس ظاهراً فيما فسره صاحب الكشاف ، من الجم الغفير ، ولاجل ذلك فسره حبر الامة بأهل عالمي زمانهم كلهم، لابالجم الغفير، كما فسربه قوله سبحانه: «ان الله اصطفاك وطهرك واصطافاك على نساء العالمين » (آل عمران ـ ٤٢)

وعلى أي حال سواء أفسرناه بالجم الغفير أم خصصناه بأهل عالمي زمانهم فانما هو لقرينة صارفة عـن ظاهره ، حيث دل القرآن على أن الامة الاسلامية أفضل الامم ، لقوله سبحانه: «كنتم خيرامة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » (آل عمران ـ ١١٠)

ونظيرتلك الاية مادل على اصطفاء مريم على نساء العالمين، كما قال سبحانه: « ان الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين » (آل عمران ـ ٤٢) فالمراد منه هو نساء عالمى أهل زمانه ، لما اثر عن النبى وآله من عدم فضلها على ابنته فاطمة (ع) .

أخرج ابن سعد ، عن مسروق ، عن عائشة في حديث : ان النبي (ص) أسر الى فاطمة عند مرضه وقال : أما ترضين أن تكوني سيدة نساء هذه الامة،

أو نساء العالمين (١) .

ورواه أبو نعيم الاصفهاني أيضاً بهذه العبارة (٢) .

وأخرج مسلم والترمذي والبخاري في صحاحهم عن عائشة ، قالت : ان النبي (ص) قال لفاطمة في اخريات أيامه : ألا ترضين أن تكونى سيدة نساء المؤمنين أو سيدة نساء هذه الامة (٣) .

روى الحديث بألفاظه المختلفة العلامةالمجلسى في بحاره ، فراجع (٤).

ولولا هذه المأثورات عمن نزل عليه القرآن لكان الواجب الاخذ بظاهرها والحكم بتفضيلها (مريم) على نساء العالمين جميعا .

* * *

على انه يمكن الاخذ باطلاق قوله سبحانه: «واني فضلتكم على العالمين» والقول بتفضيلهم على الناس كلهم بتقريب ان ملاك فضلهم على غيرهم، تخصيصهم بأشياء من بين الامم اذ أنزل عليهم المن والسلوى ، وبعث فيهم رسلا ، وأنزل عليهم الكتب ونجاهم من فرعون وملاءه الى غير ذلك مما خص به تلك الامة من بين الناس ولا يلزم منه تفضيل واحد منهم على غيرهم (٥) .

وعلى أي تقدير فالمتبع هوظاهر الاية مالم يدل دليل على خلافه، وليست في المقام قرينة تصرف قوله سبحانه : « ليكون للعالمين نذيراً » عن ظاهره وصريحه .

النص الثالث من القرآن على الخاتمية :

ومن النصوص قوله سبحانه: «ان الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وانه لكتاب

(١-٢) الطبقات الكبرى ج ٨ ص ٢٧ ، حلية الاولياء ج ٢ ص ٤٠ .

(٣) التاج الجامع للاصول ج ٣ ص ٣١٤ .

(٤) بحار الانوار ج ٤٣ ص ٣٦ .

(٥) مجمع البيان ج ١ ص ١٠٢ .

عزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد»
(فصلت ٤١ ـ ٤٢)

والمقصود من « الذكر » هوالقرآن ، لقوله سبحانه : « ذلك نتلوه عليك من الايات والذكر الحكيم » (آل عمران ـ ٥٨)

وقوله سبحانه : « وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون » (النحل ـ ٤٤)

والضمير في « لا يأتيه » يرجع الى « الذكر » ومفاد الاية أن الباطل لا يتطرق اليه ولا يجد اليه سبيلا من جهة من الجهات، فلا يأتيه الباطل بأي صورة متصورة ، ودونك صوره :

١ ـ لا يأتيه الباطل : لا ينقص منه شيء ولا يزيد فيه شيء .

٢ ـ لا يأتيه الباطل: لا يأتيه كتاب يبطله وينسخه بأن يجعله سدى، فهو حق ثابت لا يبدل ولا يغير ولا يترك .

٣ ـ لا يأتيه الباطل : لا يتطرق في اخباره عما مضى ولا في اخباره عما يجيء، الباطل ، فكلها تطابق الواقع .

وعلى أي تقدير فمحصل الاية بحكم الاطلاق المستفاد من قوله سبحانه : « لا يأتيه » ان القرآن حق لا يدخله الباطل الى يوم القيامة .

ويؤيد ذلك قوله سبحانه: «انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون» (الحجر ـ ٩) أي نحفظه عن تطرق أي بطلان اليه الى يوم البعث ، كما هو أيضاً مقتضى اطلاقه .

والحق المطلق الذي لا يدانيه الباطل أبداً، والمحفوظ عن تسلل البطلان اليه الى يوم القيامة كما هو ظاهر الايتين ، يمتنع أن يكون حجة محدودة، بل يكون متبعاً لا الى غاية خاصة وأمد محدود، لان خاصية الحق المطلق والمصون عن تطرق البطلان مطلقاً هو كونه حجة لا الى حد خاص والله سبحانه عهد

« ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون» (الانفال ـ ٨)

فـاذا كان القرآن حقاً مطلقاً مصوناً عن تسلل البطلان اليه ، ومتبعاً للناس الى يوم القيامة ، يجب عند ذلك ، دوام رسالته وثبات نبوته وخاتمية شريعته .

وان شئت قلت : ان الشريعة الجديدة اما أن تكون عين الشريعة الاسلامية الحقة المحقة التي لا يقارنها ولا يدانيها الباطل أو غيرها ، فعلى الاول لا حاجة الى الثانية، وعلى الثانى فاما أن تكون الثانية حقة كالاولى ، فيلزم كون المتناقضين حقاً ، أو يكون الاولى حقة دون الاخرى ، فهذا هو المطلوب .

والرسول (ص) لم يزل يبيين شريعته، بالكتاب الحق الذي لا يدانيه الباطل وبسنته المحكمة التي لا تصدر عنه الا بايحاء منه سبحانه، كما قال «وما ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحي يوحى ، علمه شديد القوى» (النجم ٣ ـ ٥) وعلى أي تقدير فالاية صريحة في نفي أى تشريع بعد القرآن، وشريعة غير الاسلام فتدل بالملازمة على عدم النبوة التشريعية بعد نبوته (ص) .

النص الرابع من القرآن على خاتمية الرسول (ص) :

ومن النصوص قولـه تعالى : « قل أي شيىء أكبر شهادة ، قـل الله شهيد بيني وبينكم ، واوحي الي هذا القرآن لانذركم به ومن بلـغ » (الانعام ـ ١٩) وفسره امين الاسلام الطبرسي بقوله: أي لاخوف به من بلغه القرآن الى يوم القيامة، ولذا قال النبي (ص) : من بلغه اني أدعو الى أن لا اله الا الله فقد بلغه ، أي بلغته الحجة وقامت عليه ، حتى قيل من بلغه القرآن ، فكانما رأى محمداً (ص) وسمع منه وحيث ما يأتي القرآن ، فهو داع ونذير (١) .

قوله سبحانه : « ومن بلـغ » معطوف على الضمير المنصوب في قولـه : « لا نذركم » لا على الفاعل المستتر .

---

(١) مجمع البيان ج ٣ ص ٢٨٢ .

وقد وافاك توضيح مفاد الاية والتوفيق بينها وبين قوله سبحانه : « ولتنذر ام القرى ومن حولها » عند البحث عن كون رسالة الرسول عالمية (١) .

النص الخامس على الخاتمية :

ومن النصوص قوله تعالى : « وما أرسلناك الا كافة للناس ، بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (سبأ ـ ٢٨)

المتبادر من الاية ، كون « كافة » حالا من الناس قدمت على ذيها ، وتقدير الاية : « وما أرسلناك الا للناس كافة ، بشيراً ونذيراً » .

ويحتمل كونها حالا من الضمير المنصوب في « أرسلناك » ومفاد الاية : وما أرسلناك الا أن تكفهم وتردعهم. ولكنه ضعيف جداً ، اذ لا حاجة عندئذ الى لفظ « كافة » بعد تذييل الجملة بقوله: « بشيراً ونذيراً » اذ لا معنى للكف والردع الا تخويفهم عن عذابه وعقابه حتى يرتدعوا بالتأمل فيما أوعد الله فى كتابه العزيز ولسان نبيه (ص) على مقترفى الجرائم ، و ليس ذاك الا نفس الانذار الوارد في الاية :

أضف اليه أنه لم يستعمل لفظ « كافة » فى القرآن الا بمعنى عامة كقوله سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة » (البقرة ـ ٢٠٨)

وقوله عزوجل : « وقاتلوا المشركين كافة ، كما يقاتلونكم كافة » (التوبة ـ ٣٦)

وقوله سبحانه: « وما كان المؤمنون لينفروا كافة » (التوبة ـ ١٢٢)

وكل ذلك يؤيد كون « كافة » بمعنى عامة حالا من الناس ، والاية مع كونها دليلا على كون رسالته عالمية، دليل على كونه مبعوثاً الى كافة الناس الى

(١) راجع ص ٦٦ ـ ٧٣ من كتابنا هذا .

يوم يبعثون (١) .

النص السادس على الخاتمية:

ثم انه سبحانه جعل نبيه (ص) خاتم النبيين، وكتابه خاتم الكتب ، وجعله مهيمنا على جميع الكتب النازلة من قبل .

قال سبحانه: « وانزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما انزل الله ولاتتبع اهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولوشاء الله لجعلكم امة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم » (المائدة ـ ٤٨)

والمهيمن هو الرقيب الشهيد وقدفسر بأمور أخرى يقرب بعضها من بعض فهو مراقب أمين يشهد على الكتب النازلة قبله بالصحة في مورد وبالتحريف، في مورد آخر. ولو اراد أهل الكتب الوصول الى الحق الواضح لرجعوا الى ذلك الكتاب، لانهم لم يؤتوا علم كتابهم كله، بل «اوتوا نصيباً من الكتاب»(٢) و«انهم نسوا حظا مما ذكروا به» (٣) «وكانوا يحرفون الكلم عن مواضعها»(٤).

وفسره العلامة الطباطبائى بوجه آخر وقال :

---

(١) ويؤيد ذلك ما رواه ابن سعد فى «طبقاته الكبرى» عن خالد بن معدان قال: قال رسول الله (ص) : بعثت الى الناس كافة ، فان لم يستجيبوا لى فالى العرب ، فان لم يستجيبوا لى فالى قريش ، فان لم يستجيبوا لى فالى بنى هاشم ، فان لم يستجيبوا لى فالى وحده .

ونقل عن أبى هريرة، ان النبى (ص) قال : أرسلت الى الناس كافة ، وبى ختم النبيون (الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٩٢) وكل ذلك دليل على أن الصحابة لم يفهموا من الاية الا ما استظهرناه .

(٢) آل عمران ٢٣ .

(٣و٤) لاحظ الاية ٣و٤) من المائدة ١٣ .

هيمنة الشيء على الشيء كون الشيء ذاسلطة على الشيء فى حفظه ومراقبته وأنواع التصرف فيه ، وهذا حال القرآن الذي وصفه الله تعالى بانه تبيان كل شيء بالنسبة الى ما بين يديه من الكتب السماوية ، يحفظ منها الاصول الثابتة غير المتغيرة، وينسخ منها ما ينبغى ان ينسخ من الفروع التى يمكن انيتطرق اليه التغير والتبدل مما يناسب حال الانسان بحسب سلوكه صراط التكامل بمرور الزمان ، قال تعالى : « ان هذا القرآن يهدي للتى هى أقوم » (الاسراء ـ ٩) وقال : « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها » (البقرة ـ ١٠٦)

فهذه الجملة اعنى قوله : « ومهيمنا عليه » متممة لقوله : « مصدقا لما بين يديه من الكتاب» تتميم ايضاح ، اذ لولاها لامكن ان يتوهم من تصديق القرآن للتوراة والانجيل انه يصدق مافيهما من الشرائع والاحكام ، تصديق ابقاء من غير تغيير وتبديل لكن توصيفه بالهيمنة يبين ان تصديقه لهما تصديق انهما شرائع حقة من عندالله، وان لله انيتصرف فيها مايشاء بالنسخ والتكميل كما يشير اليه قوله سبحانه في ذيل الاية : « ولو شاء الله لجعلكم امة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم » (١) .

اشارات قرآنية الى الخاتمية

ثم ان في الكتاب الحكيم آيات تشير الى خاتمية الرسول الاكرم (ص) وخاتمية كتابه ويقف على تلك الاشارات كل من امعن النظر في مضامينها ونذكر فى المقام بعض الايات :

١ ـ « أفغير الله ابتغي حكما وهو الذي انزل اليكم الكتاب مفصلا والذين آتيناهم الكتاب يعلمون انه نزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين. وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلا لامبدل لكلماته وهو السميع العليم»(الانعام ١١٤ ـ ١١٥)

(١) الميزان ج ٥ ص ٣٧٨ ـ ٣٧٩ .

ودلالة قوله سبحانه: «وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلا لامبدل لكلماته» على ايصاد باب الوحى وانقطاعه الى يوم القيامة وتمامية الشرايع النازلة من الله سبحانه طوال قرون الى سفرائه، واضحة بعد الوقوف على معنى الكلمة في القرآن .

ان « الكلمة » في القرآن قد استعملت فى معان أوفى مصاديق مختلفة بمعنى واحد جامع واسع ، حتى استعملت في العين الخارجى.

قال سبحانه : «ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم» (آل عمران ـ ٤٥) كما استعملت في القضاء والوعد القطعى قال سبحانه : « وتمت كلمة ربك لاملان جهنم من الجنة و الناس أجمعين » (هود ـ ١١٩) الى غير ذلك .

لكن المراد منها في الاية هو الدعوة الاسلامية أو القرآن الكريم ، وما فيه من شرايع واحكام ، والشاهد عليه الاية المتقدمة حيث قال سبحانه : « وهو الذي انزل اليكم الكتاب مفصلا والذين آتيناهم الكتاب يعلمون انه منزل من ربك بالحق » فالمراد من قوله : « انزل اليكم الكتاب» هو القرآن النازل على العالمين ، ثم يقول : بان الذين آتيناهم الكتاب من قبل كاليهود و النصارى اذا تخلصوا عن الهوى، يعلمون ان القرآن وحي الهي كالتوراة والانجيل وانه منزل من الله سبحانه بالحق ، فلا يصح لاي منصف ان يتردد في كونه نازلا منه الى بداية الناس .

ثم يقول فى الاية التالية «وتمت كلمة ربك» بظهور الدعوة المحمدية، ونزول الكتاب المهيمن على جميع الكتب وصارت مستقرة في محلها بعد ماكانت تسير دهراً طويلا في مدارج التدرج بنبوة بعد نبوة وشريعة بعد شريعة (١) .

وهذه الكلمة الالهية اعني الدعوة الالهية المستوحاة في القرآن الكريم صدق

(١) الميزان ج ٧ ص ٣٢٨ ، مجمع البيان ج ٢ ص ٣٥٤ .

لايشوبه كذب وما فيه من الاحكام من الامر والنهى، عدل لا يخالطه ظلم ولاجل تلك التمامية لا تتبدل كلماته واحكامه من بعد (١) .

واما ما احتمله صاحب المنار من ان المراد من الكلمة ما وعد الله به نبيه من نصره وخذلان مستهزئيه مستشهداً بقوله سبحانه: « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون وان جندنا لهم الغالبون» (الصافات ١٧١- ١٧٣) وما فى معناه من الايات ، فمما لايلائم سياق الايات ولا يناسب قوله « صدقاً وعدلا» ولا قوله «لا مبدل لكلماته» الا بالتكلف الذى ارتكبه صاحب المنار(٢).

* * *

هذا حال الخاتمية فى الذكر الحكيم وقد عرفت انه ناطق بايصاد باب النبوة والرسالة ، و خاتميتهما ، وقد وردت فى المقام احاديث متواتره عن النبى الخاتم (ص) وآله الطاهرين فلاجل ايقاف القارىء على تلكم الكلم الرية عقدنا الفصل التالى :

---

(١) وقد استعملت الكلمات فى القرآن الكريم فى الشرايع الالهية قال سبحانه واصفاً مريم : وصدقت بكلمات ربها وكتبه (التحريم - ١٢).

(٢) المنار ج ٨ ص ١٢ .

الخاتمية في الاحاديث الاسلامية

لقد حصحص الحق بما أوردناه من النصوص القرآنية وانكشف الشك عن محيا اليقين، فلم تبق لمجادل شبهة، في أن الرسول (ص) خاتم النبيين والمرسلين ودينه خاتم الاديان وكتابه خاتم الكتب وقد وردت عن النبي والائمة من بعده نصوص في المقام تؤكد المطلب فلا بأس بالتعرض لها، وتوضيح بعضها، اذ لم نجدها مجتمعة في باب أو كتاب.

تنصيص الرسول الاكرم (ص) على الخاتمية

١ - خرج رسول الله (ص) من المدينة الى غزوة تبوك وخرج الناس معه فقال له علي (ع) أخرج معك؟ فقال (ص): لا، فبكى علي، فقال له رسول الله (ص): «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، الا أنه لا نبي بعدي، أو ليس بعدي نبي، أو لا ينبغي أن أذهب الا وأنت خليفتي» (١).

وهذا الحديث صحيح متفق عليه بين الامة، لم يشك أحد في صحة سنده ولا سنح في خاطر كاتب أن يناقش في ثبوته.

---

(١) سمي حديث المنزلة، لان النبي (ص) نزل فيه نفسه منزلة موسى، ونزل علياً مكان هارون.

وحسبك أنه أخرجه البخاري فى صحيحه فى غزوة تبوك (١) ومسلم في صحيحه في باب فضائل علي (ع) (٢) وابن ماجة فى سننه فى باب فضائل أصحاب النبي (ص) (٣) والحاكم فى مستدركه فى مناقب على (ع) (٤) وامام الحنابلة فى مسنده بطرق كثيرة (٥).

قال «ابن عبد البر» فى استيعابه: هذا من أثبت الاثار وأصحها، رواه عن النبي سعد بن أبي وقاص، قال طرق حديث سعد كثيرة جداً، ذكرها ابن خيثمه وغيره ورواه ابن عباس وابو سعيد الخدري وام سلمة وأسماء بنت عميس وجابر بن عبدالله، وجماعة يطول ذكرهم (٦). ورواه من أعلام الطائفة، صدوق الامة في أماليه ومعانيه (٧) وشيخ الطائفة فى أماليه (٨) والعلامة الكراجكى فى كنزه (٩) وقطب الدين الروندى فى خرائجه (١٠) وابن شهر آشوب فى مناقبه (١١). وقال وصنف أحمد بن محمد بن سعيد كتاباً في طرقه قد تلقته الامة بالقبول اجماعاً،

---

(١) صحيح البخارى، الجزء الثالث ص ٥٨.

(٢) صحيح مسلم، الجزء الثانى ص ٣٢٣ – ٣٢٤.

(٣) سنن ابن ماجه، الجزء الاول ص ٢٨.

(٤) مستدرك الحاكم، الجزء الثالث ص ١٠٩ وفى مواضع أخر.

(٥) مسند ابن حنبل، الجزء الاول ص ٣٣١ والجزء الثانى ص ٣٦٩ و ٤٣٧، والمغازلى فى مناقبه ص ٢٣٧ – ٢٣٨ والخوارزمى فى مناقبه ص ٧٦.

(٦) راجع الاستيعاب فى ترجمة على (ع).

(٧) أمالى الصدوق ص ٢٩ ومعانى الاخبار ص ٧٤ وقد بسط الكلام فى دلالة الحديث.

(٨) أخرجه فى أماليه فى مواضع مختلفة، راجع ص ٢٨ و ٣١ و ٥٩ و ١٦٤ و ١٩٣ و ٢١٨ و ٣٣١.

(٩) كنز الفوائد ص ٢٨٢.

(١٠) الخرائج والجرائح ص ٧٥.

(١١) مناقب ابن شهر آشوب ج ١ ص ٥٢٢.

والكاتب الاربلي فى كشف الغمة (١). وقدجمع العلامة المجلسى طرق الحديث من الفريقين فى جامعه (٢) .

وفيما ذكرنا من المصادر غنى و كفاية ، لا حاجة الى الاستقصاء ، فان كل من تعرض لغزوة تبوك، أو عقد باباً لفضائل مولانا أمير المؤمنين(ع)، أثبته فى كتابه .

ووضوح دلالة الرواية أغنانا عن البحث حولها .

* * *

٢ ـ عن النبى صلى الله عليه و آله قال: انمثلى ومثل الانبياء من قبل كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه واجمله الا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة قال فانا اللبنة وانا خاتم النبيين(٢).

صورة اخرى للرواية

عن جابر عن النبى صلى الله عليه و آله قال: مثلى ومثل الانبياء كمثل رجل بنى داراً فاتمها وأكملها الا موضع لبنة فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون منها ويقولون لولا موضع هذه اللبنة قال رسول الله صلى الله عليه و آله : فانا موضع اللبنة جئت فختمت الانبياء (*).

٣ـ ان رسول الله صلى عليه و آله قال: لي خمسة اسماء انا محمد وأحمد انا الماحى يمحو الله بي الكفر وانا الحاشر يحشر الناس على قدمي وانـا العاقب

---

(١) كشف الغمة ص ٤٤ .

(٢) بحار الانوار ج ٣٧ ، الباب ٥٣ ص ٢٥٤ ـ ٢٨٩ .

(٢) صحيح البخارى ٤/ ٢٢٦ مسند احمد ٢/ ٣٩٨و٤١٢ وراجع الـدر المنثور ٥/ ٢٠٤ .

(*) التاج ٣/ ٢٢ عن البخارى ومسلم والترمذى .

الذي ليس بعده النبي (٣) .

٤ ـ قال عرباض بن سارية : سمعت النبي صلى الله عليه وآله يقول : انى عبدالله وخاتم النبيين وان آدم لمنجدل في طينة وساخبركم من ذلك دعوة أبي ابراهيم وبشارة عيسى بى .

وفى صورة اخرى قال : سمعت رسول الله (ص) يقول انى عبدالله وخاتم النبيين. فذكرمثله وزاد فى ان ام رسول الله(ص) رأت حين وضعته نوراً اضاءت منه قصور الشام (٤) .

٥ ـ وفي حديث الشفاعة : فيأتون عيسى فيقولون يا عيسى اشفع لنا الى ربك فليقض بيننا فيقول : انى لست هناكم ولكن ائتوا محمداً صلى الله عليه وآله فانه خاتم النبيين (٥) .

٦ ـ وجاء فى حديث الشفاعة: قال صلى الله عليه وآله : فيأتونى فيقولون: يا محمد انت رسول الله وخاتم الانبياء غفر الله لك ذنبك ما تقدم منه وما تأخر فاشفع لنا ربك الا ترى الى ما نحن فيه (٦) .

٧ ـ عن أبى هريرة انه قال : قال صلى الله عليه وآله : ارسلت الى الناس كافة وبي ختم النبيون (٧) .

٨ ـ فى حديث : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : اني خاتم ألف نبي وأكثر (٨) .

---

(٣) الطبقات الكبرى ١/ ٦٥ ـ مسند احمد ٤/ ٨١و٨٤ ـ صحيح مسلم ٨/ ٨٩ .

(٤) الطبقات الكبرى ١/ ٩٦ ـ مسند احمد ٤/ ١٢٧و١٢٨ ـ ينابيع المودة ص١٠ الميزان ١٩/ ٢٩٥ مع اختلاف يسير .

(٥) مسند احمد ٣/ ٢٤٨ وراجع صحيح البخارى ٦/ ١٠٦ .

(٦) صحيح البخارى ٦/ ١٠٦ ـ مسند احمد ٢/ ٤٣٦ .

(٧) الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٢٨ مسند احمد ج ٢ ص ٤١٢ .

(٨) مسند احمد ٣/ ٧٩ .

٩ ـ قال رسول الله صلى الله عليه وآله : ان الرسالة والنبوة قد انقطعت فلا رسول بعدي ولا نبى قال فشق ذلك على الناس فقال لكن المبشرات فقالوا يا رسول الله وما المبشرات؟ قال: رؤياالمسلم وهى جزء من اجزاء النبوة (٩).

١٠ ـ عن جابر بن عبدالله : ان النبى صلى الله عليه وآله قال : انـا قائد المرسلين ولافخر واناخاتم النبيين ولا فخروانا أول شافع ومشفع ولافخر(١٠).

١١ ـ عن قتاده ان النبي صلى الله عليه وآله قـال :كنت أول الناس فى الخلق وآخرهم فى البعث (١١).

١٢ ـ عن النبى صلى الله عليه وآله: يا على اخصمك بالنبوة فلا نبوة بعدي وتخصم الناس بسبع ولا يجاحـدك فيه أحد من قريش : انت أولهم ايمانـاً بالله .... (١٢) .

١٣ ـ استأذن العباس بن عبدالمطلب النبي صلى الله عليه وآله فى الهجرة فقال له يا عم أقم مكانك الذي انت به فان الله تعالى يختم بـك الهجرة كما ختم بي النبوة ثم هاجر الى النبى صلى الله عليه وآله وشهد معه فتح مكة وانقطعت الهجرة ...(١٣).

١٤ ـ ان رسول الله صلى الله عليه وآله قال : انما أخاف على امتى الائمة المضلين فاذا وضع السيف فى امتى لـم يرفع عنها الى يوم القيامة . ولا تقوم الساعة حتى تلتحق قبائل من امتى بالمشركين وحتى تعبد قبائل من امتى الاوثان وانه يكون فى امتى ثلاثون كذابون كلهم يزعم انه نبي وانا خاتم النبيين لانبي

---

(٩) سنن الترمذى ٣/ ٣٦٤ .

(١٠) سنن الدارمى ١/ ٢٧ ، المطبوع بدمشق عام ١٣٤٩.

(١١) الطبقات الكبرى ١/ ٩٦ ـ ينابيع المودة ص١٧ وفيه: اول الانبياء فى الخلق.

(١٢) حلية الاولياء ١/ ٦٦ .

(١٣) اسد الغابة ٣/ ١١٠ .

بعدي ولا تزال طائفة من امتي على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى امر الله وهم على ذلك (١٤) .

١٥ ـ وعنه صلى الله عليه وآله : فضلت بست : اعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، واحلت لى الغنائم ، وجعلت لى الارض طهوراً ومسجداً ، وارسلت الى الخلق كافة ، وختم بي النبيون (١٥).

١٦ ـ عن النبي صلى الله عليه وآله قال : فى امتى كذابون دجالون سبعة وعشرون منهم أربع نسوة وانى خاتم النبيين لا نبى بعدى (١٦) .

١٧ ـ سأل جابر عن النبي صلى الله عليه وآله عن أول شيء خلقه الله قال: هو نور نبيك يا جابر خلقه الله ثم خلق فيه كل خير وخلق بعده كل شيء ... ثم أخرجني الى الدنيا فجعلني سيد المرسلين وخاتم النبيين ومبعوثاً الى كافة الناس أجمعين ورحمة للعالمين (١٧) .

٨ ـ عن جابر بن عبدالله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله ... وجعل اسمى فى القرآن محمداً فانا محمود فى جميع القيامة في فصل القضاء لا يشفع أحد غيرى. وسمانى فى القيامة حاشراً يحشر الناس على قدمى. وسمانى الموقف أوقف الناس بين يدى الله جل جلاله . وسمانى العاقب انا عقب النبيين ليس بعدى رسول وجعلنى رسول الرحمة (١٨) .

١٩ ـ عن أبى جعفر عليه السلام قال في حديث : قال النبى صلى الله عليه

(١٤) جامع الاصول ١٠/ ٤١٠ .
(١٥) جامع الصغير ٢/ ١٢٦ .
(١٦) الدر المنثور ٥/ ٢٠٤ .
(١٧) ينابيع المودة ص ١٤ ـ ١٥ .
(١٨) علل الشرائع ١/ ١٢٢ ـ الخصال ٢/ ٤٢٥ ـ معانى الاخبار ٥١ ـ بحار الانوار ١٦/ ٦٣ .

وآله : أيها الناس انه لا نبي بعدي ولا سنة بعد سنتي فمن ادعى ذلك فدعـواه وبدعته فى النارفاقتلوه ومن تبعه فانه في النار. أيهاالناس احيوا القصاص واحيوا الحق لصاحب الحق ولا تفرقوا واسلموا وسلموا كتب الله لا غلبن انا ورسلي ان الله قوى عزيز(١٩).

قوله (ص) : « لا سنة بعد سنتي » يبطل كل شريعة سوى شريعته الى يوم القيامة .

ورواه الكاتب الاربلي فى كتابه بصورة أخرى . قال : قال «ص» فى مرض موته والمسلمون مجتمعون حوله : « أيها الناس انه لا نبي بعدى ، ولا سنة بعد سنتى ، فمن ادعى ذلـك فدعواه وباغيه في النار . أيها الناس احيوا القصاص واحيوا الحق لصاحب الحق ولا تفرقوا واسلموا وسلموا كتب الله لاغلبن انـا ورسلى ان الله قوى عزيز » *

٢٠ ـ عن أبي امامة عن النبي صلى الله عليه وآله قال : أيها الناس انه لا نبي بعدى ولا امة بعدكم الا فاعبدوا ربكم ... (٢٠) .

٢١ ـ عن علي عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : انا خاتم النبيين وعلي خاتم الوصيين (٢١) .

٢٢ ـ عن النبي صلى الله عليه وآله انه خطب فى أوسط أيام التشريق فقال: ان عزوجل حرم عليكم دماءكم وأموالكم واعراضكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا وبلدكم هذا الى يوم تلقونه الا فليبلغ شاهدكم غائبكم لا نبي بعدي ولا امة بعدكم ثم رفع يديه حتى انه ليرى بياض ابطيه ثم قال : اللهم اشهدانى

(١٩) الفقيه ٤/١٦٣ ـ وسائل الشيعة ١٨/٥٥٥ .

(*) كشف الغمة ج ١ ص ٢١ البحار ج ٢٢ ص ٥٣١ .

(٢٠) الخصال ١/٣٢٢ ـ وسائل الشيعة ١/١٥ .

(٢١) عيون اخبار الرضا ٢/٤٧ .

قد بلغت (٢٢) .

٢٣ـ عن أبى امامة قال: كنا ذات يوم عند رسول الله صلى الله عليه وآله جلوساً فجائنا على بن أبي طالب عليه السلام واتفق من رسول الله صلى الله عليه وآله قيام فلما رأى عليا جلس فقال يا ابن أبي طالب اتعلم لم جلست قال : اللهم لا فقال صلى الله عليه وآله : ختمت انا النبيين وختمت انت الوصيين ... (٢٣).

٢٤ ـ عن أبى جعفر محمد بن علي عليهما السلام انه قال حج رسول الله عليه وآله من المدينة ـ وساق قصة غـدير خم وخطبة النبي فيها ـ وقال : بى والله بشر الاولون من النبيين والمرسلين وانا خاتم النبيين والمرسلين والحجة على جميع المخلوقين من أهل السموات والارضين فمن شك فى هذا فهو كافر كفر الجاهلية الاولى ومن شك في قولي هذا فقد شك في الكل والشاك فى ذلك فهو في النار (٢٤) .

٢٥ ـ عن رسول الله صلى الله عليه وآله فى حديث : ان الله تعالى أوحى الى أن اتخذ علياً اخاً كما ان موسى اتخذ هارون اخا واتخذ ولده ولداً فقد طهرتهم كما طهرت ولد هـارون الا انى ختمت بك النبيين فـلا نبي بعدك فهم الائمة الهادية ... (٢٥).

٢٦ ـ عن علي بن هلال عـن ابيه قال : دخلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وهو فى الحالة التي قبض فيها فاذا فاطمة عند رأسه فبكت حتى ارتفع صوتها فرفع رسول الله صلى الله عليه وآله اليها رأسه وقال : . . . نحن أهـل بيت قد اعطانا الله عزوجل سبع خصال لم يعط أحداً قبلنا ولا يعطى أحداً بعدنا

---

(٢٢) الخصال ٢/٤٨٧ وفى طبعة اخرى ص ٨٤ .

(٢٣) تفسير الفرات ص ٨٧ ـ امالى الطوسى ص ٣٠٥ مع تفاوت يسير .

(٢٤) الاحتجاج ص ٣٧ ـ مستدرك الوسائل ٣/٢٤٧ .

(٢٥) الاحتجاج : ٦٨ .

انا خاتم النبيين واكرم النبيين على الله عزوجل ... (٢٦) .

٢٧ ـ عن النبي صلى الله عليه وآله : قال : انا الاول والاخر (٢٧).

قال الاربلي في كشف الغمة في ذيل هذا الحديث: لانه أول في النبوة وآخر في البعثة .

٢٨ ـ عن أنس في حديث طويل : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : انا خاتم الانبياء وانت ياعلي خاتم الاولياء (٢٨).

٢٩ ـ روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله في ادعية أيام شهر رمضان : اللهم اجعلنى فيه محبا لاوليائك ومعادياً لاعدائك مستناً بسنة خاتم انبيائك يا عاصم قلوب النبيين (٢٩) .

٣٠ ـ عن علي بن ابراهيم بن هاشم في حديث: ان اليهود أتوا رسول الله صلى الله عليه وآله فقالوا يامحمد الى ما تدعو ؟ قال : الى شهادة ان لا اله الا الله وانى رسول الله ... واخبركم عالم منكم جاءكم من الشام فقال : تركت الخمر والخمير وجئت الى البؤس والتمور لنبى يبعث في هذه الهجرة مخرجه مكة ومهاجره هاهنا وهو آخر الانبياء وأفضلهم يركب الحمار ... (٣٠) .

٣١ ـ عن أبى ذر الغفاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله : انا خاتم الانبياء وانت يا علي خاتم الاوصياء ... (٣١).

٣٢ ـ روى السيد ابن طاووس في اقباله متن الصحيفة التي ورثها الخلف

---

(٢٦) كشف الغمة ٣/ ٣٦٩ .

(٢٧) كشف الغمة ١/ ١٧ .

(٢٨) نور الثقلين ٤/ ٢٨٤ .

(٢٩) زاد المعاد ص ١٧٤ دعاء اليوم الخامس والعشرين .

(٣٠) اثبات الهداة ج ١ ص ٣٧٤ وراجع ج ١ ص ٣٨٧ .

(٣١) احقاق الحق ج ٤ ص ١٢٠ .

عن السلف من الانبياء وفيها ... أكمل بمحمد (ص) وبما أرسله به من بلاغ وحكمة ديني واختم به انبيائى ورسلي فعلى محمد وامته تقوم الساعة (٣٢) .

٣٣ ـ عن أبي جعفر الباقر (ع) قال: قال جدى رسول الله (ص): «أيها الناس حلالي حلال الى يوم القيامة وحرامي حرام الى يوم القيامة الا وقد بينهما الله عزوجل في الكتاب وبينهما كم في سنتي وسيرتى » (٣٣).

٣٤ ـ قال رسول الله (ص) كانت بنو اسرائيل تسوسهم الانبياء كلما هلك نبي خلفه نبي ، وانه لانبي بعدي وسيكون بعدي خلفاء (٣٤).

تنصيص الامام أمير المؤمنين عليه السلام على الخاتمية

هذا أمير المؤمنين باب علم النبي (ص) وموضع سره فقد نص في غير واحد من خطبه على كون الرسول الاكرم خاتماً لمن سبق و كتابه خاتما للتشريع ودونك نصوصه الناصعة ونصوص أولاده الطاهرين :

٣٥ ـ قال علي عليه السلام : الى أن بعث الله محمداً صلى الله عليه و آله لانجاز عدته و اتمام نبوته مأخوذاً على النبيين ميثاقه مشهورة سماته كريماً ميلاده...(٣٥).

٣٦ ـ وعنه عليه السلام: اجعل شريف صلواتك ونامى بركاتك على محمد صلى الله عليه و آله عبدك ورسولك الخاتم لما سبق والفاتح لما انغلق المعلن الحق بالحق ... (٣٦) .

قوله : « الفاتح لما انغلق » يريد لما كانت أبواب القلوب قد انغلقت بأقفال

---

(٣٢) اقبال السيد ابن طاووس ص ٧٣٤ طبعة تبريز وص ٥٠٩ طبعة طهران .

(٣٣) كنز الفوائد ص ١٦٤ وسائل الشيعة ج ١٨ ص ١٢٤ .

(٣٤) اخرجه البخارى ومسلم راجع جامع الاصول ج ٤ ص ٤٠ .

(٣٥) نهج البلاغة الخطبة الاولى .

(٣٦) نهج البلاغة الخطبة ٦٩ .

الضلال عن طوارق الهداية، فافتتحها بآيات نبوته، فأعلن الحق، وأظهره بالحجة والبرهان .

وأما ما رواه الشيخ والسيد في زيارة مولانا أمير المؤمنين : « السلام على رسول الله ، أمين الله على وحيه وعزايم أمره، الخاتم لما سبق والفاتح لما استقبل والمهيمن على ذلك كله ورحمة الله وبركاته » فالمراد منه : الفاتح لما استقبل من أبواب الهداية والبركات المعنوية ، فهو (ص) وان ختم ما سبق من أبواب الهداية ، فلا يمكن الاهتداء بتوراة موسى ولا بانجيل المسيح ، الا أنه فتح امام البشر أبواباً للهداية بقرآنه ، وسنته وعمله وتقريره وأوصيائه .

٣٧ ـ وعنه عليه السلام : ايها الناس خذوها من خاتم النبيين صلى الله عليه وآله انه يموت من مات منا وليس بميت ... (٣٧).

٣٨ ـ وعنه عليه السلام : اختار آدم عليه السلام خيرة من خلقه . . . فاهبطه بعد التوبة ليعمر أرضه بنسله وليقيم الحجة به على عباده ولم تخلهم بعد ان قبضه ممايؤكد عليهم حجة ربوبيته ويصل بينهم وبين معرفته بل تعاهدهم بالحجج على ألسن الخيرة من انبيائه ومتحملي ودائع رسالاته قرناً فقرناً حتى تمت بنبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم حجته وبلغ المقطع عذره ونذره ... (٣٨) .

٣٩ ـ وعنه عليه السلام: ارسله على حين فترة من الرسل وتنازع من الالسن فقفى به الرسل وختم به الوحى... (٣٩).

٤٠ ـ وعنه عليه السلام: امين وحيه وخاتم رسله وبشير رحمته ونذير نقمته...(٤٠)

---

(٣٧) نهج البلاغة الخطبة ٨٣ .

(٣٨) نهج البلاغة الخطبة ٨٧ .

(٣٩) نهج البلاغة الخطبة ١٢٩ .

(٤٠) نهج البلاغة الخطبة ١٦٨ .

٤١ ـ وعنه عليه السلام : ثم ان هـذا الاسلام دين الله الذي اصطفاه لنفسه واصطنعه على عينه واصفاه خيرة خلقه وأقام دعائمه على محبته اذل الاديان بعزته ووضع الملل برفعه واهان اعدائه بكرامته وخـذل محاديه بنصره وهدم اركان الضلالة بركنه وسقى من عطش من حياضه واتاق الحياض لمواتحه .

ثم جعله لاانفصام لعروته ولا فك لحلقته ولا انهدام لا ساسه ولازوال لدعائمه ولا انقلاع لشجرته ولاانقطاع لمدته ولا عفاء لشرائعه ولا جذ لفروعه ولاضنك لطرقه ولا وعوثة لسهولته ولا سوادلوضحه ولا عوج لانتصابه ولا عصل في عوده ولا وعث لفجه ولا انطفاء لمصابيحه ولا مرارة لحلاوته .

وقال عليه السلام وهو يصف القرآن :

ثم أنزل عليه الكتاب نـوراً لا تطفأ مصابيحه ، وسراجاً لا يخبو توقـده ، وبحراً لا يدرك قعره ، ومنهاجاً لا يضل نهجه، وشعاعاً لا يظلم ضوءه ، وفرقاناً لا يخمد برهانه ، وتبياناً لا تهدم أركانه، وشفاءاً لا تخشى اسقامه ، وعزاً لا تهزم أنصاره ، وحقاً لا تخذل أعوانـه ، فهو معدن الايمان وبحبوحته ، وينابيع العلم وبحوره ، ورياض العدل وغدرانـه ، وأثافي الاسلام وبنيانه ، وأوديـة الحق وغيطانه، وبحر لا ينزفه المنتزفون وعيون لا ينضبها الماتحون، ومناهل لايغيضها الواردون ، ومنازل لا يضل نهجها المسافرون ، وأعلام لا يعمى عنها السائرون وآكام لا يجوزعنها القاصدون (٤١).

٤٢ ـ ومن كلام لـه عليه السلام وهو يلـى غسل رسول الله صلى الله عليه وآله وتجهيزه :

بابى انت وامى لقدانقطع بموتك مالم ينقطع بموت غيرك من النبوة والانباء وأخبار السماء خصصت حتى صرت مسليا عمن سواك وعمت حتى صار الناس

(٤١) نهج البلاغة الخطبة ١٩٣ .

فيك سواء ... (٤٢) .

٤٣ ـ وقال عليه السلام في خطبة الوسيلة : فقال وقد حشده المهاجرون والانصار وانغصت بهم المحافل: أيها الناس ان عليا منى كهارون من موسى الا أنه لا نبي بعدي ... (٤٣) .

٤٤ ـ ومن خطبة له عليه السلام: الحمد لله علا فاستعلى ودنا فتعالى وارتفع فوق كل منظر واشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له واشهد ان محمداً عبده ورسوله خاتم النبيين وحجة الله على العالمين ... (٤٤) .

٤٥ ـ وقال عليه السلام ذات يوم على منبر الكوفة : انا سيد الوصيين ... انا وارث علم الاولين وحجة الله على العالمين بعد الانبياء ومحمد بن عبدالله خاتم النبيين ... (٤٥) .

٤٦ ـ وفى بعض دعائه عليه السلام : ورب الملائكة أجمعين ورب محمد صلى الله عليه وآله خاتم النبيين والمرسلين ورب الخلق أجمعين (٤٦) .

٤٧ ـ وعنه عليه السلام فى بعض خطبه: أيها الناس عليكم بالطاعة والمعرفة لمن لا تعذرون بجهالته فان العلم الذى هبط به آدم عليه السلام وجميع مافضلت به النبيون الى محمد خاتم النبيين فى عترة محمد صلى الله عليه وآله ... (٤٧).

٤٨ ـ وفي بعض احتجاجاته : اما رسول الله فخاتم النبيين ليس بعده نبي

---

(٤٢) نهج البلاغة الخطبة ٢٣٠ ومجالس المفيد ص٥٢٧ والبحار ج٢٢ ص٥٢٧.

(٤٣) الكافى ٨/ ٢٦ .

(٤٤) الكافى ٨/ ٦٧ ـ نهج السعادة الخطبة ١/ ١٨٨ .

(٤٥) غاية المرام ص ٤٧ . امالى الصدوق ص ١٧ .

(٤٦) الصحيفة العلوية دعاء اليوم السادس والعشرين .

(٤٧) كشف اليقين ص ٢٤ ـ تفسير القمى ص ٣٤٣ غاية المرام ص ٣٥٨ نهج السعادة الخطب ٣/ ١٨ نقلا عن غيبة النعمانى وارشاد المفيد ومسترشد الطبرى .

ولا رسول وختم برسول الله الانبياء الى يوم القيامة (٤٨) .

٤٩ ـ وقال عليه السلام في بعض خطبه : واشهد ان محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خاتم النبيين وحجة الله على العالمين (٤٩) .

٥٠ ـ عن الاصبغ بن نباتة قال : ان أمير المؤمنين عليه السلام خطب ذات يوم فحمد الله واثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وآله ثم قال : أيها الناس اسمعوا مقالتى... ومنا خاتم النبيين وفينا قادة الاسلام وامناء الكتاب...(٥٠).

٥١ ـ وعنه عليه السلام : ختم محمد ألف نبى وانى ختمت ألف وصى وانى كلفت ما لم يكلفوا (٥١) .

٥٢ ـ عن جابر بن عبدالله في حديث: فخر علي عليه السلام ساجداً ثم قال: الحمد لله الذي انعم على بالاسلام وعلمني القرآن وحببنى الى خير البرية وخاتم النبيين وسيد المرسلين احساناً منه وفضلا منه على ... (٥٢) .

٥٣ ـ وعنه عليه السلام في حديث: فخررت ساجداً لله تعالى وحمدته على ماانعم به على من الاسلام والقرآن وحببنى الى خاتم النبيين وسيد المرسلين(٥٣).

تنصيص فاطمة الزهراء عليها السلام على الخاتمية :

٥٤ ـ عن اسماء بنت عميس قالت حدثتنى فاطمة عليها السلام لما حملت بالحسن وولدته جاء النبي صلى الله عليه وآله... ثم هبط جبرئيل فقال يامحمد

(٤٨) كتاب سليم بن قيس ص٩٧ ـ الاحتجاج ١/ ٢٢٠ الطبع الحديث.
(٤٩) الوافى ج ١٤ ص ١١.
(٥٠) كشف الغمة ١/ ٥٠٦ .
(٥١) نور الثقلين ٤/ ٢٨٤ .
(٥٢) غاية المرام ص ١٢٧ .
(٥٣) غاية المرام ص ٥٥٢ .

العلى الاعلى يقرئك السلام ويقول: علىمنك بمنزلة هارون من موسى ولا نبي بعدك سم ابنك هذا باسم ابن هارون ... (٥٤).

٥٥ ـ عن فاطمة الزهراء عليها السلام فى بعض دعواته : اللهم صل على محمد وآل محمد صلاة يشهد الاولون مع الابرار وسيد المتقينوخاتم النبيين وقائد الخير ومفتاح الرحمة (٥٥) .

تنصيص السبط المجتبى على الخاتمية

٥٦ ـ عن الحسن عليه السلام في بعض خطبه : انا ابن نبى الله ... اناابن خاتم النبيين وسيد المرسلين (٥٦) .

٥٧ ـ عن سليم بن قيس قال : قام الحسن بن علي بن أبي طالب عليهما السلام على المنبر حين اجتمع معمعاوية واصحابه فحمدالله واثنىعليه ثمقال: أيها الناس ان معاوية زعم انى رأيته للخلافة أهلا ولم ار نفسى أهلا وكذب معاوية ... وقد ترك الامة عليا عليه السلام وقد سمعوا رسول الله صلى الله عليه وآله يقول لعلى عليه السلام : انت منى بمنزلة هارون منموسى غير النبوة فلا نبي بعدي ... (٥٧) .

٥٨ ـ عن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهما السلام قال : جاء نفرالى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال : يا محمد انك الذي تزعم انك رسول الله وانك الذي يوحى اليك كما أوحى الله الى موسى بنعمران فسكت النبىساعة ثم قال : نعم انا سيد ولدآدم ولا فخر وانا خاتم النبيين وامام المتقين ورسول

(٥٥) عيون اخبار الرضا ٢/ ٢٥ .

(٥٥) مقباس المصابيح ص ١١٣ .

(٥٦) مقتل الخوارزمى ١/ ١٢٦ .

(٥٧) مكاتيب الائمة ٢/ ٢٤ .

رب العالمين ... (٥٨) .

تنصيص الامام سيد الشهداء عليه السلام على الخاتمية

٥٩ ـ فى حديث الاعمش عن الحسين بن علي عليهما السلام قال: فاخبرنى يا رسول الله هل يكون بعدك نبي ؟ فقال : لا انا خاتم النبيين لكن يكون بعدى ائمة قوامون بالقسط بعدد نقباء بنى اسرائيل ... (٥٩) .

٦٠ ـ وفي دعائه ليوم عرفة : الحمدلله حمداً يعادل حمد ملائكته المقربين وانبيائـه المرسلين وصلى الله على خيرته محمد خاتم النبيين وآله الطاهرين المخلصين .

وقوله: ورب محمد خاتم النبيين وآله المنتجبين ومنزل التوراة والانجيل والزبور والقرآن الكريم (٦٠) .

٦١ ـ وقال أيضا فى ذلك الدعاء: اللهم صل على محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين (٦١) .

٦٢ ـ وفي بعض اشعاره :

أبي علي وجدي خاتم الرسل والمرتضون لدين الله من قبلى (٦٢)

تنصيص الامام زين العابدين عليه السلام على الخاتمية

٦٣ ـ قال في بعض دعواتـه : فختم بنا على من ذرع وجعلنا شهداء على

---

(٥٨) البرهان ٢/ ٤١ .

(٥٩) المناقب للمازندرانى ٢/ ٣٠٠ ـ اثبات الهداة ٢/ ٥٤٤ .

(٦٠) الاقبال ص ٣٤٢ ـ ٣٤٣ .

(٦١) الاقبال ص ٣٤٣ .

(٦٢) كشف الغمة ٢/ ٢١٣ ـ بحار الانوار ٧٨/ ١٢٥ وفى طبع الكمبانى ١٨/ ١٥٠ .

من جهد (٦٣) .

٦٤ ـ وقال : اللهم صل على محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين واعذنا واهالينا واخواننا وجميع المؤمنين والمؤمنات مما استعذنا منه (٦٤) .

٦٥ ـ وقال: اللهم صل على محمد خاتم النبيين وتمام عدة المرسلين (٦٥).

٦٦ ـ وقال : اللهم لك الحمد أن خلقت فسويت وقدرت وقضيت وامت واحييت ... فصل على محمد خاتم النبيين وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين (٦٦).

٦٧ ـ وقال: واجمع بيني وبين المصطفى وآله خيرتك من خلقك وخاتم النبيين محمد ... (٦٧) .

تنصيص الامام أبي جعفر الباقر عليه السلام على الخاتمية

٦٨ ـ عن أبي جعفر عليه السلام في حديث : لقد ختم الله بكتابكم الكتب وختم بنبيكم الانبياء (٦٨) .

٦٩ ـ وعنه عليه السلام في حديث آخر : ثم ان الله عزوجل أرسل عيسى بن مريم الى بني اسرائيل خاصة فكانت نبوته ببيت المقدس وكان من بعده الحواريون اثني عشر فلم يزل الايمان يستسر في بقيه أهله منذ رفع الله عيسى وأرسل الله تبارك وتعالى محمداً الى الجن والانس عامة وكان خاتم الانبياء وكان

---

(٦٣) الصحيفة السجادية الدعاء ١٢ .

(٦٤) الصحيفة السجادية الدعاء ١٧ .

(٦٥) ملحقات الصحيفة السجادية دعاء يوم الثلثاء .

(٦٦) ملحقات الصحيفة السجادية دعاء يوم الاربعاء .

(٦٧) مصباح المتهجد ص ٤٠٨ دعاء ابي حمزة الثمالي .

(٦٨) الكافي ١/ ١٧٧ ـ الوافي ج ٢ ص ١٩ .

من بعد الاثنا عشر أوصياء (٦٩) .

٧٠ ـ وعنه عليه السلام في دعاء أيام شهر رمضان : اللهم رب الفجر وليال عشر ... ورب خاتم النبيين صلواتك عليه ... (٧٠) .

٧١ ـ وعنه في زيارة الحسين في العاشوراء : السلام عليك يا مولاى يا أبا عبدالله يابن خاتم النبيين ويابن سيد الوصيين ويابن سيدة نساء العالمين (٧١).

تنصيص الامام الصادق عليه السلام على الخاتمية

٧٢ ـ عن الصادق في حديث : فكل نبي جاء بعد المسيح أخذ بشريعته ومنهاجه حتى جاء محمد صلى الله عليه وآله فجاء بالقرآن وبشريعته ومنهاجه فحلاله حلال الى يوم القيامة وحرامه حرام الى يوم القيامة ... (٧٢) .

٧٣ ـ عن زرارة قال : سألت أبا عبدالله عليه السلام عن الحلال والحرام فقال: حلال محمد حلال أبداً الى يوم القيامة لا يكون غيره ولا يجيء غيره (٧٣).

٧٤ ـ قال (ع): بعث انبياءه ورسله ونبيه محمداً فأفضل الدين معرفة الرسل وولايتهم وأخبرك ان الله أحل حلالا وحرم حراماً الى يوم القيامة (٧٤) .

٧٥ ـ عن أبي عبدالله عليه السلام : ان بعض قريش قال لرسول الله صلى الله عليه وآله بأي شيء سبقت الانبياء وانت بعثت آخرهم وخاتمهم فقال : انى كنت أول من آمن بربى ... (٧٥) .

---

(٦٩) اكمال الدين ص ١٢٧ .

(٧٠) الاقبال ص ٩١ .

(٧١) هدية الزائرين ص ١٣٥ ـ ١٣٧ .

(٧٢) الكافى ١٧/٢ ـ المحاسن ص ١٩٣.

(٧٣) الكافى ٥٧/١ .

(٧٤) البحار ج ٢٤ ص ٢٨٨ .

(٧٥) الكافى ١٠/٢ .

٧٦ ـ قال له عليه السلام قائل: علمني دعاءاً فقال: اين انت عن دعاء الالحاح فقال له الطالب وما دعاء الالحاح ؟ فقال له : تقول : اللهم رب السموات السبع وما فيهن ورب الارضين السبع ومافيهن ورب العرش العظيم ورب محمد خاتم النبيين اسئلك باسمك ... (٧٦) .

٧٧ ـ وقال عليه السلام في كيفية زيارة الحسين عليه السلام في حديث : ثم امش وقصر خطاك حتى تستقبل القبر واجعل القبلة بين كتفيك واستقبل بوجهك وجهه وقل : السلام عليك من الله والسلام على محمد امين الله على رسله وعزائم أمره الخاتم لما سبق والفاتح لما استقبل ... اللهم صل على محمد وآل محمد صاحب ميثاقك وخاتم رسلك وسيد عبادك ... (٧٧) .

٧٨ ـ عن اسماعيل بن جابر قال: سمعت أباعبدالله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام يقول: ان الله تبارك وتعالى بعث محمداً فختم به الانبياء فلا نبي بعده وانزل عليه كتابا فختم به الكتب فلا كتاب بعده احل فيه حلالا وحرم حراماً فحلاله حلال الى يوم القيامة وحرامه حرام الى يوم القيامة ... (٧٨) .

٨٩ ـ وعنه عليه السلام: اذا اردت زيارة قبر امير المؤمنين فتوضأ واغتسل وامش على هيئتك وقل . . . السلام من الله والتسليم على محمد امين الله على رسالته وعزائم امره ومعدن الوحي والتنزيل الخاتم لما سبق والفاتح لما استقبل (٨٩)

٨٠ ـ عن ابى عبدالله عليه السلام انه قال : يستحب ان يصلى على النبى صلى الله عليه وآله بعد العصر يوم الجمعة بهذه الصلاة: اللهم ان محمداً صلى الله عليه وآله كما وصفته فى كتابك... وانه رسولك وخاتم النبيين وجاء الحق

---

(٧٦) قرب الاسناد ص ٤ ـ ٥ .

(٧٧) كامل الزيارات ص ٢٣٠ ـ ٢٣١ .

(٧٨) تفسير النعمانى ص ٣ ـ الميزان ٣/ ٨١ نقلا منه .

(٨٩) تهذيب الاحكام ٧/ ٢٥ ـ فرحة الغرى ص ٣٣ .

من عندك وصدق المرسلين (٨٠) .

٨١ ـ وقال فى تلك الصلاة ايضاً : اللهم واجعل صلاتك وغفرانك ... وصلوات ملائك ورسلك وانبيائك ... على محمد بن عبدالله سيد المرسلين وخاتم النبيين وامام المتقين ... (٨١) .

٨٢ ـ وعنه عليه السلام فى زيارة الحسين المشهورة بالوارث: السلام عليك يا خاتم النبيين السلام عليك يا سيد المرسلين (٨٢) .

٨٣ ـ عن ايوب بن الحر قال : سمعت اباعبدالله عليه السلام يقول: ان الله ختم بنبيكم النبيين فلا نبي بعده ابداً وختم بكتابكم الكتب فلا كتاب بعده ابداً وانزل فيه تبيان كل شيء ... (٨٣) .

٨٤ ـ عن الصادق عليه السلام : اذا زرت جانب النجف فزر عظام آدم وبدن نوح وجسم على بن ابى طالب عليه السلام فانك زائر الاباء الاولين ومحمد صلى الله عليه وآله خاتم النبيين وعلياً سيد الوصيين وان زائره يفتح له ابواب السماء فلا تكن على الخير نوماً (٨٤) .

٨٥ ـ عن الصادق عليه السلام : من قال عند غروب الشمس فى كل يوم: يا من ختم النبوة بمحمد صلى الله عليه وآله اختم لى فى يومى هذا بخير وسنتى بخير وعمرى بخير ... (٨٥) .

٨٦ ـ عن الصادق عليه السلام : كان على يرى مع رسول الله قبل الرسالة

---

(٨٠) مصباح المتجهد ص ٢٧١ ـ ٢٧٢ .
(٨١) مصباح المتجهد ص ٢٧٢ .
(٨٢) مصباح المتهجد ص ٥٠٠ .
(٨٣) الوافى الجزء الثانى من ج ١ ص ١٤٤ .
(٨٤) مزار ابن المشهدى مخطوط ص ١٤ ـ تحفة الزائر ص ٦١ .
(٨٥) فلاح السائل ص ٢٠٢ ـ بحار الانوار ٢٦٧/٨٦ .

الضوء ويسمع الصوت قال : وقال له صلى الله عليه وآله : لولا انى خاتم الانبياء لكنت شريكا فى النبوة فان لا تكن نبياً فانك وصى نبى ووارثه بل انت سيد الأوصياء وامام الاتقياء (٨٦) .

٨٧ ـ وروى عنه عليه السلام فى كيفية تشهد الصلاة: فاذا جلست في الرابعة قلت : بسم الله وبالله ... السلام على محمد بن عبدالله خاتم النبيين لانبي بعده والسلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ثم تسلم (٨٧) .

٨٨ ـ قال ابو عبدالله عليه السلام : ان تبعا قال للاوس والخزرج : كونوا هاهنا حتى يخرج هذا النبى اما انا لو ادركته لخرجت معه وكتب كتابا الى النبي صلى الله عليه وآله وعنوان الكتاب : الى محمد بن عبدالله خاتم النبيين ورسول رب العالمين من تبع الاول (٨٨) .

٨٩ ـ روى عاصم بن حميد قال : قال ابو عبدالله عليه السلام : اذا حضر احدكم الحاجة فليصم... ويقول ـ وذكر دعاءاً طويلا ذكر منه موضع الحاجة ـ اللهم انى اتقرب اليك نبيك ورسولك وحبيبك خاتم النبيين وسيد المرسلين وامام المتقين (٨٩) .

٩٠ ـ عن الفضيل قال: قال ابوعبدالله عليه السلام : لم يبعث الله عزوجل من العرب الا خمسة انبياء هوداً وصالحاً و اسماعيل وشعيبا ومحمداً خاتم النبيين (٩٠) .

---

(٨٦) الشرح الحديدى على نهج البلاغة ١٣/ ٢١٠ ـ غاية المرام ص ٤٧ .

(٨٧) وسائل الشيعة ٤/ ٩٨٩ ـ ٩٩٠ .

(٨٨) اثبات الهداة ١/ ٤٠١ .

(٨٩) اثبات الهداة ٢/ ٤٧٢ .

(٩٠) البحار ١١/ ٤٢ نقلا عن قصص الانبياء.

٩١ ـ وعنه عليه السلام في زيارة أمير المؤمنين عليه السلام: السلام من الله على رسول الله محمد بن عبدالله خاتم النبيين وامام المتقين ... الخاتم لماسبق والفاتح لما استقبل ... (٩١) .

٩٢ ـ وعنه عليه السلام في زيارته التى زار بها أمير المؤمنين عليه السلام في مولد النبي صلى الله عليه وآله : السلام عليك يامن بات على فراش خاتم الانبياء ووقاه بنفسه عند مبارزة الاعداء وفى نسخة (شر الاعداء) (٩٢) .

٩٣ ـ وعنه عليه السلام أيضا فيها: السلام عليك ياوارث علم النبيين ومستودع علم الاولين والاخرين وصاحب لواء الحمد وساقى أوليائه من حوض خاتم النبيين السلام عليك يايعسوب الدين وقائد الغر المحجلين ووالد الائمة المرضيين ورحمة الله وبركاته (٩٣) .

٩٤ ـ وعنه عليه السلام في دعائه بعد زيارة أمير المؤمنين : اسألك بحق محمد خاتم النبيين وعلى أمير المؤمنين ... (٩٤) .

٩٥ ـ وروى بريد عن أبى جعفر وأبي عبدالله فى تفسير قوله عزوجل : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي قولهما: « لقد ختم الله بكتابكم الكتب وختم بنبيكم الانبياء » (٩٥) .

تنصيص الامام موسى بن جعفر عليه السلام على الخاتمية

٩٦ ـ عن علي بن رئاب عن العبد الصالح عليه السلام قال : ادع بهذا

(٩١) البحار ١٠٠ / ٣٣٦ .
(٩٢) بحار الانوار ١٠٠ / ٣٧٤ ـ زاد المعاد ص ٣٤٣ .
(٩٣) بحار الانوار ١٠٠ / ٣٧٥ ـ زاد المعاد ص ٣٤٥ .
(٩٤) تحفة الزائر ص ١٠٠ .
(٩٥) الكافى ج ١٥ ص ١٧٧ ومضى ما يقرب منه فى الحديث رقم ٨٤ .

الدعاء في شهر رمضان مستقبل دخول السنة ... اللهم رب السموات السبع والارضين السبع ومافيهن ومابينهن ... ورب محمد صلى الله عليه وآله وأهل بيته سيد المرسلين وخاتم النبيين ... (٩٦) .

٩٧ ـ عن ابراهيم بن أبي البلاد قال : قال لي أبوالحسن عليه السلام ... فكتب لي وانا قاعد بخطه وقرأه علي : اذا وقفت على قبره (رسول الله) صلى الله عليه وآله فقل: اشهدان لا اله الا الله وحده لا شريك له ... واشهد انك خاتم النبيين ... (٩٧) .

٩٨ ـ عن موسى بن جعفر عليهما السلام : ان رجلا سأل أبا عبدالله عليه السلام ما بال القرآن لا يزداد عند النشر والدراسة الاغضاضة ؟ قال : لان الله لم ينزله لزمان دون زمان ولا لناس دون ناس فهو في كل زمان جديد وعند كل قوم غض الى يوم القيامة (٩٨) ودلالته على الخاتمية واضحة .

تنصيص الامام على بن موسى الرضا عليهما السلام على الخاتمية

٩٩ ـ خطب الرضا عليه السلام هذه الخطبة : الحمدلله حمد في الكتاب نفسه وافتتح بالحمد كتابه... وصلى الله على محمد خاتم النبوة وخير البرية وعلى آله آل الرحمة وشجرة النعمة ... (٩٩) .

١٠٠ ـ وقال عليه السلام في حديث وصف الامامة والامام : فهى فى ولد علي عليه السلام خاصة الى يوم القيامة اذ لا نبي بعد محمد صلى الله عليه وآله ... (١٠٠) .

---

(٩٦) الكافى ٤/ ٧٢ ـ الفقيه ٢/ ١٠٣ .

(٩٧) كامل الزيارات ص ١٧ ـ البحار ٠٠/ ١٥٤ .

(٩٨) عيون اخبار الرضا ٢/ ٨٧ .

(٩٩) الكافى ٥/ ٣٧٣ .

(١٠٠) عيون اخبار الرضا ١/ ٢١٨ .

١٠١ ـ وعنه عن آبائه عن علي عليهم السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا علي ماسألت ربي شيئا الاسألت لك مثله غيرانه قال: لانبوة بعدك انت خاتم النبيين وعلي خاتم الوصيين (١٠١).

ابهام وايضاح :

كون علي (ع) خاتم الوصيين لا ينافي كون الحسن والحسين والائمة من بعده أوصياء أيضاً ، فان الوصاية عـن الانبياء قد ختمت بعلي ، فلا وصي نبي بعد على (ع) وأما الائمة من بعده فهم أوصياء وصيه ، أو أوصياء وصى وصيه ، لا أوصياء النبى نفسه ، كما لا يخفى .

ويمكن ان يقال هنا وصاية واحدة متعلقه بعلي وأولاده (ع) فوصاية الحسن والحسين والائمة من بعده بنفس الوصاية المتعلقة بأبيهم أمير المؤمنين ، فكون علي وخاتم الاوصياء . كناية عن كون الوصايـة المتعلقة به وبأولاده قد ختم بها باب الوصاية السماوية وبذلك يسقط استدلال الفرقة الضالة بهذا الحديث على نفي كون « خاتم » بمعنى « آخر » قائلة بانه لو كان « الخاتم » بمعنى « الاخر » لزم سلب الولاية عن الائمة الاخرين، وقد عرفت منا فقه الحديث وليس استدلالهم بهذا الا كتمسك الغريق بالطحلب .

١٠٢ ـ عن أبى الحسن الرضا عليه السلام قال: انما سمي أولوا العزم أولى العزم لانهم كانوا أصحاب الشرايع والعزائم وذلك ان كل نبى بعد نوح عليه السلام كان على شريعته ومنهاجه وتـابعا لكتابه الى زمن ابراهيم الخليل عليه السلام . وكل نبي كان في أيام ابراهيم وبعده كان على شريعته ومنهاجه وتابعاً لكتابه الى زمن موسى وكل نبي كان في زمن موسى وبعده كان على شريعة موسى ومنهاجه وتابعاً لكتابه الى أيام عيسى وكل نبي كان في أيام عيسى وبعده كان على منهاج

(١٠١) عيون اخبار الرضا ٢/ ٧٣ .

عيسى وشريعته وتابعاً لكتابه الى زمن نبينا محمد صلى الله عليه وآله فهؤلاء الخمسة أولوالعزم فهم افضل الانبياء والرسل وشريعة محمد صلى الله عليه وآله لا تنسخ الى يوم القيامة ولا نبي بعده الى يوم القيامة فمن ادعى بعده نبوة أواتى بعد القرآن بكتاب فدمه مباح لكل من سمع ذلك منه (١٠٢) وقد نقلنا الحديث بطوله لما فيه من الفوائد .

١٠٣ ـ عن الفضل بن شاذان قال : سأل المأمون على بن موسى الرضا عليهما السلام انيكتب له محض الاسلام على سبيل الا يجاز والاختصار فكتب عليه السلام له ان محض الاسلام شهادة ان لا اله الا الله وحده لا شريك له ... وان محمداً عبده ورسوله وامينه وصفيه وصفوته من خلقه وسيد المرسلين وخاتم النبيين وأفضل العالمين لا نبى بعده ولا تبديل لملته ولا تغيير لشريعته وان جميع ما جاء به محمد بن عبدالله هو الحق المبين والتصديق به وبجميع من مضى قبله من رسل الله وانبيائه وحججه والتصديق بكتابه الصادق العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد وانه المهيمن على الكتب كلها وانه حق من فاتحته الى خاتمته ... (١٠٣) .

١٠٤ ـ وعنه عليه السلام في حديث: حتى انتهت رسالته الى محمد المصطفى صلى الله عليه وآله فختم به النبيين وفى نسخة (المرسلين) وقفى به على آثار المرسلين وبعثه رحمة للعالمين ... (١٠٤).

١٠٥ ـ صورة ما كان على ظهر العهد الذي عهده المأمون اليه بخطه عليه السلام: الحمدلله الفعال لمايشاء ... وصلواته على نبيه محمد خاتم النبيين وآله الطيبيين الطاهرين أقول وانا علي بن موسى بن جعفر ... (١٠٥) .

---

(١٠٢) عيون اخبار الرضا ٢/ ٨٠ .

(١٠٣) عيون اخبار الرضا ٢/ ١٢١ ـ ١٢٢ .

(١٠٤) عيون اخبار الرضا ٢/ ١٥٤ .

(١٠٥) المناقب للمازندرانى ٤/ ٣٦٤ ـ كشف الغمة ٣/ ١٧٧ .

١٠٦ ـ روى الصدوق مسنداً عن علي بن موسى الرضا (ع) عن أبيه عن آبائه عن فاطمة بنت النبي (ص) لما حملت بالحسن وولدته... ثم هبط جبرئيل فقال : يا محمد العلى الاعلى يقرئك السلام ، ويقول : علي منك بمنزلة هارون من موسى ولا نبي بعدك ، سم ابنك باسم هارون ، فقال النبى (ص) وما اسم ابن هارون ؟ قال شبر ، قال النبى (ص) : لسانى عربى ، قال جبرئيل : سمه الحسن (١٠٦) .

تنصيص الامام ابى محمد الجواد عليه السلام على الخاتمية

١٠٧ ـ جاء في بعض دعواته : بسم الله قوى الشأن عظيم البرهان شديد السلطان ما شاء الله كان ومالم يشأ لم يكن اشهد ان نوحاً رسول الله وان ابراهيم خليل الله وان موسى كليم الله ونجيه وان عيسى بن مريم روح الله وكلمته صلوات الله عليه وعليهم اجمعين وان محمداً صلى الله عليه وآله خاتم النبيين لا نبي بعده (١٠٧) .

تنصيص الامام الهادى عليه السلام على الخاتمية

١٠٨ ـ عن عبد العظيم الحسنى قال : دخلت على سيدى على بن محمد عليهما السلام فلما أبصرنى قال لى : مرحبا يا ابا القاسم انت ولينا حقاً قال : فقلت له : يابن رسول الله انى اريد ان اعرض عليك دينى ... انى اقول : ان الله واحد ليس كمثله شيء ... وان محمداً صلى الله عليه وآله عبده ورسوله خاتم النبيين ولا نبى بعده الى يوم القيامة وان شريعته خاتم الشرايع فلا شريعة بعدها الى يوم القيامة ... (١٠٨) .

---

(١٠٦) عيون اخبار الرضا ج ٢ ب ١ ص ٢٥ .

(١٠٧) مهج الدعوات ص ٤٠ ـ بحار الانوار ٣٥٩/٩٤ .

(١٠٨) اكمال الدين ص ٢١٤ الطبع الحجرى .

١٠٩ ـ عن علي بن محمد الهادي عليهما السلام في زيارته التي زار بها عليا عليه السلام في يوم الغدير في السنة التى اشخصه المعتصم ... السلام على محمد رسول الله خاتم النبيين وسيد المرسلين وصفوة رب العالمين ... والخاتم لما سبق والفاتح لما استقبل ... (١٠٩) .

تنصيص الامام العسكرى عليه السلام على الخاتمية

١١٠ ـ عن الامام العكسرى عليه السلام قال : لقد رامت الفجرة ليلة العقبة قتل رسول الله صلى الله عليه وآله على العقبة ورام من بقى من مردة المنافقين بالمدينة قتل علي بن أبي طالب فماقدروا مغالبة ربهم. حملهم على ذلك حسدهم لرسول الله صلى الله عليه وآله في علي عليه السلام لمافخم من أمره وعظم من شأنه من ذلك انه لما خرج من المدينة وقد كان خلفه عليها... قال اكثر المنافقين مله وسأمه وكره صحبته فتبعه على عليه السلام حتى لحقه ... فقال له اما ترضى ان تكون منى بمنزلة هارون من موسى الا انه لا نبي بعدى ... (١١٠) .

تنصيص الحجة القائم عليه السلام على الخاتمية

١١١ ـ قال عليه السلام في الصلوات المروية عنه التي خرجت الى أبي الحسن الضراب الاصبهانى بمكة: بسم الله الرحمن الرحيم اللهم صل على محمد سيد المرسلين وخاتم النبيين وحجة رب العالمين ... (١١١) .

١١٢ ـ وفي دعائه الذي قرأه في شهر رجب في مسجد السهلة : يا اسمع السامعين ويا ابصر المبصرين ويا انظر الناظرين ويااسرع الحاسبين ويا احكم

---

(١٠٩) بحار الانوار ١٠٠/ ٣٦٠ .

(١١٠) غاية المرام ١٥١ .

(١١١) مصباح المتهجد ص ٢٨٤ .

الحاكمين ويا ارحم الراحمين صل على محمد خاتم النبيين وعلى أهل بيته الطاهرين الاخيار ... (١١٢) .

١١٣ - وفي جوابه لكتاب أحمد بن اسحاق : بسم الله الرحمن الرحيم اتانى كتابك ابقاك الله ... ثم بعث محمداً صلى الله عليه وآله رحمة للعالمين وتمم به نعمته وختم به انبيائه وارسله الى الناس كافة وأظهر من صدقه ما أظهر وبين من آياته وعلاماته ما بين ثم قبضه الله اليه حميداً فقيداً سعيداً ... (١١٣).

١١٤ - وفي الزيارة الخارجة من الناحية الى أحد الابواب الاربعة: السلام على آدم صفوة الله من خليقته ... السلام على ابن خاتم الانبياء السلام على ابن سيد الاوصياء ... (١١٤) .

وفيها أيضاً: اللهم انى اتوسل اليك يا اسرع الحاسبين ويا اكرم الاكرمين ويا احكم الحاكمين بمحمد خاتم النبيين ورسولك الى العالمين أجمعين... (*).

روايات اخرى

١١٥ - في رواية قال آدم : لما خلقتنى رفعت رأسى الى عرشك فاذا فيه مكتوب لا اله الا الله محمد رسول الله فعلمت انه ليس أحد اعظم قدراً عندك ممن جعلت اسمه مع اسمك فاوحى الله اليه: وعزتى وجلالى انه لاخر النبيين من ذريتك ولولاه لما خلقتك (١١٥) .

١١٦ - وفي دعا السمات : وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وعترته

---

(١١٢) الاقبال ص ٦٤٥ .

(١١٣) مكاتيب الائمة ٢/ ٢٧٦ .

(١١٤) بحار الانوار ١٠١/ ٣١٨ - الصحيفة الهادية والتحفة المهدية ص٢٠٣ .

(*) بحار الانوار ١٠١/ ٣٢٣ - الصحيفة الهادية والتحفة المهديه ص ٢١٧ .

(١١٥) ينابيع المودة ص ١٧ - ١٨ .

الطاهرين وسلم تسليماً كثيراً (١١٦) .

١١٧ ـ قال الله تعالى لادم عليه السلام: انت يا آدم أول الانبياء والرسل وابنك محمد خاتم الانبياء والرسل ... (١١٧) .

١١٨ ـ ومما أوحى الله الى آدم: من ولدك ابراهيم اجرى على يده عمارة بيني تعمره الامم حتى ينتهى الى نبي يقال لـه خاتم النبيين اجعله من سكانه وولاته (١١٨) .

١١٩ ـ في التوراة عن الله تبارك وتعالى : انى باعث في الاميين من ولد اسماعيل رسولا انزل عليه كتابى وابعثه بالشريعة القيمة الى جميع خلقى أوتيه حكمتى وايدته بملائكتى وجنودى ... اكمل بمحمد صلى الله عليه وآله وبما ارسله به من بلاغ وحكمة دينى واختم به انبيائى ورسلى فعلى محمد صلى الله عليه وآله وامته تقوم الساعة (١١٩) .

١٢٠ ـ وفي حديث بحيراء الراهب : انت سيد ولد آدم وسيد المرسلين وامام المتقين وخاتم النبيين ... (١٢٠) .

١٢١ ـ وجاء فى دعاء يوم الخميس : وصلى الله على محمد خاتم النبيين وآله الطيبين والاخيار الابرار الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون (١٢١) .

١٢٢ ـ وجاء في تسبيح يوم الخميس: وصلى الله على رسوله محمد خاتم

---

(١١٦) بحار الانوار ٩٠/١٠١ .

(١١٧) اثبات الهداة ١/٣١٨ .

(١١٨) اثبات الهداة ١/٤٠٠ .

(١١٩) الاقبال ص ٥٠٩ .

(١٢٠) اثبات الهداة ١/٣٤٥.

(١٢١) مصباح المهتجد ص ٣٤ .

النبيين وآله اجمعين (١٢٢) .

١٢٣ ـ وفي دعاء يوم الجمعة : اللهم صل على محمد وآل محمد نبي الرحمة وقائد الخير وامام الهدى والداعى الى سبيل الاسلام ورسولك يا رب العالمين وخاتم النبيين وسيد المرسلين (١٢٣) .

١٢٤ ـ وفى دعاء أيام شهر رجب : يا اسمع السامعين وابصر الناظرين واسرع الحاسبين يا ذا القوة المتين صل على محمد خاتم النبيين وعلى أهل بيته (١٢٤) .

١٢٥ ـ وفي دعاء ليلة النصف من شعبان : وصلى الله على محمد خاتم النبيين والمرسلين وعلى اهل بيته الصادقين وعترته الناطقين (١٢٥) .

١٢٦ ـ عن ابن عباس انه قال : اول المرسلين آدم وآخرهم محمد صلى الله عليه وآله وكانت الانبياء مأة الف واربعة وعشرين نبى . المرسل (الرسل) منهم ثلاثمأة وخمسة وخمسة منهم اولوالعزم : نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد وخمسة منهم العرب هود وصالح وشعيب واسماعيل ومحمد صلى الله عليه وآله (١٢٦) .

١٢٧ ـ قال الطبرسى رحمه الله : واذا اراد الرجوع الى بيته فليقل حين يدخل بسم الله وبالله اشهد ان لااله الا الله وحده لا شريك له واشهد ان محمداً عبده ورسوله ثم يسلم على اهله ان كان في البيت أحد فان لم يكن في البيت أحد فليقل بعد الشهادتين السلام على محمد بن عبدالله خاتم النبيين السلام على

(١٢٢) مصباح المتهجد ص ٣٤١ .
(١٢٣) مصباح المتجهد ص ٣٤٥ .
(١٢٤) مصباح المتهجد ص ٥٥٨ .
(١٢٥) مصباح المتهجد ص ٥٨٦ .
(١٢٦) الاختصاص ص ٢٦٤ ـ بحار الانوار ٤٣/١١.

الائمة الهادين المهديين السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين (١٢٧) .

١٢٨ ـ وفي زيارة رسول الله صلى الله عليه وآله : السلام عليك يا خاتم النبيين اشهد انك قد بلغت الرسالة ... (١٢٨).

١٢٩ ـ وايضا في زيارته صلى الله عليه وآله : السلام عليك يا نجيب الله السلام عليك يا خاتم النبيين السلام عليك يا سيد المرسلين (١٢٩) .

١٣٠ ـ وايضا في زيارته صلى الله عليه وآله: السلام عليك ياحجة الله على الاولين والاخرين السابق في طاعة رب العالمين والمهيمن على رسله والخاتم لانبيائه والشاهد على خلقه والشفيع اليه (١٣٠) .

١٣١ ـ وايضا في زيارته صلى الله عليه وآله: اول النبيين ميثاقاً وآخرهم مبعثاً الذي غمسه في بحر الفضيلة ... (١٣١) .

١٣٢ ـ في زيارة ابراهيم بن رسول الله: السلام على محمد بن عبدالله سيد الانبياء وخاتم الرسل ... (١٣٢) .

١٣٣ ـ وفي زيارة العاشوراء : السلام عليك يا وارث آدم صفوة الله . . . وسبط خاتم المرسلين (١٣٣) .

١٣٤ ـ وفي زيارة الحسين عليه السلام في أول شهر رجب: السلام عليك يابن رسول الله صلى الله عليه وآله السلام عليك يابن خاتم النبيين (١٣٤) .

---

(١٢٧) مكارم الاخلاص ١٨٨ .

(١٢٨) بحار الانوار ١٠٠/ ١٦١ .

(١٢٩) بحار الانوار ١٠٠/ ١٨٣ ـ زاد المعاد ص ٣٣٤ .

(١٣٠) بحار الانوار ١٠٠/ ١٨٤ ـ زاد المعاد ص ٣٣٥ .

(١٣١) بحار الانوار ١٠٠/ ١٨٥ ـ زاد المعاد ص ٣٣٧ .

(١٣٢) بحار الانوار ١٠٠/ ٢١٧ ـ هديه الزائرين ص ٢٦٢ نقلا عن المفيد وابن طاوس والشهيد.

(١٣٣) بحار الانوار ١٠١/ ٣١٣ .

(١٣٤) بحار الانوار ١٠١/ ٣٣٦ .

١٣٥ ـ روي في الاختصاص ، عن ابن عباس انه قال : أول المرسلين آدم وآخرهم محمد (ص) وكانت الانبياء مأةألف وأربعة عشرين ألف نبي، المرسل منهم ثلاثمائة، خمسة منهم اولوا العزم: نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد وخمسة من العرب هود وصالح وشعيب واسماعيل ومحمد (ص) (١٣٥) .

هذه جملة ماوقفت عليه من الاثار النبوة والمأثورات عن أئمة أهل البيت (١) ولعل ما لم أظفر به أكثر مما ظفرت به ، كل ذلك يؤيد ما هو المنصوص في القرآن الحكيم ، وان الله أوصد باب النبوة ورسالة السماء الى الارض ، ببعث نبيه وآخر سفرائه محمد (ص) فليس بعده نبى ولا شريعة ولاكتاب ولا . . . هذا ، وقدأغناهم تصريح الكتاب بالموضوع عن افاضة القول فيه ، كما هوشأن كل موضوع فيه نص في القرآن الكريم .

* * *

شبهات حول الخاتمية :

لقد حصحص الحق مما سردناه من الادلة والدلائل الناصعة ، على خاتمية الرسول فلم يبق مقول لقائل ولا مصول لصائل، وماسردناه من الادلة يفيد القطع و اليقين بالخاتمية للرسول الاعظم (ص) لكل من آمن بقرآنه وسنته القطعية ، والاجماع المسلم بين الامة المدعم بالضرورة والبداهة بين المسلمين .

غير أن شر ذمة قليلة ممن أصابهم مس من الالحاد والمادية ، أخذو يلقون حبالا وعصياً في سبيل الضعفاء من المسلمين، يخدعون بها الهمج الرعاع والبسطاء من الناس فجاؤا بشكوك وشبهات لفقوها من هنا وهناك لا تقتصر عـن شبهات

---

(١٣٥) الاختصاص وبحار الانوار ج ١١ ص ٤٣ .

(١) لا يخفى على القارىء الكريم مـا عانيته من الجهود فى جمع تلكم الاحاديث المأثورة عن النبى وآله من مصادرها المختلفة .

السوفسطائية تجاه البديهة .

وقد اتخذت تلك الشرذمة الضئيلة انكار الخاتمية اداة للفتنة وسبيلا الى هدم الاسلام، واضلال المؤمنين بها وتمهيداً لاهدافهم واغراضهم الرجعية. تلك الشبهات توقفنا على مبلغ علمهم بالكتاب والسنة ومدى المامهم بالادب العربي وتوقفنا على أنه لاهدف لهم في اختلاق هذه الشكوك، الاخدمة الاستعمار وتفريق الكلمة وهدم الصفوف الاسلامية ، وقد عرفتهم الامة الاسلاميه ، وعرفت نواياهم وضمائرهم كما عرفت قيمة شبهاتهم التي تتضاءل عند كل من له أدنى المام بالكتاب والسنة وتجعلها في معرض البطلان .

ولاسكات ما احدثته هذه الشبهات من جلبة وتركاض وصخب وهياج ولا ماطة اللثام عن حقايق ناصعة ، خفيت على من اختلقها . عقدنا هذا الفصل حتى يتجلى للقارىء الحق بأجلى مظاهره ولا يبقى للافاكين المتخرصين مجال للبحث والتشكيك .

لقد حسب هؤلاء الاغران ما لفقوه من الاوهام سينطلي على عقول أبناء الاجيال الصاعدة ، ويتقبلونه بصدر رحب ، الا انه خفى عنهم، ان الوعى الذي تمتعت به هذه الاجيال أخذ يرد عليهم خرافتهم الباطلة، وان المستقبل الكشاف سيكشف عن سوءتهم .

ومن جهة اخرى ان بعض هذه الاوهام التي جمعوها وطلوها ربما يخيل للبسطاء من الناس انها مسائل مستحدثة، أو دلائل جديدة الا أنها ليست الا نسائج قديمة أكل عليها الدهر وشرب ، وذكرت في كتب التفسير والحديث بشكل أسئلة اجيبت عليها بأجوبة مقنعة ناجعة ... ولكنهم من أجل ايقاع السذج والبسطاء في حبائلهم أخذوا بالاسئلة ، وتركوا أجوبتها .

وها نحن نقف تجاه هذه الشبهات وقفة، نجعلها في مدحرة البطلان ونقطع الطريق على هذه العصابات المجرمة وان طال بنا الكلام ، واتسع مقامنا مع القراء الكرام .

«٣»

شبهات حول الخاتمية

اختلقتها الفرقة الضالة اثارة للفتنة وسبيلا
الى هدم الاسلام واضلال السذج من الامة،
وتفريق الكلمة، وخدمة للاستعمار الغاشم.

في هذا الفصل

١ ـ ماذا يحاول المستعمرون تحقيقه؟

٢ ـ المغالطة في تفسير قوله سبحانه (يا بني آدم اما يأتينكم رسل منكم) والاجابة عنها.

٣ ـ اجابة العلامة البلاغي والشهرستاني عن الشبهة.

٤ ـ الشبهة الثانية للقوم وتفسير قولـه سبحانه (رفيع الدرجات ذو العرش يلقى الروح).

٥ ـ الشبهة الثالثة لهم أيضاً (وتفسير قوله سبحانه ولكل أمة اجل).

٦ ـ الشبهة الرابعة لصاحب الفرائد (وتفسير قوله سبحانه يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق).

٧ ـ الشبهة الخامسة له أيضاً (وتفسير قوله سبحانه يدبر الامر من السماء الى الارض).

٨ ـ الشبهة السادسة وهي أعظم فرية على القرآن الكريم (وتفسير قوله سبحانه ان الذين آمنوا والذين هادوا ...).

٩ ـ كلمة للكاتب الاسلامي أبو الاعلى المؤدودي حول الاية.

١٠ ـ خاتمة المطاف : توضيح حول كلمة (الناس).

شبهات حول الخاتمية

لما حاول الاستعمار الغاشم الاستيلاء على الشرق الاوسط ومناطقه الخصبة وربوعه المعمورة ومعادنه الغالية ومـا يسيل تحت أراضيه من الذهب الاسود (البترول) الى غير ذلك من الثروات الطائلة، قام بكل ما يملك من حول وقوة بشن الغارات عليه بصورة استفزازية مزرية .

نعم للاستعمار أساليب وتخطيطات وألوان مختلفة ، تختلف حسب طبائع الاجيال والامكنة والتخطيط الاصيل له والحجر الاساسى الذي ترتكز عليه مخططات المستعمرين هو أصل «فرق تسد» فأولئك هم وليدوا ذلك الاصل، وهم المبتدعون له (على وجه غير دائر) فالتفريق بين قطاعات الشعب في المبدأ والعقيدة عامل هدام يبدد قوى الشعب وسيل كاسح جارف ، يخرب كل حاجز دون نواياهم ، ويزعزع كل سد دون أهدافهم ، فلا شيىء أضر بحال الشعب وأنفع للعدو من اشاعـة القلق والفوضى في المجتمع واختلاف الكلمة والتشتت في التوجيه والدعوة بين أفراده ، فهي ضربة قاضية تنصب على وجوده وتحول دون اتحاد أبنائه وتضامنهم ووقوفهم صفاً واحداً في وجه العدو وجرائمه المخزية وأعماله الاجرامية .

فها هي ذى بلادنا « ايران » كان يضرب المثل منذ زمن بعيد، باتحادشعبها وتضامن أبنائها وقد اعتنق الاسلام كثير منهم في عهد الخلافة، وتفيأوا في ظلاله قروناً متطاولة ، غير أن الاستعمار الغادر لم يرض باتحادهم واتفاق كلمتهم، فطفق يديف السم في الدسم ، يفرق كلمتهم في المبدأ والعقيدة ، ببعث رجال التبشير والانذار واختلاق احزاب سياسية ، مطبوعة بطابع الدين ، ومصبوغة بصبغة المذهب ، وليس فيها شيىء يمت الى الدين بصلة ولا مرمى لهم في ذلك ، الا تضليل عقيدة الشعب وتدمير أخلاقه وتحطيم كرامته حتى يعود مرتداً متحللا ، فاقد الكرامة ، مسلوب الارادة ، لا يلتزم بمبدأ ولا يؤمن بدين، ولا يعرف هدفاً يسعى اليه ، سوى الاستهتار التام .

وعند ذلك يسهل للعدو تعكير الصفو وتمزيق الوحدة وضرب الشعب بعضه ببعض وتهون له الاغارة على الثروات الطائلة في أيديهم وما احتوته أراضيهم من معادن ومنابع .

هذا القلق الدينى والفوضى المذهبية، اللذين نشاهدهما في الشرق الاوسط بل والعالم الاسلامي انما هما وليدا هذا الاستعمار الغاشم، وليدا تكتيكه الاصيل (فرق تسد) وقد فتح هذا الاختلاف فى وجه الشعب أبواباً من الازمات الكثيرة فى نواحى مختلفة .

ضع يدك على هذه الفرق المنحوتة ، والدعوات السياسية المتولدة في القرن الاخير ، واقرأ اصولها وفروعها، وتأمل في غاياتها المتوخاة منها وطالع صحائف من حياة مؤسيسها ومبتكريها ، تجدهم عمد الاستعمار وأذنابه ، فمن شيخية الى بابية ، ومن ازلية الى بهائية ، ومن قاديانية الى أحمدية وكلها وليدة الاستعمار الغاشم ، وليدة رجال العيث والفساد ، وليدة الافاكين الذين عرفتهم الامة ، وعرفت نواياهم وسرائرهم وأهدافهم .

فدونك البهائية من هذه الفرق السياسية، وقد اختلقها زعيمها «الميرزا حسينعلى

المازندراني» في ايران ، لتراه يدعو تارة الى ألوهية نفسه ويقول: « انى انا الله لا اله الا أنا ، كما قال النقطة الاولى من قبل بعينه يقوله، من يأتى من بعد »(١) ويدعو الى نبوته ورسالته تارة اخرى، وانه نبي كسائر الانبياء ، وان باب النبوة مفتوح الى يوم القيامة ، لم يوصد بعد نبى الاسلام ، ثم ان لهؤلاء الاقوام كتاباً مستأجرين استأجرهم الاستعمار لنصرة هذا الحرب المختلقه باسم الدين وطابع المذهب، وقد جاؤوا بشبهات تافهة فى مسألة الخاتمية، فدونك هذه الشبهات مع اجوبتها :

* * *

الشبهة الاولى :

«كيف يدعي المسلمون انغلاق باب النبوة والرسالة مع ان صريح كتابهم قاض بانفتاح بابه الى يوم القيامة ، وذلك قوله سبحانه :

« يا بنى آدم امايأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى، فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (الاعراف ـ ٣٥)

قال: فهذا الخطاب الوارد فى القرآن الكريم، النازل على قلب سيد المرسلين ينبىء عن مجيىء الرسل بعد نبى الاسلام ، ويدل بظاهر قوله: «يأتينكم» الذى هو بصيغة المضارع ، على ان باب النبوة لم يوصد وانه مفتوح بعد، ومعه كيف يدعي المسلمون ان محمداً (ص) خاتم النبيين وآخرهم وكتابهم يشهد على خلافه (٢) .

الجواب عن شبهة :

هذه الشبهة الواهية حصلت من الجمود على نفس الاية والغض عما تقدمها

(١) بديع ص ١٥٤ .

(٢) الفرائد ص ٣١٤ ط مصر ١٣١٥ هـ .

من الآيات فانك اذا لاحظت سياقها تذعن بأنها ليست انشاء خطاب في ظرف نزول القرآن بل حكاية لخطاب خاطب به سبحانه بني آدم فى بدء الخلقة ، ولقد حكاه فى القرآن بعد لاي من الدهر ، فكما أنه سبحانه يحكى فيه الخطابات الدائرة بين رسله وجبابرة عصورهم من فرعون وقارون من دون انشاء خطاب فى زمن الرسول، فهكذا يحكي في هذه الاية وما تقدمها، الخطابات الصادرة منه سبحانه في بدء الخلقة، وان كنت في ريب مما ذكرناه، فلاحظ الآيات الواردة في سياقها ودونك اجمالها .

ابتدأ سبحانه بقصة آدم في سورة الاعراف، من الاية الحادية عشرة وختمها بما استنتج منها من العبر في الاية السابعة والثلاثين ، ودونك اجمال القصة ونتائجها بنقل الآيات .

« ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لادم فسجدوا الا ابليس لم يكن من الساجدين * قال ما منعك ألا تسجد اذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين * قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فأخرج انك من الصاغرين * قال أنظرني الى يوم يبعثون * قال انك من المنظرين * قال فبما أغويتني لاقعدن لهم صراطك المستقيم * ثم لاتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن ايمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين * قال اخرج منها مذؤماً مدحوراً لمن تبعك منهم ، لا ملان جهنم منكم أجمعين * ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين * فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما وقال مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين * وقاسمهما انى لكما لمن الناصحين * فدلاهما بغرور ، فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما ان الشيطان لكما عدو مبين * قالا ربنا

ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين * قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الارض مستقر ومتاع الى حين * قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون » (١) .

وعندذلك ناسب أن يستنتج سبحانه من تلك القصة ويخاطب أبناء آدم بخطابات أربعة ، هادفة الى لزوم اطاعة الله سبحانه والتجافي عما يأمر به الشيطان ، وان لهم في قصة أبيهم وامهم لعبرة واضحة فقال سبحانه :

١ - « يابني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوءاتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير ، ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون » (الاعراف - ٢٦)

٢ - « يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان ، كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سواتهما انه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ، انا جعلنا الشياطين اولياء للذين لا يؤمنون » (الاعراف - ٢٧)

٣ - « يابني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد، وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين » (الاعراف - ٣١)

ولا تجعل قوله سبحانه في ثنايا الخطابات الاربعة: يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد . . . دليلا على كونها انشاء خطاب فى عصر القرآن للمسلمين بقرينة ذكر المسجد . لانه مردود بوجهين :

الاول : لوجود المسجد فى الامم السابقة وعدم اختصاصه بعصر الرسالة كمايشهد عليه قوله سبحانه قال: «الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجداً» (الكهف - ٢١)

الثاني: ان المراد من المسجد ليس البناء الخاص الدارج في البلاد الاسلامية بل هو كناية عن حالة الصلاة والعبادة التى أمر الله بها عباده فى الامم جمعاء على اختلافها في الاجزاء والشرائط والصور، كما يشهد عليه قوله سبحانه: « واذكر

(١) الاعراف ، الايات ١١ - ٢٥ .

في الكتاب اسماعيل انه كان صادق الوعد وكان رسولا نبياً ، وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضياً » (مريم - ٤٥و٥٥)

وقوله سبحانه حاكياً عن المسيح: «وأوصاني بالصلاة والزكاه ما دمت حياً» (مريم - ٣١)

وعليه فالمراد ، اما خذوا ثيابكم التى تزينون بها للصلاة والبسوا أجودها فى حال العبادة ، أو خذوا ما تسترون به عوراتكم حالها ، وعلى أي تقدير فهذا الحكم لا يختص بالامة الاسلامية ، بل يعم الامم جمعاء .

٤ - « يا بني آدم اما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (الاعراف - ٣٥) . ثم انه سبحانه في الاية السادسة والثلاثين والسابعة والثلاثين توعد من كذب بآياته واستكبر عنها ومن افترى على الله كذباً، وقال سبحانه: « والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون * فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته اولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب حتى اذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله قالوا ضلوا عنا وشهدوا على أنفسهم انهم كانوا كافرين » .

وبعد ذلك ختم القصة مع ما استنتج منها لابناء آدم من عظات وعبر .

وأنت اذا احطت خبراً بهذه الايات، صدرها وذيلها وهدفها ومرماها، لوقفت على ان الخطاب الا خير الحاكى عن بعث الرسل الى بني آدم ليس انشاء خطاب في عهد الرسالة حتى ينافي صريح قوله الاخر (ولكن رسول الله وخاتم النبيين) بل هى حكاية لاحدى الخطابات التي القاها الله في بدء الخلقة ، عندما أخرج الشيطان أبانا من الجنة وأهبطه الى الارض ، وتعلقت مشيئته سبحانه بأن يستقر هو وأبناؤه في الارض الى حين، فخاطب سبحانه أبناء آدم بلسان النصح وقال « يابني آدم اما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى... » فصدق الخبر الخبر

وجاءت الرسل تترى ، مبشرين ومنذرين ، تالين على بني آدم آيات الله .

ومما يؤيد ماذكرنا (ان قوله سبحانه: «يابني آدم اما يأتينكم رسل منكم...» حكاية للخطاب الذي القاه سبحانه في بدء الخلقة، لا انشاء خطاب في عهد القرآن) ان الله سبحانه حيث مايذكر في موضع آخر القرآن قصة آدم على وجه التفصيل، يذيلها بمضمون هذه الاية وما بعدها من الايتين (١) كما في سورتي البقرة وطه، فان مضمونهما موجود في ذيل القصة ، وانما الاختلاف في اللفظ والعبارة ، دون اللب والمعنى .

ودونك ما في سورة البقرة، ترى ان الله سبحانه بعد ما ذكر قصة آدم ، وان الشيطان ازلهما ، يكرر مضمون هذه الاية وما بعدهما من الايتين حيث يقول : «قلنا اهبطوا منها جميعافاما يأتيكم مني هدى فمن تبع هداى فلاخوف عليهم ولا هم يحزنون » .

« والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » (البقرة ٣٨ - ٣٩)

فهاتان الايتان في سورة البقرة ، يتحد مضمونها مع مضمون ما ورد في سورة الاعراف غير انهما جاءتا في سورة الاعراف بلفظ « يا بنى آدم » دون ما في سورة البقرة وهذا يؤيد أو يدل على ان الوارد في سورة الاعراف ليس انشاء لخطاب في عهد الرسالة، بل حكاية لخطاب سبق منه سبحانه في بدء الخلقة.

ونظير ذلك ما ورد في سورة طه ، حيث يقول فيها سبحانه : « وعصى آدم ربه فغوى ، ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى » (طه ١٢١ - ١٢٢) .

« قال اهبطا منها جميعاً ، بعضكم لبعض عدو، فاما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى » (طه - ١٢٣)

(١) الاية السادسة والثلاثون والسابعة والثلاثون .

« ومن أعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة اعمى »
(طه - ١٢٤)

فهاتان الايتان تتحدان مع ماوردتا في سورة الاعراف معنى ومضموناً، وان اختلفتا معهما لفظاً وعبارة ، وبذلك يظهر صدق ماأوضحناه من كون الايتين في سورة الاعراف قد وردتا حكاية عن خطاب الهي صدر منه بعد خروج آدم من الجنة ، لاخطاب ابتدائى صدر منه سبحانه الى المسلمين .

ومما يشهد على انها من الخطابات الواردة في بدء الخلقة ، انه سبحانه يؤاخذ الخليقة كلهايوم القيامة بنفس هذا الخطاب ويقول:«يامعشر الجن والانس الم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على انفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على انفسهم انهم كانوا كافرين »
(الانعام - ١٣٠)

فاذا نظرت الى مضمون الاية ، ترى انمادة الاحتجاج فيها هو عين ماورد في سورة الاعراف وهذا دليل على ان الخطاب في هذه السورة من الخطابات الواردة في بدء الخلقة والله تعالى حكاها في القرآن للنبى الاكرم وامته فلاحظ.

دحض الشبهة بوجه آخر :

قد جمعنا وبعض البهائيين مجلس فى سالف الايام (١) في مدينة عبادان وسألنى عن هذه الاية ودلالتها على مجيء الرسل بعد نبى الاسلام وانها تدل على ان باب النبوة لم يوصد ، وكان فى المجلس بعض الاعلام .

فقلت: ان لفظة، « اما » مركبة من « ان » و« ما » الزائدة ، وكأنه سبحانه قال : ان يأتينكم . . . وهو فعل الشرط ، والجزاء قوله : فمن اتقى ، ولكنها مجردان عن الدلالة على الزمان (الحال والاستقبال) ، لان الاية سيقت لبيان

(١) عام ١٣٧٩ هـ ق .

أصل الملازمة بين الشرط والجزاء ، غير مقيد بزمان دون زمان ، بمعنى أن سنة الله جرت على انقاذ من أطاع رسله، واتقى محارمه، وأصلح حاله، وان من كان حاله كذا، فلا خوف عليه ولا حزن، وهذه عادة الله فى الامم السالفة والحاضرة والمستقبلة .

وليس الخطاب مقيداً بزمان الحال حتى لا يعم الخطاب الامم السالفة ، ويختص بالامة الحاضرة والتالية لها ويدل بالدلالة الالتزامية على مجيء الرسل فى مستقبل الايام بعد رسول الله (ص)، بل هو بيان لحكم قطعى جرت مشيئة الله عليه ، على وجه الاطلاق ، غير مقيد بزمان.

وان شئت قلت : ان الهدف من الاية ليس الاخبار عن مجيىء الرسل بعد رسول الله (ص) والا لكان اللازم ان يخرجها عن صورة الشرط، ويلقيها على وجه الاخبار بل الهدف والذي سيق لاجله الكلام ، هو بيان الملازمة ، وان السنة جرت عليها فى الادوار كلها، من دون ان يكون بصدد الاخبار عن وقوع الشرط فى زمان .

وهذا كقول المعلم لتلاميذه : لا صلة ولا قرابة بينى وبين أحد منكم ، من جد فى درسه واتقن كتابته وخرج عن عهدة التكاليف الموضوعة عليه فهو الناجح يعنى بذلك ان السنة الجارية فى المدرسة والكليات و الجامعات هى هذه من غير فرق بين هذا الصف والصف الاخر ، وهذه المدرسة والمدرسة الاخرى ، وهذا الزمان أو غيره من الاجيال السالفة والتالية .

وادل دليل على أن الاية ليست بصدد الاخبار عن مجيىء رسل آخرين غير رسول الله هو استعمال كلمة « ان » الدالة على الشك والترديد فى وقوع تاليها، دون « اذا » الدالة على القطع واليقين، فلو كان الهدف الاخبار عن مجيئهم لكان له الاخبار عن ذلك بكلمة تدل على القطع والجزم ، لان الرسل ومجيئهم من مهمات الامور وعظائمها ، فلا يصح الاخبار عنه بهذه الجملة الدالة على الشك

والترديد ، الا اذا سيقت الاية لبيان الملازمة فقط ، لا الاخبار عن وقوع الشرط ولذلك ترى انه سبحانه يأتى فى معرض الدلالة على الامور القطعية بعبارة مؤكدة كما فى قوله : « وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربى لتأتينكم عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة » (سبأ - ٤)

وقوله سبحانه : « ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها » (النمل - ٣٧)

وحصيلة البحث ان الاية بصدد بيان ان الفلاح والرشاد لمن يقتدي بهدى نبيه ويقتفى أثره ولا يتخطى الخطوط التى يرسمها له رسوله فى معاشه ومعاده سواء أكان الرسول رسول الاسلام أم غيره، وليست ناظرة الى بيان مجيئى الرسل بعد عصر نزول الاية كما هو مرمى المستدل .

ونظير المقام قوله : « ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له سنة الله فى الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدراً مقدوراً * الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً الا الله وكفى بالله حسيباً » (الاحزاب ٣٨ - ٣٩)

فان قوله : « الذين يبلغون » وان كان بصيغة المضارع ، الا انه مجرد عن الدلالة على الحال والاستقبال ، بدليل انه صفة لقوله سبحانه : « الذين خلوا من قبل » فلو كانت الدلالة على الزمان مقصودة لوجب ان يقال : الذين بلغوا رسالات الله ، تطبيقاً للوصف على الموصوف، ولما كان المقصود قيام الرسل الذين خلوا من قبل بنفس أمر التبليغ من غير دلالة على زمان القيام واستمراره ، صح توصيفه بالمضارع .

نقل كلام عن العلمين :

ثم انى وقفت بعد فترة من الزمان على سؤال وجهه بعض الاجلة (١)

---

(١) العلامة الجرندابى المغفور له كان آية فى التتبع ، وله أشواط بعيدة، وخدمات ومواقف مشكورة .

الى العلمين الشيخ محمد جواد البلاغي (١) والسيد هبة الدين الشهرستاني(٢) يسألهما عن تلك الشبهة الضئيلة، وقدوافاه الجواب منهما، وبعث السائل السؤال والجواب الى مجلة العرفان (٣) فنشرهما مدير المجلة على صفحاتها (٤) فراقنا نقل الجوابين على وجه الاجمال ، لكون مضمونهما قريباً مما ذكرناه .

قال العلامة البلاغى : لابد من بيان أمرين :

الاول ان تلك الطائفة لا يعرفون اللغة العربية وخواصها، فان الفعل المضارع غير مختص في المحاورات بالاستقبال ، بـل يؤتى به منسلخاً عن خصوصيات الزمان للدلالة على الدوام والثبات كقولهم : زيد يكرم الضيف ، ويفك العاني ومن ذلك قول اليشكري في المعلقة :

يدهدون الرؤوس كما تدهدى * مزاورة بأبطحها الكرينا

وقوله أيضاً :

علينا البيض واليلب اليماني * وأسباب يقمن وينحنينا

وقوله سبحانه :

« لايعزب عنه مثقال ذرة » (سبأ ـ ٣٠)

الثاني ان الجملة الشرطية كثيراً ما تجيىء غير ناظرة الى الزمان، بل لمجرد ملازمة الجزاء للشرط وترتبه عليه فى أي زمان وقع الشرط ، بمعنى أنه لابد من وقوعه عند وقوع الشرط في أي زمان ، ومنه قول القائل :

---

(١) كان علماً من أعلام الامة وفطاحلها ، قد أفنى عمره فى الذب عن حريم التوحيد والرسالة ، توفى عام ١٣٥٢ .

(٢) نادرة الزمان ونابغة العراق ، توفى فى ٢٥ من شهر شوال عام ١٣٨٦ .

(٣) مجلة علمية ادبية سياسية شيعية، تصدر فى مدينة صيدا، من لبنان الجنوبى، أسسها الشيخ احمد عارف الزين عام ١٣٢٧ وهى لم تزل تصدر الى الان .

(٤) المجلد السادس والثلاثون ص ٧٦٧ ـ ٧٧١ .

من يفعل الحسنات الله يشكرها * والشر بالشر ، عند الله سيان

ومن قوله سبحانه :

«فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره»(الزلزلة٧-٨)

ومنه قول زهير في معلقته :

ومن لم يصانع فى أمور كثيرة * يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم

ومثله قول الاخر :

ومهما تكن عند امرىء من خليقة * وان خالها تخفى على الناس تعلم

اذا تقرر هذا : فلا خفاء فى ان حاصل الاية : انه مهما أتى بني آدم رسل ، يعني رسل حق، يأتون بآيات الله ووحيه ويقصونها في التبليغ، فمن اتقى حسب ما جاء في الايات ولم يعص الله بالمخالفة به وأصلح وجعل أعماله صالحة، فلا خوف عليهم ولا يحزنون .

فجيىء بالشرط بصيغة المضارع، للدلالة على ثبوت الاتيان بتكرره، بحسب الحكمة، وان الجزاء لازم لهذا الشرط، دون نظر الى الزمان الخاص، والواقعة الخاصة ، وليس نظره الى خصوص الزمان الماضى ولا خصوص المستقبل . لكن القرآن الكريم بين ان هذا الشرط لا يقع فى المستقبل وذلك بقوله سبحانه: « ولكن رسول الله وخاتم النبيين»، فكان هذا البيان من المحكمات التى هى أم الكتاب .

قال العلامة الشهرستانى : « اما » لفظة مركبة من « ان » الشرطية ، و« ما » الكافة عن العمل ، وعليه كفت المضارع عن الجزم، وقرنته بنون التأكيد الثقيلة وجردته عن الدلالة على زمان خاص بالحال والاستقبال ، كما ان الصيغ التالية لها « فمن اتقى وأصلح » ، «والذين كذبوا» تجردت أجمع عن الدلالة الخاصة بالماضى والمفهوم من المجموع قضية طبيعية عامة السير فى الامم، وهى توجه رسل الهداية الى أقوام البشر لغاية الوعظ والانذار بآيات الله وبيناته .

وان شئت قلت: ان الغاية في الاية عبرة الانسان بتاريخ الانسان، حتى يترك اغتراره بالحال الحاضر، وهذا لا يكون الا من درس تاريخ السلف ، ولا معنى للعبر بالمستقبل. نعم المعتبرون هو الجيل الحاضر والمستقبل ، ولكن المعتبر به حال السلف والحوادث النافعة، وأما مادة الوعظ، أي المعتبر به، هو القصص الماضية (دون سواها) ورسلها ورسالاتها وعواقب أمرها ومعرفة مصير المتقين ومصير المكذبين .

فبأي لفظة من الاية يستدل هؤلاء على صحة الرسالة من بعد محمد المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم!. أبلفظ «ياتينكم» وقد تبين انها تجردت عن اختصاصها بالحال والاستقبال ، كما تجردت لفظة اتقى وأصلح ، عن الاختصاص بالماضى.

أم يستدلون بلفظة « الرسل » وقد تبين انهم وقصصهم وآياتهم ذكرت فى الاية ، لغاية الموعظة والعبرة ، ومثله لابد وان يكون من الجيل الماضى اذ لا معنى للعبرة من المستقبل .

أم بلفظة « يا بني آدم » وانه خطاب للجيل الحاضر أو المستقبل ، نعم ان اختصاص الخطاب والوعظ بهؤلاء شييء ، وجواز تكرار الرسالة بعد عصر القرآن شييء آخر ، يحتاج اثباته الى دليل غير هذه الاية ، فان أقصى مافي هذه هو وعظ الجيل الاسلامي بقصص المرسلين ، ولابد ان يكون المتعظ به قبلهم، كما ان القرآن يعظ الجيل الاسلامي ، بقصة موسى وفرعون، ولا تحدث نفس صاحبهما بأن ذلك المتعظ به، يجب ان يتكرر في المستقبل .

* * *

الشبهة الثانية :

استدلت الفرقة التعيسة « البهائية » على عدم اختتام الرسالة، وعدم انتهائها

بآية ثانية ، وتقولت بانها تدل على خلاف ما هو المنصوص في غير موضع من الذكر الحكيم ، ودونك الاية :

« رفيع الدرجات، ذوالعرش، يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده، لينذر يوم التلاق » (غافر - ١٥)

قال المستدل فى فرائده: ان قوله سبحانه: «يلقى الروح» بصيغة المضارع ينبىء عن عدم اختتام الرسالة ، وان الروح ينزل بأمره على من يشاء من عباده في الاجيال المستقبلة (١) .

الجواب :

توضيحه يحتاج الى بيان أمرين :

١ - الظاهر من « الروح هو الوحى (٢) فاستعيرله الروح ، لانه به تحيا القلوب وفيه حياة المجتمع ، ويوضح ذلك قولـه سبحانه : « وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا ماكنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان » (الشورى - ٥٢) ومنه يعلم ان المحتمل ان يكون الروح المسؤول عنه في القرآن الكريم هـو حقيقة الوحى حيث قال سبحانه : « ويسئلونك عـن الروح قل الروح من أمر ربي ، وما أوتيتم من العلم الا قليلا » (الاسرا - ٨٥)

٢ - يوم التلاق : انما هو يوم لقاء الله ، يـوم يلتقي فيه العبد والمعبود ، وأهل الارض والسماء ، كما يوضحه ما بعد الاية : « يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيىء ، لمن الملك اليوم لله الواحد القهار » (غافر - ١٦)

والمراد من قوله « لينذر يوم التلاق » أي ليحكم فى ذلك اليوم بين عباده

---

(١) الفرائد ص ٣١٣ وص ١٢٦ من الطبعة الحجرية .

(٢) وقريب منـه تفسيره بالقرآن أو كل كتاب أنزله سبحانه أو جبرئيل أو النبوة ، وما اخترناه هو الاولى ، فتدبر .

فينتصف المظلوم من ظالمه، ويجزى المحسن والمسيء، أولينذر عباده سبحانه عن عذاب ذلك اليوم .

اذا عرفت الامرين ، فالجواب عن الاستدلال بها واضح جداً بعدماعرفت عند البحث عن الشبهة الاولى من أن الفعل فى تلك المواضع مجرد عن الزمان، والهدف انما هو بيان نسبة الفعل الى الفاعل واتصافه بها ، بلا نظر الى زمان النسبة ، سواء أكان الماضي ، أم الحال أم المستقبل ، كما في قوله :

من يفعل الحسنات الله يشكرها والشر بالشر عند الله سيان

وعلى هذا ، فسيقت الاية لبيان كونه سبحانه مالكاً على الاطلاق ، لاينازعه فى ملكه ولا يناضله فى مشيئته و اختياره أحد ، و الوحي أحد الاشياء التي أمرها بيده ، يختص به من يؤثره على عباده ويختاره منهم ، وليس لاحد ان يعترض عليه ويقول : « لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة » (الفرقان ـ ٣٢) . أو يطعن ويقول: «لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم»(الزخرف ـ ٣١) فاذا كان هدف الاية بيان هذا الامر ، وان الوحي بكمه و كفيه ومن ينزل عليه، موكول اليه سبحانه، فلايتفاوت فى ابلاغ هذا الغرض ، التعبير بالماضي، أو المضارع ، فسواء أقال : « القى الروح » أم قال « يلقي الروح » فهما فى افهام المقصود سواسية فلايدلان على زمان الاتصاف، والمقصد الاسنى، اتصافه سبحانه بالاختيار التام في انزال الوحي على أي فرد من عباده ، من دون دلالة على زمان الاتصاف .

ودونك مثالا عرفياً يقرب المقصود .

فلو نصب الملك المستبد (والملوكية خاصتها الاستبداد) أحد ولده ولياً للعهد وجعله وارثاً للعرش والاكليل، وشاغلا لمنصة الملوكية بعده، فاذا اعترض عليه أحد وزراءه بأن ولده الاخر كان أحق بهذا المنصب، فيجيب الملك بقوله: ان الامر بيدنا، نقدم من نشاء، ونؤخر من نشاء نرفع من نشاء ونضع من نشاء ...

فليس لك عند ذاك ان تستظهر من عبارته ، وتتهمه بأنه قد أخبر حتماً عن نصب فرد آخر فى المستقبل ، متمسكاً بانه قال « نقدم » بصيغة المضارع ، ولم يقل « قدمت » .

لا ، ليس لك ولا لغيرك هذا، لان المفهوم فى هذه المواضع انما هو بيان أصل الاتصاف ، أي اتصاف الفاعل (الملك) بالفعل (تقديم من تعلقت ارادته بتقديمه) لابيان زمان الاتصاف واستمراره في الجيل الاتي ، فلاحظ .

فلو تنازلنا عن كل ماقلناه حول هذه الاية وما قبلها وفرضنا ان مانسجوه من الاوهام حقيقة راهنة فنقول : ان ما ذكروه كله لايتجاوز حد الاشعار فهل يجوز فى ميزان العقل والانصاف ترك ما سردناه من البراهين الدامغة والنصوص الناصعة والضرورة والبداهة بين المسلمين عامة، الدالة على كون النبي الاعظم خاتم الانبياء ورسالته خاتم الرسالات، لاجل هذه الامور الواهية التي لايستحق أن يطلق عليها اسم الدلالة .

قال الشيخ المفيد : ان العقل لم يمنع من بعثة نبي بعد نبينا (ص)، ونسخ شرعه كما نسخ ما قبله من شرائع الانبياء وانما منع ذلك الاجماع، والعلم بأنه خلاف دين النبي (ص) من جهة اليقين وما يقارب الاضطرار (١) .

قال الفاضل المقداد في أثره القيم (٢) انه (ص) مبعوث الى كافة الخلق والدليل على ذلك اخباره (ص) بذلك المعلوم تواتراً مع ثبوت نبوته، المستلزمة لاتصافه بصفات النبوة التي من جملتها العصمة المانعة من الكذب ، الى ان قال . . . يلزم من عموم نبوته كونه خاتم الانبياء والالم تكن عامة للخلق ، ولقوله تعالى : وخاتم النبيين وقوله (ص) : لانبي بعدي .

---

(١) أوائل المقالات ص ٣٩ .

(٢) اللوامع الالهية فى المباحث الكلامية ص ٢٢٥ .

الشبهة الثالثة :

وقد تمسكت هذه الفرقة بظاهر آيتين اخريين :

الاولى قوله سبحانه: «ولكل أمة رسول فاذا جاء أجلهم قضي بينهم بالقسط وهم لايظلمون » (يونس - ٤٧) .

الثانية : قوله سبحانه : « قل لا أملك لنفسي ضراً نفعاً ولا الا ما شاء الله ، لكل أمة أجل، اذا جاء أجلهم فلايستأخرون ساعة ولايستقدمون » (يونس-٤٩).

تقرير هذه الشبهة ان الله حدد حياة الامم بحد خاص ، والامة الاسلامية احدى هذه الامم، فلها أجل خاص، ومدة محدودة، ومعه كيف يدعي المسلمون دوام دينهم وبقاءه الى يوم القيامة ؟

وروى عن رسول الله (ص) انه سئل عن أجل الامة الاسلاميه،فأجاب(ص) بقوله : ان صلحت أمتي فلها يوم ، وان فسدت فلها نصف يوم (١) .

الجواب :

لأدري ماذا يريد القائل من الاستدلال بهاتين الايتين ، أما الاية الاولى ، أعني قوله سبحانه : ولكل أمة رسول ، فصريح الاية هو ان الله سبحانه يبعث الى كل امة ، مثل أمة نوح وعيسى وموسى ، رسولا يدعوهم الى دين الحق ويهديهم الى صراطه ، وأما أمد رسالة الرسول وكميتها ، فالاية غير ناظرة اليه، لاصريحاً ولا تلويحاً لامفهوماً ولا منطوقاً ولا مانع من ان يكون احدى هذه الرسالات غير محدودة بحد خاص ، ويكون صاحبها ، خاتم الرسل ودينه خاتم الاديان ، وقد دل القرآن على ان نبي الاسلام هو ذاك ، كما تقدمت دلائله.

ونظير ذلك قوله سبحانه: « ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا ، أن اعبدوا الله،

(١) الفرائد ص ١٧ الطبعة الحجرية .

واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة » (النحل - ٣٦) .

أتجد من نفسك ان الاية تبشر عن تحديد الشريعة بعد الاسلام ، لا، لاتجده من نفسك ، ولا يجد ذلك أيضاً كل متحرر عن قيد العصبية .

وأما الايـة الثانية ، فكشف الغطاء عن محيا الحق ، يحتاج الـى توضيح وتحقيق معنى « الامة » الواردة فى الكتاب والسنة ، فنقول :

قال الراغب : الامة ، كـل جماعة يجمعهم أمر ما : أما دين ، أو مكان ، أو زمان ، وهذا الجامع ربما يكون اختياريا وقد يكون تسخيرياً (١) .

هـذه الحقيقة التي كشف عنهـا الراغب ، هو الظاهر من الكتاب والسنـة وموارد الاستعمال وصرح بها الجهابذة من اللغويين ، ودونك توضيح ما افاده الراغب :

الجامع الديني، كما فى قوله سبحانه « ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك » (البقرة - ١٢٨) وقولـه سبحانه « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف » (آل عمران - ١١٠) .

الجامع الزماني كقوله سبحانه «ولكل أمة أجل، فاذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولايستقدمون » (الاعراف - ٣٤) وفسرها المفسرون بلازم المعنى وقالوا: بعد حين ، أي بعد انقضـاء أهل عصر ، كأنه يجمعهم زمان واحد في مستـوى الحياة ، ومثله قوله سبحانه : « ولئن أخرنا عنهم العذاب الى أمة معدودة ليقولن

(١) المفردات للراغب ص ٢٣ مادة «أم» وكان الاولى ان يضيف الى هذه الجوامع لفظ « أو غيره » اذ لاينحصر الجامع بهذه الثلاثة وليس المقصود ان هذه الجوامع داخلة فى مفهوم «الامة» حتى يقال: ان توصيف الامة فى الاية بكونها «مسلمة» دليل على خروجها عن مفهوم الاية، بل المراد ان هذه الجوامع تكون مصححة ، لاطلاقها على الجماعة .

مايحبسه ، الا يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون» (هود - ٨) وفسره فى الكشاف بلازم المعنى ، وقال : الى جماعة من الاوقات.

الجامع المكاني : نحو قوله سبحانه : « ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون» (القصص - ٢٣) أي وجد حول البئر جماعة يسقون مواشيهم، فالجهة الجامعة لعدهم امة واحدة، انما هي اجتماعهم فى مكان واحد، أو غيرها من الجهات التي يمكن أن تجمع شمل الافراد والاحاد .

الجامع العنصري والوشيجة العنصرية ، والرابطة القومية كما فى قوله سبحانه :

« وقطعناهم فى الارض اثنتى عشرة أسباطاً اماماً » (الاعراف - ١٦٠) .

وقوله : « وقطعناهم فى الارض اماماً ، منهم الصالحون ، ومنهم دون ذلك» (الاعراف - ١٦٨) فبنوا اسرائيل كلهم أغصان شجرة واحدة ، يجمعهم ترابط قومي ووشيجة عنصرية ، الا انه كلما ازدادت الشجرة نمواً ورشداً ازدادت أغصاناً وأفناناً ، فعد كل غصن مع مالها له من الفروع ، اصلا برأسه وهم مع كونهم اماماً ، امة واحدة ايضا يربطهم الجامع العنصرى .

القرآن يتوسع فى استعمال الامة :

ان القرآن يتوسع فى استعمال الكلمة فيطلقها على الفرد ، اذا كان ذا شأن وعظمة تنزيلا له منزلة الجماعة كقوله سبحانه: «ان ابراهيم كان امة قانتاً لله حنيفاً» (النحل - ١٢٠) أي قائماً مقام جماعة فى عبادة الله ، نحو قولهم فلان فى نفسه قبيلة ، وروى انه يحشر « زيد بن عمرو » أمة وحده .

بل يتوسع ويستعمله فى صنوف من الدواب ، اذا كانت تجمعهم جهة خاصة ، كقوله سبحانه : « وما من دابة فى الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا امم أمثالكم » (الانعام - ٣٨) .

فعد الله كل صنف من الدواب والطيور اممماً ، لما بينها من المشاكلة والمشابهة حيث الخلق والخلق ، فهي بين ناسجة كالعنكبوت ، وبانية كالسرفة، ومدخرة كالنمل ومعتمدة على قوت وقتها كالعصفور والحمام ، الى غيرذلك من الطبائع التي تخصص بها كل نوع (١) .

ويمكن أن يقال : ان ماالمحنا اليه من موارد الاستعمال للفظ «الامة» ليست معانى مختلفة ، حتى يتصور أن اللفظ وضع عليها بأوضاع متعددة ، بل كلها مصاديق لمعنى وسيع وضع عليه اللفظ (الامة) وهو كل اجتماع من الانسان وغيره من الحيوان ، يجمعهم أمر مامن الزمان والمكان والدين والعنصر وغيرها.

الامة : الطريقة والدين

نعم للامة معنى آخر استعملت فيه ، فى الكتاب والسنة ، وهو الطريقة والدين ، كقوله سبحانه: « انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون » (الزخرف ـ ٢٢) وقوله سبحانه: « انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون » (الزخرف ـ ٢٣) .

قال الجوهري فى صحاحه : الامة ، الطريقة والدين ، يقال لامة له، أي لا دين ونحلة ، قال الشاعر :

وهل يستوى ذو امة وكفور ...

وقال الفيروزآبادي ، الامة بالكسر الحالة والشرعة والدين ويضم .

هذه هي الامة ومعناها وقد عرفت انه لم يستعمل فى الكتاب الا فى هذين المعنيين (الجماعة والدين) وقد ذكروا لها معاني اخرى يمكن ارجاعها الى ما ذكرناه .

---

(١) المفردات للراغب ص ٢٣ .

فلنرجع الى مفاد الامة :

اذا عرفت ما ذكرناه : فلنرجع الى مفاد الامة فنقول قوله سبحانه: «ولكل امة أجل...» يحتمل في بادىء الامر، أن يراد منها الطريقة او الجماعة، ولكن الاول مدفوع بما في ذيله : فاذا جاء أجلهم . . . اذ يجب عندئذ أن يقول : فاذا جاء أجلها بافراد الضمير ، لوصح اطلاق الاجل على الدين والشريعة (١) فلامناص من حمل الاية على المعنى الثاني. أعني الجماعة، التي يربطهم في الحياة أمرما، والمراد ان كل كتلة من الناس اذا طويت صحيفة حياتهم وانتهت مدة عيشهم لايمهلون بعد شيئاً ، فلايستقدمون ولايستأخرون بل يتوفاهم ملك الموت الذي وكل بهم ، فلا امهال ولا تأخير، فالاية ناظرة الى بيان أمر تكويني جرت عليه مشيئته سبحانه وهو ان حياة الامم في أديم الارض محدودة الى أجل لايمهلون بعده وليس فيها أي نظر الى توقيت الشرايع وتحديدها وتتابع الرسل ونزول الكتب .

وأما حملها على خصوص الامة الدينية أي الامة التي يجمعها دين واحد فيحتاج الى الدليل والقرينة (٢) وقد عرفت ان الامة عبارة عن الجماعة التي يجمعهم أمرما ، سواء أكان ذلك الجامع زماناً أو مكاناً أو اتحاداً في الشغل والمهنة أو ديناً ، أو عنصراً ، الى غير ذلك من عشرات الوحدات الجامعة بين المتشتتين من الناس .

وقد تكرر مضمون الاية في الذكر الحكيم بصور مختلفة كلها تهدف الى ما ذكرناه ، وأوضحناه ، ودونك بعضها :

---

(١) سيوافيك انه لم يستعمل الاجل في القرآن في أمد الاديان .

(٢) وعلى فرض شمول الاية للامة الدينية بعمومها، فمن اين وقف المستدل على انه جاء اجلهم ولماذا لايمتد الى يوم القيامة كما سيوافيك بيانه تحت عنوان «سؤال من المستدل».

« وما أهلكنا من قرية الا ولها كتاب معلوم » (١) ، ما تسبق من امة أجلها وما يستأخرون » (الحجر ٤ ـ ٥) وقوله سبحانه : « ثم أنشأنا من بعدهم قروناً آخرين ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون » (المؤمنون ٤٢ ـ ٤٣) .

وقريب منه قوله سبحانه: «فيقول رب لولا اخرتني الى أجل قريب فأصدق وأكن من الصادقين ولن يؤخر الله نفساً اذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون » (المنافقون ـ ١١)، وقوله سبحانه: « يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم الى أجل مسمى ان أجل الله اذا جاء لايؤخر لو كنتم تعلمون » (نوح ـ ٤) .

نظرة فى موارد استعمال الاجل فى القرآن :

ويؤيد ذلك انه لم يستعمل «الاجل» فى الذكر الحكيم فى أجل الشرائع، وانتهاء أمدها ، بل قصر استعمالها على موارد اخرى ، لبيان آجال الديون ، والعقود كقوله تعالى : « اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى ، فاكتبوه » (البقرة ـ ٢٨٢) .

وقوله سبحانه « ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله » (البقرة ـ ٢٣٥) .

أو بيان انتهاء استعداد الاشياء للبقاء كقوله سبحانه : «هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده» (الانعام ـ ٢) وقوله سبحانه: «سخر الشمس والقمر كل يجري لاجل مسمى » (الرعد ـ ٢) .

وأما قوله سبحانه: « وما كان لرسول ان يأتي بآية الا باذن الله ، لكل أجل كتاب » (الرعد ـ ٣٨) فيحتمل وجوهاً :

١ـ ان لكل وقت حكماً خاصاً مكتوباً معيناً، كتب وفرض فى ذلك الاجل، دون غيره لان الفرائض تختلف حسب اختلاف الاوضاع والاحوال ، فلكل

(١) أى مكتوب معلوم كتب فيه اجلها .

وقت حكم يكتب ويفرض على العباد حسب مقتضيات المصالح .

٢ـ ما فسربه أمين الاسلام وهوقريب مما ذكرناه آنفا، وقال ان لكل وقت كتاباً خاصاً، فللتوراة وقت وللانجيل وقت وكذلك القرآن ، فالفرق بينه وبين ما ذكرناه هوانه حمل الكتاب على الكتاب المصطلح ، ونحن حملنا على الحتم والفرض .

٣ ـ ان المراد منه : ان لكل أجل مقدر كتاب اثبت فيه، فللاجال كلها كتاب كتب فيه .

٤ ـ ان لكـل أمر قضاه الله كتاب كتب فيه ، وأبعد الوجوه هو الاخير ، اذ هو تفسير بالاعم ، وهو سبحانه يقول : « لكل أجل كتاب » ، ولم يقل لكل أمر كتاب، وأقرب الوجوه هو الاول، بقرينة قول سبحانه : « وما كان لرسول ان يأتى بآية الا باذن الله، ولكل أجل كتاب » (الرعد ـ ٣٨) فلقد كانوا يقترحون على النبى (ص) بعض الايات ، فاجابهم سبحانه بأن لكل وقت حكماً خاصاً ، كتبه الله لذلك الوقت ، ولا يجري الا فيه .

وعلى أي وجه من الوجوه الاربعة ، فلا تدل الاية على أن لكل دين أجلا وأمداً ، الا على الوجه الثاني ، ودلالته عليه انما هو بالالتزام لا بالمطابقة لانـه اذا كان لكل وقت كتاباً خاصاً مثل التوراة والانجيل يدل بالملازمة على ان لكل وقت شريعة وديناً .

وأما على مافسرنا الاية به فمآله الى ان لكل وقت حكماً، والحكم ليس نفس الدين والشريعة ، بل جزء منه وتكون الاية دالة على رد من زعم امتناع وقوع النسخ فى الشريعة الواحدة .

وأما على المعنى الثالث والرابع، فعدم دلالته على ان لكل دين أجلا، واضح لا يحتاج الى البيان .

سؤال من المستدل :

وفي الختام نسأل المستدل هب ان الاية بصدد بيان آجال الشرائع وتحديدها وان لكل دين وامة دينية أجلا ، ولكنه من أين وقف على ان الاسلام قد انتهى أمده وجاء أجله ، وانه لا يمتد الى يوم القيامة ، اذ لنا ان نقول : ان أمد الاسلام ينتهي بانتهاء نوع الانسان، في أديم الارض وقيام القيامة، وحضور الساعة، فلو دلت الاية على ان لدين الاسلام أو الامة الاسلامية اجلا قطعياً فنستكشف ببركة الايات الدالة على اختتام النبوة والرسالة عن امتداد تلك الرسالة الى اليوم الذي تنطوي فيه صحيفة حياة الانسان في هذه السيارة ، وان أجله وأجلها واحد .

الاكذوبة التى نسبها الى رسول الله :

هلم نسأله ، عن مصدر الاكذوبة التى نسبها الكاتب الى رسول الله (ص) وقال : انه بعد ما نزلت آية : « ولكل أمة أجل » طفق أصحابه يسألونه عن أجل الامة الاسلامية ، فأجابه بقولـه : ان صلحت أمتى فلها يوم ، وان لم تصلح فلها نصف يوم (١) .

فقد أعتمد الكاتب فى نقله على نقل الشعرانى، وليس في لفظه ما يدل على سؤال أصحابه (ص) عن أجل الامة الاسلامية بعد نزول الاية، وانما هو، اكذوبة نحتها الكاتب ونسبها الى رسول الله (ص) (٢) .

---

(١) الفوائد صفحه ١٧ الطبعة الحجرية .

(٢) ودونك نص الشعرانى فى كتابه اليواقيت والجوهر التى الفها عام ٩٥٥ هـ قال فى بيان ان جميع اشراط الساعة حق: انه لابد ان يقع كلها قبل قيام الساعة وذلك كخروج المهدى (ص) ثم الدجال ، ثم نزول عيسى ، وخروج الدابة و... حتى لو لم يبق من الدنيا الامقدار يوم واحد ، فوقع ذلك كله ، قال الشيخ تقى الدين بن ابى المنصور فى عقيدته : وكل ذلك تقع فى المأة الاخيرة (هذا تخرص من الرجل وتنبؤ منه، أعاذنا الله منه) من ـ

نعم تفسير اليوم بألف عام ، كمانقله الشعرانى عن تقى الدين رجم بالغيب اذكما يمكن تفسيره بـألف مستنداً الى قوله سبحانه : « وان يوماً عند ربك كألف سنة مماتعدون » (الحج ـ ٤٧) يمكن تفسيره بخمسين ألف سنة، استناداً الى قولـه سبحانه : « تعرج الملائكة والروح اليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » (المعارج ـ ٤)

وأما ما رواه العلامة المجلسى، مسنداً عن كعب الاحبار ، على نحو يشعر بكون تفسير اليوم بألف عام ، مـن الحديث ، فمما لا يقام له وزن ، فان كعب الاحبار وضاع كذاب مدلس ، لم تخرج اليهودية من قلبه ، تزيـا بزي الاسلام فأدخل الاسرائيليات والقصص الخرافية ، فى أحاديث المسلمين فلا يقام لحديثه وزن ولا قيمة ، فلنضرب عنه صفحاً .

أضف اليه ان الرجل لم يسنده الى الرسول (ص) ولا الى الولي ، فكيف يكون حجة ؟

ثم اننا نسأل صاحب الفرائد (١) ومن مشى مشيه، ونقول: ان رسول الله قال (بزعمكم) ان صلحت أمتى فلها يوم ... فهل صلحت الامة الاسلامية فى هذه القرون العشرة ومشت سبل الصلاح والسلام ، وازدهر فيهم العدل والاحسان ، أو شاع فيهم الجور والطغيان والقتل الذريع وسفك الدماء وحبس ابرياء الامة و اعتقالهـم ونهب أموالهم . . . و عند ذاك يلزم انتهـاء أمد الاسلام بانقراض خمسمائة عام، التى هى نصف يوم ، من اليوم الربانى، لانه لم تصلح الامة بعد

ـ اليوم الذى وعد به رسول الله بقوله فى امته : ان صلحت امتى فلها يوم وان فسدت فلها نصف يوم، يعنى من أيام الرب المشار اليه بقوله تعالى : «وان يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون » لاحظ اليواقيت ج ٢ ص ١٦٠ ونقل عـن بعض العارفين ان اول الالف محسوب من وفاه على بن ابى طالب .

(١) ابو الفضل الجرفادقانى .

لحوق الرسول بالرفيق الاعلى ولكن الكاتب لا يرضى به لانه لا يوافق مايدعيه ويرتئيه .

وأعجب من ذلك انه جعل مبدأ ذلك اليوم الربانى (ألف عام) العام الذي تمت فيه غيبة ولى الله الاعظم ، الحجة بن الحسن العسكرى (ع) لاعام بعثة الرسول (ص) أو هجرته أو وفاته ، أو سنة صدور الحديث . أو ما كانت الامة العائشة فى هذين القرنين ونصف ، من الامة الاسلامية ؟! (سله أنا لا أدرى ولا المنجم يدري) أظنك أيها القارىء الكريم لا يفوتك سرهذا الجعل، وانه لماذا جعل مبدأ ذلك اليوم الربانى ، عام غيبة الولى ، أعنى عام ٢٦٠ من الهجرة النبوية ، ذلك العام الذي غاب فيه خاتم الاوصياء عن الابصار الى الوقت الذي لا يعلمه الا هو سبحانه ، فقد عمد بذلك الى ان ينطبق مبدأ خروج الباب (١) على اختتام ألف عام (٢) .

فقد خرج « الباب » وادعى ما ادعى، مفتتح عام ١٢٦٠ من الهجرة النبوية.

* * *

الشبهة الرابعة :

استدل صاحب « الفرائد » بآية رابعة، زعم دلالتها على عدم انقطاع الوحى والرسالة بعد رسول الله (ص) وهى قوله سبحانه : « يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون ان الله هو الحق المبين » (النور ـ ٢٥)

---

(١) المراد منه «على محمد» الشيرازى الملقب بالباب ، عند الفرق الضالة البابية والازلية والبهائية .

(٢) فالرجل قد وضع فكرة معينة ، ثم اراد تصيد الادلة لاثباتها ، ولكن الباحث المخلص يتجرد عن كل هوى وميل شخصى ، ويتابع النصوص ومفادها ، فما ادت اليه بعد التمحيص ، تكون هى النتيجة التى ينبغى عليه اعتبارها حقيقة راهنة .

قال : ان صيغة « يوفيهم » تبشر عـن دين حق يوفيه سبحانه على من يشاء من عباده فى الاجيال الاتية بعد الاسلام ، وليس لـك ان تحمله على الاسلام وتفسره به ، لانه قد أكمل نظامه وتمت أصولـه وفروعه عام حجة الوداع بنص الذكر الحكيم ، كما قال سبحانـه : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام ديناً » (المائدة ـ ٣) وهو سبحانه يخبر فى هذه الاية عن وقوع الامر (توفية الدين الحق) فى الجيل الاتى (١) .

الجواب :

هذا مبلغ علم الرجل ومقياس عرفانه بالكتاب وغوره في الادب العربى وقد كان فى وسع الرجل ان يرجع الى احد التفاسير ، أو الى أبطال العلم وفطاحل الامة وكانت بيئة مصر (٢) تجمع بينه وبين فطاحلها وأعلامها العارفين ، هذا هو أمين الاسلام الطبرسى ، فسره فى مجمعه بقوله : يتم الله لهم جزائهم الحق ، فالدين بمعنى الجزاء (٣)، وقال الزمخشرى: الحق، صفة الدين وهو الجزاء (٤) لا الطريقة والشريعة .

وليت الكاتب ، أمعن النظر فى الظرف (يوم) الوارد فى الاية المتقدمة أعنى قوله سبحانه : « يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم ... » ففى أي يـوم تشهد ألسنة المجرمين وأيديهم على أعمالهم الاجرامية ، فهل هذا اليوم ، الا يوم البعث؟ ففي ذلك اليوم يوفيهم الله جزاء الطغاة العصاة المفترين الكذابين المبدعين، الجزاء الحق الذي يستحقونه باعمالهم. ففي يوم واحد تشهد السنتهم

(١) الفرائد صفحة ١٢٢ الطبعة الحجرية .

(٢) فقد ألف «الفرائد» بمصر ، أيام اقامته هناك ، وفرغ منه عام ١٣١٥ .

(٣) مجمع البيان ج ٧ ص ١٣٤ .

(٤) الكشاف ج ٣ ص ٢٢٣.

وأيديهم وأرجلهم ، ويوفى الله دينه الحق والجزاء الذي يستحقونه.

على ان سياق الاية يوضح المقصود ، فان الاية وردت في الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات، فعاتبهم، بالايات القوارع، المشحونة بالوعيد الشديد ، والعتاب البليغ ، والزجر العنيف ، لاستعظام ما ركبوا من ذلك، وما أقدموا عليه، اذ قال سبحانه: «ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والاخرة ولهم عذاب أليم* يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون، يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون ان الله هو الحق المبين » (النور ٢٣ ـ ٢٥)

ترى انه سبحانه حكم على هؤلاء العصاة اللاعبين باعراض الناس وحرماتهم بأحكام ثلاثة :

١ ـ اللعن عليهم في الدنيا والاخرة . ٢ ـ شهادة اعضائهم على اعمالهم الاجرامية . ٣ ـ توفية جزائهم الحق في ذلك اليوم .

ومع ذلك كيف عمي بصر الرجل وبصيرته ، وأرخى قلمه ولسانه ، وفسر الاية برأيه الباطل ؟!.

* * *

الشبهة الخامسة :

قد عرفت ما لدى الكاتب ومن لف لفه من شبهات تافهة، أو تأويلات كاذبة اختلقوها لاغواء السذج من الناس . هلم معي نقرأ آخر شبهة للقوم ، وهو الاستدلال بالاية التاليه : « يدبر الامر من السماء الى الارض ، ثم يعرج اليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون » (السجدة ـ ٥)

فقد فسر صاحب الفرائد (١) تدبير الامر بانزال الشريعة من السماء الى

(١) الفرائد الطبعة الحجرية .

الارض وجعل عروجه في يوم كان مقداره الف سنة ، ياندراس الشريعة تدريجاً طول هذه المدة بابتعاد الناس عن الدين ، ورفضه فى مراحل الحياة، وصيرورة القلوب مظلمة بالمعاصي ، مدلهمة بالخطايا ، مريضة بشيوع الفساد والفوضى، فيبعث الله عندذلك رجلا آخر يجدد الشريعة ويؤسسها ويذهب بظلمات القلوب، وعلى هذا فلا تدوم الشريعة أي شريعة كانت الا يوماً ربانياً ، وهو ألف سنة مما تعدون (١) .

الجواب :

ماذكره بصورة الشبهة، لا يصح الا بعد تسليم امور ، لم يسلم واحد منها.

١ ـ ان التدبير عبارة عن نزول الوحى وبلوغ الشريعة الى النبي .

٢ ـ ان الامر في الاية هو الشريعة والطريقة .

٣ ـ العروج هو انتهاء أمد الرسالة وانقضاء استعداد بقاء الشريعة واندراسها بشيوع الفساد والمعصية بين الامة .

وليس أى واحد منها صحيحاً ولا قابلا للقبول :

أما الاول : فلان التدبير في اللغة والكتاب عبارة عن الادارة على وجه تستوجبه المصلحة، وتقتضيه الحكمة وأين ذاك عن نزول الشريعة من السماء الى الارض ، باحدى الطرق المقررة فى محلها .

وان شئت قلت: التدبير هو التفكير في عاقبة الامور ودبرها، كما قال سبحانه: « فالمدبرات أمراً » (النازعات ـ ٥) ، أي الملائكة الموكلة بتدبير الامور .

---

(١) ثم انه جعل مبدأ ذلك اليوم الربانى عام غيبة ولى الله الاعظم المهدى (ع) عن الابصار حتى يطابق مختتمه مفتتح عام ظهور الباب ، هذا مصداق واضح للتفسير بالرأى ، وكأنه قد قرر النتيجة اولا ثم راح يتفحص عن دليل يوصل اليها فلم يجد دليلا، الا بتحريف كلام الله وتأويله السخيف .

وقوله سبحانه : « أفلا يتدبرون القرآن ، أم على قلوب أقفالها »

(محمد ـ ٣٤)

وقوله سبحانه : « كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته ، ولتذكر أولوا الالباب » (ص ـ ٢٩) الى غير ذلك .

أوليس تفسير التدبير بالنزول عند ذاك يكون تفسيراً بالرأي الذي نهى عنه رسول الله (ص) وأوعد عليه النار وقال: من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار (١) .

وأما الثاني : فلان الامر في القرآن لم يستعمل بمعنى الشريعة والاحكام الالهية من واجب وحرام ومكروه ومستحب ومباح، وسائر الاحكام الوضعية الجارية في العقود والايقاعات والسياسات .

هؤلاء هم أصحاب المعاجم واعلام اللغة ، لا تجد أحداً منهم فسر الامر بالشريعة بل تدور معانيه بين الشأن والشيء والتكليف .

سؤال : اذا اعترفتم بان التكليف من معانيها ، كما يقال امرته : اذا كلفته ، فيصح تفسيره بالشريعة ، اذ الشريعة عبارة عن تكاليف يوجهها الشارع الى عباده ؟ .

الجواب : ان حمل الامر في الاية على الامر والتكليف التشريعي خلاف مساق آيات السورة ، بل خلاف صريح سائر الايات الواردة في هذا المضمار فلحاظ السياق يدفعنا الى ان نحمل الامر على التكويني الذي هو عبارة عن ارادته الفعلية ومشيئته التكوينية الجارية في صحيفة الكون والوجود، فان كل مايسيطر على العالم ، من نظام وسنن وقوانين ، كلها بأمر تكويني وارادة فعلية منه سبحانه كما يصرح به قوله سبحانه : « انما أمره اذا أراد شيئاً ان يقول له كن فيكون ، فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء واليه ترجعون » (يس ٨٢ ـ ٨٣)

(١) حديث متفق عليه ، وراه الفريقان بصور مختلفة .

حصيلة البحث : ان هنا قرائن ثلاث لابـد من البحث عنها ، كى نقرب الى الأذهان كيفية حمل لفظ الامر على الامر التكوينى ، أعنى النظـم والسنن الجارية فى دائرة الكون والقوانين المكتوبة على جبين الـدهر ودونك هذه الشواهد :

١ـ لفظ التدبير ، فقد عرفت انه عبارة عن الادارة على وجه تقتضيه المصلحة والحكمة ، فهو سبحانه يدبر الخلق بعامة أجزائه من السماء الى الارض ، على وجه تقتضيه المصلحة ، فسبحان الذي خلق الاشياء واتقنها وأحكمها ، ودبرها على وفق الحكمة ، فـلا السماء تسقط على الارض ، ولا الارض تنخسف بنا ، ولا الشمس تظللنا دائماً ولا الظلمة تحيط بنا سرمداً ، الى غير ذلك من سنن ونظم . .

٢ ـ سياق ما تقدمها من الايات ، فان محور البحث فى سابقها ، هو خلق السماوات والارض واستوائه سبحانه على العرش ، ودونك الاية المتقدمة عليها :

« الله الذي خلق السماوات والارض ومابينهما في ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، مالكم من دونه مـن ولى ولا شفيع ، افلا تتذكرون » . «يدبر الامر» من السماء الى الارض ... افلا تفهم من تقارن الايتين ان اللام في الامر اشارة الى أمر الخلقة ، وان الله سبحانه خلق السماوات والارض وما بينهما فى أيـام وأدوار مخصوصة ولم يكتف سبحانه بأصل الخلقة ، بل استوى على عرش ملكه فدبر أمرها على وجه توجبه الحكمة وتقتضيه المصلحة ، وانه سبحانه يدبر أمر الخلق ، أى خلق تتصور وينفذه على وجهه ، حتى انه سبحانه توخياً للتوضيح شبه المقام الربوبي الذي ينزل منه التدبير ، ويصدر منه الحكم بعرش الملك البشري الذي يجلس الملك عليه فيصدر منه أوامره لتدبير أمور الملك ، غير ان أوامره طلبات عرفية اعتبارية ، ولكن أوامره سبحانه ، أوامر تكوينية ، لا يقوم بوجهها شيىء ، فما قال له كن ، فيكون ، بلا تراخ ولا تمرد .

٣ ـ الايات المنزلة في هذا المضمار ، فان هذا الاية ليست فريدة في بابها فقد ورد في هذا المضمون (أي تدبير أمر الخليقة) آيات اخرى، كلها تهدف الى ما أوضحناه ، وهو ان تدبير الخلق بعد ايجاده من شؤونه سبحانه، من دون نظر الى الشرائع وتجديدها ، ودونك الايات :

« ان ربكم الذي خلق السماوات والارض في ستة أيام ، ثم استوى على العرش يدبر الامر ، ما من شفيع الا من بعد اذنه » (يونس ـ ٢)

وقوله سبحانه : « قل من يرزقكم من السماء والارض، أم من يملك السمع والابصار، ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ، ومن يدبر الامرر فسيقولون الله » (يونس ـ ٣١)

وقوله سبحانه : « الله الذي رفع السماوات وبغير عمد ترونها، ثم استوى على العرش، وسخر الشمس والقمر كل يجري لاجل مسمى، يدبر الامر يفصل الايات لعلكم بلقاء ربكم توقنون » (الرعد ـ ٢)

نعم هذه الايات ساكتة عن عروج الامر وصعوده في المقدار الذى صرحت به هذه الاية ، ولا يوجب ذلك فرقاً جوهرياً بين أهدافها ومراميها .

ومن ذلك تقف على ان الامر في قوله سبحانه : « ألا له الخلق والامر ، تبارك الله رب العالمين » (الاعراف ـ ٥٤) هو أمر الخليقة، أي هو الذي خلق الاشياء كلها ، وهو الذي صرفها على حسب ارادته فيها ، فما عن بعض اعلام العرفان والفلسفة من تسمية المادي والماديات بعالم الخلق، والمجردات والابداعيات بعالم الامر ، استناداً الى هذه الاية ضعيف جداً ، وان كان تقسيم الموجود الى المجرد والمادي ، صحيحاً لا ريب فيه .

وأما الثالثة : فلان تفسير العروج باندراس الشريعة ونسخها باطل جداً ، لان العروج عبارة عن ذهاب في صعود كقوله سبحانه: « تعرج الملائكة والروح اليه » (المعارج ـ ٤) وجعله كناية عن انتهاء أمد الشريعة وبطلانها واندراسها

من الكنايات البعيدة التي يجب تنزيه القرآن عنها ، اذ لا معنى لعروج الشريعة المنسوخة اليه سبحانه اذ لا يفهم من نسخها انها تعرج الى السماء ، بل كل ما يستفاد ، انها تعطل عن العمل بها والسير عليها . لا انها تعرج اليه سبحانه .

أضف اليه انه لو كان مراد المولى سبحانه، هو الاخبار عن تجديد كل شريعة بعد ألف عام ، لا قتضى ذلك ان يعبر عن مقصوده بعبارة واضحة يقف عليها كل من له المام باللغة العربية ، ولماذا جاء بكلام لم يفهم منه مراده سبحانه الا بعد حقب وأجيال الى ان وصلت النوبة لكاتب مستأجر فكشف الغطاء عن مراده سبحانه وقد خفى على الامة جميعاً ، وفيها نوابغ العربية وفطاحلها ، حتى تفرد هو بهذا الكشف ؟! .

مشكلة المفتتح والمختم :

بقيت في المقام مشكلة، وهي ابتداء تلك المدة واختتامها ، وقد حار فيها فاختار ان مبدأها هو عام غيبة الامام المنتظر، حتى يطابق ختم ذلك اليوم الذي مقدارها ألف سنة مع ظهور الباب (١) ولما رأى ان ذلك تفسيراً منه بالرأي ، اعتذر عن ذلك بأن الاسلام لم يكتمل الا عام غيبة الامام، حيث حول الامر الى الفقهاء .

وانت خبير بان ما اعتذر به يتناقض مع صريح القرآن القاضي باكمال الدين بلحوق النبي بالرفيق الاعلى، فقال سبحانه: « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً » (المائدة ـ ٣)

ولو قال ان الاية ناظرة الى الاكتمال من جانب الاصول وتدعيم مبادىء الاسلام وأسسه بنصب الولي ، وأما الاكتمال من جانب الفروع فقد امتد بعد

(١) فقد اتفقت غيبة الامام عام ٢٦٠ ، وادعى الباب ما ادعى ، بعد مضي ألف سنة من ذلك حيث كان خروجه سنة ١٢٦٠ .

لحوق النبي (ص) بالرفيق الاعلى، الى عشرات السنين من عهود الأئمة واعصارها الى غيبة وليه ، فينتقض كلامه من جانب آخر ، فانه فسر عروج الامر بالنسخ التدريجى للشريعة، وجعل النسخ عبارة عن ترك العمل بها واندراسها في مراحل الحياة . وعلى ذلك يجب ان يكون مبدأ النسخ التدريجى عام فوت الرسول (ص) فان العصور التي جاءت من بعده (ص) لم تكن عصوراً ازدهر فيها الاسلام بل كانت عهد الجور والعدوان ، حيث تآمرت قريش على تداول الخلافة في قبائلها واشرأبت الى ذلك اطماعها ، فتصافقوا على تجاهل النص ، وأجمعوا على صرف الخلافة من أول يومها عن وليها المنصوص عليه الى غير ذلك من الملمات والنوازل .

ولو كان ظهور العيث والفساد فى المجتمع الاسلامى ورفض الشريعة في مراحل الحياة ، ملازمة للنسخ التدريجى للشريعة ، فليكن عهد يزيد الخمور والفجور من هذه العهود التى أخذت تعربد بلسان قائله :

لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحي نزل

أفلا تعجب من الكاتب، انه جعل تلكم العهود المظلمة التى امتدت عشرات السنين وكانت وبالا على الاسلام من العصور الزاهرة ، مع انه أخرج عهود القسط والعدل الموعود بخروج الامام الثاني عشر (التي ترفرف فيها اعلام القسط والعدل وتخفق رايات الحق والهداية في كل صقع) من الاصقاع التى ينمو فيها الاسلام ، ويزدهر . كبرت كلمة تخرج من أفواههم .

وأما البحث عن هدف الاية وانه سبحانه ماذا يريد من قوله « يعرج اليه فى يوم كان مقداره ألف سنة » ، فله منا بحث آخر ، وسوف نعطى حقه عند البحث عن المعاد في القرآن الكريم ، فان اليوم الذي يعادل ألف سنة ، من الايام الاخروية .

* * *

الشبهة السادسة (١) :

* ينص القرآن على : أن الاسلام شريعة عالمية ، وابدية ، وان بالاسلام اقفل باب الشرائع ، ونسخ جميعها .

* وينص أيضا على: ان المؤمنين بالله واليوم الاخر من جميع أهل الشرائع سينالون ثواب الله ، وانه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

* فماذا يعنى ذلك ؟

هل ذلك اعتراف من الاسلام بشرعية تلك الشرائع، والسماح لها بالاستمرار الى جانبه ، أولا ؟

اذا كان الاسلام آخر شريعة فى مسلسل الشرائع السماوية ، وكانت رسالته خاتمة الرسالات ، وناسخة الاديان ، فلماذا يعتبر القرآن كل من يؤمن بالله ، ويعمل صالحا من اصحاب الديانات المسيحية او اليهودية او غيرهما مأجوراً عند الله ، وآمنا من عذابه ؟ !

ألا يعني بهذا ان جميع الشرائع السماوية لاتزال تحتفظ بشرعيتها ، الى جانب الاسلام، وان أتباعها ناجون، شأنهم شأن من اعترف بالاسلام وصار تحت لوائه تماما ، وكأن شريعة جديدة لم تأت وكأن امراً مالم يقع؟

قبل اعطاء الاجابة الصحيحة على هذا السؤال يتحتم علينا اولا ان نستعرض سريعا ما يذكر فى هذا الشأن من الايات وهى ثلاث :

١ ـ « ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى ، والصابئين ، من آمن بالله واليوم الاخر ، وعمل صالحاً فلهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (البقرة ـ ٦٢) .

---

(١) هذة الشبهة لها صلة بعالمية الاسلام وصلة بخاتميته ولا جل ذلك جعلناها آخر الشبهات وفصلنا الكلام فيها بما لايدع لمشكك شك .

٢ ـ « ان الـذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمـن بالله واليوم الاخر وعمل صالحا فلاخوف عليهم ولا هم يحزنون » (المائدة ـ ٦٩)

٣ ـ « ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين ، والنصارى ، والمجوس والذين اشركوا ، ان الله يفصل بينهم يوم القيامة ، ان الله على كل شيء شهيد» (الحج ـ ١٧) .

قد يقفز الى الذهن فى النظرة الاولى ان القرآن يكرس شرعية الشرائع المذكورة ويعترف بحقها فى أمان مـن عذاب الله ، وفى منجى من مؤاخذته ، بشرط ان يكونوا مؤمنين بالله واليوم الاخر ، وان يقدموا على ربهم بعمل صالح ويكون نتيجة ذلك ان فكرة نسخ الاسلام للشرايع ادعاء فارغ لااساس له ولا واقع مادام الاسلام يعتبر ان كل الطرق تؤدي الى الله، وانه ليس من الضروري على اصحاب الشرائع الاخرى ان يعتزلوا شرائعهم، وينضموا الى صفوف الاسلام والمسلمين.

هذا هو ما نسمعه بين الحين والاخر من بعض الافواه .

* * *

غير انه يجب ان نعرف اولا ان الاساس السليم فى تفسير آية ماليس هو أن نتجاهل اخواتها مـن الايات ، اولا ، وملابسات النزول ثانيا ومقتضى السياق القرآنى ثالثا لاننا فى هذه الحالة سنقع فى تخبط عريض لا اول له ولا آخر .

ثم ان علينا ـ قبل كل شيء ـ ان نلاحظ سيرة الرسول (ص) مع اصحاب الشرائع هل كان يأمرهم بالاعتزال عن دياناتهم، والانضمام الى صفوف المسلمين أولا ؟ فاذا كان الجواب فى المقام ايجابياً لكان ذلك الامر قرينة على ان المقصود من الايات المذكورة غير ما يتبادر منها فى بدء الامر .

وبعبارة واضحة: اذا كان الاسلام يعترف بشرعية الشرائع وحقها فى الاستمرار والبقاء حتى بعد ظهور الاسلام ، فان معنى ذلـك هو ان الاسلام ينسف بنفسه

(١) قد شاع هذا النظر من جانب بعض المستشرقين.

مقومات وجوده ويعطل من ناحية اخرى كل الاسس الوجيهة التى قامت عليها دعوة الرسول الاكرم (ص) قادة العالم آنذاك الى شريعته ضمن رسائله ومكاتيبه المشهورة، ويفند بالتالي دعوى الرسول (ص) بانه (آخر الانبياء وخاتم المرسلين) وان رسالته خاتمة الرسالات !!!

ان الرسائل الهامة التى وجهها الرسول الاكرم (ص) الى قادة وملوك زمانه، وايضا جهاده المرير وجهاد المسلمين ضد اهل الكتاب سواء فى عهده او بعد ذلك ، مضافا الى مجموع ما وصل الينا من تصريحات قادة الاسلام لدليل صارخ على ان الاسلام اعلن بظهوره (نهاية) عهد الشرائع باسرها و (بداية) عهد جديد لاشريعة له سوى (الاسلام) ولانبي له سوى (محمد) صلى الله عليه وآله.

* * *

الحديث يبين هدف الاية :

ان مفاد الايات المذكورة ليس - فى الواقع - سوى تقرير لحقيقة ثابتة، وهى التى تتجلى - بوضوح - من خلال الايات السابقة لهذه الاية من سورة البقرة .

فالايات انما تتحدث عن مصير الماضين من اتباع الشرائع فى عهود الانبياء السابقين قبل ظهور الاسلام ممن آمن منهم بالله واليوم الاخر وعمل صالحا .

فالقرآن يخبرنا بان هؤلاء ناجون بسبب ايمانهم الصادق، وعملهم الصالح والتزامهم بتعاليم شرائعهم دون من حاد عن طريق الايمان ولم يأت بعمل صالح وانحرف عن جادة التوحيد الخالص ، وهم الفرقة التى عبدت العجل مرة(١) وبلغ بها الوقاحة ان طلبت من موسى ان يريها الله (٢) ذلك الطلب الوقح الذي

(١) راجع البقرة الايات ٥١، ٥٤، ٩٢، ٩٣ ، والنساء ١٥٣ ، والاعراف ١٥٢ .
(٢) راجع البقرة : ٥٥ .

صار سبباً لان يحل غضب الله على بني اسرائيل .

لقد اراد الله هنا ان يزيل الغموض او الاشتباه حول مصير الفريق المؤمن من اهل الكتاب حتى لايختلط امرهم بامر ذلك الفريق الكافر المعاند فاخبر بان من آمن من اهل الكتاب بالله عن اخلاص ، وآمن باليوم الاخر عن صدق وعمل صالحا ، فانه لاخوف عليهم يوم القيامة ولا حزن ولا عقاب ، بل جنة وثواب ورضوان من الله .

فى هذه الصورة يمكن اعتبار الاية مرتبطة بذلك الفريق المؤمن من اهل الكتاب الذين كانوا يعيشون فى العصور الماضية السابقة على الاسلام دون ان يكون لها اى ارتباط بعصر الرسالة الاسلامية وما بعده .

ونأتي بشأن نزول هذه الاية ليلقي ضوء اكثر على هذا الموضوع، ويؤيده تأييداً كاملا .

فهذا هو الطبري ينقل عن سدي قوله: نزلت هذه الاية فى اصحاب سلمان الفارسي حيث ذكر أصحابه للنبي (ص) فقال له نبي الله : هم من اهل النار ، فانزل الله هذه الاية : « ان الذين آمنوا والذين هادوا ... » (١) .

فى هذه الصورة لاتجد اى ارتباط للاية بزعم اولئك الذين يدعون ان هذه الاية لاتعنى سوى (الوفاق الاسلامى المسيحى اليهودي) ويزعمون ان الاسلام يقرر فى هذه الايات (أمان) المعتنقين لغير الاسلام من عذاب الله وعقابه .

هذا مضافا الى اننا لانرى اى علاقة بين الاية الثالثة (وهى الاية ١٧ من سوره الحج) وبين مايزعم هؤلاء.. حيث ان مفاد هذه الاية لا يعني سوى الاخبار بان الله هو الحاكم بين الطوائف المختلفة، يوم القيامة فهو الذي ينتقم من طائفة

---

(١) تفسير الطبرى ج ١ ص ٢٥٦ ، والحديث طويل وقد اخذنا موضع الحاجة منه، والظاهر انه منقول بالمعنى وفى بعض عباراته خلل .

وينتصر لطائفة اخرى وليس يعنى ذلك مطلقا ان اصحاب الشرائع الاخرى على حق ، وانهم ناجون يوم الحساب !

* * *

جواب آخر :

ولنا ـ هنا ـ اجابة ثانية على السؤال المطروح ، ولكن قبل ان ندخل في صميم هذه الاجابة نرى من الضروري ان نشير الى بعض هذه الامور :

فكرة الشعب المختار :

التاريخ يحدثنا ان اليهود والنصارى كانوا كثيراً ما يستعلون على المسلمين بل العالم بادعاء فكرة (الشعب المختار) ، فكل واحدة من هاتين الطائفتين : اليهود والنصارى ، كانت تدعي انها ارقى أنواع البشر ! !

وكانت اليهود خاصة أكثر تمسكا بهذا الزعم، حتى انهم كانوا يدعون أنهم (شعب الله المختار) .

وقد ذكر القرآن فى احدى آياته هذا الزعم الباطل ، وذكر ان النصارى هم أيضا يدعون هذا الادعاء الفارغ عند ما يقول :

«وقالت اليهود والنصارى: ابناء الله واحبائه قل فلم يعذبكم بذنوبكم، بل انتم بشر ممن خلق » (المائدة ـ ١٨)

والقرآن جاء يفند هذا الزعم بكل قوة عندما يقول: «فلم يعذبكم بذنوبكم» وقد بلغت انانية اليهود ، واستعلاؤهم الزائف حداً بالغاً ، وكأنهم قد أخذوا على الله عهداً بان يستخلصهم ، ويختارهم حيث قالوا :

« وقالوا لن تمسنا النار الا أياماً معدودة » (البقرة ـ ٨٠)

ولكن القرآن نسف بقوة هذا الزعم ما قال في شكل استفهام انكارى :

« قل : أتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون» (البقرة ـ ٨٠)

هكذا نستكشف من خلال هذه المزاعم وردودها ان اليهود كانوا يعدون انفسهم صفوة البشرية ونخبة الشعوب وكانوا يحاولون بمثل هذه المزاعم فرض كيانهم على العالم كأرقى نوع بشري انتخبه الله على سائر البشر ، حتى كأنهم ابناء الله المدللون .

٢ ـ الاسماء لا تنقذ انساناً :

ان اليهود والنصارى كما كانوا يحاولون الاستعلاء الباطل عن طريق بث (فكرة الشعب المختار) كانوا من ناحية ثانية يعتبرون الاسماء، أو الانتساب الى اليهودية والمسيحية سبباً آخر من اسباب التفوق في الدنيا ، والنجاة في الاخرة والفوز بالثواب الجزيل .

فقد كان فى تصورهم ان الجنة هي نصيب كل من ينتسب الى بنى اسرائيل او يسمى مسيحيا ليس الا ، وكأنه بامكان الاسماء أو الانتساب ان تصبح يوماماً سبيلا الى الهداية ، أو مفاتيح للجنة ! !

ولكن هذا الزعم ـ على رغم سخافته ـ امنية لهم كسائر أمانيهم كما يحدثنا القرآن :

« وقالوا : لن يدخل الجنة الا من كان هوداً أو نصارى » (البقرة ـ ١١١)

غير ان القرآن كان بالمرصاد لهذه الدعاوي الباطلة أيضا ، عند ما ذكر بان الوسيلة الوحيدة لامتلاك الجنة العريضة هي: (الايمان الصادق) و(العمل الصالح) وليست الاسماء ، أو مجرد الانتساب الى عقيدة سماوية مهما كانت . فقال :

« تلك امانيهم ، قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين ، بلى من اسلم وجهه

لله ، وهو محسن ، فله اجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون »
(البقرة ١١١ - ١١٢)

ولا شك انه واضح جداً ان جملة (بلى اسلم) انما تعنى الايمان الخالص والتسليم الصادق لله ، وجملة (وهو محسن) انما تعنى العمل وفق ذلك الايمان أي العمل بالشريعة التى يؤمن الشخص بها، وكلتا الجملتين تدلان على ان السبيل الوحيد الى النجاة فى يوم القيامة انما هو: الايمان والعمل، وليس اسم اليهودي أو النصرانى فليست المسألة مسألة اسماء وانما هى مسألة ايمان صادق ، وعمل صالح .

٣ - ليست الهداية فى اعتناق اليهودية والمسيحية :

يشير القرآن - أيضا - الى دعوى أخرى لهم باطلة كأخواتها ، فارغة كمثيلاتها وهى قولهم بان الهدى الحقيقى انما هو فى اعتناق اليهودية أو المسيحية ! !

« وقالوا : كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا » (البقرة - ١٣٥)

ولكن القرآن يرد - أيضا - هذا الزعم الواهى بقوله :

« قل : بل ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين » (البقرة - ١٣٥)

فالهدى الحقيقى هو فى الاقتداء بملة ابراهيم واعتناق مذهبه فى التوحيد الخالص من كل شائبة .

وفى آيات اخرى فى القرآن نجد كيف ان اليهود والنصارى حاولوا اضفاء طابع اليهودية والمسيحية على ابراهيم، ليحصلوا بذلك على دعم جديد لمعتقداتهم ويضفوا الشرعية على مسلكهم، غير ان القرآن مضى يفند - بكل قاطعية وعنف - هذه الاكذوبة بقوله :

« ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ، ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من

المشركين » (آل عمران ـ ٦٧)

نستخلص من كل هذه الايات كيف ان اليهود والمسيحيين والقدامى منهم خاصة كانوا يحاولون ـ بهذه الافكار الواهية ـ التفوق على البشر ، والتمرد على تعاليم الله، والتخلص بصورة خاصة من الانضواء تحت لواء الاسلام، مرة بافتعال اكذوبة (الشعب المختار) الذي لا ينبغي ان يخضع لاى تكليف، ومرة اخرى بافتعال خرافة (الأسماء والانتساب) وادعاء النجاة بسبب ذلك والحصول على مغفرة الله وجنته وثوابه. ومرة ثالثة بتخصيص (الهداية) وحصرها في الانتساب الى احدى الطائفتين بينما نجدانه كلما مر القرآن على ذكر هذه المزاعم الخرافية اعلن بكل صراحة وتأكيد : أنه لا فرق بين انسان وانسان الا بتقوى الله فان اكرمكم عند الله اتقاكم . .

واما النجاة والجنة فمن نصيب من يؤمن بالله، ويعمل باوامره دونما نقصان لا غير ، وهو بهذا يقصد تفنيد مزاعم اليهود والنصارى الجوفاء .

* * *

بهذا البحث حول الايات الثلاث (المذكورة فى مطلع البحث) نكتشف بطلان الرأى القائل بان الاسلام أقر ـ فى هذه الايات ـ مبدأ (الوفاق الاسلامى المسيحى واليهودى) تمهيداً لانكار عالمية الرسالة الاسلامية ، بينما نجدان غاية مايتوخاه القرآن ـ فى هذه الايات ـ انما هو فقط نسف وابطال اليهود والنصارى وليعلن مكانه بان النجاة انما هي بالايمان الصادق والعمل الصالح .

فلا استعلاء ، ولا تفوق لطائفة على غيرها من البشر مطلقا ، كما ان هذا التشبث الفارغ بالاسماء والدعاوي ليس الا من نتائج العناد والاستكبار عن الحق.

فليست الاسماء ، ولا انتساب هى التى تنجى احداً فى العالم الاخر، وانما هو الايمان والعمل الصالح، وهذا الباب مفتوح على وجه كل انسان يهوديا كان

أو نصرانيا أو مجوسيا أو غيرهم .

ويوضح المراد من هذه الاية قوله سبحانه : « ولو ان أهل الكتاب آمنوا واتقوا ، لكفرنا عنهم سيئاتهم ، ولا دخلناهم جنات النعيم » (المائدة ـ ٦٥)

فتصرح الاية بانفتاح هذا الباب بمصراعيه فى وجه البشر كافة من غير فرق بين جماعة دون جماعة حتى ان أهل الكتاب لو آمنوا بما آمن به المسلمون لقبلنا ايمانهم وكفرنا عنهم سيئاتهم .

هذا هو كل ما كان يريد القرآن بيانه مـن خلال هذه الايـات ، وليس أي شيء آخر .

اذن فـلادلالة لهذه الايات الثلاث على اقرار الاسلام لشرعية الشرايع بعد ظهوره .. وانما تدل على ان القرآن يحاول بها ابطال بعض المزاعم .

يبقى ان تعرف ان هنا آيات أخرى تؤيد بصراحة ما ذهبنا اليه من انحصار النجاة في الايمان والعمل ، وذلك كسورة (والعصر) :

« والعصر ان الانسان لفى خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتوصوا بالصبر » (العصر ١ ـ ٤) .

كما ان تكرار كلمة (الايمان) فى الايات الثلاث تاكيد آخر لما قلناه حيث قال فى مطلع الايات : « ان الذين آمنوا » ثم قال : «.. من آمن بالله» وهو يقصد بمن (آمنوا) الاولى، الذين اعتنقوا الاسلام فى الظاهر ، دون ان يتسرب الايمان الى قلوبهم، وينعكس على تصرفاتهم، ويقصد بمن (آمن) الثانية الايمان الصادق المقرون بالعمل .

وبعبارة أخرى: ان المراد من قوله: «ان الذين آمنوا» هم المسلمون لوقوعه فى مقابل اليهود والنصارى، ويشهد على ذلك قوله سبحانه: « لتجدن اشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود » (المائدة ـ ٨٢) فقد جعل لفظ «آمنوا » في مقابل اليهود .

وحينئذ فالمراد من قوله : «آمنوا» في صدر الاية هو من أظهر الايمان بالله ورسالة رسوله محمد(ص)، كما ان المراد من قوله: «من يؤمن» هو الايمان الحقيقى الراسخ فى القلب .

ونظيره قوله سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا ، آمنوا » (النساء ـ ١٣٦)

ثم انى بعد ما كتبت هذا وقفت على ما كتبه الكاتب الاسلامى أبو الاعلى المودودي حول الاية ، وكان متقارباً لما قلناه، وحررناه ، ولاجل اتمام الفائدة نأتى باجمال ما كتبه :

والحقيقة ان هذا التحريف قد اسدى الى روح الضلال خدمة كان قدعجز عن مثلها أكابر ائمة الضلال والكفر على بعد نظرهم ، ومكرهم فى التضليل ، اذهو يزود ـ فى جانب ـ غير المسلمين بدليل من القرآن نفسه على عدم احتياجهم الى قبول الحق، ويأخذ ـ فى جانب آخر ـ بيد المنافقين والدخلاء على الجماعة الاسلامية من الذين يتلملمون دائماً للتنصل من قيود الاسلام وحدوده حتى ينالوا الرخصة بلسان القرآن نفسه فى ازالة الحاجز القائم بين الكفر والاسلام، ويزلزل ـ فى الجانب الثالث ـ ايمان المؤمنين المتبعين للقرآن ، والسنة فى داخل الجماعة الاسلامية حتى ليساورهم الشك بان الانسان مادام من الممكن له ان يستحق النجاة ولو بانكار القرآن والسنة النبوية وبغير حاجة الى الايمان بكتاب ولا برسالة ، فمن العبث ان يتقيد بحدود الاسلام اذ لا فرق ـ البتة ـ بين كونه مسلما أو يهودياً أو نصرانيا أو صائبيا أو هندوكيا أو غيره .

ثم شرع الكاتب فى تفسير جمل الاية وقال :

ان المراد بـ « الذين آمنوا » هم طائفة أهل الاسلام وان المراد من « من آمن بالله واليوم الاخر » أولئك الذين هم متصفون فى حقيقة الامر بصفة الايمان الصحيح الكامل .

والمراد من «والذين هادوا والنصارى...» اولئك الذين يعدون من طوائف

اليهود والنصارى ، وليس المراد بهم ، أولئك الـذين اختاروا عقيدة اليهود ، وانتهجوا نهجهم فى حقيقة الامر ، أو الذين يعتقدون النصرانية في واقع الامر حسب ما ذكر فى جملة « ان الذين آمنوا » .

ثم افاد فى رفع الستار عن هدف الاية ، وقال :

ان التصورات الطائفية التى كانت شائعة فى عهد نزول القرآن هى بعينها شائعة فى العصر الحاضر أيضا .

فلهذا لا يصعب علينا ان ندرك ان القرآن انما يفرق فى هذه الاية بين الذين هم مؤمنون لمجرد انتسابهم الى طائفة أهل الايمان وبين الذين هم مؤمنون واقعيون متصفون بصفة الايمان ، ومتمثلون لحقيقته فى الواقع .

فكما أننا نشاهد فى هذا الزمان ان الدنيا تميز بين الافراد من وجهة الطائفية فيقال لرجل: مؤمن، أو مسلم، لمجرد انه من جماعة المسلمين على حسب انقسام افراد البشرية بين مختلف الجماعات بصرف النظر عما اذا كان هو مسلماً فـى واقع الامر أم لا، ويقال لفرد من اليهود والنصارى والبوذيين: يهودي أونصرانى أو بوذي ، باعتبار انتسابه الى ديانة من تلك الديانات وبصرف النظر عما اذا كان مؤمنا بمبادىء طائفته فى واقع الامر أم لا ، كذلك كان النوع البشري فى عهد نزول القرآن موزعا بين عدد مـن الطوائف على حسب الظواهر بدون اعتبار الواقع ،فكان يميز بين مختلف الاشخاص والجماعات باعتبار ان فلانا من جماعة محمد (ص) وفلانا من طائفة اليهود ، وفلانا من طائفة النصارى وهلم جرا .

ومن هنا كان المنافقون أيضا يعدون من جماعة المسلمين ـ الذين آمنوا ـ مع انهم لم يكونوا مسلمين ى حقيقة الامر .

والحقيقة ان الله سبحانه وتعالى يريد بهذا الجزء من الاية ان يفند الفكرة السائدة عند الناس عامة وهى ان الناس سيحشرون فى الاخرة بموجب التصنيف الطائفى ، وباعتبار انسابهم واسمائهم الصورية فى الدنيا ، فيعتقد اليهودى ان

النجاة خالصة لمن هو معدود فى طائفة اليهود دون سائر الناس ، ويظن النصرانى ان الدخـول فى النصرانية دخـول فى أهل الحق ، وكل من هـو خارج هذه الدائرة يكون على الباطل ، وكذلك قد بدأ المسلمون يظنون ان من هو داخل فى جماعتهم على اعتبار اسمه واسرته ومولده فهو مسلم وله الشرف والفضيلة على كل من ليس بداخل فى جماعتهم بموجب تلك الاعتبارات .

فتفنيداً لهذه الفكرة الخاطئة يقول سبحانه وتعالى ان الفرق الحقيقى بين الانسان والانسان ليس على حسب الطائفية الظاهرية ، بل الذي عليه المدار هو الايمان والعمل الصالح ، وليس كل من تسمى باسماء المسلمين مع خلوه من الايمان وابتعاده عن العمل الصالح بالمؤمن فى واقع الامر. ولن يكون فى عاقبته مثل المؤمنين الحقيقيين ، وكذلك ليس كل من ينتسب الى اليهودية والنصرانية أو الصابئة يهودياً أو نصرانياً أو صابئاً اذا كان متجرداً من هذه الصفات . فكما ان الاعتداد فى جماعة المسلمين لا يغنى عن الانسان شيئا كذلك اعتباره من اليهود والنصارى والصابئين لا يرجع عليه بفائدة فى الاخرة .

ثم انه بعد ما ذكر بعض ما قدمنا من الايات من مزاعم اليهود والنصارى من كون الجنة مختصة بهم ، أوان النار لاتمسهم الا اياما معدودة ، أو انهم ابناء الله واحباؤه، قال ان كل هذه الايات انما تكشف عن حقيقة بعينها هى ان الله عزوجل ليست عليه دالة لطائفة في الارض ، ولا ان طائفة خاصة مستأثرة بالنجاة عنده ، فليس من حق أحد من الناس ان يعامل بصفة خاصة بناء على انه ولد فى أمة معينة أوينتمي الى جماعة خاصة، بل الجميع من حيث هم افراد الجيش البشري، لا فرق بينهم البته فى نظر الله ، لان الاعتبار الحقيقى عند الله ما هو الانتسابات أو القوميات، بل هو للمبادىء والحقائق فان آمنتم بصدق قلوبكم وعملتم الصالحات نلتم جزاء حسنا عند الله ، وان بقيتم على غير شيء من الايمان والعمل الصالح

فلا شيء ينقذكم من العقاب والعذاب الاليم ، ولو الى اى طائفة أو جنس كنتم تنتسبون . والله تعالى قد صرح بهذه الحقيقة فى موضع آخر من كتابه حيث يقول مخاطبا المسلمين « ليس بامانيكم ولا اماني أهل الكتاب من يعمل سوء يجزبه ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا . ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو انثى وهو مؤمن فاولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً »

(النساء ١٢٣ - ١٢٤) (١)

وانت اذا لاحظت ما ذكره المؤلف وما قد حررناه من قبل تجد الجوابين متوافقى المضمون ، متشاكلى المعنى .

* * *

واذا وقفت على هدف الاية ومرماه فلندخل فى صميم الاجابة الثانية حتى نثبت انها لا تمت بمدعى القائل، اذ الاية تسوقنا الى أن الاعتبار في النجاة هى (الحقائق والمسميات والمعانى) دون الصور والاسماء والقشور .

واما ما هو حقيقة الايمان بالله وماهو شرطه، وما المقصود فى العمل الصالح وكيف يتقبل .

فالاية ساكتة عن بيانها ومنصرفة عن توضيحها ، وانما تطلب هذه الشروط والقيود من سائر الايات ولاجل ذلك يجب ان ينضم الى الاية سائر ما ورد من الايات الواردة فى باب الايمان بالله والاتيان بالعمل الصالح حتى نقف على مرمى القرآن .

فنقول : ليس معنى الايمان بالله ان يقر الانسان بوجود الله، ويعترف بوحدانيته

(١) الاسلام فى مواجهة التحديات المعاصرة طبعة دار القلم ص ١٩٠ - ١٩٦ وهو من انفع كتب المؤلف غير انه يعتمد فى المسائل الفقهية على رأى كل صحابى او تابعى، وينقل اراء اصحاب المذاهب الاربعة ولا ينقل رأى واحد من ائمة اهل البيت غير الامام على بن ابى طالب .

بل المراد هو التسليم لله ، كما فى قوله سبحانه :

« بلى من أسلم وجهه لله وهـو محسن فله اجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (البقرة - ١١٢)

وقد دلت الآيات القرآنية على ان الايمان بالله لا ينفك عن الايمان بانبيائه ورسله حيث قال سبحانه :

« قولوا امنا بالله وما انزل الينا وما انزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » (البقرة - ١٣٦)

كما دلت على ان الايمان بانبيائه ورسله لا تنفك عن الايمان بنبيه الخاتم حيث قال سبحانه :

« فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ، وان تولوا فانما هم فى شقاق » (البقرة - ١٣٧)

والقرآن يعترف بان تكفير نبي واحد تكفير بجميع الانبياء بل تكفير بالله سبحانه كما قال تعالى :

« ان الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون ان يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون ان يتخذوا بين ذلك سبيلا. أولئك هم الكافرون حقا » (النساء ١٥٠ - ١٥١)

كيف وقد عد الايمان بنبيه الخاتم من أركان الايمان وقال :

« انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله » (النور - ٦٢)

وقال تعالى :

« انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا باموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون » (الحجرات - ١٥)

وليس المراد من الايمان بالرسول هو الاعتراف بعظمة الرسل وجلالة مكانتهم

بل المراد هو الطاعة العملية حيث قال سبحانه :

« وما أرسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله » (النساء ـ ٦٤)

وقال سبحانه :

« ومن يشاقق الرسول من بعد ماتبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً » (النساء ـ ١١٥)

وقال سبحانه :

«وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله امراً ان يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا » (الاحزاب ـ ٣٦)

الى غير ذلك من الايات الواردة فى شأن الانبياء وخصوص شأن الرسول الاكرم .

وعلى ذلك فالايمان بالله الذي تعتبره الاية وسيلة للنجاة لا تنفك عن الايمان برسله وكتبه، وعن الايمان برسوله الخاتم، ولا ينفك الايمان بهم وبه عن الايمان بطاعته، وامتثال أوامره والانزجار عن نواهيه، ولا يتم ذلك الا بالعمل بالقرآن وشريعته واوامره وزواجره ، سننه وفرائضه وليس يراد من المسلم الا ذاك، ولا تخالف بين الاية وغيرها من الايات فى الهدف والمرمى .

نعم كل من اراد ان يستخرج من الاية ماهو كفاية رسوخ اليهودي في يهوديته والنصرانى فى نصرانيته .. فقد غض بصره عن سائر الايات شأن كل من يختار مذهبا أولا ثم يرجع الى القرآن حتى يجد له دليلا ثانياً .

ان الله يأمر نبيه ان يعلن ويقول :

« وان هذا صراطي مستقيما فأتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » (الانعام ـ ١٥٣)

وعندئذ لا يمكن له ان يعترف بصحة الطرق المختلفة الاخرى وانها أيضا طرق مستقيمة .

خاتمة المطاف :

بقيت هنا كلمة وهى أنه ربما يستدل(١) على الخاتمية بمثل قوله «وما أرسلناك الا كافة للناس » (سبأ ـ ٢٨) .

وقوله سبحانه «يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا» (الاعراف ـ ١٥٨) والاولى الاستدلال بها على عالمية الرسالة الاسلامية لا خاتميتها .

وما ربما يقال : بان الناس ربما يطلق ويراد منه جماعة من الناس مثل قوله سبحانه فى قصة موسى وفرعون : «وقيل للناس هل أنتم مجتمعون» (آل عمران ـ ١٧٣) .

وقوله سبحانه «فعجل لكم هذه وكف أيدى الناس عنكم» (الفتح ـ ٢٠) والمقصود من الناس هم المشركون خاصة وعلى ذلك فليست هذه الاية ونظائرها دالة على سعة رسالته فضلا عن خاتميتها .

والجواب عن الشبهة واضح وذلك لان استعمال كلمة (الناس) فى الجماعة الخاصة فى الايات المتقدمة انما هو لوجود القرائن الحافة بالكلام ولولاها لما صح استعمال الكلمة التى وضعت للعموم فى جماعة خاصة .

هذه شبهات الخاتمية التي أختلقها القوم ولم تكن الا شبهات سوفسطائية أو أشواكاً فى طريق الحقيقة، وبقيت شبهات ضئيلة أخرى للقوم، أرى التعرض لها ضياعاً للوقت الثمين .

أجل هناك أسئله حول الخاتمية جديرة بالبحث والتحليل، فلابد من التعرض لها وما يمكن ان يجاب به حولها ، ولاجل ذلك عقدنا الفصل التالي وهو من الفصول المفيداً جداً .

---

(١) اللوامع الالهية ص ٢٢٥ .

«٤»

أسئلة حول الخاتمية

هناك اسئلة جديدة بالبحث، أثارت قلقاً واضطراباً بين بعض الاوساط وكثير من البسطاء وقد حاولنا أن نعرضها بشكل جديد يلائم الذوق العلمى الحديث، وعلى صعيد خاص يعبر عن الموضوعية، فى البحث والبخوع للحقيقة، والاخلاص للحق ومع ذلك ـ فهذه المحاولة تعد خطوة متواضعة فى هذا السبيل فان هذه الاسئلة التى تعد من النقاط الحساسة للخاتمية، جديرة بالبحث والتنقيب أكثر مما جاء فى هذا الفصل.

فى هذا الفصل :

١ ـ ان كمال الشريعة يقتضى ختم النبوة التشريعة فلماذا ختمت النبوة التبليغية أيضا؟ والاجابة عنه .

٢ ـ لماذا حرم الخلف من الامم من المكاشفة الغيبية بعد أن كانت مفتوحة فى الامم السالفة ؟ والاجابة عنه .

٣ ـ التحول والتغير ناموس عام للطبيعة فليس فى العالم المادى أصل ثابت وموجود خالد فكيف تبقى القوانين الاسلامية خالدة عبر القرون والاجيال ؟ والاجابة عنه .

٤ ـ اختلاف ألوان الحياة يقتضى تطوراً فى قوانين المجتمع فلا يصح ادارة المجتمعات المتحولة بقوانين ثابتة ؟ والاجابة عنه .

٥ ـ كلما تكاملت نواحى الحضارة واجه المجتمع أوضاعاً واحداثاً جديدة ولاجل ذلك فهو يحتاج الى قوانين وتشريعات جديدة ، فكيف القوانين المحدوة بالحاجات المتزايدة غير المحدودة ؟ والاجابة عنه ببيان أصول :

٦ ـ الاعتراف بحجية العقل فى مجالات خاصة .

٧ ـ الاحكام تابعة للمصالح والمفاسد .

٨ ـ التشريع الاسلامى ذو مادة حيوية .

٩ ـ فتح باب الاجتهاد يملا الفراغ .

١٠ ـ حقوق الحاكم الاسلامى .

١١ ـ مرونة الاحكام الاسلامية .

١٢ ـ الاسلام دين جامع والامة الاسلامية أمة وسط .

١٣ ـ النظر الى الحقائق لا المظاهر .

١٤ ـ الاحكام التى لها دور التحديد .

اسئلة حول الخاتمية

ان من شيم العصر الالحادى الحاضر ، كثرة السؤال والتشكيك فى كل شيء، خصوصاً فيما يرجع الى المبدأ والمعاد، والمعارف الغيبية اى المسائل الراجعة الى ما وراء الطبيعة ، ولـم تسلم مسألة خاتمية الرسول الاعظم (ص) من هذه التشكيكات، فقد كثر السؤال وطال الحوار والنقاش حولها ، ونحن نذكر تلكم الاسئلة الدارجـة فى الاذهان والافهام ونعترف بأن بعضها أو كثيراً منهـا جدير بالبحث والتمحيص أكثر ، مما بحثنا عنه .

السؤال الاول :

وحاصله : هب انه ختمت النبوة التشريعية ، فلماذا ختمت التبليغية منها؟

توضيحه : ان النبي اذا بعث بشريعة جديدة وجاء بكتاب جديد ، فالنبوة تشريعية وأما اذا بعث لغاية الدعوة والارشاد الى أحكام وقوانين سنها الله سبحانه على لسان نبيه المتقدم ، فالنبوة تبليغية .

والقسم الاول من الرسل، قد انحصر فى خمسة، ذكرت أسماؤهم فى القرآن والنصوص المأثورة ، امـا الاكثرية منهم ، فكانوا من القسم الثاني وقـد بعثوا

لترويج الدين النازل على أحد هؤلاء فكانت نبوتهم تبليغية (١) .

حينئذ ، فقد يسأل سائل ويقول : هب أن نبي الاسلام جاء بأكمل الشرايع وأتمها وأجمعها للصلاح وجاء بكل ما يحتاج اليه الانسان ، فى معاشه ومعاده ، الى يوم القيامة ولم يبق لمصلح رأي ولمتفكر نظر، فى اصول الاصلاح وأسسه، لان نبينا (ص) قد أتى بصحيح الرأي وأتقنه وأصلحه فى كافة شؤون الحياة ومجالاتها ولاجل ذلك الاكتمال أوصد باب النبوة التشريعية .

ولكن لماذا اوصد باب النبوة التبليغية التي منحها الله للامم السالفة فان الشريعة مهما بلغت من الكمال والتمام لاتستغني عمن يقوم بنشرها وجلائها وتجديدها، لكي لاتندرس ويتم ابلاغها من السلف الى الخلف بأسلوب صحيح، فلماذا أوصد الله هذا الباب بعد ما كان مفتوحاً فى وجه الامم الماضية ، ولماذا منح الله سبحانه هذه النعمة على السالف من الامم وبعث فيهم أنبياء مبلغين ومنذرين وحرم الخلف الصالح من الامم منها ؟.

الجواب :

ان انفتاح باب النبوة التبليغية فى وجه الامم السالفة وايصاده بعد نبي الاسلام ليس معناه أن الامم السالفة استحقت هذه النعمة المعنوية ، لفضيلة تفردت بها ، دون الخلف الصالح من الامم ، أو أن الامة الاسلامية حرمت لكونها أقل شأناً وأهون مكانة من الامم الخالية ـ كلا ـ بل الوجه ان الامم السالفة كانت محتاجة اليها دون الامة الاسلامية ، فهي فى غنى عن أي نبي مبلغ يروج شريعة نبي الاسلام .

وذلك ان المجتمعات تتفاوت ادراكا ورشداً، فرب مجتمع يكون فى تخلقه

(١) الكلمة الدارجة لمعنى التبليغ فى البيئات العربية هى كلمة «التبشير» ولكن كلمة «التبليغ» أولى وأليق بهذا المعنى ، فهى مقتبسة من القرآن ، ومدلولها اللغوى منطبق على المقصود كل الانطباق .

كالفرد القاصر ، لايقدر على أن يحتفظ بالتراث الذي وصل اليه ، بل يضيعه كالطفل الذي يمزق كتابه ودفتره غير شاعر بقيمته.

ورب مجتمع بلغ من القيم الفكرية والاخلاقية والاجتماعية ، شأواً بعيداً يحتفظ معه بتراثه الديني الواصل اليه، بل يستثمره استثماراً جيداً فهو عندذاك غني عن كل مروج يروج دينه ، أو مبلغ يذكر منسيه أو مرب يرشده الى القيم الاخلاقية، أو معلم يعلمه معالم دينه ويوضح له ما أشكل من كتابه، الى غيرذلك من الشؤون ، فأفراد الامم السالفةكانوا كالقصر، غيربالغين فىالعقليةالاجتماعية فما كانوا يعرفون قيمة التراث المعنوي الذي وصل اليهم ، بل كانوا يلعبون به لعب الصبي بكتابه ، بتحريفهم له وتأويله بما يتوافق مع أهوائهم ومشاربهم ، ولذا كان يحل بالشريعة ، اندراس بعد مضى القرون والاجيال ويستولي عليها الصدأ بعد حقبة من الزمان .

لهذا ولذلك كان على المولى سبحانه أن يبعث فيهم نبياً ، جيلا بعدجيل، ليذكرهم بدينهم الذي ارتضاه الله لهم ، ويجدد شريعة من قبله ويروج قوله وفعله ويزيله ماعلق بها من شوائب بسبب أهواء الناس وتحريفاتهم. وأما المجتمع البشري بعد بعثة الرسول (ص) ولحوقه بالرفيق الاعلى ، فقد بلغ من المعرفة والادراك والتفتح العقلي والرشد الاجتماعي شأواً يتمكن معه من حفظ تراث نبيه وصيانة كتابه عن طوارق التحريف والضياع، حتى بلغت عنايته بكتابه الديني الى تصنيف أنواع التأليف فى أحكامه وتفسيره وبلاغته ومفرداته واعرابه وقرائته فازدهرت تحت راية القران ضروب من العلوم والفنون .

فلاجل ذلك الرشد الفكري فى المجتمع البشري ، جعلت وظيفة التبليغ والانذار ، على كاهل نفس الامة حتى تبوأت وظيفة الرسل من التربية والتبليغ، واستغنت عن بعث نبي مجدد على طول الزمان يبلغ رسالة من قبله .

فاذا قدرت الامة على حفظ ماورثته عن نبيها، ونشره بين الناس فى الافاق،

ومحو كل مطمع فيه وهدم كل خرافة تحدثها يد التحريف ، استغنت طبعاً عن قائم بهذا الامر سوى نفسها .

لقد ظهرت طلائع هذا التفويض من أول سورة نزلت على النبي (ص) حيث خاطبه الله سبحانه، فى اليوم الذي بعثه رسولا الى الناس وهادياً لهم بقوله: « اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم، الذي علم بالقلم ، علم الانسان مالم يعلم » (العلق ١ - ٤) .

وهذا الخطاب يؤذن بأن دينه ، دين التلاوة والقرائة ، دين العلم والتعليم، دين القلم والتحرير ، وان هذا الدين سوف يربي امة ، مفكرة ، متحضرة ، عالمة بقيمة التراث الذي يصل اليها ، قادرة على حفظ هذا الدين فى ضوء العلم والفكر ، مستعدة لنشر تعاليمه فى أقطار العالم وأرجاء الدنيا ، بأساليب صحيحة .

وقد بلغت عناية الاسلام بالقلم والكتابة، الى حد أن أقسم سبحانه « بالقلم وما يسطرون» وأنزل سورة باسمه، تمجيداً له وحثاً للامة على تقديره والعناية به ، ليكون رائداً للتقدم والحضارة والمعرفة ، ويصير أحسن ذريعة الى حفظ التراث بلا حاجة الى مبلغ سماوي .

ثم انه سبحانه ، صرح بهذا التفويض أي تفويض أمر التبليغ الى نفس الامة في غير موضع من كتابه، منها قوله سبحانه: « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم ، لعلهم يحذرون »

(التوبة - ١٢٢)

ومنها قوله سبحانه: «ولتكن منكم امة يدعون الى الخير، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » (آل عمران - ١٠٤)

ومنها قوله سبحانه : « كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » (آل عمران - ١٠)

وفى السنن والاحاديث تصاريح بذلك ، نكتفى بما يلي :

قال الباقر (ع) : «ان الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، سبيل الانبياء، ومنهاج الصلحاء ، وفريضة بها تقام الفرائض، وتأمن المذاهب، وتحل المكاسب وترد المظالم ، وتعمر الارض وينتصف من الاعداء ويستقيم الامر » (١).

ولعل فى قوله (ع) : « سبيل الانبياء » اشارة الى أن هذا الامر موكول الى الامة بعد انقطاع الوحى وايصاد باب النبوة .

وقال رسول الله : اذا ظهرت البدع : فليظهر العالم علمه ، فمن لم يفعل، فعليه لعنة الله (٢) .

ثم ان هناك جواباً آخر، ربما يكون ملائما لاصول الشيعة الامامية فى مسئلة الامامة والخلافة ولاجل ايقاف القارىء الكريم عليه نأتى به اجمالا ولا يعلم الا بالوقوف على معنى الامامة لدى الشيعة ودور أهل البيت فى اكمال الدين .

دور أهل البيت فى اكمال الدين وختم الرسالة :

ان للشيعة الامامية، نظراً خاصاً فى كيفية استغناء الامة الاسلامية عن ضرورة استمرارية النبوة وتواصلها بعد لحوق النبى الاكرم (ص) بالرفيق الاعلى ، وعمدة ذلك هو ثبوت نظرية الامامة التى تتبناه الشيعة الامامية في باب الولاية الالهية والخلافة بعد رسول الله .

فالامامة عندهم عبارة عن الولاية الالهية العامة على الخلق فيما يختص بشؤونهم الدينية والدنيوية وهى مستمرة بعد قبض النبى الاعظم ، لم يوصد بابها بل انه مفتوح الى أن يشاء الله ايصاده ، وانما الذي ختم بالنبى الاعظم هو باب النبوة التى هى تحمل النبأ عن الله سبحانه، وباب الرسالة التى هى تنفيذ ما تحمله النبى

(١) وسائل الشيعة كتاب الامر بالمعروف الباب الاول الحديث ٦ .

(٢) المصدر نفسه الباب الاربعون الحديث ١ .

عن الله سبحانه بين الامة (١) .

هذه الولاية الالهية غير النبوة والرسالة وان كانت تجامعهما تارة وتفارقهما أخرى فقد تمثلت المناصب الثلاثة فى شخص ابراهيم .

اذ كان عليه السلام يمثل منصب الامامة، كما كان يمثل منصبي النبوة والرسالة ولقد حباه الله سبحانه منصب الامامة ، بعد ما منحت له النبوة وأرسله رسولا ويدل على ذلك قوله سبحانه: « انى جاعلك للناس اماماً » (البقرة ـ ١٢٤) (٢).

والائمة الاثنا عشر لدى الامامية يمثلون منصب الامامة ، من دون ان يكونوا أنبياء أو رسلا ، فهم أئمة الدين ، وأولياء الله بين الامة ، ولهم رئاسة الهية عامة دينية ودنيوية على وجه يوجب على الامة الانقياد لهم وهم حجج الله على عباده يهتدى بهم اليه سبحانه ولا تبقى الارض بغير امام حجة لله على عباده (٣) .

والباعث على انفتاح باب الولاية الالهية فى وجه الامة ، بعد ختم النبوة و الرسالة وايصاد بابها بالتحاق الرسول الكريم بالرفيق الاعلى امور نشير الى واحد منها (٤) .

لا يختلف اثنان من المسلمين بانقطاع وحى السماء عن وجه الارض بموت

---

(١) سيوافيك توضيح الفرق بين النبوة والرسالة فى الجزء الرابع من كتابنا هذا .

(٢) روى ثقة الاسلام الكلينى عن جابر عن ابى جعفر الباقر (ع) قال سمعته يقول: ان اتخذ ابراهيم عبداً قبل أن يتخذه نبيا واتخذه نبيا، قبل أن يتخذه رسولا، واتخذه رسولا قبل ان يتخذة خليلا ، واتخذه خليلا قبل ان يتخذه اماماً ، فلما جمع له هذه الاشياء وقبض قال له يا ابراهيم انى جاعلك للناس اماماً فمن عظمها فى عين ابراهيم قال يارب ومن ذريتى قال لاينال عهدى الظالمين (الكافى باب طبقات الانبياء والرسل ج١ ص١٧٥) .

(٣) هكذا وصف الامام باقر العلوم، راجع الكافى باب « ان الارض لاتخلو من حجة» ج١ ص ١٧٨ .

(٤) قد اوضحنا تلك الامور فى الجزء الثانى من هذه الموسوعة فلاحظ بحث : صيغة الحكومة الاسلامية بعد النبى (ص) .

النبى وقبضه كما لا يختلفان فى ان النبى قـام بمهمة التشريع والتبليغ وتثقيف الامة الاسلامية بالثقافة الدينية وبث العقيدة الدينية فيهم وحفظ الشريعة عن شبهات المنكرين وارجاف المرجفين بأحسن الوجوه وأكملها وقال سبحانه : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » (المائدة ـ٣) غير انه (ص) كان يراعي فى نشر الاحكام حاجة الناس ومقتضيات الظروف فكانت هناك أمور مستجدة ومسائل مستحدثة، لم تكن معهودة في زمن الرسول ولم يأت بها نص فى الكتاب الكريم وسنته الثابتة ، ولم يتسن للنبي الاشادة بها اما لتأخر ظروفها أو لعدم تهيأ النفوس لها أو لغير ذلك من العلل .

وقد ظهرت بوادر هـذا الامر عند ما اتسع نطاق الاسلام وضرب بجرانه خارج الجزيرة العربية وطفق المسلمون يخوضون في غمار معارك طاحنة وحروب دامية ، يفتحون البلاد ويخالطون الامم ففوجئوا بمسائل مستجدة لم يعرفوا لها حلا فى الكتاب الكريم ولا فى سنة نبيهم مع ان الله سبحانه كان قد أخبر فى كتابه عن اكمال الدين واتمام النعمة وبناء على هذا فاننا نستكشف أن النبى ايفاء لغرض التشريع استودع معارفه عند من يقوم مقامه ويكون له من الصلاحيات ماتخوله للقيام بمثل هذا الامر الخطير .

والى ذلك يشير باقر العلوم بقوله مخاطباً لهشام بن عبد الملك بن مروان: انا نحن نتوارث الكمال والتمام اللذين أنزلهما الله على نبيه (ص) فى قوله : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » والارض لا تخلو ممن يكمل هذه الامور التى يقصر غيرنا عنها (١) .

ثم ان الكتاب الكريم الذي هو أحد الثقلين فيه محكم ومتشابة وعام وخاص ومطلق ومقيد ومنسوخ وناسخ ، يجب على الامة عرفانها ، اذ الجهل بها يوجد اتجاهات مذهبية متضاربة . غير ان تفسير المتشابه من دون الاستناد الى ركن

(١) بحار الانوار ج ٤٦ ص ٣٠٧ .

وثيق يورث اختلافاً عنيفاً بين المسلمين ، وتفسير المجمل وتفصيل المعضل وتشخيص المنسوخ عن ناسخه يحتاج الى احاطة كاملة بمفاهيم الكتاب وتشريعاته جليلها ودقيقها وهو ليس الا النبى الاكرم (ص) ومن يتلو تلوه .

فلاجل رفع هذه المحاذير يجب عليه سبحانه حفاظاً على وحدة الامة وصيانتها عن الشرود فى متاهات الضلال ان يشفع كتابه بميزان آخر ، وهاد يدعم أمره ، ومعلم يوضح لهم أسراره، ليرجع اليه المسلمون حتى يكتمل به غرض التشريع ويرتفع التضارب والخلاف فى الشؤون الدينية .

والى ذلك يشير قوله (ص) : اني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وأهل بيتى وانهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض (١) ، وقال (ص) : انى أوشك ان ادعى فأجيب وانى تارك فيكم الثقلين كتاب الله عزوجل وعترتى ، كتاب الله حبل ممدود من السماء الى الارض وعترتى أهل بيتى وان اللطيف الخبير أخبرنى انهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض فانظروا كيف تخلفونى فيهما (٢) .

وهذا هو الامام الصادق (ع) يعرف الامام ومكانته العظيمة بقوله: ان الارض لا تخلو وفيها امام، كيما ان زاد المؤمنون شيئاً ردهم وان نقصوا شيئاً اتمه لهم(٣).

---

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه ج ٣ ص ١٤٨ ، وقال هذا حديث صحيح الاسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

(٢) مسند أحمد ج ٣ ص ١٧ و ٢٦ وللحديث صور كثيرة كلها تنص على وجوب التمسك بأهل بيته وعترته (ص) وطرقها عن بضع وعشرين صحابياً متضافرة ، وقد صدع بها رسول الله فى مواقف له شتى: يوم غديرخم ، يوم عرفة فى حجة الوداع ، بعدانصرافه من الطائف ، على منبره فى المدينة ، وفى حجرته فى أخريات أيامه .

وقد أنهى اسناده العلامة الجليل، السيد مير حامد حسين فى بعض أجزاء كتابه الكبير « العبقات » وطبع فى ستة أجزاء بايران وفاح أريجه بين لابتى العالم وقد اغرق نزعاً فى التحقيق ، ولم يبق فى القوس منزعاً ، وقد أغنانا كتابه عن الافاضة والبحث .

(٣) الكافى ج ١ ص ١٧٨ .

وأبلغ تعبير عن حقيقة الامامة عند الشيعة ما روي عن الامام الطاهر علي بن موسى الرضا في حديث طويل وفيها : ان الامامة منزلة الانبياء وارث الاوصياء ان الامامة خلافة الله وخلافة الرسول، الامامة زمام الدين ونظام المسلمين وصلاح الدنيا وعز المؤمنين ، ان الامامة اساس الاسلام النامي وفرعه السامي.

الامام يحل حلال الله ويحرم حرام الله ، ويقيم حدود الله ويذب عن دين الله ويدعو الى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة والحجة البالغة(١).

وبذلك تعرف وجه غنى الامة الاسلامية بعد النبى عن أي نبي مروج وأية نبوة تبليغية ، ويتضح ان الاسلام في تخطيطه المبدئى ، قد فرض انه (بعد انتهاء وظيفة النبى الاعظم وقطعه اشواطاً بعيدة فى الجهات المختلفة المتقدمة) يتكفل القيادة المعصومة من بعده من يقوم مقامه بنصه سبحانه وتعيينه ، وله من الشرائط ما للنبي سوى ما يختص به على ما تبين فى محله حتى تنتهى هذه العملية الى مراحلها النهائية المفروضة .

ولايضير الاسلام فى شيء ان تكون الامة قد انحرفت عن الخط المفروض لها من قبل الله سبحانه، وتجاوزت عن كل الضمانات التي وضعها لتنفيذ مخططه الالهى .

وفى الختام نقول : ان التاريخ ليشهد بأنه ما من امام من أئمة الشيعة الاثنى عشرية الا وقد قام بأعباء مهمة الامامة خير قيام، وان حياة كل منهم كانت مشحونة بالعمل المتواصل في سبيل ايصال مفاهيم الاسلام الصحيحة الى الامة ولقد عانوا في ذلك من المشاق ولا قوا من الاهوال مالاقاه النبى الاكرم (ص) .

فعندذاك استغنت الامة الانسانية بشكل عام والمسلمون بشكل خاص، بتعاليمهم الدائرة حول نطاق رسالة جدهم السماوية، عن استمرارية كلتا النبوتين، وبصورة خاصة التبليغية منها .

* * *

(١) الكافى ج١ ص٢٠٠ .

السؤال الثانى :

« لماذا حرم الخلف مـن الامم ، من المكاشفة الغيبية ، والاتصال بالملاء الاعلى ، واستطلاع ما هنا لك من معارف وحقائق » ؟

يقول السائـل : ان النبوة منصب معنوي ورقي روحـي ، تقدر معه النفس على الاتصال بالملا الاعلى، والاطلاع على ما هنا لك من معارف عقلية، والتحدث مع الوحي الالهى ، الى غير ذلك من الفيوضات المعنوية ، ولكن هذا الباب قد اوصد بعد اكمال الشريعة الاسلامية وختم النبوة .

هب أن الشريعة الاسلامية ، هى أكمل الشرائع ، وان الخلف مـن الامم قادر على حفظ تراثه الديني، ولاجل ذلك اوصد باب النبوة التشريعية والتبليغية ولكن لماذا انقطعت الفتوحات الباطنية والمحادثة مع ملائكته سبحانه، أو القاء الحقائق في روع الانسان ، الى غير ذلك من الفيوضات السماوية ، فهذه الامور كلها من لوازم النبوة ، فلا يعقل انفتاحها مع ايصاد بابها . . .

ثم انه لماذا كان باب هذا الفيض مفتوحاً فى وجه الامم السالفة، وحرم منها الخلف الصالح بعد النبي؟ هل كانت الامم السالفة أولى وأجدر بهذه النعمة ؟ وهل الامة المتأخرة عنهم أقل جدارة بها واستحقاقاً لها ؟ ! .

الجواب :

ليس الاطلاع على ما احتجب عـن عامة الناس من الحقائق ، مـن لوازم النبوة ، حتى ينسد بابه بانسداد بابها ، ولا الخلف محروم من الفيض الذي كان مفتوحاً في وجه الامم السالفة ، فان الولاية الالهية التى تلازم تلكم الفتوحات الباطنية ، ليست من خصائص النبوة وتوابعها ، حتى تنقطع بانقطاعها ، بل هي كرامة الهية يرزقها سبحانه ، المخلصين من عباده ، المتحلين بفضائل الاخلاق المطهرين عن درن الشرك ولوث المعاصى ، الى غير ذلك من صفات كريمة .

والنبوة باب خاص من الولاية تستتبع تحمل الوحى التشريعى أو التبليغى فيوصدبابه بايصاد بابها، وأماسائرالفتوحات الباطنية من المكاشفات والمشاهدات الروحية والايحاءات الملكوتية ، فلم يوصد بابها قط .

وللتوضيح نحن نتساءل : ماذا أراد السائل من ايصاد باب الاتصال ، بختم باب النبوة ؟

فان أراد الاتصال بالله ومعرفة أسمائه وصفاته والوقوف على ما هنا لك من معارف عن طريق البرهنة والاستدلال والتدبر فى آياته الافاقية ، فهذا الطريق مفتوح الى يوم القيامة فى وجه من أراد الاطلاع على حقائق الكون ورقائقه ، وما وراء الحس من عوالم ودقائق .

وقد قال سبحانه : « سنريهم آياتنا في الافاق وفى أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك انه على كل شيىء شهيد . . . »

(فصلت ـ ٥٣) (١)

---

(١) نعم ربما تفسر الاية بوجه آخر تسقط معه دلالتها على ما نرتئيه وهـو ان المراد ما يسر الله عزوجل لرسوله والمسلمين من بعده فى آفاق الدنيا وارجاء العالم من الفتوح التى لم يتيسر أمثالها لاحد من الجبابرة والاكاسرة وتغلب قليلهم على كثير من اعدائهم وتسليط ـ

وقال سبحانه : «وفى الارض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون» (الذاريات ٢٠ - ٢١)

ولو أراد معرفة ربه وأسمائه وصفاته ، وعظمته وكبريائه ، وما هناك من مقامات ودرجات ، بلا توسيط برهان ، أو تسبيب دليل ، بل مشاهدة بعين قلبه وبصر روحه ، وبعبارة أوجز: شهود الحقائق العلوية، وانكشاف ماوراء الحس والطبيعة، من العوالم الروحية، والمشاعر الالهية، ومعرفة مايجرى عليه قلمه تعالى في قضائه وقدره والاتصال بجنوده وملائكته واستماع كلامهم ووحيهم وصوتهم الى غيرذلك من الامور، فهذا مقام خطير، يحصل للعرفاء الشامخين المخلصين من عباده ، المطهرين من اللوث والدنس ، المتحررين عن قيود الطبيعة ، الحابسين أنفسهم فى ذات الله ، الحاكمين بالكتاب ، العاملين بسننه وسنن نبيه حسب اخلاصهم وعرفانهم ، حسب استعدادهم وقابليتهم ، حسب مالهم من المقدرة والطاقة ، لتحمل عجائب الحقائق الغيبية ، ومشاهدة جلال الله وجماله وكبريائه وعظمته، وما لاوليائه من مقامات ودرجات، وما لاعدائه من نارولهيب ودركات .

ثم ان لاهل السلوك والعرفان كلاماً فى المقام، لا يخلو عن فائدة، وخلاصته:

ان اليقين الحقيقى النورانى المنزه عن ظلمات الاوهام والشكوك، لايحصل من مجرد اعمال الفكر والاستدلال، بل يتوقف حصوله على الرياضة والمجاهدة وصقل النفس وتصفيتها عن كدورات ذمائم الاخلاق، وازالة الصدأ عنها، ليحصل لها التجرد التام ، والسر أن النفس بمنزلة المرآة تنعكس على صفحتها الصور

ـ ضعافهم على أقويائهم ونشر دعوة الاسلام فى الاقطار المعمورة وبسط دولته فى أقاصيها. فهذه الامور الخارقة للعادة يقوى معها اليقين ويزداد بها الايمان ، ويتبين ان دين الاسلام هو دين الحق الذى لايحيد عنه الامكابر .... راجع الكشاف ج ٣ ص ٧٥ وما حققناه حول الايه فى الجزء الاول من هذه الموسوعة ص ١٧٣ .

المتعلقة بالموجودات الخارجية، ولا ريب في أن انعكاس الصور من ذواتها على المرآة، يتوقف على تمامية شكلها وصفاء جوهرها، وحصول مايتمكن انعكاسه عليها وارتفاع الحائل بينهما، والظفر بالجهة التى فيها الصور المطلوبة، كذلك يجب فى انعكاس حقايق الاشياء من العقل على النفس ، تحقق أمور :

١ ـ عدم نقصان جوهرها ، بأن لا تكون كنفس الصبي التى لا تتجلي لها المعلومات ، لنقصانها .

٢ ـ صفاؤها عن كدورات ظلمة الطبيعة ، وخبائث المعاصي ، وهو بمنزلة الصيقل عن الخبث والصدأ .

٣ ـ توجهها التام وانصراف فكرها الى المطلوب ، بأن لا يكون غارقاً فى الامور الدنيوية ، وهو بمنزلة المحاذاة .

٤ ـ تخليتها عن التعصب والتقليد ، وهو بمنزلة ارتفاع الحجب .

٥ ـ التوصل الى المطلوب بتأليف مقدمات ، مناسبة للوصول اليه على الترتيب المخصوص والشرائط المقررة ، وهو بمنزلة العثور على الجهة التى فيها الصورة .

ولولا هذه الاسباب المانعة للنفوس عن افاضة الحقائق اليقينية اليها، لكانت عالمة بجميع الاشياء المرتسمة فى العوالم الروحانية .

اذ كل نفس لكونها أمراً ربانياً وجوهراً ملكوتياً بحسب الفطرة صالحة لمعرفة الحقائق فحرمان النفس عن معرفة حقائق الموجودات انما هو لاحد الموانع .

وقد أشار سيد الرسل الى أن كدورات المعاصي وصدأها مانعة عن ذلك بقوله (ص) لولا ان الشياطين يحومون على قلوب بني آدم، لنظروا الى ملكوت السماوات والارض .

فلو ارتفعت عن النفس ، حجب السيئات والتعصب ، وحاذت شطر الحق الاول لتجلت لها صورة عـالم الملك والشهادة بأسرها ، اذ هو متناه يمكن لها الاحاطة به ، وصورة عالمى الملكوت والجبروت، بقدر مايتمكن منه، بحسب مرتبته (١) .

فالعارف الشامخ فى عالم المعرفة ، اذا اتصف بما ذكرناه : « صار سمع الله الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذى ينطق به ، ويده التى يبطش بها ، ان دعاه أجابه ، وان سأله أعطاه » (٢) .

فالفتوحات الباطنية من المكاشفات والمشاهـدات الروحية والالقاءات فى الروع ، غير مسدودة بنص الكتاب العزيز :

١ ـ قال سبحانه : « يـا أيها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً » (الانفال ـ ٢٩) أي يجعل فى قلوبكم نوراً تفرقون به بين الحق والباطل وتميزون به بين الصحيح والزائف . لا بالبرهنة والاستدلال ، بل بالشهود والمكاشفة .

٢ ـ وقال سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم » (الحديد ـ ٢٨)

ان صاحب الكشاف ومـن لف لفه وان فسره بقوله : « ويجعل لكم يـوم القيامة نوراً تمشون به » الا أن الظاهر خلافه ، وان المراد النور الـذي يمشى المؤمن فى ضوئه طيلة حياته، فى معاشه ومعاده ، فى دينه ودنياه ، وهذا النور الذي يحيط به ويضيىء قلبه ، نتيجة ايمانه وتقاه ويوضحه قوله سبحانه: « أومن

(١) جامع السعادات ج ١ ص ١٢٥ ـ ١٢٦ ولاحظ مقدمة ابن خلدون .

(٢) وسائل الشيعة ، كتـاب الصلاة ابواب اعداد الفرائض ونوافلها ـ الباب ١٧ الحديث ٦ .

كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس » (الانعام - ١٢٢)

٣ - وقال سبحانه : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا »

(العنكبوت - ٦٩)

وقال تعالى : « واتقوا الله ويعلمكم الله ، والله بكل شيىء عليم »

(البقرة - ٢٨٢)

فان عطف الجملة الثانية على الاولى يحكي عن صلة بين التقى وتعليمه سبحانه .

٥ - وقال سبحانه : «كلا لو تعلمون علم اليقين.لترون الجحيم »

(التكاثر ٥ - ٦)

فان الظاهر ان المراد رؤيتها قبل يوم القيامة ، رؤية البصيرة ، وهى رؤية القلب التي هى من آثار اليقين على ما يشير اليه ، قوله تعالى : « وكذلك نري ابراهيم ملكوت السماوات والارض وليكون من الموقنين » (الانعام - ٧٥)

وهذه الرؤية القلبية غير محققة قبل يوم القيامة لمن الهاه التكاثر بل ممتنعة فى حقه لامتناع اليقين عليهم .

والمراد من قوله: « ثم لترونها عين اليقين » هومشاهدتها يوم القيامة بقرينة قوله سبحانه بعد ذلك : « ثم لتسألن يومئذ عن النعيم » فالمراد بالرؤية الاولى رؤيتها قبل يوم القيامة ، وبالثانية رؤيتها يوم القيامة (١) .

٦ - وقال سبحانه: « والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم » (محمد - ١٧) فلو ان الانسان جعل نفسه فى مسير الهداية ، وطلبها من الله سبحانه زاده تعالى هدى وآتاه تقواه .

٧ - وقال سبحانه: «انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى» (الكهف -١٣) والاية تبين حال أصحاب الكهف الذين اعتزلوا قومهم، وتغربوا لحفظ ايمانهم

(١) الميزان ج ٢٠ ص ٤٩٦ - ٤٩٧ .

ودينهم فزاد الله من هداه في حقهم وربط على قلوبهم كما يقول سبحانه :

٨ ـ « وربطنا على قلوبهم اذ قاموا فقالوا ربنا رب السماوات والارض لن ندعوا من دونه الهاً لقد قلنا اذاً شططاً » (الكهف ـ ١٤)

فالقرآن يصرح بانفتاح باب الهجرة الى الله ورسوله، والهجرة كما تشمل الهجرة الظاهرية تشمل الهجرة المعنوية ، التي هى عبارة عن السير فى مدارج الكمال والانابة اليه سبحانه .

٩ ـ يقول سبحانه: « ومن يخرج من بيته مهاجراً الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله » (النساء ـ ١٠٠). والى الهجرة المعنوية (هجرة النفوس عن السيئات الى الطاعات) يشير النبي الاكرم (ص) اذ يقول :

« من كانت هجرته الى الله ورسوله ، فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى مال يصيبه فهجرته الى ما هاجر اليه » (١) فحمل الاية والرواية على خصوص الهجرة الظاهرية والخروج عن الاوطان والتغرب لحفظ الايمان هو أحد أبعاد الاية ، فهناك بعد آخر ، وهو حملها على مهاجرة النفوس من الظلمة الى النور ، ومن الضلال الى الهداية ، ويؤيده قوله سبحانه :

١٠ ـ « فالذين هاجروا واخرجوا من ديارهم واوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لاكفرن عنهم سيئاتهم » (آل عمران ـ ١٩٥) . فالمراد من المهاجرة هو الهجرة المعنوية حتى تصح مقابلتها مع قوله سبحانه : «وأخرجوا من ديارهم» الى غير ذلك من الايات والروايات .

نعم كثرت فى القرون الاخيرة، عناية طوائف من صوفية أهل السنة بمسئلة الامامة والامام ومنهم « النجانية » وقد كتب عنهم العقاد فى كتابه « بين الكتب والناس » ومنهم « السنوسية » وقد أفاض فيهم القول البستانى فى دائرة معارفه غير ان فى بعض ماذكروه خداعاً وضلالا ، وللبحث عن ما يدعونه من الكشف

(١) صحيح البخارى ج ١ كتاب الايمان الباب ٤٢ ص ١٦ .

والعرفان مجال آخر لايسعه المقام .

ان الناظر فى نهج البلاغة يجد فى كلام الامام علي (ع) تصريحات واشارات على فتح هذا الباب وعدم ايصاده فالامام عليه السلام يقول :

« قد أحيا عقله ، وامات نفسه ، حتى دق جليله ، ولطف غليظه ، وبرق له لامع، كثير البرق ، فابان له الطريق ، وسلك به السبيل ، وتدافعته الابواب الى باب السلامة، وثبتت رجلاه بطمأنينة بدنه، في قرار الامن والراحة» (١) ويقول:

« هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة ، وباشروا روح اليقين » (٢) .

فهذه الكلمات العلوية تبين جلياً ان القلب يمكن أن يصبح محلا للاشعاع الالهى على مدار الزمان وفى زمن الخاتمية .

وقد روى الفريقان عن الرسول الاكرم (ص) انه قال: من أخلص لله أربعين صباحاً ، فجر الله ينابيع الحكمة من قلبه ، على لسانه (٣) .

وقوله (ص) : « لولا تمريج في قلوبكم وتكثير فى كلامكم ، لرأيتم ما أرى ولسمعتم ما أسمع » (٤) .

وقال الصادق (ع) : « ما أخلص عبد الايمان بالله أربعين يوماً ، الا زهده الله فى الدنيا، وبصره داءها ودوائها، وأثبت الحكمة فى قلبه وأنطق بها لسانه » (٥).

وهناك كلمة طيبة عن الامام أمير المؤمنين، تعرب عن رأي الاسلام فى المقام، قال عليه السلام :

« ان الله تعالى جعل الذكر جلاء للقلوب ، تسمع به بعد الوقرة ، وتبصر به بعد العشوة ، وتنقاد به بعد المعاندة ، وما برح لله ، عزت آلاؤه ، فى البرهة

---

(١) نهج البلاغة الخطبة ٢١٥ .
(٢) نهج البلاغة قصار الكلم الرقم ١٤٧ .
(٣) سفينة البحار ، مادة «خلص» نقله عن عدة الداعى لابن فهد الحلى .
(٤) حديث مشهور .
(٥) سفينة البحار ، مادة «ربع» .

بعد البرهة، وفى أزمان الفترات (١) ، عباد ناجاهم في فكرهم و كلمهم فى ذات عقولهم » (٢) .

فهو عليه السلام يصرح بأن الذاكرين من عباده قد بلغ بهم المقام الى درجة يناجيهم الله فى سرائر ضمائرهم، ويكلمهم من طريق عقولهم، فهل يوجد مقام أرفع من هذا ، أو درجة أشرف من تلك .

وقريب من ذلك مارواه الديلمى فى ارشاده فى خطابات له سبحانه لنبيه فى ليلة المعراج بلفظ «ياأحمد!»، فمن عمل برضائى الزمه ثلاث خصال، أعرفه: «شكراً لايخالطه الجهل ، وذكراً لا يخالطه النسيان، ومحبة لايؤثر على محبتي محبة المخلوقين ، فاذا أحبنى ، احببته وافتح عين قلبه الى جلالى ، ولا أخفى عليه خاصة خلقى ، وأناجيه في ظلم الليل ونور النهار ، حتى ينقطع حديثه مع المخلوقين ومجالسته معهم ، وأسمعه كلامى و كلام ملائكتي وأعرفه السر الذي سترته عن خلقى وألبسه الحياء حتى يستحيى منه الخلق كلهم، ويمشى على الارض مغفوراً له ، وأجعل قلبه واعياً وبصيراً ، ولا أخفى عليه شيئاً من جنة ولا نار ، وأعرفه ما يمر على الناس فى القيامة من الهول والشدة ، وماأحاسب به الاغنياء والفقراء والجهال والعلماء . . الى أن قال : يا أحمد ! أجعل همك هماً واحداً وأجعل لسانك لساناً واحداً ، وأجعل بدنك حياً لا يغفل أبداً ، من غفل عنى ، لا أبالي بأي واد هلك (٣) .

وهذه الرواية توقفنا على أن المعرفة الحقيقية ، التى تحيى بها نفوسنا ، لا تستوفى بالسير الفكري ، ولا يقف السالك فى سبيل الحق على هذه الامور،

---

(١) تخصيص بعد التعميم فلا يضر بالمطلوب لو كان المراد منه الفترة بين المسيح و بعثة الرسول (ص) .

(٢) نهج البلاغة ، الخطبة ٢١٧ .

(٣) ارشاد القلوب للديلمى ص ٣٢٩ .

الا بتهذيب النفوس وتطهير القلوب والانقطاع الى الرب عن كل شيىء ، حتى يرفع دونه كل حجاب مضروب ، وكل غشاء مسدول ، فيعرف ربه وأسماءه وصفاته حق المعرفة، ويشاهده بعين القلب ويسمع كلامه وكلام ملائكته، ويرى عظمته وسر اقادت كبريائه .

فهذه الفتوحات الباطنية بمراتبها ، ميسرة فى وجه الامة ، لم توصد قط .

الاسفار المعنوية الاربعة :

ثم ان للسالك من العرفاء والاولياء أسفاراً، وهى على ماأعتبرها أهل الشهود أربعة :

أحدها : السفر من الخلق الى الحق .

ثانيها : السفر من الحق الى الحق بالحق .

ثالثها : السفر من الحق الى الخلق بالحق .

رابعها : السفر من الخلق الى الخلق بالحق .

فبعض هذه الاسفار وقطع منازلها وان كان يختص بأنبيائه ورسله ، الا أن السفر الاول والثانى ، لا يختصان بهم ، بل يتيسران لكل سالك الهى، لايقصد الا الاناخة في ساحة ربه ، والنزول على طاعته ، بلا استثناء ، ودونك توضيح ذينك السفرين : ففي السفر الاول ، أعني السفر من الخلق الى الحق ، ترفع الحجب المظلمة ، بين السالك وربه ، فيشاهد جمال الحق ويفنى ذاته فيه ، ولاجل ذلك يسمى مقام الفناء . وعند ما ينتهى السفر الاول يأخذ السالك في السفر الثانى ، وهو السفر من الحق الى الحق بالحق وانما يكون بالحق لانه صار ولياً ، وصار وجوده وجوداً حقانياً ، فيأخذ السلوك من موقف الذات الى الكمالات واحداً بعد واحد حتى يشاهد جميع كمالاته فيعلم جميع أسمائه كلها الا ما استأثر به عنده ، فتصير ولايته تامة ، ويفنى ذاته وأفعاله وصفاته فى ذات

الحق وصفاته وأفعاله ، فبه يسمع ، وبه يبصر وبه يمشي وبه يبطش، وحينئذتتم دائرة الولاية .

ولعمري لولا خوف الاطالة ، والخروج عما هو الهدف الاسمى للرسالة، لشرحت للقارىء الكريم ، تلكم الاسفار والمواطن واحداً بعد واحد ، وكفانا ما حبرته يراعة العرفاء الشامخين فى هذا الباب (١) .

وفي الامة الاسلامية رجال مخلصون ، لا يدرك شأوهم ولا يشق غبارهم ، أولئك أولياء الله في أرضه وخلفاءه فى خلقه ، تغبطهم النبوة ، كما قال الرسول (ص) : ان لله عباداً ليسوا بأنبياء ، تغبطهم النبوة (٢) .

هب أن النبوة قدأوصد بابها، الا أن باب الفيض المعنوي، من جانب الامام الحى (عليه السلام) بعد مفتوح لم يوصد (٣) .

وقد حقق فى أبحاث الولاية الالهية ان وجه الارض والمجتمع الانساني

---

(١) راجع تعاليق الاسفار الاربعة ج ١ ص ١٣ - ١٨ للحكيم السبزوارى .

(٢) حكاه صدر المتألهين فى مفاتيح الغيب ، وقال هذ الحديث مما رواه المعتبرون من أهل الحديث ، من طريقة غيرنا نعم لم اقف عليه مسنداً حتى احقق حاله.

(٣) وقد دلت البراهين الكلامية على ان الارض لاتتخلو عن حجة ، وانه لابد للناس فى كل دورة وكورة من امام معصوم يهدى الى الرشد ـ وقدتفردت به الشيعة عن سائر فرق الاسلام .

وقال أمير المؤمنين : اللهم بلى لاتخلو الارض من قائم لله بحجة : اما ظاهراً مشهوراً أو خائفاً مغموراً ، لئلا تبطل حجج الله وبيناته وكم ذا وأين اولئك ؟؟ اولئك ـ والله ـ الاقلون عدداً والاعظمون عندالله قدراً، يحفظ الله بهم حججه وبيناته حتى يودعوها نظراءهم ويزرعوها فى قلوب أشباههم ، هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة وباشروا روح اليقين، واستلانوا ما استوعره المترفون ، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون ، وصحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الاعلى . اولئك خلفاء الله فى أرضه ، والدعاة الى دينه ، آه آه شوقاً الى رويتهم (نهج البلاغة باب الحكم رقم ١٤٧) .

لايخلو أبداً من انسان كامل ذي يقين ، مكشوف له عالم الملكوت ، وله ولاية على الناس فى أعمالهم ، يهديهم الى الحق ويوصلهم الى المطلوب بأمرمن الله سبحانه ، كما هو شأن الامام فى كل عصر ودور ، لقوله سبحانه : « وجعلنامنهم أئمة يهدون بأمرنا ، لما صبروا ، وكانوا بآياتنا يوقنون » (السجده ـ ٢٤) .

فهذا الفيض الالهي والعرفان المعنوي، لم يزل يجري على المجتمع البشري بأمر منه سبحانه، وينزل عليهم من طريق الامام، ليهديهم سبيل الحق، ويرشدهم الى مدارج الكمال ، حسب استعداداتهم وقابلياتهم .

قال سيدنا الاستاذ دام ظله الوارف : انه سبحانه كلما تعرض لمعنى الامامة تعرض معها للهداية ، تعرض التفسير قال تعالى فى قصة ابراهيم « ووهبنا لـه اسحاق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا »

(الأنبياء ـ ٧٣)

وقال سبحانه: «وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون»

(السجدة ـ ٢٤)

فوصفهم بالهداية وصف تعريف، ثم قيد هذا الوصف بالامر فبين ان الامامة ليست مطلق الهداية بل هي الهداية التي تقع بأمر الله ، فالامام هاد يهدي بأمر ملكوتي يصاحبه، فالامامة بحسب الباطن نحو ولاية للناس فى أعمالهم وهدايتهم، ايصالهم الـى الكمال بأمر الله دون مجرد ارائة الطريق الذي هـو شأن النبي والرسول وكل مؤمن يهدي الى الله سبحانه بالنصح والموعظة الحسنة (١).

فهذا الباب من الفتوحات الغيبية والفيوض الالهية مفتوح ، فى وجه الامة لم يوصد أبداً .

مثل الفضيلة والاخلاق

قد كان لامير المؤمنين صفوة من الاصحاب يستدر بهم الغمام ، ويندر مثالهم

(١) الميزان ج ١ ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥ .

فى الدهر ، كزيد وصعصعة ابني صوحان وأويس القرنى والاصبغ بن نباتة ، ورشيد الهجري ، وميثم التمار ، وكميل بن زياد ، وأشباههم ، وكان هؤلاء مثلا للفضيلة وكرم الاخلاص وخزنة للعلم والاسرار، منحهم أمير المؤمنين من سابغ علمه واستأمنهم على غامض أسراره مما لايقوى على احتماله غير أمثالهم فجمعوا العلم ، سره وجهره ، والفضائل ، نفسية وخلقية، ذاتية وكسبية،والعبادة قولا وعملا وجارحة وجانحة، فاكتسبوا من أمير المؤمنين جميع الفعال والخصال وأخذوا عنه أسرار العلم وعلم الاسرار ، حتى زكت بهم النفوس وكادوا ان يزاحموا الملائكة المقربين فى صفوفهم وغبطهم الملا الاعلى على ما اتصفوا به من كمال الذات والصفات، فصاروا أهلا، لان يأتمنهم الامام على نفائس الاسرار وأسرار النفائس فكادوا أن يكونوا بعد التصفية ملائكة مجردة عن النقائص ، لايعرفون الرذيلة ولا تعرفهم .

فهذا ميثم، عظيم من حواري علي، وولي من أوليائه وأحد خريجي مدرسته العالية ، الذين نهجوا فى السير على هداه واتبعوه قائداً وقدوة في أمره ونهيه فصار مستودع أسراره وحقل علومه وخاصة حواريه .

كان رسول الله يخلو بعلي يناجيه، وكانت أم سلمة زوج النبي (ص) تلك البرة الطاهرة ، تلتقط من المناجات دراً ثمينة ، فمما التقطته منها، وصاياه لابى الحسن (ع) في ميثم ، فدخل ميثم على أم سلمة وهو يريد الحج ، فقالت له : طالما سمعت رسول الله يذكرك فى جوف الليل ويوصى بك علياً.

وكان ميثم يصحب الامام أحياناً الى الاماكن الخالية وعند خروجه فى الليل الى الصحراء ، فيستمع منه الادعية والمناجاة ، وكثيراً ما يجلس اليه الامام فى السوق وافواج الناس ذاهبة وآيبة ، ينظرون الامام وهو في دكان « ميثم » يسامره ويحادثه ويلقى اليه دروسه ويميره من العرفان الالهى ، فعلمه علم المنايا والبلايا ، أي علم الاجال وعلم الحوادث والوقائع التي يبتلي بها الناس، حتى

أخبره أنه سيصلب على باب عمرو بن حريث .

لم يكن ميثم فريداً من بين أصحاب الامام وحوارييه، وان كان أحد عظمائهم اذ أنه قد أودع هذا العلم عند من كان يـأتمنه عليه من أفذاذ أصحابه الاخرين ، نظراء رشيد الهجري واويس القرنى وعمار بن ياسر وعمرو بن الحمق الخزاعي وكميل ابن زياد ومن يشابههم فى الايمان الشامخ .

ولولا خوف الاطالة والخروج عـن الغاية ، لنقلنا كثيراً مما دار بينهم من المحادثات حول البلايا والمنايا .

فهذا ميثم نفسه ، وقـد قيد على خشبة الصلب يقول للناس رافعاً صوته ، أيها الناس من أراد أن يسمع الحديث المكنون عن علي بن أبي طالب (ع) قبل أن اقتل فوالله لاخبرنكم بعلم ما يكون الى أن تقوم الساعة ، وما يكون من الفتن (١) .

لم يكن علي (ع) نسيج وحده فى تربية هؤلاء العظماء الذين صقلت نفوسهم وتجلت الهم صور ما فى الكون من الحقائق والموجودات، بل سبقه سيد الرسل فأدب أناساً ، نهجوا فى السير على هداه ، وأتبعوه في أمره ونهيه ، وساروا فى الطريق الذى رسمه لهم ، فكانوا مثلا أعلى للفضيلة وكرم الاخلاق وخزنة للعلم والاسرار، فشاهدوا الخليقة ومافيها من حقائق غامضة، ورأوا ملكوت السماوات والارض ، وعاينوا الحقائق العلويـة والعوالم الروحية ، من قبل أن يخرجوا من الدنيا .

روى أبو بصير عن أبي عبدالله (ع) أنه قال استقبل رسول الله (ص) حارثة بن مالك بن النعمان الانصاري، فقال له : كيف أنت يا حارثة بن مالك؟ فقال:

---

(١) راجع فى ترجمـة ميثم ، كتب الرجال ، ولا سيما « قاموس الرجـال » ج ٩ ص ١٦٤ – ١٧١ ومـا دبجته براعة الاستاذ المغفور له الشيخ محمد حسين المظفر حول حياة ميثم .

يا رسول الله مؤمن حقاً ، فقال رسول الله (ص) : لكل شيىء حقيقة ، فما حقيقة قولك ؟ فقال : يا رسول الله ! عزفت نفسى عن الدنيا ، فأسهرت ليلي وأظمأت هواجري كأنى أنظر الى عرش ربي وقد وضع للحساب ، وكاني أنظر الى أهل الجنة يتزاورون في الجنة وكاني أسمع عواء أهل النارفي النار ، فقال له رسول الله : عبد نور الله قلبه ، أبصرت فاثبت ، فقال : يـا رسول الله ادع الله لي أن يرزقنى الشهادة معك، فقال: اللهم ارزق حارثة الشهادة، فلم يلبث الا أياماًحتى بعث رسول اللهسرية فبعثه فيها فقاتل ، فقتل تسعة أو ثمانية ثم قتل (١) .

أخرج الكلينى عن اسحاق بن عمار ، قال سمعت أبا عبدالله (ع) يقول : ان رسول الله(ص) صلى بالناس الصبح، فنظر الى شاب فى المسجد فقال له رسول الله (ص) كيف أصبحت يا فلان ؟ قـال أصبحت يـا رسول الله موقناً ، فعجب رسول الله من قوله وقـال : ان لكل يقين حقيقة ، فما حقيقة يقينك ؟ فقال : ان يقينى يا رسول الله ، هو الذي أحزنني وأسهر ليلي وأظمأ ، هـواجرى فعزفت نفسى عن الدنيا وما فيها حتى كأني أنظر الى عرش ربي وقد نصب للحساب ، وحشر الخلائق لذلك وأنا فيهم ، وكأني أنظر الى أهل الجنة يتنعمون فى الجنة ويتعارفون، وعلى الارائك متكئون، وكأني أنظر الى أهل النار وهم فيهامعذبون مصطرخون ، وكأني الان أسمع زفير النار ، يدور فى مسامعي فقال رسول الله لاصحابه هذا عبد نور الله قلبه بالايمان (٢) .

هذا هو الايمان المحض والعبودية الخالصة بل انه لشأن لا يتوصل اليه بالحس والعلم .

فكم في الامة الاسلامية مـن ذوي الرتب العلوية ، رجال وأبدال شملتهم العناية الالهية ، فجردوا أنفسهم عـن أبدانهم ، حينما أرادوا ، فعاينوا الحقائق

(١) الكافى ج٢ ص٥٤.

(٢) الكافى ج٢ ص٥٣.

واطلعوا على الاسرار .

وقد تضافرت الاحاديث على أن فى الامة الاسلامية مثل الامم السابقة رجالا مخلصين محدثين (بالفتح) يطلعون على المغيبات بأحدى الطرق التى المحت اليها الروايات .

والمحدث على ما تشرحه الاحاديث من تكلمه الملائكة بلا نبوة ولا رؤية صورة ، أو يلهم له ويلقي فى روعه شيىء من العلم على وجه الالهام والمكاشفة من المبدأ الاعلى أو ينكت له فى قلبه من حقائق تخفى على غيره .

روى البخاري عن النبي (ص) لقد كان فى من كان قبلكم من بنى اسرائيل رجال يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء (١) .

روى شيخ الطائفة باسناده عن أبى عبدالله قال كان علي (ع) محدثاً وكان سلمان محدثاً قال : قلت فما آيـة المحدث قال : يأتيه ملك فينكت في قلبه ومنا من يخاطب (٢) .

قال صدر المتألهين في الفاتحة الحادية عشرة :

« اعلم ان الوحي اذا أريد به تعليم الله عباده ، فهو لا ينقطع أبداً ، وانما انقطع الوحي الخاص بالرسول والنبي من نزول الملك على اذنه وقلبه » (٣).

نعم ليس كل من رمى أصاب الغرض ، وليست الحقائق رمية للنبال، وانما يصل اليها الامثل فالامثل، فلا يحظى بماذكرناه من المكاشفات الغيبية والفتوحات الباطنية الا النزر القليل ممن خلص روحه وصفا قلبه ، كما كان كذلك فى الامم السابقة أيضاً .

* * *

(١) صحيح البخارى ج٢ ص ١٤٩ .

(٢) أمالى الطوسى ص٢٦٠ .

(٣) مفاتيح الغيب ص١٢ .

السؤال الثالث :

« لا تجد فى الكون المادي أمراً خالداً باقياً عبر الاجيال والدهور ، أوليس التحول ناموساً عاماً في الفلسفة؟ !، وهل فى العالم المادي أصل ثابت وموجود خالد ، فكيف يكون الاسلام أمراً ثابتاً ؟

توضيحه :

ان الاسلام قد أعلن بصوت عال أنه دين الله الخالد الى يوم القيامة ، وأنه لا شريعة ولا دين ولا كتاب سماوي بعده، وأن قوانينه وتشريعاته غير متغيرة عبر الاجيال والقرون وأن حلال محمد (ص) حلال الى يوم القيامة وحرامه حرام الى يوم القيامة .

وعند ذاك يعترض السائل ويقول: ان الكون بعامة أجزائه ، بسمائه وأرضه وما تحتويانه ، متغير متبدل ليس لـه أى استقرار وان الحركة والتبدل والتغير فى الكون ناموس عام فى الفلسفة الالهية والماديـة ، وليس لنا فى عالم المادة أصل ثابت أبـداً ، سوى قولنا : « ليس لنا أصل ثابت » ، ومع هـذا الاصل الفلسفى ، كيف يدعي الاسلام بقاءه وثباته ودوامه وصونه عن طوارق التغير والتبدل ؟

الجواب :

قد خلط السائل بين الموجودات الماديـة والنواميس الحاكمة عليها فـان المتغير انما هو الاول ، دون الثانى ، فان السماء وما فيها من الشموس والاقمار

والنجوم متغيرات والارض سهلها وجبلها والبحر وما تنطوى عليه من عظائم الموجودات لا تستقر على حالة واحدة ، بل تتقلب من صورة الى أخرى ومن حالة الى ثانية ، والمادة الخارجية غير منفكة عن الفعل والانفعال فى الاحوال كلها .

هذه هى المادة ، وأما النواميس السائدة عليها فى نفس الامر فهى ثابتة أبدية ولا تتغير ولا يصيبها التبدل ولا تقع فى مجالات الحركة والتحول، مثلا المعادلات الرياضية وقانون الجاذبية والثقل النوعي فى الموجودات وانكسار الضوء وأحكام العدسيات وسرعة النور وغيرها من القوانين الفيزياوية ، ثابتة غير متغيرة، سائدة في كل الظروف والازمنة.

على ان الاسلام السائد على المجتمع البشري طوال القرون والاجيال، والباقى الى مدى الدهور والزمان ، انما هو قوانين سماوية ونواميس الهية شرعت لاصلاح المجتمع واسعاده وليس أمراً مادياً أو ظاهرة من ظواهره حتى يعمه حكم المادة من الحركة والتحول والتبدل، بل قوانين سماوية سنها الله سبحانه لعباده ، ليبلغهم الى مدارج الكمال ومعارج العز . . .

ثم انه ماذا يريد القائل من قوله « ليس لنا أصل ثابت » فهل هى نظرية ثابتة، وفكرة باقية مدى الدهور والايام وأمر غيرمتغير ، أولا ؟ فلو قال بالاول، فقد جاء باصل ثابت ، وامر غيرمتغير، وبالنتيجة يكون قد نقص قاعدته، واصله الذي ركن اليه .

وان قال بالثاني صار الاشكال أعظم اذ يلزم من عدم ثباته ثبات سائر الاصول ودوامها ، اذ المفروض ان قوله : « ليس لنا علم ثابت » ليس حكما ثابتا فيلزم من عدم صدقه، صدق نقيضه ، كما هو شأن المتناقضين.

وبذلك يؤاخذ كل من نفى العلم الصحيح المطلق الصادق فى جميع الادوار والشرائط، لان قولهم هذا (ليس عندنا علما صحيحا مطلقا) قد القي بصورة انه

صحيح مطلق وانه صادق على وجه الاطلاق ، ولو قال بانه قد القي على الوجه الصحيح النسبى يصير الفساد اكثر لانه يستلزم ان يكون غير هذا القول صحيحا مطلقا اذ المفروض ان سلب الاطلاق عن غيره انما هو بالسلب النسبي لا السلب المطلق ولازم ذلك اتصاف سائر الاصول بالصحة الاطلاقية (١) .

* * *

وربما يستدل على لزوم تطور المجتمع بـ «حتمية التاريخ» ويقال : حتمية التاريخ لها دور كبير فى الفلسفة المادية و قد أعتمد عليها فطاحل الماديين وغيرهم وفرعوا عليها فروعاً واستنتجوا منها مسائل كثيرة، وملخص ما يريدون من هذا الاصل :

ان مايحدث فى تاريخ الامم من صعود وتدهور، ومن صلح وسلام، وحرب وكفاح ، واختراع واكتشاف ، وظهور انقلابات وثورات ، وتقدم فى الانتاج والاقتصاد .

وعلى الجملة ما شاهده تاريخ الامم، أو ما نشاهده في الحضارة العصرية من حوادث وطوارىء وتطور في ألوان الحياة وأشكالها كلها ، رهين عوامل فى نفس المجتمع توجب وجودها ضرورية اجتماعية ، ولا يمكن التحرز عنها أبداً ، ويساق المجتمع اليها عنفاً وجبراً بلا ارادة واختيار .

وهذه العوامل الخلاقة ، لالوان الحياة وأشكالها وحوادثها وطوارئها ، لا تدوم على حالة واحدة ، بل تتبدل ويخلفها غيرها ، وهكذا ...

فاذا كان العيش الاجتماعي متطوراً، كسائر الظواهر الطبيعية، تطوراً ضرورياً حتمياً، خارجاً عن ارادة المجتمع واختياره، فكيف يخضع المجتمع المتحول المتطور ، لتشريع لا يتحول ولا يتبدل ؟

---

(١) لاحظ اصول الفلسفة ج ١ ص ٢١٢ - تعريب المؤلف .

الجواب :

وزان حتمية التاريخ عند الماديين ، وزان القضاء والقدر عند الجبرية ، فكما أن هؤلاء يلقون كل حادث وطارىء وكل خير وشر يقع في المجتمع على عاتق القضاء والقدر ، ويريحون أنفسهم عن أية مسؤلية ، كذلك يفعل الماديون ، اذ يلقون كل حادث وطارىء وكل خير وشر في المجتمع ، على عاتق الحتمية التاريخية ، ويريحون أنفسهم عن أية مسؤولية .

لكن هذا الاصل انما يصح في بعض الموارد وليس أصلا كلياً ، صادقاً في عامة نواحي الحياة ، حتى يعود المجتمع البشري آلة صماء مسلوب الارادة والاختيار ولا عمل له الا تحقيق ما تفرضه تلكم العوامل .

ونلاحظ ثانياً أن حتمية التاريخ لا صلة لها بتطور الاجتماع ، وان استنتاج الامر الثاني من الامر الاول غير صحيح جداً ، بل تطوره وثباته تابع لتطور عامل الاجتماع وثباته ، فان كان العامل المحرك للحياة الاجتماعية ثابتاً كان هو ثابتاً ، وان كان ذلك العامل متطوراً .

توضيحه : ان العامل المحرك للحياة ، قد يكون عاملا فطريا فيكون ثابتاً وباقياً وحاكماً ، مادام الانسان موجوداً أو أفراده باقية متسلسلة ، وعندئذ فمقتضى هذا العامل وأثره يبقى في المجتمع ثابتاً لا يتغير ، ولا مجال فيه لتحول ولا تغير .

مثلا ، الميل الجنسي أمر فطرى في الانسان ، له أثر حتمي ودور عظيم في العيش الاجتماعي ومقتضاه في المجتمع هو الزواج ، وبما انه عامل فطري لا عن الانسان ، فلاثره الخلود في المجتمع البشرى .

ودونك مثالا آخر :

التدين والتوجه الى ما وراء الطبيعة ، أمر فطرى في الناس ، وطالما تجمعت الاسباب القاهرة من عنف الجبابرة ، وفتك الطغاة على ان تصرف بني الانسان

عن التدين، فما أستطاعت انتزاعه فالحياة الدينية التي هي جزء من الحياة الاجتماعية موجودة دائماً ، لان لها عاملا فطرياً لايزول .

ونحن نعترف بأن للعوامل الداخلية التي تستمد من طبيعة المجتمع، تأثيراً حتمياً فى تاريخ الحياة الاجتماعية لـلانسان لا يختلف ، وهى أثر محتوم لها ، غير أن جعل حتمية التاريخ مساوية لتطور المجتمع وحوله فى كل زمان غير صحيح أبداً . بل هناك مسألتان :

١ ـ تطور الاجتماع وتبدله فى كل زمان .

٢ ـ حتمية التاريخ .

وليست الاولى من نتائج الثانية، ومن ثمراتها ، بل الاولى تابعة فى الثبات والتحول لعاملها وعلتها ، فان كان عامل الحياة فطرياً ثابتاً ، فأثره حتمي ثابت في العيش الاجتماعى ، وان كان العامل المحرك ، أمراً متغيراً طارئاً غير فطرى فأثره المحتوم فى المجتمع يتغير ويتطور تبعاً لتغيره وتطوره .

مثلا ، استخدام الطبيعة والاستفادة منها فى سبيل الحياة ، أمر فطرى للبشر لكن التوصل الى المقصود والاستفادة منه بـادوات خاصة ، كالسهم والنصل والبعير، ليس أمراً فطرياً، بل هى تتطور ، وتتطور معه صور الاجتماع وأوضاعه.

فالانسان الذى كان يركب الدواب فى قطع المسافات وتأمين المواصلات أخذ فى هذا القرن ، يقطع المسافات ويؤمن مواصلاته بالسيارة والطائرة .

اذن فالقول بتبدل الاشكال والاوضاع الاجتماعية، استناداً الى حتمية التاريخ باطل جداً ، وانما التبدل وعدمه متوقف على العامل المؤثر فيه، فان كان العامل ثابتاً يثبت الوضع الاجتماعي المستند اليه ، وان كان متبدلا يتبدل (١) .

* * *

(١) عن مقال للعلامة الشريف الشهيد مرتضى المطهرى.

السؤال الرابع :

لزوم اختلاف القوانين والمقتضيات باختلاف ألوان الحياة :

ان التطور الاجتماعي يستلزم تطوراً في قوانين الاجتماع، والقانون الموضوع في ظرف خاص ، ربما يكون مضراً أو غير مفيد أصلا في ظرف آخر، ومقتضيات الزمان (القوانين) تختلف باختلاف المجتمعات وألوان الحياة، فما صح الامس لا يصح اليوم ، وما يصح اليوم ، لا يصح غداً .

توضيحه :

ان الهدف من تشريع القوانين والانظمة الخارجية ، فى المجتمع البشرى ليس الا تأمين الحياة الاجتماعية له ، وصونها عن التصادم والجدال وحفظها عن الهلاك والبوار .

فالنظام التشريعي ليس أمراً مطلوباً بالذات ، بل هو ذريعة لتأمين الحياة وحفظها عن التحطم .

وعلى هذا ، قد يعترض بان الحياة الاجتماعية ، لو استمرت على وتيرة واحدة لساغ لاى قانون تشريعى كان سائداً فى الازمنة الغابرة، أن يسود فى جميع الظروف والاجواء ، وأما اذا لم تكن على وتيرة واحدة بل كانت الحياة فى المجتمع الانسانى منذ لجأ الانسان الى الحضارة والعيش الاجتماعي، متحولة ومتغيرة ، فكيف يصح لقانون موضوع في ظرف أن يطبق فى ظرف مباين له.

مثلا : اذا تأمل في الدور الذى كانت وسائل النقل فيه منحصرة فى الجمال وغيرها من المواشي ، وكانت الثروات الطبيعية فيه لا تكاد تستغل باستثناء شيىء قليل فيها ، وكانت أدوات الحروب الطاحنة فيه ، لا تتجاوز السيف والسهم ،

فلايرتاب فى ان الحياة الاجتماعية في ذلك الدور، لاتلتقي مع الدور الذى بلغت فيه حضارة الانسان حداً ، سخر معه الارض والفضاء ووضع أرض القمر تحت قدميه ، واستخدم الكهرباء و البخار ، وأخذ يقطع المسافات البعيدة بالسيارة و الطائرة والصاروخ ، و يواجه العدو فى جبهات الحرب بالقنابل الذرية والهدروجينية، الى غير ذلك من الالات القتالة، فكيف يمكن لقانون واحد، وضع لتأمين الحياة فى مجتمع خاص، ان يسود فى الدورين؟ وهل القوانين الاجتماعية الا «رد فعل» للاوضاع الاجتماعية المتطورة، اذ كلما تغيرت الاوضاع الاجتماعية وتطورت ، فلابد وان يتبعها « رد فعل » فى التغير والتبدل .

الجواب :

ان للانسان مع قطع النظر عما يحيط به من شروط العيش المختلفة ، روحيات وغرائز خاصة تلازمه ، ولا تنفك عنه ، اذ هي فى الحقيقة مشخصات تكوينية له ، بها يتميز عن سائر الحيوانات وتلازم وجوده في كل عصر ولاتنفك عنه بمرور الزمان .

فهاتيك الغرائز الثابتة والروحيات الخالدة ، لاتستغني عن قانون ينظم اتجاهاتها ، وتشريع ينظمها ، وحكم يصونها عن الافراط والتفريط ، فاذا كان القانون مطابقاً لمقتضى فطرته وصالحاً لتعديلها ومقتضياً لصلاحها ومقاوماً لفسادها، لزم خلوده بخلودها ، وثبوته بثبوتها .

والسائل قد قصر النظر على مايحيط به من شروط العيش المختلفة المتبدلة وذهل عن أن للانسان خلقاً وروحيات وغرائز ، قد فطر عليها ، لاتنفك عنه مادام انساناً ، وكل واحد منها يقتضى حكماً يناسبه ولا يباينه ، بل يلائمه ، ويدوم بدوامه ويثبت بثبوته عبر الاجيال والقرون .

ودونك نماذج من هذه الامور ليتبين لك بأن التطور لايعم جميع نواحى

الحياة ، وان الثابت منها يقتضى حكماً ثابتاً لامتطوراً :

١ ـ ان الانسان بما هو موجود اجتماعى ، يحتاج لحفظ حياته وبقاء نسله الى العيش الاجتماعى والحياة ، العائلية، وهذان الامران من اسس حياة الانسان، لاتفتأ تقوم عليهما فى جملة ما تقوم عليه منذ بدء حياته .

وعلى هذا، فاذا كان التشريع الموضوع لتنظيم المجتمع مبنياً على العدالة، حافظاً لحقوق أفراده ، خالياً عن الظلم والجور والاعتساف ، وبعبارة أخرى موضوعاً على ملاكات واقعية ، ضامناً لمصلحة الاجتماع وصائناً له عن الفساد والانهيار ، لزم بقاؤه ودوامه ، مادام مرتكزاً على العدل والانصاف .

٢ ـ ان التفاوت بين الرجل والمرأة أمر طبيعي محسوس، فهما موجودان مختلفان اختلافاً عضوياً وروحياً ، على رغم كل الدعايات السخيفة الكاذبة ، التي تريد ازالة كل تفاوت بينهما ، ولاجل ذلك ، اختلفت أحكام كل منهما عن الاخر، اختلافاً يقتضيه طبع كل منهما، فاذا كان التشريع مطابقاً لفطرتهما ومسايراً لطبعهما ، ظل ثابتاً لايتغير بمرور الزمان ، لثبات الموضوع ، المقتضى ثبات محموله ، حسب الاصطلاح المنطقي .

٣ ـ الروابط العائلية ، كرابطة الولد بالوالدين ، والاخ بأخيه، هي روابط طبيعية ، لوجود الوحدة الروحية ، والوحدة النسبية بينهم ، فالاحكام المتفرقة المنسقة ، لهذه الروابط من التوارث ولزوم التكريم، ثابتة لاتتغير بتغير الزمان.

٤ ـ التشريع الاسلامي حريص جداً على صيانة الاخلاق وحفظها من الضياع والانحلال ، ومما لايشك فيه ، ان الخمر والميسر والاباحية الجنسية . . ضربة قاضية على الاخلاق، وقد عالج الاسلام تلك الناحية من حياة الانسان بتحريمها، واجراء الحدود على مقترفيها ، فالاحكام المتعلقة بها ، من الاحكام الثابتة مدى الدهور والاجيال ، لان ضررها ثابت لايتغير بتغير الزمان ، فالخمر يزيل العقل والميسر ينبت العداوة فى المجتمع والاباحية الجنسية تفسد النسل والحرث

دائماً ، ما دامت السماوات والارض ، فتتبعها أحكامها فى الثبات والدوام .

هذا وأمثاله من الموضوعات الثابتة فى حياة الانسان الاجتماعي قد حددها ونظمها الاسلام بقوانين ثابتة تطابق فطرته وتكفل للمجتمع يتنسيق الروابط الاجتماعية والاقتصادية على أحسن نسق وحفظ حقوق الافراد وتنظيم الروابط العائلية .

وحصيلة البحث ان تطور الحياة الاجتماعية فى بعض نواحيها لايوجب أن يتغير النظام السائد على غرار الفطرة، ولا أن تتغير الاحكام الموضوعة على طبق ملاكات واقعية، من مصالح ومفاسد كامنة فى موضوعاتها ، فلو تغير لون الحياة فى وسائل الركوب، ومعدات التكتيك الحربي و... مثلا ، فان ذلك لايقتضي أن تنسخ حرمة الظلم ووجوب العدل ولزوم أداء الامانات ودفع الغرامات والوفاء بالعهود والايمان و...

فاذا كان التشريع على غرار الفطرة الانسانية ، وكان النظام السائد حافظاً لحقوق المجتمع وموضوعاً على ملاكات فى نفس الامر، تلازم الموضوع فى جميع الاجيال ، فذلك التشريع والنظام يحتل مكان التشريع الدائم .

* * *

المقررات المتطورة فى الاسلام :

ان للانسان مع هذه الصفات والمشخصات الذاتية ، ظروف عيش أخرى زمانية ومكانية ، لاتزال تتغير ، ويتغير معها وضع الانسان ، من حال الى حال ، فمثل هذه الظروف الطارئة تتغير أحكامها بتغيرها .

وفي الفقه الاسلامي ، يطلق على الاحكام المتعلقة بهذه الظروف عنوان «المقررات» كما يطلق على الاحكام المتعلقة بالظروف الثابتة، عنوان «القوانين».

وهذه المقررات ليست بمعزل عن القوانين الكلية الاسلامية ، ولا تكون

اعتباطاً وفوضى بل تجري في ضوء القوانين الكلية الثابتة ، بحيث لاتناقضها ولا تعطلها . وان شئت قلت : ان هنا أحكاماً وخطوطاً عريضة تمثل القاعدة المركزية في التشريع الاسلامي وهي مصونة عن التحول والتبدل، مهما اختلفت الاوضاع وتباينت الملابسات .

وهناك أحكام متفرعة على تلكم الخطوط ، مستخرجة منها ، بامعان ودراية خاصة ، يستنبطها الباحث الاسلامي باستفراغ وسعه على ضوء هذه الخطوط العريضة ، بشرط ان لا يصادمها وهذا القسم من الاحكام يتجدد بتجدد العهود وتباين الظروف وتعدد الملابسات واختلاف الشرائط .

فمن قواعد الدين الاسلامي ما هو خالد وثابت وهو ما يمس الفطرة الانسانية وله صلة بالكون والطبيعة، وما هو متغير ومتبدل ، وهو الذي لايمس واقع العلاقات الاجتماعية والشؤون البشرية ولا يتجاوز حدود الظواهر الاجتماعية وقد منحه هذا التطور ، اسباب الخلود والبقاء والمسايرة مع عامة الحضارات، بشرط ان لا يصطدم التحول على أي أساس مع أسسه ولا يتجاوز حداً من حدوده .

فالحكم الكلي الذي يعالج القضايا البشرية على غرار الفطرة ، وصعيدها الكوني، ثابت وخالد في كل العصور والازمنة، وان تطورت الاوضاع الاجتماعية والسياسية واختلفت حاجات الناس فان الانظمة الاسلامية والدساتير الشرعية ، تساير الفطرة الانسانية الثابتة ، وتوالي الطبيعة الكونية ، ولا تتخلف عنهما قدر شعرة فاذا كان التشريع معبراً عن الكون الثابت ، ومبتنياً عليه ، فيخلد بخلوده، ويدوم بداومه .

أجل ان تقلب الاحوال وتحول الاوضاع الاجتماعية يتطلب تحولا في السنن والانظمة ، وتبدلا في الاحكام والقوانين ، غير انه لا يتطلب تحولا فيما يمس واقع الانسانية السائدة في جميع الاحوال ومختلف الاوضاع ، كما لا يتطلب

تحولا فى القوانين الكونية التي أصبحت تدبر الكون بأصوله الثابتة فلا تتغير النسب الرياضية ولا النتائج الهندسية وان تطورت الاوضاع وتبدلت الحضارات.

وانما المتغير هو المظاهر والقشور ، والشكل التطبيقي لهاتيك الاحكام في مختلف الاوضاع وتطور الاجتماع ، والمتأثر بالاوضاع هو القسم الثانى لا الاول ، ولا ضير فيه فان الدين الاسلامى انما يستعرض القضايا التى تمس واقع البشرية ، والمسائل التى لهاصلة بالكون والطبيعة ويترك التطبيق بعد لنفس المكلف حسب ظروفه وأحواله .

وبذلك تقف على ان التطور والتحول ، فيما كتب له التغير والتبدل جزء جوهرى للدين ، عنصرداخل فى بناء التشريع الاسلامى كما ان الثبات والدوام فيما فرض له ذلك ، أحد عناصر الدين ومن أجزاء ذاك البناء التشريعى السامى فتجريده من أى واحد من عنصريه يوجب انحلال المركب وفناء الدين، وتأخره عن مسايرة المواكب الحضارية .

قال سيدنا الاستاذ (رضوان الله عليه) : هناك أحكام شرعية ثابتة لا يعرض عليها التغيير والاختلاف ، ولا يمكن ان يتأثر باختلاف البيئة والمحيط بشكل من الاشكال من الاشكال .

وهناك لون آخر من المقررات الاجتماعية التى تجرى باشراف من هيئة الولاية العامة ، تختلف باختلاف الظروف وتتأثر باختلاف البيئات والازمنة .

ولتوضيح الامر نستعير شاهداً من الظواهر الاجتماعية التي نعيشها فى حياتنا الخاصة .

لنفترض ان مواطناً يرأس عائلة صغيرة ، ويدير أمور العائلة الداخلية فى حدود مقررات البلاد العامة . . فيأمر بعض افراد العائلة بالقيام بهذا الشأن من شؤون البيت، ويأمر آخرين منهم بشأن آخر من شؤون العائلة ويحدد اختيارات كل واحد منهم فى البيت فى حدود مصلحة العائلة ويأمر بالانقطاع عن العمل

يوماً أو يومين للاستجمام ويأمر بالاستمرار في العمل في حدود ما تقتضيه مصلحة العائلة ، وحسب ظروف البيت الخاصة ...

وفي الوقت الذي يملك هذا الشخص كل هذه الصلاحيات الواسعة في الارادة والسلطة لا يسمح له أن يخرج عن دائرة مقررات البلاد العامة في شأن من الشؤون أو يتجاوز حدود النظام العام بشكل من الاشكال .

ومما تقدم يتضح ان المقررات المرعية في محيط هذه العائلة على نوعين:

نوع يتسم بطابع الثبات والبقاء .

ونوع يتعرض للاختلاف والتغيير حسب ما تقتضيه مصلحة البيت .

والنسبة ذاتها قائمة بين الشريعة الاسلامية ، التي يطبعها طابع من الثبات والبقاء، والمقررات التي تختلف باختلاف الظروف والمصالح الاجتماعية والتي تدور في فلك الشريعة من غير أن تتجاوزها بحال من الاحوال (١) .

ودونك نماذج من هذا القسم ، أي من الاحكام المتطورة المتغيرة بتغير الزمان :

١ - في مجال العلاقات الدولية الدبلوماسية : يجب على الدولة الاسلامية أن تراعي مصالح الاسلام والمسلمين، فهذا أصل ثابت وقاعدة عامة ، وأما كيفية تلك الرعاية ، فتختلف باختلاف الظروف الزمانية والمكانية ، فتارة تقضي المصلحة السلام والمهادنة والصلح مع العدو ، واخرى تقتضي ضد ذلك .

وهكذا تختلف المقررات والاحكام الخاصة في هذا المجال ، باختلاف الظروف ولكنها لا تخرج عن نطاق القانون العام الذي ، هو رعاية مصالح المسلمين ، كقوله سبحانه :

« ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا » (النساء - ١٤١)

وقوله سبحانه : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم

(١) نظرية السياسة والحكم في الاسلام ص٣٧ - ٣٩ .

يخرجوكم من دياركم، ان تبروهم، وتقسطوا اليهم، ان الله يحب المقسطين ».

« انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم، وظاهروا على أخراجكم، ان تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون »

(الممتحنة ٨ ـ ٩)

٢ ـ العلاقات الدولية التجارية: فقد تقتضى المصلحة عقد اتفاقيات اقتصادية وانشاء شركات تجارية أو مؤسسات صناعية، مشتركة بين المسلمين وغيرهم، وقد تقتضى المصلحة غير ذلك. ومن هذا الباب حكم الامام المغفور له، الفقيد المجدد، السيد الشيرازي بتحريم التدخين ليمنع من تنفيذ الاتفاقية الاقتصادية التى عقدت في زمانه بين ايران وانكلترا، اذ كانت مجحفة بحقوق الامة المسلمة الايرانية لانها خولت لانكلترا حق احتكار التنباك الايرانى.

٣ ـ الدفاع عن بيضة الاسلام وحفظ استقلاله وصيانة حدوده من الاعداء، قانون ثابت لا يتغير، فالمقصد الاسنى لمشرع الاسلام، انما هو صيانة سيادته عن خطر اعدائه واضرارهم ولاجل ذلك أوجب عليهم تحصيل قوة ضاربة ضد الاعداء، واعداد جيش عارم جرار تجاه الاعداء كما يقول سبحانه: « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » (الانفال ـ ٦٠) فهذا هو الاصل الثابت فى الاسلام الذي يؤيده العقل والفطرة أما كيفية الدفاع، وتكتيكه ونوع السلاح، أو لزوم الخدمة العسكرية وعدمه، فكلها موكولة الى مقتضيات الزمان، تتغير بتغيره، ولكن فى اطار القوانين العامة فليس هناك في الاسلام أصل ثابت، حتى مسألة لزوم التجنيد العمومى، الذي أصبح من الامور الاصلية فى غالب البلاد.

وما نرى في الكتب الفقهية من تبويب باب، أو وضع كتاب خاص، لاحكام السبق والرماية، وغيرها من أنواع الفروسية التي كانت متعارفة فى الازمنة الغابرة ونقل أحاديث في ذلك الباب، عن الرسول الاكرم (ص) وأئمة الاسلام، فليست أحكامها اصلية ثابتة فى الاسلام، دعا اليها الشارع بصورة أساسية ثابتة، بل كانت

هي نوع تطبيق لذلك الحكم الغرض منه ، تحصيل القوة الكافية ، تجاه العدو في تلكم العصور وأما الاحكام التي ينبغي أن تطبق في العصر الحاضر ، فانه تفرضها مقتضيات العصر نفسه (١) .

فعلى الحاكم الاسلامي تقوية جيشه وقواته المسلحة بالطرق التي يقدرمعها على صيانة الاسلام ومعتنقيه عن الخطر ويصد كل مؤامرة عليه من جانب الاعداء حسب امكانيات الوقت .

والمقنن الذي يتوخى ثبات قانونه ودوامه وسيادة نظامه الذي جاء به ، لا يجب عليه التعرض الى تفاصيل الامور وجزئياتها، بل الذى يجب عليه هووضع الكليات والاصول ليساير قانونه جميع الازمنة بأشكالها وصورها المختلفة، ولو سلك غير هذا السبيل لصار حظه من البقاء قليلا جداً .

٤ ـ نشر العلم والثقافة ، واستكمال المعارف التي تضمن سيادة المجتمع مادياً ومعنوياً يعتبر من الفرائض الاسلامية، أما تحقيق ذلك وتعيين نوعه ونوع وسائله فلا يتحدد بحد خاص، بل يوكل الى نظر الحاكم الاسلامي، واللجان المقررة لذلك من جانبه حسب الامكانيات الراهنة في ضوء القوانين الثابتة .

وبالجملة : فقد ألزم الاسلام ، رعاة المسلمين ، وولاة الامر نشر العلم بين

---

(١) قال المحقق في الشرايع ص ١٥٢ وفائدة السبق والرماية : بعث النفس على الاستعداد للقتال والهداية لممارسة النضال وهي معاملة صحيحة . وقال الشهيد الثاني في المسالك في شرح عبارة المحقق : لاخلاف بين المسلمين في شرعية هذا العقد ، بل أمر به النبي في عدة مواطن لما فيه من الفائدة المذكورة وهي من أهم الفوائد الدينية لما يحصل بها من غلبة العدد في الجهاد لاعداء الله تعالى ، الذى هو اعظم أركان الاسلام ولهذه الفائدة يخرج عن اللهو واللعب المنهى عن المعاملة عليهما .

فاذا كانت الغاية من تشريعهما الاستعداد للقتال والتدرب للجهاد ، فلا يفرق عندئذ بين الدارج في زمن النبي (ص) وغيره أخذاً بالملاك المتيقن .

أبناء الانسان واجتثاث مادة الجهل من بينهم ومكافحة أى لون من الامية ، وأما نوع العلم وخصوصياته ، فكل ذلك موكول الى نظر الحاكم الاسلامى وهو أعلم بحوائج عصره .

فرب علم ، لم يكن لازماً ، لعدم الحاجة اليه، فى العصور السابقة، ولكنه أصبح اليوم فى الرعيل الاول من العلوم اللازمة التى ، فيها صلاح المجتمع ، كالاقتصاد والسياسة .

٥ ـ حفظ النظام وتـأمين السبل والطرق ، وتنظيم الامور الداخلية ورفع مستوى الاقتصاد و ... من الضروريات ، فيتبع فيه وأمثاله، مقتضيات الظروف وليس فيه للاسلام، حكم خاص يتبع، بل الذي يتوخاه الاسلام ، هو الوصول الى هذه الغايات ، وتحقيقها بالوسائل الممكنة ، دون تحديد وتعيين لنوع هذه الوسائل وانما ذلك متروك الى امكانيات الزمان الذي يعيش فيه البشر ، وكلها فى ضوء القوانين العامة .

٦ـ قد جاء الاسلام بأصل ثابت فى مجال الاموال وهو قوله سبحانه: «ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » وقد فرع الفقهاء على هذا الاصل شرطاً فى صحة عقد البيع أو المعاملة فقالوا : يشترط فى صحة المعاملة وجود فائدة مشروعة والا فلا تصح المعاملة ومن هنا حرموا بيع (الدم) وشراءه .

الا أن تحريم بيع الدم أو شراءه ليس حكماً ثابتاً فى الاسلام بل التحريم كان فى الزمان السابق صورة اجرائية لما افادته الاية من حرمة أكل المال بالباطل وكان بيع الدم في ذلك الزمان مصداقاله فالحكم يدور مدار وجود الفائدة (التي تخرج المعاملة عن أن تكون أكل المال بالباطل) وعدم تحقق الفائدة، فلو ترتبت فائدة معقولة على بيع الدم أو شراءه فسوف يتبدل حكم الحرمة الى الحلية ، والحكم الثابت هنا هو قوله تعالى : « لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » .

وفى هذا المضمار ورد ان علياً (ع) سئل عن قول الرسول (ص) : غيروا الشيب ولا تشبهوا باليهود؟ فقال (ع) : انما قال (ص) : ذلك والدين قل فأما الان فقد اتسع نطاقه وضرب بجرانه فامرؤ وما اختار (١) .

وفي الختام نأتى بما أفاده الشيخ الرئيس ابن سينا فى هذا المقام فى الشفاء قال :

ويجب ان يفوض كثير من الاحوال خصوصاً فى المعاملات الى الاجتهاد فان للاوقات أحكاما لا يمكن ان تنضبط واما ضبط المدينة بعد ذلك بمعرفة ترتيب الحفظة ومعرفة الدخل والخرج واعداداهب الاسلحة والحقوق والثغور وغير ذلك فينبغى ان يكون ذلك الى السائس من حيث هوخليفة ولا تفرض فيها أحكام جزئية فان فى فرضها فساداً لانها تتغير مع تغير الاوقات وفرض الكليات فيها مع تمام الاحتراز غيرممكن فيجب ان يجعل ذلك الى أهل المشورة (٢).

* * *

وفى الختام نعطف نظر القارىء الى نكتة ، وهى : ان عنوان « مقتضى الزمان » و« حتيمة التاريخ » وغيرهما من العناوين صار رمزاً ، لكل من أراد أن يتحرر من القيم الاخلاقية، ويعيش متحللا من كل قيد وحد ، خالعاً كل عذار والكثير من افراد الانسان في العصر الحاضر ، حينما رأوا ، الاباحية الجنسية واختلاط الرجال والنساء، واتخاذ الملاهى على أنواعها وشرب المسكر واللعب بالميسر واقتراف المعاصى واخذ الربا مما راج فى البيئات الغربية بلا استنكار وقد حرمها الشرع ورفضتها قوانين الاخلاق الصحيحة ، والفطرة السليمة ، لم يجدوا مبرراً لاقترافها والانصياع التام، لشهواته الجامحة الابأن يتمسكوا بأحدى

(١) نهج البلاغة الحكم رقم ١٦ .

(٢) الشفاء قسم الالهيات ص ٥٦٦ .

هذه العناوين، وليست الغاية من هذه القالة عنده، الا اقتراف السيئات والانغمار فى الشهوات .

كما أن هذه العناوين قد صارت ملجأ لكل من أراد هدم الثقافة الشرقية الاصيلة وتحويرها ، وسوق الشرق الى الانصياع لتوجيهات الغرب وتناسى كل ما كان له من كرامة قديمة وقطع صلته به .

ترى المنادين باستعمال الحروف اللاتينية بدل الحروف الشرقية الاسلامية يتمسكون باعذار ، ويستدلون بأمور ، منها : كون ذلك من مقتضيات الزمان ، ونتيجة يحتمها التاريخ، غير أن الباحث الحر ، يرى للقديم ، كرامته الموروثة وللحديث نضارته الموجودة ، فيأخذ منها كل ما يليق بالاخذ ويصلح للاقتفاء فلا يعقد حلفاً مع كل قديم حتى الخرافات ولا يكب على كل حديث وان اضر به وبكرامته وشرفه .

فعلى كل من يريد أن يحافظ على كرامة الانسان وكيانه وقيمه الاخلاقية ، أن يتوخى الاصلح من مقتضيات الزمان ويصلحه على ضوء العقل والفطرة ، لا أن يطبق عمله عليه ، فليس مقتضى العصر وحياً، أوحي الى المجتمع ، مصوناً عن الخطأ أو نقياً عن الاشتباه .

على أن هؤلاء المتشدقين بأمثال هذه العبارات ، تقليداً للغرب والحضارة الغربية بلا تأمل ولا روية ، قد عزب عنهم أن « هذه الحتمية » و« اقتفاء مقتضى الزمان » التي ينادون بها، غير معترف بها عند أعيان القوم، ومفكري المجتمعات، بل أكابرهم فيها ، فكم نبه علماء وحذر مفكرون من أبناء الغرب ، من عواقب السير على منهج هذه الحضارة، واستخفوا خطتها وتنبأوا بانهيارها ونادوا بوجوب نقض اسسها (١) .

---

(١) نذكر على سبيل المثال منهم ، العلامة «**الكسيس كارل**» فارجع الى ماحرره فى كتابه « **الانسان ذلك المجهول** » .

ولاجل ان يقف القارىء الكريم على موقف الاسلام فيما يرجع الى التطور الزمنى نتوقف فى المقام قليلا ونقول :

الاسلام والتطور الزمنى :

لا نجد بين الشرائع السماوية شريعة قد تدخلت فى جميع شؤون الناس كالاسلام ، حيث لم يكتف فى مقرراته وتعاليمه على تعريف الناس بالاذكار والاوراد التى تربطهم بالخالق أو على ابداء النصائح الاخلاقية لهم فحسب، بل انه بين كافة مايهم المجتمع من حقوق ووظائف فردية واجتماعية ووضع الخطوط العريضة لكل قضايا الانسان فى هذه الحياة ، وقد اعترف بهذه الحقيقة كثير من المفكرين والكتاب غير المسلمين الذين كتبوا عن الاسلام ووصفوا قوانين الاسلام بأنها أرقى القوانين التى تعالج قضايا الانسان ، وذلك حيث أنها تمتلك مادة حيوته ومرونة تخولها أن تعيش خالداً لكل الظروف .

ومن ذلك ما قاله المفكر الانجليزى (برناردشو) : أنا أحترم دين محمد لانه دين حر ولانه الدين الوحيد الذي يقبل الانطباق مع الصور المختلفة فى الحياة ، وأضاف يقول : وأنا أتنبا بان دين الاسلام سوف تعتنقه أروبا .

وقال الدكتور شبلى شميل ، الكاتب المادى المعروف فى مقال له تحت عنوان «القرآن والاعمار» نشره فى الجزء الثانى من كتابه (فلسفة النشوء والارتقاء) الذي قرر فيه فرضية « دارون » مع شرح « بخنر » الالمانى لها ، ورد فيه على بعض الغربيين الذي زعم ان الاسلام هو سبب تأخر المسلمين قال: ان انحراف المسلمين عن تعاليم دينهم هو سبب انحطاطهم، وان الذين يزعمون بان الاسلام هو المسؤول عن تأخر المسلمين وانحطاطهم اما جاهلون بحقيقة الاسلام ، أو أنهم يريدون عن هذا الطريق أن يمهدوا الطريق لاستعمار الغرب للشرق الاسلامى.

ولاجل ذلك نواجه اليوم كثيراً من الشباب يتساءل عن مدى انطباق قوانين

الاسلام على التطورات الزمنية المختلفة وقدرته على قيادة الانسانية الى السعادة والرفاه ؟

بين الجمود والجهل :

القرآن الكريم يصف الانسان بانه ظلوم جهول ، وصدق الله العظيم ، فمن الناس من يريد التحرر من قيود الانسانية، والتجاوز عن كل الضوابط الاخلاقية بحجة رفض كل ماهو قديم وقبول كل ماهو جديد فى حياة البشر، ويعيش اباحياً لان تطور الزمن يقضى بذلك ، فهذا هو الانسان الظلوم .

ومنهم من يمشى على عكس الاول يحب كل ما هو قديم ويشجب كل ماهو جديد وينسب ذلك الى الاسلام ، فيظن ان الاسلام جاء لابقاء القديم على قدمه دون أن يفرق فى ذلك بين الوسائل والاهداف والقشور واللباب ، ولذلك فهو يتقيد بالكتابة بأقلام القصب أو الاستحمام فى الخزائن ، أو الاكل باليد ، أو الاستفادة من المصابيح القديمة وما شاكل ذلك وهذا هو الانسان الجهول .

فالظلوم لطغيانه يهدم أساس الشريعة ويمحق تعاليمها والجهول يعرض الدين بغير ما هو عليه من التطور والمرونة فينفر الناس عنه ، فهما بين افراط وتفريط .

النسخ غير المرونة :

ان بعض الكتاب الذين يتظاهرون بالاسلام يفسرون تطور الاسلام الزمنى بما يؤدي الى محق احكام الاسلام والقضاء عليها فاولئك يزعمون ان التعاليم الاسلامية تدخل تحت أطر ثلاثة :

أولاها : اطار الاصول العقائدية كالتوحيد والنبوة والمعاد .

ثانيها : اطار الاحكام العبادية كالصلاة والصوم وماشاكل .

وثالثها : اطار القوانين التى ترتبط بشؤون الحياة .

فيزعمون ان الثابت من تعاليم الدين ليس الا ما يدخل تحت اطار الاول والثاني فقط ، وأما ما يرتبط بالاطار الثالث من القوانين الاجتماعية فليست من صميم الدين وبالامكان تغييرها واحلال ما تقتضيه مقتضيات الزمان مكانها فى هذه المجالات .

اقول ان القائل بهذه المقالة ممن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض، ويريد حصر الاسلام فى المسجد ، لتخلو الساحة الاجتماعية لغيره لكى يلعبوا ما يشاؤون ، ويستوردوا القوانين الاجتماعية من هنا وهناك ويملاوا بها الفراغ وتكون النتيجة ، ان مصائر المسلمين يتحكم فيها أعداؤهم ويضعون لهم خطوط المسيرة .

اننا نرى القرآن الكريم يشبه المسلمين بالزرع الذى من خواصه النمو والحياة يقول سبحانه: « محمد رسول الله والذين معه اشداء على الكفار رحماء بينهم، تراهم ركعاً سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار »

(الفتح - ٢٩)

فقوانين الاسلام بما هى مشتملة على المادة الحيوية وبما هى ذات مرونة تنطبق مع كل الظروف والحضارات الانسانية ولا تحتاج الى تغييرها واقامة غيرها مكانها ولاجل هذه الخصيصة اصبح المسلمون بفضل الاسلام ذوو انمو وارتقاء فى مجالات الحياة .

السؤال الخامس

ادعاء النقص فى التشريع الاسلامى :

«كلما تكاملت نواحى الحضارة ، وتشابكت وتعددت ألوانها ، واجه المجتمع أوضاعاً وأحداثاً جديدة، وطرحت عليه مشاكل طارئة، لاعهد للازمنة السابقة بها ، اذ لم تتعرض تشريعاتها، لاي هذه الاوضاع والاحداث والمشاكل بحكم من الاحكام اذن فحاجة المجتمع الى قوانين وتشريعات جديدة ، لاتزال تتزايد كل يوم ، تبعاً لذلك » .

توضيح السؤال :

لا يرتاب ذومسكة فى أنه كلما توسع نطاق الحضارة وبلغ البشر من التمدن ما بلغ ، احتاج فى تنظيم حياته الى قوانين جديدة ، وتشريعات خاصة ، ازيد مما كان محتاجاً اليه فى الظروف الغابرة ، وبما أن الحضارة الانسانية، مازالت تتوسع وتتكامل ، ولا تقف عندحد، فما زال الانسان تبعاً لذلك، تتوسع حاجته الى قوانين وتشريعات جديدة، متكاملة، فكيف يمكن أن تعالج القوانين المحدودة الموضوعات الكثيرة ، غير المحدودة ؟ ! (١) .

---

(١) الفرق بين هذا السؤال وما سبق من السؤال الرابع واضح ، اذ الرابع يرجع الى لزوم اختلاف القوانين والمقتضيات ، حسب اختلاف اشكال الحياة فى الاجتماع ، وتبدلها من دون نظر الى طروء حوادث لم يكن منها اثر فى العهود السابقة ، وهذا الوجه يرجع الى اعاده وجود النقص فى ناحية التشريع الاسلامى، وعدم ايفائه بالحوادث الجديدة والوقائع الطارئة التى يوجبها تكامل الحضارة وتشعباتها وتعددها ، ولم يكن لها اثر فى زمن الرسالة ودور نزول القرآن .

ويلاحظ بأن الاسلام ، هو الذي يواجه وحده، بهذا الاشكال من بين سائر الشرائع، اذليس الاسلام عبارة عن تعاليم منحصرة فى عدة أحكام عبادية واخلاقية تؤدى بصورة فردية ، بين الانسان وربه ، أو بينه وبين نفسه، دون أن يتدخل فى تحديد المناهج الاجتماعية والعلاقات الانسانية والمدنية ، وليس منحصراً فى هذه المقررات البسيطة ، حتى لا يكون وافياً فى جميع الازمنة ، بالغاية التي يهدف اليها وانما هو نظام تشريعى كامل ، قد تدخل فى شؤون المجتمع كافة، فهو ذو قوانين مدنية وقضائية وسياسية واجتماعية وعسكرية وعائلية ، كفيلة باغناء البشرية ، عن كل تشريع سوى تشريعه ، وعن كل اصلاح غير اصلاحه ، فهذه القوانين المحدودة كيف تغنى المجتمع البشري عن ممارسة التشريع فى الحوادث والموضوعات التى لم يكن بها عهد زمن نزول القرآن وبعثة الرسول؟.

وفي هذه النقطة ، تفترق المسيحية عن الاسلام ، اذ هي لاتتجاوز فى تشريعها نطاق الاخلاق الفردية والتعبد لله، بصلاة وصوم ، فى وقت معين، أما مناهج الحياة الاجتماعية وتنظيمها وتنسيق معاملاتها، ذلك مايقره المجتمع نفسه، ويفوضه الى السلطات الحاكمة .

ولكن الاسلام يتعرض لكل شأن من شؤون الحياة ، ويقنن ويشرع لكل أمر من امور المجتمع ، المدنية والمعاشية ، بالاضافة الى تشريعاته وقوانينه الاخلاقية ، والعبادية الفردية ، ويسد باب التشريع فى ذلك على غيره. فالسلطة التشريعية بيده وحده ، وعلى المجتمع ان يختار السلطة التنفيذية ، والسلطة القضائية فقط ، ضمن ما يشرعه الاسلام .

وملخص السؤال، ان المجتمع الانساني ، يواجه أوضاعاً وأحداثاً جديدة تطرح عليه مشاكل لاعهد للازمنة السابقة بها ، فلا نجد فى التشريع الاسلامي لهذه الاوضاع والاحداث حكماً من الاحكام ، اذن فحاجة المجتمع الى قوانين وتشريعات جديدة لاتزال تتزايد كل يوم تبعاً لذلك ، وبما ان نصوص

الشريعة من الكتاب والسنة محدودة ، وحوادث المجتمع غير محدودة، فكيف يمكن أن تفي النصوص المحدودة بالحوادث الطارئة غير المتناهية ؟

الجواب :

ان خلود التشريع وبقاءه فى جميع الاجيال ومسايرته للحضارات الانسانية، واستغناءه عن كل تشريع سواه ، يتوقف على وجود أمرين فيه :

الاول : أن يكون التشريع ذا مادة حيوية خلاقة للتفاصيل بحيث يقدرمعها علماء الامة والاخصائيون منهم على استنباط كل حكم يحتاج اليه المجتمع البشري فى كل عصر من الاعصار .

الثاني : ان ينظر الى الكون والاجتماع بسعة وانطلاق ، مع مرونة خاصة تماشي جميع الازمنة والاجيال ، وتساير الحضارات الانسانية المتعاقبة .

وقد أحرز التشريع الاسلامي كلا الامرين :

أما الامر الاول ، فقد أحرزه بتنفيذ امور :

الاول : الاعتراف بحجية العقل فى مجالات خاصة :

ان من سمات التشريع الاسلامي التي بها يمتاز عن سائر التشريعات ، ادخال العقل فى دائرة التشريع ، والاعتراف بحجيته فى الموارد التي يصلح له التدخل والقضاء فيها ، فالعقل أحد الحجج الشرعية وفى مصاف المصادر الاخر للتشريع وانه يكشف عن الحكم الشرعي ويبين وجهة نظر الشارع فى مورده، وان من الممتنع ان يحكم العقل بشيىء ولا يحكم الشرع على وفاقه أو يحكم بخلافه ، فالملازمة بين العقل والشرع حتمية .

ولا يهمنا البحث في ان ما يدركه العقل فى مورد هل هو نفس الحكم الشرعي ومن صميم التشريع الاسلامي أوانه يكشف عن نظر الشارع اذا توفرت

فيه الشروط التي اعتبرها الشارع فى حجية ادراكاته .

وانما المهم ان نقف على ان العقل احتل محلا خاصاً فى التشريع الاسلامي وان كل ما يحكم به العقل فكانه ينطق عن لسان الشرع كالكتاب والسنة فعندذاك اعتمد عليه فى تبليغ الاحكام الى الناس كما اعتمد على القرآن والسنة .

وقد فتح هذا الاعتراف للاسلام بقاء وخلوداً ، وجعله صالحاً للانطباق مع عامة الحضارات الانسانية ، وغدا التشريع الاسلامي فى ضوئه ذاسعة وانطلاق وشمول لما يتجدد من الاحداث ولما يطرأ من الاوضاع الاجتماعية الجديدة.

هذا بخلاف ما اذا اعتبرناه عنصراً غريباً فى صعيد التشريع وعزلناه عن الحكم ورفضنا كل ما يدركه من الاحكام العقلية المحضة، فانه يؤدي الى تجميد المخطط القانوني وعدم صلاحيته للحكم والتطبيق فى البيئات والظروف الاجتماعية المختلفة .

نعم ليس معنى الاعتراف بحجية العقل، انه يطلق سراحه فى جميع المجالات حتى يتاح له (بما اوتي من امكانات ووسائل محدودة) ان يتسرع فى الحكم فى مصالح الفرد والمجتمع وشكل العلاقات والروابط الاجتماعية والعبادات والاحكام التوقيفية .

بل فسح له الحكم فى مجالات خاصة اذا توفرت فيه الشرائط التي تصونه عن الاشتباه والخطأ واقترن بالضمانات الكافية التي تحفظه عن الزلل وسوف نشير الى هذه الشرائط والضمانات وستوافيك نماذج من الاحكام العقلية فى هذا البحث .

فالقارىء الكريم اذا لاحظ كتاب الله العزيز وسنة نبيه (ص) وعترته (ع) يرى فيهما الحث البالغ الاكيد على التدبر والتفكر والتعقل بما يعسر على الانسان الاحاطة والاحصاء ولنكتف بذكر بعض ما اثر فى المقام .

قال الامام الطاهر موسى بن جعفر (ع) لتلميذه هشام :

ان الله تبارك وتعالى بشر أهل العقل والفهم فى كتابه فقال : « فبشر عباد . الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الالباب » (١٧ - ١٨ الزمر) .

يا هشام : ان الله تبارك وتعالى أكمل للناس الحجج بالعقول ونصر النبيين بالبيان ودلهم على ربوبيته بالادلة فقال «ان فى خلق السماوات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لايات لقوم يعقلون » (١) .

يا هشام : ثم وعظ أهل العقل ورغبهم فى الاخرة فقال « وما الحياة الدنيا الا لعب ولهو وللدار الاخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون » (٢) .

يا هشام : ان العقل مع العلم فقال : « وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون » (٣) .

ثم ذم الذين لايعقلون فقال « واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لايعقلون شيئاً ولا يهتدون » (٤) .

ياهشام : ثم ذكر اولى الالباب بأحسن الذكر وحلاهم بأحسن الحلية فقال: « يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد اوتي خيراً كثيراً وما يذكر الا اولو الالباب » (٥) .

يا هشام : ان الله تعالى يقول فى كتابه : « ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب يعني » عقل .

وقال « ولقد آتينا لقمان الحكمة » (٦) قال : الفهم والعقل .

يا هشام : ما بعث الله انبياءه ورسله الى عباده الا ليعقلوا عن الله فأحسنهم

(١و٢و٣و٤و٥و٦) البقرة : ١٦٤ والانعام : ٣٢ والعنكبوت : ٤٣ والبقرة : ١٧٠ و٢٦٩ ولقمان : ١٢ .

استجابة احسنهم معرفة وأعلمهم بأمر الله احسنهم عقلا ، وأكملهم عقلا أرفعهم درجة فى الدنيا والاخرة .

يا هشام : ان لله على الناس حجتين: حجة ظاهرة وحجة باطنة فأما الظاهرة فالرسل والانبياء والائمة وأما الباطنة فالعقول (١) .

وقال الصادق : حجة الله على العباد، النبي، والحجة فى مابين العباد وبين الله ، العقل .

هذا الحديث وما قبله وغيرهما يعرب عن نظر الاسلام السامي فى الاحكام التي يستقل بها العقل بشرطان يتجرد عن الرواسب المنحرفة والغرائز الحيوانية والعواطف الانسانية ويحكم حكماً باتاً عقلانياً محضاً غير منبعث عن هذه الجوانب ويحترز عن بعض الاساليب التي منع الشارع عن اعمالها فى طريق استنباط الحكم الشرعي كالاقيسة والاستحسانات .

نعم لايخلص الحكم العقلي من الزلل والخطأ الا بعد ملاحظة أمور:

١ ـ قصور الفكر الانساني وعجزه عن الاحاطة بمسائل الكون والنفس والاجتماع وضعف المدارك الحسية التي تربط الانسان بالواقع الاجتماعي والنفسي والكون الذي يعيشه .

٢ ـ تأثر الفكر الانساني بالجانب الانفعالي والحيواني من النفس كالغرائز النفسية والدوافع الحيوانية المستقرة فى النفس التي لاتتخلص منها النفس والفكر الا بعد جهد شاق .

٣ ـ انطباع الفكر بالرواسب اللاشعورية والاعراف والتقاليد التي يرثها الانسان من البيئة الاجتماعية والتي تنتقل فى المجتمع مع الاجيال من دون ان تفقد تأثيرها الخاص واطارها الاجتماعي الذي يسبغ عليها جانباً قدسياً فى المجتمع .

(١) الكافى ج ١ ص ١٣ ـ ١٦ ولم ننقله بطوله وانما اقتبسنا مقتطفات منه .

وقد حاول الاسلام ان يحقق الضمانات الكافية التي تعصم الفكر من هذه الوجوه الثلاثة فى مجال الحكم والتشريع .

كما حاول الاسلام من جانب ان يفسح المجال للعقل فى الحكم ليحفظ الدستور ويصلح للحكم والتطبيق فى البيئات والظروف المختلفة .

ومن جانب آخر حاول الاسلام ان يحفظ العقل مما يمكن ان يحفظ به الى المستويات الحيوانية واللاشعورية أو مما تقصر عنه امكاناته العلمية » (١) .

قال العلامة الحجة الشيخ محمد حسين الاصفهاني : ان القضايا المشهورة على أقسام :

منها مافيه مصلحة عامة: كالعدل حسن، والجور قبيح، وعبرعنها بالتأديبات الصلاحية .

منها : ما ينبعث عن الاخلاق الفاضلة كالحكم بقبح كشف العورة لانبعاثه عن الحياء وهو خلق فاضل .

منها: ما ينبعث عن رقة أوحمية أوانفة أوغير ذلك واستلزام الحسن والقبح عقلا للحكم الشرعي بالمعنى المتقدم فى ماكان منشأه المصالح العمومية واضح لان الشارع يرعى المصالح العمومية وكذا ما ينبعث عن الاخلاق الفاضلة لان المفروض انها ملكات فاضلة ، والمفروض انبعاث الحكم بالحسن والقبح عنها وأما ماينبعث عن انفعالات طبيعية من رقة أوحمية أو أنفة أو غيرذلك فلاموجب لاشتراك الشارع مع العقلاء .

ولذا ترى الشارع ربما يحكم لحكمة ومصلحة خاصة بما لايلائم الرقة البشرية كالحكم بجلد الزاني والزانية غير ذات البعل مع كمال التراضي (٢) .

---

(١) لاحظ المدخل الى دراسة التشريع الاسلامى ص ١٠٧ - ١٠٨ .

(٢) نهاية الدراية ج ٢ ص ١٣٠ .

وللشيخ الرئيس فى اشارته كلام يوقفنا على اقسام الادراكات العقلية فراجع الاشارات وشرحها للمحكيم الطوسي (١) .

* * *

فاذا توفرت فى الحكم العقلي هذه الشرائط وكان حكمه منبعثاً عن الجانب العقلي المحض ، غير متاثر عن الجوانب اللاشعورية ، والغرائز الحيوانية والعواطف الانسانية ، وتجنب عن الاساليب الممنوعة وحكم من صميم التدبر والتفكر بحكم بات ، يصير حجة بين الله وعبده ، وحينئذ يجب السير والسلوك على مقتضى حكمه وتنفيذ ما يقضى به تأسيساً أو تحديداً لاطلاق حكم شرعي أو تخصيصاً لعمومه ويصير عند ذاك أحد الادلة التي يستنبط منها ، الحكم الشرعي، ويدور عليها رحى الاستنباط ، ويعد قريناً للكتاب والسنة، والاجماع ولا ينفك عن قرنائه وأعداله .

والباحث النابه، يجد الملازمة بين العقل والشرع ، أحد القواعد المسلمة عند المحققين ، من علماء الاسلام ، الذين يعتنى بقولهم ، فقد صرحوا بأن : كل ما حكم به العقل ، حكم به الشرع ، وكل ما حكم به الشرع ، حكم به العقل .

ان للعقل دوراً كبيراً فى استنباط كثير من الاحكام التي يصلح للعقل القضاء فيها ويقدر على ادراك ملاك الحكم ومناطه نظير الملازمة بين وجوب الشيىء ووجوب مقدمته ووجوب الشيىء وحرمة ضده اوعدمهما وجواز اجتماع الامر والنهي وعدمه وصحة العبادة والمعاملة وفسادهما واجزاء الاوامر الاضطرارية والظاهرية والاحكام المتفرعة على تنجيز العلم الاجمالي ومايستقل به العقل عند اليأس عن الادلة السمعية فيحكم بالبرائة أوالاشتغال أو التخيير، حسب مااقتضاه

(١) الاشارات ج ١ ص ٢٢٠ ط طهران .

المقام . بل له دور واسع فى باب المعاملات وغيرها .

فهذه الملازمات وغيرها ، من الاحكام العقلية ، مصادر لاستنباط كثير من الاحكام واستكشاف ماهوالمرضي لدى الشارع، يستريح اليه الفقيه فى تأسيس الحكم الشرعي أوتحديده، وفى تشخيص الوظيفة العملية عند اليأس عن العثور على الادلة السمعية وبذلك يسد الفراغ المتوهم فى التشريع الاسلامي .

كل ذلك يرشدنا الى ان التشريع الاسلامي ، يتبنى الواقع ولا يحيد عن متطلبات الحياة ، وانه ليس لتعاليمه طابع الرمز والتعبد السماوي وأن للاسلام علاقة واقعية بالعقل ، لاتجد مثلها فى الشرائع الاخرى ، بل لايسوغ لغيره، أن يدخل العقل فى مصادر تشريعه ، ويعده أحد الادلة .

الثانى : ان الاحكام تابعة للمصالح والمفاسد :

ان الاحكام الشرعية، عند العدلية من المسلمين، الذين يمثلون الطبقة العليا منهم ، تابعة لمصالح ومفاسد فى متعلقاتها ، فلا واجب الا لمصلحة فى فعله ، ولا حرام الا لمفسدة فى اقترافه، وقد تحقق عندهم ان للتشريع الاسلامي نظاماً لاتعتريه الفوضى وهذا الاصل وان خالف فيه بعض الامة، غير أن نظرهم محجوج بكتاب الله وسنة نبيه ونصوص خلفائه (ع) ترى انه سبحانه يعلل حرمة الخمر والميسر بقوله :

« انما يريد الشيطان ان يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل انتم منتهون » (المائدة ـ ٩١)

ويستدل على وجوب الصلاة بقوله سبحانه : « وأقم الصلاة ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » (العنكبوت ـ ٤٥) الى غير ذلك من الفرائض والمناهى التى صرح أو اشير الى ملاكات تشريعهما فى الذكر الحكيم .

وقد قال الامام الطاهر، على بن موسى الرضا عليه السلام: « ان الله تبارك

وتعالى ، لم يبح أكلا ولا شرباً الا لما فيه المنفعة والصلاح ، ولم يحرم الا ما فيه الضرر والتلف والفساد » (١) .

وقال عليه السلام فى الدم: « انه يسيىء الخلق، ويورث القسوة للقلب، وقلة الرأفة والرحمة ولا يؤمن ان يقتل ولد ووالده » (٢) .

وهذا باقر الامة وامامها ، يقول : « ان مدمن الخمر كعابدوثن ، ويورثه الارتعاش ، ويهدم مروته ويحمله على التجسر على المحارم من سفك الدماء وركوب الزنا » (٣) .

وغيرها من النصوص المتضافرة عن أئمة الدين (٤) .

فاذا كانت الاحكام تابعة لمصالح ومفاسد فى الموضوع ، فالغاية المتوخاة من تشريعها ، انما هو الوصول اليها ، أو التحرز عنها ، و بما أن المصالح والمفاسد ليست على وزان واحد ، بل رب واجب يسوغ فى طريق احرازه ، اقتراف بعض المحارم ، لاشتماله على مصلحة كبيرة لا يجوز تركها أصلا ، ورب حرام ذي مفسدة كبيرة ، لا يجوز اقترافه ، وان استلزم ترك الواجب أو الواجبات .

ولاجل ذلك قد عقد الفقهاء باباً خاصاً ، لتزاحم الاحكام وتصادمها فى بعض الموارد، فيقدمون «الاهم على المهم» والاكثر مصلحة على الاقل منها، والاعظم مفسدة على الاحقر منها ، وهكذا . . . ويتوصلون فى تمييز الاهم عن المهم ، بالطرق والامارات التى تورث الاطمئنان ، وباب التزاحم فى علم الاصول غير

---

(١) مستدرك الوسائل ج ٣ ص ٧١ .

(٢) بحار الانوار ج ١٤ ص ٨٧٢ .

(٣) المصدر نفسه ص ٧٧١ .

(٤) راجع علل الشرائع للشيخ الصدوق فقد اورد فيه ما اثر عن النبى (ص) والائمة (ع) فى بيان علل التشريع وفلسفته .

التعارض فيه ولكل أحكام .

وقد اعان فتح هذا الباب على حل كثير من المشاكل الاجتماعية التى ربما يتوهم الجاهل أنها تعرقل خطى المسلمين فى معترك الحياة، وأنها من المعضلات التي لا تنحل أبداً ، ولنأت على ذلك بمثال ، وهو :

أنه قد أصبح تشريح بدن الانسان في المختبرات من الضروريات الحيوية التى يتوقف عليه نظام الطب الحديث، فلا يتسنى تعلم الطب الا بالتشريح والاطلاع على خفايا الامراض والادوية .

غير ان هذه المصلحة تصادمها ، مصلحة احترام المؤمن حيه وميته ، الى حد أوجب الشارع ، الاسراع فى تغسيله وتكفينه وتجهيزه للدفن ، ولا يجوز نبش قبره اذا دفن، ولا يجوز التمثيل به وتقطيع أعضائه، بل هو من المحرمات الكبيرة التى لم يجوز الشارع حتى بالنسبة الى الكلب العقور ، غير أن عناية الشارع بالصحة العامة وتقدم العلوم جعلته يسوغ اقتراف هذا العمل لتلك الغاية، مقدماً بدن الكافر على المسلم ، والمسلم غير المعروف على المعروف منه ، وهكذا . . .

الثالث : التشريع الاسلامى ذو مادة حيوية

ان التشريع الاسلامى فى مختلف الابواب ، مشتمل على اصول وقواعد عامة ، تفي باستنباط آلاف من الفروع التى يحتاج اليها المجتمع البشرى، على امتداد القرون والاجيال ، وهذه الثروة العلمية، التى اختصت بها الامة الاسلامية من بين سائر الامم ، أغنت الشريعة الاسلامية عن التمسك بكل تشريع سواها.

وقد تضافرت الروايات على ان جميع ما يحتاج الناس اليه قد جاءت فيه آية محكمة أو سنة متبعة .

أخرج الكلينى باسناده عن عمر بن قيس عن أبي جعفر (ع) قال سمعته :

يقول ان الله تبارك وتعالى لم يدع شيئاً تحتاج اليه الامة الا انزله فى كتابه وبينه لرسوله وجعل لكل شيىء حداً ، وجعل عليه دليلا يدل عليه ، وجعل على من تعدى ذلك الحد حداً .

روي باسناده عن أبي عبدالله (ع) قال سمعته يقول : ما من شيى الا وفيه كتاب أو سنة .

أخرج عن سماعة عن أبي الحسن موسى (ع) قال : قلت له : أكل شيىء في كتاب الله وسنة نبيه ، أو تقولون فيه ؟ قال : بل كل شيىء فى كتاب الله وسنة نبيه (١) .

وهذا العلامة الحلى ، أحد فقهاء الامامية فى القرن الثامن ، قد ألف عشرات الكتب فى الفقه وأصوله ، منها « تحرير الاحكام الشرعية » وقد حوى من الاحكام والقوانين ما يربو على أربعين ألف مسألة، استنبطها من هذه الاصول الواردة فى القرآن والسنة النبوية ، والاحاديث المأثورة عن أئمة الدين، رتبها على ترتيب كتب الفقه فى أربع قواعد : العبادات ، والمعاملات ، والايقاعات، والاحكام (٢) .

وجاء من بعده من الفقهاء والمجتهدين ، فبحثوا عن موضوعات وأحكام ، لم تكن لعصره بها صلة ، فأستخرجوا ما لها من الحكم الشرعي ، من تلكم الاصول والقواعد بوضوح وانطلاق ، ولم يجدوا التشريع الاسلامي عاجزاً فى هذه المجالات .

وهذا « صاحب الجواهر » ، ذلك الفقيه الاعظم ، من فقهاء القرن الثالث عشر الاسلامي ، قد جاء في مشروعه الوحيد « جواهر الكلام » بأضعاف ماجاء

(١) راجع الكافى « باب الرد الى الكتاب والسنة » ج ١ ص ٥٩ – ٦٢ ، تجد فيه احاديث تصرح بما ذكر، والمراد منها اصول الاحكام وجذورها لافروعها وجزئياتها.

(٢) راجع الذريعة ج ٤ ص ٣٧٨ .

به العلامة المحلي ، فان الباحث عند ما يقف أمام هذا الكتاب الثمين وينظر فى مباحثه ، يرى أمامه بحراً يزخر بالدرر التي تحار فى حصرها النهى والخواطر وتنبهر لها عيون البصائر ، فلقد حوى من الفروع والقوانين ، ما يعسر عدها.

ولاجل ذلك استعارت منا الامم الغربية كثيراً من قوانينه ، (بعكس مانحن عليه الان من تبعيتنا للقوانين الاجنبية) وليس ذلك الا لاجل كون الفقه الاسلامى ذامادة حيوية ، وقواعد متموجة ، تستطيع أن تواجه الاحداث الطارئة طيلة القرون .

يوم كان الاسلام يبسط ظله على أكثر من نصف المعمورة ، حيناً من الدهر وان الامة الاسلامية ، كانت تتألف من شعوب مسلمة مختلفة الالوان ، لكل بيئة خواصها فى العادات والتقاليد، وما يقع فيها من وقائع وأحداث ، كان التشريع الاسلامى بقواعده وأصوله الوافرة ، وافياً لا ستخراج أحكامها ، من دون ان تمديدها الى المساعدات الاجنبية.

الرابع : تشريع الاجتهاد

وهو بذل الوسع فى استنباط الاحكام الشرعية عن مصادرها المعينة ، وهو رمز خلود الدين وبقاء قوانينه ، لانه يحفظ غضاضة الدين وطراوته ، ويجدده ويصونه عن الاندراس ، ويغني المسلمين عن موائد الاجانب ، بأعطائه كل موضوع ما يقتضيه من حكم .

« اما لزوم فتح هذا الباب فى أعصارنا هذه فلا يحتاج الى البرهنة والدليل اذ نحن فى زمن تتوالى فيه المخترعات والصناعات ، وتجعلنا هذه المجالات أمام أحد أمور :

أما بذل الوسع فى استنباط أحكام الموضوعات الحديثة ، من الاصول والقواعد الاسلامية .

أواتباع المبادىء الاوربية، من غير نظر الى مقاصد الشريعة ، وأماالوقوف من غير اعطاء حكم » (١) .

« وليس الاجتهاد من البدع المحدثة، فانه كان مفتوحاً فى زمن النبوة وبين أصحابه (ص) فضلا عن غيرهم ، وفضلا عن سائر الازمنة التي بعده ، نعم غايته ان الاجتهاد يومئذ ، كان خفيف المؤونة جداً ، لقرب العهد ، وتوفر القرائن ، وامكان السؤال المفيد للعلم القاطع، ثم كلما بعد العهد من زمن الرسالة وتكثرت الاراء والاحاديث والروايات ، ربما قد دخل فيها الدس والوضع ، وتوفرت دواعى الكذب على النبى ، أخذ الاجتهاد ، ومعرفة الحكم الشرعي ، يصعب ويحتاج الى مزيد من المؤنة ، واستفراغ الوسع » (٢) .

ويرشدك الى وجوده فى زمن النبي (ص) قول الرسول لاميرالمؤمنين (ع) عند ما بعثه الى اليمن: قال علي (ع) بعثنى رسول الله الى اليمن قلت يا رسول الله تبعثني وأنا شاب، اقضي بينهم ولا أدري ماالقضاء؟ قال: فضرب بيده في صدري وقال : « اللهم أهد قلبه وثبت لسانه » فو الذي نفسى بيده ما شككت في قضاء بين أثنين (٣) .

وقال النبى (ص) لمعاذ بن جبل ، حين وجهه الى اليمن : بم تقضى؟ قال: بما فى كتاب الله ، قال فان لم تجد ؟ قال : بما فى سنة رسول الله قال : فان لم تجد ؟ قال : اجتهد رأيى . ولا آلو جهداً ، فسر النبى (ص) وقال : الحمد الله الذي وفق رسول رسوله بما يرضى رسوله (٤) .

* * *

(١) رسالة الاسلام ، السنة الثالثة ، العدد الثانى ، عن مقال «أحمد أمين المصرى».

(٢) أصل الشيعة وأصولها ، ص ١١٩ طبعة بيروت .

(٣) اعلام الورى ص١٣٧، والبحار ج٢١ ص٣٦١، وشتان بين علمه واجتهاده (ع) وعلم الاخرين واجتهادهم .

(٤) الطبقات الكبرى ج٢ ص٣٤٧ والاستيعاب، لابن عبد البر، فى ترجمة «معاذ» ـ

« وبطبيعة الحال ، ان الصحابي قديسمع من النبى (ص) في واقعة، حكماً ويسمع الاخر فى مثلها خلافه، وتكون هناك خصوصية فى أحدهما اقتضت تغاير الحكمين وغفل أحدهما عن الخصوصية أو التفت اليها وغفل عن نقلها مع الحديث فيحصل التعارض فى الاحاديث ظاهراً، ولا تنافي واقعاً، ولهذه الاسباب وأضعاف أمثالها ، احتاج حتى نفس الصحابة الذين فازوا بشرف الحضور ، فى معرفة الاحكام الى الاجتهاد ، والنظر فى الحديث ، وضم بعضه الى بعض والالتفات الى القرائن الحالية ، فقد يكون للكلام ظاهر ، ومراد النبي خلافه اعتماداً على قرينة فى المقام ، والحديث نقل ، والقرينة لم تنقل» .

«وكل واحد من الصحابة ، ممن كان من أهل الرأى والرواية، تارة يروي نفس الفاظ الحديث، للسامع من بعيد أو قريب، فهو فى هذا الحال راو ومحدث وتارة يذكر الحكم الذي استفاده من الرواية أو الروايات ، بحسب نظره، فهو فى هذا الحال ، مفت وصاحب رأي » (١) .

ولم يزل هذا الباب مفتوحاً عند الشيعة، من زمن صاحب الرسالة الى يومنا هذا، وقد تخرج منهم الاف من المجتهدين والفقهاء، قد أحيوا الشريعة وأنقذوها من الانطماس ، وأغنوا بذلك الامة الاسلامية فى كل مصر وعصر ، عن التطلع الى موائد الغربيين، وألفوا مختصرات ومتطولات، لا يحصيها الا الله سبحانه.

وقد اقتدى الشيعة فى فتح هذا الباب على مصراعيه في وجه الامة بأئمة

ـ واللفظ للثانى.

اقول : لوصح الحديث يكون المراد منه باعتبار وروده فى أمر القضاء ، هو فصل الخصومة فى الاموال والنفوس بما يعدها العقلاء عدلا وانصافا وهذا المراد من قوله : اجتهد رأيى. وعندئذ لايكون الحديث دليلا على صحة مطلق الرأى حتى المستند الى القياس والاستحسان واشباههما التى لاقيمة لها عندنا فى عالم الاستنباط .

(١) أصل الشيعة ص ١١٨ .

دينهم وخلفاء رسولهم ، الذين حثوا شيعتهم بأقوالهم وأفعالهم ، على التفقه فى الدين والاجتهاد فيه ، وانه « من لم يتفقه ، فهو أعرابي » وأرشدوهم الي كيفية استخراج الفروع المتشابكة ، من الايات والاصول المتلقاة عنهم ، بالتدبر فى الايات والاصول المتلقاة عنهم ، وأمروا أصحابهم بالتفريع (١) ، وقد بلغت عنايتهم بذلك ما جعلهم ينصبون بعض من يعبأ بقوله ورأيه في منصب الافتاء ، الى غير ذلك .

والاجتهاد كما عرفناك هو بذل الجهد فى استنباط الاحكام عن أدلتها الشرعية فلا يحتج به الا اذا بنيت أحكامه على أساس الكتاب والسنة ، وما يرجع اليها ، فهو مقيد من هذه الجهة ، وان كان متحرراً من سوى ذلك ، فلا يتقيد بمذهب ولا برأي ، بل هو فوق المذاهب .

غير أن أئمة أهل السنة ، قد أقفلوا باب الاجتهاد ، الا الاجتهاد فى مذهب خاص ، كمذهب أبي حنيفة والشافعي ، وبما ان الفتاوى المنقولة عنهم ، مختلفة أخذ علماء كل مذهب يبذلون جهدهم لتشخيص ما هو رأى كل امام فى هذا الباب .

ولا أدري لماذا اقفل هذا الباب المفتوح من زمن الرسول ، وان تفلسف فى بيان وجهه ، بعض الكتاب من متأخريهم ، وقال : ولم يكن مجرد اغلاق باب الاجتهاد باجتماع بعض العلماء واصدار قرار منهم ، وانما كان حالة نفسية واجتماعية ذلك انهم رأوا غزو التتار لبغداد وعسفهم بالمسلمين ، فخافوا على الاسلام ورأوا ان اقصى ما يصبون اليه ، هو أن يصلوا الى الاحتفاظ بتراث الائمة مما وضعوه واستنبطوه (٢) .

ولا يكاد يخفى على القارىء الكريم ما فى اعتذاره من الاشكال .

---

(١) ستوافيك روائع نصوصهم فى هذا المضمار .

(٢) رسالة الاسلام : العدد الثالث ، من السنة الثالثة عن مقال لاحمد أمين المصرى .

ولقد صدع بالحق الدكتور « حامد حفني داود » استاذ الادب العربي بكلية الالسن فى القاهرة فى ما قدمه على كتاب عقائد الامامية (١) وقال :

ان الصورة المتوارثة عن جهابـذة أهل السنة ان الاجتهاد اقفل بابه بأئمة الفقه الاربعة : أبي حنيفة ، ومالك ، والشافعى ، وابن حنبل .

هذا اذا عنينا الاجتهاد المطلق امـا ما حاوله الفقهاء بعد هؤلاء من اجتهاد لا يعدو ان يكون اجتهاداً فى المذهب أو اجتهاداً جزئياً في الفروع ، وان هذا ونحوه لا يكاد يتجاوز عند أهل السنة القرن الرابع بحال من الاحول ، اما مـا جاء عن الغزالى في القرن الخامس ، وأبي طـاهر السلفى فى القرن السادس ، وعز الدين بن عبدالله السلام وابن دقيق العيد فى القرن السابع ، وتقى الدين السبكي وابن تيمية فى القرن الثامن والعلامة جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى فى القرن التاسع ... فان هذا ونحوه لا يتجاوز ـ فى نظر المنهج العلمى الحديث ـ باب الفتوى ولا يدخل فى شيء من الاجتهاد ، وهـو القدر الذي أوضحناه فى كتابنا « تاريخ التشريع الاسلامى فى مصر » .

اما علماء الشيعة الامامية فانهم يبيحون لانفسهم الاجتهاد فى جميع صوره التى حدثناك عنها ، ويصرون عليه كل الاصرار ولا يقفلون بابه دون علمائهم في أي قرن من القرون حتى يومنا هذا .

وأكثر من ذلك تراهم يفترضون بل يشترطون وجود «المجتهد المعاصر» بين ظهرانيهم ، ويوجبون على الشيعة اتباعه رأساً دون من مات من المجتهدين مادام هذا المجتهد المعاصر استمد مقومات اجتهاده ـ اصولها وفروعها ـ من المجتهدين ، وورثها عن الائمة كابراً عن كابر .

وليس هذا غاية ما يلفت نظري أو يستهوي فؤادي فى قولهم بالاجتهاد .

وانما الجميل والجديد فى هذه المسألة ان الاجتهاد على هذا النحو الذي

(١) للعلامة المغفورله : الشيخ محمد رضا المظفر راجع ص١٧ ـ ١٨ من المقدمة.

تقرأه عنهم يساير سنن الحياة وتطورها، ويجعل النصوص الشرعية حية متحركة نامية متطورة ، تتمشى مع نواميس الزمان والمكان ، فلا تجمد ذلك الجمود الذى يباعد بين الدين والدنيا، او بين العقيدة والحياة الذى نشاهده فى أكثر المذاهب التى تخالفهم. ولعل مانلاحظه من كثرة عارمة فى مؤلفات الامامية وتضخم مطرد فى مكتبة التشيع راجع ـ فى نظرنا ـ الى فتح باب الاجتهاد على مصراعيه » .

هذا هو الاجتهاد، وهذا دوره فى خلود الدين وصلوحه للظروف والبيئات ولم يكن اغلاقه الا جهلا بأهميته أو ابتغاء للفتنة ، أو تزلفاً الى ابناء الدنيا ، أو جبناً عن النطق بالصواب ، وعلى أى تقدير فقد تنبه بعض الجدد (١) من أهل النظر بلزوم فتحه وانمائه ، وان الاجتهاد أحد مصادر الشريعة التى تسع كل تطور تشريعى ، قال فى مقال له حول الشريعة الاسلامية والقوانين الوضعية بمصر واثبات ما عليه القواعد الشرعية من سمو وشمول ودقة وأحكام مع اتسامها دائماً بالجدة ، وملائمة أحكامها لكل حضارة ولكل بيئة ولكل زمان ، « النصوص الشرعية للاحكام التي وردت في الكتاب والسنة قليلة اذا ماقيست بمواد القانون في أية شريعة وضعية ، اذ الايات القرآنية التى تضمنت اصول الاحكام على ما احصاها ابن قيم الجوزية لا تعدو مائة وعشرين آية من نيف وستة آلاف آية ، اما الاحاديث فخمسمائة من أربعة آلاف حديث ولقد اراد الله بذلك ان يهيىء للناس فرصة الاجتهاد فى الفروع دون الاصول، فجعل النصوص الاصلية لقواعد الشريعة عامة ، دون التعمق فى التفاصيل ليتسع لها عقل من نزل فيهم القرآن وليترك للقوى الانسانية التى أودعها مخلوقاته ، فرصة العمل والتفكير والتدبير واستنباط الاحكام فيما لا نص فيه من كتاب أو سنة ، لما يجد ويعرض لهم فى حياتهم من مشاكل واقضية تختلف باختلاف الزمان والمكان، وهذا هو الاجتهاد وهو أحد مصادر الشريعة المحمدية .

---

(١) الاستاذ على على منصور المصرى مستشار مجلس الدولة لمحكمة القضاء الادارى.

ومشروعية هذا المصدر ثابتة من حديث معاذ بن جبل اذ أنه لما بعثه الرسول (ص) الى اليمن ، قال له : بم تقضى يا معاذ ؟ قال : بكتاب الله . قال الرسول (ص) فان لم تجد ؟ قال : فبسنة رسول الله . قال : وان لم تجد ؟ قال : اجتهد برأيي فأقره على ذلك » (١) وماكان يمكن ان ينزل الكتاب والسنة على غير هذا الاجمال والتعميم ، لان هذه الشريعة انما نزلت لكل زمان وكل مكان « وما ارسلناك الا كافة للناس بشيراً ونذيراً » .

ولو ان صاحب الشريعة عني بالتفاصيل والجزئيات لوجب ان يقدر ماسيكون عليه العالم من نظم مختلفة واختراعات مستحدثة في جميع الامكنة والازمنة فيضع لها ولما تفرع عنها ، من التفاصيل ، ولو انه فعل ذلك لما اتسع وقت الرسالة لهذا كله ، بل لاعرض الناس عن هذه الدعوة لتعقدها ، ولانها تضمنت أحكاماً عن جزئيات ومخترعات لا تقع تحت حسهم ، ويصعب عليهم تصورها ، لانها لم تعرف فى زمانهم ، ولنضرب لذلك مثلا فقد نزلت في القرآن آية تضمنت الحكم العام لاداب التلاوة و جرت على نسق مختصر « واذا قرء القرآن فاستمعوا له وانصتوا لعلكم ترحمون » ، وحدث بعد نزولها بنيف وألف وثلثمائة عام ان اخترع المذياع (الراديو والتلفزيون) ، ولما بدء باذاعة آيات الذكر الحكيم به ، بدأ التسائل عن حكم الشرع والدين في ذلك احلال هو أم حرام ؟ وهل تصح اذاعته فى منتدى ترتكب فيه الاثام والموبقات وتدار كؤوس الخمر؟

لابدع فى ان حكم هذه الجزئية لم يرد بنص صريح فى الكتاب ، وان ذلك ترك للاجتهاد على هدى الحكم العام الوارد بالاية الشريفة ، لا بدع فى ذلك ، اذ لو أريد للشريعة ان تتضمن الاحكام المفصلة لجميع الفروع والجزئيات لوجب أولا افهام الذين نزل عليهم الدين وقت الرسالة ماهو الراديو وما هو التلفزيون ولو حاول الرسول ذلك وقال لهم ان مخترعات البشر باذن الله ستجيء للعالم

(١) قد مر المراد من الحديث فلاحظ.

بعد ألف وثلثمائة عام بآلة يستطيع بها الانسان ان يسمع ويرى صورة المحدث وهو على بعد آلاف الفراسخ والاميال، لما صدقوه لعدم امكانهم تصوره ولجادلوه فأكثروا جداله فى كنه تلك الالة ، ولما لزمتهم حجته فى ان الذي يقوله ليس من عنده وانما هو من عند الله لان الحجة لاتلزمها صفة الاقناع الامتى دخلت مناط العقل ، اما اذا كانت فوق ادراك المرسل اليهم فهى داحضة ...

والاجتهاد هو الباب الذي دخلت منه الى حظيرة الشريعة الاسلامية كل الحضارات بما فيها من مشاكل قانونية ومالية واجتماعية فوسعها جميعاً وبسط عليها من محكم آياته وسديد قواعده ماأصاب المحجة ، فكان للشريعة الاسلامية في ذلك تراث ضخم تسامي على كل الشرائع واحاط بكل صغيرة وكبيرة من أمور الدين والدنيا ...

افبعد ذلك يصح فى الافهام ان تتهم الشريعة الاسلامية بالقصور ، أوبانها نزلت لعرب الجزيرة لتعالج أمورهم فى حقبة من الزمان انقضى عهدها ، أوانها تضيق عن ان تجد الحلول لمشاكل الحضارات الحديثة ، أرجعوا اليها والى تراثها الضخم تجدوا انها عالجت الجليل والخطير والصغير والكبير من أمور الدين والدنيا فيها ذكر ما مضى ، وفيها ذكر الحاضر ، وفيها ذكر المستقبل وسيظل العلم الحديث يكشف عما فيها من كنوز وستترى المشاكل على العالم جيل بعد جيل ، ويضطرب العالم فى محاولة الحلول لها دون جدوى الا اذا رجع الى أحكام هذا الدين وهذه الشريعة المحكمة السمحة، حيث الدواء الشافي والعلاج الحاسم لكل ما يجيب العالم فى حاضره وفى مستقبله (١) .

ومما يؤيد لزوم انفتاح باب الاجتهاد الى يوم القيامة هو ماذكره المقريزي فى خططه حيث قال ما هذا ملخصه :

انه لم يكن كل واحد من أصحاب النبى (ص) متمكنا من دوام الحضور

(١) مجلة رسالة الاسلام لجماعة دار التقريب العدد الاول من السنة الخامسة .

عنده (ص) لاخذ الاحكام عنه ، بل كان فى مدة حياته يحضره بعضهم دون بعض وفى وقت دون وقت ، وكان يسمع جواب النبي (ص) عن كل مسألة يسأل عنها بعض الاصحاب ويفوت عن الاخرين فلما تفرق الاصحاب بعد وفاته (ص) في البلدان تفرقت الاحكام المروية عنه (ص) فيها فيروى فى كل بلدة منها جملة ، ويروى عنه في غير تلك البلدة جملة أخرى حيث انه قد حضر المدني من الاحكام مالم يحضره المصرى ، وحضر المصرى ما لم يحضره الشامي وحضر الشامى ما لم يحضره البصري وحضر البصرى ما لم يحضره الكوفي الى غير ذلك ، وكان كل منهم يجتهد فيما لم يحضره من الاحكام .

ولعدم تساوي هؤلاء المجتهدين في العلوم والادراكات وسائر القوى والملكات تختلف طبعا الاراء والاجتهادات فمجرد تفاوت اشخاص الصحابة تسبب اختلاف فتاواهم ثم تزايد ذلك الاختلاف بعد عصر الصحابة .

ثم قال : ثم بعد الصحابه تبع التابعون فتاوى الصحابة فكانوا لا يتعدون عنها غالباً ، ولما مضى عصر الصحابة والتابعين صار الامر الى فقهاء الامصار أبى حنيفة والسفيان وابن أبي ليلي بالكوفة ، وابن جريح بمكة ، ومالك وابن الماجشون بالمدينة ، وعثمان التيمى (الظاهر عثمان بن مسلم البطى) وسوار بالبصرة ، والاوزاعي بالشام والليث بن سعد بمصر فكان هؤلاء الفقهاء يأخذون من التابعين وتابعيهم أو يجتهدون .

وذكر المقريزي فى الجزء الرابع من الخطط ما هذا ملخصه :

انه تولى القاضي أبو يوسف القضاء من قبل هارون الرشيد بعد سنة ١٧٠ الى أن صار قاضى القضاة فكان لا يولي القضاء الا من اراده ، ولما كان هو من أخص تلاميذ أبي حنيفة فكان لم ينصب للقضاء ببلاد خراسان والشام والعراق وغيرها الا من كان مقلداً لابي حنيفة، فهو الذي تسبب فى نشر مذهب الحنيفة في البلاد .

وفى أوان انتشار مذهب الحنفيـة في المشرق نشر مذهب مالك في افريقية المغرب ، بسبب زياد بن عبد الرحمان ، فانه أول من حمل مذهب مالك اليها، وأول من حمل مذهب مالك الى مصر سنه ١٦٠ هو عبد الرحمان بن القاسم.

قال : ونشر مذهب محمد بن ادريس الشافعي في مصر بعد قدومه اليها سنة ١٩٨ وكان المذهب فى مصر لمالك والشافعى الى أن أتى القائد «جوهر» بجيوش مولاه «المعز لدين الله أبي تميم معد» الخليفة الفاطمى الى مصر سنة ٣٥٨ فشاع بها مذهب الشيعة حتى لم يبق بها مذهب سواه (أى سوى مذهب الشيعة) .

ثم ان المقريزي بين بدء انحصار المذاهب فى أربعة فقال:

فاستمرت ولاية القضاة الاربعة من سنة ٦٦٥ حتى لم يبق فى مجموع امصار الاسلام مذهب يعرف من مذاهب الاسلام غير هذه الاربعة وعودي من تمذهب بغيرها، وانكر عليه ولم يول قاض ولا قبلت شهادة أحد مالم يكن مقلداً لاحد هذه المذاهب وافتى فقهاؤهم فى هذه الامصار فى طول هذه المدة بوجوب اتباع هذه المذاهب وتحريم ما عداها ، والعمل على هذا الى اليوم (١) .

وهذه الكلمة الاخيرة «وتحريم ماعداها» تكشف عن أعظم المصائب على الاسلام حيث انه قد مضى الاسلام مايقرب من سبعة قرون ومات فيها على دين الاسلام مالايحصي عددهم الاربهم ولم يسمع أحد من أهل القرنين الاولين اسم المذاهب أبداً ثم فيما بعد القرنين كان المسلمون بالنسبة الى الاحكام الفرعية في غاية من السعة والحرية، كان يقلد عاميهم من اعتمد عليه من المجتهدين وكان المجتهدون يستنبطون الاحكام عن الكتاب والسنة على موازينهم المقررة عندهم فى العمل بالسنة النبوية فأى شيء أوجب فى هذا التاريخ على عامة المسلمين : « العامى المقلد والفقيه المجتهد» ان لايخرج أحد فى الاحكام الشرعية عن حد تقليد الائمة الاربعة وبأي دليل شرعي صار اتباع أحد المذاهب الأربعة واجبا مخيراً، والرجوع الى ماورائها

(١) راجع الخطط المقريزية ج ٢ ص ٣٣٣ و ٣٣٤ و ٣٤٤ .

حراماً معينا مع علمنا باحوال جميع المذاهب من بدئها وكيفية نشرها وتأثير العوامل فى تقدم بعضها على غيرها ، بالقهر والغلبة من الدولة والحكومة كما افصح عن بعض ذلك ما ذكره ابن الفوطى فى الحوادث الجامعة ، ص ٢١٦ فى وقائع سنة ٦٤٥ يعنى قبل انقراض بني العباس بأحدى عشرة سنة في أيام المستعصم الذى قتله هولاكو ، سنة ٦٥٦ فلاحظ ذلك الكتاب (١) .

وفى الختام نلفت نظر القارىء الكريم لمعرفه قضية الاجتهاد وتطوره وعلل ايصاد بابه لدى بعض المسلمين الى المصادر التالية :

١ ـ المواعظ والاعتبار فى الخطط والاثار تأليف الشيخ تقى أبو العباس المعروف بالمقريزي المولود فى بعلبك عام ٧٦٦ والمتوفى بالقاهرة عام ٨٤٥ .

٢ ـ تاريخ اليعقوبي المعروف بابن واضح وقد طبع عام ١٣٥٨ .

٣ ـ الحوادث الجامعة فى المأة السابعة لكمال الدين عبد الرزاق ابن المروزى الفوطى البغدادي المتوفى سنة ٧٢٣ .

٤ ـ الانصاف فى بيان سبب الاختلاف .

٥ ـ عقد الجيد فى أحكام الاجتهاد والتقليد الفهما ولي الله الدهلوي المولود سنة ١١١٤ والمتوفى ١٠٨٠ .

٦ ـ الاقليد لادلة الاجتهاد والتقليد .

٧ ـ الطريقة المثلى فى الاشارة الى ترك التقليد الفهما صديق حسن خان القنوجى البخاري المتوفى سنة ١٣٠٧ ، وطبعا بالاستانة عام ١٢٩٥ .

٨ ـ حصول المأمول من علم الاصول له أيضا طبع في الجوائب سنه ١٢٩٦ .

٩ ـ مقالة صاحب السعادة أحمد تيمور باشا ابن اسماعيل بن محمد المولود فى القاهرة سنه ١٢٨٨ وهي تحت عنوان نظرة تاريخية في حدوث المذاهب الاربعة ،

(١) راجع تاريخ حصر الاجتهاد لشيخنا العلامة الطهرانى ص ١٠٤ .

طبعت مستقلة فى القاهرة سنه ١٣٤٤ .

١٠ ـ ماكتبه محمد فريد وجدي في دائرة معارفه فى مادتى «جهد وذهب» وماكتبه يعد ابسط ماكتب فى الموضوع .

١١ ـ أعلام الموقعين عن رب العالمين للحافظ ابن القيم .

١٢ ـ تاريخ حصر الاجتهاد لشيخنا العلامة الطهرانى المتوفى يوم الجمعة ١٣ ذى الحجة عام ١٣٨٩ .

الى غير ذلك من المؤلفات، وقد أشار الى غيرما ذكرنا صديق حسن خان فى كتابه حصول المأمول فى علم الاصول ص ١٩٨ .

الحقيقة بنت البحث :

كلمة موجزة ومثل سائر ، يهدف الى أوضح الحقائق وأنصعها ويفيد أن الوقوف على الحقيقة واماطة الستر عن وجهها وليد النقاش العلمى ووليد المحادثة وهذا مما لا يرتاب فيه أحد ويدركه كل من له حظ من الفكر والنظر .

وفى الحقيقة ان التقاء أفكار ذوي الاراء كالتقاء الاسلاك الكهربائية، فكما ان الاشعة الكهربائية ، تتفجر من اتصالها سلباً وايجاباً ، فكذلك نور الحقيقة يشع أمامنا بتبادل الفكرتين وتعارضهما بالنفي والايجاب .

اذ طالما يتخيل للانسان أنه صائب فى فكره ونظره ، فاذا عرضه للبحث والنقاش وتوارد عليه النفى والاثبات ربما ظهر وهنه وضعفه .

نعم يجب على الباحث عن الحقيقة أن يعرض آراءه وأفكاره للجو الهادىء المتحرر عن التعصب لفئة غابرة، أو فكرة حاضرة، الشاخص امام كل رأي فارغ عن الدليل والبرهنة ، فالاجتهاد بهذا النحو رمز كشف الحقيقة ، رمز خلود الاسلام وبقائه، رمز كونه غضاً طرياً فى كل عصر وجيل.

نعم ربما يجد الناشىء الجديد فى نفسه حرجاً عند وقوفه على اختلاف

أصحاب الاراء و المذاهب في اصول الاسلام وفروعه ، ويتخيله حاجزاً يعرقل خطاه عن الوصول الى الواقع، ويتمنى رفع الخلاف الفكري في المسائل من رأس بتأسيس مؤتمرات علمية من ذوي الافكار .

بل ربما نسمع من بعض الشباب سؤالا يوجهه الى الهيئات العلمية الاسلامية ويقول كان في وسع النبي (ص) ان يجمع اصول الاسلام وفروعه و كل مايرجع اليه في كتاب ، ويتركه بين الامة حتى يسد بذلك باب التقول من بعده على المتقولين ، فلماذا لم يفعل ذلك ؟ ! .

لكنه رأي غير ناضج، اذ لو جمعها النبي في كتاب وسلمه الى الامة، لاستولى الركود الفكري والتدهور العقلي على عقلية الامة ، وانحسر كثير من المفاهيم والقيم الاسلامية عن ذهنيتها، وأوجب ضياع العلم وتطرق التحريف الى أصوله وفروعه حتى الى الكتاب الذي كتب فيه كل صغير و كبير .

فلم تقم للاسلام دعامة ، ولا حفظ كيانه ونظامه، الاعلى ضوء هذه البحوث العلمية والنقاشات الدارجة بين العلماء ، ورد صاحب فكر على ذي فكر آخر بلا محاباة .

وقد حكى شيخنا العلامة المتضلع شيخ الشريعة الاصفهاني (١) في مقدمة كتابه (٢) عن بعض الاعلام كلاماً يعرب عما قلناه ، قال : ان عدم محاباة العلماء بعضهم لبعض من اعظم مزايا هذه الامة التي اعظم الله بها عليهم النعمة، حيث حفظهم عن وصمة محاباة اهل الكتابين ، المؤدية الى تحريف ما فيها، واندراس

---

(١) فقيه متضلع ، اصولي بارع ، خبير باسرار الحديث والتفسير فهو ممن يضن بهم الدهر الا في فترات يسيرة ، كان رحمه الله آية في الذكاء والحفظ ، اثنى عليه كل من ادركه وقرأ عليه ، توفي عام ١٣٣٩ هجرية قمرية في النجف الاشرف ودفن في الصحن الحيدري .

(٢) ابانة المختار ، مخطوط نحتفظ بنسخة منه .

تينك الملتين ، فلم يتركوا لقائل قولا فيه ادنى دخل الا بينوه ، ولفاعل فيه تحريف ، الا قوموه ، حتى اتضحت الاراء وانعدمت الاهواء ودامت الشريعة البيضاء على ملء الافاق بأضوائها وشفاء القلوب بها من أدوائها ، مأمونة عن التحريف ، ومصونة عن التصحيف .

شبهة حول الاجتهاد الدراج فى عصرنا :

ربما يختلج فى اذهان بعض القصر من الناس عدم مشروعية الاجتهاد الدارج فى اعصارنا هذه مستدلا بأن الفقه فى هذه الاعصار أخذ لنفسه صورة فنية ، وجاء على طراز سائر العلوم العقلية الفكرية بعدما كان فى اعصار المتقدمين من العلوم البسيطة المبنية على سماع الاحكام من النبي والائمة وبثها بين الناس من دون ان يجتهد الراوي فى تشخيص حكم الله ويرجح دليلا على الاخر ، أو يقيده أو يخصص واحداً بالاخر ، الى غير ذلك من الاصول الدارجة فى زماننا .

الجواب عن الشبهة :

ان ذلك اشبه شيء بالشبهة ويمكن الجواب عنه بوجهين :

الاول : ان الاجتهاد بالمعنى الوسيع واعمال النظر فى الروايات، والتدقيق فى دلالتها ، وترجيح بعضها على بعض ، كان موجوداً فى اعصارهم ، دارجاً بين اصحابهم فان الاجتهاد وان توسع نطاقه فى اعصارنا وبلغ مبلغاً عظيماً ، الا ان اصل الاجتهاد بالمعنى الجامع بين عامة مراتبه كان دارجاً فى تلك الاعصار وان الائمة ارجعوا شيعتهم الى فقهاء اعصارهم ، وكانت سيرة الناس الرجوع اليهم من دون تزلزل وتردد ، اما ما يدل على وجود الاجتهاد بهذا المعنى فى اعصارهم فعدة روايات هي :

١ ـ مارواه ابن ادريس فى «مستطرفات السرائر» نقلا عن هشام بن سالم عن أبي عبدالله عليه السلام قال: انما علينا نلقي اليكم الاصول وعليكم ان تفرعوا(١).

٢ ـ ما روى عن كتاب احمد بن محمد بن ابى نصر عن الرضا (ع) «قال علينا القاء الاصول وعليكم التفريع» (٢) فان التفريع الذي هو استخراج الفروع عن الاصول الكلية الملقاة، وتطبيقها على مواردها وصغرياتها، انما هو شأن المجتهد وما هو الا الاجتهاد، نعم التفريع والاجتهاد يتفاوت صعوبة كما يتفاوت نطاقه حسب مرور الزمان، فاذا قال (ع) لاتنقض اليقين بالشك او روى عن النبي (ص) لاضرر ولاضرار، كان على المخاطبين وعلى علماء الاعصار المستقبلة استفراغ الوسع فى تشخيص صغرياتها وما يصلح ان يكون مصداقاً له او لا يصلح، فهذا هوما نسميه الاجتهاد.

٣ ـ ما رواه الصدوق فى معانى الاخبار عن داود بن فرقد: قال سمعت أبا عبدالله (ع) يقول أنتم أفقه الناس اذا عرفتم معاني كلامنا ان الحكمة لتصرف على وجوه ولو شاء انسان لصرف كلامه كيف شاء ولا يكذب (٣).

فان عرفان معاني الكلام ليس الا تشخيص ما هو الاظهر بين المحتملات، بالفحص عن القرائن الحافة بالكلام وبعرض اخبارهم على الكتاب والسنة الى غير ذلك مما يتضح به المراد، ويتعين ما هو المفاد، وليس هذا الا الاجتهاد.

٤ ـ ما رواه الصدوق فى عيونه بأسناده عن الرضا (ع) قال: من رد متشابه القرآن الى محكمه فقد هدي الى صراط مستقيم، ثم قال: ان فى اخبارنا محكما كمحكم القرآن ومتشابهاً كمتشابه القرآن فردوا متشابهها الى محكمها، ولا تتبعوا متشابهها دون محكمها فتضلوا (٤) فان رد المتشابه الى محكمه يجعل

(١و٢) وسائل الشيعة ج ١٨ كتاب القضاء الباب السادس من ابواب صفات القاضى الحديث ٥١و٥٢.

(٣) الوسائل ج١٨ كتاب القضاء الباب التاسع من ابواب صفات القاضى الحديث ٢٧.

(٤) الوسائل ج١٨ كتاب القضاء الباب التاسع من ابواب صفات القاضى الحديث ٢٢.

أحدهما قرينة على الاخر ، لايتحقق بدون الاجتهاد .

٥ ـ الروايات الواردة فى تعليم أصحابهم كيفية استفادة الاحكام والفروع عن الذكر الحكيم ، مثل قول الامام الباقر (ع) بعد ما سأله زرارة بقوله : الا تخبرني من أين علمت ان المسح ببعض الرأس وبعض الرجلين فضحك وقال: يا زرارة قاله رسول الله (ص) ونزل به الكتاب عن الله عزوجل قال فاغسلوا وجوهكم فعرفنا ان الوجه ، كله ينبغي ان يغسل ثم قال وأيديكم الى المرافق فوصل اليدين الى المرفقين بالوجه فعرفنا انه ينبغي لهما ان يغسلا الى المرفقين، ثم فصل بين الكلام فقال وامسحوا برؤوسكم ، فعرفنا حين قال : برؤوسكم ان المسح ببعض الرأس لمكان الباء ثم وصل الرجلين بالرأس كما وصل اليدين بالوجه فقال وأرجلكم الى الكعبين فعرفنا حين وصلهما بالرأس ان المسح على بعضهما ثم فسر ذلك رسول الله (ص) فضيعوه (١).

٦ ـ ما فى رواية عبد الاعلى مولى آل سام بعد ما سأل عن الامام عن حكم المسح على المرارة . قال : هذا واشباهه يعرف من كتاب الله عزوجل قال الله تعالى : «ماجعل عليكم فى الدين من حرج » امسح على المرارة ، فقد أوضح على السائل كيفية الاستنباط، ورد الفروع على اصولها(٢) ونظير ماتقدم بل اقوى منه ما مرسلة (٣) يونس الطويلة الواردة فى أحكام الحائض والمستحاضة، فان فيها موارد ترشدنا الى طريق الاجتهاد الى غير ذلك من الروايات المرشدة اى دلالة الكتاب و كيفيه الاستدلال، وهي منبثة فى طيات أبواب الفقه فراجع:

٧ ـ قول الباقر (ع) لزرارة ومحمد بن مسلم حيث سأل عن أبي جعفر الباقر (ع) وقال له ما تقول فى الصلاة فى السفر كيف هى و كم هي فقال ان الله

---

(١) الوسائل ج١ ابواب الوضوء الباب ٢٣ الحديث ١ .

(٢) الوسائل ج١ ابواب الوضوء الباب ٣٩ الحديث ٥ .

(٣) وسائل الشيعة ج٢ ابواب الحائض الباب ٣ الحديث ٤ .

عزوجل يقول «واذا ضربتم فى الارض فليس عليكم جناح ان تقصروا من الصلاة» (النساء ـ ١٠٢).

فصار التقصير فى السفر واجباً كوجوب التمام فى الحضر قالا قلنا انما قال الله عزوجل « فليس عليكم جناح » ولم يقل « افعلوا » فكيف أوجب ذلك كما أوجب التمام فى الحضر ؟ فقال (ع) أو ليس قد قال الله عزوجل « ان الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلاجناح عليه ان يطوف بهما» (البقرة ـ ١٥٣).

الا ترون ان الطواف بهما واجب مفروض لان الله عزوجل ذكره فى كتابه وصنعه نبيه وكذلك التقصير شيء صنعه النبي وذكره الله فى كتابه (١).

٨ ـ مقبولة عمر بن حنظلة ورواه المشايخ العظام فى جوامعهم وتلقاها الاصحاب بالقبول، بل عليها المدار فى كتاب القضاء وهي تصرح بوجود الاجتهاد بالمعنى الدارج فى زماننا فى عصر الصادق (ع) ودونك منتها: سألت أباعبدالله عليه السلام عن رجلين من أصحابنا بينهما منازعة فى دين أو ميراث فتحا كما الى السلطان أو الى القضاة ، ايحل ذلك ؟ قال : من تحاكم اليهم فى حق أو باطل فانما تحاكم الى الطاغوت وما يحكم له فانما يأخذه سحتا وان كان حقه ثابتاً لانه أخذ بحكم الطاغوت ـ الى ان قال ـ قلت : كيف يصنعان ؟ قال : ينظران الى من كان منكم ممن قد روى حديثنا ونظر فى حلالنا وحرامنا وعرف احكامنا فليرضوا به حكماً فاني جعلته عليكم حاكماً ومن رده فانما بحكم الله استخف ، وعلينا قد رد والراد علينا كالراد على الله وهو على حد الشرك بالله قلت: فان كان كل واحد اختار رجلا من اصحابنا فرضيا ان يكونا الناظرين فى حقهما فاختلفا فيما حكما وكلاهما اختلفا فى حديثكم، قال: الحكم ما حكم به

(١) الوسائل ج٥ ابواب صلاة المسافر الباب ٢٢ الحديث ٢.

اعدلهما وافقهما واصدقهما في الحديث و أورعهما ولايلتفت الى ما يحكم به الاخر .

قال قلت فانهما عدلان مرضيان عنداصحابنا لايفضل واحد منهما على صاحبه قال : فقال ينظر الى ما كان من روايتهما عنا في ذلك الذي حكما به ، المجمع عليه عند اصحابك فيؤخذ به من حكمنا ويترك الشاذ الذى ليس بمشهور عند اصحابك ، فان المجمع عليه لاريب فيه الى آخر ما افاده وفيه ارشاد الى كيفية استنباط الحكم عن الكتاب والسنة ، وعلاج الخبرين المتعارضين بعرضهما عليهما (١) .

٩ ـ روى العباس بن هلال عن أبى الحسن الرضا (ع) قال ذكر ان ابن أبي ليلى وابن شبرمة دخلا المسجد الحرام فاتيا محمد بن علي (ع) فقال لهما : بماتقضيان؟ فقالا: بكتاب الله والسنة قال: فما لم تجداه فى الكتاب والسنة؟ قالا: نجتهد رأينا قال (ع) : رأيكما أنتما.

فما تقولان في امرأة وجاريتها كانتا ترضعان صبيين فى بيت وسقط عليهما فماتتا وسلم الصبيان قالا : القافة ، قال : القافة يتجهم منه لهما ، قالا : فاخبرنا ، قال : لا ! !

قال ابن داود : مولى له جعلت فداك بلغنى ان أمير المؤمنين علياً (ع) قال: ما من قوم فوضوا أمرهم الى الله والقواسهامهم الا خرج السهم الاصوب فسكت (٢) .

١٠ ـ روى الصيقل عن أبي عبدالله (ع) قلت: رجل طلق امرأته طلاقاً لاتحل له حتى تنكح زوجاً غيره فتزوجها رجل متعة اتحل للاول ، قال (ع) : لا ، لان الله تعالى يقول : فان طلقها فلاتحل له حتى تنكح زوجاً غيره فان طلقها ـ الاية ـ

(١) الوسائل كتاب القضاء ج ١٨ الباب التاسع من ابواب صفات القاضى الحديث ١.

(٢) التهذيب ج ٩ باب ميراث الغرقى والمهدوم عليهم ص ٣٥٩.

والمتعة ليس فيها طلاق (١) .

١١ ـ روى الحسن بن الجهم قال : قال لي أبو الحسن الرضا (ع) : ياأبا محمد ماتقول في رجل يتزوج نصرانية على مسلمة ، قلت : جعلت فداك وما قولى بين يديك ، قال : لتقولن فان ذلك تعلم به قولى ، قلت : لا يجوز تزويج نصرانية على مسلمة ولا على غير مسلمة ، قال : ولم ، قلت : لقول الله ولا تنكحو المشركات حتى يؤمن ، قال: فما تقول هذه الاية:

«والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم» قلت فقوله: «ولاتنكحوا المشركات» نسخت هذه الاية فتبسم(ع) ثم سكت(٢).

١٢ ـ بل يظهر من كثير من الروايات وجود الاجتهاد بين أصحاب الائمة ونورد من تلكم الروايات حديثاً واحداً .

روى حسن بن محمد بن سماعة قال : سمعت جعفر بن سماعة وسئل عن امرأة طلقت على غير السنة : ألي أن اتزوجها، فقال: نعم ، فقلت : أليس تعلم أن على بن ابى حمزة، روى «اياكم والمطلقات ثلاثاً على غير السنة فانهن ذوات الازواج » فقال: يابني رواية علي بن أبي حمزة أوسع على الناس، قلت : وأي شيء روي علي بن ابى حمزة قال: روي عن أبي الحسن انه قال: الزموهم من ذلك ما الزموا به أنفسهم ، وتزوجوهن فانه لا بأس بذلك (٣) .

فقد أجتهد جعفر بن سماعة حيث قدم الخبر الثانى على الاول بأحدى ملاكات التقديم .

وقد الف فى هذا المضمار العلامة الحجة السيد عبد الرسول الشيرازي رسالة ممتعة وطبع قسم منها في بعض المجلات نسأل الله ان يوفقه لنشر الجميع.

(١) الوافى ج ٣ ابواب النكاح باب تحليل المطلقة لزوجها ص ٤٧ .

(٢) الوافى ج ٣ ص ٢٦ باب نكاح الذمية المشركة .

(٣) الوافى ج ٢ كتاب الطلاق ص ١٦١ باب ان المخالف يقع طلاقه .

الخامس : حقوق الحاكم الاسلامى :

من الاسباب الباعثة على بقاء الدين و كونه ذا مادة حيوية صالحة لحل المشاكل والمعضلات الطارئة ، كون الحاكم الاسلامى بعد النبي ممثلا لقيادته الحكيمة في أمور الدين والدنيا ، التى من شأنها ان توجه المجتمع البشرى الى ارقى المستويات الحضارية الصحيحة، فقدمنح مثل هذا الحاكم بنص الشريعة الاسلامية كافة الصلاحيات المؤدية الى حق التصرف المطلق فى كل ما يراه ذا صلاحية للامة ، لانه يتمتع بمثل ما يتمتع به النبي والامام من النفوذ المطلق ، الامايعد من خصائصهما .

والى ذلك يشير شيخ الامة الميرزا النائينى فى أثره الخالد « تنبيه الامة وتنزيه الملة » ويقول : « فوض الى الحاكم الاسلامي وضع ما يراه لازماً من المقررات لمصلحة الجماعة وسد احتياجاتها، فى اطار القوانين الاسلامية » (١).

مثلا اذا رأى الحاكم، ان المصلحة تقتضى فتح طريق أوشارع ، فقدفوض اليه ذلك الامر، فله ان يقرر وينفذ مايحقق هذه الغاية، فى ضوء العدل والانصاف كاجبار أصحاب الاراضى التي يمر بها الطريق على بيع أراضيهم ووضع ضريبة على صنف خاص من الشعب ، أو كله لتأمين هذه الغاية .

وله ان يقرر ما يراه مناسباً لتنظيم السير ، متوخياً في ذلك سلامة النفوس وسهولة الذهاب والاياب ، كل ذلك في اطار القوانين العامة الاسلامية .

وهذه الحقوق كانت ثابتة في الدرجة الاولى، للنبى الاعظم، لقوله تعالى:

---

(١) تنبيه الامة وتنزيه الملة ص ٩٧ ولا ينافى ما ذكره شيخ الامة المحقق النائينى مع ما حققناه فى الجزء الاول من كون التقنين والتشريع مختصا بالله سبحانه، فان ما يضعه الحاكم الاسلامى ، او مجلس الشورى انما هو من قبيل التخطيط، وتطبيق الكليات على مواردها لامن قبيل التشريع والتأسيس .

« النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم » (الاحزاب - ٦) ، وبعده لخلفائه المعصومين ، أئمة الدين ، وفوضت من بعدهم، الى علماء الامة وفقهائهم الذين القيت على كواهلهم أمور تدبير حياة الامة ، وصيانة الشريعة ، بالادلة القطعية المقررة فى محلها .

ان الحاكم الاسلامي اذا نجح فى تأسيس حكومة اسلامية في قطر من اقطار الاسلام أو فى مناطقه كلها وتوفرت فيه الشرائط والصلاحيات اللازمة وأخص بالذكر العلم الوسيع والعدل ، يجب على المسلمين اطاعته ، وله من الحقوق والمناصب والولاية، ماللنبي الاكرم من اعداد القوات العسكرية ودعمها بالتجنيد وتعيين الولاة وأخذ الضرائب وصرفها فى محالها الى غير ذلك . . .

وليس معنى ذلك ان الفقهاء والحكام الاسلاميين مثل النبي والائمة فى جميع الشؤون والمقامات حتى في الفضائل النفسانية والدرجات المعنوية فان ذلك رأي تافه لا يركن اليه، اذ ان البحث انما هو فى الوظائف المحولة الى الحاكم الاسلامي والموضوعة على عاتقه لا في المقامات المعنوية والفضائل النفسانية، فانهم (ص) فى هذا المضمار في درجة لايدرك شأوهم ولا يشق لهم غبار حسب روائع نصوصهم وكلماتهم .

وليست السلطة مفخرة للحاكم يعلو بها على سائر المحكومين بل هي من وجهة النظر الاسلامية مسؤلية اجتماعية كبرى امام الله سبحانه أولا وامام المسلمين ثابتاً والجهة الجامعة ما بين الحاكم والامام فى ادارة دفة الحكم وسياسة العباد ليس لها أى ارتباط بالمثل الخلقية والصفات النفسانية (١) .

وهذه الوجوه التى مرت عليك بالاجمال أوجبت خلود الشريعة ، وبقاءها وصلاحها لادارة المجتمع فى الاعصار كلها، مع اختلافها فى الحضارة والتقدم.

* * *

(١) ولاية الفقيه للاستاذ الاكبر الامام الخمينى دام ظله الوارف ص ٦٣ - ٦٦ . وقد اشبعنا الكلام حول حقوق الحاكم الاسلامى فى الجزء السابق فلاحظ .

الامر الثانى مرونة أحكامه :

مـن الاسباب الدافعة الى صلوح الاسلام للبقاء والخلود ، مرونـة أحكامه التى تمكنه من أن يماشي جميع الازمنة والحضارات ، وقد تمثلت هذه المرونة بامور:

١ ـ الاسلام دين جامع ، والامة الاسلامية أمة وسط :

ان من الاسباب التى أوجبت ، خلود الدين الاسلامي ، وأعطته الصلاحية للبقاء مع اختلاف الظروف وتعاقب الاجيال ، كونه ديناً جامعاً بين الدعوة الى المادة والدعوة الى الروح، ديناً وسطاً بين المادية البحتة والروحية المحضة ، فقد ألف بتعاليمه القيمة بينهما، موالفة تفي بحق كل منهما ، بحيث يتيح للانسان أن يأخذ قسطه من كل منهما بقدر ما تقتضيه المصلحة .

وذلك أن المسيحية غالت في التوجه الى الناحية الروحية ، حتى كادت أن تجعل كل مظهر من مظاهـر الحياة المادية خطيئة كبرى ، فدعت الى الرهبانية والتعزب وترك ملاذ الحياة والانعزال عن المجتمع، والعيش في الاديرة وقلل الجبال ، وتحمل الظلم والرفق مع المعتدين ، كما غالت اليهودية في الانكباب على المادة حتى نسيت كـل قيمة روحية ، وجعلت الحصول على المادة بـأي وسيلة كانت، المقصد الاسنى ، ودعت الى القومية الغاشمة والطائفية الممقوتة.

وهذه المبادىء سواء أصحت عن الكليم والمسيح (ع) أم لم تصح (ولن تصح الا أن يكون لاصـلاح انغمار الشعب الاسرائيلى فى ملاذ الحياة يوم ذاك وانجائهم عن التوغل فى الماديات وسحبهم الى المعنويات بشدة وعنف) وان شئت قلت : « كانت تعاليمه اصلاحـاً مؤقتا لاسراف اليهود وغلوهم فى عبادة المال حتى افسد اخلاقهم وآثروا دنياهم على دينهم والغلو يقاوم موقتا بضده »(١).

(١) الوحى المحمدى ص ١٥٣ .

لا تتماشى مع الحضارات الانسانية التقدمية ولا تسعدها في معترك الحياة ، ولا تتلائم مع حكم العقل ولا الفطرة السليمة .

لكن الاسلام جاء لينظر الى واقع الانسان ، بما هو كائن ، لا غنى له عن المادة ، ولا عن الحياة الروحية ، فأولاهما عنايته، فدعا الى المادة والالتذاذ بها بشكل لا يؤثر معه على الحياة الروحية ، كما دعا الروحية بشكل لا يصادم مع فطرته وطبيعته .

وحصيلة البحث: انه لم يعطل الفطرة في تشريعه وتقنينه ، بل جعلها مقياساً لحكمه بالوجوب والتحريم، فاذاكان الحكم مطابقاً لطبع من شرعت له الاحكام حافظاً لكيانه ، لا يتعارض مع ما يحتاج اليه جسمه وروحه ، كان ماضياً ونافذاً حسب بقاء الفطرة ودوامها .

وأما تفصيل الايات التي تمثل رأى الاسلام في الدعوة الى الدين والدنيا ، الى الروح والجسم ، الى المادة والمعنى ، فليرجع فيه الى الكتب المعدة لبيان ذلك .

ونختم البحث بكلمة عن أمير المؤمنين (ع) حيث قال : للمؤمن ثلاث ساعات ، ساعة يناجي فيها ربه ، وساعة يرم فيها معاشه ، و ساعة يخلى بين نفسه ولذاتها (١) .

فقد قرن بين عبادة الله وطلب الرزق وترفيه النفس ، بحيث جعل الجميع في مستوى واحد ، فندب الى عبادة الله ، كما ندب الى طلب المعاش ، وتوخي اللذة بحكم واحد بلا مفاضلة .

فلو كان اداء الصلاة والصوم والقيام بالحج وظيفة دينية ، فشق الطريق لطلب الرزق والمعاش، والقيام بنزهة بين الرياض أو سباحة فى البحر والعمل الرياضي البدني ، وظيفة دينية للمؤمن ، كما نص الامام عليه السلام .

(١) نهج البلاغة ، باب الحكم ، رقم ٣٩٠ .

وهذا من الاسس التي تنسجم مع الاسلام وتحول بينه وبين التصادم مع الحضارات المتواصلة ، الى عصرنا هذا ، فاذا كان المنهج، منهجاً متوسطاً بين المادية والروحية ، مطابقاً لفطرة الانسان انقادت له مقاليد الحضارات الانسانية الصاعدة وارتفع التصادم .

٢ ـ النظر الى المعانى ، لا المظاهر:

ان الاسلام ، ينظر الى المعاني والحقائق ، لا المظاهر والقشور ، ولذلك لا تجد فى الاسلام مظهراً خاصاً من مظاهر الحياة ، له من القداسة ما يمنع تغييره ، ويوجب حفظه الى الابد بشكله الخاص ، ولاجل ذلك لا يقع التصادم بين تعاليمه مع التقدم العلمى الهائل فى مظاهره ، واشكاله الخارجية .

توضيحه : انه لا شك انه كان فى زمن النبي (ص) هندسة خاصة للمساكن والبيوت، وشكل خاص فى المأكل والملبس ونمط خاص لبث العلم والتربية.. غير ان الذى كان يهم الاسلام ـ في جميع الازمنة ـ لم يكن تخطيط الحياة البشرية على تلك الاشكال والانماط بل كان الحقيقة والجوهر من كل ذلك، فان الذى يبتغيه الدين الاسلامى هو وجود المسكن وتوفر الملبس واشاعة العلم والتربية ، وكون الغذاء حلالا طيبا طاهراً .

واما الكيفية والشكل والصورة فلا يهم الدين ولا يحدد شيئا فى مجاله ، فليكن البيت بأية هندسة كانت، ولتصنع الملابس بأي شكل كان، وليطبخ الناس طعامهم على النحو الذي يريدون، وليشاع العلم بأية وسيلة كانت فليس كل ذلك مهما ومطروحا للدين . .

وهذا هو سر خاتمية الدين الاسلامى وهذا هو سر خلوده، وتمشيه مع تطور الحياة ، وتقدم الحضارات .

والذي يوقفك على ذلك ان بيع الدم وشراءه كان من المعاملات المحرمة

ومصداقا لقوله سبحانه .

« ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » (البقرة ـ ١٨٧)

وذلك لعدم وجود منفعة محللة للدم ولذلك قال الشيخ الاعظم الانصارى فى مكاسبه (ص ٤١) .

« تحرم المعاوضة على الدم بلا خلاف » بل عن النهاية وشرح القواعد لفخر الدين والتنقيح : « الاجماع عليه ، وتدل عليه الاخبار » .

بيد ان تقدم العلوم والحضارة أوجد للدم منفعة محللة كبيرة ، فعليها تقوم « العملية الجراحية » ومداوة الجرحى عن طريق الحقن الدموية .

ولهذا عادت المعاملة بالدم ـ فى هذا العصر ـ معاملة صحيحة ، لا بأس بصحتها وجوازها .. وليس هذا من قبيل منسوخية الحكم بل لتبدل الحكم بتبدل موضوعه كتبدل الخمر الى الخل .

وقس على ذلك سائر الامور فللاسلام خاصية الاهتمام باللب والجوهر في عامة المجالات وهذا أحد العناصر التى تجعله يساير مع عامة الحضارات الانسانية الى قيام يوم الدين .

٣ ـ الاحكام التى لها دور التحديد :

من الاسباب الموجبة لمرونة هذا الدين وانطباقه على جميع الحضارات الانسانية تشريعه للقوانين الخاصة التى لها دور التحديد والرقابة بالنسبة الى عامه تشريعاته وقد اصطلح عليها الفقهاء ، بالادلة الحاكمة ، لاجل حكومتها وتقدمها على كل حكم ثبت لموضوع بما هو هو . فهذه القوانين الحاكمة ، تعطى لهذا الدين مرونة يماشى بها كل حضارة انسانية ، مثلا : قوله سبحانه :

« وما جعل عليكم في الدين من حرج » (الحج ـ ٧٨) حاكم على كل تشريع استلزم العمل به حرجاً ، لا يتحمل عادة ، للمكلف ، فهو مرفوع ، فى

الظروف الحرجية، ومثلا قوله (ص) : «لا ضرر ولا ضرار» فكل حكم استتبع العمل به ضرراً شديداً ، فهو مرفوع فى تلك الشرائط ، وقس عليهما غيرهما من القوانين الحاكمة .

نعم تشخيص الحاكم عن المحكوم ، وما يرجع الى العمل بالحاكم من الشرائط ، يحتاج الى الدقة والامعان والتفقه والاجتهاد . ومن رأينا ان الموضوع يحتاج الى التبسط أكثر من هذا ، فالى مجال آخر أيها القارىء الكريم .

خاتمة المطاف :

ان بعض الكتاب من الجدد طرح سؤالا فى المقام وجاء بجواب مبهم أوجد قلقاً واستياء فى الاوساط العلمية ونحن ننقله بتعريب منا :

السؤال : انكم تذهبون الى ضرورة التكامل حتى فى وجود شخص النبى وأثبتم ان كل موجود يحتاج الى السير التكاملى. اذن لماذا كان النبي محمد يقول: انا خاتم النبيين .

الجواب: لقد أجاب على قسم من هذا الفيلسوف الاسلامى الكبير « محمد اقبال » وأضيف أنا الجواب على بقيته ، وهو ما أذهب اليه وأنا مسؤول عنه ، فأقول: عند ما يقول النبي: « أنا خاتم الانبياء » لا يريد أن يقول: « ان التشريعات التى أتيت بها تكفى البشرية الى الابد » بل الخاتمية تريد أن تقول : كان الانسان يحتاج حتى الآن ـ لاستمرار حياته الى الهداية بماوراء ما يستمده من عقله وما توحيه تربيته البشرية ، والآن فى هذا العصر (القرن السابع الميلادى) وبعد أن اوجدت المدنية اليونانية وحضارة روما والتمدن الاسلامى، وبعد أن انزل القرآن والانجيل والتوراة ، بلغت التربية المذهبية الى الحد الذي كان لابد منه. وبعد هذا العصر ـ وعلى ضوء هذا القسم من التربية ـ بامكان الانسان أن يحيى ويتكامل من دون حاجة الى وحى ونبوة جديدة وعلى هذا ختمت النبوة فشقوا الطريق

بأنفسكم .

ولم يظهر لنا ماذا قصد من هذا الجواب واليك بعض احتمالاته :

١ ـ ان يقصد من قوله : « لا يريد ان يقول ان التشريعات التى اتيت بها تكفى البشرية الى الابد » ما أوضحناه عند البحث عن السؤال الخامس ، من انه يجب على علماء الامة وفقهائهم عند ما يحدث شيء من المشكلات والازمات فى جميع مجالات الحياة من الحوادث التى لم تكن معهودة في عصر صاحب الرسالة ، استفراغ الوسع في استنباط أحكامها على ضوء الكتاب والسنة واطار سائر المصادر الشرعية، فلو أراد هذا فهو حق لا اشكال فيه غير أن تلك النظرية لا تختص به ولا بالفيلسوف الاسلامى « محمد اقبال » حتى يكون هو المسؤل فى ما ذهب اليه واختار ، بل كل مسلم يؤمن بأن الاسلام شريعة الله الخالدة الدائمة الكاملة الوافية بحل جميع أمور الحياة ومشاكلها من أصولها الى فروعها.

٢ ـ أن يكون المقصود منه الاعلام بختم النبوة والرسالة دون ختم التشريع فهو مفتوح لم يوصد بعد ، فعلى الامة ان تشرع من القوانين حسب ما تحتاج اليه عبر الزمان . غير ان تلك فكرة عليها مسحة مسيحية محجوجة بما دلت الضرورة والادلة على ان التشريع من حقوق الله سبحانه على عباده لم يفوضه لاحد من افراد الامة.

٣ ـ ان يكون المقصود ان هنا أحكاماً ثابتة ومقررات متغيرة، حسب مقتضيات الزمان ومصالح الوقت. فلو أراد ذلك فقد أوضحنا حاله عند البحث عن السؤال الرابع فلاحظ .

* * *

هذه هى الخاتمية ، ودلائلها المشرقة ، وشبهاتها الضئيلة ، وأسئلتها الهامة، وأجوبتها الرصينة عرضناها للبحث والتنقيب، ولم يكن رائدنا الا تبني الحقيقة وكشف الغطاء عن وجهها ، متحررين من كل رأي سابق لا دليل عليه .

(٥)

النبى الامى فى الذكر الحكيم

عرض وتحليل للايات الدالة على أن النبي الاعظم (ص) كان أمياً نشأ بين الاميين. وفيه دحض للرأى الموروث عن رجال التبشير، وقد صاغه بعض مقلدة الفترة الاخيرة فى الشرق فى قالب خاص.

فی هذا الفصل :

١ ــ لم يختلف اثنان من الامة الاسلامية فی ان النبی كان أمياً لايحسن القراءة والكتابة قبل بزوغ دعوته .

٢ ــ نص القران علی انه (ص) ماكان يتلو من كتاب ولايخطه بيمينه وتوضيح مفاد الاية.

٣ ــ نظرية شاذة للدكتور عبد اللطيف الهندی حول الاية ونقدها .

٤ ــ تنصيص القرآن علی ان النبی الاكرم « امی » وتوضيح مفاد الامية وان المراد منه من لايحسن القرائة والكتابة.

٥ ــ نقدما ربما يقال من ان المراد من الامی هو المنسوب الی ام القری الذی هو علم من اعلام مكة .

٦ ــ نظرية ثالثة فی معنی الامی وهی من لايعرف المتون العتيقة السامية ونقد هذه النظرية .

٧ ــ بحث وتنقيب حول ما ورد من الروايات فی معنی الامی .

٨ ــ امر النبی فی التلاوة والكتابة بعد بزوغ دعوته .

٩ــ نظرية شيخنا المفيد وان النبی كان عارفا بالقرائة والكتابة بعد البعثة وبيان الوجوه التی اعتمد عليها ونقدها .

١٠ ــ الاستدلال بمفهوم الاية علی عرفانه (ص) بهما بعد البعثة ونقده .

١١ ــ الاستدلال باية ثانية ونقده .

١٢ ــ الاستدلال باية ثالثة (يتلو صحفا مطهرة) ونقد ذاك الاستدلال .

١٣ ــ الاستدلال باية رابعة (قالوا اساطير الاولين اكتتبها) ونقد ذاك الاستدلال .

١٤ ــ الاستدلال بالاولوية ونقده .

١٥ ــ الاستدلال بان التجارة تتوقف علی المحاسبات وعرفان الكتابة ونقده .

١٦ ــ الامية فی الاحاديث والاخبار ، حديث بدء الدعوة وتوضيح سنده ومفاده ، حديث طلب القلم والدواة ، قصة الحديبية ، كتاب النبی الی العذار ، المراسيل الواردة من طرق الشيعة الامامية .

١٧ ــ نحن وقساوسة الغرب والمتغربة .

النبى الامى فى الذكر الحكيم

لم يختلف اثنان من الامة الاسلامية فى أن نبي الاسلام (ص) كان أمياً لا يحسن القراءة والكتابة قبل بزوغ دعوته لمصلحة صرح الله بها في الكتاب العزيز وسوف يوافيك بيانها . وصحائف حياته البيضاء أوضح دليل على ذلك ، وقد أجمع أهل السير والتاريخ على أنه (ص) لم يدخل مدرسة ولم يحضر على أحد للدراسة وتعلم الكتابة ، بل هو منذ نعومة أظفاره ، يوم كان في أحضان جده وعمه الى أن بلغ الاربعين ، لم يحم حول هذه الامور وقد تواترت على ذلك كلمات العلماء الابرار والفطاحل من أئمة الاسلام. وقد اقتفوا فى ذلك أثر كتاب الله العزيز ودونك نصوصه من مواضع مختلفة .

النص الاول قوله سبحانه :

«وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذاً لارتاب المبطلون» (العنكبوت - ٤٨) سبحان الله ما أصرح كلامه وأوضح دلالته .

هل تجد من نفسك ريبا فى أنه بصدد نفى تلاوة أي كتاب عن نبيه الاكرم قبل نزول الوحي عليه ، وكتابة أي صحيفة عنه ، أو ليس من القواعد الدارجة بين أئمة الادب ، ان النكرة فى سياق النفى تفيد انتفاء الحكم عن كل أفرادها

وتعطى شمول السلب ، كقوله سبحانه: « ومن يهن الله فماله من مكرم » (الحج - ١٨) وقد قال سبحانه : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب » فأدخل النفى على النكرة وجعلها في سياقه ، فاذن المراد من التلاوة المنفية ، تلاوة مطلق الكتاب كما أن المراد من الخط المنفى عنه ، تسطير أي كتاب وترسيم أي صحيفة تقع في ذهن السامع ، فالضمير المتصل بالفعل (لا تخطه) عائد الى «كتاب» وكانه جل شأنه قال وما كنت تخط كتاباً. وقد وافاك أن مثل هذا الكلام لوقوع النكرة فى سياق النفى يفيد عموم النفى فالله سبحانه نفى عن نبيه، مطلق التلاوة والكتابة قبل بعثته .

ثم انه عز اسمه ، علل سلب هذا الامر عن نبيه بمصلحة أولى وألزم، وهى نفى ريب المبطلين وشك المشككين، اذ لو كان الرسول (ص) فى برهة من عمره تالياً للكتب ، وممارساً للصحف ، لساغ للبسطاء من أمته والمعاندين منهم أن يرتابوا في رسالته وقرآنه ، ويلوكوا فى أشداقهم بان ما جاء به من الصحف والزبر والسور والايات ، انما تلقاها من الصحف الدينية وقد صاغها وسبكها في قوالب فصيحة ، تهتز منها النفوس وترتاح اليه القلوب ، فليست لما يدعيه من نزول الوحي على قلبه ، مسحة حق أو لمسة صدق .

وقد حكى سبحانه هذه الفرية الشائنة عن بعض المشركين فقال سبحانه : « وقال الذين كفروا ان هذا الا افك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاؤوا ظلماً وزوراً وقالوا أساطير الاولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا » (الفرقان ٤ - ٥) فالله سبحانه لقلع جذور الشك عن قلوب السذج من الامة، والمبطلين منهم ، صرفه عن تعلم الكتابة حتى يصبح لنبيه أن يتلو على رؤوس الاشهاد قوله سبحانه : « قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدريكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون » (يونس - ١٦)

يعنى يا معشر العرب : أنتم تحيطون خبراً بتاريخ حياتى فاني تربيت بين

ظهرانيكم ولبثت فيكم عمراً يناهز الاربعين ، فهل رأيتمونى اتلو كتاباً أو اخط صحيفة ، فكيف ترموننى بالافك الشائن : بأنه أساطير الاولين اكتبتها ، ثم افتريتها على الله ، واعاننى على ذلك قوم آخرون . فلو لم يكن النبي أمياً لا يحسن القراءة والكتابة بل كان قارئاً وكاتباً وممارساً لهما على رؤوس الاشهاد ، لما أمكن له أن يتحدى الامة العربية وفى مقدمتهم صناديد قريش بقوله : « قل أنزله الذي يعلم السر فى السموات والارض انه كان غفوراً رحيماً » (الفرقان - ٦) فلاجل تحقيق هذه المصلحة المهمة ، نشأ النبى في أحضان قومه وشب وترعرع الى أن ناهز الاربعين وهو أمي لا يحسن القراءة والكتابة . ولو كان وقتئذ قارئاً وكاتباً وهم اميون لراجت شبهتهم فى ان ماجاء به نتيجة اطلاع ودرس وأثر نظر فى الكتب .

وجاء المفسرون فى المقام بكلمات درية وجمل موضحة للمراد فقال أمين الاسلام في تفسير الاية: «اللام» فى قوله - اذاً لارتاب المبطلون - للقسم وفى الكلام حذف ، تقديره: ولو خطته بيمينك أوتلوت قبله كتاباً اذاً والله لارتابوا، والمعنى لو كنت تقرأ كتاباً أوتكتبه لوجد المبطلون طريقاً الى ايجاد الشك فى أمرك والقاء الريبة لضعفة الناس فـي نبوتك ولقالوا : انما تقرأ علينا ما جمعته من كتب الاولين فلما ساويتهم فى المولد والمنشأ ثم أتيت بما عجزوا عنه وجب أن يعلموا انه من عند الله تعالى وليس مـن عندك ، اذ لم تجر العادة أن ينشأ الانسـان بين قوم يشاهدون أحواله مـن صغره الى كبـره ، و يرونه في سفره وحضره ، لا يتعلم شيئاً من غيره، ثم يأتي من عنده بشيء يعجز الكل عنه وعن بعضه ويقرأ عليهم أقاصيص الاولين (١) .

* * *

(١) مجمع البيان ج ٤ ص ٢٨٧ .

نظريات شاذة للدكتور الهندى

ثم ان للدكتور عبد اللطيف الهندي المعاصر ـ فى مقال خاص له حول امية النبي الاعظم ـ رأياً شاذاً وقد ألقى مقاله هذا باللغة الانكليزية في المؤتمر الاسلامى المنعقد في حيدرآباد عام (١٩٦٤) فخرق الاجماع المسلم بين طوائف المسلمين على أنه (ص) كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، وخالف الرأي العام وقال انه (ص) لم يكن أمياً لا يحسن القراءة والكتابة بل كان يقرأ ويكتب فى حداثة سنه الى آخريات أيامه (١) ولما رأى أن تلك النظرية تخالف النص الصريح في القرآن الكريم جاء يتأول ظاهر الاية تأويلا بارداً وقال ما هذا حاصله :

المراد من الكتاب فى قوله : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب » ، انما هو الكتب السماوية نظائر التوراة والانجيل النازلة بغير اللغة العربية فلم يكن النبي عارفاً بتلكم اللغات ولا قادراً على تلاوتها وهو غير القول بأنه (ص) لم يكن قارئاً ولا كاتباً حتى باللغة العربية التي هي لسان قومه وبيته .

ولا أدري ماذا حمل الكاتب على هذا التأويل اذ لو كان المراد نفي معرفته بهذه الكتب المعينة ، لما صح له أن يقول: « من كتاب » بل كان عليه أن يقول ما كنت تتلو من قبله الكتاب أو الكتب مشيراً باللام الى الكتاب أو الكتب المعهودة وقد أتى باللام فيما قصد نفى العرفان بالكتب السماوية عنه فقال تعالى: « وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وانك لتهدى الى صراط مستقيم » (الشورى ـ ٥٢)

وقال عز شأنه : « وكذلك أنزلنا اليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب

(١) وقد تأثر فى نظره عن رجال الكنيسة والتبشير قال الحداد فى كتابه القرآن والكتاب ص ٤١٠ محمد لم يكن امياً بل تاجراً دولياً ومثقفاً مطلعاً وبحاثة دينياً . . .

يؤمنون به ومن هولاء من لايؤمن به » (العنكبوت ـ ٤٦)

ترى انه سبحانه عند مارام ان يشير الى هذه الكتب المعهودة عرفها باللام اشارة الى معهوديتها.

أضف اليه أن الهدف الاسمى للاية من نفى التلاوة والكتابة عنه (ص) هو قلع جذور الريب والشك من قلوب المبطلين ، ولا يتحصل ذلك الا بكونه أمياً غير قارىء ولا كاتب قط ، ولا يحسن القراءة والكتابة أصلا . ولو صح مايرتئيه الدكتور لما نهضت الاية لرفع آثار الشك وغبار الريب بل كان باب اكتساب الشك فى أمره (ص) والقاء الريب فى قلوب ضعفاء الناس بنبوته مفتوحاً بمصراعيه. اذ كان للجاحد المبطل أن يقول أنه (ص) بمزاولته للصحف والكتب العربية ، وقف على أحوال الماضين وأقاصيص الاولين، فأودع نتائج أفكاره وما أستحصل عليه منها بعد سبره لغورها ، فى هـذه الصحائف وفى ضمنها من هـذه السور والايات التي افتراها على الله، وقد رماه بهذه الفرية الشائنة رؤوس الكفر والعناد فيما حكاه عزوجل: «وقالوا أساطير الاولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا» (الفرقان ـ ٥)

وفى نفس الاية دليل بارز على أن الهدف منها هو نفي مطلق التلاوة والكتابة عنه (ص) حيث عطف على الجملة الاولى : «وما كنت تتلو من قبله من كتاب» قوله : « ولا تخطه بيمينك » .

بيانه : لو كان المراد من الاية سلب القدرة عن النبي (ص) في خصوص ما يتعلق بتلاوة الكتب الدينية النازلة باللغة العبرانية أوغيرها من اللغات غير الدارجة في الجزيرة العربية ، لكان له تعالى أن يقتصر على الجملة الاولى ، ولا يرد فها بقوله : « ولا تخطه » لوضوح الملازمة بين السلبين . فاذا كان الرجل لا يقدر على قرائة كتاب الف بلغة خاصة ، فهو لا يقدر على خطها وترسيمها بتاتاً فعلى ذلك لماذا جيىء بالمعطوف مع امكان الاستغناء عنه بما تقدم عليها .

ولكن لوكان الغرض هوالتنبيه علىامية النبي بأوضح العبارات، والاجهار بها باصح الاساليب ، وأنه (ص) قبل بعثته لم يكن قارئاً ولا كاتباً بتاتاً ، بل كان بعيداً عن ذلك كل العبد ، لصح عطفها على ما تقدم عليها، لان العرف اذاحاول توصيف الرجل بالامية يقول في حقه: انه لا يعرف القراءة والكتابة، أو أنه ليست بينه وبين التلاوة والكتابة أية صلة ، ولا يقتصر على نفى الاولى بل يردفها بنفى الاخرى أيضاً ، توضيحاً للمراد . والله سبحانه لما أراد التركيز على امية النبي وأنه طيلة عمره كان بعيداً عن مجالات العلم والدراسة ، أتى بما هو الدارج فى لسان العرب ، اذا أرادوا توصيف الشخص بالامية .

والشاهد على ما ذكرنا : انك لو القيت هذه الاية على أي عربي عريق فى لغته ولسانه، يقضى بأن المقصد الاسنى منها نفى معرفته (ص) بالتلاوة والكتابة على الاطلاق . نعم الاية خاصة بما قبل البعثة ، لا تعم ما بعدها ولنا عودة الى هذا الموضوع فى الابحاث الاتية فانتظر . .

وربما يقال (١) : ان الاية تنفى مطلق التلاوة والكتابة ولكنه لا يدل على نفى احسانهما عنه : قلت سيوافيك جوابه عند البحث عن وضع النبي (ص) بعد البعثة .

* * *

النص الثانى من القرآن على كونه أمياً :

يدل على ذلك قوله سبحانه :

« الذين يتبعون الرسول النبي الامى الذي يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم اصرهم والاغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به

(١) نقله الشيخ الطوسى فى تبيانه راجع ج٨ ص ٢١٦ ط بيروت .

وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون ».

« فآمنوا بالله ورسوله النبي الامى الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون » (الاعراف ١٥٧ - ١٥٨)

قد وصف سبحانه نبيه فى هذه الاية بخصال عشر وهى : أنه رسول ، نبي، أمى ، مكتوب اسمه في التوراة والانجيل ومنعوت فيهما بأنه ، يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر ، يحل لهم الطيبات ، يحرم عليهم الخبائث ، يضع عنهم الاصر ، ويرفع عنهم الاغلال .

وهذه الصفات التى تضمنتها الاية فى حق النبى الاكرم واضحة حتى الوصف الذى هو موضوع البحث (الامى) اذ الامى حسب تنصيص الكتاب المبين هو من لا يقدر على القرائة ولا يحسن الكتابة كما يقول سبحانه : « ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب الا أماني وان هم الا يظنون » (البقرة - ٧٨)

قوله سبحانه : « لا يعلمون الكتاب » توضيح لقوله أميون أى منهم أمة منقطعون عن كتابهم لا يعلمون منه الا أوهاماً وظنوناً يتلوها عليهم علماؤهم ، الذين يحرفون كتاب الله وكلماته عن مواضعها ، ويحسب هؤلاء السذج أنه الكتاب المنزل اليهم من ربهم. ولذلك قال سبحانه في الاية التاليه: « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون » (البقرة - ٧٩)

فلو كانوا عارفين بالكتاب قادرين على قرائته وتلاوته لما اغتروا بعمل المحرفين، ولميزوا الصحيح من الزائف، غير أن اميتهم وجهلهم به حالت بينهم وبين أمنيتهم .

قال الرازى : انه تعالى وصف محمداً فى هذه الاية بصفات تسع (١) الى أن قال : الصفة الثالثة كونه أمياً ، قال الزجاج : معنى الامى الذى هو على صفة

(١) لا ، بل عشر ، كما عرفت .

امة العرب ، قال عليه الصلاة والسلام : انا امة أمية لا نكتب ولا نحسب (١) فالعرب أكثرهم ماكانوا يكتبون ولا يقرؤن، والنبى كان كذلك، فلهذا السبب وصفه بكونه امياً (٢) .

وقال البيضاوى : الامى لا يكتب ولا يقرأ ، وصفه بـه تنبيهاً على ان كمال علمه مع حاله هذا ، احدى معجزاته (٣) .

هذا وقد وقد أصفقت على ما ذكرنا من المعنى للامية معاجم اللغة المؤلفة في العصور الزاهرة بأيدي الخبراء الاساطين وفى مقدمهم : أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا المتوفى عـام ٣٩٥ صاحب « مقاييس اللغة » وغيرها من الكتب الممتعة (٤) ودونك كلامه :

« أم » له أصل واحـد يتفرع منه أربعة أبواب وهي الاصل ، والمرجع ، والجماعة والدين قال الخليل : كل شيىء تضم اليه ماسواه مما يليه، فان العرب تسمى ذلك أما ومن ذلك أم الرأس وهو الدماغ ، أم التنائف أشدها وأبعدها ، أم القرى مكة وكل مدينة هي أم ماحولها من القرى ، وأم القرآن فاتحة الكتاب وأم الكتاب مافى اللوح المحفوظ، وأم الرمح لواءه ومالف عليه، وتقول العرب للمرأة التي ينزل عليها أم مثوى، وأم كلبة الحمى، وأم النجوم السماء، وأم النجوم

---

(١) ايعاز الى ما رواه البخارى فى صحيحه ج ١ ص ٣٢٧ عن النبى (ص) انه قال: انا أمة أمية لانكتب ولا نحسب الشهر هكذا أو هكذا ، مرة تسعة وعشرين ومرة ثلاثين.

(٢) مفاتيح الغيب ج ٤ ص ٣٠٩ .

(٣) انوار التنزيل واسرار التاويل ج ٣ ص ٢٣٠ مع شرحه لاسماعيل القنوى .

(٤) بلغ ابن فارس الغاية فى الحذق باللغة ، وكنه أسرارها ، وفهم اصولها ، وقد حاول فى تأليف هذا المعجم أن يوحـد المعانى المتعددة المفهومة من لفظ واحد وذلـك بارجاعها الى أصل واحد تفرعت عنه تلك المعانى فى الاستعمال ـ وقد انفرد من بين اللغويين بهذا التأليف ولم يسبقه الى مثله أحد ، ولم يخلفه غيره .

المجره ... الى أن عد كثيراً من هذه التراكيب فقال : الامى في اللغة المنسوب الى ما عليه جبلة الناس لا يكتب ، فهو فى انه لا يكتب على ما ولد عليه (١).

ومحصل كلامه انه ايس للام الامادة واحدة وهى الاصل لغيرها ومنه يتفرع غيرها فام الانسان أم لانها أصله وعرقه وهكذا . . .

وهذا الزمخشري امام اللغة والبلاغة فسر قوله تعالى : « ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب الا أماني وانهم الا يظنون » بأنهم لا يحسنون الكتاب فيطالعوا التوراة ويتحققوا ما فيها (٢) .

وقال أمين الاسلام فى مجمع البيان ، ذكروا للامي معانى :

أولها : انه الذى لا يكتب ولا يقرأ .

ثانيها : أنه منسوب للامة والمعنى انه على جبلة الامة قبل استفادة الكتاب.

ثالثها : أنه منسوب الى الام والمعنى أنه على ما ولدته أمه قبل تعلم الكتابة.

قلت : هذه المعانى متقاربة تهدف الى مفهوم واحد . وانما الاختلاف فى انتسابه الى الام أو الامة وقد جمع ابن فارس فى كلامه كلا الاحتمالين .

هذه نصوص بعض أئمة اللغة وأساطين التفسير ، اذا شئت فلاحظ كلمات الباقين منهم .

* * *

الاراء الشاذة فى تفسير الامى :

ربما يجد القارىء فى طيات بعض التفاسير معانى اخر للامي لا تتفق مع ما أصفقت عليه أئمة اللغة والتفسير فلا بأس بذكرها ودحضها .

١ ـ الامى منسوب الى أم القرى وهى علم من أعلام مكة كما يدل عليه

(١و٢) المقاييس ج ١ ص ٢١ ـ ٢٨ ، والكشاف ج ١ ص ٢٢٤ .

قوله سبحانه: « وكذلك أوحينا اليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها » (الشورى ـ ٧) وعلى ذلك فالمراد من الامي أنه مكى .

وفيه مواقع للنظر والنقد :

أولا : ان أم القرى ليست من أعلام مكة ـ وان كان يطلق عليها ـ غير أن الاطلاق لا يدل على كونه من أعلامها ، بل هو موضوع على معنى كلي وهي احدى مصاديقه ولا تنس ما ذكره ابن فارس بقوله: «كل مدينة هي أم ماحولها من القرى » فيعلم من ذلك ان أم القرى مفهوم كلي يصح اطلاقه على أية بلدة تتصل بهاقرى كثيرة بالتبعية، وهذه القرى تعتمد عليها فى أمورحياتها، ويعاضد ما ذكرنا (كون أم القرى كلياً) قوله عزوجل: « وماكان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا » (القصص ـ ٥٩) فالاية (بحكم رجوع الضمير فى أمها الى القرى) صريحة في أنها ليست علماً لموضع خاص ، لان مشيئته تعم الامم في هذا الامر (أهلاك الامم وابادتهم بعد انذارهم ببعث الرسل) ولا تختص بأمة دون أخرى ـ أو نقطة دون نقطة ـ وعلى هذا ـ فمفاد الاية ان الله سبحانه يمهل أهل القرى من دون فرق بين قرية وقرية ، حتى يبعث فى مركزها الذى هو مركز الثقل بالنسبة اليها، والمجتمع لاكثر الناس، وملتقى أفكارهم، رسولا يبشرهم وينذرهم ، فاذا ضربوا عنه صفحاً وهجروا مناهجه ، يبيدهم ويهلكهم بألوان العذاب وهذه مشيئة الله وعادته فى الامم السالفة البائدة جميعاً، مكية كانت أم غيرها .

وثانياً : لو صح كونه من اعلام مكة فالصحيح عند النسبة اليها هو القروي لا الامي ، هذا ابن مالك يقول فى ألفيته :

وانسب لصدر جملة وصدر ما ركب مزجا و لثان تتما
اضافة مبدوة بابن وأب أوماله التعريف بالثاني وجب

فيما سوى هـذا انسبن للاول مالم يخف للبس كعبدالاشهل

قال ابن عقيل فى شرحه : اذا نسب الى الاسم المركب فان كان مركباً تركيب جملة أوتركيب مزج، حذف عجزه وألحق صدره ياء النسبة فتقول فى تأبط شراً : تأبطي ، وفى بعلبك ، بعلى . وان كان مركباً اضافة ، فانكانصدره ابناً أو أباً أوكان معروفاً بعجزه، حذف صدره والحق عجزه ياء النسبة، فنقول فى ابن الزبير ، زبيري وفى أبي بكر ، بكرى وفي غلام زيد ، زيدي وان لم يكن كذلك . . . (١) .

والاقتصار علىالابن والاب منباب المثال والحكم يعم الام والابنة والاخ والاخت ، لاشتراك الجميع معهما فى المناط والملاك ـ وهو كونها مركبة تركيب اضافة وحصول الالتباس لو ألحقت بصدرها .

وثالثاً : ان الله وصف نبيه فى الاية بصفات تناسب موضوع النبوة ـ فلو كان الامي فيها بالمعنى الذى أوضحناه ، لتلائم الكلام ، وتكون تلك الصفة هادفة الى آية نبوته وبرهان رسالته ، لانه مع كونه أمياً لايقرأ ولا يكتب ، أتى بشريعة كافلة لسعادة الناس وسيادتهم وجاء بكتاب فيه هدى ونور ، وتضمن من الحقائق و المعارف ما لا يقف عليها حتى الاوحدي من الناس فضلا عمن لم يقرأ ولميكتب ، وهذا برهان رسالته ودليل صلته بالله وكونه مبعوثاً ومؤيداً منه تعالى .

ولو كان المراد منه ما زعمه القائل من كونه مكياً وانه وليد ذلك البلد ، لكان الاتيان به فى ثنايا تلك الاوصاف و الخصال اقحاماً بلا وجه واقتضاباً بلا جهة .

وان شئت قلت : لو كان المراد من الامي ما ذكرناه لكان فيه اشارة الىان

(١) شرح ابن عقيل ص ٢ ج ٣٩١ .

النبي(ص) مع كونه باقياً على الحالة التي ولد عليها، قد أتى بكتاب عجز الناس عن تحديه ، وكل البلغاء عن معارضته، وخرس الفصحاء لديه ، مضافاً الى ما فيه من المعارف الالهية والحقايق العلمية والدساتير والقوانين الاجتماعية والاقتصادية في شئون الحياة الانسانية ومسائلها المعقدة ، وهذا دليل على صدق دعوته ، وأنه مبعوث من عنده تعالى ، وهذه النكتة تفوتنا اذا فسرناه بأنه مكى ووليد الحرم والبلد الامين اذ ليس فى كونه مكياً أي امتياز حتى ينوه به .

والى ما ذكرنا يشير قوله عزوجل : « هو الذي بعث فى الاميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين » (الجمعة ـ ٢) .

فان توصيف النبي(ص) بأنه منهم (أي من الاميين) للاشارة الى انه مع كونه أمياً مثلهم يعلمهم الكتاب والحكمة ـ وما ذلك الا لكونه مؤيداً منه تعالى بروح تعاضده وموجهاً بتوجيهه لارتقاء تلكم المدارج ، فالاية من قبيل اتيان الشيء ببينته وبرهانه .

نعم ورد فى بعض المأثورات حول تفسير الامي انتسابه الى أم القرى ، وسوف نرجع الى هذه الروايات بالايراد والمناقشة في أسنادها ومضامينها .

* * *

الرأى الثانى :

٢ ـ ما أختاره الدكتور عبد اللطيف الهندي في مقاله المومى اليه فقال : الامي من لم يعرف المتون العتيقة السامية ، ولم ينتحل الى ملة أو كتاب من الكتب السماوية والشاهد عليه ان الله جعل الامي فى الكتاب العزيز ، مقابل أهل الكتاب فيستظهر منه ان المراد منه هي الامة العربية الجاهلة بما فى زبر الاولين من التوراة والانجيل غير منتحلة الى دين أو ملة لا من لا يقدر على التلاوة

والكتابة .

أقول: ماذكره الدكتور زلة وعثرة لاتستقال فان اطلاق الاميين على العرب المشركين ليس «بسبب جهلهم بالمتون السامية، وان كانوا عارفين بلسان قومهم قادرين على تلاوته وكتابته» كما حسبه الدكتور، بل بسبب جهلهم بقرائة لغتهم وكتابتها لان الثقافة العربية بمعنى قرائة اللغة العربية وكتابتها ، كانت متدهورة فى العصر الجاهلي وكانت الامية هي السائـدة ولا يسودهم فى تلكم الظروف شيىء غيرها وكانت القدرة على القرائة والكتابة محصورة في ثلة قليله لايتجاوز أفرادها عدد الاصابع .

فهذا الامام البلاذري أتى «فى فتوح بلد انه» بأسماء الذين كانوا عارفين بالقرائة والكتابة فى العهد الجاهلي فما تجاوزت عدتهم عن سبعة عشر رجلا فى «مكة» وعن أحد عشر نفراً فى « يثرب » وقال : اجتمع ثلاثة نفر من طي ببقـة وهم مرامر بن مرة وأسلم بن سدرة ، وعامر بن جدرة فوضعوا الخط وقاسوا هجاء العربية، على هجاء السريانية، فتعلمه منهم قوم من أهل الانبار ثم تعلمه أهل الحيرة من اهل الانبار وكان بشر بن عبد الملك أخو أكيد بن عبد الملك بن عبد الجن الكندي .

ثم السكوني صاحب دومـة الجندل ، يأتي الحيرة فيقيم بهـا الحين وكان نصرانياً فتعلم « بشر » الخط العربي من أهل الحيرة ثم أتى مكة فى بعض شانه فرآه سفيان بن أمية بن عبد شمس وأبو قيس بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب يكتب فسألاه ان يعلمهما الخط فعلمهما الهجاء ثم اراهما الخط فكتبا ثم ان بشراً وسفيان وأبا قيس أتوا الطائف فى تجارة فصحبهم غيلان بن سلمة الثقفي فتعلم الخط منهم وفارقهم بشر ، ومضى ديار مضر ، فتعلم الخط منه عمرو بن زرارة بن أعدس فسمى عمرو الكاتب ثم أتى بشر، الشام فتعلم الخط منه ناس هناك وتعلم الخط من

الثلاثة الطائيين أيضاً رجل من طابخة كلب ، فعلمه رجلا من أهل وادي القرى فأتى الوادي يتردد فأقام بها وعلم الخط قوماً من أهلها ـ الى ان قال ـ فدخل الاسلام وفي قريش سبعة عشر رجلا كلهم يكتب ، عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب و . . (١) .

هذا ابن خلدون يحكى فى مقدمته ، ان عهد قريش بالكتابة والخط العربي لم يكن بعيداً بل كان حديثاً و قريباً بعهد الرسول فقد تعرفوا عليها قبيل ظهور الاسلام حيث قال فى الفصل الذي عقده لبيان ان الخط والكتابة من عداد الصنايع الانسانية :

كان الخط العربي بالغاً مبالغه من الاحكام والاتقان والجودة فى دولة التبابعة، لما بلغت من الحضارة والترف وهو المسمى بالخط الحميري وانتقل منها الى الحيرة لما كان فيها دولة آل المنذر بسبأ التبابعة الى ان قال : ومن الحيرة لقنه أهل الطائف وقريش فيما ذكر، يقال ان الذي تعلم الكتابة من الحيرة هو سفيان بن أمية ويقال حرب بن أمية وأخذها من أسلم بن سدرة وهو قول ممكن وأقرب ممن ذهب الى انهم تعلموها من اياد أهل العراق وهو بعيد ، لان اياداً وان نزلوا ساحة العراق فلم يزالوا على شأنهم من البدائة ، والخط من الصنايع الحضرية فالقول بأن أهل الحجاز انما لقنوها من الحيرة ولقنها أهل الحيرة من التبابعة وحمير ، هو الاليق من الاقوال (٢) .

فاذا كان هذا مبدأ تعرفهم بالكتابة والقرائة وكان هذا مقياس ثقافتهم وتعرفهم عليها في المنطقتين (مكة ومدينة) فما ظنك بهم فى المناطق الاخرى ، نعم كانت الربوع المختصة باليهود والنصارى ، تزدهم بأحبارهم وحفاظ كتبهم فكانت القراءة والكتابة رائجتين بينهم ، لمسيس حاجتهم الى معرفة كتابهم وما فيه من

(١) فتوح البلدان ص ٤٥٧ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٣٤٩ ـ ٩٤٨ .

الطقوس والسنن .

فاذا ألممت أيها الباحث ولو المامة عابرة بروح ذلك العصر ، ووقفت على ما كان يسود في تلكم الظروف والبيئات ، لقضيت بأن المراد من الامي حتى فى ما استعمل عند أهل الكتاب هو العاجز عن القرائة والكتابة بقول مطلق كقوله سبحانه: «وقل للذين أوتوا الكتاب والاميين أأسلمتم» (آل عمران ـ ٢٠) ويوضح ماذكرناه قوله سبحانه : « ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب الا أمانى وان هم الا يظنون » (البقرة ـ ٧٨) (١) فالاية بحكم رجوع الضمير (ومنهم) الى اليهود ، تقسم اليهود الى طائفتين ، طائفة يعلمون الكتاب ، وأخرى طائفة أمية لا تعلم من الكتاب شيئاً بل تتخيله أمانياً فقد أطلق الامى فى هذه الاية على بعض أهل الكتاب بملاك جهله بكتابه ، قراءة وكتابة ، ولكن الجهل بالكتاب الذي نزل بلسانه ولسان قومه يلازم الجهل بسائر اللغات طبعاً .

فهذا الكتابي بما أنه لا يحسن القراءة والكتابة قط ، أمي كالعربي الامي بلا تفاوت .

وقصارى ما يمكن أن يقال: انه ليس للامي الا مفهوم واحد وضع له وضعاً واحداً ، غير أن مفهومه يختلف حسب اختلاف الظروف والبيئات ، حسب اختلاف الاضافات والنسب ، فالامي في أجواء الكتابيين عبارة عمن لا يعرف لغة كتابه فلو قيل: ذلك الكتابى أمى فالمقصود منه بقرينة لفظ « الكتابي » كونه أمياً بالنسبة الى كتابه الذى ينتحل اليه ، كما ان الامي فى البيئات العربية عبارة عمن لا يحسن العربية قراءة وكتابة وهكذا . . .

وبناء على ذلك فالاميون في قوله سبحانه: « ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب الا أماني » عبارة عن الطائفة الجاهلة بالمتون السامية من أهل الكتاب، لا يحسنون

(١) هذه الاية بما أنها تقسم أهل الكتاب والمنتحلين اليه الى طائفتين أمية وغير أمية ، تبطل ماادعاه الدكتور من ان الامى عبارة عمن لم ينتحل الى دين ولم ينسب الى ملة.

تلاوتها ولا كتابتها ، الا أن ذلك الاطلاق لا يثبت كون الامى موضوعاً على من لا يعرف اللغة السامية كما حسبه الدكتور . بل لما كان محور البحث في الاية أهل الكتاب وانقسامهم الى طائفة عالمة بما فى كتابهم ، وطائفة جاهلة به ، أمية لا تعلم من الكتاب شيئاً ، صار ذلك كالقرينة على أن المقصود من الاميين فيها ، هي الطائفة الجاهلة بالمتون السامية واللغة التي أنزلت بها كتبهم .

وهذا الوجه لا يشمل « الامي » في غير هذه الاية ولا على الموارد العارية عن هذه القرينة ولا يثبت كونه موضوعاً لمن يكون جاهلا بالمتون السامية ، كما أدعاه القائل .

اذا وقفت على ماذكرناه وقوف المستشف للحقيقة ، لاذعنت انه ليس للامي الا مفاد واحد وهو الباقي على الحالة التي ولد عليها . ولو أطلق في مورد أو موارد على من لا يعرف المتون السامية ، فلاجل قرينة دلت عليه ، فهو من باب تطبيق الكلي على فرده الخاص لا أنه موضوع على ذلك الخاص .

بحث وتنقيب :

لقد بان الحق بأجلى مظاهره بحيث لم تبق لمجادل شبهة في دلالة الذكر الحكيم على ان النبى (ص) كان أمياً لا يقرء ولا يكتب قبل أن يختاره الله تعالى للتبشير والانذار ، وظهر ماهو الحق الصراح فى معنى الامي الذي وصف الله به نبيه الاكرم . نعم روي عن بعض أئمة أهل البيت فى تفسير الامي ما يترائى منه خلاف ما أوضحناه وحققناه ودونك ما روي عنهم في هذا الباب (١) .

١ ـ أخرج الصدوق فى علل الشرايع ومعانى الاخبار عن أبيه عن سعد (٢)

---

(١) سوف نرجع فى آخر البحث الى تحقيق القول فى الروايات الواردة عن أئمة أهل البيت وغيرهم فى المقام والغرض هنا عرض مايرجع الى خصوص تفسير لفظ الامى فقط.

(٢) سعد بن عبدالله القمى ترجمه شيخ الطائفة فى باب أصحاب العسكرى (ع).

عن ابن عيسى (١) عن محمد البرقي عن جعفر بن محمد الصوفي قال : سألت أبا جعفر محمد بن علي بن موسى الرضا (ع) فقلت : يابن رسول الله لم سمي النبي الامى ؟ فقال : ما يقول الناس ؟ قلت : يزعمون انه سمى الامى لانه لا يحسن ان يكتب ، فقال : كذبوا عليهم لعنة الله في ذلك ، والله يقول في محكم كتابه: « هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة » فكيف كان يعلمهم مالا يحسن والله لقد كان رسول الله (ص) يقرأ ويكتب بأثنين وسبعين أو قال: بثلاثة وسبعين لساناً وانما سمى الامي لانه لان كان من أهل مكة ومكة من أمهات القرى وذلك قول الله عزوجل : « لتنذر أم القرى ومن حولها » (٢) .

وأخرج الشيخ الاقدم محمد بن الحسن الصفار المتوفى عام ٢٩٠ فى بصائر الدرجات عن أحمد بن محمد بن عيسى عن محمد البرقى عن جعفر بن محمد الصوفي مثله .

ونقله الشيخ المفيد معلم الامة فى « اختصاصه » بهذا السند أيضاً .

والحديث على كل تقدير ينتهى الى محمد البرقي وهو مختلف فيه جداً لاستناده الى المراسيل والضعاف، وهو يروي عن جعفر بن محمد الصوفي الذي أهمله أصحاب المعاجم فالحديث ساقط عن الحجية .

أضف اليه ما فى متنه من الشذوذ وفيه جهات من النظر :

أولا : قوله ان النبي يقرأ ويكتب بأثنين وسبعين لساناً يعطى انه (ص) كان من اولا لقراءتها والكتابة بها في عامة حياته أو رسالته فقط، وحمله على الامكان والتعليق وانه (ص) كان قادراً عليهما باثنين وسبعين لسانا لو شاء واراد ، ولكنه لم يشأ ويقرأ ولم يكتب بها أصلا ، خلاف الظاهر، وعلى ما استظهرناه فالرواية

(١) أحمد بن محمد بن عيسى الاشعرى ، ثقة جليل .

(٢) علل الشرائع ص ٥٣ ومعانى الاخبار ص ٢٠ .

تخالف ما هو المتواتر من حياة النبي (ص) .

اذ لو كان النبي (ص) على النحو الذي تصفه الرواية لذاع ذكره وطار صيته بهذا الوصف ولا يكاد يخفى على الناس أمره . على انه (ص) في البيئة العربية الامية كان في منتاى عـن سماع الالسنة أو رؤية أصحابها فلم يكن في موطنه ولا دار هجرته من يعرفها أو يتكلم بها فكيف يتكلم بهذه اللغات ، وهو لا يجد من يشافهه بها ، ولم تكن تحضره صحيفة أو صحائف كتبت بغير اللغة العربية .

ثانياً : ان تفسير الامى بكونه منسوباً الى أم القرى ، يخالف ما اتفقت عليه أئمة الادب ، وجهابذة اللغة ، وأعلام التفسير بـل يخالف القرآن الكريم حيث فسرسبحانه بغيرذلك وقال: «ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب» فلا يصح الركون فى هذه المسألة الى حديث ينتهى الى مـن اختلف فى وثاقته ، الى من اهمله علماء الرجال فى كتبهم .

ولسنا من الفئة التىتعرض القرآن والحديثالصحيح على القواعدالعربية المدونة بعد أجيال من نزول القرآن ونشر الحديث ، بيد علماء الادب، فانتلك الفئة ضالة مضلة مستحقة للرد والطعن. اذ الصحيح عرضالقواعد على القرآن والحديث دون العكس ، فان المقياس الوحيد لتمييز الصحيح عن غيره ، انما هو كلام أهل اللسان والاساليبالدارجة بينهم. لا القواعد المدونة اذا لمترجع الى مصدر وثيق .

وعلىهذا فلووجدنا القاعدة الادبية المصطادة من تتبع بعضالموارد ومن كـلام العرب ، مخالفة للقرآن الكريم او الحديث الثابت عنهم ، او الكـلام الصادر عن عربي صميم ، وجب علينا هـدم القاعدة ، ورميها بالخطأ والغلط ، لا تأويلالذكر الحكيم والحديث الصحيح ، والكلام المنقول عن اهل اللسان. اذ القرآن سواء أقلنا انه كلام الهى اوحى الى نبينا الاكرم ام قلنا انه من منشآته

ومبدعاته (وأجل النبي عن هذه الفرية الشائنة) كلام صحيح ، صادر اما عن الله سبحانه او عن عربي صميم شب وترعرع بين الامة العربية وقضى عمره وحياته بين ظهرانيهم .

وعلى اي تقدير فهو الحجة في تدوين القاعدة وتأسيسها دون العكس ومثله الاثار المنقولة عنه (ص) .

ونحن مع هذا الاعتراف الصريح لانقر بما جا في الحديث حول تفسير الامي وانه منسوب الى ام القرى ولا نرمي ائمة الادب بالخطاء والاشتباه، اذ الحديث قاصر سنداً وينتهي الى من اختلفت فيه كلمة اهل الجرح والتعديل ، الى من لم تتضح حاله ووثاقته ، ولو ثبت صدوره عن ائمة اهل البيت ، لهدمنا القاعدة النحوية في باب النسب واخذنا بما فيه .

ثالثاً : أن الحديث لا ينسجم مع مضمون ما سيوافيك من الحديثين (١)، فان مفادهما هو كون النبي يقرأ ولا يكتب اصلا، وهذا يثبت له القراءة والكتابة باثنين وسبعين لسانا ، فلا مناص في مقام الترجيح عن الاخذ بهما وطرح ذاك، لقوة اسنادهما وصحتهما على ما عرفت .

٢ ـ اخرج الصدوق في معاني الاخبار عن ابن الوليد عن سعد عن الخشاب عن علي بن حسان وعلي بن اسباط وغيره رفعه الى ابي جعفر (ع) قال : قلت: ان الناس يزعمون ان رسول الله (ص) لم يكتب ولم يقرأ ، فقال : كذبوا لعنهم الله أنى يكون ذلك وقال الله عزوجل: « هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين » ، فيكون يعلمهم الكتاب والحكمة وليس يحسن ان يقرأ او يكتب بـه ؟ قال: قلت: فلم سمي النبي الامي؟ قال: نسب الى مكة وذلك قول الله عزوجل:

(١) راجع البحث الاتي تحت عنوان « عرض وتحقيق » والمقصود من الصحيحين ما رواه هشام بن سالم والحسن الصيقل عن الصادق (ع) .

« ولتنذر أم القرى ومن حولها » فأم القرى مكة فقيل امى لذلك (١) .

ونقله صاحب البصائر عن عبدالله بن محمد عن الخشاب عن علي بن حسان وعلي بن اسباط وغيره رفعه الى ابي جعفر (٢) .

ويؤسفنا ان الحديث مع ما في متنه من العلات ، غير موصول السند الى الامام ، فالرواية مرفوعة وهو نوع من المرسل الذي لا يعتمد عليه .

وفى هذا المقال يلمس القارىء حقيقة ناصعة هى من اجلى الحقائق الدينية ألا وهي مغزى كون النبى لا يحسن القراءة والكتابة قبل أن يختاره الله تعالى للتبشير والانذار .

نعم بقى الكلام فى امره (ص) بعد البعثة ولاجل ذلك عقدنا لتحقيقه الفصل التالى :

---

(١) علل الشرايع ص ٥٤٢ .

(٢) بصائر الدرجات ص ٦٢ ، بحار الانوار ج ١٦ ص ١٣٣ .

امر النبى (ص) بعد بزوغ دعوته

قد اهتدينا بهدى القرآن وساقتنا الأدلة الى القول بأنه (ص) كان قبل البعثة امياً لا يقرأ ولا يكتب ولم يسجل التاريخ له (ص) في ذلك العهد قراءة لوح أو كتابة صحيفة ، ولم يكن ذلك اختلاقاً تواطأ عليه المسلمون لهدف خاص كما حسبه الدكتور فى مقاله (١) بل كان تقريراً للواقع وقد قابلنا التفكير السطحي الخاطىء بالرد والنقد .

غير اننا طلباً لوضوح الحقيقة ، واكمالا للبحث ، نردف المقال بالبحث عن وضع النبي (ص) بعد بزوغ دعوته وبعثته الى الناس ، وانه هل بقي على ما كان عليه من الامية ، لنفس المصلحة التى أوجبت أميته قبل ان يبعث الى هداية الناس ، او لم يبق عليه ، بل كشف الحجاب عن ضميره الحي وعقله الواعي ، وقلبه الواسع عند ما بزغت دعوته وبعث رسولا الى الناس ولا يمكن القضاء البات الا بعد الوقوف على ماذكره الفطاحل من رواة الحديث وأعلام التفسير.

وقد اختارت ثلة جليلة من المحققين القول الثاني أى تمكن النبي (ص) باذنه سبحانه من القرائة والكتابة بعد ما نزل عليه الوحي واستدلوا على ذلك بوجوه لا تخلو من مناقشات واشكالات ، ونحن نذكر تلكم الوجوه ، ثم نردفها بما هو المختار عندنا :

---

(١) زعم الدكتور فى مقاله ان امية النبى (ص) فكرة حديثة بين المسلمين، لصيانة القرآن عن التحريف وحفظه عن حدوث الزيادة والنقيصة عليه من جانب النبى (ص) فان الامى يعكس كل ما القى عليه بلا تغيير وتحريف ، ولايقدر على تحويره بخلاف غيره فانظر ما اجرأ هذا الرجل على تحريف الكلم عن مواضعه .

١ ـ الوجوه التي اعتمد عليها شيخنا المفيد :

هذا هو الشيخ المفيد استدل بأدلة ووجوه اعتقد انها الحجج الكافية لاثبات ما يرتئيه من ان النبي كان عارفاً بالقرائة والكتابة بعد بعثته ودونك ما افاده برمته:

١ ـ ان الله تعالى لما جعل نبيه (ص) جامعاً لخصال الكمال كلها ، وخلال المناقب بأسرها لم تنقصه منزلة بتمامها، ليصح له الكمال ، ويجتمع فيه الفضل والكتابة فضيله من منحها ، فضل ومن حرمها نقص .

٢ ـ ان الله تعالى جعل النبي (ص) حاكماً بين الخلق في جميع ما اختلفوا فيه ، فلابد ان يعلمه الحكم في ذلك ، وقد ثبت ان امور الخلق قد يتعلق أكثرها بالكتابة فتثبت بها الحقوق ، وتبرأ بها الذمم ، و تقوم بها البينات ، وتحفظ بها الديون ، وتحاط به الانساب ، وانها فضل تشرف المتحلي به على العاطل منه ، واذا صح ان الله جل اسمه قد جعل نبيه بحيث وصفناه من الحكم والفضل ثبت انه كان عالماً بالكتابة ، محسناً لها .

٣ ـ أن النبي لو كان لا يحسن الكتابة ولا يعرفها لكان محتاجاً في فهم ما تضمنته الكتب من الحقوق وغير ذلك الى بعض رعيته ، ولو جاز ان يحوجه الله في بعض ما كلفه الحكم فيه الى بعض رعيته لجاز ان يحوجه في جميع ما كلفه الحكم فيه الى سواه ، وذلك مناف لصفاته ومضاد لحكمة باعثه ، فثبت انه صلى الله عليه وآله وسلم كان يحسن الكتابة .

٤ ـ ان الله سبحانه يقول : « هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين » (سورة الجمعة ـ ٢) ، ومحال ان يعلمهم الكتاب وهو لا يحسنه ، كما يستحيل يعلمهم الكتاب والحكمة وهو لا يعرفهما ، ولا معنى لقول من قال ان الكتاب هو القرآن خاصة، اذ اللفظ عام والعموم لاينصرف عنه الا بدليل ، لا ـ

سيما على قول المعتزلة واكثر اصحاب الحديث .

٥ ـ يدل على ذلك أيضاً قولـه تعالى : « وماكنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذا لارتاب المبطلون » (سورة العنكبوت ـ ٤٨) ، فنفى عنه احسان الكتابة وخطه قبل النبوة خاصة ، فأوجب احسانه بذلك لها بعد النبوة، ولولا ان ذلك كذلك لما كان لتخصيصه النفي معنى يعقل ، ولوكان حاله (ص) فى فقد العلم بالكتابة بعد النبوة ، كحاله قبلها لوجب اذا أراد نفي ذلك عنه ان ينفيه بلفظ يفيده، لايتضمن خلافه فيقول له وماكنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذ ذاك ولا فى الحال، أو يقول لست تحسن الكتابة ولا يتاتى منك على كل حال، كماانه لما اعدمه قول الشعر ومنعه منه نفاه عنه بلفظ يعم الاوقات فقال الله تعالى : « وما علمناه الشعر وما ينبغي له » (يس ـ ٦٩) واذا كان الامر على ما بيناه ثبت انه صلى الله عليه وآله كان يحسن الكتابة بعد ان نبأه الله تعالى ما وصفناه، وهذا مذهب جماعة من الامامية ويخالف فيه باقيهم وسائر اهل المذاهب والفرق يدفعونه وينكرونه (١) .

وفى ما ذكره رحمه الله مناقشات نشير اليها :

اولا : ان الكتابة وان كانت من الكمالات « ومن منحها له سبحانه فضل ومن حرمها نقص » غير ان ذلك يعد للعاديين الذين ينحصر طريق اكتسابهم للمعارف بها وحدها وأما من لا يحتاج اليها بل لـه طريق آخر لدرك الحقائق واكتساب المعارف كما هـو الحال بالنسبة الى نبينا (ص) فلا يعد التمكن من الكتابـة والقرائة فضيلة له حتى يكون عدمهما نقصاً في حقه ، كيف وهو (ص) قد عرف الواجب جل اسمه وصفاته وأفعاله ووقف على حقائق الكون ودقائقه عن طريق الوحي الذي هو اوثق واسد الطرق الممكنة ، لا يخطأ ولا يشتبه وعند ذاك لا حاجة له الى هذه الطرق العادية غير المصونة عن الخطأ والاشتباه .

---

(١) أوائل المقالات ص ١١١ ـ ١١٣ ط تبريز .

اضف اليه لو فرضنا انبقاء النبي على ماكان عليه من الامية كان يرفع الشك عن قلوب السذج من الناس ويؤكد ايمانهم واذعانهم بنبوته وبما جاء بـه من الشريعة والكتاب وجب على المولى سبحانه ابقاءه على ما كان عليه من الصفات والنعوت ، طلباً للغاية التي بعثه لاجـل احرازها وتحققها ، فاذا كان هو الملاك في اميته قبل بزوغ دعوته فليكن هو الملاك في بقائه عليها فلا وجه لعد احدهما نقصاً في حقه (ص) دون الاخر .

ثانياً: ان ما ذكره « ان الكتابة فضل تشرف المتحلي بـه على العاطل منه واذا صح ان الله قدجعل نبيه بحيث وصفناه من الحكم والفضل ثبت انه كان عالماً بالكتابة محسناً لها » صحيح جداً وقد فضل الله سبحانه نبينا على جميع الانبياء والرسل ومنحه من الفضائل مـا لم يمنحه لغيره غير انه لما كانت هناك مصلحة اولى واهم كما صرح الله بها سبحانه فى كتابه وهـي طرد الريب عن القلوب الضعيفة، صرفه الله سبحانه عن تعلم القرائة والكتابة طيلة عمره، ولم يمكنه منها طلباً لهذه الغاية المهمة وترك المهم توخياً للاهم لا يعد نقصاً لو لم يعد كمالا.

والى ذلك يشير الفاضل القنوى فى تعليقه على «أنوار التزيل» بقوله: ولذلك صارت الامية شرفاً وفخراً فى شأنه (ص) وصفة نقص في حق غيره .

وبذلك نجيب عن ما افاده رحمه الله :

« لوكان لا يحسن الكتابة ولا يعرفها لكان محتاجاً فى فهم ماتضمنته الكتب من الحقوق وغير ذلك الى بعض رعيته ، ولو جاز ان يحوجه الله فى بعض ما كلفه الحكم فيه الى بعض رعيته لجاز ان يحوجه في جميع ما كلفه الحكم فيه الى سواه وذلك مناف لصفاته ومضاد لحكمته » لانه اذا جاز احتياج النبى الاعظم في مورد خـاص الى بعض رعيته توخياً لبعض المصالح المهمة ، لا يستلزم جواز احتياجه فى الموارد الخالية عنها فان الاول لا يعد نقصاً عند العقلاء ولاجل ذلك يرجحون الاهم على المهم عند التزاحم ، بخلاف الثاني .

ثالثاً : انقوله سبحانه: « ويعلمهم الكتاب والحكمة » لا يدل على ما رامه اما اذا قلنا ان المراد من الكتاب هو القرآن كما هو الظاهر المتبادر الى الذهن فان تلاوة الاية لا تفتقر الى معرفة الكتابة اذا تلقى التالي محفوظاته من وحي أو تلقين، ومن الناس من يتعلم القرآن من الصدور لا السطور ويتلوه كما حفظ بدون توقف على معرفة الخط، وأما اذا قلنا ان المقصود منه الكتابة وان كان بعيداً جداً فليس معناه تعليم النبي (ص) لقومه الكتابة مباشرة اذ لم يعهد ولم ير بأسانيد صحيحة انه (ص) جلس مع افراد امته يعلمهم نقوش الحروف الهجائية وتراكيبها الابجدية قطعاً ، وانما المراد انه قام بأمر تعليم الامة مهمة الكتابة ، فقد تواتر عنه (ص) اتخاده الاسرى يشترط عليهم ان يعلموا اهل مدينته الخط والكتابة (١) فكان الاسير اذا علم الكتابة عشرة من المسلمين اطلق النبى سراحه مكافأة لعمله وبهذه الوسيلة البسيطة عمم فى اتباعه صناعة الخط وأخرجهم من ظلمة الاميـة وأصبح مقر الاسراء مدرسة يتعلم فيها صبيان المدينة ما يحتاجون اليه من علوم ذلك العهد .

وأما ما تمسك به من مفهوم الاية وان لفظة «من قبله» يفهم منها انه كان قارئاً وكاتباً بعد الوحى اليه فيوافيك نقده فى البحث التالي .

ثم ان للعلامة الشهرستانى كلمة قيمة فى المقام يجرى مجري الجواب عن ما ذكره المفيد فلاحظه (٢) :

---

(١) قال الاستاذ عمر ابو النصر فى كتابه «العرب ص ٢٣» : وكان فداء الاسرى الذين يعرفون القراءة والكتابة تلقين عشرة من صبيان المدينة الكتابة، وكذلك أصبح مقر الاسرى مدرسة يتعلم فيها صبيان المدينة .

(٢) راجع مجلة المرشد البغدادية لسنتها الرابعة ص ٣٢٧ – ٤٢٨ ما افاده العلامة الحجة السيد هبة الدين الشهرستانى على ما نقله عنها العلامة المتتبع الجرندابى فى تعاليقه على اوائل المقالات .

٢ ـ الاستدلال بمفهوم الاية :

نقل شيخ الطائفة استدلال القوم على امية النبي الاعظم بقوله سبحانه: « وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذاً لارتاب المبطلون » (العنكبوت ـ ٤٨) ثم اعترض عليهم بما هذا ملخصه :

« ان الاية لا تدل على ان النبي كان أمياً بل فيها انه لم يكن يكتب الكتاب وقد لا يكتب الكتاب من يحسنه كما لا يكتب من لا يحسنه ... » .

« ولو دلت الاية على انه لم يكن يحسن الكتابة قبل الايحاء اليه ، لدلت بالمفهوم على انه كان يحسنها بعد الايحاء اليه ، حتى يكون فرقاً بين الحالتين ولا يكون الاتيان بالقيد ـ قبله ـ لغواً » (١) .

وفي ما افاده مواقع للنظر :

أولا : ففرق واضح بين من يحسن الكتابة ويتركها ، ومن لا يحسنها أصلا فان من يحسن الكتابه ، لا يتركها دائماً ، بل يتركها موقتاً بسبب ظروف تلم به ولا يصح الاستدلال بتركه موقتاً ، على انه لا يحسنها ولا يستكشف حاله منه ، وأما من لم يكتب منذ نعومة اظفاره الى ان بلغ الاربعين بل ناهز الخمسين كما هو الحال بالنسبة الى نبينا (ص)، فيعد ذلك دليلا عند العرف على انه لا يحسنها أصلا وبتاتاً .

فالاية حسب ما يفهم منها عرفاً ، تدل على انه (ص) كان امياً لايقدر على الكتابة ، وقوله سبحانه : « ما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذاً لارتاب المبطلون » بالنظر الى ذيله وهو رفع الشك عن قلوب المبطلين ، كناية

(١) التبيان ج ٨ ص٢١٦ ط لبنان ويظهر من الالوسي في تفسيره الاعتماد على هذا الوجه .

عن كونه (ص) كان أمياً لا يحسن شيئاً من القرائة ، لا انه كان عارفاً بها ولكنه تركها لمصلحة أو غيرها .

وثانياً : ان استفادة المفهوم من الاية ودلالة القيد ـ من قبله ـ عليه مشكلة جداً وان قلنا بدلالته على المفهوم في مقام آخر ، وذلك ان دلالة القيد عليه انما هي اذا كان بقاء الحكم وعدمه عند ارتفاع القيد سواسية ، فعند ذلك يستدل بأخذ القيد في موضوع الحكم على دخله في الغرض وفي الحكم المذكور في القضية ويكون مرجعه الى ارتفاع الحكم السابق بارتفاع القيد كما اذا قيل : اكل زيد قبل طلوع الشمس ، وأما اذا كان بقاء الحكم عند ارتفاع القيد أولى في نظر السامع كما في المقام فلا يستنبط منه المفهوم فان من بقي على اميته حتى ناهز الاربعين بل الخمسين اولى بأن يبقى على تلك الحالة في ما بقي من عمره، فان الرجل اذا لم يحصل على ملكة الكتابة الى ان ورد في العقد الخامس من عمره لايحتمل في حقه عادة ان يعود الى تحصيلها بعد هذه المراحل الطويلة وعلى ذلك فلا يمكن الاستدلال على رفع الحكم المستفاد من قوله «ما كنت تتلوا من قبله» وقوله « ولا تخطه » عند ارتفاع القيد ، اي لايدل على انه كان قارئاً وكاتباً بعد بعثته كما هو المقصود .

خلاصة القول: ان الاية غير دالة على وضع النبي (ص) بعد بزوغ دعوته ولايدل على شيء من الطرفين والتمسك بمفهوم القيد ـ من قبله ـ انما يصح اذا سيق الكلام لاجل افادته والايماء الى اختلاف حاله في المقامين واما اذا سيق الكلام لغير هذه الغاية فلا يدل على ما أستظهره من المفهوم ، فان الغاية من الاتيان بالقيد هو الاستدلال بأميته قبل نزول الوحي عليه، على صدق مقاله ودعوته فان الامي اذا اتى بكتاب اخرس بفصاحته فرسان البلاغة وقادة الخطابة وسادات القوافي وملوك البيان بل ادهش بقوانينه اساطين القانون والنظام ، يعد كتابه

هذا بهذه الاوصاف والنعوت آية على كونه وحياً الهياً خارجاً عن طوق القدرة البشرية واما انه هل بقي على الامية بعد ما صار نبياً يوحى اليه أولا فخارج عن هدف هذه الاية وليست له صلة بمرماها ومقصدها وعلى ذلك نظائر فى اللغة والعرف .

ولقد أحسن المرتضى ، فلم يجعل الاية دليلا على تغير حاله بعد بعثته ، وسلك مسلكا متوسطاً غيرما مسلكه استاذه الشيخ المفيد وما قصده تلميذه شيخ الطائفة الطوسي ودونك نقل كلامه :

هذه الاية « ماكنت تتلوا من قبله من كتاب » تدل على ان النبي ماكان يحسن الكتابة قبل النبوة فأما مابعدها فالذي نعتقده فى ذلك، التجويز لكونه عالماً بالقرائة والكتابة ، والتجويز لكونه غير عالم بهما من غير قطع باحد الامرين وظاهر الاية يقتضى ان النفي قد تعلق بما قبل النبوة دون مابعدها، ولان التعليل فى الاية يقتضي اختصاص النفي بما قبل النبوة (١) لان المبطلين انما يرتابون فى نبوته لوكان يحسن الكتابة قبل النبوة فأما ما بعدها فلاتعلق له بالريبة والتهمة فيجوز ان يكون تعلمها من جبرئيل بعد النبوة (٢) .

وكلامه هذا يعرب عن توقفه فى المسئلة كما هوصريح قوله « من غيرقطع بأحد الامرين » وما ذكره « ظاهر الاية يقتضى ان النفي قد تعلق بما قبل النبوة دون ما بعدها » صحيح لو اراد بذلك نفي دلالة الاية على احد الامرين وأما

---

(١) اختصاص التعليل بما قبل النبوة غير ظاهر بل لو تظاهر النبى بالقرائة والكتابة بعد نبوته ، فهو وان كان يعد معجزة ومفخرة له عند من خلصت نيته ، وطهر قلبه ، لكنه يوجب تسلل الشك الى أميته قبل نبوته عند المبطلين والمشككين فيضلون ويضلون، وينشرون الاوهام والاراجيف حول دعوته ورسالته، نعم لوكان عارفاً بها غير متظاهر لصح اختصاص التعليل بما قبل النبوة .

(٢) مجمع البيان ج ٨ ص ٢٨٧ ، مناقب آل أبى طالب ج ١ ص ١٦١ .

لو اراد به دلالتها على كونه قارئاً وكاتباً بعد فموهون بما اوضحناه عند البحث عن كلام تلميذه الجليل شيخ الطائفة رحمه الله ، مع انه بعيد عن ظاهر كلامه.

وأما ماافاده من«ان المبطلين انما يرتابون فى نبوته لو كان يحسن الكتابة قبل النبوة فاما ما بعدها فلا تعلق له بالريبة والتهمة » غير ثابت ولا ظاهر بل يمكن ان يتطرق الشك الى نبوته لو كان يحسنها بعد النبوة اذا تظاهر بهـا فى مرآى ومسمع من الناس ، فلاحظ التعليقة السابقة .

٣ ـ الاستدلال بقوله سبحانه « يتلوا صحفاً مطهرة »

استدل الدكتور عبد اللطيف الهندي بقوله سبحانه: « رسول من الله يتلوا صحفاً مطهرة فيها كتب قيمة » (البينة ٢ ـ ٣) قال: « انه يدل على تحقق التلاوة منه (ص) ايام رسالته وفى رحاب دعوته » .

لكنه لايدل على ما رامه فان التلاوة كما تصدق على التلاوة عن الكتاب ، تصدق على التلاوة عن ظهر القلب ، ويؤيده انه لم يرو عن النبي (ص) فى ايام رسالته انه تلا القرآن عن غير ظهر قلبه، أضف الى ذلك ماذكره المفسرون فى«صحف مطهرة » من الاحتمالات التى تخرجها عن محيط هـذه الصحف المادية التي يرومها المستدل ومن شاء الاحاطة بها فليرجع الى التفاسير.

ونظير ذلك قوله سبحانه: « سنقرئك فلا تنسى الا ماشاء الله انه يعلم الجهر وما يخفى » (الاعلى ٧ ـ ٨) اذ معناه : سنقرأ عليك القرآن فلا تنساه ونجعلك قارئاً باذن منه فلا تنسى ما تتلقاه مـن أمين الوحي ، الا بمشيئة منه فان الاقراء والانساء كليهما بيده سبحانه ، فلا يدل الاعلى تلاوة القرآن وقرائته عـن ظهر القلب فقط كما كان هو دأب النبي في تلاوة كل ما اوحي اليه، وهو غيرما يرومه الدكتور وأمثاله.

قال الزمخشري : بشر الله تعالى باعطاء آية بينة وهي ان يقرأ عليه جبرئيل

ما يقرأ عليه من الوحي وهو امي لايكتب ولا يقرأ فيحفظه ولا ينساه .

وأما الاستثناء فلايدل على تحقق الانساء منه سبحانه بالنسبة الى الرسول (ص) بل هو للتنبيه على ان الامر كله بيده، وان منحت كرامة الحفظ اليه (ص) فليس بمعنى تفويض الامر اليه وخروجه عن يد الله سبحانه، بل الامر فى كلا الحالين، بيده ، فالله الذي جعله قارئاً لاينسى ، قادر على ان يصيره ناسياً لايحفظ شيئاً ، ولا يخطر على روعه شيىء ، فوزان الاستثناء فى هذه الاية وزان الاستثناء فى قوله سبحانه : « وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السماوات والارض الا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ » (هود ـ ١٠٨) .

فلا يدل على تحقق المشيئة فى المستقبل منه سبحانه حتى ينافي خلود المؤمنين فى الجنة .

٤ ـ الاستدلال بقوله سبحانه « اكتتبها »

استدل بعض الاعلام بقوله سبحانه: « وقالوا اساطير الاولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا » (الفرقان ـ ٥) وفسره فى الكشاف بقوله : اكتتبها : اكتتبها لنفسه وأخذها كما تقول: استكب الماء واصطبه : اذا سكبه وصبه لنفسه وأخذه (١) وكأنه يريد ان يفهم ان زيادة التاء في « اكتتبها » للدلالة على ان كتابته كانت لنفسه بخلاف المجرد عنها كقولنا « كتب فلان » فانه أعم من ان يكون ذلك لنفسه أو لغيره .

وقال الشيخ الطوسي: اكتتبها هو وانتسخها فهي تملى عليه حتى ينسخها (٢) وجه الاستدلال، ان المشركين قالوا : ان القرآن اساطير كتبها محمد لامن تلقاء نفسه بل بالاملاء عليه من غيره ، فقولهم : يكتب الاساطير باملاء الغير عليه ،

(١) الكشاف ج ٢ ص ٤٠٠ .

(٢) التبيان ج ٧ ص ٤٧٢ .

صريح فى انه بعد الايحاء اليـه كان كاتباً يكتب القرآن وبما ان الكتابة صفـة كمال لاينسبهاالیه خصومه كذباً وافتراء فلابدان تكون ثابتةله فی تلك الحال(١).

ولكن ما اقامه من الدليل موهون جداً فان الكتابة وانكانت صفة كمال الا ان شهادة الخصم انما تدل علىاتصافه بها اذا كانت الشهادة صادرة عنخلوص وصفاء وأما اذا جعلها ذريعة لانكار نبوته، فلايعد رميه بها دليلا علىصدقالنسبة فان القوم لما عجزوا عن الوقيعة في قرآنه ولم يتمكنوا من معارضته ومباراته دخلوا من باب آخر، حتى يفتحوا بذلك باب الريب على نبوته وكتابه وقالوا ان هنا من يملي عليه القرآن بكرة وأصيلا، وهو يكتب ما يملى عليه ولاهدف لهم من تلك الفرية الا التشكيك فی نبوته ونزول الوحي عليه ولولا ذلك لما وصفوه بها ولا بغيرها من الصفات ، فان التوصيف ، بأدنى مراتب الكمـال ، يخالف ما يرمون اليه من انتقاصه .

علىان هنا فی لفظة «اكتتبها» احتمالاآخروهوانه أمر بالكتابةوالاستنساخ احتمله الرازي بل اختاره وقال معنى «اكتتب» ههنا ، انه أمر أن يكتب لهكما يقال « احتجم » و« افتصد » اذا أمر بذلك (٢) .

الى هنا تم ما وقفنا عليه منالادلة القرآنية التيأقامها القائلون علىانالنبي كان قارئاً وكاتباً بعد نزول الوحي عليه ، وقـد عرفناك وهن الجميع ، ووقفت على ما فيها من المناقشات .

نعم هناك وجوه عقلية واستحسانات، اعتمد عليها بعضمناختارهذا النظر، ونحن نأتي بها .

٥ ـ الاستدلال بالاولوية :

استدل بها المجلسيوقال انه (ص)كان قادراً علىالتلاوة والكتابة بالاعجاز

---

(١) تفسير الايات المتشابهات ص ٤٧ ـ ٤٨ .
(٢) مفاتيح الغيب ج ٦ ص ٣٥٣ .

وكيف لايعلم من كان عالماً بعلوم الاولين والاخرين، ان هذه النقوش موضوعة لهذه الحروف ، ومـن كان قادراً باذن الله على شق القمر وأكبر منه ، كيف لا يقـدر على نقش الحروف والكلمات على الصحائف والالواح والله تعالـى يعلم (١) .

وما ذكره لا يخرج عـن حدود الاستحسان اذ من الممكن ان لايمكنه الله من القرائة والكتابة لمصلحة هو أعلم بها ، أو لاجل رفع الريب والشك عـن جانب نبوته كما هو غير بعيد حتى بالنسبة الى ما بعد النبوة، اذا تظاهر بالقرائة والكتابة .

٦ ـ التجارة تتوقف على الكتابة :

قال بعض من عاصرناه : « ان المشركين رموه بالكذب والسحر والجنون والفرية ولم ينسبوه الـى الامية مع كونها صفة نقص لاسيما للتجار ذوي رحلة الشتاء والصيف ، فاذا لم يعيبوه بالامية كان ذلك دليلا على انه كان بعـد النبوة قارئاً وكاتباً » (٢) .

ونناقش ما افاده :

أولا : ان عدم رميه (ص) بالامية ، فلعدم كونها عيباً عندهم ، كيف والقـوم كانوا جماعة أمية وكانت تلك الصفة هي السائدة عليهم، وكان الرامي بها والمرمى اليها فى هذا الوصف سواسية .

ثانياً : ان التجارة وان كانت تتوقف على القرائة والكتابة فى الاوساط المدنية غير ان الدارج فى البيئات البعيدة عـن الحضارات كان غير ذلك ، خصوصـاً قريش الذين كانت لهم رحلة الشتـاء والصيف ، فكانوا يبيعـون أو يشترون ،

---

(١) بحار الانوار ج ١٦ ص ١٣٦ .

(٢) تفسير الايات المتشابهات ص ٥٠ .

ويرجعون ، من دون ان يبقى لهم أو عليهم شيء .

هذا ما لدى القائلين من الادلة على كونه (ص) قارئاً وكاتباً بعد بزوغ نبوته ، هلم معي ندرس بعض ما وقفنا لهم فى المقام من كلمات تؤكد ما نقلناه عنهم .

قال الشيخ « ان الحاكم يجب ان يكون عالماً بالكتابة والنبي عليه وآله السلام كان يحسن الكتابة بعد النبوة وانما لم يحسنها قبل البعثة (١) .

وتبعه ابن ادريس الحلي فى باب سماع البينات من كتاب القضاء وجاء بعين ما نقلناه عن الشيخ (٢) .

واختاره العلامة الحلي فى كتاب النكاح عن تذكرته عند البحث عن مختصات النبي الاكرم حيث قال: كان يحرم عليه الخط والشعر تأكيداً لحجته وبياناً لمعجزته قال الله تعالى « ولا تخطه بيمينك » وقال تعالى « وما علمناه الشعر » (٣) .

وقد اختلف فى انه هل كان يحسنها أولا ، وأصح قولي الشافعي الثانى وانما يتجه التحريم على الاول (٤) أي على القول بأنه كان يحسن الكتابة اذ على فرض عدم عرفانه بها ، فالتحريم يكون لغواً وتحصيلا للحاصل .

غير ان دلالة الاية على حرمة الكتابة عليه ، مبني على كون «لا» فى قوله : « ولا تخطه » ناهية وهو خلاف الظاهر ، خصوصاً بملاحظة سياق الاية أي قوله تعالى : « ما كنت تتلو من قبله من كتاب » فانه جملة خبرية وهو يقتضى ان تكون الجملة التالية لها أيضاً خبرية لا انشائية .

---

(١) المبسوط : كتاب القضاء ج٨ ص ١٢٠ .

(٢) السرائر : باب سماع البينات من كتاب القضاء وهو غير مرقم .

(٣) يس – ٦٩ .

(٤) تذكرة الفقهاء ج ٢ ص ٥٦٦ الطبعة الجديدة المرقمة .

وقد اقتفى فى ذلك قول الشيخ فى مبسوطه حيث قال : « وقد خص الله نبيه محمداً بأشياء وميزه بها عن خلقه وهى أربعة : واجب ، ومحظور ، ومباح وكراهة ـ الى ان قال ـ وأما المحظورات فحظرت عليه الكتابة وقول الشعر وتعليم الشعر » (١) .

الامية فى النبى الاحاديث :

لقد بان الحق وظهرت الحقيقة من هذا البحث الضافي حول هذه الايات، فام نجد آية تدل على انه (ص) بعد بزوغ دعوته ، صار قارئاً أو كاتباً .

نعم وردت أحاديث وروايات ، رواها الفريقان ، ربما يركن الى بعضها ، ويستدل به على تمكنه من القرائة والكتابة بعد بعثته ، باعجاز منه سبحانه ، وان كان الكل لايخلو من اشكال ونحن نورد هنا تلكم الاحاديث :

* * *

منها : حديث بدء الوحى

روى أصحاب السير والتفسير :

كان رسول الله (ص) يجاور فى حراء من كل سنة شهراً حتى اذا كان الشهر الذي بعثه الله سبحانه فيه خرج رسول الله (ص) الى حراء حتى اذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيها برسالته، جاءه جبرئيل بأمر الله ، ولنترك وصف ذلك الى ما ورد عن رسول الله (ص) بقوله :

«فجاءني جبرئيل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال اقرأ قلت ماأقرأ، فغتني به » (٢) حتى ظننت انه الموت ، ثم أرسلني فقال اقرأ قال قلت ما أقرأ ؟

---

(١) راجع المبسوط أوائل كتاب النكاح ج٤ ص١٥٢ ـ ١٥٣ .

(٢) كذا فى جامع الاصول والطبرى والغت حبس النفس ، وفى صحيح البخارى والمواهب « غطنى » وهى بمعنى الغت ايضا .

قال فغتني به حتى ظننت انه الموت ، ثم أرسلنى فقال اقرأ ، قال قلت : ماذا أقرأ ؟ قال فغتني به حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلني فقال اقرأ ، قال قلت : ماذا اقرأ، ماأقول ذلك الا افتداءاً منه ان يعود لي بمثل ماصنع بي فقال: « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » ، قال فقرأتها ثم انتهى ، فانصرف ، وهببت من نومى ، فكانما كتبت في قلبي قال فخرجت حتى اذا كنت في وسط من الجبل سمعت صوتا من السماء يقول يا محمد أنت رسول الله وأنا جبرئيل قال فرفعت رأسى الى السماء انظر فاذا بجبرئيل فى صورة رجل صف قدميه فى افق السماء يقول يا محمد أنت رسول الله وأنا جبرئيل .

ويظهر من البخارى من صحيحه ان جبرئيل نزل بسورة العلق حينما كان النبي (ص) يقظاً لا نائماً ، وانه تحمل بدء الوحي فى حال اليقظة حيث قال : فجاءه الملك فقال : اقرأ ، قال : ما أنا بقارىء (١) ، قال : فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ، ثم ارسلنى فقال : اقرأ ، قلت : ما أنا بقارىء فأخذني فغطنى الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلنى، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقاريء فأخذنى فغطنى الثالثة ، ثم ارسلنى فقال : « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق » .

كلمة حول سند الحديث :

ان سند الحديث ينتهى الى اشخاص ثلاثة يستبعد سماعهم الحديث عن نفس الرسول الاكرم (ص) ، ودونك اسمائهم .

١ ـ عبيد بن عمير بن قتاده الليثى، اخرج الحديث عنه ابن هشام فى سيرته

(١) وهذا شاهد على ان الملك لم يرد ان يلقنه الايات ليتابعه فى القرائة فان ذلك امر مقدور للقارىء ، والامى، ولو اراد هذا كان المناسب ان يقول ماذا اقرأ بل اراد ان يقرأه النبى بنفسه بلا متابعة .

ج ١ ص ٢٣٥، والطبرى فى تفسيره ج ٣٠ ص ١٦٢، وتاريخه ج ٢ ص ٣٠٠، وقد ترجم الرجل ابن الاثير فى اسد الغابة ج ٣ ص ٣٥٣ ، وقال ذكر البخارى انه رأى النبى وذكر مسلم انه ولد على عهد النبى، وهو معدود فى كبار التابعين يروى عن عمر وغيره من الصحابه .

٢ ـ عبدالله بن شداد، اخرج الحديث عنه الطبرى فى تفسيره ج٣ ص١٦٢ وفى تاريخه ج ٢ ص ٢٩٩ . ترجمه ابن الاثير فى اسد الغابة ج ٤ ص ١٨٣ . وقال ولد على عهد النبى روى عن ابيه وعن عمر وعلى .

وعلى ذين السندين فالحديث مرسل غير موصول السند الى النبى الاكرم اذ من البعيد ان يرويا الحديث عن النبي (ص) نفسه .

٣ ـ عائشه أم المؤمنين ، أخرج البخارى عنها الحديث فى صحيحه ج١ ص ٣ وج ٣ ص ١٧٣ في تفسير سورة العلق والطبرى فى تفسيره ج ٣٠ ص١٦١. وعلى ذلك فقد تفردت هى بنقل هذا الحديث ، ومن البعيد جداً ان لا يحدث النبي هذا الحديث بغيرها ، مع اشتياق غيرها الى سماع امثال هذه الاحاديث عنه (ص) . وعند ذلك يشكل الاستدلال بالحديث جداً .

نعم ورد مضمون الحديث فى تفسير الامام العسكرى كما فى البحار ج ١٨ ص ٢٠٦ لكن كون التفسير من الامام فيه كل الشك والريب ونقله من اعلام الطائفة ابن شهر آشوب فى مناقبه ج ١ ص ٤٠ ـ ٤٤ ، والمجلسى فى بحاره ج ١٨ ص ١٩٦ .

* * *

توضيح مفاد الرواية :

اننا مهما جهلنا بشيىء من الاشياء ، فلا يمكن ان نجهل بأن النبوة منصب الهى لا يتحمله الا الامثل فالامثل من الناس ، ولا يقوم بأعبائها الامن عمر قلبه بالايمان، وزود بالخلوص والصفاء وغمره الطهر والقداسة، واعطي مقدرة روحية

عظيمة لا يتهيب حين ما يتمثل له رسول ربه وأمين وحيه ، ولا تأخذه الضراعة والخوف عند سماع كلامه ووحيه ، وتلك المقدرة لا تفاض من الله على عبد الابعد معدات ومقدمات :

منها : شموخ اصلاب آبائه وطهارة أرحام امهاته ، حتى ينتقل من صلب شامخ الى صلب آخر مثله ومن رحم طيبة الى أخرى مثلها .

منها : البخوع للعبادة ، والعكوف على المجاهدات النفسانية والرياضات التى لا تنازع الفطرة، بل تعدل الميول والغرائز وتهديها سبيل الرشاد والسلام.

منها: التفكير فى آثار صنعه وعجائب خلقه وبدايع كونه بتعمق وتدبر حتى يهديه التفكير فى جمال الطبيعة الى معرفة بارئها معرفة تامة تليق بحال نبيه .

منها : ان يكون فى رعاية أكبر ملك يهديه الى طرق المكارم ومحاسن الاخلاق كما اشار اليه مولانا امير المؤمنين في الخطبة القاصعة : « لقد قرن به (ص) من لدن ان كان فطيماً ، أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم ومحاسن اخلاق العالم ليله ونهاره، ولقد كنت اتبعه اتباع الفصيل أثر امه ، يرفع لى فى كل يوم من اخلاقه علماً ويأمرني بالاقتداء به ، ولقد كان يجاور فى كل سنة بحراء فأراه ولا يراه غيري . ولم يجمع بيت واحد يومئذ فى الاسلام غير رسول الله وخديجة وأنا ثالثهما، أرى نور الوحي والرسالة ، وأشم ريح النبوة ولقد سمعت رنة الشيطان حين نزل الوحي عليه فقلت : يا رسول الله ما هذه الرنة فقال : هذا الشيطان آيس من عبادته انك تسمع ما اسمع ، وترى ما أرى الا انك لست بنبي ولكنك وزير ، وانك لعلى خير (١) .

هذا البيان الضافى من أمير الاسلام والبيان (ع) يؤمي الى كثير مما ذكرناه من المقدمات، ويرسم لنا صورة اجمالية من حياة النبي (ص) الاكرم قبل بعثته وانه (ص) منذ نعومة أظفاره، ومنذ أن فطم من الرضاع، وقع تحت كفالة أكبر ملك

(١) نهج البلاغة الخطبة القاصعة ص ٣٧٤ طبع عبده .

يسلك به طريق المكارم ، ويرشده الى معالم الهداية ومدارج الكمال ، ويصونه طيلة حياته من طفولته الى شبابه والى كهولته من كل سوء .

هذا البيان يفيدنا بأن نفس أى انسان لا تستعد لقبول الوحي الا بعد اقتحام عقبات وطي مراحل، وان الملك الاكبر لم يزل يواصل نبي الاسلام ليله ونهاره حتى استعدت نفسه لقبول الوحى ، وتمثل أمينه بين يديه ، والقاء كلام ربه اليه ووعيه له منه ، بانطباعه فى لوح نفسه ، واذا اقتحم تلكم العقبات وتحققت تلكم المقدمات والمعدات وتم الاستعداد، ارتقت نفسه الى ذلك الحد الاسمى فانحسرت عن قلبه الاغطية وارتفعت عنه الحجب ، حيث أخذ يعاين الاشياء على ما هي عليه ، ويقف على الحقايق على النحو الذى يليق به ويقدر على تلاوة ما لم يكن قادراً عليها .

وقد تحققت تلك الغاية وبلغت نفسه الشريفة الى ذلك الحد في الشهر الذي اختاره الله تعالى فيه رسولا الى الناس، فجاءه أمين الوحى بلوح برزخى يحتوي على آيات من القرآن الكريم فعرضه على النبى (ص) وطلب منه ان يقرأه فابى وتجافى عن قرائته قائلا بأنه امي لا يقرأ ولا يكتب، وانه ماقرأ وماكتب طيلة عمره فغطه الامين ثلاث مرات فاذا به يقرأ .

نحن لا نعلم كنه هذا الغط ولا نستطيع ادراكه، وليس هو الا اثراً مادياً لامر معنوي كاماطة الستر عن روحه وقلبه ، وهذا أمر طبيعي فى مثل هذا الموقف العظيم الجليل الذى تنوء به اجسام وأرواح البشر، فان لكل عمل روحي ولاسيما لمثل كشف الغطاء أثراً خاصاً في ابداننا ، و الاثر البارز المادي لكشف الغطاء عن قلب النبى ونفسه ، هو الغط الذي احسه في ذلك الحين ، والا فالغط المادي لا مدخلية له فى القدرة على القرائة والتلاوة .

هكذا كانت هذه اللحظة الحاسمة من حياته (ص) منعطفاً رائعاً الى مرحلة جديدة ، فكشف عنه الغطاء آن الغط ، فقدر على قرائة ما لم يقدر عليه فعرف

الحروف والنقوش، بل الحقائق فصار اكمل انسان يطأ الارض بقدميه ، ويعيش في اديمها ويتظلل بسمائها .

وهذا البيان منضماً الى ما سمعته من حديث بدء الوحي يدفعنا الى القول بأنه (ص) قد انقلبت حاله بعد البعثة باعجاز من الله سبحانه واقدار منه تعالى . غير ان ما ذكرنا مبني على صحة الحديث واتصال سنده الى النبي ولكنك عرفت ان الحديث مقطوع غير موصول بالنبي الاكرم فلاحظ .

* * *

منها : حديث المطالبة بالقلم والدواة :

أخرجه أصحاب الصحاح والسنن ونقلها أهل السير والاخبار كافة ويكفيك ما أخرجه البخارى عن ابن عباس قال : لما حضر رسول الله وفي البيت رجال منهم عمر بن الخطاب قال النبي (ص) : هلم اكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده ، فقال عمر : ان النبي (ص) قد غلب عليه الوجع وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله فاختلف أهل البيت فاختصموا، منهم من يقول: قربوا يكتب لكم النبي كتاباً لن تضلوا بعده ومنهم من يقول: ما قال عمر فلما أكثروا اللغو والاختلاف عند النبي (ص) ؟ قال لهم رسول الله (ص): قوموا فكان ابن عباس يقول: ان الرزية ما حال بين رسول الله (ص) وبين ان يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم (١).

اخذ المستدل بظاهر الحديث وقال النبي (ص): طلب ان يكتب كتاباً، وظاهره كون الكاتب نفسه لا غير، لكنه نسى أو تناسى ان فى الاسناد مجازاً وانه من باب كتب الامير ، أو كتب الملك وليس معناه انه كتب بنفسه ، بل السيرة على ان الملك أو الامير يمليان والكاتب يكتب وينفذانه بخاتمهما وكان رسول الله (ص)

(١) صحيح البخارى ج ٢ ص ٢٢ كتاب العلم واخرجه مسلم فى آخر الوصايا فى صحيحه ج ٢ ص ١٤ واحمد فى مسنده ج ١ ص ٣٢٥ وغيرهم من اعلام الامة .

يملي والكاتب يكتب ولا يكتب بيده وهكذا كانت سيرة الخلفاء من بعده، ما كانوا يكتبون الا فى مواقف خاصة .

منها قصة الحديبية :

ملخصه : لما اعتمر النبي (ص) في ذيعقدة فابى أهل مكة ان يدعوه يدخل مكة حتى قاضاهم على ان يقيم بها ثلاثة أيام فلما كتبوا الكتاب هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله (ص) قالوا لا نقر بهذا، لو نعلم انك رسول الله ما منعناك شيئاً ولكن أنت محمد بن عبدالله فقال : أنا رسول الله وأنا محمد بن عبدالله ثم قال : لعلي (ع) امح رسول الله ، قال علي : لا والله لا امحوك أبداً ، فأخذ رسول الله (ص) الكتاب وليس يحسن يكتب فكتب هذا ما قاضى محمد بن عبدالله (ص) لا يدخل مكة السلاح الا السيف فى القراب الخ (١) .

وقد تمسك بظاهر الرواية « أبو الوليد الباجى » فادعى ان النبي (ص) كتب بيده بعد ان لم يكن يكتب، فشنع عليه علماء الاندلس فى زمانه ورموه بالزندقة وان الذي قاله يخالف القرآن حتى قال قائلهم :

برئت ممن شرى دنيا بآخرة وقال ان رسول الله قد كتبا

فجمعهم الامير فاستظهر « الباجى » عليهم بما لديه من المعرفة وقال للامير : هذا لا ينافى القرآن بل يؤخذ من مفهوم القرآن، لانه قيد النفى بما قبل ورود القرآن ، فقال : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذاً لارتاب المبطلون » وبعد ان تحققت امنيته وتقررت بذلك معجزته ، وأمن الارتياب فى ذلك، لا مانع من ان يعرف الكتابة بعد ذلك من غير تعليم فتكون معجزة أخرى.

---

(١) صحيح البخارى ج ٥ باب عمرة القضاء ص ١٤١ ، الكامل ج ٢ ص ١٣٨ ، مسند احمد ج ٤ ص ٢٩٨ ولفظه هكذا : فكتب مكان رسول الله هذا ما قاضى عليه محمد بن عبدالله الا يدخل مكة السلاح الا فى القراب .

وذكر «ابن دحية» ان جماعة من العلماء وافقوا الباجي فى ذلك منهم شيخه ابن أبي شيبة وعمر بن شبة من طريق مجاهد ، عن عون بن عبدالله ، قال : ما مات رسول الله (ص) حتى كتب وقرأ، قال مجاهد: فذكرته للشعبى فقال: صدق قد سمعت من يذكر ذلك (١) .

الجواب عن الاستدلال بالرواية :

ان ما رواه البخارى وغيره ممن جنح اليه على خلاف ما يرتئيه المستدل أدل، فان قوله: «وأخذ الكتاب وليس يحسن أن يكتب» أصدق شاهد على اميته .

أضف الى ذلك ماورد فى بعض الروايات من قول النبى الاعظم (ص) لعلى: « أرنى اياها » ، أو قوله : « فضع يدي عليها » فهو شاهد صدق على بقائه على ما كان عليه من الامية .

ولاعلام الحديث والتاريخ كلمات ضافية حول الرواية تميط الستر عن وجه الحقيقة ، فلنأت بما وقفنا عليه .

١ ـ قال ابن حجر : ان النكتة فى قوله : « فأخذ الكتاب وليس يحسن يكتب » هو بيان قوله : « أرنى اياها » فانه ما احتاج الى ان يريه موضع الكلمة التى امتنع علي (ع) من محوها ، الا لكونه لا يحسن الكتابة .

على ان قوله بعد ذلك « فكتب » فيه حذف تقدير، أي فمحاها لعلي فكتب وبهذا جزم ابن التين وأطلق « كتب » بمعنى أمر بالكتابة، وهو كثير كقوله كتب الى قيصر وكتب الى كسرى .

وعلى تقدير حمله على ظاهره فلا يلزم من كتابة اسمه الشريف فى ذلك اليوم وهو لا يحسن الكتابة ، ان يصير عالماً بالكتابة ويخرج عن كونه أمياً فان

(١) فتح البارى ج ٩ ص ٤٤ واضاف الباجى بان فى معرفة الكتاب بعد اميته (ص) معجزة اخرى لكونها من غير تعليم ، لاحظ : مناهل العرفان ج ١ ص ٣٥٨ .

كثيراً ممن لا يحسن الكتابة ، يعرف تصوير بعض الكلمات، ويحسن وضعها بيده وخصوصاً الاسماء ولا يخرج بذلك عن كونه أمياً .

واحتمل انيكون المراد: جرت يده بالكتابة حينئذ وهو لا يحسنها فخرج الكتاب على وفق المراد ، فيكون معجزة أخرى فى ذلك الوقت خاصة ، ولا يخرج بذلك عن كونه امياً وبهذا اجاب أبو جعفر السمنانى أحد أئمة الاصول من الاشاعرة وتبعه « ابن الجوزي » وتعقب ذلك السهيلي وغيره بأن هذا وان كانممكناً ويكون آية أخرى لكنه يناقض كونه أمياً لا يكتب وهي الاية التى قامت بها الحجة وأفحم الجاحد وانحسمت الشبهة فلو جاز ان يصير يكتب بعد ذلك لعادت الشبهة، وقال السهيلي والمعجزات يستحيل انيدفع بعضها بعضاً، والحق ان معنى قوله فكتب : أي أمر علياً ان يكتب (١) .

٢ ـ قال الحلبي: تمسك بعضهم بظاهر الحديث وقال : ان النبي كتب بيده يوم الحديبية معجزة له ، مع انه لا يقرأ ولا يكتب وجرى على ذلك أبو الوليد الباجي المالكي فشنع عليه علماء الاندلس فى زمانه وقالوا هذامخالف للقرآن.

ـ الى ان قال ـ : والجمهور على ان الروايات التى فيها « انه أخذ الكتاب بيده فكتب » ، محمول على المجاز أى أمر ان يكتب الكاتب (٢) .

أقول : ان لفظة «بيده» ، ليست فى نسخ صحيح البخارى ونص على ذلك الحلبى أيضاً وقوله : « ليس يحسن ان يكتب » الوارد في صحيحه وغيره من المصادر الاصلية (٣) دال على ما نرتئيه فى هذا المقال .

نعم رواه البخاري فى كتاب الصلح بصورة أخرى قال: « فلما كتبوا الكتاب

---

(١) فتح البارى ج ٩ ص ٤٥.

(٢) السيرة الحلبية ج٣ ص٢٤ وسيرة زينى دخلان فى هامش السيرة ج ٢ ص٢١٤ ولكن اللفظ للاخير .

(٣) راجع جامع والاصول الاموال ص١٥٨ ونقله عن المجلسى فى بحاره ج ٢٠ ص٣٧١.

كتبوا هذا ماقاضى عليه محمد رسول الله (ص)، فقالوا: لا نقربها فلو نعلم انك رسول ما منعناك ـ الى قال ـ : ثم قال لعلي : امح رسول الله (ص) قال : لا والله لا أمحوك أبداً فأخذ رسول الله (ص) الكتاب فكتب هذا ما قاضى عليه محمد بن عبدالله لا يدخل مكة سلاح الا فى القراب (١) .

ان تلك الواقعة قد رويت بصورتين اخريين، رواهما اعلام السير والتاريخ.

الاولى : ان رسول الله (ص) أمر علياً ان يمحو لفظ «رسول الله» فامتنع علي من محوه فقال رسول الله أرنيه فأراه علي فمحاه بيده الشريفة، ثم أمر علياً ان يكتبه ودونك لفظ الرواية : أمر رسول الله (ص) علياً ان يكتب : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله (ص) سهيل بن عمرو فقال فعلى م نقاتل ؟ اكتب اسمك واسم أبيك فقال: أنا رسول الله وأنا محمد بن عبدالله فأمر بمحوها فعند ذلك كثر الضجيج واللغط وأشاروا الى السيوف فقال علي (ع) ما أنا بالذي امحوه فقال رسول الله (ص) ستدعى الى هذا وأنت مضطهد مقهور (٢) الى ان قال وضج المسلمون وارتفعت الاصوات وجعلوا يقولون لا نعطي هذه الدنية وجعل رسول الله يخفضهم ويومى بيده اليهم ان اسكتوا ثم قال : أرنيه فأراه علي (ع) فمحاه بيده الشريفة ثم أمر علياً ان يكتبه .

نعم يظهر من البخاري ان النبي محاه من دون ان يريه علي (ع) وربما

---

(١) صحيح البخارى ج ٣ ص ١٨٥ فحذف قوله وليس يحسن يكتب .

(٢) هذا من اعلام النبوة فلاقى على اميرالمؤمنين يوم صفين عندما رضوا بالحكمين مالاقاه رسول الله فى هذا اليوم روى اهل السير والتاريخ ان علياً امر لكاتبه ان يكتب هذا ما اصطلح عليه اميرالمؤمنين على بن ابى طالب (ع) ومعاوية بن ابى سفيان فقال عمرو بن العاص لو علمنا انك اميرالمؤمنين ما حاربناك ولكن اكتب هذا ما اصطلح عليه على بن ابى طالب فقال اميرالمؤمنين(ع) صدق الله وصدق رسوله اخبرنى رسول الله (ص) بذلك ثم كتب الكتاب راجع السيرة الحلبية ج ٣ ص ٢٣ .

يستدل به على تمكنه من القرائة فروى فى كتاب الصلح : لما صالح رسول الله أهل الحديبية ـ الى ان قال ـ فقال لعلى امحه فقال على ماأنا بالذي امحاه فمحاه رسول الله بيده وصالحهم على ان يدخل ... (١) .

ويحتمل انه تركه للاختصار ، اعتماداً على ما نقله فى كتاب « الجزية والموادعة مع أهل الحرب » وقد نقل القصة فيه عن « البراء » هكذا . . فقالوا لو علمنا انك رسول الله لم نمنعك ولبايعناك ولكن اكتب هذا ما قاضى عليه محمد بن عبدالله ـ الى ان قال ـ فقال لعلي امح رسول الله فقال علي لاامحاه أبداً قال فأرنيه قال فأراه اياه فمحاه النبي (ص) بيده (٢) .

ومع هذا التصريح لايعبأ بما نقله من دون هذه الزيادة .

وروى الشيخ الاكبر المفيد ان رسول الله (ص) قال لعلى فضع يدى عليها فمحاه رسول الله (ص) بيده وقال لامير المؤمنين (ع) ستدعى الى مثلها فتجيب وأنت على مضض ثم تمم أمير المؤمنين (ع) الكتاب (٣) .

وفي اعلام الورى : قال النبي (ص) امحها يا علي فقال له : يا رسول الله ان يدى لاتنطلق لمحو اسمك من النبوة. قال فضع يدى عليها فمحاها رسول الله بيده وقال لعلي ستدعى الى مثلها فتجيب وأنت على مضض (٤) .

روى أمين الاسلام الطبرسي القصة بطولها وقال : ثم قال رسول الله (ص) امح رسول الله فقال يا رسول الله ان يدى لاتنطلق بمحو اسمك من النبوة فأخذ

---

(١) صحيح البخارى كتاب الصلح ج ٣ ص ١٨٤ .

(٢) صحيح البخارى كتاب الجزية ج ٤ ص ١٠٤ .

(٣) السيرة الحلبية ج ٣ ص ٢٤ وسيرة زينى دحلان ج ٢ ص ٢١٢، والارشاد ص٦ واللفظ للاخير.

(٤) اعلام الورى ص١٠٦ .

رسول الله (ص) فمحاه ثم قال اكتب هذا ما قاضى عليه محمد بن عبدالله(١).

وعلى هذه الصورة من الرواية : ان رسول الله نفسه محا لفظة رسول الله، لكن علياً كتب الكتاب بأمره دون رسول الله .

الثانية : وهي تشترك مع الاولى في التصريح بأن الكتاب كتبه على(ع) من بدئه الى ختمه بأمر رسول الله واملاء منه وتفترق عنها بأنه ليس فيها عن محو لفظة رسول الله عين ولا أثر .

خلاصتها : انه عندما احس الهدوء وانخفضت الاسماء بايماء منه (ص) أمر رسول الله علياً ان يكتب هذا ما صالح أو قاضى عليه محمد بن الله ... فكتب على حسب ما املاه عليه رسول الله (ص) ودونك نقل ما رواه الطبري في تاريخه .

قال سهيل لو شهدت انك رسول الله لم اقاتلك ولكن اكتب اسمك واسم أبيك قال فقال رسول الله (ص) اكتب هذا ماصالح عليه محمد بن عبدالله(ص) وسهيل بن عمرو اصطلحا على وضع الحرب (٢) وقريب منه ما رواه البخاري نفسه في موضع آخر (٣) واليعقوبي فى تاريخه (٤) والواقدي في مغازيه (٥) وابن هشام في سيرته (٦) وغيرهم من اساطين التاريخ والحديث (٧) ويقرب منه ما رواه الكليني في روضته حيث قال : قال رسول الله لعلي اكتب هذا ما

---

(١) مجمع البيان ج ٩ ص ١١٨ راجع تفسير القمى ص ٦٣٤ .
(٢) تاريخ الطبرى ج٢ ص٢٨١.
(٣) صحيح البخارى كتاب الصلح ج ٣ ص١٩٥ .
(٤) تاريخ اليعقوبى ج٢ ص٤٥ .
(٥) المغازى ج ٢ ص ٦١٠ .
(٦) السيرة ج٢ ص٣١٧ .
(٧) راجع صحيح مسلم ج٥ ص١٧٤ .

قاضى رسول الله وسهيل بـن عمرو . فقـال سهيل فعلى م نقاتلك يـا محمد ؟ فقال (ص) أنا رسول الله وأنا محمد بن عبدالله . فقال له الناس أنت رسول الله قال : اكتب فكتب هـذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله فقال له الناس : أنت رسول الله (١) .

فبعد هذا الاتفاق والاصفاق من أعلام التاريخ والحديث والتفسير على ان الكتاب كتبه علي باملاء من النبي (ص) من أوله الى آخره فهل يصح الركون الـى ما تفرد به البخاري وأحمد واعتمـد عليهما الجزري في كاملـه ، مع ان البخاري نقض ما نقله فى باب « عمرة القضاء » فى كتاب الصلح على ماعرفناك.

على ان التضارب الصريح الذي نشاهده في نقل البخاري في المقام يمنع النفس عن الركون اليه ، فقد اضطرب نقله وكلامه من وجوه :

١ ـ تراه انه نقل القصة في موضع هكذا « أخذ رسول الله الكتاب وليس يحسن يكتب ، فكتب هذا ما قاضى محمد بن عبدالله » (٢)، وفي الوقت نفسه ساقها في موضع آخر من كتابه بنفس اللفظ السابق، ولكنه حذف قوله: «وليس يحسن يكتب » (٣) .

٢ ـ تراه انه يصرح بأن النبي امحا لقبه بارائة علي(ع) حيث يقول: فقال لعلي امحه فقال علي (ع) لا امحاه أبداً ، قال : فأرنيه قال فأراه اياه فمحاه النبي بيده (٤) .

ومع ذلك تراه ينقل امحاء النبي، من دون ان يشير بانه كان بارائة من علي حيث قال « فقال لعلي امح رسول الله فقال ما أنا بالذي امحاه فمحاه رسول الله

(١) الروضة للكافى ص٣٢٦ .
(٢) صحيح البخارى ج٥ ص١٤١ .
(٣) نفس المصدر ج٣ ص١٨٥ .
(٤) صحيح البخارى ج ٤ ص ١٠٤ .

بيده (١) .

٣ ـ يظهرمنه موضع ان علياً هوالذى كتب اسم النبي بعد امحائه ماامحاه حيث قال « فقال النبي (ص) والله انى لرسول الله وان كذبتموني ، اكتب محمد بن عبدالله (٢) .

منهاكتاب النبى الى العذار :

روى البخاري عن العذار بن خالد قال كتب لي النبي (ص) : هذا ما اشترى محمد رسول الله من العذار بن خالد بيع المسلم المسلم لاداء ولاخبيئة ولا غائلة (٣) .

ودلالته على انه (ص) ، كتب الكتاب بنفسه ضعيفة ، لايمكن الركون اليه في هذه المسئلة اذكثيراً ما يسند الفعل الى الامراء والملوك ويراد منه التسبيب لا المباشرة .

كما ان الاستدلال على بقاء النبي على ما كانت عليه قبل الدعوة بقوله فى الحديث المروى: انا امة امية لانكتب ولانحسب ليس بسديد اذ يكفى فى صدق مضمونه كون اكثر من بعث اليه اميون لايكتبون ولا يحسنون .

فذلكة البحث :

ما سردناه لك من الاحاديث في هذه الصحائف ، قد رواه الجمهور في صحاحهم ، وقد وافاك عدم دلالة كثير منهاعلى ما نرتيئه، غيرحديث بدء الوحى ولوصح سنده واعتمدنا على ماتفردت بنقله «عائشة» فانما يدل على انه سبحانه

(١) المصدر السابق ج٣ ص١٨٥ .

(٢) راجع المصدر السابق ج ٣ ص ١٩٥ .

(٣) صحيح البخارى ج ٣ ص ٧ .

مكن عبده من قرائة اللوح الذي كان بيد أمين الوحي ، ولم يكن ذاك اللوح، لوحاً ماديا وصحيفة جسمانية بل كان لوحاً برزخياً، ومن قدر على قرائة نقوش ذاك اللوح وحروفه وجمله يقدر على قرائة ما كتب في الالواح والصحائف المادية. ولكنك قد وقفت على ارسال الرواية وان الحديث غير موصول بالنبى (صلى الله عليه وآله) الامن ناحيتها.

بقيت فى المقام روايات ضعاف ومراسيل، نقله بعض المتأخرين، ولا يمكن الاستدلال بها في مثل هذه المسألة ، ودونك ما نقلوه :

قال القاضي الحافظ أبو الفضل بن عياض بن موسى بن عياض: انه (ص) كان لا يكتب ولكنه اوتى علم كل شيىء حتى قد وردت آثار بمعرفته بالخط وحسن تصويرها ، كقوله لا تمدوا بسم الله الرحمن الرحيم (١) رواه ابن شعبان (٢) من طريق ابن عباس، وقوله فى الحديث الاخر الذي يروى عن معاوية انه كان يكتب بين يديه (ص) فقال له : الق الدواة (٣) وحرف القلم (٤) وأقم الباء (٥) وفرق السين (٦) الى آخر ما نقله ... (٧) والمظنون ان الحديث من ولائد النزعات الباطلة تزلفاً للامويين .

---

(١) قال القارىء فى شرحه : اى مد سينه من غير تبين روى الدارمى عن زيد بن السن اذا كتبت فبين السين .

(٢) هو ابو اسحاق العصرى المالكى له ترجمة فى الميزان مات سنة خمس وستين وثلاث مأة .

(٣) امر من الاق الدواة اذا جعل لها ليقة واصلح لها مدادها .

(٤) اى اجعل شقه الايمن ازيد من الطرف الاخر قليلا لانه اسرع فى الكتابة وابدع فى اللطافة .

(٥) اى طولها .

(٦) اسنانها .

(٧) راجع فتح البارى ج ٩ ص٤٤ ، شرح الشفاء ج١ ص٧٢٦ – ٧٢٧ .

عرض وتحقيق :

لا بأس باكمال البحث بما وصل الينا من الروايات من أئمة أهل البيت مع ترجمة رجال أسنادها وتوضيح مضامينها على وجه الاجمال وقد نقل المجلسى منها كثيراً في بحاره في الباب السادس من الجزء السادس عشر المختص بحياة نبينا (ص) (١) .

١ ـ اخرج الصدوق فى علل الشرايع عن ابن الوليد عن سعد (٢) عن ابن عيسى (٣) عن الحسين بن سعيد ومحمد البرقي عن ابن أبى عمير عن هشام بن سالم عن أبى عبدالله (ع) قال : كان النبي يقرأ الكتاب ولا يكتب (٤) .

والحديث صحيح رجاله كلهم ثقاة بالاتفاق ولكنه ظاهر ، أو محمول على عهد الرسالة لما عرفت من تنصيص الكتاب العزيز على كونه أمياً قبل البعثة.

٢ـ اخرج الصدوق في علله ابيه عن سعد (٥) عن عيسى عن البزنطى عن ابان عن الحسن الصيقل قال : سمعت أبا عبدالله (ع) يقول : كان مما من الله على نبيه (ص) انه كان أمياً لا يكتب ويقرأ الكتاب (٦) والسند صحيح الى البزنطى نعم اختلفت كلماتهم فى أبان ورموه بالناووسية والنسبة غير محققة ، والرجل من أصحاب الاجماع. والحسن الصيقل مهمل فى كتب الرجال لم يوصف بالوثاقة ولم يرد فيه طعن ، والحديث وان لم يكن صحيحاً لكنه معتبر خصوصاً لنقل

---

(١) بحار الانوار ج١٦ ص١٣١ ـ ١٣٥ .

(٢) المراد سعد بن عبدالله .

(٣) احمد بن محمد بن عيسى الاشعرى القمى .

(٤) علل الشرايع ص ٥٣ .

(٥) قد اوضحنا المراد منه ومن بعده فى الحديث المتقدم .

(٦) علل الشرائع ص ٥٣ ومعانى الاخبار ص٢٠ .

« أبان » الذي هو أحد أصحاب الاجماع عنه والحديث نظير ما تقدم عليه في الحمل والظهور بل أظهر من سابقه في كونه راجعاً الى أيام نبوته وعهد رسالته (ص) بقرينة قوله : « كان مما من الله عزوجل به على نبيه » .

٣ـ أخرج الصدوق في علل الشريع عن أبيه عن سعد عن معاوية بن الحكيم عن البزنطي عن بعض أصحابه عن أبي عبدالله (ع) قال: كان مما من الله عزوجل على رسول الله (ص) انه كان يقرأ ولا يكتب فلما توجه أبو سفيان الى « أحد » كتب العباس الى النبي فجاءه الكتاب وهو في بعض حيطان المدينة فقرأه ولم يخبر أصحابه وامرهم ان يدخلوا المدينة فلما دخلوا المدينة أخبرهم(١) والخبر صحيح الى البزنطي وهو من أصحاب الاجماع ورجاله كلهم ثقاة غير ان في آخره اجمالا واهمالا، يلحقه بالمراسيل نعم لا بأس بمضمونه فهؤ يؤيد ماقدمناه من الصحيحين، وان النبي (ص) كان يقرأ احياناً في عهد الرسالة لكن نقله زيني دحلان في سيرته بصورة أخرى ودونك نصه: كتب العباس للنبي (ص) وأخبره بجمعهم وخروجهم وراودوه على الخروج معهم فأبى واعتذر بما لحقه يوم بدر ولم يساعدهم بشيىء من المال فجاء كتابه للنبي وهو بقبا وكان العباس ارسل الكتاب مع رجل من بني غفار استأجره وشرط عليه ان يأتي المدينة في ثلاثة أيام بلياليها ففعل ذلك فلما جاء الكتاب فك ختمه ودفعه لابي بن كعب فقرأه عليه فاستكتم أبياً ثم نزل (ص) على سعد بن الربيع فأخبره بكتاب العباس (٢).

٤ ـ أخرج الشيخ الاقدم محمد بن الحسن الصفار عن الحسن بن علي عن أحمد بن هلال عن خلف بن حماد عن عبدالرحمن بن الحجاج قال : قال أبو عبدالله (ع) ان النبي كان يقرأ ويكتب ويقرأ ما لم يكتب (٣) ويكفي في ضعف

(١) علل الشرايع ص٥٣ .

(٢) سيرة زيني دحلان على هامش السيرة الحلبية ج٢ ص٢٤ .

(٣) بصائر الدرجات ص٦٢ .

الحديث انه مروي عن أحمد بن هلال الذى خرج التوقيع عن الناحية المقدسة فى لعنه ونقل الصدوق عـن شيخه ابن الوليد عن سعد انه قال ما سمعنا ورأينا بمتشيع رجع عن تشيعه الى النصب الا أحمد بن هلال .

أضف اليه انه مخالف لما قدمناه من الصحيحين من انه (ص) كان يقرأ ولا يكتب (١) .

فاتضح ان ما يصح من هـذه المأثورات انما هو الحديث الاول والثانى ويؤيدهما الثالث وهى بمجموعها تهدف الى ان النبى (ص) كان يقرأ ولا يكتب أيام رسالته ورحاب دعوته ولا ضير فى الالتزام به خصوصاً اذا كان غير متظاهر بالقرائة ، مكتفياً بقدر الضرورة ، ويؤيدها حديث بدء الرسالة .

٥ ـ أخرج الكليني فى كتاب الحجة بأسناده عن الحسن بن العباس الحريش عن أبي جعفر الثانى (ع) عن أبى عبدالله قال :

كان علي (ع) كثيراً ما يقول : مـا اجتمع التيمى والعدوي عند رسول الله (ص) وهو يقرأ : « انـا انزلناه » بتخشع وبكاء فيقولان : ما اشد رقتك لهذه السورة ؟ فيقول رسول الله لما رأت عينى ووعا قلبى ، ولما يرى قلب هذا مـن بعدي فيقولان : وما الذي رأيت ومـا الذى يرى قال : فيكتب لهما فى التراب « تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم من كل أمر » قال : ثم يقول : هل بقى شيىء بعد قوله عزوجل : « كل أمر » فيقولان: لا فيقول: هل تعلمان من المنزل اليه بذلك؟ فيقولان: أنت يارسول الله فيقول: نعم فيقول: هل تكون ليلة القدر من بعدي؟ فيقولان: نعم قال: فيقول فهل ينزل ذلك الامر فيها فيقولان نعم قال: فيقول الى من؟ فيقولان لا ندري ، فيأخذ براسي ويقول : ان لم تدريا فادريا هو هذا من بعدى قال: فان كانا ليعرفان تلك الليلة بعد رسول الله (ص) من شدة مايداخلهما من

(١) راجع الحديث الاول والثانى .

الرعب (١) .

وجه الدلالة : ان قوله (ع) : « فيكتب لهما فى التراب » بصيغة المعلوم دال على ان النبى كان يكتب هذه الايات فى التراب .

ويؤسفنا ان الحديث ضعيف للغاية :

لاجل الحسن بن العباس بن الحريش، قال النجاشى: « أبو علي روى عن أبي جعفر الثانى ضعيف جداً له كتاب «انا أنزلناه في ليلة القدر» وهو كتاب ردي الحديث ، مضطرب الالفاظ (٢) .

وقال الغضائرى « أبو محمد ضعيف جداً يروي عن أبى جعفر الثانى فضل « انا أنزلناه فى ليلة القدر » وله كتاب مصنف فاسد الالفاظ ، تشهد مخائله على انه موضوع وهذا الرجل لايلتفت اليه ولا يكتب من حديثه .

قال المحقق التسترى : « ان أردت ان تقف على صحة ما قاله النجاشى والغضائرى فى حق الرجل فراجع باب « فضل انا أنزلناه » من الكافى تجد صحة كلامهما فترى انه روى فى ذاك الباب تسعة أخبار بسند واحد كلها عن الحسن بن عباس بن الحريش عن الجواد (ع) فلفظها فاسد ومعناها كاسد وهكذا راجع تفسير القمى فى أول سورة محمد (ص) (٣) .

ثم نقل بعض أحاديثه ، ونقده نقداً نزيهاً .

حصيلة الكلام فى امية النبى (ص) :

قد أصبحت أمية النبى الاعظم (ص) قبل ان يختاره الله لابلاغ رسالته أمراً

---

(١) الكافى كتاب الحجة باب « انا انزلناه فى ليلة القدر » وتفسيرها ص ٢٤٩ ، طبع الصدوق .

(٢) فهرست النجاشى ص ٤٥ ط الهند .

(٣) قاموس الرجال ج٣ ص١٨٢ - ١٨٣ ، راجع تنقيح المقال ج١ ص٢٨٦.

واضحاً كوضوح شمس الضحى، لا يشك فيهاذومسكة ومن له أدنى المام بتاريخ الجزيرة وحياة الامة العربية ، العائشة فيها وأما حديثها بعد البعثة فالامعان فيما نقلناه من حديث بدء الرسالة والصحيحين المرويين عن الامام الصادق (ع) ، يعطى أنه كان يقرأ ولا يكتب ، فلو جاز الركون في مثل المقام الى هذه النقول المروية بصورة الاحاد من الاخبار . فنحكم بمفادها ، والا فالحكم ببقائه على ما كان عليه من الامية قبل البعثة أوثق وأسد، ويؤيد الاخير ما نقلناه في قصة الحديبية في بعض صورهـا التي عرفناك ، والتعليل الوارد في الاية الكريمة أعني قوله سبحانه : « اذاً لارتاب المبطلون » خصوصاً لو كان مراد القائل تظاهره (ص) بصناعة القرائة والكتابة على أظهر الناس ، ورؤوس الاشهاد ، فانه يجر الشك الى ما قبل الرسالة كما لا يخفى .

نحن وقساوسة الغرب والمستغربة :

بالرغم من شهادة تاريخ الحجاز في الدور الجاهلي، ومحيطه البدوي على أمية النبي وعشيرته واقربائه ، نجد مغالطات وتشكيكات اثـارتها قساوسة الغرب حول أميته (ص) وتبعهم بعض المستغربة في الشرق، الذين يتطفلون على موائد الغربيين في كـل شيىء ، حتى فيما يـرجع الى الاسلام والمسلمين ، والشرق والشرقي ، غير واقفين على نواياهم وماتكنه صدورهم وضمائرهم، من القضاء على الاسلام والمسلمين، والحقد والعداء للنبي الاعظم ورسالته، وما يستهدفون من بث هذه التشكيكات والمغالطات ، التي لها طابع التحقيق ، حول الرسول الاكرم وأميته .

وفي الوقت نفسه ، لا مصدر لهم في انكار أميته الا مراسيل عن مجاهيل ، أو انتحالات أعداء الدين ، نظراء ابن أبي العوجاء و ... كل ذلك لبث الريب في قلوب البسطاء من المسلمين بالنسبة الى رسالته، ودينه، وكتابه، حتى يتخذوا

ذلك ذريعة لانكار رسالته الالهية واتصاله بالعوالم الروحية حتى يصوروا لهم، ان النبى كان قارئاً وكاتباً وان ماجاء به من المعارف والاحكام هى انتاج عبقريته الفذة وشخصيته اللامعة، وسبره فى الكتب وغوره فيها، شأن كل باحث متتبع.

غير ان جهلهم أو تجاهلهم بالحقيقة ودعاياتهم الواسعة لا يؤثر شيئاً فى قلوب المثقفين من الامة، كيف وقد تسالمت عليها الامة منذ ألف وقرون لم ينبس أحد ببنت شفة على خلافه، حتى جعل صاحب المنار وغيره «أمية» النبي أحد وجوه اعجاز القرآن وقالوا ان الضمير في قوله سبحانه: «فأتوا بسورة من مثله» يعود الى ـ المبلغ ـ بكسر اللام أي الرسول نفسه لا الى القرآن وقال فى تفسير الاية: «فان خفى عليكم الحق بذاته فهذه آية من أظهر آياته، وهى عجزكم عن الاية بسورة من مثل سور القرآن، من رجل أمى مثل الذي جاءكم به، وهو عبدنا ورسولنا محمد وان عجزتم عن الاتيان بسورة من مثله، تساوى سورة فى هدايتها وتضارعها فى اسلوبها وبلاغتها، وأنتم فرسان البلاغة وعصركم ارقى عصور الفصاحة فاعلموا ما جاء به، بعد أربعين سنة فأعجزكم بعد سبقكم لم يكن الا بوحى الهى وامداد سماوى (١).

وماذكره من رجوع الضمير الى النبى وان كان خلاف ظاهر الاية، خصوصاً في قوله سبحانه: «قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً» (الاسراء ـ ٧٨) وفى قوله سبحانه: «فاتوا بعشر سور مثله مفتريات» (هود ـ ١٣) الا انه أحد وجوه اعجازه.

قال العلامة الشهرستانى: «ان من وجوه اعجاز القرآن والاعجاب به صدوره من مثل محمد الامى، ربيب البادية، البعيد عن حضاير الفنون، البعيد عن حواضر الحكماء ومحاضر العلماء ـ الى ان اوضح مقاله بمثال وقال: «الشعب الواثق بان سفيره لا يقرأ ولا يكتب ولا يخون، ولا يكذب ولم يعهد منه الشعر ففى وضع راهن كهذا لو يفاجئهم سفيرهم بكتاب فذفى الكتابة والانشاء والاملاء... وادعى انه مرسل به من ناحية السلطان... فان الشعب ضرورى ايمانه واذعانه له، وعدم اتهامه بأنه المباشر لهذه الفرية».

---

(١) المنار ج ١ ص ١٩١.

«٦»

علم الغيب فى الكتاب العزيز

« قد استعرضنا فى هذا الفصل « **علم الغيب** » الذى هو أحد المفاهيم والموضوعات القرآنية الواردة فى الكتاب العزيز ، فى مختلف سوره وشتى آياته وركزنا البحث بشكل خاص على التحدث عن الغيب المختص بالله سبحانه الذى لا يشاركه فيه سواه، ولا يباريه أحد ، بل هو وصف خاص له سبحانه لا يتعدى الى غيره، كسائر اوصافه من حياته وقدرته ـ وغير المختص به سبحانه الذى يمكن ان يطلع عليه غيره من نبي أو ولى أو غيرهما باذن منه سبحانه .

وفندنا فى هذا الفصل وتاليه، بفضل نصوص الايات ومحكماتها، مزعمة مقلدة الدور الاخير ، من امتناع اطلاع غيره سبحانه على الغيب وتعرفه عليه « لاستلزامه اشتراك الممكن مع الواجب ، والمخلوق مع الخالق فى بعض صفاته » ، أو « لانه مخالف لنصوص القرآن الدالة على أنه لا يعلم من فى السماوات والارض الغيب الا الله » .

وتظهر جلية الامر للقارىء الكريم فيما يأتى فى الفصلين:

في هذا الفصل

١ ـ ما معنى الغيب في الكتاب العزيز .

٢ ـ انواع المغيبات .

٣ ـ الاخبار بالغيب احد وجوه اعجاز القرآن .

٤ ـ مغيبات القرآن واخباره الغيبية .

٥ ـ تنبئو القرآن بعجز البشر عن معارضته بمثله.

٦ ـ التنبئو بانتصار الرومان على الفرس .

٧ ـ اخباره بصيانة النبى عن اذى الناس .

٨ ـ تنبؤه عن المنافقين والمخلفين من الاعراب .

٩ ـ الاخبار بالقضاء على العدو فى المعركة .

١٠ ـ التنبئو بصيانة القرآن عن التحريف .

١١ ـ التنبؤ بنجاح الاسلام والرسول .

١٢ ـ التنبؤ باحداث جزئية .

١٣ ـ تنبؤ القرآن فى مكة بما سيصيب كفار قريش .

١٤ ـ التنبؤ حول اليهود والنصارى .

١٥ ـ اجابة عن سؤال وهو ما سبب نكسة الخامس من هزيران وكيف تجتمع مع تنبؤ القرآن .

علم الغيب فى الكتاب العزيز

أظنك أيها القارىء الكريم فى غنى عن بيان معنى « الغيب » ومفاده ، لغة وعرفاً ، فان للغيب « أصلا صحيحاً يدل على تستر الشيء عن العيون، ثم يقاس. من ذلك الغيب: ما غاب، مما لا يعلمه الا الله » .

« ويقال غابت الشمس تغيب غيبة وغيوباً وغيباً . وغاب الرجل عن بلده. وأغاب المرأة فهي مغيبة ، اذا غاب بعلها ، ووقعنا فى غيبة وغيابة أي هبطة من الارض يغاب فيها . قال الله تعالى فى قصة يوسف عليه السلام : « وألقوه في غيابة الجب » والغابة : الاجمة والجمع غابات وغاب . وسميت لانه يغاب فيها » (١) .

وقال الراغب « الغيب مصدر غابت الشمس وغيرها اذا استترت عن العين يقال : غاب عن كذا ، قال تعالى: « أم كان من الغائبين » واستعمل فى كل غائب عن الحاسة ، وعما يغيب عن علم الانسان بمعنى الغائب قال : « وما من غائبة فى السماء و الارض الا فى كتاب مبين » ويقال : للشيء غيب وغائب باعتباره بالناس لا بالله تعالى فانه لا يغيب عنه شيء كما لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الارض وقوله : «عالم الغيب والشهادة» أى ما يغيب عنكم وما تشهدونه

---

(١) مقاييس اللغة ج ٤ ص ٤٠٣ .

والغيب في «يؤمنون بالغيب» مالا يقع تحت الحواس ولا تقتضيه بداية العقول وانما يعلم بخبر الانبياء (ع) (١) .

توضيحه : أن الغيب يقابل الشهود ، فما غاب عن حواسنا وخرج عن حدودها، فهوغيب، سواء أكان أمراً مادياً، قابلا للادراك بالحواس، كالحوادث الواقعة في غابر الزمان، والمتكونة حالياً، الغائبة عن حواس المخبر، أو بعد لاى من الدهر ، أم كان مما يمتنع ادراكه بالحس أو وقوعه فى أفقه ، كذاته تعالى ، وحقيقة البعث والنشور ، والحساب ، ونفخ الصور ، والميزان ، وملائكة الله، وجنته ، وناره ، ولقائه ، وحقيقة الحياة ، فى النشأة الاخرى، والوحي، والنبوة الى آخر ما يجب الايمان به وتصديقه ، كما يدل عليه قوله سبحانه :

« الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ... ... وبالاخرة هم يوقنون » (البقرة ـ ٣و٤)

وقد أوضحه بعض الاعلام ، بقوله :

الغيب ، فى العرف العربي اسم لمعنى يقابل الحضور وضد الشهود ، كما فى القرآن، «عالم الغيب والشهادة» وفى الحديث النبوي « الا فليبلغن الشاهد الغائب » وفي كلام الامام علي (ع) : « شهود كالغيب » .

والشهود، كناية عن اتصال الحواس بالحاضر لديها وهو المراد من الحضور أيضاً فالغيب كالغائب ، مالا يتصل به الحس ، وبه سمي المسافر غائباً ، وخلافه حاضراً ، فالنبأ الغيبي، بناء على ماعرفت ، هو النبأ الذي لايتصل بالمحسوس لديك فعلا، وان كان أصله محسوساً من قبل، ثم غاب كالمسافر أو بالعكس كالمولود الذي كان فى غيابة الرحم ، محجوباً عن الحواس ثم ولد بعد ، فصار محسوساً بين الناس .

ورب أمم دوخت الاقيال والاجيال فى سالف الدهر ، كجرهم وأياد ، ثم

(١) مفردات الراغب ص ٣٦٧ ـ ٣٦٦ .

بادت ، وهم اليوم غيب ، وأنباؤهم الخطيرة تعد فى زوايا التاريخ من الغيوب، ورب جراثيم الامراض كانت محجوبة ، أو لاتزال محجوبة عن الحواس ، ثم فى مستقبل الاجيال ، تقوى الالات على استكشافها ، فتصير محسوسة مشهودة، ورب طعام يقصر عن شمه حس الانسان والحيوان ، الا النمل الذي فاق حسه على غيره ، فيهتدى اليه ولا يغيب عنه ، أو كحبة خردل لا تغيب عن الغراب ، لحدة بصره ، بينما هي غائبة عن غيره ، أو صوت متحرك فى دياجير الظلام ، لا يغيب عن احساس الفرس ، لقوة سمعه بينما يغيب عن غيره ... (١) .

وهذا البيان الضافى يوقفنا على أن الغيب على قسمين : مطلق واضافى ، فالمطلق منه مالا يقع فى أفق الحس أبداً ويمتنع ادراكه بالالات والادوات المادية كذاته سبحانه وصفاته وغيرهما مماعددناه، والاضافى مايتفاوت بحسب الظروف والاشخاص ، فربما يكون غيباً فى ظرف ، فجرثومة السل كانت غيباً في غابر الزمان ، قبل أن يقف عليها مكتشفوها ، ويروها تحت المجهر الى أن عادت أمراً محسوساً فى هذه الظروف التى كثرت فيها الادوات العلمية، وسهل الوقوف على صغار الموجودات التى لا يدركها الطرف مجرداً عن الالات الحديثة...

والى ذلك يشير العلامة الطباطبائى بقوله: الاشياء المجهولة، أى غير الواقعة تحت الحواس ، غيب ، ومن الحري أن نسميها عندئذ غيباً نسبياً ، لان هذا الوصف الطارىء عليها ، وصف نسبى يختلف بالنسب والاضافات ، كما ان ما فى الدار مثلا ، من الشهادة بالنسبة ، الى من فيها ، ومن قبيل الغيب بالنسبة الى من هو فى خارجها ، وكذا الاضواء والالوان المحسوسة بحاسة البصر ، من الشهادة بالنسبة الى البصر، ومن الغيب بالنسبة الى حاسة السمع، والمسموعات التى ينالها السمع، شهادة بالنسبة اليه، وغيب بالنسبة الى البصر، ومحسوساتهما جميعاً من الشهادة بالنسبة الى الانسان الذي يملكهما فى بدنه ومن الغيب بالنسبة

(١) المعجزة الخالدة ص ٧١ – ٧٢ .

الى غيره من الاناسي(١) .

وبذلك يصح لنا ان نصطلح ونعبر عن الغيب البحث (٢) بـ « الغيب عن العالم المادى » وعن الغيب النسبى بـ « الغيب فى العالم » .

بما أن الغيب البحت، لا يخرج عن تحت الخباء، فلا يتفاوت حاله بحسب الظروف والاحوال ، فالواجب على الانسان ، الايمان بـه ، اذا قام الدليل على وجوده لامتناع شهودها ، والتعرف على حقيقتها ما لم يخرق الانسان الحجب المادية، ولم يلق الستار عن مشاعره، حتى يتعرف عليها كتعرفه على المحسوسات ولا يحصل ذلك الا بالموت ، والتحلل من الجسد ، والتحرر من المادة حتى يصدق عليه قوله سبحانه :

« وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد ، لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك ، فبصرك اليوم حديد » (ق - ٢١ - ٢٢)

أنواع المغيبات فى القرآن :

ان المغيبات الواردة فى القرآن لا تزيد اصولها على أقسام ثلاثة :

الاول :

الخبر عن الله سبحانه وأسمائه وصفاته، والخبر عن الروحانيات وملائكته وتدبيره العوالم الارضية، والسماوية ، وشؤون الاحياء بعد الموت فى البرزخ وحالة الارواح قبل المعاد وبعده من نعيم أو جحيم. والقرآن يموج بهذه المعانى الغيبية المطلقة التى لا يتعرف عليها الحس ولا تقع فى أفقه فى هذا الظرف .

---

(١) الميزان ج ٧ ص ١٢٨ .

(٢) ما أسميناه غيباً بحتاً فانما هو مجرد اصطلاح ليحصل الفرق بين القسمين، والا فانما هو غيب بحث بالنسبة الى العالم المادى، وأما بالنسبة الى نفسه أو ما يسانخه من الموجودات أو الواجب سبحانه فليس غيباً أصلا .

الثانى :

الاخبار عن امم قد خلت من قبل وطويت حياتها ، فأصبحوا مما لا يرى حتى مساكنهم ومواطنهم ، من دون أن يرجع الى كتب السير والتاريخ والكهنة والربانيين أو يطالع كتاباً أو باباً خاصاً فى هذا الموضوع. ومثله الخبر عن شؤون البشر فى مستقبل أدواره واطواره، والاشعار بملاحم وفتن واحداث في مستقبل الزمن، كاخبار القران عن ان ابالهب وامرأته يموتان كافرين، في قوله تعالى: «تبت يدا أبى لهب وتب، ماأغنى عنه ماله وما كسب، سيصلى ناراً ذات لهب، وامرأته حمالة الحطب ، فى جيدها حبل من مسد » (المسد ١ ـ ٥)، واخباره عن غلبة الروم ، بعد بضع سنين ، فى قوله سبحانه: « الم غلبت الروم فى أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين » (الروم ـ ١)

وتلحق بذلك ، الامور التى قيل اختص علمها به سبحانه ، كوقت الساعة ، والمستور فى ظلمات الارحام و ... الواردة في قوله سبحانه : « ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ، ويعلم ما فى الارحام ، وما تدري نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدري نفس بأي أرض تموت ، ان الله عليم خبير » (لقمان ـ ٣٤)

وسوف نرجع الى البحث عن هذه الاية وتقف على نظرنا فيها .

الثالث :

الاخبار عن بعض الموجودات أو النواميس السائدة فى الكون، وقد كان مغيباً عند نزول الوحى عن ادراك الحواس المجردة عن الادوات المخترعة في هذا الزمان ، كاخباره سبحانه عن زوجية الاشياء عامة بقوله : « ومن كل شيء خلقنا زوجين، لعلكم تذكرون » (الذاريات ـ ٤٩) ووجود الدابة في السماوات بقوله : « ومن آياته خلق السماوات والارض ومابث فيهما من دابة ، وهو على

جمعهم اذا يشاء قدير » (الشورى ـ ٢٩)

الى غير ذلك من اخباراته عن الحقائق العلمية والنواميس المطردة فى الكون.

ثم ان الزرقانى ارجع أصول أنباء الغيب الواردة فى القرآن الى أمور ثلاثة على وجه يقرب مما ذكرناه قال: من ذلك قصص عن الماضي البعيد، المتغلغل فى احشاء القدم، وقصص عن الحاضر الذي لا سبيل لمحمد الى رؤيته ومعرفته فضلا عن التحدث به وقصص عن المستقبل الغامض الذي انقطعت دونه الاسباب وقصرت عن ادراكه الفراسة والالمعية والذكاء الى ان قال ـ اما غيوب الماضي فكثيرة تتمثل فى تلك القصص الرائعة التى يفيض بها التنزيل ولم يكن لمحمد اليها من سبيل كقصة نوح، وموسى، ومريم واما غيب الحاضر فنريد به مايتصل بالله تعالى والملائكة والجن والجنه والنار ونحو ذلك مما لم يكن للرسول (ص) سبيل الى رؤيته ولا العلم به فضلا عن أن يتحدث عنه على هذا الوجه الواضح .

ومن غيب الحاضر أو الماضي ما جاء في طى القرآن من حقائق ومنافع ومبادىء لم يكشف عنها الا العلم الحديث وأما غيب المستقبل فهو تنبأ بحوادث وقعت كما اخبر ... (١) .

نعم ارجع العلامة الشهرستانى انواع المغيبات الى ثمانية اقسام (٢) ويرجع اصولها الى الوجوه الثلاثة التى أوضحناها .

ثم ان هذا التقسيم، انما هو بالنسبة الى البشر المحدود، الذي تغيب الاشياء عنه، وأما بالنسبة اليه سبحانه فالاشياء كلها حاضرة لديه، بأعيانها الخارجية فالماضي والحال والمستقبل عنده سواسية: « وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الارض

(١) مناهل العرفان ج ٢ ص ٢٦٣ ـ ٢٦٤ .

(٢) المعجزة الخالدة ص ٧٢ .

ولا فى السماء » فهو المحيط بكل ما دق وجل ، ولا يشذ عن محيط علمه خبر خطير ولا صغير ... الا يعلم من خلق ، وهو اللطيف الخبير .

الاخبار عن الغيب أحد وجوه اعجازه :

ثم ان المغيبات التى أشرنا اليها اجمالا ، دلت قبل كل شيء على كون القرآن كتاباً سماوياً، أوحاه سبحانه الى أحد سفرائه ، فان الاخبار عن المغيبات الكونية ، والنواميس السائدة فى الوجود ، أو الاخبار عن الامم البائدة على النحو الذي ذكرناه او الاخبار عن شؤون البشر فى مستقبل أدواره ، والايماء الى الملاحم والفتن ، والتى لا يدل عليها ولا يرشد اليها الحس ، أمر خارج عن طوق البشر ، فلا مصدر لها الا كونها وحياً أو الهاماً ، من خالقه الى مخلوقه ورسوله الذي ارتضاه فهو عالم الغيب والشهادة فلا يطلع على غيبه أحداً الا من ارتضاه من رسول، فمستند النبي فى مثل هذه المغيبات هو الله علام الغيوب.

وقد عرفت ، ان الاخبار عن الغيب بأقسامه الثلاثة كثير فى القرآن المجيد، وان استقصاء الموضوع بعامة نواحيه ، يحوج الباحث الى تأليف مفرد . وقد قام عدة من الفضلاء فى عصرنا بجمع الايات التى أخبرت عن النواميس السائدة على الكون من أسرار الخلقة ونواميس الطبيعة، مما كانت مختفية فى عصر نزول القرآن ، ولم يكن سبيل الى استكشافها الا من طريق الوحى ففسروها وأوضحوا مداليلها (١) وبذلك أغنونا عن افاضة القول فى هذا القسم من الغيب وأماغير هذا القسم من أقسام المغيبات التى جاءت فى القرآن فمجمل القول فيه :

ان المتفحص فى ما اخبر القرآن به من أحوال الامم والحوادث الماضية، يجد من نفسه ان المصدر الوحيد لبيان تلك الحوادث هو الوحي الالهى ليس غير وان النبي الاعظم (ص) لم يتلقها من مثقفى عصره ولا من الكتب الدارجة فى

(١) راجع كتاب العلوم الطبيعية والقرآن ، والقرآن والعلوم الحديثة وغيرهما .

عهده، التى تنسب الى الوحى وتعزى الى الانبياء، اذ لو فرضنا انه أخذ ما أتى به من القصص من أحبار اليهود واساقفة النصارى وقسيسيهم وكهنة العرب والكتب الدينية الرائجة من التوراة والانجيل، لوجب ان تنعكس على كتابه ظلال مصادر علمه، ومآخذ نقله، ونحن نرى مخالفة القرآن لكتب العهدين فى جميع النواحى عامة وفى ناحية القصص خاصة .

ان القرآن اشترك فى بعض القصص مع التوراة الرائجة التى اتفق اليهود والنصارى على انها كتاب الله المنزل على رسوله «موسى» (ع) فأوردت التوراة الدراجة تلك القصص مملوءة بالخرافات وجاء فى بيانها بجمل تشابه كلام المبتلى بالهذيان .

غير ان القرآن الكريم لما كان كلام الله القدوس، ووحيه، قد نقل كثيراً من قصص الامم و تواريخها ، بأبلغ العبارات وأحسنها ، وأنصع الجمل وأسداها نزيهة عما يمس كرامة الله سبحانه وكرامة أنبيائه ورسله، ولو صح ما ذكر، من اختلاق النبى الاكرم للقرآن من جانب نفسه يجب ان يتأثر بمصادر نقلها، وامتنع حسب العادة أن لا يذكر شيئاً من محتوياتها مع ما فيها من القعقعة التاريخية والناقل لقصص العهدين يستحيل ان لا ينعكس على أفكاره وكلامه ، ما يجده فيهما .

يجب على علماء المسلمين ولا سيما الاخصائيين منهم في علم السير والتاريخ القيام بتأليف موسوعة كبيرة (١) تتضمن عرض ما جاء فى العهدين من القصص

(١) نعم قد قام لفيف من الفطاحل الاعلام فألفوا فى هذا المضمار كتباً ورسائل تسدجوع القارىء بعض السد فعالجوا بعض النواحى من هذه الاطروحة شكر الله مساعيهم فراجع الى « الهدى الى دين المصطفى » و« الرحلة المدرسية » للعلامة الحجة البلاغى و« نفحات الاعجاز » و« البيان فى تفسير القرآن » لاية الله الخوئى و« الميزان فى تفسير القرآن » ج ٣ تأليف المفكر الاسلامى الكبير السيد محمد حسين الطباطبائى ثم حكم عقلك ووجدانك هل ترى ان النبى الاعظم (ص) اخذ معارف كتابه واقتبس معارف قرآنه وقصصه من هذه الكتب .

والحوادث على ما جاء في القرآن ثم القضاء الصحيح بين النقلين حتى يتبين ان ما يحتوى عليه القرآن من سمو المعارف ورصانة التعليم ، لا يمكن ان يعزى الا الى الوحى السماوى وان ما تشمل عليه كتب العهدين من قصص الخرافة وأباطيل الاحاديث لا تلتئم مع البرهان ، ولا تتمشى مع المنطق الصحيح، وان هذه الكتب قد دست وزورت وتطرق اليها التحريف بيد أناس لاخلاق لهم من الدين ولا الشرف الانسانى .

بقى من أقسام الغيب الوارد من الكتاب العزيز أمران :

١ ـ ما يرجع الى الاخبار عن الله سبحانه وأسمائه وصفاته والعوالم الروحية وغيرها التى يموج بها القرآن، فقد خصصنا لبيان هذه المعارف القسم الاول من كتابنا هذا فنشرح لك هذه المعارف ومافيها من سمو ورصانة واحداً بعد واحد حسب الترتيب الذي وقفت عليه في مقدمة الكتاب .

٢ ـ ما يرجع الى الخبر عن شؤون البشر فى مستقبل أدواره وأطواره ومايلم به من ملاحم وفتن فهذا هو الذى نبحث عنه فى المقام على وجه الاختصار فنقول :

ان القرآن قد اخبر عن الحوادث التى كان التكهن والفراسة يقتضيان خلافه من حيث النظر الى الحال الحاضر وطغيان الشرك وضعف الدعوة الاسلامية ، وما يجرى من النكال والتشريد ، والجفاء على ملبيها ، مع أنه صار صادقاً فى جميع ما اخبر به ولم يخالف الواقع في شيء منها، ولاشك انه لم يكن له طريق فى الاخبار بهذه المغيبات الا الوحى. هب انه تكهن او تفرس فى بعض اخباراته ـ واجل نبى العظمة عن هذه الفرية الشائنة ـ فهل يمكن القول بانه تفرس فى جميع ما اخبر به، وانه تنبأ معتمداً على علائم وامارات كانت ترشده اليها، مع ان المفروض ان الاحوال الحاضرة فى بعض اخباراته كانت تقتضى خلاف ما

اخبر به كما سيوافيك بيانه ونحن نأتي في المقام بكثير من الايات التي تتضمن الاخبار عن الحوادث المستقبلة التي تحققت بعد اخبارها في زمن الرسول (ص) او بعد لحوقه بالرفيق الاعلى بيسير . وأما الاستقصاء في ذلك فلنتركه الى من اراد الغور اكثر من ذلك .

نقول هناك مغيبات عن ملامح أحداث وفتن اخبر بها القرآن وظهر صدقها في عصر الرسول (ص) او بعده بقليل، فهذه الاخبار تدل قبل كل شيء على صحة نبوته وان القرآن منزل من عنده سبحانه، ولا يمكن حملها على ما يحدث بالمصادفة أو القرائن احياناً من اقوال الكهنة أو العرافين والمنجمين فان كذب هؤلاء اكثر من صدقهم والناس لا يحصون عليهم اقوالهم، ولا يبحثون عن حيلهم وتلبيساتهم وانما يذكرون بعض ذلك اذا اقتضته الحال ، كتشنيع ابى تمام على المنجمين في زعمهم ان عمورية لا تفتح الا عند نضج التين والعنب في قصيدته المعروفة التي مطلعها :

السيف اصدق انباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

الى ان يقول :

سبعون ألفاً كآساد الشرى نضجت جلودهم قبل نضج التين والعنب

على ان دأب المنجمين هو ان يعبروا عما يتوقعون من احداث المستقبل بآرائهم وبقرائن الاحوال واخبار الصحف الدورية، برموز وكنايات واشارات يفسرون بها الوقائع باهوائهم واما ما يعرفه الفلكيون بالحساب كالخسوف والكسوف ومطالع الكواكب ومغاربها فليس من التنجيم المحرم ولا من علم الغيب في شيء(١).

(١) راجع المنار ج ١ ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥ .

مغيبات القرآن واخباره الغيبية

١ ـ تنبوء القرآن بعجز البشر عن معارضته بمثله :

لقد تحدى القرآن في مواضع عديدة من آيات سوره تحديا يثير روح المنافسة على اشدها في نفوس من يتحداهم ، وتحققت نبوءة القرآن ولا تزال متحققة حيث انقرضت طبقة المخاطبين ومضت اجيال من عرب واعجام، وكلهم اعترفوا بالعجز عن المعارضة مع كثرة من تتطاول اعناقهم الى هدم بناء الدين ، وابطال معجزة الاسلام الخالدة .

ان المتأخرين من الناقدين لا يعييهم في العادة ان يستدركوا على السابقين اما نقصاً يعالجوه بالكمال أو كمالا يعالجونه بما هو اكمل منه ، واذا فرضنا ان واحداً قد عجز عن هذا ، فمن البعيد ان تعجز عنه جماعة واذا عجزت جماعة، فمن البعيد ان تعجز امة، واذا عجزت امة فمن البعيد ان يعجز جيل ، واذا عجز جيل فمن البعيد ان تعجز اجيال ، فكيف يصدر اذن مثل هذا التحدى عن رجل يعرف ما يقول فضلا عن رجل عظيم ، فضلا عن محمد افضل المرسلين؟ وهل يمكن ان يفسر هذا التحدي الجريء الطويل العريض، الا بانه استمداد من وحى السماء واستناد الى من يملك السمع والابصار وحديث عن من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه (١) .

وقد نص بذلك التحدي في موارد من آيات سوره .

منها قوله سبحانه :

« وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهدائكم

---

(١) مناهل العرفان ج ٢ ص ٢٦٨ .

من دون الله ان كنتم صادقين. فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة اعدت للكافرين » (البقرة ٢٣ - ٢٤)

اخبر القرآن في بداية امر النبي بمكة عن عجز البشر عن مباراة القرآن ومعارضته الى يوم القيامة، وان الناس لا يسعهم الاتيان بمثل هذا القرآن، مهما تظاهروا وتناصروا وحتى اليوم تنقضي على هذا التحدي والتنبوء قرون وهو صادق في وعده وعهده وسيبقى التحدي قائماً مادام القرآن ويستمر عجز البشر عن مجابهة هذا التحدي.

قال الطبرسي: «ولن» في قوله «ولن تفعلوا» تنفي على التأبيد في المستقبل وفيه دلالة على صحة نبوة نبينا (ص) لانه يتضمن الاخبار عن حالهم في مستقبل الأوقات بأنهم لا ياتون بمثله، فوافق المخبر عنه الخبر» (١).

ويليها في التنبوء بعجز البشر والجن عن معارضة القرآن، قوله سبحانه: «قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن، لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا» (الاسراء - ٨٨).

وقد بلغ في تحديه الى ان اكتفى من المتحدي باتيان عشر سور مثله، بل سورة واحدة من سوره.

قال سبحانه: «ام يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين» (هود - ١٣).

وقال سبحانه: «ام يقولون افتراه قل فاتوا بسورة من مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين» (يونس - ٣٨).

ترى في هذه الايات من التنبؤ الواثق بعجز الانس والجن عن معارضة القرآن ولكن المستقبل كما يقال «غيب» لا يملكه النبي ولا الوصي ولا أي شخص سواهما غير ان النبي صار صادقا في تنبؤه هذا، ولا يزال صادقا في الحال فعلى

(١) مجمع البيان ج ١ ص ٦٣.

اي مصدر اعتمد هو في هذا التحدى الطويل العويض ، غير الايحاء اليه الذي لم يزل يصدر عنه في اخباره وتشريعه .

٢ ـ التنبؤ بانتصار الرومان على الفرس :

قال سبحانه: «الم غلبت الروم في ادنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون، في بضع سنين ، لله الامر من قبل ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ، وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن اكثر الناس لايعلمون » (الروم ١ ـ ٦) .

وقد وقع ماأخبرت به الاية باقل من عشر سنين، فغلب الروم ودخل جيشهم مملكة الفرس باجماع من اهل التاريخ ، ودونك اجماله : ان دولة الرومان وهي مسيحية كانت قد انهزمت امام دولة الفرس وهي وثنية بعد حروب طاحنة بينهما سنة ٦١٤ م فاغتم المسلمون بسبب انها هزيمة لدولة متدينة امام دولة وثنية ، وفرح المشركون وقالوا للمسلمين بشماتة: ان الروم يشهدون انهم اهل كتاب ، وقد غلبهم المجوس ، وانتم تزعمون انكم ستغلبوننا بالكتاب الذي انزل عليكم فسنغلبكم كما غلبت فارس الروم .

فنزلت الاية الكريمة يبشر الله فيها المسلمين بأن هزيمة الروم هذه سيعقبها انتصار للمسلمين في بضع سنين ، أي في مدة تتراوح بين ثلاث سنوات وتسع ، ولم يك مظنونا وقت هذه البشارة ، ان الروم تنتصر على الفرس في مثل هذه المدة الوجيزة بل كانت المقدمات والاسباب تأبى ذلك عليها ، لان الحروب الطاحنة انهكتها حتى غزيت في عقر دارها ، كما يدل عليه النص الكريم «في ادنى الارض» ولان دولة الفرس كانت قوية منيعة وزادها الظفر الاخير قوة ومنعة ، ولكن الله تعالى انجز وعده وتحققت نبوءة القرآن سنة ٦٢٢ م الموافقة للسنة الثانية من الهجرة .

واحتمل «الزرقاني» ان الاية الثانية حملت نبوءة اخرى وهي البشارة بأن المسلمين سيفرحون بنصر عزيز في الوقت الذي ينصر فيه الروم، وقد صدق الله وعده في هذه كما صدقه في تلك ، وكان ظفر المسلمين في غزوة بدر الكبرى واقعا في الظرف الذي ظفر الرومان، وهكذا تحققت النبوءتان في وقت واحد، مع تقطع الأسباب في انتصار الروم ، كما علمت ، ومع تقطع الاسباب ايضاً في انتصار المسلمين على المشركين على عهد هذه البشارة، لانهم كانوا ايامئذ في مكة في قلة وذلة يضطهدهم المشركون ولا يرقبون فيهم الا ولاذمة ولكن على رغم هذا الاستعباد أو هذه الأستحالة العادية، نزلت الأيات كما ترى تؤكد البشارتين و تسوقهما في موكب من التأكيدات البالغة التي تنأى بهما عن التكهنات والتخرصات (١) .

غير ان من المحتمل ان يكون فرح المؤمنين لاجل انتصار الرمان على الفرس تفؤلا بذلك حيث كان التدين بالله سبحانه وشرائعه السماوية يجمعهما في امر واحد لا لاجل انتصار المسلمين على المشركين في غزوة بدر الكبرى.

نعم الاية محتملة لكل من الوجهين وان اصر الكاتب على استفادة المعنى الاول منها .

٣ ـ اخباره عن صيانة النبى عن اذى الناس

قال سبحانه « يا ايها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ان الله لايهدي القوم الكافرين » (المائدة - ٦٧) .

اصفقت صحاح السنة (٢)، واحاديث الشيعة المتواترة (٣)، على ان الاية

(١) مناهل العرفان ج ٢ ص ٢٦٦ .

(٢) راجع الغدير ج ١ ص ١٩٤ - ٢١٧ .

(٣) راجع غاية المرام ص ٣٣٥ .

نزلت يوم الغدير ، حين ما أمره سبحانه ان ينصب علياً (ع) اماماً للناس،وكان النبي على حذر من الناس فى تنصيب علي للخلافة ، فاخبره الله سبحانه بانه سيعصمه من اذى الناس وشرهم ، ولا يصلون اليه بقتل ولا يتمكنون من اغتيال شخصه الشريف وتحققت نبؤة القرآن وصدق الخبر الخبر .

ولو رفضنا صحاح القوم ولم نعتقد بما اثبته المتواتر من الروايات، وقلنا ان المراد من الناس هم المشركون واعداء الاسلام، الذين اضمروا فى انفسهم عداء لقائده ، فالاية متضمنة للتنبؤ بالغيب ايضا ، اذ لم يتمكن احد من اعداء الاسلام ان يقتله ، مع كثرة عددهم ووفرة استعدادهم ، و كانوا يتربصون به الدوائر ، ويتحينون به الفرص ، للايقاع به ، والقضاء عليه ، وعلى دعوته وهو اضعف منهم استعداداً واقل جنوداً ، فمن الذي يملك هذا الوعد اذن ، الا الله الذي يغلب ولا يغلب .

وقال سبحانه « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ، انا كفيناك المستهزئين الذين يجعلون مع الله الهاً آخرفسوف يعلمون » (الحجر ٩٤-٩٦) اخبر سبحانه عن انه يكفيه عن اذى المستهزئين ومؤامراتهم، وقد كفاه الله اشرف كفاية لم تكن تتعلق بها الامال بحسب العادة، وقد بان للمشركين وعلموا مافى قوله سبحانه فى اخر الاية « فسوف تعلمون » .

روي البزاز والطبراني عن انس بن مالك انها نزلت عند مرور النبي(ص) على اناس بمكة فجعلوا يغمزون فى قفاه ، ويقولون هذا الذي يزعم انه نبي ومعه جبرئيل (١) فأخبرت الاية عن ظهور دعوة النبي ، وانتصاره على اعدائه، وخذلانه للمشركين الذين ناووه واستهزأوا بنبوته واستخفوا بأمره ، وكان هذا الاخبار فى زمان لم يخطر فيه على بال احد من الناس، اندحار قريش،وانكسار شوكتهم وظهور النبي عليهم .

(١) لباب النقول ص ١٣٣ .

قال الطبرسى: اى كفيناك شر المستهزئين واستهزاء هم بان اهلكناهم وكانوا خمسة نفر من قريش او ستة ثم ذكر اسماءهم وكيفية هلاكهم (١).

قال سبحانه « ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم ان يضلوك وما يضلون الا انفسهم وما يضرونك من شيىء » (النساء ـ ١١٣) والمراد من الاضرار هو القتل فالله سبحانه حافظه وناصره .

٤ ـ تنبؤات حول المنافقين والمخلفين من الاعراب

تجد في سورتي التوبة والفتح والحشر نماذج من هذا القسم، يقول سبحانه: «فان رجعك الله الى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي ابداً، ولن تقاتلوا معي عدواً ، انكم رضيتم بالقعود اول مرة ، فاقعدوا مع الخالفين » (التوبة ـ ٨٣) .

فأخبر عن قعودهم ، وعدم خروجهم مع النبي ، فقوله سبحانه « فقل لن تخرجوا معي ابدا » معناه لن يكون لكم شرف صحبة الايمان ، بالخروج معي الى الجهاد في سبيل الله ، ولا الى غيره من النسك ابدا ما بقيت « ولن تقاتلوا معي عدوا » من الاعداء لا بالخروج والسفر اليهم ، ولا بغير ذلك .

ويتلوه ما جاء فيه من التنبؤ بما يحلف به المنافقون كقوله سبحانه «لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك ، ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم ، يهلكون انفسهم والله يعلم انهم لكاذبون » (التوبة ـ ٤٢) .

فاخبر عن حلفهم فى المستقبل القريب ، وعن كذبهم في حلفهم هذا. قال: الطبرسي وفي هذه دلالة على صحة نبوة نبينا اذ أخبر انهم سيحلفون قبل وقوعه

(١) مجمع البيان ج ٣ ص ٣٤٦ .

فحلفوا وكان خبره على ما أخبر به (١) .

ومثله قوله سبحانه « سيحلفون بالله لكم ، اذا انقلبتم اليهم لتعرضوا عنهم فاعرضوا عنهم انهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بماكانوا يكسبون» (التوبة ـ ٩٥) وفي هذه السورة شيء كثير من هذا الضرب من التنبؤ، فتدبر في آياتها ومضامينها تجدها مملوءة من الاخبارات الغيبية وقد نزلت في حق المنافقين المتخلفين عن غزوة تبوك .

ونظير تلكم الايات ما ورد في سورة الفتح من التنبؤ حول الاعراب الذين تخلفوا عن النبي في الخروج الى الحديبية ودونك بعض الايات « سيقول لك المخلفون من الاعراب شغلتنا اموالنا واهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم » (الفتح ـ ١١) .

وقوله سبحانه « سيقول المخلفون اذا انطلقتم الى مغانم لتأخذوا ذرونا نتبعكم يريدون ان يبدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل فسيقولون بل تحسدوننا بل كانوا لايفقهون الا قليلا » (الفتح ـ ١٥).

وفى هاتين الايتين اخبارات غيبية عن كثير مما تفوه به المخلفون وعن ما يضمرون فى انفسهم ، وما يصيبهم فى المستقبل ، يظهر ذلك لكل من امعن النظر فى مفاد الايتين ودونك تفسيرهما :

لما اراد النبي المسير الى مكة عام « الحديبية » معتمراً وكان فى ذي القعدة من سنة ست من الهجرة ، استنفر من حول المدينة الى الخروج معه ، وهم « غفار » «واسلم» «ومزينة» «وجهينة» «واشجع» « والدئل » ، حذرا من قريش ان يتعرضوا له بحرب او بصد وهو احرم بالعمرة وساق معه الهدي ليعلم الناس انه لايريد حربا ، فتثاقل عنه كثير من الاعراب ، فتخلفوا عنه، واعتلوا بالشغل،

(١) مجمع البيان ج ٣ ص ٣٣ .

فأخبر سبحانه عن العذيرة التي سوف يتشبثون به ، عند رجوع النبي واصحابه عن الحديبية بقوله « شغلتنا اموالنا واهلونا » كما اخبر عن انهم سوف يطلبون من النبي ان يستغفر لهم والحال انهم كاذبون فى معذرتهم التى تمسكوا بها ، وفى مايطلبون من النبي الاكرم (ص) من الاستغفار لهم، وهم لايبالون استغفرلهم النبي ام لم يستغفر .

ثم اخبر سبحانه عن ان النبي بعد منصرفه عن الحديبية بالصلح ، سوف يتوجه الى «خيبر» ويأخذ من اهلها مغانم ، وان هؤلاء المتخلفين يطلبون من النبي ان يتبعوه حتى يشاركوا المسلمين فى ما يأخذون من المغانم، وان النبي يجيبهم بأنكم « لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل » ولاجل ذلك خص النبي مغانم « خيبر » لمن شهد الحديبية .

ويظهر من قوله سبحانه « كذلكم قال الله » ان الله سبحانه كان قد اخبر نبيه عن تخلفهم فى الحديبية ، ايضاً كما اخبره عن تخلفهم فى غزوة خيبر .

ونظير ما سبق قوله سبحانه : « قل للمخلفين من الاعراب ستدعون الى قوم اولي بأس شديد تقاتلونهم او يسلمون فان تطيعوا يؤتكم الله اجرا حسنا وان تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً اليما » (الفتح - ١٦) .

فاخبر المتخلفين عن غزوة الحديبية بأنهم سيدعون الى معركة عنيفة تدور بينهم وبين قوم اولى باس شديد فدعاهم النبي بعد سنتين الى المقاتلة مع قبائل هوازن وحنين وثقيف ، وكانوا اقواما ذوي نجدة وشدة حسب مانقرأه في السير والتاريخ ثم اخبر سبحانه عن انهم ياخذون مغانم كثيرة بقوله : « ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيما، وعدكم الله مغانم كثيره تاخذونها فعجل لكم هذه وكف ايدي الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطاً مستقيما » (الفتح ١٩ - ٢٠) .

فقد اخذوا بعد غنائم خيبر التي اشار اليها بقوله « فعجل لكم هذه » غنائم

كثيرة في محاربة قبائل حنين وهوازن .

ثم انه اخبر عما اضمره المنافقون واسروه من الكفر والعصيان وانهم ليعدون وعداً ثم يخالفونه قال سبحانه :

« الم تر الى الذي نافقوا يقولون لاخوانهم الذين كفروا من اهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم احداً ابداً وان قوتلتم لننصرنكم والله يشهد انهم لكاذبون لئن أخرجوا لايخرجون معهم ولئن قوتلوا لاينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الادبار ثم لاينصرون » (الحشر ١١ - ١٢) .

وحاصل الايات انه سبحانه يخاطب النبى ويقول الم تر يامحمد الى الذين نافقوا فابطنوا الكفر واظهر والايمان يقولون لاخواتهم الذين كفروا من اهل الكتاب يعنى يهود بنى النضير لئن اخرجتم من ديار كم وبلاد كم لنخرجن معكم مساعدين لكم ولانطيع فى قتالكم وفى مخاصمتكم احداً ابدا اى محمداً واصحابه بل وعدوهم النصر بقولهم وان قوتلتم لننصر كم ثم كذبهما الله فى ذلك بقوله والله يشهد انهم لكاذبون فانه لوخرج اهل الكتاب لايخرج المنافقون معهم ولئن قوتلوا لاينصرهم هؤلاء المنافقون ولئن نصروهم ليولن الادبار وينهزمون .

وقد نقل المفسرون ان الاية نزلت قبل اخراج بنى النضير واخرجوا بعد ذلك فلم يخرج معهم منافق ولم ينصرونهم (١) .

وقال سبحانه فى بنى النضير من اليهود ومن مال اليهم من المنافقين «لايقاتلونكم جميعاً الا فى قرى محصنة او من وراء جدر باسهم بينهم شديد تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بانهم قوم لايعقلون (الحشر - ١٤) .

اخبر سبحانه عن احوال المنافقين مخاطبا للمؤمنين، بانهم لايقاتلونكم الافى قرى محصنة لايبرزون لحربكم وانما يقاتلونكم متحصنين بالقرى اومن وراء جدر

(١) مجمع البيان ج ٥ ص ٢٦٣ .

يرمونكم من ورائها بالنبل والحجر باسهم بينهم شديدة فعدواة بعضهم لبعض شديدة فليسوا بمتفقي القلوب تحسبهم جميعا مجتمعين فى الظاهر وقلوبهم شتى خذلهم الله باختلاف كلمتهم ذلك بانهم قوم لايعقلون .

والاية تنطبق كل الانطباق على بنى النضير ، فلاحظ سيرة ابن هشام ج ٢ ص ١٩١ .

٥ ـ الاخبار عن القضاء على العدو قبل المعركة :

قال سبحانه : « واذ يعدكم الله احدى الطائفتين انها لكم وتودون ان غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله ان يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين. ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون. اذتستغيثون ربكم فاستجاب لكم اني ممدكم بالف من الملائكة مردفين. وماجعله الله الا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر الا من عندالله ان الله عزيز حكيم ... اذ يوحي ربك الى الملائكة انى معكم فثبتوا الذين آمنوا سالقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الاعناق واضربوا منهم كل بنان » (الانفال ٧ ـ ١٢)

الاية نزلت في وقعة «بدر» ، وقد وعد الله فيها المؤمنين بالنصر على عدوهم ويقطع دابرهم والمؤمنون على ما هم عليه من قلة العدد والعدة حتى ان الفارس فيهم كان المقداد او هو الزبير بن العوام والكافرون هم الكثيرون الشديدون فى القوة وقد وصفتهم الاية بأنهم ذوشوكة وان المؤمنين اشفقوا من قتالهم، ولكن الله يريد ان يحق الحق بكلماته، وقد وفى للمؤمنين بوعده، فنصرهم على اعدائهم وقطع دابر الكافرين .

« قال رسول الله سيروا على بركة الله فان الله عزوجل قد وعدني « احدى الطائفتين » ولن يخلف الله وعده ، والله لكأني انظر الى مصرع ابي جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وفلان وفلان ، وامر رسول الله بالرحيل

وخرج الى بدر » (١) .

فأخبر سبحانه بقوله : « ويقطع دابر الكافرين » عن هزيمة المشركين وقتل أعوانهم واستئصال شأفتهم ومحق قوتهم ، فان دابر القوم آخرهم الذي يأتي في دبرهم ويكون من ورائهم ولن يصل اليه الهلاك الا بهلاك من قبله من الجيش وهكذا كان الظفر ببدر فاتحة الظفر لما بعدها الى ان قطع الله دابر المشركين بفتح مكة (٢) .

وليس تنبؤ القرآن بالقضاء على مشركي قريش في معركة بدر منحصرة بهذه الايه بل تنبأ بذلك في آية أخرى وهى قوله سبحانه : « ام يقولون نحن جميع منتصر سيهزم الجمع ويولون الدبر » (القمر ٤٤ ـ ٤٥) فاخبر عن انهزام جمع الكفار وتفرقهم وقمع شوكتهم ، وقد وقع هذا في يوم « بدر » ايضا حين ضرب ابو جهل فرسه وتقدم نحو الصف الاول قائلا : نحن ننتصر اليوم من محمد واصحابه فأباده الله وجمعه وأنار الحق ورفع مناره ، واعلى كلمته فانهزم الكافرون وظفر المسلمون عليهم حينما لم يكن يتوهم أحد بان ثلاث مئة وثلاثة عشر رجلا ليس لهم عدة يظفرون فيها بجمع كبير تام العدة وافر العدد وكيف يستفحل امر اولئك النفر القليل على هذا العدد الكثير ، حتى تذهب شوكته كرماد اشتدت به الريح (٣) .

٦ ـ التنبؤ بصيانة القرآن عن التحريف :

تنبأ القرآن بأنه سيبقى مصوناً عن التحريف بعامة معانيه ، فمع ان القرآن

---

(١) مجمع البيان ج ٤ ص ٥٢٢.

(٢) المنار ج ٩ ص ٦٠١، والناظر الدقيق المتأمل فى مفاد هذه الايات السبع يجد فيها تنبؤات كثيرة تحققت كلها فى غزوة بدر فاقرأ سيرة النبى الاكرم ولاحظ مفاد هذه الايات.

(٣) البيان ص ٥٢ ـ ٥٣ .

بـل التاريخ يقصان علينا تحريف الكثير مـن كتب الله ووحى السماء ومع ان المستقبل مليء بشتيت الحوادث المرة والليالي حبالى مثقلات جاء القرآن يخبر بوضوح بأن الايدى الجائرة لا تتمكن من التلاعب به حيث قال : « انـا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » (الحجر ـ ٩) ، والمراد مـن « الذكر » بقرينة قوله سبحانه: « وقالوا يا ايها الذي نزل عليه الذكر انك لمجنون » (الحجر ـ ٦) هو القرآن لا النبى كما احتمله بعضهم ، وبما ان النبي (ص) لم يكن من الذين يطلبون المجد عـن طريق الاحلام المكذوبة والامال المعسولة ويسيرون على الخيال ، فلا مناص من ان تكون صادرة عن وحى سماوي، معبرة عن راى من يملك الارض والسماء والماضي والمستقبل .

نعم نوقش في دلالة الايـة على صيانة القرآن عن التحريف بوجوه زائفة لا قيمة لها في ميزان الانصاف (١) .

٧ ـ الاخبار عن نجاح الاسلام والرسول :

قال سبحانه : « يرون ان يطفئوا نور الله بافواههم ويأبى الله الا ان يتم نوره ولو كره الكافرون. هو الذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » (التوبة ـ ٣٢و٣٣ ، ويقرب منهما ما ورد فى سورة الصف ٨ ـ ٩ ، باختلاف يسير) فاظهره على الدين كلـه اعز اظهار ، ارغمت به آناف المشركين، وقبض ولحق بالرفيق الاعلى ولم يبق في الجزيرة العربية وثن ولا وثنى ولا علام التفسير حول الاية كلمات تفسر الاية بغير ما ذكرناه .

قال صاحب المنار بعد ما حقق وفصل ان الاسلام هو الدين الوحيد الـذي يصلح لان يكون عالميا ، ويظهر على الدين كله ، وانه صح عن النبى (ص) « ان الله زوى لي الارض مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك امتي ما زوى لي منها »

(١) راجع فى الوقوف على تلكم الشبهات واجوبتها، تفسير البيان ص١٤٤ـ١٤٦.

قال: ومن العلماء من يقول ان بعض البشارات هذه لايتم الا فى آخر الزمان عند ظهور المهدى وما يتلوه من نزول عيسى بن مريم عليه السلام من السماء واقامته لدين الاسلام (١) .

وفسر الطبرسى «الظهور» بالغلبة بالحجة والقهر معاً ، وقال اى ليظهر دين الاسلام على جميع الاديان بالحجة والغلبة والقهر لها حتى لا يبقى على وجه الارض دين الا مغلوبا ، ولا يغلب احد الاسلام بالحجة واهل الاسلام يغلبون اهل سائر الاديان بالحجة واما الظهور بالغلبة فهو ان كل طائفة من المسلمين قد غلبوا على ناحية من نواحى اهل الشرك ولحقهم قهر من جهتها .

وقيل اراد عند نزول عيسى بن مريم فانه لا يبقى اهل دين الا اسلم او ادى الجزية وقال ابو جعفر (ع) ان ذلك يكون عند خروج المهدي من آل محمد فلا يبقى احد الا اقر بمحمد (ص) ، وقال المقداد بن الاسود سمعت رسول الله يقول لا يبقى على ظهر الارض بيت مدر ولا وبر الا ادخله الله كلمة الاسلام اما بعز عزيز واما بذل ذليل ... (٢) ، وقال فى موضع آخر . وفى هذه دلالة على صحة نبوة نبينا محمد (ص) لانه سبحانه قد اشهر دينه على جميع الاديان بالاستعلاء والقهر واعلاء الشأن كما وعده ذلك فى حال الضعف وقلة الاعوان روى عباية: انه سمع امير المؤمنين يقول : هو الذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله « اظهر بعد ذلك قالوا نعم قال كلا فو الذي نفسى بيده حتى لا تبقى قرية الا وينادى فيها شهادة ان لا اله الا الله بكرة وعشيا » (٣) .

نعم يمكن ان يقال: المراد من الظهور معناه الجامع العام اى الظهور والغلبة اعم من الغلبة بالبرهان والحجة والغلبة بالقدرة والسيطرة ، ثم الظهور أعم من

---

(١) المنار ج ١٠ ص ٤٦٠ .

(٢) مجمع البيان ج ٣ ص ٢٤ .

(٣) المصدر نفسه ج ٥ ص ٢٨٠ .

الظهور على الشرك والوثنية السائدة في الجزيرة العربية يوم نزول الاية، والظهور على الشرائع كلها، فى مشارق الارض ومغاربها، فللظهور مراتب ودرجات تحقق بعضها في عصر الرسول والبعض الاخر بعده (ص) والدرجة العليا منها انما تتحقق بظهور المهدي من آل محمد « عجل الله تعالى فرجه » .

على ان هنا آيات تنبأت بمستقبل الاسلام ونجاحه نجاحا باهراً مثل قوله سبحانه : « كذلك يضرب الله الحق والباطل ، فاما الزبد فيذهب جفاءاً واما ما ينفع الناس فيمكث فى الارض كذلك يضرب الله الامثال » (الرعد ـ ١٧)

فتنبأ بأن الاسلام سيخلد ويبقى، وان الباطل والوثنية سيذهب جفاء ، اخبر بذلك في الوقت الذي كان المسلمون فى مكة مضطهدين مستضعفين يخافون ان يتخطفهم الناس وقريب منه قولـه سبحانه : « الم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة اصلها ثابت وفرعها فى السماء. تؤتي اكلها كل حين باذن ربها ويضرب الله الامثال للناس لعلهم يتذكرون » (ابراهيم ٢٤ ـ ٢٥) فالمراد من الكلمة الطيبة ، هي كلمة التوحيد وما يتفرع عنها من احكام وفروع ، فالاعتقاد بالله سبحانه ووحدانيته هو الاصل الثابت والمحفوظ من كل تغير وزوال، ومن طروء اي بطلان عليه، وتتفرع عنها احكام ونسك واخلاق زاكية واعمال صالحة يحيى بها الانسان ، ويعمر بها المجتمع، وتعطى اكلها وثمارها التي هى عبارة عن صلاح المجتمع الانسانى وتكامله كل حين .

فالايه تشير الى ان العقائد الحقه وما يتفرع عنها من الاحكام ، كشجرة طيبة فكما هي تضرب عروقها فى الارض وتعلو اغصانها الى السماء، ويتظلل بها الناس ويستفيد من ثمارها القريب والبعيد، فهكذا الدين الحق والكلمة الطيبة التى هى كلمة التوحيد والاسلام ، سوف يستقر في قلوب الناس ، وتضرب عروقها في ضمائرهم وقلوبهم، وترفع اغصانها فى مظاهر حياتهم، يتظلل بها العرب والعجم ويستفيد من آثارها الدانى والقاصى وبها يستقر السلام العام وتأمن سعادة الناس

وبها يتكامل المجتمع البشرى فى مراحل الحياة ومظاهرها ، فتبقى دائمة على مر الليالى والايام .

فهذه الاية تنبىء عن مستقبل الاسلام ونجاحه نجاحاً باهرا فى وقت لم يكن من بواسم الامال مايلقى ضوءاً على نجاح هذا الدين، ولم يكن عند النبى من العوامل ما يجعله يثق بهذا النجاح ، وليس النبي بشهادة تاريخ حياته ورجاحة عقله واتزانه ودقته، من الذين يلقون القول على عواهنه غير متريثين بما يقولون بل كان يتثبت فى كلامه ، ويتحرى في مقاله حتى اشتهر بالصدق والامانة ومع ذلك فقد اخبر بلغة الواثق فيما يقول ، عن نجاح دينه فى المستقبل وانه سوف يضرب بجرانه خارج مكة بل خارج الجزيرة العربية الى اقاصى الدنيا .

واعطف على ذلك تنبؤ القرآن بكل وعود تدل على نجاح الرسل والمؤمنين فى ميادين الحياة ومعارك التنازع ، كقوله سبحانه : « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين، انهم لهم المنصورون وان جندنا لهم الغالبون » (الصافات ١٧١-١٧٣) وقوله سبحانه : « انا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد» (غافر-٥١)، «وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم، وليبدلنهم من بعد خوفهم امنا يعبدوننى، لا يشركون بي شيئا ، ومن كفر بعد ذلك فاولئك هم الفاسقون » (النور - ٥٥) (١)

فهذه الوعود المؤكدة الكريمة وان وردت بصورة عامة ، لكنها تعم النبى الاكرم والذين آمنوا به، فقد نصر النبي وجنده وغلبهم على مخالفيهم وأعدائهم ومكن الذين آمنوا وعملوا الصالحات فى ارضه واستخلفهم فيها ، وبدل خوفهم أمنا حتى استطاعوا ان يعبدوه آمنين غير خائفين الى يومنا هذا .

(١) راجع ما اسلفناه حول الايات المتقدمة من عمومية المعنى واوسعيته وكونه ذا مراتب فلا ينافى تأويلها بخروج الامام المنتظر .

« ان الاسلام لقى من ضروب العنت مرارا وتكرراً فى ازمان متطاولة وعهود مختلفة، ما، كان بعضه كافياً فى محوه وزواله ولكنه على رغم انف هذه الاعاصير العاتية بقي ثابتاً، يسامى الجبال شامخا يطاول السماء على حين ان سجلات التاريخ لاتزال تحفظ بين طياتها، مايشيب الوليد من الوان الاضطهاد والاذى الذي أصاب الرسول واتباعه في مكة والمدينة وقد رمتهم العرب بقوس واحدة، عندما نزلوا المدينة وكانوا لا يبيتون الا بالسلاح ولا يصبحون الا فيه وقد وعدهم بالنصر والغلبة وهم يضطهدون، وما اعجل تحقق هذا الوعد الالهى، رغم هذه الاحوال، المنافية في العادة لما وعد، فدالت الدولة لهم ، واستخلفهم فى اقطار الارض واورثهم ملك كسرى وقيصر ومكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وابدلهم بعد خوفهم امنا ، يا لها نبوءة تأبى عادة ان يتحدث بها الا من يملك تحقيقها ويخرق ان شاء عادات الكون ونواميسه من اجلها ، « ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز » (١) .

كيف وهو لم يكتف بهذا بل تنبأ فى الوقت الذي لم يكن فيه من بواسم الامال ، ما يوجب اطمئنانه بنجاحه ونجاح دينه بانه سيعود الى معاده وموطنه فى حين ان المسلمين كانوا بمكة في اذى وغلبة من اهلها وكان هو بالجحفة اثناء هجرته الى المدينة وقال سبحانه: « ان الذي فرض عليك القرآن لرادك الى معاد قل ربي اعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين » (القصص - ٨٥) فاخبر عن رجوعه الى معاده من غير شرط ولا استثناء وجاء المخبر مطابقا للخبر(٢).

وانك لتجد فى سبرك الذكر الحكيم آيات أخرى غير ما ذكرناه تبشر بنجاح الاسلام والمسلمين، وتعبر عن غلبتهم على اعدائهم وهذه الايات الكثيرة الواردة فى هذا القسم من المغيبات ، قد تحققت كلها ولم تتخلف منها واحدة

(١) مناهل العرفان ج ٢ ص ٢١ - ٢٧١ بتصرف .

(٢) مجمع البيان ج ٤ ص ٢٦٩ .

ولو تخلفت منها واحدة لزمرت وطبلت على تلك السقطة ، اعداؤه وطفقوا يرقصون فرحاً بالخلاف الذي وجدوه فى كتابه الذي به تحداهم فهدم كيانهم وسفه احلامهم .

ولا بأس بذكر بعض ماينا سب المقام من الايات التى تنبأت بانتصار الرسول والمسلمين على اعدائهم وانهم سوف يدخلون مكة بل يفتحونها .

قال سبحانه : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون ، فعلم ما لم تعلموا ، فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً » (الفتح - ٢٧) روى أصحاب السير والتاريخ «ان الله تعالى أرى نبيه في المنام بالمدينة قبل ان يخرج الى الحديبية ، ان المسلمين دخلوا المسجد الحرام فاخبر بذلك اصحابه وانهم سوف يدخلون مكة فلما خرجوا من المدينة وبلغوا الحديبية خرج منها رسول الله (ص) في عدد من أصحابه حتى اذا كانوا بذي الحليفة بعث النبي (ص) عيناً ، وجاء فأخبره بأن كعب بن لؤى ، وعامر بن لؤى، قد جمعوا لك الاحابيش طليعة، وبعد محادثات جرت بين المسلمين وقريش اصطلحوا على ان يضعوا الحرب عشر سنين وان يرجع رسول الله ومن معه من اصحابه فى عامه هذا فلا يدخل مكة الا من العام القابل. فيقيم بها ثلاثاً ومعه سلاح الراكب والسيوف فى القرب ، ولا يدخلها بغيره ، فلما انصرف رسول الله ومن معه من اصحابه قال المنافقون ما حلقنا ولا قصرنا ولا دخلنا المسجد الحرام فأنزل الله هذه الاية واخبر انه ارى رسوله الصدق فى المنام ، لا الباطل وانهم يدخلونه وأقسم على ذلك وقال لتدخلن المسجد الحرام أي العام القابل وكان بين نزول الاية والدخول مدة سنة ولعل التقييد بالمشيئة لعلمه سبحانه بأن منهم من يموت قبل السنة أو يمرض فلا يدخلها فأدخل الاستثناء لان لا يقع في الخبر خلف (١) .

(١) سيرة ابن هشام ج٢ غزوة الحديبية ص٣٠٨-٣٢٢ مجمع البيان ج٥ ص١٢٦ .

ونختم هذا القسم بتنبؤين :

١ ـ تنبؤ القرآن بانتصاره على أعدائه من قريش وفتحه عاصمة الوثنيين ودخول الناس في دين الاسلام فوجاً بعد فوج قال سبحانه : « اذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله افواجاً فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان تواباً » (النصر ١ ـ ٤) فأظفره الله على أعدائه وفتح مكة ودخل الناس فى دين الاسلام زمرة بعد زمرة ولاجل ذاك النصر العظيم أمره سبحانه بتنزيه الله عما لا يليق به ، وليست هذه هي المرة الوحيدة التي تنبأ فيها القرآن الكريم بفتح مكة ، بل تنبأ بفتح مكة مرة أخرى وهو قوله سبحانه : « انا فتحنا لك فتحاً مبيناً » (الفتح ـ ١) فقد روي ان المسلمين رجعوا عن غزوة الحديبية وقد حيل بينهم وبين نسكهم فهم بين الحزن والكآبة اذ انزل الله عزوجل: « انافتحنا لك فتحاً مبيناً » فأدرك الرسول السرور والفرح ، ما شاء الله ، ففتحت مكة بعد عامين ، من نزول السورة ومعنى قوله : « انا فتحنا » انا قضينا لك بالفتح .

وقال سبحانه: «واخرى تحبوبها نصر من الله وفتح قريب» (الصف ـ ١٣) والمراد من « فتح قريب » اما فتح مكة أو فتح بلاد الفرس والروم (١) .

٢ ـ تنبؤ القرآن بانه لا يضر ارتداد من ارتد ممن آمن به فان الله يأتى بقوم رحماء على المؤمنين أشداء على الكافرين ، يجاهدون فى سبيل الله لاعلاء كلمة الله واعزاز دينه ، حيث قال سبحانه: « يا ايها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه اذلة على المؤمنين اعزة على الكافرين. يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم » (المائدة ـ ٥٤)

وروى ان النبي (ص) سئل عن هذه الاية فضرب بيده على عاتق سلمان

(١) مجمع البيان ج ٥ ص ١٠٨ ـ ١٠٩ ـ ٢٨٢ .

فقال : هذا وذووه . . ثم قال : لوكان الدين معلقا في الثريا لتناوله رجال من ابناء فارس ، ونقلت فى هدف الاية أقوال اخر (١).

٨ ـ التنبؤ باحداث جزئية :

ومن غرائب التنبؤات الاخبار عن احداث جزئية ، تحققت بعد الاخبار كما اخبر ، فأخبر بأن أبا لهب وامرأته يموتان على الكفر، ولا يحظيان بسعادة الاسلام ، الذي يكفر عنهما آثام الشرك ، ويحط أو زارهما ، فماتا على الكفر ، كما اخبر به اخباراً حتمياً وذلك في قوله سبحانه :

« تبت يدا ابى لهب وتب ماأغنى عنه ماله وما كسب سيصلى ناراً ذات لهب وامرأته حمالة الحطب في جيدها حبل من مسد » (اللهب ١ ـ ٥) فأخبر بأنه يدخل ناراً عنيفة الاشتعال تلتهب عليه، وهي نار جهنم وجاء المخبر كما اخبر.

كما اخبر عن الوليد بن المغيرة ومصير أمره وعاقبة حياته ، وانه يموت على الكفر، وانه سبحانه يدخله فى عذاب لا راحة فيه ، وذلك عند ما اتهم النبي بانه ساحر فانزل الله فيه سبحانه الايات التالية « ذرنى ومن خلقت وحيداً وجعلت له مالا ممدوداً وبنين شهوداً ومهدت له تمهيداً ، ثم يطمع ان ازيد كلا انه كان لاياتنا عنيداً سأرهقه صعوداً أنه فكر وقدر فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر ثم نظر ثم عبس وبسر، ثم ادبر واستكبر، فقال ان هذا الاسحر يؤثر ان هذا الاقول البشر سأصليه سقر، وما أدريك ما سقر لا تبقى ولا تذر، لواحة للبشر عليها تسعة عشر » (المدثر ١١ ـ ٣٠)

روي ان قريشاً اجتمعت في دار الندوة فقال الوليد لهم انكم ذووا احساب وذوو أحلام، وان العرب يأتوكم، فتنطلقون من عندكم على أمر مختلف، فاجمعوا أمركم على شيىء واحد ماتقولون في هذا الرجل، قالوا انه شاعر فعبس، وقال:

(١) مجمع البيان ج ٢ ص ٢٠٨ .

قد سمعنا الشعر فما يشبه قوله الشعر ، فقالوا : انه كاهن ، قال : اذا تأتونه فلا تجدونه يحدث بما تحدث به الكهنة قالوا : انه لمجنون فقال : اذا تأتونه فلا تجدونه مجنوناً ، قالوا انه ساحر قال : وما الساحر ، فقالوا بشر يحبب بين المتباغضين ويبغض بين المتحابين ، قال : فهو ساحر فخرجوا فكان لا يلاقى أحد منهم النبي الا قال: ياساحرياساحرواشتد ذلك فأنزل اليه هذه الايات (١).

وهذا التنبؤ صدر عنه (ص) فى مكة وكان فى وسع الرجل ان يقلب حاله ويصلح باله ولكنه بقي على ما كان عليه من كفره وعدائه للنبى والاسلام .

وقد تنبأ القرآن به بصورة أخرى وهو انه سنجعل له علامة على أنفه يعرف بها ، حيث قال سبحانه : « ولا تطع كل حلاف مهين ، هماز مشاء بنميم مناع للخير معتد اثيم ، عتل بعد ذلك زنيم ، ان كان ذامال وبنين اذا تتلى عليه آياتنا قال اساطير الاولين، سنسمه على الخرطوم » (القلم ١٠ – ١٦) وقد حضر الرجل فى معركة بدر الكبرى خطم انفه بالسيف ، وبقي اثر هذه الضربة سمة وعلامة له كما هو أحد الوجوه فى تفسير قوله : « سنسمه على الخرطوم » (٢).

ولا ينحصر تنبؤ القرآن بعدم ايمان عمه أوالوليد بل تنبأ في آية اخرى عن عدم ايمان ثلة كبيرة من الكافرين فقال سبحانه : « ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم ام لم تنذرهم لا يؤمنون » (البقرة – ٦)

وقال سبحانه: «وسواء عليهم أأنذرتهم ام لم تنذرهم لايؤمنون» (يس – ١٠) وليس المراد عموم الكافرين لبطلانه بالضرورة لدخول كثير منهم فى الاسلام بل المراد هم الذين كانوا يظاهرون بعدوانه . قال الطبرسى : تدل الاية على انه يجوز ان يخاطب الله تعالى بالعام والمرادبه الخاص لانا نعلم ان فى الكفار من

(١) مجمع البيان ج ١ ص ٣٨٧ .

(٢) الكشاف ج ٤ ص ٥٨٩ ، مجمع البيان ج ١ ص ٣٣٥ .

آمن وانتفع بالانذار (١) .

ومثله تنبؤ القرآن بأن عدو النبي (ص) (العاص بن وائل السهمي هو الابتر) وان الله سبحانه سيرزق نبيه ذرية كثيرة حتى يصير نسبه اكثر من كل نسب ، قال سبحانه : « انا اعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر ان شانئك هو الابتر » (٢) . قال في تفسير الفخر : ان هذه السورة انما نزلت رداً على من عابه (عليه السلام) بعدم الاولاد فالمعنى انه يعطيه نسلا يبقون على مر الزمان فانظر كم قتل من اهل البيت ثم العالم ممتلىء منهم ولم يبق من بني امية في الدنيا احد يعبأ به ثم انظر كم كان فيهم من الاكابر من العلماء كالباقر والصادق والكاظم والرضا عليهم السلام والنفس الزكية وامثالهم .

كل ذلك دليل على انه لا مصدر لهذه التنبؤات والاخبارات الغيبية الا الله سبحانه علام الغيوب .

٩ ـ تنبؤ القرآن في مكة بما سيصيب كفار قريش :

تنبأ القرآن بالمستقبل الاسود الذي كان ينتظر قريشاً ، وذلك عندما دعا النبي على قومه لما كذبوه بقوله : اللهم اجعلها عليهم سنيناً كسنى يوسف فأجدبت الارض فاصابت قريشاً المجاعة وكان الرجل لما به من الجوع ، يرى بينه وبين السماء كالدخان ، وأكلوا الميتة والعظام ثم جاؤوا الى النبي وقالوا : يا محمد جئت تأمر بصلة الرحم ، وقومك قد هلكوا فسأل الله تعالى لهم بالخصب والسعة ، فكشف عنهم ثم عادوا الى الكفر (٣) والى ذلك يشير قوله سبحانه :

« فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب اليم ، ربنا

---

(١) مجمع البيان ج ١ ص ٤٣ .

(٢) لاحظ مجمع البيان ج ٥ ص ٥٤٠ ومفاتيح الغيب ج ٨ ص ٤٩٨ .

(٣) مجمع البيان ج ٥ ص ٦٣ ، البرهان ص ١٦٠ .

اكشف عنا العذاب انا مؤمنون ، أنى لهم الذكرى ، وقد جاءهم رسول مبين ، ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون ، انا كاشفوا العذاب قليلا انكم عائدون، يوم تبطش البطشة الكبرى انا منتقمون » (الدخان ١٠ ـ ١٦)

فقد تنبأ في هذه الايات الثمان عن عدة مغيبات هى :

١ ـ الاخبار عن القحط الذي يقع بهم ، وشدة الجوع التى يغشاهم ، الى حد يتصور الرجل السماء كالدخان ، لما به من شدة الجوع ، حيث قال سبحانه : « وارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين » .

٢ ـ الاخبار بابتهالهم وتضرعهم الى الله سبحانه ، عند ما تلم بهم هذه الازمة ويحل بهم الجوع والغلاء ، قال سبحانه : « ربنا اكشف عنا العذاب انا مؤمنون » .

٣ ـ الاخبار برفع العذاب وكشفه عنهم قليلا قال سبحانه : « انا كاشفوا العذاب قليلا » .

٤ ـ الاخبار بعودهم الى ما كانوا عليه من الكفر والانكار قال سبحانه: « انكم عائدون » .

٥ ـ الاخبار بان الله سينتقم منهم يوم البطشة الكبرى، وهو يوم بدر الكبرى حيث انتقم منهم وقتل من صناديد قريش ، سبعون رجلا وأسر منهم مثله وتولى الاخرون .

وهذه الكثرة الوافرة من الانباء الغيبية لم تتخلف واحدة منها، بل تحققت كما اخبر بها ، ولو لم يتحقق ، لنقل لتوفر الدواعى عى نقله وتواتره .

نعم قيل ان الدخان الوارد فى الاية من اشراط الساعة (١) ، وهو بعد لم يأت وانما يأتي قبل يوم الساعة ، وتكون الارض كلها كبيت اوقد فيه ليس فيه

(١) مجمع البيان ج ٥ ص ٦٢ .

خصاص ويستمر ذلك اربعين يوماً . ولا يخفى ان المعنى الاول اظهر وانسب لقوله سبحانه: « انى لهم الذكرى وقدجاءهم رسول مبين، ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون » اذ لوكان الدخان الوارد في الاية من اشراط الساعة، لغشي الناس جميعاً ، ولم يختص بكفار قريش وعند ذاك لا يصح لوم الجميع بقوله: « انى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين ثم تولوا وقالوا معلم مجنون » فان كثيراً من المحشورين في يوم القيامة ، ليسوا من امة نبينا « محمد » ولم يتولوا عنه ولم يتهموه بأنه معلم مجنون .

ثم ان القرآن كما تنبأ فى مكة بما يصيب كفار قريش لم يزل يتنبأ ايضا بعدما هبط النبي في المدينة واخذيتنبأ بماسيصيب الكفار من المشركين واليهود ويخبر عن مؤامراتهم ضد الاسلام فقال :

«قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون الى جهنم وبئس المهاد» (آل عمران - ١٢) فالاية اما نازلة فى حق اليهود او فى مشركي مكة ، وعلى كل حال فالاية صادقة في حق كلتا الطائفتين (١) وسيوافيك بيانها .

ومثل الاية قوله سبحانه : « ان الذين كفروا ينفقون اموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون، والذين كفروا الى جهنم يحشرون » (الانفال - ٣٦) ، والاية تخبر عن مؤامرة المشركين وانفاق اموالهم في معصية الله ، ثم ينكشف لهم من ذلك الانفاق مايكون حسرة عليهم من حيث انهم لا ينتفعون بذلك الانفاق، لافى الدنيا ولا فى الاخرة، بل يكون وبالا عليهم ثم يغلبون فى الحرب، فقد روى انها نزلت فى ابى سفيان بن حرب الذي استأجر يوم أحد الفين من الاحابيش يقاتل بهم النبى، سوى من استأجرهم من العرب. وروى ايضا غير ذلك (٢) .

(١) مجمع البيان ج ١ ص ٤١٣ .

(٢) مجمع البيان ج ٢ ص ٥٤١ .

١٠ ـ التنبؤ حول اليهود والنصارى :

من عجائب التنبؤات القرآنية وغرائبها، تحديه اليهود بابسط الاشياء واسهلها ومطالبته اياهم بما هو ميسور لهم في كل وقت وحين ، وفي متناول قدرتهم ، ودائرة استطاعتهم في كل زمان ، ومع ذلك عجزوا عن تكذيبه وانصرفوا عن مخالفته وهذا يدل قبل كل شيء على ان القرآن كلام من بيده القلوب والضمائر.

قال سبحانه: « قل ان كانت لكم الدار الاخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين . ولن يتمنوه ابداً بما قدمت ايديهم والله عليم بالظالمين ، ولتجدنهم احرص الناس على حياة ومن الذين اشركوا ، يود احدهم لو يعمر الف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب ان يعمر ، والله بصير بما يعملون » (البقرة ٩٤ ـ ٩٦)

لما زعم اليهود انهم الشعب المختار عند الله ، وان الدار الاخرة خالصة لهم كما تحكي عنه الاية ويدل عليه ايضاً قوله سبحانه : « وقالوا لن تمسنا النار الا اياماً معدودة » (البقرة ـ ٨٠)

عرض عليهم سبحانه ، رداً على مقالهم (ان نعيم الاخرة وقف على الشعب المختار ، وان الدار الاخرة خالصة لهم) أن يتمنوا الموت جنانا ولساناً وعملا فان الانسان بفطرته اذا خير بين العيش الخالص عن التعب والالم ، والعيش الممزوج بالوان العذاب والكد ، يختار الاول ، ولا ريب ان عيش الاخرة هو العيش الخالص عن شائبة التعب، فلو انهم يزعمون انهم صادقون في ما يقولون بالسنتهم من ان لهم الدار الاخره ، وانهم الامة المختارة من بين شعوب الناس بالحياة الدنيا، يجب أن لايكونوا أحرص الناس على الحياة الدنيا، بل يلزم عليهم تمني الموت تمنياً صادقاً ، تظهر آثاره في حياتهم وتقلبهم بين الناس .

غير ان التاريخ والحس يقضيان بخلاف ما يدعونه، وانهم احرص الناس

على الحياة وكل واحد منهم يود لو يعمر الف سنة ، وما تمنى ولن يتمنى احد منهم الموت ابداً تمنيا تلوح منه آثار الصدق ، لا اقول انهم ماتمنوا تلفظاً ولقلقة باللسان، بل تمنياً من صميم الروح، تظهر آثاره على الجوارح والافعال، ولذلك قال سبحانه :

« قل يا ايها الذين هادوا ان زعمتم انكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين، ولا يتمنونه ابداً بماقدمت ايديهم والله عليم بالظالمين »
(الجمعة ٦ ـ ٧)

نعم ان الزرقانى فسر الاية على وجه يشمل التمنى باللسان وقال : « ولقد كان بمقدور اليهود في العادة ان يقولوا ولو بالسنتهم نحن نتمنى الموت كي تنهض حجتهم على محمد ويسكتوه، لكنهم صرفوا فلم يقولوا ولم يستطع احد ان يقول : انى اتمنى الموت (١) غير ان ما ذكره خلاف ظاهر الاية فان التمنى حالة نفسانية للنفس واللفظ الدال عليه معبر عما فى الضمير ، ولا يطلب القرآن منهم التمنى الكاذب ولا يدعوهم اليه بل التمنى الصادق الكاشف عن الارادة الجدية والطلب الحقيقى له ، مع ظهور آثاره قى حياة المتمنى وسلوكه . . .

ثم ان القرآن تنبأ بانهزام اليهود فى مضمار الحرب والنضال مع النبي والمسلمين قال سبحانه :

« قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون الى جهنم وبئس المهاد »
(آل عمران ـ ١٢)

قال الطبرسى روى محمد بن يسار عن رجاله لما اصاب رسول الله قريشاً ببدر وقدم المدينة جمع اليهود فى سوق قينقاع فقال يامعشر اليهود احذروا من الله مثلما نزل بقريش يوم بدر واسلموا قبل ان ينزل بكم مانزل بهم وقد عرفتم انى نبى مرسل تجدون ذلك في كتابكم فقالت اليهود يامحمد لا يغرنك انك لقيت

(١) مناهل العرفان ج ٢ ص ٢٧٦ .

قوماً اغماراً لا علم لهم بالحرب فاصبت منهم فرصة انا والله لو قاتلناك لعرفت انا نحن الناس فانزل الله هذه الاية (١)، ولقد صدق الخبر ، الخبر فغلب النبى على من فى الجزيرة من اليهود فضلا عن خصوص القاطنين منهم فى المدينة.

ثم ان فى القرآن تنبؤات بالمستقبل المظلم الاسود الذي لم يزل يواكب بعضها اليهود طيلة اربعة عشر قرناً من نزول القرآن الى يومنا هذا ، لم ينخرم أى واحد منها ابداً ، وذلك قوله سبحانه: « لن يضروكم الا اذى وان يقاتلوكم يولوكم الادبار ثم لا ينصرون . ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا الا بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله، وضربت عليهم المسكنة ذلك بانهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الانبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » (آل عمران ١١١ - ١١٢)

وفي هاتين الايتين تنبؤات :

١ ـ ان هذا الشعب الماكر اللئيم، لا يمكنه القيام بحرب مواجهة ومقابلة الند للند وانما يقع ضررهم على المسلمين عن طريق الغدر والمكر .

٢ ـ ولو قاتلوا المسلمين ، لولوهم الادبار .

٣ ـ ضرب عليهم الذل كضرب السكة على الدينار والخيمة على الانسان نعم كتب عليهم الذل والهوان الا اذا تمسكوا بحبل من الله ودخلوا في عهد منه أو عهد من الناس يستعينون بهم ويستظلون بظلالهم .

٤ ـ ضربت عليهم المسكنة وهي زي الفقر والخوف منه وفيهم من يملك آلاف الالاف وليس فيه غنى النفس فهم أشد الشعوب خوفاً من الفقر، وأشدها طمعاً وشرهاً فى جمع الدنيا، لا يعرفون القناعة وان غرقوا في المال، ولا يتورعون عن الجرى وراء الدنايا ، باحط الوسائل .

٥ ـ حلول غضب الله عليهم كما يعطيه قوله : « وباءوا بغضب من الله » .

---

(١) مجمع البيان ج ١ ص ٤١٣ .

والمراد من الضمير المتصل من قوله : « لا يضروكم » وان كان هو أهل الكتاب ، الوارد فى الاية المتقدمة ، غير ان المقصود منه هم اليهود بلا كلام لما في ذيل الاية التالية من تعليل ضرب الذل والمسكنة عليهم بقتلهم الانبياء وهو من فعل اليهود .

ويؤيده قوله سبحانه ، في شأن اليهود : «اهبطوا مصراً فان لكم ما سألتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بانهم كانوا يكفرون بايات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون» (البقرة ـ ٦١) وبذلك يظهر ان ما يقال من عمومية الاية ، لمطلق أهل الكتاب ، أخذاً بمفاد الضمير المتصل، الراجع الى أهل الكتاب ، المذكور فى الاية السابقة ، ليس بسديد .

وقد تنبأ سبحانه بقوله: «لن يضروكم الا أذى وان يقاتلوكم يولوكم الادبار» بما جرى بين المسلمين وطوائف من اليهود من « بني النضير وقريظة وقينقاع » فحاربوا المسلمين ولم يثبتوا بل استسلموا ، وهو تنبؤ صادق شهد به التاريخ الصحيح بل يمكن ان يكون تنبؤاً بعامة ماجرى بينه وبين اليهود أيام حياته (ص) فهو قد طهر الجزيزة العربية من هذه العناصر الماكرة، أعداء الله وأعداء الانسانية في مدة قليلة ولم ينصروا بعد قط .

والمراد من الاستثناء في قوله سبحانه : «لن يضروكم الا أذى» هو الضرر اليسير الذى ليس فيه كبير تاثير من سب باللسان وخوض في النبى وقد تحقق المخبر به كما اخبر فى تطهير أرض المدينة وماحولها من الطوائف الثلاث الذي اسميناهم فلم ينالوا من المسلمين الا سباً باللسان أو ضرراً قليلا كما هو الحال في غزوة خيبر على ما هو مسطور في السير والتاريخ ومفاد الاية راجع الى عصر الرسالة فقط كما أوضحنا ويفيده التدبر فى الاية وفى الضمائر الواردة فيها

من قوله : « لن يضروكم و ... (١) .

وأما الاية الثانية المتضمنة لضرب الذلة والمسكنة عليهم فربما يحتمل اختصاص مفادها بعصر الرسالة غير أنه محجوج بأمرين :

الاول : ان المتبادر من قوله سبحانه: «ضربت عليهم الذلة» في كلتا الايتين هو العموم والشمول وكأنه يريد أن يقول عجنت طينتهم بالذل والهوان والمسكنة ولا تنفك عن تلكم الطائفة في أى جيل وزمان .

الثاني : انه سبحانه علل ضرب الهوان والذل والمسكنة عليهم بأمرين أحدهما: الكفر بآيات الله وهو مشترك بين الجميع وثانيهما: وهو يرجع الى اسلافهم وأجدادهم ، من قتل الانبياء ولكن اليهود المعاصرين لعصر الرسالة لما رضوا بفعالهم وعملهم الشنيع ، صاروا مثلهم « فان من رضي بفعل قوم فهو منهم » فاسند سبحانه الفعل اليهم أيضاً، فضرب الذلة على جميعهم من أولهم الى آخرهم. ولو كان هذا هو الملاك لضرب الذل على يهود عهد الرسالة فهو بعينه موجود في العايشين بعده الى زماننا هذا، ولا وجه لاختصاص الذل والمسكنة ببعضهم دون بعض ، اذ ليس الهوان أو المسكنة، الاجزاءاً ونكالا من الله سبحانه بالنسبة الى هذه الطائفة ، فهم بين مقترف لاشد المعاصي واهولها ، وبين راض بما ارتكبه قومه من الجنايات الموبقة، فكل من الطائفتين يعاقب ويؤخذ بجزاء عمله كما قال سبحانه: «لقد سمع الله قول الذين قالوا ان الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا : وقتلهم الانبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق . ذلك بما قدمت أيديكم وان الله ليس بظلام للعبيد » (آل عمران ١٨١ - ١٨٢)

وقد اثبتت القرون والاجيال صدق ما تنبأ به القرآن من لدن نزوله الى عصرنا

---

(١) قال الطبرسي ففي هذه الاية دلالة على صحة نبوة نبينا (ص) لوقوع مخبره على وفق خبره لان يهود المدينة من بني قريضة والنضير وبني قينقاع ويهود خيبر الذين حاربوا النبي والمسلمين لم يثبتوا لهم قط وانهزموا، (مجمع البيان ج ١ ص٤٨٨).

ولكيما نتحقق من ذلك لابد من الرجوع الى التاريخ فها هو « بخت نصر » أورشليم قاد أكثر أهلها اسرى وكان ذلك عام ٥٨٧ ق م . وفى سنة ٣٠٢ ق . م اثقل ملوك سوريا كواهل اليهود بالضرائب واضطهدوهم .

وأما اضطهادهم بعد الاسلام فكثير ، فقد اجلى النبي « بني قينقاع » «وبني النضير » وقتل «بني قريظة» لما تآمروا عليه كما هاجمتهم جميع الامم المسيحية فلم يجدوا ملجأ الا الاندلس حيث احاطهم امراء الاسلام بعطف خاص لكن عندما احتل النصارى الاندلس اخذوا بتشريد اليهود وطردهم واجبارهم على مغادرة البلاد الاسبانية وقد وقع كثير منهم في أيدي القراصنة الذين انتشروا حول الشواطىء فجردوهم من اموالهم واتخذوهم عبيداً ارقاء .

هذا ماعدا الذين ماتوا جوعاً اواصيبوا بالطاعون فأهلكهم ثم لجأ ثمانون الفاً الى البرتغال ارتكاناً الى وعد ملكها لكن القساوسة الاسبانيين أثاروا الرأى العام في تلك البلاد ضدهم، وعمدوا الى اقناع ملك البرتغال بعدم ايوائهم فأصدر امراً يقضي بابعاد جميع اليهود البالغين اما الاولاد الذين لاتتجاوز سنهم اربعة عشر عاماً فقد انتزعوا من احضان امهاتهم لكي يربوا وينشأوا على مبادىء الدين المسيحي .

ولم يقتصر الغربيون على طرد اليهود من اسبانيا والبرتغال فقط بل طردوا، وشردوا من انجلترا ، فرنسا ، بلجيكا ، هولندا ايطاليا المانيا روسيا و... (١) .

اي ذل وهوان اوضح من هذا الذي صادفوه طيلة القرون الغابرة الى يومنا هذا ، كل ذلك مضافاً الى تنفر الناس عن كل يهودي ماكر ، واسرائيلي لئيم ، وابتعادهم عنهم في حلهم وترحالهم ، لما هم عليه من الغدر والمكر والشره والطمع وعدم اندماجهم مع غيرهم وعدم وفائهم للذين استضافوهم وآزروهم، لما يظنون انهم شعب يمتاز على الشعوب التي يعيشون بينها ، وانهم يحق لهم

(١) راجع لمعرفة تفصيل ذلك ، كتاب «اليهود فى القرآن» ٩٦ – ٩٧ .

اغتصاب حقوق الغير اخذاً بتعاليم التلمود حيث يعبر عن املاك غير اليهود « بأنه كالمال المتروك الذي يحق لليهودي ان يملكه » .

هذا وذاك اوجب بان يعلن القرآن منذ اربعة عشر قرنا بانه سبحانه يبعث عليهم من يسومهم سوء العذاب الى يوم القيامة حيث قال سبحانه « واذ تأذن ربك ليبعثن عليهم الى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ، ان ربك سريع العقاب وانه لغفور رحيم » (الاعراف ـ ١٦٧) .

فقضى الله سبحانه انه ليسلطن على بني اسرائيل الى يوم القيامة من يذيقهم اشد العذاب، جزاءلهم على اعمالهم ونكالا بهم فكما هو سبحانه سريع الصفح عن ذنب التائب ، فهو ايضاً سريع العقاب .

اجابة عن سؤال

الى هنا يكون قد تبينت صحة تنبؤ القرآن حول اليهود ، وانه ما تخلف طيلة اربعة عشر قرنا ، قدر شعرة غير ان هنا سؤالا ، يوجهه الشباب حول الاية وهوانه كيف وصفهم الله بضرب الذل والهوان عليه مع انه استقرت لهم السيادة في الاراضي المحتلة فجمعوا من العدة والعدد ما اوجب نجاحهم فى هذه المعارك الرهيبة لاسيما فى نكسة الخامس من حزيران ، وتمكن الاجابة عن هذا السؤال بوجوه :

الجواب الاول

ان مشيئة الله سبحانه فى خلقه وعباده تجري على وفق القوانين والسنن الكونية ولاتختلف باختلاف الامم فالعارف بفن السباحة ـ مثلا ـ يعوم ويصل الى شاطىء الامان والجاهل بها يرسب ويكون عرضة للهلاك ، ومن زرع حصد ومن لم يزرع لم يحصد ، والايمان لاينبت قمحا والكفر لاينبت شوكاً فى هذه

الحياة ، وكذلك من اعد العدة لعدوه واحتاط له ، ظفر به وان كان ملحداً، اذا لم يكن الاخر على حذر واستعداد ، ومن تقاعس وأهمل خسر ، وان كان من الاولياء والصديقين قال : تعالى مخاطباً اصحاب الرسول (ص) بالاية ٤٦ من الانفال « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا ان الله مع الصابرين » وقال الامام علي (ع) « ان هؤلاء ـ يشير الى اصحاب معاوية ـ قد انتصروا باجماعهم على باطلهم وخذلتم ـ الخطاب لاصحابه ـ بتفرقكم عن حقكم ، اذن الحق لاينتصر لمجرد انه حق، والباطل لايخذل لمجرد انه باطل ، بل هناك سنن فى هذه الحياة تسير المجتمع، وتتحكم به والله سبحانه لايسقطها ولايعطل سيرها ، تماما كما هو شانه فى سنن الطبيعة ، ان الله سبحانه قد خلق الحياة وجعل لها قوانين تحكمها ، وتأبى هذه القوانين ان تمطر السماء نصراً على غير العاملين له .

وعليه فلا عجب ان تغتال الصهيونية جزءاً من أرضنا بمعونة الاستعمار ما دمنا في غفلة عنها وعن مقاصد اعوانها منقسمين الى دويلات لاجامع بينها الا لفظ العرب والعربية » (١) .

ان للسعادة والشقاء والحضارة والتقدم والتدهور والانحطاط، قوانين وسننا لا تنفك عنها آثارها ومسبباتها ومن دق باباً ولج ولج، من غير فرق بين أمة وأمة أو طائفة دون أخرى، ان نكسة الخامس من حزيران والاحتلال الصهيوني للاراضي المقدسة الاسلامية، كان نتيجة عمل طويل واعداد متواصل من قبل اليهودية العالمية التى تلاقت أهدافها مع مصالح الاستعمار فى الشرق الاوسط من جانب ، ومع الفساد السياسي الاجتماعى الشامل الذي كان المسلمون يعيشون فيه من جانب آخر، فالعدو تمسك بأقوى وسائل القهر والغلبة، وأعد نفسه للتقابل مع المسلمين

(١) من هنا وهناك ص ٢٤ ـ ٤٣ .

في معارك صعبة قرابة قرن، وتحمل في طريقه جهوداً وبذل من نفسه وماله الكثير وأما المسلمون ففي القرن الذي كان العدو يجمع العدة والعدد ، ويتجهز بالعلم والصنعة وتربية الخبراء ومهرة الفن ـ كانوا يعيشون في فرقة ونفاق ، يضطهد بعضهم بعضاً ، مضافاً الى ما يعانون من ميوعة وخيانة وانحلال في الاخلاق ، والمشي على المخططات التي رسمها لهم الاعداء المصبوغة بطابع الود والاحسان.

وعلى ذلك فلا غرو في ان يحتل العدو الغاشم جزءاً كبيراً من أرضنا ويترصد لاخذ جزء آخر ، واذن فالظهور والغلبة لهم والنكسة للعرب جاءت على وفق القوانين والسنن التي تحكم على الحياة .

اذا عرفت ماذكر فالجواب عن السؤال واضح بعد الامعان في الاية التالية: « ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا الا بحبل من الله ، وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة » (آل عمران ـ ١١٢)

ترى انه سبحانه حكم بضرب الذل والهوان عليهم ثم استثنى عنه بقوله : « الا بحبل من الله وحبل من الناس » وفي الوقت نفسه حكم بضرب المسكنة عليهم بلا استثناء .

وبعبارة أخرى: ترى أنه سبحانه استثنى من احاطة الذل والهوان صورتين: اذا تمسكوا بحبل من الله، واذا تمسكوا بحبل من الناس وبهذين السببين يمكن ان يدفعوا عن أنفسهم الذل والهوان، والمراد من الحبل هو العهد (١) فلو دخلوا في عهد الله وهو الاسلام ودفعوا الجزية وعملوا بشرائط الذمة وتركوا الغدر والحيلة مع المسلمين فيسيعود لهم العز كسائر الذميين ، ويعاملون بالمساواة وتصان دماؤهم واعراضهم وأموالهم ، ويذاد عنهم كما يذاد عن غيرهم ، ولو تمسكوا بحبل من الناس واستعانوا باحدى الامم ممن له منعة وقدرة يتيسر لهم بواسطتها ان يطردوا عن أنفسهم الذل والهوان، ويستحصلوا على العز والقدرة

(١) سمي حبلا لانه يعقد به الامان كما يعقد الشيء بالحبل .

ما داموا كذلك .

ولا شك ان امة اليهود ما احتلت ارضاً ، وما كسبت سلطاناً ، وما أدركت عزاً الا بحبل من الناس ومساعدة من الامم الكبرى ممن توافقت أهدافهم العالمية مع مصالح العدو الطريد (١) .

« ان اسرائيل ليست سوى قاعدة عسكرية مزودة بكافة الاسلحة الحديثة ، اقامتها الولايات المتحدة ، لحماية مصالحها في بلاد العرب ، وأهمها شركات البترول التي يحتاج بقاؤها والاحتفاظ بها ، الى نصف مليون جندى امريكي لولا وجود اسرائيل . . . فليس من المعقول ان تكون للولايات المتحدة شركات احتكارية في بلد من البلدان ولا يكون الى جانبها قاعدة حربية أو حلف عسكري يحميها من الثورات والحركات الوطنية وقد وجدت فى اسرائيل غنى عن القواعد والاحلاف » (٢) .

أضف الى ذلك ان اسرائيل وان اسست باسم الدين وصبغت بالصبغة الشرعية الا ان كثيراً منهم لا يمتون الى الدين بشيىء ، ولا صلة بينهم وبين دين اليهود فحكومتهم حكومة ذات نزعة عنصرية طائفية، مدفوعة بكونهم من اولاد اسرائيل واخلافهم سواء أكانوا مؤمنين بدينه أم كافرين به، ملتزمين بأحكام التوراة أم لا وماتنبأ به القرآن انما هو راجع الى اليهود الذين آمنوا بشريعة اسرائيل ومابعده الى موسى والتزموا باصول دينهم ، وفروعه ووقفوا في وجه سائر الشرائع ، متنسكين بشريعة ، وليست اسرائيل ومن يعيش في أرضها ، يمثلون هؤلاء فهي دولة مادية صبغت باسم الدين وطابعه كما هو واضح لمن لاحظ كتبهم وجرائدهم ومجلاتهم، وعلى كل حال فخذلان بني اسرائيل التى يحتمها القرآن انما تكون

(١) قال الطبرسى فى تفسير قوله الا بحبل اى بعهد من الله وحبل من الناس اى وعهد من الناس على وجه الذمة وغيرها من وجوه الامان ، مجمع البيان ج ١ ص ٤٨٨ .

(٢) من هنا وهناك ص ٩٩ .

حتمية فيمالووقفوا تجاه المسلمين بماهم يدينون بدين اليهود، لابما انهم يتعصبون الى يهوديتهم تعصباً عنصرياً اعمى ، من غير تدين .

الجواب الثانى :

ربما يجاب عن الاشكال بوجه آخر وهو ان المراد من ضرب الذلة عليهم القضاء التشريعي بذلتهم، والدليل على ذلك قوله «اين ما ثقفوا» فان ظاهر معناه اين ماوجدهم المؤمنون اى تسلطوا عليهم، وهو يناسب الذلة التشريعية التى من آثارها الجزية فيؤول معنى الاية الى انهم اذلاء، بحسب حكم الشرع الاسلامى الا أن يدخلوا تحت الذمة أو امان من الناس بنحو من الانحاء (١) .

غير ان هذا الجواب لا يلائم ظهور الاية فان القضاء التشريعي بذلتهم لا يختص بتلكم الطائفة بل يعم أهل الكتاب جميعاً وقد أوضحنا ان الاية مختصة باليهود .

الجواب الثالث :

ان القرآن وان تنبأ بضرب الذلة والمسكنه على اليهود ، غير انه تنبأ أيضا بعود القدرة والمنعة اليهم في فترة من الزمن ، مرتين فيفسدون فى الارض ، الى أن يقيض الله رجالا أولي بأس شديد، ينتقم منهم. ودونك الايات فى سورة الاسراء :

« وقضينا الى بني اسرائيل في الكتاب لتفسدن فى الارض مرتين ولتعلن علواً كبيرا » (الاسراء ـ ٤)

« فاذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولا » (ـ ٥) « ثم رددنا لكم الكرة عليهم وامددناكم بأموال

(١) الميزان ج ٣ ص ٤٢٣ .

وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً » (ـ ٦) .

« ان احسنتم احسنتم لانفسكم وان اسأتم فلها. فاذا جاء وعد الاخرة ليسؤا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ماعلو تتبيرا » (ـ٧).

« عسى ربكم ان يرحمكم وان عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا »

(الاسراء ٤ ـ ٨)

فان الايات تعرب عن افساد الطائفه المذكورة فى الارض مرتين وانتقام الله سبحانه منها بعد كل فساد تقوم به، ويدل على الفساد الاول قوله سبحانه: « فاذا جاء وعد أولاهما » وعلى الفساد الثانى قوله عزوجل: « فاذا جاء وعد الاخرة ».

اما الانتقام الاول فيدل عليه قوله سبحانه: « بعثنا عليكم عباداً لنا اولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار .

أما الانتقام الثاني فيدل عليه قوله تعالى: « ليسؤوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا » (١).

ثم ان المفسرين مالوا يميناً وشمالا فى تفسير هذه الايات ولم يأتوا بأمر مقنع تطمئن اليه النفس ودونك بعض ما ذكروه من الوجوه :

١ ـ المراد من الفساد الاول قتل يحيى بن زكريا ومن الانتقام غلبة بخت نصر مع النبطيين على بني اسرائيل، والمراد من الفساد الثاني غلبة بني اسرائيل على النبطيين مرة ثانية ولم يذكروا المراد من الانتقام الثاني .

٢ ـ الفساد الاول هو قتل زكريا والثاني هو قتل يحيى بن زكريا، والانتقام الاول تسلط « سابـور » ذي الاكتاف ، والانتقام الثاني هجوم « بخت نصر » على اليهود .

٣ ـ المراد من الفساد الاول قتل زكريا وغيره من الانبياء وبالانتقام الاول تسلط « بخت نصر » على اليهود ، والمراد من الفساد الثاني طغيان اليهود بعد

(١) الضمائر كلها ترجع الى « عباد اولى باس شديد » المحاربين لليهود .

اخذ استقلالهم على يد كوروش ، ومن الانتقام الثاني ما وقع بيد «انطياخوس» ملك الروم (١) .

وهذه الوجوه واضرابها مما يحصل من تركيب بعضها مع بعض لايمكن الركون اليها فانها منقولة عن اناس كانوا يأخذون ما يقولونه عن احبار اليهود وعلمائهم فهي قصص اسرائيلية يجب تنزيه القرآن عنها .

اضف الى ذلك ان لفظي «بعثنا عليكم عباداً لنا» يعرب عن مكانة المنتقمين عند الله وانهم مبعوثون من جانبه سبحانه وهم عباد ممدوحون له ، وهل يمكن عد نظراء بخت نصر ، ذلك الكافر السفاك الاثيم الذي اقترف من الجرائم مالا يعد ولا يحصى او سابور ذي الاكتاف ذلك الرجل القاسي المجرم الذي فعل مع العرب ما فعل ، او انطياخوس واضرابه ، من العباد الممدوحين وانهم كانوا مبعوثين من جانبه سبحانه .

ويليه في الضعف ما يقال ان المراد من الفساد الاول قتلهم أشعيا النبي والانتقام الاول تسلط جالوت على بني اسرائيل ، ومن الفساد الثاني هو غلبة بني اسرائيل على جالوت .

أو ما يقال من ان المراد من أحد الانتقامين ما جرى بيد ادولف هتلر من الامور القاسية ، كما اختاره سيد قطب في ظلال القرآن .

اذ كيف يمكن ان يقال ان جالوت وعملاق المانيا أو غيرهم من الجبابرة كانوا مبعوثين من جانبه سبحانه فقد حارب جالوت داود ومن معه من صالحي بني اسرائيل وكما حارب طالوت الذي بعثه الله ملكا وأما عملاق المانيا فحدث عن جرائمه ولا حرج .

وما يقال انه لما كان تسلط بخت نصر وقهره لهم جزاء لهم على أعمالهم

(٢) تفسير الطبرى ج ١٥ ص ٣٨ ، ومجلة الهادى العدد الثانى .

السيئة فأسنده سبحانه لنفسه وقال بعثنا عليكم عباداً لنا (١) توجيه لاتركن اليه النفس ، ونضيف الى ماذكران كل هذه الوجوه لاتلائم ظاهر الاية لاستلزامها التفكيك بين مراجع الضمائر اذ الظاهر ان الضمائر الغائبة في « ثم رددنا لكم الكرة عليهم » وفي « ليسؤوا » و« ليدخلوا » و« دخلوا » « وليتبروا » يرجع الى من وصفهم الله بقوله ثم « بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد » ولازم ذلك اتحاد الفئة التي تحارب اليهود في المرة الاولى مع الفئة المتغلبة عليهم فى المرة الثانية وان هناك حربين تقعان بين اليهود وجماعة خاصة ، لا ان كل واحد من الحربين تقع مع جماعة غير الجماعة الاخرى .

وهذا الامر غير موجود في الوجوه التي ذكروها اذ لم يقع اي اشتباك مجدد بين اليهود وبخت نصر ، أو بينهم وبين سابور ، ولم تصدر كرة منهم عليهم مجدداً أضف الى ذلك ان ظاهر قوله سبحانه وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة ان المحاربين لليهود يدخلون المسجد مرتين ويتسلطون على المسجد الاقصى كما يستفاد من تعريفه باللام ، مرة بعد مرة مع ان بخت نصر وسابور لم يتسلطا على المسجد أزيد من مرة ، وما دخلوه أكثر منها .

وعلى الجملة: ان هذه الوجوه لاتلائم ظاهر الاية ويحتمل ان تكون الايات مشيرة الى الاحداث الجارية في الاراضي المحتلة ويعلم الله سبحانه أن أي واحد من الوعدين تحقق وان الوضع الحاضر يمثل أياً منهما ولا شك انهم مزودون بالاموال والبنين مضافاً الى دعم الدول العالمية الكبرى لهم، وبعد ذلك كله فما ذكرناه انما هو أحد الاراء المذكورة حول الاية ولسنا حاكمين بواحد من هذه الوجوه والله سبحانه هو العالم .

وعلى أي حال فالتوفيق سهل بين ضرب الذلة والهوان عليهم ، وبين ما ترى فيهم من القوة والمنعة ، والاول من هذه الوجوه هو الاولى .

---

(١) الميزان ج ١ ص ٤٠ .

ختامه مسك :

فلنختم البحث بتنبؤات وردت في آية واحدة وهي قوله سبحانه « وقالت اليهود يدالله مغلولة غلت ايديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء وليزيدن كثيراً منهم ما انزل اليك من ربك طغيانا وكفرا . . » .

١ ـ وألقينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة .

٢ ـ كلما اوقدوا نارا للحرب اطفأها الله .

٣ ـ ويسعون في الارض فساداً والله لا يحب المفسدين (المائدة ـ ٦٤) ودوثك بيانها على وجه الاجمال .

١ ـ الظاهر ان الضمير في « بينهم » راجع الى اليهود المذكورين في صدر الاية وما في المنار (١) من رجوعه الى اليهود والنصارى المذكور فى الاية الحادية والخمسين بعيد جداً بل كان الاولى له عندئذ ان يقول انه راجع الى أهل الكتاب الوارد ذكرهم فى الاية التاسعة والخمسين ، أي قوله : « قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا الا أن آمنا بالله . . . » فالاية حاكية عن تضارب اليهود بعضهم ببعض واختلافهم في المذاهب الى يوم القيامة ، ويفسره قوله سبحانه: « ولقد آتينا بني اسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين . وآتيناهم بينات من الامر فما اختلفوا الا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ان ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » (الجاثية ١٦ ـ ١٧)

---

(١) ج ٦ ص ٤٥٧٦، ولو رجع الضمير الى الامتين فلا مانع ايضا ان يكون المراد تضارب بعض الفرق من كل امة مع الاخرى كتضارب اليهود بعضهم ببعض وتضارب الفرقة الكاثوليكية مع البروتستنت ، اوالنسطورية والملكانية واليعقوبية من امة المسيح بعضهم مع بعض .

والفرق بين العداوة والبغضاء ان الاولى عبارة عن البغض الذي يظهر أثره في الخارج واما البغضاء فهو مطلق المنافرة وان لم يستعقب شيئاً من العمل .

هذا اذا قلنا برجوع الضمير الى اليهود فقط. وأما اذا قلنا بمقالة المنار من رجوعه الى اليهود والنصارى فالعداوة بينهم غير منقطعة وأوضحه صاحب المنار بقوله : « العداوة على أشدها في بلاد روسية على أقلها في انكلترة وفرنسة والمانية واليهود أغنى أهلها والمديرون لارحية أعظم الاعمال المالية فيها وهم على مكانتهم هذه مبغوضون فى جماهير النصارى فكم الفت كتب في فرنسة وغيرها في التحريض عليهم قال: « قداخبرنى الماني من المستشرقين انهم لا يعدون اليهودي من بلاده منهم بل يقولون هذا يهودى وهذا الماني » (١) .

نعم تنبأ القرآن في آية أخرى باغراء الله سبحانه العداوة والبغضاء بين النصارى الى يوم القيامة قال سبحانه : « ومن الذين قالوا انانصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مماذكروا به، فأغرينا بينهم العدواة والبغضاء الى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بماكانوا يصنعون » (المائدة ـ ١٤) والعداوة بين فرق النصارى أشد وأوضح لمن زاولهم وطالع كتبهم .

وفى الوقت نفسه فان الايتان تنبئان عن بقاء دينهم الى يوم القيامة وهو تنبؤ آخر تضمنته الايتان فلاحظ .

٢ ـ قوله سبحانه : « كلما أو قدوا ناراً للحرب . . » فالحرب ضد السلم وهو أعم من القتال و القتال يصدق بالاخلال بالامن والنهب والسلب وتهييج الفتن والاغراء بالقتال ، وقد اغرى اليهود ، المشركين بالنبى والمؤمنين وهم الذين حزبوا الاحزاب على رسول الله ، حتى قدموا على قريش مكة وقالوا : « انا سنكون معكم عليه ، حتى نستأصله، فقالت لهم قريش يامعشر يهود، انكم أهل الكتاب الاول والعلم بما أصبحنا ، نختلف فيه نحن ومحمد أديننا خير أم

(١) المنار ج ٦ ص ٤٥٧ .

دينه ؟ قالوا بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه (١) .

بل منهم من سعى لتحريض الروم على غزوهم ومنهم من كان يقطع الطريق على المؤمنين ويؤى أعداءهم ويساعدهم ككعب الاشراف .

ويمكن ان تكون الاية ناظرة الى الاعمال الاجرامية التي كانوا يرتكبونها قبل الميلاد وبعده ثم ضد المسلمين .

والمراد من الاطفاء خذلانهم في كل ما يكيدون لرسوله وللمؤمنين ، اما بخيبتهم فى مايسعون اليه من الاغراء والتحريض، وأمابنصر الله رسوله والمؤمنين وعلى أى تقدير ، المراد خيبة مساعيهم في الحروب التى يوجهونها على دين الله ورسوله والمؤمنين ، بما هم متدينون ومؤمنون بالله وآياته وأما الحروب والنيران التى يوقدونها لا لمحق الدين بل لاغراض سياسية، أو تغلب جنسي، فهي خارجة عن مساق الاية .

قال الطبرسى وفي هذا دلالة ومعجزة لان الله اخبره فوافق خبره المخبر فقد كانت اليهود اشد أهل الحجاز بأساً وامنعهم داراً حتى ان قريشاً كانت تعتضد بهم والاوس والخزرج تستبق الى محالفتهم وتتكثر بنصرتهم فاباد الله خضرائهم واستأصل شأفتهم واجتث أصلهم فاجلى النبي بني النضير وبني قينقاع وقتل بنى قريظة وشرد أهل خيبر وغلب على فدك ودان له أهل وادى القرى فمحى الله آثارهم صاغرين (٢) .

٣ ـ قوله سبحانه : « ويسعون فى الارض فساداً » فليس الهدف من تقلبهم في البلاد ، السعي وراء صالح الاعمال والاخلاق، أو اصلاح شؤون الاجتماع بل لا يستهدفون الا منع خروج المسلمين من الامية الى العلم ، ومن الوثنية

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢١٤ وص ٥٤و٥٥ .

(٢) مجمع البيان ج ٢ ص ٢٢١ .

الى التوحيد ، وهم يحسدونهم فى ذلك حباً في دوام امتيازهم عليهم .

وقد قرر القرآن هذه الحقيقة منذ أربعة عشر قرناً غير انا نحسها في يومنا هذا بوضوح فان من مخططاتهم تقويض الاخلاق عند الغير ، لاضعافه والسيطرة عليه وهل الاباحية والخلاعة الا أحد مخططاتهم التى تتجلى في الافلام السينمائية والمرابع والحانات وحتى في الساحات العامة .

وفسره سبحانه في آية أخرى وقال : « وترى كثيراً منهم يسارعون فى الاثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ماكانوا يعملون » (المائدة - ٦٢)

ملاحظة :

هذه هى الاخبار الغيبية الواردة فى القرآن ولم نعرضها على وجه التفصيل والاستقصاء وانما جئنا بها على وجه الاجمال وفي ماذكرناه غنى وكفاية .

قل لى بربك هل انخرم واحد من تلكم الاخبار أو تخلف، أو كلها غيب تحققت فى المستقبل كما ان ما سألوا عنه حول أصحاب الكهف وذي القرنين والروح غيب اما تحقق في الماضى أو جار فيه وفى الحال كما هو الحال في السؤال عن الروح وقد اجابهم عن ما سألوه ولم يكن عنده شيىء يستند اليه سوى الوحي ولم يكذبوه في ما حدثهم .

وكل واحد من هذه الانباء معجزة كبرى ولوعددت كل ما ورد فى الكتاب من الانباء الغيبية على اقسامها ، تبين لك عدد تلكم المعجزات ويزيدك اعجاباً بها اذا وقفت على ان المتحدث بها أمى ربيب البادية لم يحضر على أحد فى شيىء من تلكم الاخبار والمغيبات .

ويزيدك اعجاباً اكثر ان انجيل « متى » تنبأ بأمر واحد حول المسيح وهو انه يبقى مدفونا فى قلب الارض ثلاثة أيام وثلاث ليال ، ولكن ما برح «انجيل» « متى » ان كذب فى أواخره هذا الاخبار فوافق الاناجيل الثلاثة الاخر على ان

المسيح فى مساء ليلة السبت طلب بعض الناس جثته من بيلاطس فأنزلها عن الصليب وكفنها ودفنها وقبل الفجر من يوم الاحد قام المسيح من الموت ، وخرج من قبره وعلى ذلك لا يكون المسيح بقي في القبر الا ليلة السبت ونهاره وليلة الاحد وذلك نهار وليلتان (١) .

« ان فى ذلك لايات لاولى النهى » .

(١) مقدمة آلاء الرحمن للعلامة البلاغى .

«٧»

اختصاص العلم بالغيب بالله سبحانه

فى هذا الفصل :

١ ـ العلم بالغيب مختص بالله سبحانه والاستدلال عليه بوجوه ثلاثة .

٢ ـ مايجرى على الله سبحانه من صفات ونعوت تختلف عما يجرى على غيره سبحانه.

٣ ـ هل يمكن للانسان الاطلاع على الغيب باذن منه سبحانه .

٤ ـ كلام للشيخ الرئيس ابن سينا فى المقام .

٥ ـ ما يدل من الايات على امكان ذلك وتوضيح لفظ الغيب الوارد عنها .

٦ ـ الاستدلال باية التطهير على ذلك وعدم تمامية دلالتها عندنا .

٧ ـ القرآن ـ بفصل نصوصه ـ يدل على وقوع التنبؤ من الانبياء وغيرهم نظراء: آدم ونوح وابراهيم ولوط ويعقوب ويوسف وصالح وسليمان والمسيح ومحمد صلوات الله عليهم وامرأة ابراهيم وام موسى وصاحبه ومريم والشهداء من الامة .

٨ ـ ماذا تهدف الايات النافية لعلم الغيب عن النبى وتوضيح ماورد فى هذا المضار من الايات التسع .

٩ ـ تساؤلات خمسة حول علمهم بالغيب والاجابة عنها.

١٠ ـ تنبؤات نبوية وعلوية ملات كتب الحديث والتاريخ .

١١ ـ هل استأثر الله بعلم هذه الامور .

١٢ ـ نظرنا فى الموضوع .

اختصاص العلم بالغيب بالله سبحانه

لقد ورد لفظ الغيب في الذكر الحكيم ، مع بعض مشتقاته أربعا وخمسين مرة وقد عرفت بما اسلفناه ما هو المراد من الغيب ، غير انا نريد في المقام ان نتحدث عن ناحية اخرى لها تعلق به ، وهي انه هل الغيب مختص بالله سبحانه لا يعدو غيره أو غير مختص به ويتصف به سواه ؟ ؟ ! .

والقول الفصل في المقام هو ان العلم بالغيب على ضربين :

احدهما : ما هو مختص بالله سبحانه لايشاركه فيه غيره ، ولا يتجاوز الى سواه وان ما جاء في الذكر الحكيم من الاشارة الى علم الغيب ، لا يراد منه الا هذا فقوله سبحانه: « قل لايعلم من في السماوات والارض الغيب الا الله » (النمل - ٦٥) لا يراد منه الا هذا المعنى المختص به تعالى كسائر أوصافه ونعوته .

ثانيهما : مايتصف به غيره سبحانه من ملائكته ورسله ومن يظهره على غيبه وهذا لا يصح اطلاقه على الله سبحانه، وهذا الانقسام كما يجري في علم الغيب كذلك يجرى في سائر نعوته وصفاته من قدرته وحياته و.. فما يجرى منها على الواجب سبحانه لا يمكن تشريك الغير فيه ، ولا يصح اطلاقه عليه ، وما يجرى على من سواه لا يصح اطلاقه عليه سبحانه، ولا يطلق الاعلى غيره من المخلوقين

فلنذكر ما يدل على اختصاص العلم بالغيب بالمعنى الاول والذي يمكننا استفادته منه وجوه :

١ ـ قصره على الله سبحانه فى بعض الايات :

فمن الايات الدالة على الحصر به قوله سبحانه : « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو » (الانعام ـ ٥٩) ، وقوله تعالى : « قل لا يعلم من فى السماوات والارض الغيب الا الله » (النمل ـ ٦٥)

وأما قوله سبحانه: « فقل انما الغيب لله فانتظروا انى معكم من المنتظرين » (يونس ـ ٢٠)

وقوله تعالى: « ولله غيب السموات والارض وما أمر الساعة الا كلمح البصر أو هو أقرب » (النحل ـ ٧٧) وقوله سبحانه: «ولله غيب السموات والارض واليه يرجع الامر كله» (هود ـ ١٢٣) . فلا يدل على ما نحن بصدده .

اذ المقصود من قوله: «انما الغيب لله» ، هي الايات الباهرات والمعجزات التى يستدل بها على نبوة المدعي وصلته به سبحانه، وذلك ظاهر لمن امعن النظر في سياق الايات . وأما قوله سبحانه: « ولله غيب السماوات والارض » فالمراد منه : ان الحكومة المطلقة في السماوات والارض غيبهما وشهادتهما ، باطنهما وظاهرهما، لله سبحانه، وانه تعالى يملك غيب السماوات والارض ملكا لا حدود له ، وله ان يتصرف فيه كيف يشاء كما يملك شهادتهما وكيف لا وغيب الشيىء لا يفارق شهادته وهو موجود ثابت معه ، وله الخلق والامر ؟ ! !

ويؤيده ذيل الاية، وهو قوله: «وما أمر الساعة الا كلمح البصر أو هو أقرب» والمعنى ان الساعة الموجودة ، ليست بأمر محال حتى لا تتعلق بها قدرة ، بل هي من غيب السماوات والارض ، وحقيقتهما المستورة عن الافهام ، فى هذا الزمان ، فهي مما استقر عليه ملكه تعالى ، وله ان يتصرف فيه بالاخفاء تارة

وبالاظهار أخـرى ، وليست بصعبة عليه تعالى فانما أمرها كلمح البصر أو أقرب من ذلك لان الله على كل شيىء قدير .

ومن ذلك يظهر المقصود من قوله سبحانه: « ولله غيب السماوات والارض واليه يرجع الامر كله » فان الايتين متقاربتان في المعنى والمقصد، ومفاد صدر الاية : يعني كونه سبحانه مالكا لغيب السماوات ، علة لذيلها اعني قوله سبحانه: « واليه يرجع الامر كله » ورجوع الكل اليه ، من غيب السماوات والارض ، ومن يملك غيبهما قادر على ارجاع الامور اليه .

ونظيره قوله سبحانه : «قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السماوات والارض » (الكهف ـ ٢٦) والمعنى اذا كان سبحانه مالكا لغيب السماوات والارض بحقيقة معنى الملك ، وله كمال البصر والسمع ، فهو أعلم بما لبثوا ! !

٢ ـ ما يستفاد منه الحصر بمعونة القرائن :

وهناك آيات يستفاد منها الحصر بمعونة القرائن وهي كثيرة مثل قوله في بدء الخليقة عند تفنيد مزعم الملائكة : « الم أقـل لكم أنى أعلم غيب السماوات والارض وأعلم ما تبدون ومـا تكتمون » (البقرة ـ ٣٣) فالاية بصدد تنزيهـه سبحانه عن الجهل وترفيعه على من سواه بصفة تختص به سبحانه ولايشاركه فيها غيره. وقوله سبحانه «ان الله عالم غيب السماوات والارض وانه عليم بذات الصدور» (الفاطر ـ ٣٨) وقوله سبحانه : « يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا اجبتم قالوا لا علم لنا انك أنت علام الغيوب » (المائدة ـ ١٠٩) والصيغة في المقام للتكثير لا للمبالغة نظير قوله سبحانه: «ذلك بماقدمت أيديكم وان الله ليس بظلام للعبيد» (آل عمران ـ ١٨٢) والمراد من اللفظين في كلا الموردين هو الانتساب الـى المبدأ اعنى الغيب والظلم فيؤل المعنى الى انـه المنسوب الى علم الغيب فقط دون غيره ، أو انه لا صلة بينه وبين الظلم .

كقول امرء القيس :

وليس بذى رمح فيطعننى به وليس بذي سيف وليس بنبال

أي وليس بصاحب نبل ، ولا صلة ونسبة بينه وبين النبل أبداً .

وقد ورد توصيفه سبحانه بهذا اللفظ فى الذكر الحكيم أربع مرات (١) ووزان هذا القسم من الايات، وزان قوله سبحانه: « عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير » (الانعام ـ ٧٣) وقوله: «ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة» (التوبة ـ ٩٤) وقوله : « وستردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعلمون » (التوبة ـ ١٠٥) الى غير ذلك مما يبلغ توصيفه في الذكر بهذا النحو عشر مرات (٢)، فان الظاهر من هذا التوصيف بهذه الكثرة هو اختصاصه سبحانه بالعلم بالغيب والشهادة ، على نحو لا يشاركه غيره .

٣ ـ سلب العلم بالغيب عن غيره :

هذا القسم من الايات يدل بالملازمة العرفية على اختصاصه به سبحانه ، مثل قوله سبحانه: « ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء ان انا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون » (الاعراف ـ ١٨٨) ، « ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب » (هود ـ ٣١) (٣)

ومن هذه الوجوه الثلاثة يستفاد اختصاص العلم بالغيب به سبحانه وانه لا يشاركه فيه غيره، غير ان اختصاصه به سبحانه على الوجه اللائق بساحته لا ينافى امكان اطلاع الغير على الغيب باذن منه سبحانه .

توضيحه : ان ما يجرى على الله سبحانه من صفات ونعوت تختلف عما

(١) المائدة ١٠٩ و١١٦ ، التوبة ٧٨ ، سبأ ٤٨ .

(٢) الانعام ٧٣، التوبة ٩٤، و١٠٥، الرعد ٩، المؤمنون٩٢، السجده ٦،الزمر٤٦ الحشر ٢٢ ، الجمعة ٨ ، التغابن ١٨ .

(٣) سيوافيك توضيح مفاد الاية وما يماثلها التى تسلب العلم بالغيب عن النبى(ص) بعيد هذا فانتظر .

يجرى على غيره سبحانه لا بمعنى ان للعلم معنيين مختلفين بأحدهما يجرى على الواجب وبالمعنى الاخر يجرى على الممكن فان ذلك باطل بالضرورة اذ ليس للعلم ولا لسائر أوصافه فى اللغة والعرف الا معنى واحداً وهو فى العلم انكشاف المعلوم لدى العالم بطريق من الطرق ، وكذا الحياة والقدرة والسمع والبصر بل المراد اختلاف المحمول عند الجرى على الواجب والممكن من جانب آخر. وهو الاختلاف فى كيفية الجرى والاتصاف فان العلم: منه واجب، ومنه ممكن منه ذاتى ومنه اكتسابي ، منه مطلق ومرسل عن القيود، ومنه مقيد محدود، منه ما هو عين الذات بلا تعدد بين الوصف والموصوف ، ومنه زائد على الذات وعارض عليه ، وهكذا واللائق من هذه الاقسام بساحته تعالى هو القسم الاول .

كما ان الصحيح عند الحمل على الموجود الممكن هو الثانى لما تحقق وثبت بالبراهين العلمية ان علمه سبحانه مطلقاً بذاته أو غيره، ذاتى له لا عرضى ، مطلق لا مقيد . مرسل لا محدود .

وعلى ذلك ـ فعلمه سبحانه بكل شيىء ، عين ذاته، لا عارض عليه، فالذات هو نفس العلم والعلم هو عين الذات بلا تعدد ولا اثنينية بين الذات وعلمه ونظير المقام اطلاق علمه ، فعلمه سبحانه مطلق عن القيود ، مرسل عن الحدود ، فلا يحده كيف ولا يقيده اين، مجرد عن الامكان وأحكامه، منزه عن التجزئة والمقدار وآثاره الى غير ذلك من أحكام الممكنات ولوازمها .

فهذه الايات الدالة على اختصاص العلم بالغيب به سبحانه لا تهدف الا الى ما يناسب ساحته وهو العلم الواجب الذاتى المرسل المطلق عن الحدود، الذي لا يشاركه غيره ، لا ما يمكن ان ينعت به الممكن ويتصف به غير الواجب واتصاف الغير بالعلم الامكاني الكسبي منه سبحانه ، المحدود بالزمان والمكان وغيرها من الحدود ، الزائد على ذات الموصوف ، والعارض عليه ، لا يعد نقضاً للحصر، بل لا يستلزم استثناء عن الحكم استثناء حقيقياً متصلا ولا يستلزم

مشاركة الواجب والممكن في هذا الوصف، كاتصاف سائر الموجودات بالحياة والقدرة ، والسمع والبصر وغيرهما من الصفات الثبوتية .

فالغيب المختص به سبحانه انما هو هذا النوع من العلم الذي لا يشاركه فيه شيىء ، بل يمتنع ان يشاركه فيه أحد لاستلزامه الشرك وتعدد الواجب .

وعليه يحمل كل ما دل على أن علم الغيب مختص به سبحانه، فالعلم بالغيب الذى هو عين ذاته سبحانه الذي لا يحده شيء ، ولا يقيده قيد ، مخصوص بـه تعالى ، لا يشاركه في هذا العلم أحد من خلقه ، بل العلم بالشهادة على هذا الوجه أيضاً مختص به ، كما قال سبحانه : « عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير » (الانعام ـ ٧٣) الى غير ذلك مما يلمح الى انحصار كلا العلمين فيه سبحانه :

وهذه قرينة واضحة على أن المقصود من الايات الدالة على اختصاص علم الغيب به سبحانه ، هو ما يليق بساحة الواجب الذي لا يشاركه فيه أحد ، والا فالعلم بالشهادة على غير الوجه الذاتى ، وغير المطلق المرسل عن القيود ، بأن يكون محدوداً ومقيداً وعرضياً ، فغير مختص به ، بل يوجد عند كل من أعطى له الادراك والشعور ، وقدرة الاتصال بالخارج، فما دل على انحصار كلا العلمين (العلم بالغيب والشهادة) فيه سبحانه انما يراد منه ما يليق بساحته عزوجل .

* * *

هل يمكن للانسان الاطلاع على الغيب :

ان فى وسع المولى سبحانه ان يظهر على غيبه من شاء من عباده ويطلعه على ما حدث وغبر ، أو يحدث ويتحقق من ملاحم واحداث وفتن أو غيرها، في حين أو احايين ويوقفه على ما لم يره ولم يشهده وليس في ذلك أى تصادم مع اختصاصه بالله فهو يعلم الغيب بالاصالة، وغيره بتعلم منه ومن طريق التبعية.

قال الشيخ الرئيس فى اشاراته ما هذا لفظه : « التجربة والقياس متطابقان على أن للنفس الانسانية أن تنال من الغيب نيلا ما ، فى حالة المنام ، فلا مانع من أن يقع مثل ذلك النيل فى حال اليقظة الا ماكان الى زواله سبيل، ولارتفاعه امكان، أما التجربة فالتسامع والتعارف يشهدان به ، وليس أحد من الناس الا وقد جرب ذلك في نفسه ، تجارب الهمته التصديق اللهم الا أن يكون أحدهم فاسدالمزاج، نائم قوى التخيل والتذكر، وأما القياس فاستبصرفيه من تنبيهات » ثم ذكر بعض التنبيهات لاثبات ما ارتآه (١) .

وقد صرح بذلك فى آيات :

الاولى : قوله سبحانه : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً الا من ارتضى من رسول فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ليعلم ان قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً » (الجن ٢٦ - ٢٨) فمعناه ان الغيب كله مختص به، لا يظهر على غيبه أحداً الا من ارتضى من رسول فيظهر رسوله على ما شاء من الغيب فهذه الاية اذا انضمت الى قوله سبحانه : « قل لا يعلم من فى السماوات والارض الغيب الا الله » (النمل- ٦٥) يتضح ان الهدف من الاية، اختصاصه به على وجه الاصالة والذاتية ، واطلاع الغير بتعليم منه سبحانه وليس ابطالا له بل استثناء منه يشبه الاستثناء المنقطع فان علمه بالاشياء بالاصالة وعلم غيره بالتبعية والعلم التبعي الاستنادي، لم يكن داخلا فيه ، حتى يحتاج الى اخراجه الا بضرب من التأويل، لتشابه بين العلمين من بعض الجهات وان افترقا من جهات شتى فصح أن يقال : ان العلم بالغيب مختص به سبحانه وفى الوقت نفسه يظهر على غيبه بعض عباده من دون ان يمس كرامة اختصاصه به.

ونظير المقام قوله سبحانه: «الله يتوفى الا نفس حين موتها» (الزمر- ٤٢)

---

(١) راجع الاشارات والتنبيهات النمط العاشر ج ٣ ص ٣٩٩ .

فهو ظاهر في ان التوفي منحصر في الله سبحانه مع انه سبحانه أسنده الى ملك الموت في مورد والى رسله في مورد آخر وقال : « قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم » (السجدة ـ ١١) فالتوفي وأخذ الارواح والنفوس ، من فعل الله سبحانه على وجه الاصالة ومن فعل غيره على وجه التسبيب والتبعية ، ومع ذلك لا ينافي اختصاصه بـه سبحانه على الاطلاق لاختلاف الفعلين مـن جهة وتشابههما من جهة أخرى .

نعم ما يظهره على رسوله من الغيب لماكان في مظنة التغيير لم يكتف بنفس الاظهار والاعلام بل عين له رصداً وحفظة يحفظون ما يلقى اليه والى ذلك أشار سبحانه بقوله : « فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً » .

ولماكان علم الرسول بالغيب محاطاً بعلمه سبحانه قال: «وأحاط بما لديهم» أي مالدى الانبياء والخلائق وهم لا يحيطون الا بما يطلعهم الله عليه فقد « احصى كل شيىء عددا » .

ثم انه وان خصص العام فى هذه الاية بالرسول حيث قال : « الامن ارتضى من رسول » الا أنه لا يأبى عن ورود مخصص آخر عليه فانه سبحانه كما أظهر غيبه على رسله ، أظهره على انبيائه الاخرين حيث قال سبحانه : « انـا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده » النساء ـ ١٦٣) والوحى أحد مصاديق الغيب على ما عرفناك .

هذا اذا قلنا باختلاف الرسول والنبى في المصداق وان بين اللفظين حسب المصداق عموم مطلق أو عموم مـن وجه أمـا اذا قلنا باختلافهما في المفهوم وتساويهما في المصداق كما هو غير بعيد فلا يلزم تخصيص آخر .

ومن هنا يظهر الحال في علم خلفاء الرسول بالغيب فانهم عليهم السلام لما جعلوا مصدر علمهم بالغيب، التعلم من ذى علم وهو الرسول والوراثة منه (١)

(١) وقد عقد الكلينى فى اصوله باباً لذلك فراجع ج ١ ص٢٢٣.

لا يلزم عندئذ تخصيص آخر على الاية غير ان كون مصدر علمهم منحصراً فيها لا يخلو من غموض لما سيوافيك من كونهم (ع) محدثين (بالفتح) فانتظر .

وربما يقال : ان المراد من الغيب في قوله سبحانه: « عالم الغيب فلايظهر على غيبه أحداً الا من ارتضى من رسول » (الجن ـ ٢٦) وهكذا في نظائره مما استدل به على جواز تعرف النبي (ص) على الغيب، هو الوحي القرآني الذي نزل على قلب النبي (ص)، وهذا مما لا خلاف فيه، وانما الخلاف في تعرفهم على الغيب من غير هذا الطريق ، ومما يدل على ما استظهر ، قوله سبحانه في عدة مواضع من القرآن «ذلك من انباء الغيب نوحيه اليك» فلاحظ (آل عمران ـ ٤٤ ويوسف ـ ١٠٢ ، وهود ـ ٤٩) .

والاجابة عنه سهلة بعد الوقوف على معنى الغيب في اللغة والعرف ومصطلح القرآن في غير هذه المواضع ويتضح الجواب بملاحظة أمور :

١ ـ ان الغيب يطلق في اللغة على الامر الغائب عن الحس في مقابل الشهود الذي يطلق على المعنى المحسوس بأحد الحواس ، واذا اطلق على الوحي كلمة الغيب فانما هو بسبب خفاءه عن حواسنا كالحوادث الغائبة عن حواسنا الواقعة في هذا الكون وعندئذ فما هو المبرر لتخصيص كلمة الغيب بالوحي فقط.

ان القرآن الكريم يجعل أحد علائم المتقين في كتابه هو (الايمان بالغيب) حيث يقول: «الذين يؤمنون بالغيب» فهل يسوغ المعترض لنفسه تفسير الغيب في الاية بالوحي فحسب، في حين ان الغيب هنا يحمل معنى واسعاً يكون الايمان بالقيامة والوعد والوعيد أحد مصاديقه أيضاً، التي يؤمن بها المتقون رغم عدم ادراكهم لها بالحواس، أضف الى ذلك أن الغيب في اللغة بمعنى الامر الغائب عن الحس مقابل (الشهادة)، ومن هنا يقول القرآن في وصفه سبحانه: « عالم الغيب والشهادة » ، وليس المراد منه خصوص الوحي قطعا ، واطلاق الغيب على الوحي ، ليس لان الوحي هو معناه، بل لان الوحي هو من بعض مصاديقه

باعتبار عدم ادراكنا له بالحس أيضاً ، فهذا الاشتباه من قبيل اشتباه المصداق بالمفهوم في مصطلح العلماء، وقدتصورالمعترض ان الغيب بمعنى الوحى فقط بينما ليس الوحى الا أحد مصاديق الغيب حسبما عرفنا الان ، وقد ورد لفظ «الغيب» في القرآن الكريم ـ أربعا وخمسين مرة ـ ولم يقصد فيه الا الامور الغائبة عن الحس أيضاً حتىالايات التى استدل بها المعترض على مايقوله من تفسير الغيب بالوحى فقط .

ان هذه الايات تشيرالى قصص مريم ويوسف ونوح التي لم تكن معروفة عند الناس بشكلها الصحيح ، فبينها القرآن لهم بالشكل المطلوب الصحيح ، وفيالواقع كان الوحىهنا أحد طرق معرفة الغيب، لا أنالغيب موضوع للوحي خاصة . ولعلك لا تعثر في القرآن كله على موضع واحد أطلق فيه لفظ الغيب وأريد منه الوحى فقط واليك بعض النماذج :

« انى أعلم غيب السموات والارض » (البقرة ـ ٣٣) ، « وعنده مفاتيح الغيب» (الانعام ـ ٥٩) ، «ان لوكانوا يعلمون الغيب مالبثوا فى العذاب المهين» (سبأ ـ ١٤) (١)

٢ ـ انكلمة (الغيب) في قوله سبحانه : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً » (الجن ـ ٢٦) بمعنىالامورالغائبة عن الحس كما قدمناه وليست بمعنى الوحى كالقرآن مثلا، وذلك لان الاية السابقة (٢) قد عرضت موضوعاطلاع النبي (ص) على موعد القيامة وكانت الاية قد نفت ـ بلسانالنبي (ص) ـ مثل هذا الاطلاع عنه (ص)، وحين يأتى بعد هذا النفى المباشر قوله سبحانه: «عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً » .

---

(١) راجع المعجم الفهرس .

(٢) تقول الاية السابقة : « حتى اذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصراً وأقل عدداً قل ان أدرى أقريب ما توعدون ، أم يجعل له ربى أمدا ، عالم الغيب الخ ».

يكون موضوع القيامة داخلا في اطار كلمة (الغيب) المستعملة في الاية أيضاً وتكون الاية الاخيرة بمثابة تعليل لما تقدم في الاية السابقة من نفى العلم بموعد القيامة عن النبي (ص) بجعلها من علم الغيب المختص بالله سبحانه ولا يمكننا بعد ذلك تفسير (الغيب) فى الاية بخصوص الوحى ، لان سياق الاية يمنع من اخراج العلم بموعد القيامة عن مورد الاية . واذا كان العلم بموعد القيامة مما تتضمنه الاية أيضاً حسب السياق ، لا يمكننا استثناء سائر المواضيع الغيبية من هذه الاية ، وحينئذ يكون معنى الاية كما يلي :

« ان الله عالم الغيب (كل ما غاب عن الحس من وحى وغيره) فلا يظهر على غيبه أحداً الا من ارتضى من رسول ». وتكون الاية دليلا واضحاً على اطلاع النبي (ص) على الغيب من وحي وغيره بأمر من الله تعالى :

٣ ـ ان المفسرين فسروا الغيب في الاية المبحوث عنها من (سورة الجن) بالامور الغائبة عن الحس ، وأيدوا بها اطلاع الانبياء على هذه الامور، ويعلل طائفة من هؤلاء المفسرين كالطبرسى والقرطبى وصاحب (روح البيان) اطلاع الانبياء على الغيب بان ذلك دليل متمم على صدق رسالتهم ، ومعجزة لهم ، حيث ان علمهم بالغيب سبب لوثوق الناس بهم، ودليل على ارتباطهم بالسماء. وبعد هذا هل يمكن تخطئة جميع هؤلاء المفسرين وتصحيح ما قاله المعترض فقط ؟ !

اننا راجعنا التفاسير التالية فوجدناها جميعاً تفسر (الغيب) بكل أمر غاب عن الحس مطلقاً ولم يفسر أحد منهم الغيب بالوحى خاصة واليك أسماء التفاسير التى راجعناها مع أرقام الصفحات والمجلدات : تفسير التبيان للشيخ الطوسى ١٥٨/١٠، ومجمع البيان للطبرسى ٣٧٤/١٠، تفسير ابن كثير ٤٣٣/٤، تفسير القاضى البيضاوى ص ٤٤٥ الطبعة الحجرية، تفسير جوامع الجوامع للطبرسى ص ٥١٤ ، الكشاف ٦٣٣/٤، زاد المسير لابن الجوزي ٣٨٥/٧، تفسير القرطبى

١٠/٦٨١٩، تفسير الجلالين ص ٧٦٦، الطنطاوى ٢٤/٢٨١، المراغى ٢٩/١٠٦ تفسير گازر ١٠/١٩١ ، في ظلال القرآن ٢٩/١٦٢ ، تفسير القمى ص ٧٠٠ ، الصافى ٢/٧٥٣ ، تفسير شبر ص ١١٦٤ ، مقتنيات الدرر ١١/٢٧٣ ، منهج الصادقين ١٠/٤ ، روح البيان ١٠/٢٠١ .

الثانية : قوله سبحانه : « ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء فآمنوا بالله ورسله وان تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم » (آل عمران - ١٧٩) فهو بظاهره يفيد ان الله سبحانه لا يظهر على غيبه أحداً من الناس ليعلم ما فى قلوب الاخرين ، ويميز المؤمن من المنافق ، ولكن يختار من يشاء من رسله فيوقفه على الغيب ويطلعه عليه .

ولا يتوهم ان المقصود من الغيب هو الوحى القرآنى فانه لا يناسب مفاد الاية اذ المقصود من «الخبيث» هم المنافقون الذين يظهرون الايمان ويبطنون الكفر ، كما ان المقصود من « الطيب » هم المؤمنون الحقيقيون .

ان الله تعالى يلفت انظار الامة في مطلع هذه الاية بانه تعالى سوف لايدع الامة بهذا الشكل المختلط من المؤمنين والمنافقين بل انه تعالى سيميز بين الفريقين بأحد الطريقين التاليين :

١ - فرض الامتحان والابتلاء عليهم جميعاً وعند الامتحان يكرم المرء أو يهان فيعرف المؤمن من المنافق .

٢ - عن طريق علم الغيب وذلك بأن يطلع نبيه على شؤون المؤمنين والمنافقين والفوارق بينهما، ولكن هذا الطريق مختص بالنبى والانبياء فقط ، وليس كل الانبياء ، بل أولئك الذين يجتبيهم الله من أنبيائه ورسله . ولقد أشار الى هذه الحقيقة بقوله : « وماكان الله » . ويتضح من ذلك كله أن ليس المقصود

من الغيب في هذه الاية هو الوحى المصطلح، بل معناه الاطلاع على المواضيع الخارجية مثل تمييز المنافق من المؤمن ، لانه لو كان المراد منه الوحى المصطلح ما كان هناك داع لتحصيصه بطائفة من الرسل ، فى حين ان جميع الانبياء ينزل عليهم مثل هذا الوحى .

أضف الى ذلك ان الهدف من اطلاع الانبياء على الغيب هنا، حسبما يدل عليه السياق هو تمييز المؤمن من المنافق ، ولا يكون هذا الا بأن يطلع النبي (ص) على كل شؤون المنافقين، ويعرف كل فرد منهم ، والقرآن وان بين بعض صفات المنافقين على وجه العموم ، ولكنه لم يعرفهم بشكل تفصيلى يؤدى الى التمييز بينهم وبين المؤمنين ، والدليل على ان المقصود من الاية هو معرفة المنافقين تفصيلياً هو ما يرويه التاريخ من ان النبي (ص) عرف جميع المنافقين يوم تبوك وعرفهم لحذيفة (١) أيضاً . ولقد تحقق مفهوم هذه الاية (حتى يميز الخبيث من الطيب) بمعرفة النبى (ص) للمنافقين ، عن طريق تحقق محتوى هذه الاية .

ان من يمعن النظر في الاية يذعن بانه ليس المقصود من «الغيب» فيها وحى السماء بل المقصود هو : معرفة الخبيث (المنافق) من الطيب المؤمن الحقيقى. ومثل هذه المعرفة التفصيلية لاتحصل عن طريق الامور الكلية والعامة، بل لابد من طريق آخر يعرفهم النبي ثم يعرفهم للاخرين .

الثالثة : قوله سبحانه: «ولقد رآه بالافق المبين وماهو على الغيب بضنين» (التكوير ٢٣ - ٢٤)، المراد من « الغيب » هو الوحى النازل عليه والمعنى انه لا يبخل بشيىء ممايوحى اليه، فلا يكتمه ولا يحبسه ولا يغيره، بل يبلغ الناس

(١) لاحظ المصادر التالية تاريخ بغداد ج١ ص ١٦١، اسد الغابة ج ١ ص٣١٩ الاستيعاب ج ١ ص ٢٧٧ ، الدرجات الرفيعة ص ٢٨٤ وغيرها وقد عرف حذيفة بانه صاحب سر رسول الله (ص) .

على النحو الذى أمر بابلاغه فتدل الاية على اطلاعه على الغيب .

الرابعة : قوله سبحانه « ذلك من انباء الغيب نوحيه اليك » وقد تكررت الاية فى الذكر الحكيم فراجع آل عمران ـ ٤٤، يوسف ـ ١٠٢، وقال: « تلك من انباء الغيب نوحيها اليك » (هود ـ ٤٩) وعلى أي تقدير فتدل هذه الايات الاربعة على انه سبحانه يظهر غيبه على رسوله ويطلعه عليه ، وعلى الانباء الغيبية مما لم يكن يعلمه لاهو ولا قومه.

وقد استدل في بعض الروايات على اطلاع النبي والائمة على الغيب بقوله سبحانه : « انا أنزلناه في ليلة مباركة انا كنا منذرين فيها يفرق كل أمر حكيم أمراً من عندنا انا كنا مرسلين » (الدخان ٣ ـ ٥) ، وبقوله سبحانه : « انا أنزلناه في ليلة القدر » (القدر ١ ـ ٥)

ونقلها الكلينى في أصوله (١) عن الحسن بن العباس بن الحريش وقد عرفت حال الرجل وانه لا يلتفت اليه ولا يكتب حديثه وانه . . . (٢) .

نعم استدل بعض الاكابر (٣) على عموم علم النبي والائمة من أهل بيته لكل غابر وحادث بل على فعلية علومهم بكل شيء بقوله سبحانه : « انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » (الاحزاب ـ ٣٣)، وبقوله سبحانه : «ان الله اصطفى آدم ونوحاً وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين» (آل عمران ـ ٣٣)

حيث قال : « ان عموم اذهاب الرجس والتطهير والاصطفاء ، الظاهرى والباطني والتنزيه عن شوائب الكدر ، وظلمات الجهل والسهو دال على كل

---

(١) الكافى ج ١ ص ٢٤٥ ـ ٢٤٩ .

(٢) راجع ما أسلفناه ص ٣٧٢ من كتابنا هذا ، وجامع الرواة ج ١ ص ٢٠٥ وقاموس الرجال ج ٣ ص ١٨٢ ـ ١٨٣ .

(٣) السيد عبد الحسين النجفى الشيرازى .

من المطلوبين من عموم علمهم وفعليته » لكن في دلالة الايتين على المطلوب خفاءاً .

اما الاولى : فان دلالتها على اعتصام أهل البيت بالعصمة الالهية في غاية الظهور على ما هو مقرر في محله ، واما دلالتها على سعة علمهم وفعليته ففيه خفاء تام ، فان الرجس هو الشيىء القذر يقال : رجل رجس ، ورجال أرجاس والقذارة أمروجودي توجب تنفر النفس من الشيىء المتلبس بها وهي امابحسب ظاهر الشيىء كما في الخنزير كقوله سبحانه: « الاأن يكون ميتة، أو دماًمسفوحاً أو لحم خنزير فانه رجس » (الانعام ـ ١٤٥) ، أو بحسب باطنه وهي القذارة المعنوية كالشرك والكفر ومساوىء الاخلاق والخمروالميسر بما لهما من الاثار الموبقة، قال سبحانه: « واما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً الى رجسهم وماتوا وهم كافرون » (التوبة ـ ١٢٥) ، وقال عزوجل : « ومن يرد ان يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد فى السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون » (الانعام ـ ١٢٥)، وقال تعالى «انما الخمروالميسروالانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » (المائدة ـ ٩٠) . والمتفحص في موارد استعماله يذعن بأنه أمر وجودى في الشيىء اما بحسب ظاهره مما يدركه الناس أو باطنه مما يجب ان ينبه عليه من جانب العقل أو الشرع ، والغاية من اذهاب الرجس عنهم هو ازالة كل صفة خبيثة في النفس ، تدعو الى الاعتقاد الباطل أو العمل السيىء في مقابل العصمة الالهية، التى هي هيئة علمية نفسانية ، تصون الانسان عن الزلل في الرأى والقول والعمل .

اما الجهل بالشيىء مطلقاً خصوصاً الجهل بالفتن وملامح أحداث وكل ما يجري في الكون من نوازل أو ملمات أو ما يحكم فيه من نواميس وقوانين فليس أمراً وجودياً أوهيئة في النفس، يورث التنفر والتجنب، حتى يدل اذهاب الرجس على اذهابه فلو جهل الانسان بنواميس الكون والقوانين السائدة في

الافلاك لا يعد جهله هذا رجساً، أترى من نفسك ان جهل الفقيه بالمعادلات الجبرية والقوانين الطبية رجس ، أو جهل الاديب بفنون الصنايع رجس ؟

واما عد الالحاد والشرك من الرجس، فليس لاجل كون الملحد والمشرك جاهلا بالله سبحانة وصفاته بل لاجل تعلق قلبه بأمر باطل لا يعدو كونه أمراً وجودياً وان كان يجتمع مع الجهل أيضاً (١) .

واما الاية الثانية: فلان المراد من الاصطفاء هو أخذ صفوة الشيىء وتخليصه مما يكدر ، فالمناسب له ، هو اصطفاؤهم من الزلل في الرأى والقول والعمل الذي هو عبارة عن العصمة الالهية وهي الجهة الجامعة الوحيدة بين المصطفين أعنى آدم ونوحاً وآل ابراهيم وآل عمران، فان المراد من آل ابراهيم هم الطيبون من ذريته كاسحاق واسماعيل والطاهرون من ذريتهما كما ان المراد من آل عمران هي مريم وابنها المسيح أو هما وزوجة عمران بقرينة ذكر قصة امرأة عمران ومريم ابنته بعد الايتين . وعلى أى تقدير فالمراد اصطفاؤهم من كدر الشرك وقذارة الذنوب وتطهيرهم من مساوىء الاعمال وقبايحها ويؤيد ذلك قوله سبحانه: «واذ قالت الملائكة يامريم ان الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين» (آل عمران ـ ٤٢)

نعم ان الله سبحانه وان اصطفى آدم بتعليمه الاسماء حين قال سبحانه: « وعلم آدم الاسماء كلها» (البقرة ـ ٣١) لكنه اصطفاه بأمور أخرى أيضاً فهو أول خليقة وطأ الارض من النوع الانسانى قال تعالى : « واذ قال ربك للملائكة انى جاعل في الارض خليفة » (البقرة ـ ٣٠) ، وأول من اجتباه بقبول توبته قال سبحانه: «ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى» (طه ـ ١٢٢) الى غير ذلك من خصائص ومناقب كما انه اصطفى نوحاً بجعله أول الخمسة من أولى العزم أصحاب العزائم القوية

(١) راجع المفردات للراغب ص ١٨٨ والميزان ج ١٦ ص ٣٣٠.

والشريعة لقوله سبحانه : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً » (الشورى - ١٣) الى غير ذلك واصطفى ابراهيم وآله بأمور وخصال يجدها المتفحص في سيرتهم المذكورة في القرآن .

لكن الجهة الجامعة المشتركة بين الجميع في الاية، التي يمكن ان يكون الاصطفاء لاجلها ليست الا العصمة الالهية، أعنى التطهير من الذنوب وكدر الشرك أو هي مع النبوة في غير مريم، لا ما يختص بكل واحد منهم من صفات وخصال كتعليم الاسماء لادم مثلا حتى تكون الاية ناظرة الى اصطفاء المذكورين فى الاية بتعليمهم كل شيىء واطلاعهم على كل أمر . ويدل بالنتيجة على اطلاع النبي وآله على الغيب .

* * *

القرآن يدل على تحقق التنبؤ من الانبياء والصالحين :

ما مر عليك من الايات تدل بصورة كلية على ان رجال الوحى يمكنهم الاطلاع على الغيب والتطلع على ما ليس بمشهود لغيرهم ، هلم معى نتدبر فى الايات التى تدل على تحقق التنبؤ عنهم في مواقف شتى .

ولنقدم كلمة ، وهي : ان كل ما أتى به الرسول (ص) من أصول وفروع وقصص و ... كلها انباء غيبية أظهره الله عليها قال سبحانه في شأن النبي الاعظم « تلك من انباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها انت ولا قومك من قبل هذا فاصبر ان العاقبة للمتقين » (هود - ٤٩) فاى غيب أعلى وأجلى مما أظهر نبيه عليه من القرآن المبين الذي يعد بنفسه نبأ غيبيا ويحتوى من الاخبار بالمغيبات الوافرة ما لا يعد ولا يحصى ، فكل ما جاء به في مجالات مختلفة ، غيب بلفظه ومعناه اطلعه الله عليه وأوحاه اليه بصورته ومادته . اذ المفروض ان القرآن معجز بلفظه ومعناه والمعجزات احدى المغيبات .

وعلى كل تقدير ان القرآن يدل بفضل نصوصه على اخبار غيبية ، تنبأت بها ثلة جليلة من عباده المخلصين من انبيائه ورسله وخيار عباده وان الله أظهر من علمه المكنون ما كان خفيا، على بعض رسله وانبيائه وثلة من أوليائه ودونك ما وقفنا عليه عند التدبر في الذكر الحكيم :

١ـ النبي آدم والاطلاع على الغيب

قال سبحانه : « وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين، قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك انت العليم الحكيم قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم انى أعلم غيب السماوات والارض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون »

(البقرة ٣١ ـ ٣٣)

والنظر الدقيق في هذه الايات الثلاث يقودنا الى انه سبحانه أطلع نبيه آدم (ع) على جملة من الحقائق كان يغيب علمها عن الملائكة وقد اخبر آدم ـ بأمر من الله ـ الملائكة عن هذه الحقائق التي عبر عنها القرآن بالاسماء، وليس المراد من الاسماء في الاية (وعلم آدم الاسماء كلها) ، أسماء الاشياء فقط فان معرفة الاسماء لا تعد فضيلة لادم (ع) .

وانما المقصود منها مسمياتها (أى حقائق الاشياء) وعلى هذا علمه سبحانه اسرار الخليقة فاطلع على خواص الاشياء وآثارها فصارت نتيجة تعليم الاسماء لادم (ع) هو نصب الحقائق الكونيه بين يديه واخباره عن واقع الحياة(١). والاتيان بضمير الجمع المذكر العاقل في قوله تعالى : « ثم عرضهم على الملائكة » دون الاتيان بضمير المفرد المؤنث يدل على ما قلناه فلو كان الهدف تعليم نفس

(١) قد نقل العلامة الطبرسي في مجمع البيان ج١ ص٧٦ ط صيدا، اقوال المفسرين حول المراد من الاسماء واختار ما ذكرناه .

الاسماء لادم (ع) فحسب لكان ضمير المفرد المؤنث جديراً بالمقام. وهذه الايات الكريمة دلت على وجود علم الغيب الفعلي عند آدم (ع) وذلك لان الاطلاع على الغيب والاخبار عن شؤون البشر في المستقبل ، والايحاء الى الملاحم والفتن ليس بأعلى من الوقوف على حقائق المسميات التي كلت دون ادراكها ملائكة الله سبحانه حتى أنباهم وأطلعهم عليها .

٢ ـ تنبؤ نوح (ع) :

قال سبحانه: « وقال نوح رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا، انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجراً كفارا » (نوح ٢٦ ـ ٢٧)

لقد سار شيخ الانبياء نوح (ع) بأمته سيراً سجحاً، وتحمل في سبيل دعوته المحن والكوارث، وجابه ضوضاء الشرك بالحكمة والموعظة الحسنة حتى يئس من ايمانهم فدعا ربه باهلاكهم وابادتهم مخبراً عن مآل قومه ومن يرثهم وذلك كما تقدم في الاية ، أو ليس هذا اخباراً عن عواقب أمورهم وأخلافهم ، وانه لن يؤمن أحد منهم ولا من أخلافهم ؟

ولعل المعترض يقول : ان نوحاً بعد أن قضى ردحاً مديداً من الزمن مع قومه، رأى ان البيئة الاجتماعية أصبحت منحرفة الى درجة لا تسمح مطلقاً بمقتضى علمه العادي أن يوجد فيها فرد صالح وهذا أمر متصور . أو أنه وقف على مآل أمر قومه ، بعد اخباره سبحانه بذلك كما قال : « وأوحي الى نوح انه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن ، فلا تبتئس بما كانوا يفعلون » (هود ـ ٣٦)

أقول : هب انه فهم مآل قومه من القرائن أو من اخباره سبحانه لكنه من أين وقف على أحوال خلفهم وان من يرثهم لا يكون الا فاجراً كفارا ؟ وليس ذلك الا بتعليم من الله واظهاره على نبيه باحدى الطرق .

٣ ـ ابراهيم وملكوت السماوات والارض :

ان القرآن يصف ابراهيم بصفات كثيرة ويشرح أمره في بدء الدعوة ويقول:

« وكذلك نري ابراهيم ملكوت السموات والارض وليكون من الموقنين »

(الانعام ـ ٧٥)

فالملكوت هو الملك كالطاغوت والجبروت وان كان آكد بالنسبة الى الملك كما ان الطاغوت والجبروت آكد بالنسبة الى الطغيان والجبر والجبران .

والمراد من ارائة ملكوت السموات والارض لابراهيم هو توجيه نفسه الشريفة الى مشاهدة الاشياء من جهة استناد وجودها اليه استناداً لا يقبل الشرك بحيث عاد ابراهيم بعد تلك الارائة فحكم ان ليس في صفحة الوجود رب غيره سبحانه يتولى تدبير النظام وادارة الامور حتى صار من الموقنين .

وهذه الارائة لا يقل عن علم الغيب بما هو خارج عن اطار الحس لو لم يكن اشرف منه .

وللبحث حول قصة ابراهيم ودلائله الباهرة في ابطال ربوبية الاجرام السماوية والارضية مجال آخر قدمنا بعضه في الجزء الاول من هذة الموسوعة (١) .

٤ ـ اطلاع لوط (ع) على الغيب :

هذا هو لوط أحد الانبياء المعاصر لابراهيم فقد اطلع على مسير قومهم وهلاكهم في وقت الصبح عن طريق جنود ربه ورسله قال سبحانه :

« قالوا يا لوط انا رسل ربك لن يصلوا اليك فاسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد الا امرأتك انه مصيبها ماأصابهم ان موعدهم الصبح اليس الصبح بقريب » (هود ـ ٨١)

---

(١) لاحظ الجزء الاول ص ١٣٢ ـ ١٤٣ .

فلو اخبر هذا النبي الكريم بطانته الصالحين بان قومه سيهلكون في الصبح وان موعدهم هو ذاك الوقت ، يصح ان يقال انه مخبر عن الغيب وعالم به وان كان علمه محدوداً ومتناهياً ، مكتسباً غير ذاتي .

٥ ـ تنبؤ يعقوب (ع) :

قال سبحانه : « اذ قال يوسف لابيه يـا أبت انى رأيت أحـد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين. قال يا بني لا تقصص رؤياك على اخوتك فيكيدوا لك كيدا . ان الشيطان للانسان عـدو مبين . وكذلك يجتبيك ربـك ويعلمك من تأويل الاحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل ابراهيم واسحق ان ربك عليم حكيم » (يوسف ٤ ـ ٦)

تدل الايات على ان يعقوب (ع) فسر رؤيا ولده يوسف ، مخبراً عن حقيقة مستورة من خلال تلكم الرؤيـا وكانت تلك الحقيقة وصول ولده يوسف الى المقام الشامخ في الدنيا ، والاطلاع على الواقع من خلال الرؤيا وهولون من الاطلاع على الغيب ، خص تعالى بعض عباده بهذا الفضل .

لما طلب اخوة يوسف من ابيهم يعقوب ان يرسل يوسف حتى يرتع ويلعب معهم ، اجابهم يعقوب بقوله : « انى ليحزنني ان تذهبوا به واخاف ان يأكله الذئب وانتم عنه غافلون » (يوسف ـ ١٣) أفليس قولـه : « واخاف ان يأكله الـذئب » ، تنبؤاً بفكرتهم الشيطانيـة في حق يوسف كيف وقد حكاه سبحانـه عنهم بقوله : « يا ابانا انا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب » (يوسف ـ ١٧)

ثم ان يعقوب لما سمع تقولهم في حق اخيهم عاد يكذبهم بقوله : « بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل » (يوسف ـ ١٨) قائلا بان يوسف حي يرزق ولم يأكله الذئب أو ليس هذا اخباراً عن ماوراء الحس.

ولاغروفي ذلك فان الله يصف نبيه يعقوب بقوله: «وأنه لذو علم لماعلمناه ولكن اكثر الناس لا يعلمون » (يوسف ـ ٦٨)

ولا جل تلك المكانة لما اخبر الاخوة بان ابنه (اخا يوسف) سرق كذبهم او كذب الخبر بانه : « سولت لكم انفسكم امراً فصبر جميل عسى الله ان يأتينى بهم جميعا » (يوسف ـ ٨٢)

ولما اعترض اولاده على بكائه بقولهم: «تالله تفتؤ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين » اجابهم بقوله «انما اشكو بثى وحزنى الى الله واعلم من الله مالا تعلمون. يابنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف واخيه ولا تأيسوا من روح الله انه لاييئس من روح الله الا القوم الكافرون » (يوسف ٨٥ ـ ٨٧)

هذه تنبؤات نبى الله يعقوب فيعرب عن صدق قوله سبحانه «وأنه ذو علم لما علمناه كما يدل على صدق قوله : « واعلم من الله مالا تعلمون » .

افبعد هذه التنبؤات يصح لقائل ان ينفى علمه بالغيب بتاتاً .

اضف الى ذلك قوله: «عسى الله أن يأتينى بهم جميعاً انه هو العليم الحكيم» (يوسف ـ ٨٣)

مخبراً عن حياة يوسف واخيه وانه واخاه سوف يأتى الله بهما .

وهكذا قوله سبحانه :

« اذهبوا بقميصى هـذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا وأتونى بـأهلكم أجمعين. ولما فصلت العير قال أبوهم انى لاجد ريح يوسف لولا أن تفندون » (يوسف ـ ٩٣)

فلو لـم يك يعقوب (ع) عالماً بمصير يوسف ولم يدر عما بلغ اليه ولده من جلال وعظمة ، ولم يـك مطلعاً على تعرف الاخوة على اخيهم ورجوعهم بخبره السار ، كيف يقول : « اني لاجد ريح يوسف » أليس هذا علماً بـالغيب وهبه الله لنبيه المبتلى يعقوب ؟

٦ ـ تنبؤ يوسف (ع) :

قال سبحانه: « رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الاحاديث فاطر السموات والارض أنت وليي في الدنيا والاخرة، توفني مسلماً وألحقني بالصالحين» (يوسف ـ ١٠١)

والاية تصرح بان الله سبحانه علم نبيه يوسف (ع) تفسير الرؤيا وتأويلها وذلك قسم من علم الغيب .

وقال سبحانه: « ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما اني أراني أعصر خمرا وقال الاخر اني اراني احمل فوق رأسي خبزا تأكل الطير منه نبئنا بتأويله انا نراك من المحسنين .. يا صاحبي السجن اما احدكما فيسقي ربه خمرا واما الاخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه قضي الامر الذي فيه تستفتيان » (يوسف ٣٦ ـ ٤١) وتحقق الامر الذي اخبر عنه يوسف (ع) فنجى احدهما واصبح ساقي البلاط بينما اعدم الثاني ومن الوضوح بمكان ان هذا اللون من التفسير للرؤيا هو قسم من الغيب الذي نطق به يوسف (ع) .

وقال سبحانه : « وقال الملك انـي أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر واخر يابسات يا ايها الملا افتوني في رؤياي ان كنتم للرؤيا تعبرون. قالوا اضغاث احلام ومانحن بتأويل الاحلام بعالمين. وقال الذي نجا منهما وادكر بعد امة انا انبئكم بتأويله فارسلون يوسف أيها الصديق افتنا في سبع بقرات ..... قال تزرعون سبع سنين دأباً فما حصدتم فذروه في سنبله الاقليلا مما تأكلون. ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن الاقليلا مما تحصنون . ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون » (يوسف ٤٣ ـ ٤٩)

وفي هذه القصة يخبر يوسف (ع) عن ثلاثة أمور غيبية وذلك ضمن تفسيره

لرؤيا الملك وهـذه الامور هي : ١ ـ ينعمون بسبع سنوات مليئة بـالبركات والخيرات ويتحسن وضعهم الزراعي. ٢ـ يصابون بعدها بسبع سنوات جدب حيث تغلق عنهم أبواب الرحمة . ٣ ـ وفي الخامسة عشر من هذه السنين تعود اليهم النعم والخيرات من جديد وتفتح عليهم أبواب الرحمة .

٧ ـ صالح (ع) والتنبؤ بالغيب :

قال سبحانه : « ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب، فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب » (هود ٦٤ ـ ٦٥)

اخبر نبي الله صالح (ع) بمصير قومه السيىء اذا مسوا الناقة بسوء ، تلك الناقه التي كانت تمثل معجزته حين دعاهم الى الله والى التصديق بنبوته، وهكذا يتحقق ما أخبر به هذا النبي عن مصير قومه بعد أن عقروا الناقة فياتيهم البلاء بعد ثلاثة أيام فقط كما قال تعالى : « وفي ثمود اذ قيل لهم تمتعوا حتى حين فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون » (الذاريات ٤٣ ـ ٤٤)، وأي غيب أعظم من هذا يا ترى ؟

٨ ـ اطلاع سليمان (ع) على الغيب :

قال سبحانه : « وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء ان هـذا لهو الفضل المبين » (النمل ـ ١٦) . وهل معرفة داود وسليمان منطق الطير الا قسماً من الغيب ؟

وقال سبحانه: « حتى اذا أتوا على وادى النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهـم لا يشعرون . فتبسم ضاحكاً من قولها وقال رب اوزعني ان اشكر نعمتك التي انعمت علي وعلى والدي »

(النمل ١٨ ـ ١٩)

الا يعد اطلاع سليمان على لسان النمل من علم الغيب؟ ثم ألا يكون هذا خرقاً للعادة البشرية ؟

وقال سبحانه: « وتفقد الطير فقال مالي لا أرى الهد هد أم كان من الغائبين... فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين »(النمل ٢٠-٢٢)

وهل الاطلاع على لسان الهدهد ليس الا اطلاعاً على الغيب ؟

٩ ـ المسيح (ع) والتنبؤ على الغيب .

قال سيحانه : « وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم »

(آل عمران ـ ٤٩)

طفق المسيح (ع) ينبىء قومه ـ باذنه سبحانه ـ بأسرارهم وماكانوا يدخرون في الصيف لشتائهم بمقداره ولونه وحقيقته . وكان ذلك احدى معجزاته .

وكذا قوله :

« يابني اسرائيل انى رسول الله اليكم مصدقاً لما بين يدي من التوارة ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه احمد » (صف ـ ٦)

أليس في اخبار عيسى (ع) وتبشيره بقدوم النبى محمد (ص) بعد ستمائة عام اخباراً عن الغيب ؟

ونظيره ماورد في العهدين حول نبينا الاعظم (ص) من ذكر أسمائه وصفاته ومايحل به وبأولاده وأمته وغلبة دينه على جميع الشرائع ، فان تلكم البشارات الواردة فيها مع تحقق مضمونها تعتبر دليلا وثيقاً على ان المبشرين بهـا كانوا يعلمون الغيب وهم اما أنبياء الامم السالفة أو أوصياؤهم .

١٠ ـ ابناء النبى الاكرم (ص) بالغيب :

قال سبحانه: « واذ أسر النبي الى بعض أزواجه حديثاً، فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض، فلما نبأها به ، قالت من أنبأك هذا، قال

نبأنى العليم الخبير » (التحريم - ١٣)

قال الطبرسى ، ان النبي (ص) أسر الى حفصة حديثاً ، أمرها باخفائه، لكن حفصة أخبرت غيرها به ، فأفشت سره (ص) واطلع الله نبيه على ما جرى من افشاء سره فعرف رسول الله (ص) حفصة ببعض ما ذكرت وأفشت ، وأعرض عن بعض ماذكرت فلم يخبر بجميع ماأخبرت به، فسألته عن انه كيف اطلع على اخبارها وافشائها سره فقال: نبأنى العليم الخبير بسرائر الصدور (١)، وهو يدل على ان الله اطلع نبيه على الغيب عن طريق القرآن .

هذه الايات التي مرت حتى الان ذكرت لنا بعض المواضع التي أخبر فيها أنبياء الله عن الغيب، مثل آدم ونوح وابراهيم ويعقوب ويوسف وصالح وداود وسليمان وعيسى وخاتم الانبياء محمد (ص). وهناك آيات قرآنية أخرى دلت على ان أشخاصاً غير الانبياء أيضاً أخبروا عن الغيب، ويتضح من هذا ان موضوع الاطلاع على الغيب لا ينحصر بطبقة الانبياء بل هو فضل الله يخص به من يشاء من عباده الصالحين واليك الان بعض هذه الايات :

١١ - اطلاع مريم على الغيب :

قال سبحانه: « اذ قالت الملائكة يامريم ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيهاً فى الدنيا والاخرة ومن المقربين. ويكلم الناس في المهد وكهلا ومن الصالحين » (آل عمران ٤٥ - ٤٦)

وهل يدخل ادراك مريم بانها سترزق ولداً رغم عدم تزوجها ثم علمها باسمه وخصائص شخصيته الا في قائمة الامور الغيبية ؟

---

(١) مجمع البيان ج ١ ص ٣١٦ .

١٢ ـ الغيب وامرأة ابراهيم :

قال سبحانه: « ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا سلاما ... وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها باسحق ومن وراء اسحق يعقوب. قالت يا ويلتى أءلد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخاً ان هذا لشيء عجيب ، قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت انه حميد مجيد » (هود ٦٩ ـ ٧٣)

اما تعرفت زوجة ابراهيم بان الله تعالى سيرزقها ولداً عند كبر سنها عن طريق الغيب ؟ ان مثل هذه المواضيع التي ينحصر معرفتها عن طريق الملائكة يعرفهاناس ليسوا بأنبياء وهل نستطيع أن نفسر معرفتهم لها عن غير طريق الغيب؟

١٣ ـ الغيب وام موسى

قال سبحانه : « وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولاتحزنى انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين» (القصص ـ ٧) ويظهر من هذه الاية ان أم موسى عرفت عن طريق الغيب مستقبل ولدها وان الله تعالى سيحفظه الى أن يعيده اليها سالماً، فنحن هنا لانجد أى فرق بين اطلاعها على الغيب او اطلاع أحد من الانبياء والاوصياء عليه .

١٤ ـ الغيب وصاحب موسى

هذا صاحب موسى الذى آتاه الله رحمة وعلماً من عنده ، قد أحاط بمالم يحط به موسى (ع) فخرق السفينة ، علماً منه بان وراء السفينة ملكاً يأخذ كل سفينة غصباً ، فخرقها حتى لايرغب فيها ، وقتل غلاماً كان أبواه مؤمنين فخشى أن يرهقهما طغياناً وكفرا وأقام جداراً يريد أن ينقض لعلمه بان تحته كنزاً لغلامين يتيمين وكان أبوهما صالحاً ، فأراد ستره وصيانته عن أعين الناس حتى

يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما ، ثم أسند علمه وعمله هذا الى الله تعالى وقال: « وما فعلته عن أمرى » (الكهف ٦٠ -- ٨٢) .

فدل هذا على ان الله تعالى هو الذي أخبره عن هذه الاسرار الغيبية . والنظرة الموضوعية فى هذه الادلة الكافية من القرآن الكريم لاتدع للباحث مجالا للشك أو التردد فى هذه المسألة .

والحقيقة التى نصل اليها بعد كل هذا : انه لايمكن لمن آمن بالقرآن أن ينفى (علم الغيب) عن البشر لان القرآن أثبت -- كما رأينا -- هذا العلم للانبياء ولغيرهم من بعض الصالحين، وأما الايات القرآنية التى دلت بظاهرها على اختصاص علم الغيب بالله ونفيه عن البشر فقد اوضحناه المقصود منه فلاحظ .

ولا بأس ختاماً للبحث أن نذكر بعض الايات الاخرى التى استدل بها علماؤنا الامامية فى هذا المجال وان كان للمناقشة مجال فى بعضها :

١٥ -- النبى شهيد على الامة

ان النبى (ص) شهيد على الامة بنص القرآن العظيم والشهادة على الشيء فرع العلم به وذلك فى قوله سبحانه « وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » (البقرة -- ١٤٣) وقوله سبحانه « فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا » (النساء -- ٤١) .

وليس المراد من الشهادة فى الايتين وغيرهما الشهادة على صور الاعمال والافعال حتى يكتفى فيه بالحواس العادية والقوى الكامنة فى البدن بل الشهادة على حقائق الاعمال والمعانى القلبية من الكفر والايمان والاخلاص والرياء وغيرها وهى مما لاتكفيه الحواس العادية بل يحتاج الى احساس آخر وراء الاحساس العادى .

١٦ ـ المؤمنون شهداء على المنافقين

مادل على ان الله ورسوله بل المؤمنين يرون عمل المنافقين وذلك فى قوله سبحانه : « يعتذرون اليكم اذا رجعتم اليهم قل لاتعتذروا لن نؤمن لكم قدنبأنا الله من أخباركم وسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » (التوبة ـ ٩٤) .

ونظيره قوله سبحانه « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » (التوبة ـ ١٠٥).

لكن في دلالـة الايتين على تعرف النبي والمؤمنين على الغيب تاملا لان المتبادر فى بادىء النظر من رؤية الاعمال هو شهودها بأنفسها أوشهودها بآثارها ونتائجها والاية الاولى تهدف الى ان العبرة بالعمل لا بالاعتذار عن التقصير وهو لايخفى بعد على الله ورسوله، والمتبادر من الاية الثانية هو ذاك أيضاً لانه عطف على قوله تعالى « خذ من أموالهم صدقة » أى اعملوا لدنياكم وآخرتكم وهو لايخفى على الله ولا على رسولـه ولا على الناس وهو مما تكفى فيـه الحواس الظاهرية ولا يتوقف على العلم بالغيب .

ورؤية الاعمال بهذا المعنى وان كانت لاتختص بالمؤمنين بـل تعم الناس جميعاً غير انه لما كان البحث والحوار في الاية دائراً بين المؤمنين والمنافقين خص الله سبحانه المؤمنين بالذكر وأعرض عن غيرهم .

نعم ربما يستظهر ان المراد من رؤية عملهم هو الوقوف على حقائق الاعمال ومقاصدهم من أعمالهم وهو ممالايمكن الاطلاع عليها من طريق الاثار والنتائج بل يتوقف على ادراك غيبى وعند ذاك يكون المراد من المؤمنين شهداء الاعمال لا كلهم .

* * *

حصيلة البحث

ليس هناك اى مانع من ان يعلـم الله احد اوليائه بشيء من غيبه المكتوم وسره المخفى مما كتمه على غيره وستره عنه، نعم لايجب على كل من اطلع على الغيب ، اعلام الناس به اوالعمل به فلايستلزم العلم بالشيء، العمل به اواخباره الناس بذلك فان هناك مراحل ثلاث مرحلة الاطلاع ، مرحلة العمل ، ومرحلة الاعلام ولكل مقتضيات وشرائط وموانع تجب رعايتها نظير القاضى اذ ليس له الا الحكم على وفق ما سمع واقيمت عنده البينة لاعلى وفق ماعلم. وسيوافيك توضيح هذا الامر عند الاجابة عن التساؤلات الموجودة حول علم الغيب .

ما هو مفاد الايات النافية لعلم الغيب عن النبى

ثم ان هناك ايات تسلب بصراحة العلم بالغيب عن النبى (ص) فما مفادها وكيف يجتمع مفادها مع الايات المثبتة واليك الايات :

١ ـ قل ماكنت بدعاً من الرسل وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم ان أتبع الا ما يوحى الى وما أنا الا نذير مبين » (الاحقاف ـ ٩) .

٢ ـ « قل لاأقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم انى ملك ان أتبع الا ما يوحى الى قل هل يستوى الاعمى والبصير أفلا تتفكرون » (الانعام ـ ٥٠)

٣ ـ « ولااقول لكم عندى خزائن الله ولااعلم الغيب ولااقول انى ملك ولا اقول للذى تزدرى اعينكم لن يؤتيهم الله خيراً الله اعلم بما فى انفسهم انى اذاً لمن الظالمين » (هود ـ ٣١)

٤ ـ « قل لا أملك لنفسي نفعاً ولاضراً الا ماشاء الله، ولو كنت أعلم الغيب لا ستكثرت من الخير وما مسنى السوء ان أنا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون » (الأعراف ـ ١٨٨)

٥ ـ « وممن حولكم من الاعراب منافقون ، ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لاتعلمهم نحن نعلمهم ، سنعذبهم مرتين ثم يردون الى عذاب عظيم » (التوبة ـ ١٠١)

٦ ـ « فان تولوا فقل آذنتكم على سواء ، وان أدرى أقريب أم بعيد ما توعدون » (الانبياء ـ ١٠٩)

٧ ـ « يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لاعلم لنا انك أنت علام الغيوب » (المائدة ـ ١٠٩) .

٨ ـ « ما كان لي من علم بالملا الاعلى اذ يختصمون ان يوحى الى، الانما أنا نذير مبين » (ص ٦٩ ـ ٧٠)

فما مفاد هذه الايات النافية لعلم الغيب عن النبي(ص) بصراحة ازاء مادلت آيات أخرى على وجود علم الغيب عند الانبياء بل عند بعض الصالحين أيضاً وكيف تفسر هذه الايات ؟

الجواب :

ان الوقوف على مفاد هذه الايات النافية، سهل بعد الوقوف على ماذكرناه من ان للنبى ، غير الثابت لله سبحانه وقد اشبعنا الكلام فى هذه المسألة في الجزء الاول وقلنا بان القرآن بينما يثبت فعلا لله سبحانه على وجه الحصر فى مورد ، يثبته لغيره ايضا مثلا بينما يقول : واياك نستعين على وجه الحصرنا فيا طلب العون من غيره سبحانه ، يامر بالاستعانة بالصبر و الصلاة وهما غيره سبحانه حيث يقول : « واستعينوا بالصبر والصلاة » (البقرة ـ ٤٥) .

فبينما يقول : الله يتوفى الا نفس حين موتها (الزمر ـ ٤٢) ويجعل التوفى فعلا مختصا بالله سبحانه ، يثبته لغيره كالملائكة حيث يقول : « الذين تتوفاهم الملائكة » (النحل ـ ٣٢) .

الى غير ذلك من الموارد الكثيرة التى بينما ينسب فيه الفعل اليه سبحانه على وجه الحصر، ينسب الى غيره ايضا والحل فى الجميع واحد وهو ان اللائق بساحته الاقدس والمنسوب اليه سبحانه ، غير الثابت لغيره ، فالثابت هو الفعل الاستقلالى غير المتكىء على احد، الا ذاته سبحانه، والمنفى عن عباده هو ذاك الفعل الاستقلالي اوالثابت لهم هوالفعل التبعي القائم بالله سبحانه، وبالوقوف على ماذكرناه ينفتح عليك باب من ابواب معرفة الذكر الحكيم وقد اوعزنا الى

ذلك الامر في هذه الموسوعة غير مرة (١) .

ولاجل ايضاح مفاد هـذا الايات النافية ، نبحث عن كل واحدة ، مستقلا ليتضح الحق باجلى مظاهره فنقول :

اما الاية الاولى : فهي مكونة من أربع فقرات، ولمعرفة دلالةالاية بصورة صحيحة لابد من معرفة دلالة كل فقرة من هذه الفقرات الاربع المكونة للايـة بشكل كامل وهذه الفقرات هي :

١ ـ « قل ماكنت بدعاً من الرسل » .

٢ ـ « وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم » .

٣ ـ « ان اتبع الا ما يوحى الى » .

٤ ـ « وما أنا الا نذير مبين » .

تشير الفقرة الاولى الى خطأ المشركين فى ظنهم بان النبي (ص) يجب أن يستثنى من سائر البشر العاديين ، ولا يشابههم في عاداتهم من أكل وشرب ونوم وماشاكل ذلك وكانوا يقولون لـو كان محمد نبياً حقاً لما كان مثل الناس يأكل الطعام ويمشى في الاسواق ، فلا يمكن أن يكون نبياً ـ حسب زعمهم ـ الا أن يتنزه من تلكم الصفات الموجودة في البشر عادة ، وقد اشار القرآنالى زعمهم بقوله: «مالهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى في الاسواق» (الفرقان ـ ٧)

وقد كشف القرآن عن خطأهم في هذه الفقرة من الاية حيث قال : « قل ماكنت بدعاً من الرسل » ومعناها ان هذا النبي الجديد لا يختلف عـن الانبياء السابقين في هذه الصفات البشرية من أكل طعام ومشي فى الاسواق ، وهـذه الصفات ليست أمراً جديداً في هذا النبي بل انها صفاتدائمة لكل نبي بعثه الله تعالى .

---

(١) لاحظ الجزء الاول ص ٣٦٢ ـ ٣٦٤ .

كما كشف في سورة الفرقان ايضاً وقال سبحانه: «وما أرسلنا قبلك من المرسلين الا انهم ليأكلون الطعام ويمشون في الاسواق» (الفرقان ـ ٢٠)

ويفهم من هاتين الايتين ان المشركين كانوا يتوقعون من النبي (ص) أموراً هي فوق طبيعة البشر، حيث زعموا عدم اجتماع النبوة مع أكل الطعام والمشى فى الاسواق.

بل كانوا معتقدين بلزوم وجود قدرة غير متناهية عند النبي المبعوث يختلف بها عن غيره من البشر، وبذلك انتظروا من النبي (ص) أن يعلم الغيب ذاتياً دون ارتباط بالله تعالى، يعلمه وكأن الامر قد فوض اليه.

ان الله تبارك وتعالى خاطب نبيه مبطلا هذا الزعم بقوله: «وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم» أي قل لهم يا محمد اننى بشر ولا يستطيع أحد من البشر أن يتنبأ بمصيره أو مصائر الاخرين دون الهام من الله تعالى. فالاية الكريمة اذن تنفى ذلك اللون من علم الغيب الذي يتصور بشكل ذاتى، وبصورة تفويض مطلق من غير ارتباط بالله تعالى، وهو الامر الذي طلبه المشركون، وهو لا يصطدم ـ أبداً ـ بما أثبتناه نحن من وجود علم الغيب عند الانبياء بتعليم من الله.

ولاجل نقد هذه المزعمة يقول في الفقرة الثالثة: «ان أتبع الا ما يوحى الى» وقد وقفت على ان الوحى أحد الطرق التي يطلع الله بها أنبياءه على الامور الغائبة عن الحس والاشياء الخفية.

ولو كانت الاية الكريمة تريد نفي (علم الغيب) عن النبى (ص) اطلاقاً استقلالا وتبعاً ذاتيا واكتسابياً لكانت الاية مناقضة لنفسها، حيث أثبتت قسماً من الغيب للنبي وهو الغيب الذي يأتى عن طريق الوحى وذلك في الفقرة الثالثة، ولو كانت الفقرة الثالثة من الاية قد جاءت على طريقة الاستثناء لامكننا تصديقه بانها جاءت على وجه الاستثناء ولكنها لم تأت على طريقة الاستثناء كما هو واضح.

فقد اتضح مما ذكرناه ان الفقرة الثانية من الاية لا تنفى عن النبي الا علم

الغيب بشكله الذاتي بينما أثبتت الفقرة الثالثة منها للنبي (ص) علم الغيب عن طريق الوحي بشكله التبعي والفقرة الرابعة من الاية توضح ما وصلنا اليه ايضاً حيث تقول : « وما أنا الا نذير مبين » ومعناها : ان ما ترتقبونة منى من علم غيب ذاتي ليس الا عبثا ، انما انا نبي نذير اخبركم عما اطلع عليه عن طريق الوحي فقط ولا اعرف شيئاً دون تعليم الله تعالى .

اما الاية الثانية اعني قوله سبحانه : « قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم انى ملك ان أتبع الا مايوحى الى» (الانعام- ٥٠) فبالنظر الى ما ذكرناه من التصورات الخاطئة التي حملها المشركون في أذهانهم عن الانبياء ، يتضح مفهوم هذه الاية أيضاً : اذ انهم ترقبوا من النبي (ص) أن يعلم الغيب من عند نفسه ودون سابق ارتباط بالله ولكن الاية ترد عليهم هذا الارتقاب غير الصحيح بقولها : «ولا أعلم الغيب» أي لا أعلم الغيب الا من الله، والفقرة الاخيرة من الاية تدل على ذلك: «ان اتبع الا ما يوحى الى» أى انى عن طريق الوحى أطلع على الغيب .

اما الاية الثالثة اعني قوله سبحانه : « ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول انى ملك » (هود - ٣١)

فغنية عن التوضيح اذ انها لا تختلف عن الاية الثانية لفظا ومفاداً.

اما الاية الرابعة اعني قوله سبحانه : « قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً الا ما شاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ، وما مسنى السوء ان أنا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون » (الاعراف - ١٨٨)

فيتضح مفهومها بملاحظة ما قدمناه حول الاية الاولى حيث انها تبطل ما يحمله المشركون في أذهانهم تجاه النبي (ص) من تصورات خاطئة من قبيل ان النبي (ص) يجب أن يحظى بقدرة فائقة وسلطة عريضة في هذا الكون دون اتصال بالله تعالى، فيجلب - استناداً لهذه القدرة الفائقة - كل خير الى نفسه ويبعد

كل شر مرتقب عنه ، ثم يخبر عن الغيب أيضاً .

فيأمر الله تعالى نبيه أن ينفي عن نفسه أية قدرة أو علم دون الارتباط بالله تعالى والاستمداد منه وذلك تفنيداً لمزاعم المشركين الباطلة .

وتأتي جملة : « الا ما شاء الله » في الاية الكريمة دليلا آخر على ان الاية ليست في مقام نفي القدرة والعلم عن النبي (ص) بصورة مطلقة ، بل انها نفت عنه (ص) ذلك اللون من العلم والقدرة اللذين يتصور، ان النبي واجد لهما استقلالا وبصورة التفويض . ولاجل ذلك فالاية لم تنف عن النبي (ص) العلم والقدرة اللذين يقتبسهما من الله ، بل أثبتت ذلك له حسب الاستثناء الوارد في قوله تعالى : « الا ما شاء الله » .

وبالتالي يتضح لنا مفهوم الفقرة الاخرى من الاية وهي قوله: « لو كنت أعلم الغيب الخ » .

ومعناها : لو كنت أعلم الغيب دون الهام من الله تعالى لحصلت على الخير الكثير ودفعت عن نفسي الشر الكثير ، ولكن لا أستطيع ذلك لان علم الغيب ليس وصفاً ذاتياً لي ، بل هو فيض من الله، يعطيني ذلك حين يشاء، وفي جانب قدرة التصرف في هذا الكون أحظى بمقدار مايشاء.

اما الاية الخامسة اعني قوله سبحانه: « وممن حولكم من الاعرب منافقون و من أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون الى عذاب عظيم » (التوبة ـ ١٠١)

فالاية الكريمة وان كانت تدل ـ بحكم كلمة « لا تعلمهم » ـ على وجود منافقين في المدينة لاخبر للنبي (ص) عنهم وهو لا يتفق مع ما يدعى له (ص) من علم الغيب ؟ الا ان الاية لاتدل على أكثر من نفي العلم عن النبي بالنسبة

للمنافقين في ظرف نزول الاية فقط، ولا يعنى هذا ، نفي العلم عن النبي (ص) تجاه المنافقين في كل الظروف والاحوال، ولا شك في أن الله تعالى أخفى عن نبيه بعض الحوادث عند وقوعها، وكان منها وضع المنافقين المؤسف في المدينة لما يحمل في طياته من ألم عميق للنبي (ص). ولكن هذا الامر يختلف عن أن نقول : ان الله أخفى عن نبيه أحوال المنافقين حتى آخر عمره .

وثانياً : في الوقت الذي يخاطب الله نبيه بقوله : « لا تعلمهم » في مورد المنافقين، يخاطبه في موضع آخر بقوله: « ولو نشاء لاريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم » (محمد ـ ٣٠) فهذه الاية الثانية تعرفنا امكان معرفة النبي للمنافقين عن طريق أقوالهم .

وثالثا : لم يكن المنافقون مجهولين للنبي (ص) دائماً كيف وقد عرفهم القرآن بذكر الاوصاف المختلفة لهم كما في الاية التالية : « واذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وان يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة ، يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون » (المنافقون ـ ٤)

لقد وصفوا في هذه الاية بالاوصاف التالية :

١ ـ اعطوا بسطة في الجسم .

٢ ـ يمثلون في ظاهرهم الحق والدين .

٣ ـ انهم كالخشب المسندة التي أسندت الى جدار (١) .

وهناك آيات أخرى تعرف المنافقين في نفس هذه السورة (المنافقون) وهي ظاهرة لمن نظر اليها بدقة بل كشف النقاب عن المنافقين وعرفهم بصورة واضحة في سورة التوبة بقوله سبحانه : « ولا يأتون الصلوة الا وهم كسالى ولا ينفقون

(١) والمقصود من هذا التشبيه : ان آيات القرآن وكلمات النبى (ص) الحكيمة لم تؤثر فيهم الاثر الحسن المطلوب ، ولم يظهر منهم أى رد فعل ايجابى تجاه تلكم الاقوال الهادية ، فهم كالخشب المسندة أجسام لاروح فيها .

الا وهم كارهون » (التوبة ـ ٥٤)، وهكذا سائر الايات الواردة في هذه السورة.

ورابعاً : ان الله يأمر نبيه بمحاربة الكفار والمنافقين وعدم اتباع أقوالهم كما في قوله :

١ ـ « يأيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم » (التوبة ـ ٧٣)

٢ ـ « ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله » (الاحزاب ـ ٤٨)

فهل يمكن أن يأمر الله نبيه محمد (ص) بجهاد المنافقين والغلظة عليهم ثم لا يعرفهم له طيلة عمره (ص)؟ ان هذه الايات تدل ـ على سبيل الملازمة ـ على ان كتمان أمر بعض المنافقين عن النبى (ص) لم يك بصورة دائمية وانما كان حكماً مؤقتاً .

ويخاطب الله نبيه أيضاً بقوله: « ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره، انهم كفروا بالله ورسوله » (التوبة ـ ٨٤)، والاية نازلة في حق المنافقين ان هذه الايات وغيرها تحكى لنا معرفة النبي (ص) بالمنافقين ، ولم يكن النبي وحده الذي يعرف المنافقين بل كان قد أودع أسمائهم وأوصافهم عند (حذيفة)(١) الصحابي الشهير . ومن هنا كان الخليفة الثاني لا يصلي على أحد يشك في نفاقه الا أن يسأل حذيفة عنه ، وهذا أمر مذكور في سيرة النبي (ص) وتاريخ الخلفاء والصحابة من بعده .

---

(١) راجع (أسد الغابة) ١/ ٣٩١ وسائر الكتب التى تترجم الصحابة ونص كلام (أسد الغابة) كما يلى : « وحذيفة صاحب سر رسول الله (ص) فى المنافقين لم يعلمهم أحداً الا حذيفة أعلمه لهم رسول الله (ص) وسأله عمر : أفى عمالى أحد من المنافقين: قال نعم أحد قال من هو ؟ قال لاأذكره ، قال حذيفة فعزله كأنما دل عليه ، كان (عمر بن الخطاب) اذا مات ميت يسأل عن حذيفة فان حضر الصلاة عليه صلى عليه وان لم يحضر حذيفة الصلاة عليه لم يحضره عمر .

اما الاية السادسة اعني قوله سبحانه : « فان تولوا فقل آذنتكم على سواء ، وان أدرى أقريب ام بعيد ما توعدون » (الانبياء ـ ١٠٨)

فالجواب عن الاستدلال بها واضح اذ البحث في أصل ثبوت علم الغيب للنبي والامام لا فى المقدار الذي يتحمله صدر النبي أو الامام من علم الغيب.

واذا كان النبي (ص) قد نفى في موضع ما عن نفسه علم الغيب فان ذلك لا يتنافى أبداً مع ما نحن فيه من اثبات علم الغيب له . وهناك نقطة جديرة بالذكر في هذه الاية وهي :

ان النبي (ص) حين ينفي عن نفسه علم الغيب هنا فهو ينفيه عن موضوع يختص علمه بالله تعالى وذلك هو يوم القيامة ووقت تحقق الوعد والوعيد اللذين أنذر بهما عباده. وسيوافيك ان العلم بالساعة وبموعد القيامة من الموضع او المواضيع التي خص الله به نفسه ولم يطلع عليها أحداً، والايات القرآنية في هذا الموضوع صريحة الى حد لا يمكن تصور خلافها ، ولا مانع أن يخبر الله نبيه عما مضى ويأتي من الحوادث ولكنه يخص علم الساعة لنفسه واليكم بعض الايات القرآنية التي صرحت بان علم الساعة من مختصاته تعالى :

١ ـ «يسألونك عن الساعة أيان مرساها، قل انما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها الا هو » (الاعراف ـ ١٨٧)

٢ ـ « ان الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى » (طه ـ ١٥)

٣ ـ « ان الله عنده علم الساعة » (لقمان ـ ٣٤)

٤ ـ « يسألك الناس عن الساعة قل انما علمها عند الله وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً » (الاحزاب ـ ٦٣)

٥ ـ « اليه يرد علم الساعة » (فصلت ـ ٤٧)

٦ ـ « وعنده علم الساعة واليه ترجعون » (الزخرف ـ ٨٥)

دلت هذه الايات بصورة واضحة على ان علم الساعة مما استاثر الله بعلمها

لحكمة يعلمها سبحانه وعدم اطلاع النبي على وقت الساعة لا يستلزم أبداً عدم اطلاعه على أمور أخرى ولكل الاشياء .

ولقد ورد هذا المعنى أيضاً في آية أخرى من سورة الجن قال سبحانه: «حتى اذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصراً وأقل عدداً، قل ان أدري أقريب ما توعدون أم يجعل له ربي أمداً ، عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً الا من ارتضى من رسول » (الجن ٢٤ ـ ٢٧)

ان النبي (ص) ـ في هذه الايات كما نرى ـ ينفي عن نفسه العلم بموعد القيامة لان العلم بذلك من مختصاته سبحانه كما تصرح هذه الايات .

واما الاية السابعة اعني قوله : « يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم ، قالوا لا علم لنا انك أنت علام الغيوب » (المائدة ـ ١٠٩) فقد استدل بها على نفي علم الغيب عن الانبياء لانهم ينفون عن أنفسهم هنا أي شكل من أشكال الغيب ويصفون الله بانه «علام الغيوب» ولكن الاجابة عن الاستدلال واضحة بعد معرفة موارد استعمال « لا » النافية للجنس، فانها وان كانت لنفي الجنس ولكنها تأتي على وجهين :

١ ـ نفي الجنس حقيقة وبصورة واقعية مثل قولنا: « لا اله الا الله »، وقوله سبحانه: « ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين» (الانعام ـ ٥٩)، وقولنا: « لا رجل في الدار » حين لا يوجد رجل في الدار ، صغيراً كان أم كبيراً ، صحيحاً أم سقيما .

٢ ـ نفي الجنس على سبيل التجوز فتقول : « لا أحد هنا » حين يطرق الباب طارق فيسأل هل يوجد أحد هنا ؟ فرغم وجود شيخ كبير ، أو انسان لا طاقة له على الحركة في الدار، ولكنك تنفي وجود أحد في الدار مجازاً لان ذلك الشيخ الكبير أو المريض لا يفيدان السائل بشيء فاعتبرت وجودهما ، كالعدم بالنسبة الى السائل فنفيت الجنس مجازاً . ومن هذا القبيل كلمات الامام

أمير المؤمنين (ع) التي خاطب بها أصحابه المتخاذلين، والذين كانوا يجعلون من الحر والبرد وسيلة للتقاعس عن ساحة الحرب والجلوس عن مجاهدة البغاة معاوية وأمثاله . حيث قال : يا اشباه الرجل ولا رجال (١) . ونظيره قوله (ع) «لاصلاة لجار المسجد الا في المسجد». والاية الكريمة من هذا القبيل فان الانبياء حين مايقيسون علمهم المحدود الاكتسابي الى علم الله تعالى اللامحدود واللامتناهي والذاتي ، يرون ضئالة ما عندهم من العلم تجاه ما عند الله تعالى ، حتى العلم المحدود الموجود عندهم الذى هو مظهر من مظاهر فيوضاته تعالى عليهم، وعند ذاك ينفون عن أنفسهم العلم أمام المولى خضوعاً وتسليما ويقولون : « لا علم لنا انك أنت علام الغيوب » ويدل على ما ذكرناه من التفسير وجوه :

١ ـ ان الايات الواردة في موضوع شهادة النبي والشهداء الاخرين تصرح بان الانبياء سوف يدعون في الاخرة لاداء الشهادة قال سبحانه: « ووضع الكتاب وجيىء بالنبيين و الشهداء » (الزمر ـ ٦٩) وهل يمكن أن يشهد لانبياء و الشهداء الاخرون في المحكمة الالهية العادلة دون علمهم بشيء من أحوال المشهود عليهم . ان آيات الشهادة في القرآن وخاصة قوله سبحانه : « وجئنا بك على هؤلاء شهيدا » (النساء ـ ٤١) وقوله سبحانه : « ويوم يقوم الاشهاد » (غافر ـ ٥١) تدفعنا الى ان المراد من قوله سبحانه : « لاعلم لنا » عن لسان الانبياء يوم القيامة هو ما قدمناه من التفسير .

٢ ـ ان سلب العلم عن الانبياء لاحوال امتهم على وجه الاطلاق يتنافى مع ما يحكيه الله تعالى عن لسان نبيه يوم القيامة وذلك عند تجمع الانبياء وقيام المحكمة الالهية العادلة في قوله تعالى: « وقال الرسول يارب ان قومي اتخذوا هذا القرآن مجهوراً » (الفرقان ـ ٣٠) وسياق الايات الاخر مثل قوله سبحانه:

(١) نهج البلاغة الخطبة ٢٦ طبع عبده .

« ويوم يعض الظالم على يديه » (الفرقان ـ ٢٧) يوضح ان شكوى النبي (ص) على قومه تكون يوم القيامة .

٣ ـ كيف يمكن نسبة عدم العلم الى الانبياء يوم القيامة بصورة كلية وهم الذين يعرفون المحسنين والمسيئين على الاعراف بسيماهم كما يقول القرآن : « وعلى الاعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم » (الاعراف ـ ٤٦) . ثم ان نبياً ينزل عليه الوحى فيخبره عن غـدر الوليد (١) وخيانته في قضية مشهورة ، أو تنزل عليه آيات قرآنية في كشف حقيقه أبي لهب، أقول ان نبياً بهذه المنزلة هل يمكن أن يقول يوم القيامة : « لا علم لنا » على سبيل الحقيقة ؟ دون قصد أهداف أخرى من هذا الكلام وهو الخضوع أمام عظمة المولى جل شأنه .

ان هذه الوجوه تشير الى الحقيقة التي قدمناها الان وهي : ان الهدف من هذا النفى في قوله تعالى : « لا علم لنا » ليس الا التأدب أمام المولى واستعمال كل أسلوب يدل على الخضوع التام أمام علم الله اللامتناهى، وليس المراد به نفي العلم عن الانبياء على سبيل الحقيقة والواقع.

٤ ـ يصرح القرآن بتوجيه السؤال يوم القيامة الى كل من الانبياء والامم فيقول : « فلنسألن الذيـن أرسل اليهم ولنسألن المرسلين » (الاعراف ـ ٦) . و دلت آيـات أخرى مـن القرآن على علم المجرمين و العاصيـن باحوالهم الماضية في الدنيا وما تجره في ذلك اليوم اليهم من آلام ، حيث يبدون أسفهم على ماقدموا وتكون كلمة (ليت ولعل) طوع ألسنتهم يقول تعالى: «ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا» (الفرقان ـ ٢٧) «ياويلتا ليتنى لم أتخذ فلاناً خليلا» (الفرقان ـ ٢٨) « فارجعنا نعمل صالحاً انا موقنون » (السجدة ـ ١٢) .

ترى كم يملك نصيباً من الصحة القول : بان الامة تعلم يومذاك عن مرارة أوضاعها وسوء مصائرها فتطرق برؤوسها متمنية العودة الى الحياة الدنيا لتستأنف

(١) الحجرات ـ ٦ ولاحظ ما ورد حولها من الاخبار فى التفاسير.

العمل في حين ينفى الانبياء ـ الذين عاصروا أممهم فترات طويلة من الزمن ـ عن أنفسهم يوم القيامة أى لون من ألوان العلم على سبيل الحقيقة ؟

وبالنظر لكل ماقدمناه يتضح مفهوم الاية ونعلم جيداً انها لاتختلف أبداً عن الايات التى تثبت علم الغيب للنبي (ص) .

واما الاية الثامنة اعني قوله سبحانه: «ماكان لي من علم بالملا الاعلى اذ يختصمون ان يوحى الى الا انما أنا نذير مبين » (ص ٦٩ ـ ٧٠) المراد من الخصومة في الاية هي خصومة الملائكة في موضوع خلق الانسان وقد جاءت واضحة في سورة البقرة ضمن الاية (٣٠ ـ ٣٣) .

ويؤيد كون المراد من الخصومة ذلك ، قوله سبحانه بعد الايتين : اذ قال ربك للملائكة اني خالق بشراً من طين. فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين (ص ٧١ ـ ٧٢) هذا وان التعرف على مفاد الاية يتوقف على الاطلاع على موارد استعمال لفظة (ما كان) في القرآن الكريم وكيفية استعمالها قال سبحانه :

١ ـ « وما كان الله ليضيع ايمانكم ان الله بالناس لروؤف رحيم » (البقرة ـ ١٤٣) .

٢ ـ « ما كان لبشر أن يوتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لى » (آل عمران ـ ٧٩) .

٣ ـ « وما كان لنفس أن تموت الا باذن الله » (آل عمران ـ ١٤٥) .

٤ ـ «ماكان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الارض» (الانفال ـ ٦٧).

٥ ـ « ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله » (التوبة ـ ١٧) .

٦ ـ « وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله » (يونس ـ ٣٧) .

٧ ـ « وما كان لرسول أن يأتى بآية الا باذن الله » (الرعد ـ ٣٨) .

ان التعمق في هذه الايات ونظائرها يعطى ان الهدف من هذا النفى هو نفى

الاقتضاء الذاتي لمضمون الجملة ومعناه ان الموضوع لايقتضي مثل هذا الامر ذاتياً ، ولكن مثل هذا النفي ينقسم الى قسمين :

١ ـ النفي الابدي حيث لايحتمل التغيير والخلاف في موضوعه ابداً مثل قوله تعالى: «وما كان الله ليضيع ايمانكم»، فليس من شأن الله تضييع جزاء الاعمال لان تضييع جزاء الاعمال لون من الوان الظلم وتخلف عن الوعد وهو منزه عنهما.

٢ ـ النفي غير الابدي : وهو ما يمكن تغيير موضوعه أو مضمونه في ظل عنوان آخر كما في الاية التالية : « وما كان لرسول أن يأتي بآية الا باذن الله » (الرعد ـ ٣٨) .

والهدف من هذه الاية هو : ان أي رسول من قبل الله لايملك القدرة على الاتيان بمعجزة ، ولكن عدم تمكن الرسول من نفسه لايعني عدم تمكنه على الاتيان بالمعجزة على الاطلاق فان ذلك ممكن له في اظلال قدرة الله تعالى.

اذا وقفت على ماذكرناه يتضح لك مفهوم الاية المبحوث عنها، انها تقول: ما كان لي من علم من جانب نفسي وذاتي بالخصومة التي وقعت بالملا الاعلى، وهذا العلم الذاتي ليس من شأن البشر .

ولكن هذا لايدل على عدم العلم على الاطلاق، ليشمل عدم علمه عن طريق الوحي أيضاً أو في المستقبل مثلا ، وأحسن دليل على هذا الموضوع هو الاية التالية لها حيث تقول : (ان يوحى الى الا انما أنا نذير مبين) فتدل الاية على ان ترقب علم الغيب الذاتي من النبي (ص) حيث، انما هو نذير ، لايوجد عند نذير مثله مايتوقعون ولايمكنه الاطلاع على الغيب بغير ايحاء منه سبحانه ولكنه لا يمنع من اطلاعه عليه عن طريق الكسب كما تقدم ، وكونه نذيراً لايمنع أن يطلعه الله على بعض الامور الغيبية التي تعزز هدفه، وتؤيده في الطريق، حيث يتمكن بواسطة بث الامور الغيبية للناس ادخال خوف الله الى قلوبهم فيكون نذيراً حقاً.

واذا كان النبي (ص) قد نفى عن نفسه في هذا الموضع العلم بخصومة الملا الاعلى، نجده (ص) في مواضع أخرى من القرآن يذكر هذه الخصومة بصورة تفصيلية ألا يدل ذلك النفى وهذا الاثبات على ما قلناه من ان هدف النفى في الموضع الأول هو نفى العلم الاستقلالى عن نفسه لاالتبعي ؟

تساؤلات حول علم النبى بالغيب

السؤال الاول :

ان علمه سبحانه بالاشياء وان كان مطلقاً ومرسلا غير محدود وذاتياً له غير مفاض، على مادلت عليه البراهين الكلامية والفلسفية الا ان ذلك لايصحح حمل الايات على هذه المعاني البعيدة عن مستوى الافهام ، وكون علمه سبحانه عين ذاته وعلم غيره زائداً عليها أمر معلوم من الخارج ولا يكون مثل هذا العلم كقرينة على تفسير مادل على اختصاص العلم بالغيب له سبحانه، فكيف تحمل هذه الايات على العلم الذاتي ، المحيط بكل شيىء ، المرسل عن كل شيىء ؟ !

الجواب : ان من لاحظ سياق الايات، والقرائن الحافة بها، وسبر التاريخ والحديث يقف على ان المتبادر من « العلم بالغيب » في عصر الرسالة وبعده كان هو العلم الذاتي لا العرضي ولا جل ذلك كان الائمة من أهل البيت مع ما اخبروا من المغيبات ما لا يحصى يتحاشون عن توصيفهم بانهم عالمون بالغيب ناسبين علومهم ومعارفهم وما يخبرون به من ملاحم وأحداث وفتن، الى التعلم من ذي علم (١) والوارثة من الرسول (٢) ويصف هشام بن الحكم الامام الصادق وهو من اكابر اصحابه ، بانه يخبرنا باخبار السماء وراثة عن أب وجد ، وهذا أقوى دليل على ان المتبادر في عصر الرسالة وبعده، من العلم بالغيب هو القسم اللائق بساحته سبحانه .

---

(١) نهج البلاغة خطبة ١٢٤ وسيوافيك لفظ الامام .

(٢) كما فى الحديث عن الامام الطاهر موسى الكاظم (ع) وسيوافيك لفظه .

وكون العلم اكتسابياً أو غير اكتسابي ليس من المفاهيم الغامضة التي لا ينقدح في الافهام الوسطى فضلا عن العليا، فان الانسان العارف بالله، مهما تنازل وبعد عن المعارف ، يقف على ان هنا موجوداً غنياً من جميع الـذات والغنى نفسه وذاته فوجوده وعلمه وقدرته وحياته ثابت له من دون استناد الى غيرها ، وان هنا موجوداً فقيراً ومخلوقاً لغيره يعتمد في كل كمال وجمال الى خالقه وبارئه ولانعني من الذاتي والاكتسابى غير هذا .

والى ما ذكرنا يشير شيخ الامة الشيخ المفيد رحمه الله بقوله :

« ان الائمة من آل محمد (ص) قد كانوا يعرفون ضمائر بعض العباد، يعرفون مايكون قبل كونه، وليس بواجب في صفاته ولا شرطاً في امامتهم وانما اكرمهم الله تعالى وأعلمهم اياه للطف في طاعتهم والتمسك بامامتهم وليس ذلك بواجب عقلا ولكنه وجب لهم من جهة السماع، فأما اطلاق القول عليهم بأنهم « يعلمون الغيب » ، فهو منكر بين الفساد، لان الوصف بذلك انما يستحقه من علم الاشياء بنفسه، لا بعلم مستفاد وهذا لا يكون الا الله عزوجل وعلى قولى هذا جماعة أهل الامامة الا من شذ عنهم من المفوضة ومن انتمى اليهم من الغلاة (١) .

فالتوفيق بين قوله : « اطلاق القول عليهم بانهم يعلمون الغيب بين الفساد » وقوله (ع) : « بأنهم يعلمون مـا في الضمائر » لا يحصل الا بما ذكرنا ، بل هو صريح كلامه لمن امعن فيه النظر .

قال رشيد الدين محمد بن شهر آشوب (٢) : النبي والامام يجب ان يعلما علوم الدين والشريعة ولا يجب ان يعلما الغيب وماكان وما يكون لان ذلك يؤدي

(١) أوائل المقالات ص ٣٨ .

(٢) أحد اقطاب التفسير والحديث فى القرن السادس توفى عام ٥٨٨ ، وله المناقب وأسباب نزول القرآن ، ومتشابهات القرآن كما صرح به فى معالمه .

الى انهما شاركان للقديم تعالى في جميع معلوماته التي لا تتناهي و انما يجب ان يكونا عالمين لانفسهما (١) ، وقد ثبت انهما عالمان بعلم محدث ، و العلم لا يتعلق على التفصيل الا بمعلوم واحد . ولو علما مالا يتناهي لوجب أن يعلما وجود مالايتناهى من المعلومات وذلك محال، ويجوز ان يعلما الغائبات والكائنات الماضيات أو المستقبلات باعلام الله تعالى لهما شيئاً منها (٢) .

فان الظاهر من كلامه ان الشرك انما يلزم من أمرين : «الاول» القول بعدم تناهي علومهم « الثاني » كون علومهم مستنداً لانفسهما لا باعلام منه سبحانه والمنفي في كلامه هو العلم الذاتي غير المتناهى ، أما والمتناهي المستند الى الله عزوجل فهو ثابت لهم .

* * *

السؤال الثانى :

لو كان النبي عالماً بالغيب بعلم مستفاد ومفاض منه سبحانه لما مسه السوء والشر مع انه كان يمسه السوء بنص منه سبحانه حيث قال : « ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء » (الاعراف ـ ١٨٨) فان الانسان اذا وقف على ان في ركوب أمر خطراً على نفسه وماله ، أو أن في هذا الغذاء سماً لاجتنب عنهما وتركهما بتاتاً سواء أوقف عليهما من جانب نفسه أم باطلاع غيره فمس السوء وفوت الخير، دليلان على عدم اطلاعه على الغيب لا من جانب نفسه ولا من ناحية غيره مطلقاً .

الجواب من وجوه ، الجواب الاول :

ان السؤال موجه اذا قلنا بسعة علم النبي (ص) بعامة الحوادث القادمة مع

(١) كذا فى النسخه والصحيح لا لانفسهما كما هو واضح لمن أمعن النظر .
(٢) متشابهات القرآن ومختلفه ج ١ ص ٢١١ .

تفاصيلها وجزئياتها، وان علمه (ص) بغابر الامور وقادمها غير محدود بشيء من التحديد ، غير كونه علما امكانياً مفاضاً ومستفاداً منه سبحانه ، فعند ذاك يتوجه السؤال وبقال :

بأنه لو كان النبي عالماً بما سيقع من الحوادث كلها ، يجب ان لا يمسه السوء أبداً ويحترز من كل شر، قبل اصابته وأما اذا حددناه بشيء من التحديد وقلنا ان علمه بالحوادث ليس بهذه المثابة كما يدل عليه قوله (ع) : « ان لله علمين: علم مخزون لا يعلمه الا هو، من ذلك يكون البداء، وعلم علمه ملائكته ورسله وأنبيائه فنحن نعلمه » (١)، وقوله (ع): « لولا آية في كتاب الله لحدثتكم بمايكون الى يوم القيامة » فقلت أية آية؟ قال قول الله: « يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » (٢) فالسؤال غير وجيه جداً لانه اذا كان علمه بالحوادث المستقبلة ، محدوداً بشيء من هذه الحدود ، لا ينافيه مس السوء وعدم استكثار الخير في بعض الاحايين ، لامكان ان يكون المورد من العلم المكنون الذى لم يطلع عليه أحد ، أو من الامور التى تحقق فيها البداء بمعناه الصحيح الذي نصت عليه الاحاديث .

روى معمر بن خلاد قال : سأل أبا الحسن (ع) رجل من أهل فارس فقال له : اتعلمون الغيب ؟ فقال : قال ابو جعفر : يبسط لنا العلم فنعلم ، ويقبض عنا فلا نعلم فقال : سر الله عزوجل أسره الى جبرئيل ، وأسره جبرئيل الى محمد وأسره محمد الى من شاء الله (٣)، وبهذا المضمون روايات وأحاديث، واختاره

---

(١) الكافى ج ١ ص ١٤٧ وتضافرت الروايات بهذا المضمون وقد جمعها العلامة المجلسى فى بحاره فى الباب الثانى من كتاب توحيده فراجع ج ٢ ص ٤٧ – ٩٢ .

(٢) بحار الانوار ج ٤ باب البداء والنسخ ص ١١٨ ، الحديث ٥٢ .

(٣) الكافى ج ١ ص ٢٥٦ .

لفيف من مشايخ الامامية (١) .

نعم هذا الجواب ربما لا يلائم ما دلت عليه بعض الاحاديث التي نقلها الكليني في كافيه وعقد له باباً بـ « انهم (ع) يعلمون علم ما كان وما يكون وانه لا يخفى عليهم الشيء » .

غير ان ابداء الرأى القاطع في سعة علومهم واطلاعهم على المغيبات يحتاج الى امعان النظر في أحاديث الباب كلها فانها ليست على صعيد واحد بل تختلف مضامينها وبما ان الاسهاب يوجب الخروج عن الهدف من هذا الفصل فنرجىء البحث عنه الى مقام آخر .

الجواب الثانى :

لو كان علمهم (ع) بالمغيبات علماً بالفعل بحضورها لديهم تفصيلا بدقائقها وتفاصيلها فلا يجتمع ذاك مع مفاد الاية ، وأما اذا قلنا بأن علمهم بالغيب على حسب مشيئتهم بحيث لو شاؤوا علموا ، ولو لم يشاؤوا لم يعلموا (٢) فينقطع الاشكال من أصله فان مثلهم بالنسبة الى الحوادث القادمة (ع) كمثل الذي القى عليه سؤال وبيده كتاب، فيه جوابه لو رجع اليه علم، واذا لم يرجع اليه لم يعلم، أو مثل الفقيه الذي له ملكة الاجتهاد ، واستنباط الاحكام عن أدلتها أو الطبيب البارع الذي له قدرة التشخيص والعلاج ، أو العالم الرياضى القادر على حل المعادلات الجبرية فانهم اذا شاؤوا علموا وأجابوا عن السؤال ، ورفعوا الستار عن مجهولهم بالرجوع الى ملكاتهم العلمية، فلا ينافي عدم استحضارهم جواب

---

(١) كالشيخ الصدوق وامين الاسلام الطبرسى وغيرهما ممن لايقولون بعموم علمهم بكل شيء .

(٢) وقد عقد الكلينى باباً خاصاً لاحاديثه ، غير أن ما رواه فى هذا الباب ضعيف السند لاحظ الكافى ج ١ ص ٢٥٨ .

السؤال، مع امكان اطلاعهم عليه اذا شاؤوا، وعلى ذلك فكل ماأصابهم شر وكل مافاتهم خير فيمكن أن يكون مما لم يشاؤوا أن يعلموه .

قال العلامة الطباطبائي: « قد ورد في بعض الاخبار، وسياق التفسير لسائرها انهم(ع) اذا شاؤوا علموا، واذا لم يشاؤوا لم يعلموا، ويتحصل منه ان لهم بحسب مقام نورانيتهم علماً بالفعل بكل شيء، وأما بحسب الوجود العنصري الدنيوي فهم اذا شاؤوا علموا، بفضل الاتصال بمقام النورانية باذن الله، وأما اذا لم يشاؤوا لم يعلموا .

وعلى هذا يحمل ما ورد في بعض القصص والسير المأثورة عنهم مما ظاهره انهم ما كانوا على علم بما كان يستقبلهم من الحوادث فلاتغفل» (١) .

الجواب الثالث :

ماتفضل به سيدنا العلامة الطباطبائى (رضوان الله عليه) عند ما عرضنا عليه هذا السؤال ، فألف في جوابه رسالة موجزة في ثمان صفحات على القطع الصغير باستدعاء منا ، ونحن نقتطف منه ما يلي بتصرف يسير :

لما كان علمهم (ع) هذا بالحوادث علماً بها بما انها واجبة التحقق، ضرورية الوقوع، لا تقبل بداء، ولا تحتمل تخلفاً ، كما في الاخبار ، فلا تأثير لهذا العلم الذي هذا شأنه في فعل الانسان ، وتوضيحه يكون ببيان أمور:

١ ـ ان من المقرر عقلا ، وقد صدقه الكتاب والسنة ان كل ظاهرة وحادثة تحتاج في تحققها الى علة، ثم ان العلة التي يتوقف عليها وجود الشيء ، تنقسم الى ناقصة وتامة، والتامة منها مايتوقف عليه وجود الشيء ، بحيث يجب وجوده بوجودها ، وعدمه بعدمها ، والناقصة منها ، وان كان يتوقف عليه وجود الشيء أيضاً ، ويجب عدمه بعدمها ، الا انه لا يجب وجود الشيء بوجودها .

(١) عن رسالة خطية له رحمه الله نحتفظ بنسخة منها.

٢ ـ ان الحادثة لا تتحقق الا وهي موجبة بايجاب علتها التامة ومحتمة بحتمية منها، وكذا الكلام في علتها حتى ينتهي الى الواجب بالذات تبارك وتعالى. فالعالم مؤلف من سلسلة من الحوادث ، كل حلقة من حلقاتها واجبة الوجود ، بعلة تسبقها وان كانت ممكنة بالقياس الى أحد أجزاء علتها العرضية أو أحد عللها الطولية .

٣ ـ هذه الوجوبات المترتبة، الواقعة في سلسلة الحوادث هي نظام القضاء الحتمي الذي ينسبه الله سبحانه الى نفسه ويقول: «ليقضي الله أمراً كان مفعولا» (الانفال ـ ٤٢) ، وقال : « وكان أمراً مقضيا » (مريم ـ ٢١) .

٤ ـ ان للعلم أثراً في انتخاب أحد الامرين من الفعل والترك وجلب النفع ودفع الضرر ، فالانسان الفاعل بالعلم والارادة ، انما يقصد ما علم انه يفيده ، ويهرب مما علم انه يضره ، فللعلم تأثير في انتخاب أحد الفعلين و في فعل شيء أو تركه .

٥ ـ علم الانسان بالخير والنفع وكذا علمه بالشر والضرر في الحوادث المستقبلة انما يؤثر اذا تعلق بأمر ممكن غير مقضى ، وذلك مثل ان يعلم الانسان انه لو حضر مكاناً كذا ، في ساعة كذا، من يوم كذا ، قتل قطعاً ، فلهذا العلم تأثير خاص في ترك الحضور في المكان المعين، تحرزاً من القتل، وأما اذا تعلق العلم بالضرر مثلا من جهة كونه ضروري الوقوع واجب التحقق، كما اذا علم انه في مكان كذا، ساعة كذا، من يوم كذا، مقتول لا محالة بحيث لا ينفع في دفع القتل عنه عمل ، ولا تحول دونه حيلة ، فان مثل هذا العلم ، لا يؤثر في الانسان شيئا ولا يبعثه الى نوع من التحرز و الاتقاء لفرض علمه بانه لا ينفع فيه شيء من العمل فهذا الانسان مع علمه بالضرر المستقبل، يجري في العمل مجرى الجاهل بالضرر .

اذا علمت ذلك ثم راجعت الاخبار الناصة على ان الذي علمهم الله تعالى

من العلم بالحوادث التى، لابداء فيه ولاتخلف، ظهرلك اندفاع ما اورد على القول بعلمهم بعامة الحوادث، من انه لوكان لهم علم بذلك لاحترزوا مما وقعوا فيه من الشر، كالشهادة قتلا بالسيف أو بالسم، لحرمة القاء النفس في التهلكة.

وجه الاندفاع انعلمهم بالحوادث علم بهامن جهة ضرورتها كما هوصريح نفي البداء عن علمهم (١) والعلم الذي هذا شأنه لا أثر له في فعل الانسان ببعثه الى نوع من التحرز، واذا كان الشر بحيث لا يقبل الدفع بوجه من الوجوه، فالابتلاء به وقوع في التهلكة لا القاء فيها قال تعالى: «قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم» (آل عمران ـ ١٥٤)

ولما كان ما ذكره في مقام الاجابة موجزاً كمال الايجاز أوضحنا ما أفاده بأمرين:

١ ـ ما سمعناه منه رضوان الله شفاها.

٢ ـ ماحرره بقلمه حول السؤال في رسالة فارسية فها نحن نقدم ماسمعناه منه شفاها ثم نتبعه بما جاء في رسالته الخاصة.

اما الاول فنقول:

ان علم النبي بالمغيبات لوكان من عند نفسه يجب ان يكون مستندا الى امارات وقرائن تثير فى نفسه القطع والعلم بانه لو شرب هذا السم يهلك قطعا فالعلم في هذا القسم يتعلق بقضية شرطية، بحيث لو تحقق الشرط لتحقق الجزاء فاذا وقف الانسان على علم هذا شانه، لاحترز عن اقترافه بحكم الغريزة الانسانية وليدفع عن نفسه السوء والشر، فأصبح خلواً من كل مكروه.

---

(١) يشير رحمه‌الله الى ما روى عن أبى جعفر (ع) العلم علمان فعلم مخزون لم يطلع عليه احداً من خلقه، وعلم علمه ملائكته ورسله فما علمه ملائكته ورسله، فانه سيكون لا يكذب نفسه ولا ملائكته ولا رسله، وعلم مخزون يقدم منه مايشاء ويؤخرمنه مايشاء ويثبت ما يشاء، الكافى باب البداء ج ١ ص ١٤٨.

وان شئت قلت ان العلم في هـذا النوع يتعلق بالحوادث من جهة امكانها لامن جهة ضرورتها ، كما مثل به رحمه‌الله « من انه لو حضر مكانا كذا، في ساعة كذا من يوم كذا، لقتل » وعند ذاك يختار ترك الحضور أخذاً بواحد من طرفى الامكان وهو الذي فيه نجاته ونجاحه .

واما اذا كان علمه (ص) مفاضا ومستفاداً من جانبه سبحانه فبما ان ماعلمهم الله لابداء فيه ولا تخلف ، وهو مما يتحقق قطعا فلا محالة يسير النبي حسب ما اوحى‌الله اليه ولا يقدر ان يتخلف عنه قدرشعرة فيصيبه من‌الخير والشر ماقضي عليه بضرورة والى ذلك يشير قوله سبحانه: « قل لو كنت اعلم الغيب » من‌عند نفسي « لاستكثرت مـن الخير » واخترت انفع الامور واصلحها « ومـا مسني السوء » واحترزت عن‌اقتراف المضار، بحكم الغريزة الانسانية التي تدعوالى صيانة النفس عمايضرها ويؤذيها «ان اتبع الا ما يوحى» فأسير، حسب ماأوحى الى ، وهو ليس خبرا يقبل‌الكذب او الخطأ، بل هوخبر قطعى الثبوت‌فيصيبني من الخير والشر ما قضى وقدر (١) .

وعلى ذلك ، لايكون، مس‌السوء دليلا على عدم علمه بالغيب ، فانه لااثر للعلم وعدمه في هذا النوع فى الاجتناب والاتقاء .

غير ان القارىء الكريم بعد ما امعن النظر فى هذا الجواب يجب عليه ان يلاحظ امرين :

١ ـ ان العلم العادي كما يمكن ان يتعلق بالقضية من ناحية امكانها ـ فيصح فعل الشيء وتركه ـ كذلك يمكن ان يتعلق بها من‌جهة ضرورتها، كأن ينكشف له باحد الاسباب بانه يموت في وقت كذا، ويهلك في‌زمن كذا فلا ينحصر العلم غير المفاض على قسم واحد ولعله رحمه الله يلتزم بذلك.

٢ ـ ان القول بان علمهم بالحوادث مما لابداء فيه ولا تخلف، وان دلت

(١) ما اوضحناه به كلامه ، سمعناه منه شفاهاً .

عليه بعض الاحاديث ولكن يظهر من كثير منها وقوع البداء في ما وصل اليهم علمه ايضاً .

ثم ان الاستاذ عمل رسالة خاصة باللغة الفارسية قد اوضح فيها ماقصده من الجواب ونحن نقتطف منها ما يمس بالمقام .

١ ـ ان علم الامام الخاص ليس له أثر في أعماله ولا يرتبط بتكاليفه الخاصة لان كل شيء تعلق به القضاء الحتمي ، وكان ضروري الوقوع لايتعلق به الامر والنهي ولا الارادة والقصد من تلك الجهة ، نعم يكون هذا الشيء الذي تعلق به القضاء الحتم مورداً لرضا العبد بهذا القضاء الالهي وذلك كما قال الحسين (ع) في اللحظات الاخيرة من حياته وهو صريع على الارض ، مضمخ بالدم: «رضى بقضاءك وتسليماً لامرك لامعبود سواك » وكما قال (ع) حين أراد الخروج من مكة : « رضا الله رضانا أهل البيت الخ » .

٢ ـ من الممكن أن يتصور البعض ان العلم القطعي بالحوادث التي لاتقبل التغيير والتبديل يستلزم القول بالجبر في الافعال ، فلوفرض ان الامام (ع) علم ان شخصاً معينا سيقتله في ظرف معين ، بحيث لايقبل هذا الحدث التغيير أبداً، فلازم هذا الفرض أن لايكون للقاتل اختيار على ترك القتل ، فهو اذن مجبور على قتل هذا الامام ، فلا تكليف ولا عقاب حينئذ على هذا القاتل . ولكن هذا التصور باطل لمايلي :

الف ـ ان هذا الاشكال في الواقع ليس الا اشكالا على شمول القضاء الالهي لافعال الانسان الاختيارية أيضاً، وليس هو اشكالا على علم الامام بالغيب، ولاجل ذلك الاشكال منع المعتزلة شمول القضاء الالهي للافعال الاختيارية للانسان زاعمين ان الانسان هو الذي يخلق أفعاله استقلالا وبالتالي فهو خالق لافعاله والله تعالى خالق بقية الاشياء، في حين نجد النص القرآني والاخبار المتواترة

عن النبي (ص) وأهل البيت تعتبر كل الموجودات وكل الحوادث الكونية بلا استثناء مشمولة لقضاء الله وقدره ، كما ان هذا الامر ثابت من طريق العمل أيضاً ، وان كنا لانستطيع بحثه في هذا المقال المختصر لسعة أطرافه .

والذى نستطيع أن نقوله باجمال هو: انه لايوجد شيء في هذا الكون الا بمشيئة الله تعالى واذنه، وحتى أفعال الانسان الاختيارية تعلقت بها المشيئة على أن تصدر بارادة نفس الانسان واختياره، فمثلا : ان الله أراد أن يصدر فعل معين من انسان مخصوص ولكنه تعالى أراد في نفس الوقت صدور هذا الفعل المعين من الانسان المخصوص باختيار من الانسان وارادة، ومن البديهى ان هذا الفعل المعين مع وصفه الخاص ضرورى الوقوع ، رغم انه اختيارى للانسان لانه لو لم يكن اختيارياً لتخلفت ارادته تعالى عن مرادها: « وما تشاؤون الا أن يشاء الله رب العالمين » .

ب ـ ومع غض النظر عما تقدم الآن فان الله تعالى ـ كما نعلم جميعاً ـ خلق لوحاً محفوظاً أثبت فيه جميع الحوادث الماضية والقادمة للعالم ولامجال للتغيير فيه أبداً، فاذا كان علم الله تعالى السابق بهذه الحوادث كما أثبتها اللوح المحفوظ لاتستلزم أن يكون الانسان مجبوراً في أفعاله ، فكيف يكون علم الامام السابق ببعض هذه الحوادث أو بجميعها مستلزماً لان يكون الانسان مجبوراً في أفعاله الاختيارية والتي منها عملية قتل الامام المعينة مثلا ؟

٣ ـ بعض الاعمال التي تصدر من الامام وهي موافقة للاسباب الظاهرية لايمكن أن نعتبرها دليلا على جهل الامام بالواقع وفقدانه لموهبة العلم التي أثبتناها له كأن يقال :

لو كان الحسين (ع) يعلم حقاً مستقبل أمره فلماذا بعث مسلماً الى الكوفة رسولا عنه ؟

ولماذا أرسل مع الصيداوى كتاباً الى أهل الكوفة ؟ ولما خرج من مكة

متوجهاً نحو الكوفة؟ ولماذا ألقى بنفسه في التهلكة؟ والله تعالى يقول «ولاتلقوا بأيديكم الى التهلكة» ولماذا ؟ و . . الخ .

وتتضح الاجابة عن كل علائم الاستفهام هذه بالحقيقة التي ذكرناها قبل لحظات وهي : ان الامام لم يعمل في هذه المواضع ونظائرها الا بالعلم الذى يحصل لديه بالوسائل العادية وعن طريق الادلة والشواهد الظاهرية ، فلم يبذل أى جهد لدفع الخطر الواقعي المعلوم عن نفسه لانه علم ان أى جهد من هذا القبيل هو عبث لان القضاء الحتمى قد تعلق بهذا الامر كما يقول تعالى في سورة آل عمران في شأن اولئك الذين قالوا في حق أصحابهم يوم أحد: «لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا» يقول الله في حقهم «قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم» (آل عمران ـ ١٥٤) .

القسم الثاني من علم الامام ـ العلم العادى :

ان النبي أو الامام من العترة الطاهرة ليسوا الا بشراً حسب نص القرآن الكريم والاعمال التي تصدر من الامام هى كالاعمال التى تصدر من غيره من الناس تستند الى اختياره وعلى أساس علمه العادى، ان الامام كغيره يميز الخير والشر، ومدى النفع والضرر في الاعمال عن طريق الاسباب الطبيعية والوسائل العادية ثم تحدث عنده ارادة العمل الذي يراه صالحاً ونافعاً ، ثم يسعى للقيام به وتحقيقه، فحين تكون العوامل الخارجية مساعدة، ومنسجمة مع بعضها يستطيع تحقيق الامر الذي يريده ، وبغير ذلك يخفق في تحقيق الهدف الذى يريده (وقد مر ان وقوف الامام على جميع الحوادث الجزئية مامضى منها وما يأتى باذن الله لا تؤثر في مجرى أعماله الاختيارية) ان الامام كسائر الناس العاديين عند الله وهو مثلهم مكلف بالتكاليف الدينية من قبل الله تعالى ونظراً لمنصبه القيادى الذى أعطى من قبل الله يجب عليه أن يعمل بتكاليفه المقررة عليه من قبل الله كامام، وفقاً للموازين

العادية للبشر ، ويبذل كل ما في وسعه لاحياء كلمة الحق واقامة منهج الدين والعدل » .

* * *

الجواب الرابع :

ان الانبياء والائمة مع تميزهم عن الغير بشخصاتهم الربانية وقوة الولاية التي منحت لهم (ذلك ان شطراً من شخصياتهم قائمة على المواهب الالهية والشطر الاخر حصل نتيجة الجهود التي بذلوها للقرب من المولى تعالى) انهم مع ذلك كانوا يعملون وفقاً لعلومهم العادية حيث يواجهون حوادث الحياة المختلفة ، على صعيد شخص، أوعلى صعيد اجتماعي كمسائل القضاء والحكم بين الناس مثلا ، انهم مع علمهم الكامل بالحوادث الجزئية في ظلال موهبة الولاية ، ومعرفتهم بعلل الحوادث وتفاصيلها لارتباطهم بماوراء الطبيعة أقول : انهم مع ذلك لم يستفيدوا من علومهم تلك في قضاياهم الشخصية ولا في الامور التي ترتبط بالمجتمع وذلك لمصالح وحكم خاصة .

وبتعبير آخر : لم يحل النبي والامام مشاكلهما الحياتية عن طريق الانتفاع من سلاح الغيب ، ولم يقطعا دابر الحوادث المرة بالقضاء على عللها التي اطلعوا عليها عن طريق الغيب ، كذلك ولم يحلا خلافات الناس وخصوماتهم بالعلم الغيبي لقد أخبر النبي (ص) وهو في المسجد عن شدة مرض ابنه العزيز ابراهيم فعاد الى البيت ليحتضن ولده العزيز ويحدق في وجهه النظر قائلا: تدفع العين ويحزن القلب ولا نقول ما يسخط الرب وانا بك يا ابراهيم لمحزونون (١) .

كان النبي (ص) يملك ثلاثة ألوان من سلاح الغيب في كل أذوار رسالته

(١) راجع بحار الانوار ج ٢٢ ص ١٥٧ والسيرة الحلبية ج ٣ .

وكان يتمكن بواسطتها من تغيير الوضع كيفما يريد، عند مواجهته للمصاعب، وعند حدوث اللحظات الخطيرة ولكنه لم يستعمل هذا السلاح في أغلب الاوقات ، وكانت ألوان السلاح الغيبى متمثلة في الامور التالية: ١ـ المعجزة. ٢ـ استجابة دعائه . ٣ ـ علم الغيب .

كان النبى الكريم (ص) يتمكن عن طريق الاعجاز والولاية التكوينية التي ملكها من قبل الله تعالى أن يهب السلامة والعافية لولده العزيز ابراهيم (وذلك كالولاية التكوينية التي ملكها عيسى (ع) وكان بها يحيى الميت ويبرىء الاكمه والابرص) وكان يستطيع أيضاً ببركة دعائه المستجاب الذى منح له من قبل الله تعالى أن يدعو الله ويغير حالة ولده ، و ينقذه من الموت . وكان يقدر كذلك ـ عن طريق معرفته بالغيب ـ أن يمنع من عوامل المرض قبل أن تتسرب الى جسم ولده العزيز لئلا يبتلى ولده بالمرض، أو يختار لولده الادوية الناجعة لتخليصه من المرض وذلك عن طريق اطلاعه على الغيب . كان يتمكن (ص) على هذا ومثله ولكنه رغم ذلك لم يستفد من هذه الاسلحة الغيبية التي كانت في يده لدفع الاضرار المرتقبة عنه وعن أسرته ولم يخط الا في ظل المجارى الطبيعية للحياة ، ذلك لان هذه الاسلحة ، أو الاسباب الغيبية انما اعطيت للنبي (ص) ليستفيد منها في اثبات رسالته وولايته الالهية حين يقتضى الامر ذلك. انه يستطيع الانتفاع من هذه الاسباب الغيبية فى وقت يأذن الله له بذلك ولا يأذن له الله الا في الموارد التى يستعملها لاثبات نبوته وارتباطه المعنوى بالخالق المتعال .

ومن المحتمل أن يكون أحد الاسباب التي تمنع النبى أو الامام من الانتفاع من هذه السبل لجلب الخير أو دفع الشر هو: ان استعمال هذه الاسباب الغيبية يقضى على الاثار العملية لدعوتهم ، لانه لا شك ان حياة القادة بما تحمل في طياتها من صبر وتحمل للمشاق ، واستقامة وفداء في ساحة الجهاد منار ساطع لاتباعهم .

فاذا افترضنا ان النبى أو الامام يدفع عن نفسه وعن أسرته الاخطار فى معترك الحوادث بواسطة الاعجاز أو الدعوة المستجابة أو معرفته بما وراء الطبيعة ، فيهب السلامة لولده ـ مثلا ـ عن طريق الاعجاز أو يستفيد من دعائه المستجاب أو معرفته الغيبية لاعادة السلامة الى ولده، فانه حينئذ لا يستطيع أن يمنح الاخرين من أتباعه النصح على تحمل المصائب والتسليم لقضاء الله تعالى. ولو انه استفاد من هذه الاسباب الغيبية فى ساحة الجهاد فى سبيل الله فحصن نفسه عن وصول سهام العدو اليه وأبعد كل خطر مرتقب عن نفسه وعن أهل بيته المقربين بواسطة تلكم الاسباب فحينئذاك لا يمكنه أن يدعو الناس الى تحمل الالم و العناء فى سبيل الله لانهم ـ حتماً ـ سيعرضون عليه قائلين : ان الشخص الذي يدعونا الى هذه المناهج الخلاقة والمبدعة يجب أن يكون نفسه مثالا رائعاً لهذه المناهج الرائعة . ان الشخص الذي لا مفهوم عنده للالم والعناء ، ولا تمسه الكوارث طيلة حياته لا يستطيع أن يكون قدوة الامم ومنار الحياة للاخرين .

ولهذا (ولجهات اخرى ليس هنا مجال عرضها) نجد ان الشخصيات الالهية كغيرهم يبذلون شتى الوسائل الطبيعية، ويسعون جاهدين لدفع الاخطار والمصائب عن أنفسهم ، عند ما يواجهونها ، وقد يخفقون فى سعيهم بسبب عدم وجود الوسائل الطبيعية بالقدر المطلوب . اننا حين نرى عدم الاختلاف بين سلوك المعصومين فى الحياة وسلوك الناس العاديين ، أي انهم كانوا حين يمرضون يستعملون الدواء للعلاج ولاعادة السلامة كالاخرين ، ويستعملون كل الوسائل الطبيعية والعلوم العادية فى القضايا الاجتماعية وفى ساحة الجهاد كغيرهم، ويعينون أشخاصاً لنقل مختلف الاخبار اليهم والى غير ذلك . كل ذلك لان الاسباب الغيبية ما كان يجوز لهم استعمالها الا فى مواضع خاصة .

وهناك شواهد تؤيد ماقلناه ، فقد روى ان عبيدالله بن أبى رافع كان مديراً

لبيت المال أيام الامام أمير المؤمنين (ع) وحين أرسل الامام (ع) (أبا موسى الاشعرى) الى دومة الجندل للحكم فى قضية الحكمين يوم صفين أوصاه الامام (ع) قائلا : احكم بكتاب الله ولا تجاوزه ، فلما أدبر قال (ع) : وكأنى به وقد خدع . يقول ابن أبى رافع قلت للامام (ع) فلم توجهه وأنت تعلم انه مخدوع فأجابه الامام (ع) قائلا: يابنى لوعمل الله فى خلقه بعلمه ما احتج عليهم بالرسل(١) انه تعالى كان يعلم ان طائفة من الناس يستوى عندهم بعث الانبياء وعدم بعثهم، انهم لا يؤمنون سواء أأرسل اليهم رسول أم لا ومع ذلك فقد أرسل اليهم أنبياء ان الامام (ع) حين يشير فى جوابه هذا الى علم الله غير القابل للخطأ كأنه يبين هذه النقطة وهى : على ان اعمل فى الحياة بمقتضى العلل والعوامل الطبيعية ، ولست أعمل وفقا لما أعلمه من الغيب .

وهكذا نرى الائمة (ع) فى الاحاديث المنقولة عنهم يؤكدون على ان طريق قضائهم وحكمهم بين الناس هى الاسباب العادية كالشهادة واليمين لا علومهم الغيبية وذلك كما يروى الامام الصادق (ع) عن الرسول (ص) : « انما أقضى بينكم بالبينات والايمان » ، وأما ماورد في بعض الروايات من جواز أن يحكم الامام بعلمه فى مجال اجراء الحدود فالمقصود منه هو العلم الذي يحصل عليه من الطرق العادية والاسباب الظاهرية كأن يرى الامام بعينه شخصاً يشرب الخمر لا حظوا الرواية التالية : « الواجب على الامام اذا نظر الى رجل يزنى أو يشرب خمرا أن يقيم عليه الحد ولا يحتاج الى بينة مع نظره لانه أمين الله فى خلقه » (٢) هذه الرواية تدل على ان المقصود من عمل الامام بعلمه هو علمه العادى والطبيعى

(١) المناقب لابن شهر آشوب ج ٢ ص ٢٦١ .

(٢) وسائل الشيعة ج١٨ ص٣٤٤، نعم للامام أن يحكم بعلمه العادى فى الحقوق الالهية فقط ويقيم الحد على مرتكب الجريمة ، ولا يجوز له العمل بعلمه فى حقوق الناس كأن يرى شخصاً يسرق من آخر والمسئلة معنونة فى الفقه فراجع الجواهر .

كما دلت عليه لفظة « نظر » فى الرواية . واذا لاحظنا أيضاً المسائل القضائية التى وقعت فى عصر الامام أمير المؤمنين لرأينا بوضوح ان الامام (ع) لم يحكم بين الناس استناداً الى علمه الخاص عن القضية أبداً بل كان يسعى سعياً حثيثاً معداً بعض المقدمات التى تجعل الخصمين المدعى والمنكر يعترفان بالواقع أمامه ثم يقضى بينهما .

ويقول السيد الطباطبائى فى (ملحقات العروة الوثقى) حين نقول: يجوز للقاضى أن يعمل بعلمه فى حل دعاوى المتخاصمين نقصد بذلك العلم الحاصل عن الطرق العادية لا العلم الحاصل عن طريق الرمل والجفر وغيرهما (١) .

ولكن الذي يستفاد من الروايات ان الامام المهدي (عج) هو الذي يحكم بين الناس بعلمه حين ظهوره فقط وذلك كما حكم نبى الله داود (ع) ويقول الامام الباقر (ع) فى هذا الصدد: « اذا قام قائم آل محمد حكم بحكم داود (ع) لا يسأل عن بينة » (٢) .

* * *

هذا وقد طال بنا الوقوف فى المقام وذلك لقلع جذور الشبهة عن اذهان الشباب، وان كان اعداء آل البيت يبثون كل يوم جذور الشك ولكن نور المعرفة لا يفتأ متبلجاً ، والحقائق الراهنة لا تزال متأرجة وسحب الشبه وان اطلت على الامة ردحاً من الزمن ، لكنها تكتسح بشمس المعرفة .

اراهـا وان طالت علينا فانها سحابة صيف عـن قليل تقشع

نعم قام لفيف من علمائنا بتأليف كتب ثمينة حول علم النبي والامام سدوا بها الفراغ بعض السد ودونك ما وقفنا عليه :

١ ـ المعارف السلمانية بمراتب الخلفاء الرحمانيه، طبع بايران على الحجر

(١) ملحقات العروة ج ٢ ص ٣١ .

(٢) وسائل الشيعة ج ١٨ ص ١٦٨ .

عام ١٣١٣ هجرية قمرية للعلامة السيد عبدالحسين النجفي الشيرازي قدس الله سره له ترجمة ضافية في طبقات أعلام الشيعة ج ٣ ص ١٠٤٨ .

٢ ـ (الالهام في علم الامام) للعلامة الشيخ محمد على الحائرى السنقرى طبع في النجف عام ١٣٧٠ .

٣ ـ (علم الامام) للعلامة الحجة المغفور له الشيخ محمد الحسين المظفر طبع بالنجف ١٣٨٠ هـ أضف الى ذلك ما أفاده العلامة المجلسى في بحاره في غير موضع من مباحث الامامة شكر الله مساعيهم .

٤ ـ رسالة فارسية في علم الامام صنفها المفكر الاسلامى السيد محمد حسين الطباطبائى وانتشر سنة ١٣٩١ هـ وله رسالة عربية صغيرة في هذا الموضوع أيضاً مخطوطة نحتفظ منها بنسخة .

* * *

السؤال الثالث :

مشكلة المشاركة مع الله :

تمسك بهذه الشبهة في سلب العلم بالغيب من غيره سبحانه «عبدالله القصيمي» فقال رداً على عقيدة الشيعة في علم الائمة بالغيب « فالائمة يشاركون الله في هذه الصفة صفة علم الغيب وعلم مـا كان وما سيكون ، وانه لا يخفى عليهم شيء والمسلمون كلهم يعلمون ان الانبياء والمرسلين انفسهم لم يكونوا يشاركون الله في هذه الصفة والنصوص في الكتاب والسنة وعن الائمة في انه لا يعلم الغيب الا الله متواترة لا يستطاع حصرهـا في كتاب وهذا غنى عن الادلاء بشواهده ، ومن المؤسف المخجل لعمر الله ان يزعموا ان الائمة يعلمون الغيب» (١) .

الجواب :

هذه شبهة تافهة لا تستحق الرد والبحث، وكتابه هذا مملوء بالسب والطعن

(١) الصراع بين الاسلام والوثنية ج ١ انظر المقدمة .

لاعلام الشيعة بما ينزه اليراع عن نقله ونحن نمر عليه مر الكرام وخفي عليه أن بين العلمين بون شاسع فان الله سبحانه عالم بالغيب بذاته، وغيره مطلع عليه باظهار منه وأي تجانس بين العرضي والذاتي والمحدود وغير المحدود واي صلة بين الاصيل في علمه ، المرسل في ادراكه وبين المتدلي في ذاته وعلمه ، الفقير في كل شأن من شؤونه حتى في علمه هذا فلو استلزم ذلك شركا لزم ان يكون توصيف الممكن بالحياة والقدرة والسمع والبصر مما يجرى على الله سبحانه ايضا شركا .

* * *

السؤال الرابع :

ان ما تقدم من الايات لا تدل على اكثر من اطلاع النبي الاكرم (ص) على الغيب ، فما الدليل على اطلاع غيره على الغيب ؟

الجواب :

ان هناك روايات متضافرة تدل على أن لائمة أهل البيت (عليهم السلام) حظا وافراً في هذا المجال ، ويدل على ذلك :

أولا: الاخبار الغيبية التى وردت في نهج البلاغة وسيوافيك بعضها في هذه الصحائف وهى تدل بوضوح على معرفة علي (ع) واطلاعه على الغيب .

ثانيا: الاخبار الغيبية الواردة عن أئمة أهل البيت التى ملات كتب علمائنا الابرار فهذا هو الشيخ الحر العاملى اتى في كتابه القيم «اثبات الهداة بالنصوص والمعجزات» كثيراً من الاخبار الغيبية المروية عن الائمة عليهم السلام ، ودونك احصاء ما نقله عن الحسن السبط المجتبى وغيره من الائمة حتى ينتهى الى الامام الثاني عشر فقد نقل عن الحسن بن علي المجتبى (ع) ازيد من عشرة حديثا ، ومثله عن الامام السبط الحسين (ع)، ونقل عن الامام سيد الساجدين عشرين حديثاً وعن الامام الباقر (ع) خمسين حديثا ، وعن الصادق (ع) مأة وخمسين حديثا، وعن الامام الكاظم (ع) ثمانين حديثا، وعن الامام الرضا (ع) مأة وثلاثين حديثاً

وعن الامام الجواد (ع) ازيد من ثلاثين حديثا وعن الامام الهادي (ع) قرابة خمسين حديثا، وعن الامام الحسن العسكرى (ع) ازيد من ثمانين حديثا ، وعن الامام القائم (ع) ازيد من مأة حديث.

نعم لقدتكرر مضمون بعض الروايات ومع ذلك فان الباقى يشكل مجموعة كبيرة من الاخبارات الغيبية التي فيها الكفاية لمن تأمل .

ثالثا: ان الروايات تضافرت عنهم عليهم السلام بان الائمة ورثوا علم النبي (ص) وجميع الانبياء والاوصياء الذين سبقوهم (١) .

وانت اذا لاحظت كتاب الحجة من الكافي فى مختلف ابوابها تقف على ان الائمة عليهم السلام وقفوا على علوم غيبية لم يعرفها غيرهم فلاحظ الابواب التالية :

١ ـ ان الائمة شهداء الله على خلقه .

٢ ـ ان الائمة قد اوتوا العلم واثبت فى صدورهم .

٣ ـ ان الائمة اصطفاهم الله من عباده واورثهم كتابه .

٤ ـ ان الائمة معدن العلم وشجرة النبوة .

٥ ـ ان الائمة ورثة العلم يرث بعضهم بعضا العلم .

٦ ـ ان الائمة ورثوا علم النبى وجميع الانبياء والاوصياء الذين من قبلهم الى غير ذلك من الابواب التى وردت فيها كيفية علومهم وكميتها .

فعلى القارىء الكريم ان يرجع الى هذه الابواب .

السؤال الخامس :

لاشك ان النبى الاعظم والائمة من أهل البيت، قدتنبأوا بكثير من المغيبات التى كانت الفراسة والتكهن تقتضيان خلافها ، غير انا نراهم فى بعض المقامات يتحاشون عن نسبة العلم بالغيب اليهم ، فما وجه ذلك ؟

(١) لاحظ الكافى ج ١ ص ٢٢٣ ـ ٢٢٦ .

الجواب :

ان الناظر في هذه الروايات يقف على ان المتبادر من العلم بالغيب في تلك العصور كان هو العلم الاستقلالي الذاتي الذي يختص بالله سبحانه فهم (ع) لصيانة شيعتهم عن الغلو والشرك ، او لدفع اعدائهم ، صرحوا بأن ما يخبرون عنه من الفتن وملاحم احداث ليس بعلم غيب بل وراثة من رسول الله او تعلم من ذي علم الى غير ذلك مما لا ينافي ما اثبتناه من تحقق اطلاعهم على الغيب بعلم مفاض واعلام منه سبحانه . ودونك ما وقفنا عليه من تلكم الروايات :

١ ـ هذا امير المؤمنين ، قد اماط الستر عن المسألة ، وعن علمه وعلم الائمة من بعده بالغيب ، وقد اخبر عن ملاحم (١) تحدث بالبصرة ، فاعترض بعض اصحابه وقال : «لقد اعطيت يا امير المؤمنين علم الغيب» ؟ فضحك (ع) وقال للرجل وكان كلبياً يا اخا كلب ليس هو بعلم غيب وانما هو تعلم من ذي علم ، و انما علم الغيب علم الساعة ، وما عدده الله بقوله : « ان الله عنده علم الساعة ... » الاية .

فيعلم سبحانه ما في الارحام من ذكر وأنثى وقبيح وجميل، وسخي وبخيل وشقي وسعيد ، ومن يكون في النار حطباً ، أو في الجنان للنبيين مرافقاً ، فهذا علم الغيب الذي لا يعلمه أحد الا الله ، وما سوى ذلك ، فعلم علمه الله تعالى نبيه ، فعلمنيه ودعا لي بان يعيه صدري وتضطم عليه جوانحي (٢) .

وهذا البيان من مولانا أمير المؤمنين عليه السلام لا يدع لقائل شبهة، ويعطي ان العلم بالمغيبات ، اذا كان على وجه التعلم من الغير ليس هو علم الغيب الذي لا يعلمه الا الله بل ليس علماً بالغيب وانما هو اظهار من الغير .

---

(١) سوف يوافيك لفظه .

(٢) نهج البلاغة الخطبة ١٢٤ .

٢ ـ هـذا الامام الطاهر ، موسى الكاظم (ع) قد كشف النقاب عن وجه الحقيقة حينما سأله يحيى بن عبدالله بن الحسن عن علمه بالغيب وقال: «جعلت فداك انهم يزعمون انك تعلم الغيب فقال : سبحان الله ، ضع يدك على رأسي، فو الله ما بقيت في جسدي شعرة ولا في رأسي الا قامت ، ثم قال : لا والله ، ما هي الا وراثة عن رسول الله (١) .

٣ ـ ما روي عن الامام الصادق : انه خرج وهو مغضب فلما اخذ مجلسه قال : ياعجبا لاقوام يزعمون انا نعلم الغيب ، ما يعلم الغيب الا الله عزوجل ، لقد هممت بضرب جاريتي فلانة فهربت مني، فما علمت في اي بيوت الدار »(٢) فهذه الرواية محمولة ومفسرة بما اوضحناه، وماسيوافيك من الاحاديث فالمقصود نفي العلم الاصالي القائم بذاتهم غير المستند الى غيرهم ، واما انه (ع) هم بضرب جاريته فهربت فما علم مكانها ، فيوجه بوجوه :

الف ـ ما اسلفناه من كون علومهم على حسب مشيئتهم وانهم اذا شاؤوا علموا.

ب ـ ما وافاك من ان هنا مراحل ثلاث، مرحلة الاطلاع ، مرحلة العمل ، مرحلة الاعلام ولكل منها ، مقتضيات وشرائط وموانع ، وانه لا يستلزم العلم بالشيء العمل به ، فلعله (ع) اراد ان يطلع على مكانها من الطرق العادية لا غيرها .

اضف الى ذلك ان ذيل الرواية تفصح عما ذكرناه بوضوح، ويعطى للامام منزلة عظيمة ومكانة ارقى ممن كان عنده علم من الكتاب ودونك لفظه : « قال سدير فلما ان قام من مجلسه وصار في منزله دخلت انا وابو بصير وميسر وقلنا له: جعلنا فداك سمعناك وانت تقول كذا وكذا في امر جاريتك ، ونحن نعلم انك

(١) رجال الكشي ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣ ط الاعلمي ، ورواه شيخنا المفيد في اماليه في المجلس الثالث ص ١١٤ بأدنى تفاوت .

(٢) الكافي ج ١ ص ٢٥٧ .

تعلم علما كثيرا ولا ننسبك الى علم الغيب قال: فقال: يا سدير: ألم تقرأ القرآن؟ قلت بلى قال فهل وجدت فيما قرأت من كتاب الله عزوجل : « قال الذي عنده علم من الكتاب انا آتيك به قبل ان يرتد اليك طرفك » (١) .

قال قلت: جعلت فداك قدقرأته قال فهل عرفت الرجل ؟ وهل علمت ماكان عنده من علم الكتاب ؟ قال قلت اخبرنى به ؟ قال قدر قطرة من الماء في البحر الاخضر فما يكون ذلك من علم الكتاب؟ قال : قلت جعلت فداك ما اقل هذا، فقال يا سدير ما اكثر هذا، ان ينسبه الله عزوجل الى العلم الذي اخبرك به ياسدير فهل وجدت فيما قرأت من كتاب الله عزوجل أيضا: « قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب » (٢) .

قال قلت قد قرأته جعلت فداك قال افمن عنده علم الكتاب كله أفهم، ام من عنده علم الكتاب بعضه قلت : لابل من عنده علم الكتاب كله، قال: فأوما بيده الى صدره وقال علم الكتاب والله كله عندنا ، علم الكتاب والله كله عندنا » .

ج- ان يكون صدر الرواية وارداً على وجه التقيه من النصاب والمخالفين صيامهم ولشيعتهم ، كما انهم ببغضهم وحسدهم على امير المؤمنين، اذا سمعوا مالا يحتملوه ربما اعترضوا بالسؤال عنه ، فيصدهم بقوله : « انما هو تعلم من ذي علم » كما نقلناه عن علي (ع) عند اخباره عن الفتن والملاحم في البصرة فان طريق علمهم بالحوادث وغيرها ليس منحصرا بالوراثة ، كما هو ظاهر لمن راجع الاحاديث الواردة في باب علومهم، وانما الوراثة احد هذه الطرق، غير ان اسناد علمهم عند الاخبار بما لا تحتمله عامة الناس ، اليها كان يصدهم عن الاعتراض عليه .

ثم ان العلامة الشيخ محمد الحسين المظفر ، اجاب عن حادثة الجارية

(١) النمل ٤٠ .

(٢) الرعد ـ ٤٣ .

وانكاره (ع) على من يقول بأنهم يعلمون الغيب بوجهين : ثانيها ما قدمناه اخيراً قال : « انهم (ع) اعلم الناس بالناس واعرفهم بضعف عقولهم ، وعدم تحملهم فلو انهم كانوا يتظاهرون دوما، بما منحوا من ذلك العلم، لاعتقد بهم اهل الضعف انهم ارباب او غير ذلك مما يؤول الى الشرك ، ولقد اعتقد بهم ، ذلك ، كثير من الناس ، من البدء حتى اليوم ، على انهم كانوا ينفون عنهم تلك المقدرة وذلك العلم احيانا ولم يكونوا بأهل السلطة ليقيموا أود الناس بالتاديب بعد الوعظ والزجر كما سبق لامير المؤمنين (ع) مع بعض اصحابه » .

وقال : « بل كانوا غرضا لفراعنة ايامهم، وهدفها لنبالهم ولم يكونوا بذلك المظهر عندهم ، فلو تظاهروا بتلك الخلة ، كيف ترى يحمل الحسد اولئك الطواغيت ، على الفتك بهم وهم المحسودون على ما آتاهم الله من فضله واى حائل يحجز عما يريدونه بهم وبأوليائهم وانهم لم يطلعوا اعداءهم ولا سواد اوليائهم على جميع مارزقوا من ذلك الفضل، وقد لاقوا من المصائب والنوائب والحوادث والكوارث والوقائع والفجائع ، ما تشيخ منه شم الجبال وتشيب من هوله الرضع ، ولولم يكونوا رزقوا ذلك الجلد والصبر على قدر مارزقوا من الفضل ، لما استطاع ان يحمل ـ ما تحملوه ـ بشر وهل مات احد منهم حتف انفه ، دون ان يتجرع غصص السم النقيع او يصافح حدود الصوارم ويعتنق قدود الرماح ، هذا فوق مايرونه من الهتك للمحرمات وتسيير العقائل والسب والسلب والغصب للحقوق والتلاعب بالدين ، وتضييع احكام الشريعة .

نعم لا يظهر بتلك المنح الالهية جميعها الا الامام المنتظر عجل الله فرجه، لانه لا يخشى ذلك التسرب الى ضعاف البصائر ، لوصارح بماوهب من الفضل لقدرته على الردع والتأديب ، ولا يخاف حسد حاسد او سطوة ظالم ، وهو صاحب السلطة والسيف » (١) .

(١) علم الامام ص ٤٨ – ٤٩ .

٤ ـ ما رواه الكشى عن عنبسة بن مصعب قال : قال لى ابو عبدالله (ع) : اي شيىء سمعت من ابي خطاب؟ قال سمعته يقول انك وضعت يدك على صدره وقلت له عه ولا تنس . وانك تعلم الغيب و ... قال (ع) : و الله ما مس شيء من جسدي الايده ، واما قوله انى قلت اعلم الغيب فوالله الذي لا اله الا هو ما اعلم الغيب فلا آجرني الله في امواتى ولا بارك لي في احيائي ان كنت قلت له(١).

٥ ـ ما اخرجه صاحب البصائر عن ابى بصير قال قلت لابي عبدالله جعلت فداك اي شيء هو العلم عندكم قال ما يحدث بالليلة والنهار ، الامر بعد الامر ، والشيء بعد الشيء الى يـوم القيامة (٢) والحديث بصدد نفي العلم القديم عنهم (ع) .

٦ ـ ما نقله صاحب البصائر باسناده عن ضريس قال : كنت مع ابى بصير عند ابي جعفر (ع) فقال له ابو بصير « بما يعلم عالمكم ، جعلت فداك ؟ قال : يا ابا محمد ان عالمنا لايعلم الغيب ولو وكل الله عالمنا الى نفسه كان كبعضكم ولكن يحدث اليه ساعة بعد ساعة » (٣) وظهور الحديث فيما نرتئيه اغنانا عن البحث حوله .

٧ ـ ما خرج عن صاحب الزمان (ع) رداً على الغلاة من التوقيع جواباً لكتاب اليه على يدي محمد بن علي بن هلال الكرخي يا محمد بن علي تعالى الله عزوجل عما يصفون سبحانه وبحمده لسنا نحن شركاءه في علمه ولا فى قدرته بل لا يعلم الغيب غيره ، كما قال في محكم كتابه تبارك وتعالى: « قل لا يعلم من في السماوات والارض الغيب الا الله » الى ان قال ... اشهدك واشهدك كل من سمع كتابى هذا انى برىء الى الله والى رسوله ممن يقول : انا نعلم او نشارك

---

(١) رجال الكشى ص ١٨٨ .

(٢) بصائر الدرجات ص ٩٤ ونقله المجلسى فى بحاره ج ٢٦ ص ٦٠ .

(٣) بصائر الدرجات ص ٩٤ راجع البحار ج ٢٦ ص ٦١ .

الله في ملكه او علينا محلا سوى المحل الذي نصبه الله وخلقنا له (١) .

وفي التوقيع قرائن كثيرة تدل على ان المقصود من نفي علم الغيب هو العلم الاصالي الموجب لكونهم شركاء لله في علمه وملكه وقد اكد في التوقيع بأنهم وجميع الانبياء والمرسلين كلهم عبيد لله عزوجل فراجع، الى غير ذلك مما يمكن ان يقف عليه المتتبع الخبير .

خاتمة المطاف :

قد سبق منا في اوليات الفصل السابق (٢) ان كل ما غاب عن الحس والشهود فهو غيب لا يقف عليه احد الا باذن خاص من الله عزوجل وهو لا يظهره على احد الا من ارتضاه قال سبحانه : « ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء » (البقرة - ٢٥٥)

غير ان الغيب الذي يتوقف على اذنه ومشيئته الخاصة ، هو التعرف عليه من دون ان يتوسل بعلل واسباب عادية كما هو الحال في علم الرسول وخلفائه واما الاطلاع على الغيب بطرقه العادية واسبابه الطبيعية ، كاخبار المنجم عن خسوف القمر في ليلة مقمرة ، وكسوف الشمس في يوم معين ، بالاعتماد على الجداول العلمية والمحاسبات الرياضية ، فهو وان كان علماً بالغيب وتعرفاً على ماهو غائب عن حس العامة غير انه ليس علما بالغيب في مصطلح القرآن والاخبار.

وان ابيت الا دخوله في علم الغيب في مصطلح الذكر الحكيم فنقول : ان الاطلاع على الغيب باسبابه العادية من المغيبات التي اذن الله لكل احد ان يطلع عليها اذا طرقها من ابوابها ونظر اليها في ضوء العلم والتجربة .

فقد اذن لكل من تداول علم النجوم ومارس الطب والطبابة ان يعرف وقت التربيع والخسوف والكسوف واوضاع الكواكب واحوالها بفضل الجداول

(١) الاحتجاج ج ٢ ص ٢٨٨ ط النجف .

(٢) راجع ص ٣٧٧ - ٣٨٠ من هذا الجزء .

والقوانين الرياضية ، وان يقف على مستقبل المريض وحالاته بل واوان موته ، كما اذن لكل من درس علم الفلاحة ومارسها، ان يعرف الشجرة ونتاجها، والوردة واوان تفتحها والتربة ومدى صلاحها ، وقابليتها للزراعة الى غير ذلك ممايدور في حقله، فالتنبؤ بهذه الامور الغائبة ونظائرها تتحقق في ظل دراسات ومسبقات علمية ، ولا يعد ذلك آية معجزة ، ودليلا على صلة المخبر بالله والعوالم الغيبية بل ان دل على شيء فانما يدل على نبوغه وتوغله في فنه الذى تخصص فيه .

ثم ان الرسول اذكان ممن ارتضاه الله سبحانه للتعرف على الغيب والاطلاع عليه ، فلله سبحانه ان يظهره على غيبه عن طريق كتابه وقرآنه ، وقد وقفت على نماذج من ذلك، كما ان له أن يوقفه عليه بغير هذا الطريق بقذف في روعه وتحديث من ملائكته أوغير ذلك من الطرق الغيبية فلانرى عند ذاك فرقاً بين ان يتنبأ بفضل كتابه المنزل عليه او بطريق آخر ، فالتنبؤ في كلا الموردين آية معجزة ودليل على صلته بالله سبحانه غير ان القرآن وحي بلفظه ومعناه ، وغيره وحي بمعناه دون لفظه وكلاهما حق لا ينطق بهما النبي الا عن وحى يوحى .

وقد شغلت بال المحدثين تلك التنبؤات التى صدرت عن النبي عن طريق غير الوحى القرآني فعقدوا لبيانها باباً أوأبواباً، بل ألفوا حولها كتباً ورسالات (١).

ونحن نذكرهنا بالرغم على مانثيره العناصر المعاندة لاهل البيت والعادية عليهم من انكار تعرفهم على الغيب واطلاعهم عليه، معشار ما وقفنا عليه في صحاح القوم ومسانيدهم وكتب الحديث والتاريخ حتى يلمس القارىء خلاله ما هو الحق في المقام ...

---

(١) أجمع كتاب الف في هذا الموضوع لدى الشيعة ما الفه المحدث السيد هاشم البحراني وأسماه مدينة المعاجز ، وهو مجلد كبير طبع بايران ، ويليه ما الفه المحدث الحر العاملى واسماه بـ « اثبات الهداة بالبينات والمعجزات » وقد طبع في مجلدات سبع وقد مر الايعاز الى ماورد فيه من الاخبار الغيبية .

تنبؤات نبوية

١ ـ تنبأ الرسول بغلبة المسلمين على كسرى وفتح كنوزه واستقرار السلام العام في مناطقهم وبيئاتهم . قال عدي بن حاتم : بينا أنا عند النبي اذ أتاه رجل فشكا اليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكا قطع السبيل، فقال ياعدي: هل رأيت الحيرة؟ قلت : لم أرها، وقد انبئت عنها، قال: فان طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لاتخاف أحداً الا الله ... ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى قلت: كسرى بن هرمز قال نعم، ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة فلايجد من يقبله .... قال عدي رأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لاتخاف الا الله ، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى رواه البخاري (١) .

٢ ـ قد شكا خباب بن الارت الى النبي وكان هو يوسد بردة له في ظل الكعبة فقال له الاتستنصر لنا ألا تدعو الله لنا ، فقال النبي مشيراً الى ألوان التعذيب التي كانت تحل بالمؤمنين في الامم السالفة، «والله ليتمن الله هذا الامر حتى يسير المراكب من « صنعاء » الى «حضرموت» لايخاف الا الله أو الذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون» رواه البخاري وأبوداود في الجهاد وبهذا المضمون أحاديث كثيره (٢) .

٣ ـ تنبأ النبي بالمستقبل المظلم الذى يواجهه الخويصرة رئيس الخوارج والمارقين وهو الذي قال لرسول الله « اعدل » فقال رسول الله ويلك من يعدل ان لم أعدل قد خبت وخسرت ان لم أعدل فقال عمر بن الخطاب يا رسول الله اتأذن لي فيه أضرب عنقه قال دعه فان له اصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم، يقرؤون القرآن لايجاوز تراقيهم يمرقون من الاسلام كما

(١) راجع التاج ج ٣ ص ٢٥٦ .

(٢) راجع التاج الجزء الثالث ص ٢٥٧ .

يمرق السهم من الرمية ينظر الى نصله فلا يوجد فيه شيء (١) وللحديث صور أخرى نقلها في التاج (٢) .

٤ ـ وقد تنبأ (ص) بكذاب ثقيف وقتال الروم وفتح القسطنطينية وغيره من علامات خروج المهدي وقد جمعها صاحب التاج في كتاب الفتن فراجع الجزء الخامس ص ٢٩٦ ـ ٣٢٦ تجد فيها من التنبؤات ما لايحصى .

٥ ـ تنبأ رسول الله بقتل علي بسيف اشقى الاولين والاخرين وهو يبكي، فقال علي : يا رسول الله ما يبكيك فقال : يا علي أبكي لما يستحل منك في هذا الشهر كأني بك وأنت تصلي لربك وقد انبعث أشقى الاولين والاخرين شقيق عاقر ثمود فضربك ضربة على قرنك فخضب منها لحيتك (٣) وهو أخبر في كلامه هذا عن عدة مغيبات من أن علياً لايموت بحتف أنفه، بل يقتل في شهر رمضان، في حال الصلاة، بالسيف، ويصيب السيف بقرنه، وتخضب منها لحيته، وان قاتله شقيق عاقر ثمود في الشقاء .

٦ ـ أخبر في غزوة تبوك عن موت أبي ذر وحده بفلات من الارض وذلك عندما أبطأ على أبى ذر بعيره فتركه وأخذ متاعه على ظهره ثم خرج يتبع أثر رسول الله ماشياً ونزل رسول الله في بعض منازله فنظر ناظر من المسلمين فقال يا رسول الله ان هذا الرجل يمشي على الطريق وحده ، فقال رسول الله (ص) كن ابا ذر فلما تأمله القوم قالوا : يا رسول الله هو والله أبو ذر فقال رسول الله (ص) رحم الله أبا ذر يمشي وحده ، ويموت وحده ، ويبعث وحده .

---

(١) المصدر نفسة ج ٥ ص ٢٨٦ كتاب الفتن .

(٢) المصدر نفسه ج ٥ ص ٢٩٥ .

(٣) عيون اخبار الرضا ج ١ ص ٢٩٧ ، تاريخ بغداد ج ١ ص ١٣٥ ، كامل مبرد ج ٢ ص ١٣٢ ، نهج البلاغة عبده، الخطبة ١٥١.

ولما سير عثمان أبا ذر الى الربذة مات هناك ولم يكن معه الا امرأته وغلامه فأوصاهما ان اغسلاني وكفناني ثم ضعاني على قارعة الطريق ، فأول ركب يمر بكم فقولوا هذا أبو ذر صاحب رسول الله فأعينونا على دفنه وأقبل عبدالله ابن مسعود في رهط من أهل العراق وقام اليهم الغلام فاخبرهم بما أمر فاستهل عبدالله بن مسعود يبكي ويقول صدق رسول الله تمشي وحدك وتموت وحدك وتبعث وحدك، ثم نزل هو وأصحابه فواروه ثم حدثهم عبدالله بن مسعود حديثه وما قال رسول الله في مسيره الى تبوك (١) .

٧ ـ وقد خاطب (ص) عائشه بقوله يا حميراء كأني بك تنبحك كلاب الحوأب تقاتلين علياً وأنت ظالمة ، يا حميراء اياك ان تكونى أنت (٢) .

٨ ـ كان رسول الله يحث أصحابه على نصرة أمير المؤمنين في قتال الناكثين والقاسطين والمارقين وقال امير المؤمنين : أمرني رسول الله بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين (٣) .

٩ ـ تنبأ النبي بما يجري على الامة من بني أمية وقال : كما قال ابوذر لعثمان سمعت رسول الله يقول اذا كملت بنو أمية ثلاثين رجلا اتخذوا بلاد الله دولا ، وعباد الله خولا ، ودين الله دغلا ، فارتج الخليفة بسماعه فبعث الى علي بن ابي طالب فأتاه فقال : يا أبا الحسن أسمعت رسول الله يقول ماحكاه ابوذر وقص عليه الخبر فقال علي : نعم (٤) .

يحدثنا التاريخ عن سيرة الخليفة في الغنائم والاموال وعن اقتناء جماعة من اصحاب الفتن والثورات من آل العاص وبني أمية ضياعاً عامرة ودوراً فخمة

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٥٢٣ .

(٢) العقد الفريد ج ٢ ص ٢٨٣ ، مستدرك الحاكم ج ٣ ص ١٩٤ .

(٣) تاريخ الخطيب ج ٨ ص ٣٤٠ وغيره .

(٤) تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ١٦٢ ط النجف وغيره من المصادر الوافرة .

وقصوراً شاهقة ، وثروة طائلة وأسس الخليفة حكومة أموية قاهرة في الحواضر الاسلامية وسلطهم على رقاب الناس وأدلى الامر ، في المراكز الحساسة على أغلمة بني أمية وشبابهم وأشياخهم وطل لهم السبل وكسح عن مسيرهم العراقيل الى غير ذلك من احداث موبقة جرت الويلات على الامة الاسلامية في أمصارها الى أن قتل من جرائها .

والى ذلك يشير النبي بقوله: سيكون أمراء بعدي يقولون مالا يفعلون ويفعلون مالا يؤمرون (١) .

١٠ ـ ما أخبر به عمار اذ دخل عليه وقد أثقلوه باللبن فقال يا رسول الله قتلوني يحملون علي ما لا يحملون بقوله : ويح ابن سمية ليسوا بالذين يقتلوك انما تقتلك الفئة الباغية وأن آخر رزقك من الدنيا صباح من لبن أو مذقة من لبن وقد طلب عمار شربة فأتى بشربة لبن ، فقال ان رسول الله (ص) قال : آخر شربة تشربها في الدنيا شرب لبن وشربها ثم قاتل حتى قتل (٢) .

١١ ـ تنبأ النبي بقتال الزبير مع أمير المؤمنين وقد برز علي ، قبل وقوع الحرب يوم الجمل وأراد ان يستفيئه الى طاعته، وقال ليبرز الي الزبير فبرز اليه مدججاً فقيل لعائشة قد برز الزبير الى علي(ع) فصاحت وازبيراه فقيل لها لا بأس عليه منه ، انه حاسر، والزبير دارع ، فقال له علي بعد كلام دار بينه وبين الزبير: ناشدتك الله اتذكر يوماً مررت بي ورسول الله (ص) متكىء على يدك وهو جاء من بني عمرو بن عوف فسلم علي وضحك في وجهي فضحكت اليه لم ازده على ذلك فقلت لا يترك ابن ابي طالب يا رسول الله زهوه فقال لك: مه انه ليس بذي زهو اما انك ستقاتله وانت له ظالم فاسترجع الزبير وقال لقد كان ذلك ولكن الدهر انسانيه ... (٣) .

(١) مسند احمد ج ١ ص ٤٥٦ .
(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٤٩٧ ، اسد الغابة ج ٤ ص ٤٦ .
(٣) مستدرك الحاكم ج ٣ ص ٣٦٦ .

١٢ ـ تنبأ النبي بقتال علي (ع) على تأويل القرآن ، روى أبو سعيد قال كنا مع رسول الله (ص) فانقطعت نعله فتخلف علي يخصفها « فمشى قليلا ثم قال ان منكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله » فاستشرف لها القوم وفيهم أبو بكر وعمر قال أبو بكر يعني علياً فأتيناه فبشرناه فلم يرجع به رأسه كانه قد سمعه من رسول الله (ص) (١) .

١٣ ـ أخبر النبي بقتل كسرى وان الله سلط ابنه « شيرويه » عليه ، فقتله في شهر كذا وليلة كذا ، وذلك عندما كتب كسرى الى «باذان» وهو باليمن ان أبعث الى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين من عندك جلدين فليأتياني به فبعث باذان « بابويه » وكان كاتباً حاسباً ورجلا آخر من الفرس فاعلما النبي بما قدما له فقال لهما رسول الله ارجعا حتى تأتيان غداً فلما أتيا تنبأ بقتل كسرى وأمر بهما أن يقولا ، لباذان « ديني وسلطاني سيبلغ ملك كسرى وينتهي منتهى الخف والحافر » (٢) .

١٤ ـ تنبأ النبي بأنه لاينقضي حتى يمضي فيهم اثنا عشر خليفة وقد روى حصين عن أبيه جابر بن سمرة قال دخلت مع أبي على النبي سمعته يقول ان هذا الامر لاينقضي حتى يمضي فيهم اثنا عشر خليفة قال ثم تكلم بكلام خفي علي فقلت لابي ما قال ؟ قال : كلهم من قريش (٣) .

هذا غيض من فيض ، وقليل من كثير مما يقف عليه المتتبع في مسانيد الحديث وصحاحه وجوامع التاريخ أتينا بها ، ليكون القارىء على بصيرة من الامر ولا يصغي لدعوة العناصر المعاندة من رماة القول على عواهنه .

---

(١) مستدرك الحاكم ج ٣ ص ٢٣ .

(٢) الطبقات الكبرى ج ١ ص ٢٦٠ وتاريخ الكامل ج ٢ ص ١٤٦ السيرة الحلبية ج ٣ ص ٢٧٨ .

(٣) صحيح مسلم ج ٢ ص ١٩١ ، ورواه غيره بصور متقاربة .

وانت ايها القارىء الكريم، اذا درست حقيقة النبوة وما اكرم الله سبحانه به أنبيائه من نفسيات وملكات كالعصمة والقداسة الروحية والنزاهة النفسية ، والعلم الذي لايضلون معه في شيء ، الى كثير من كرائم وفضائل ، حتى جعلهم أكمل البشر خلقاً وخلقاً ، وأصدقهم قولا ، وأحاطهم بالرعاية ، وشملهم بالعناية ، كما قال سبحانه مخاطباً نبيه الاكرم : « واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا » (الطور - ٤٨) ، لوقفت ان التنبؤ بالغيب والاخبار عن غابر الحوادث وطارئها ليس أمراً عجيباً في جنب ما منح الله لهم من عظائم المواهب ، وكرائم الفضائل.

فعند ذاك فلا غرو فيما اخبروا عن غابر الامور وطارئها مما نقلناه ومالم ننقله فان النبوة منصب الهي خطير لايستحقه الا الامثل فالامثل من الناس وأفضلهم وأجمعهم للكمالات وأعلمهم بالحقايق والامور، ممن شملته العناية الالهية وتعلم منه ما لم يكن يعلمه هو ولاقومه كما قال « ويعلمه الكتاب والحكمة و التوراة والانجيل » (آل عمران - ٤٨) .

وقال سبحانه « تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا » (هود - ٤٩) ، وقال سبحانه: « وانه لذو علم لما علمناه » (يوسف - ٦٨) ، وقال « ألم أقل لكم اني أعلم من الله مالا تعلمون» (يوسف - ٩٦) ، فعند ذاك فلا عجب اذا أخبروا بغابر الامور وطارئها ، أو بكل ماكان وما يكون من الحوادث باذن من الله سبحانه فـ « ان الله يعلم سرهم ونجواهم وان الله علام الغيوب » .

تنبؤات علوية :

هذا أمير المؤمنين علي بن ابي طالب صنو النبي، وباب علمه ووارثه قد تنبأ بملاحم أحداث و فتن فى حياته وأيام امارته أخذها عن منهلها العذب ونميرها الصافي ، فصدق الخبر الخبر، فتحقق بعضها بعد مئات السنين ، ولم يكن تنبؤ

الوصي عن تكهن وتخرص ولاعن فراسة ومحاسبات عادية، وشتان بين تخرص متخرص، أو كهانة متكهن، أو تفرس متفرس، وما تنبأ به الوصي على صهوات المنابر في الحواضر الاسلامية وميادين الحروب الطاحنة وأندية الوعظ والتبليغ معلناً بأن ماذكره وراثة عن رسول الله (ص) وعلم وصل اليه منه ، ودونك نماذج مما وقفنا عليه :

قام خطيباً في البصرة مخاطباً اهلها الناكثين عندما وضعت الحرب أوزارها وقال :

١ ـ كأني بمسجدكم كجؤجؤ سفينة قد بعث الله عليها العذاب من فوقها ومن تحتها وغرق من في ضمنها (١) .

وقد وقع المخبر به ، فان البصرة غرقت مرتين فى أيام القادر بالله، ومرة فى ايام القائم بأمر الله ، غرقت بأجمعها ولم يبق منها الا مسجدها الجامع ، بارزاً بعضه كجؤجؤ الطائر. حسب ماأخبر به أمير المؤمنين(ع) فقدجاءها الماء من بحر فارس من جهة الموضع المعروف الان بجزيرة الفرس ، ومن جهة الجبل المعروف بجبل السنام، وخربت دورها، وغرق كل ما فى ضمنها، وهلك كثير من أهلها (٢) .

٢ ـ قوله : وكأني وقد سار بالجيش الذي لا يكون له غبار ولا لجب ولا قعقعة لجم ، ولا حمحمة خيل ، يثيرون الارض بأقدامهم ، كأنها أقدام النعام (٣) .

---

(١) نهج البلاغة ، الخطبة ١٢ .

(٢) الشرح الحديدى ج ١ ص ٢٥٣ .

(٣) نهج البلاغة الخطبة ١٢٤ ، قال الشريف الرضى : يومى بذلك الى صاحب الزنج ، وقد ذكر اخباره الطبرى فى تاريخه ج ٣ ص ١٧٤٣ طبع اوربا ، والمسعودى فى مروج الذهب ج ٤ ص ١٩٤ ، ونقله الشارح المعتزلى فى شرح النهج ج ٨ ص ١٢٦ ـ ٢١٤ .

٣ ـ قوله: وكأني أراهم قوماً كأن وجوههم المجان المطرقة، يلبسون السرق والديباج، يعتقبون الخيل العتاق، ويكون هناك استمرار قتل، حتى يعيش المجروح على المقتول، ويكون المفلت، أقل من المأسور (١).

يومي به الى فتنة التتار وجيشه العرمرم الذي أعده رئيسها لغزو المسلمين وهدم بلادهم ونهب أموالهم وقتل صغيرهم وكبيرهم، وقد ذكر ابن الاثير، هذه الحادثة المؤلمة في تاريخه (في حوادث سنة ٦١٧ وما بعدها ج٩ ص ٣٢٩ ـ ٣٨٧).

وقال في أولها: ولقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة، استعظاماً لها، كارهاً لذكرها، فأنا أقدم اليه رجلا، واؤخر أخرى، فمن الذي يسهل عليه، أن يكتب نعي الاسلام والمسلمين؟ من ذا الذي يهون عليه ذكره، فياليت أمي لم تلدني، وياليتني مت قبل هذا، وكنت نسياً منسيا، الا انه حثني جماعة من الاصدقاء على تسطيرها، وأنا متوقف، ثم رأيت أن ترك ذلك لايجدي نفعاً.

وقد نقل الشارح الحديدي ج٨ ص٢١٨ ـ ٢٤١ اجمال هذه الملحمة ايضاً، فراجع.

٤ ـ ومثل اخباره عما يجرى بعد وفاته على الامة وتعرفهم على شخصيته البارزة بعد ما كانت مجهولة كقوله: «غداً ترون أيامي ويكشف لكم عن سرائري وتعرفونني بعد خلو مكاني وقيام غيري مقامي» (٢).

٥ ـ ومثل اخباره عن ملك بني امية وزوال أمرهم عند تفاقم فسادهم في الارض حيث قال: «أقسم ثم اقسم لتنخمنها (٣) امية من بعدي كما تلفظ النخامة

(١) نهج البلاغة الخطبة ١٢٤.

(٢) نهج البلاغة طبعة عبدة الخطبة ١٤٥.

(٣) نخم ـ كفرح ـ اخرج النخامة من صدره فالقاها، والنخامة بالضم ما يلفظه الصدر او الدماغ من المواد المخاطية.

ثم لا تذوقها ولا تطعم بطعمها أبداً ماكر الجديدان » (١) .

٦ـ وقوله مخبراً عن تسلط معاوية على العراق والزامه الناس بسبب على(ع) والبرائة منه كما يقول: «أما انه سيظهر عليكم بعدى رجل رحب البلعوم مندحق البطن، يأكل مايجد، ويطلب مالا يجد فاقتلوه ولن تقتلوه، الاوانه وانه سيأمركم بسبى والبرائة منى ، اما السب فسبونى فانه لى زكاة ولكم نجاة واما البرائة فلا تتبرأوا منى فانى ولدت على الفطرة وسبقت الى الايمان والهجرة » (٢) .

قال الشارح الحديدى : وكثير من الناس يذهب الى انه (ع) عنى زياداً وكثير منهم يقول انه عنى الحجاج وقال قوم انه عنى المغيرة بن شعبة والاشبه عندى معاوية لانه كان موصوفاً بالنهم وكثرة الاكل وكان بطينا يقعد بطنه اذا جلس على فخديه ـ الى ان قال ـ وتظافرت الاخبار بان رسول الله (ص) دعى على معاوية لما بعث اليه يستدعيه فوجده يأكل ثم بعث فوجده يأكل فقال اللهم لا تشبع بطنه وقال الشاعر :

و صاحب لي بطنه كالهاوية كأن فى احشائه معاوية (٣)

٧ ـ ما يومى الى سلطة الحجاج: لو تعلمون ما أعلم مما طوى عنكم غيبه اذاً لخرجتم الى الصعدات تبكون على أعمالكم وتندمون على أنفسكم ، الى ان قال أما والله ليسلطن عليكم غلام ثقيف الذيال الميال ، يأكل خضركم ويذيب شحمتكم ايه ابا وذحة (٤) .

---

(١) نهج البلاغة طبعة عبده الخطبة ١٥٣ .

(٢) نهج البلاغة طبعة عبده الخطبة ٥٥ .

(٣) الشرح الحديدى ج ٤ ص ٥٤ ـ ٥٥ .

(٤) نهج البلاغة الخطبة ١١٢ : الوذح ما يتعلق بذنب الشاة من البعار فيجف ، والمراد هنا الخنفساء وقد لسعت يد الحجاج فورمت يده وأخذته حمى من اللسعة فأهلكته ولا يخفى ان فى هذا الكلام القصير تنبؤات .

٨ ـ تنبأ بما ستلقى الامة من مروان وولده بقوله : « لما أخذ مروان أسيراً يوم الجمل » ، « أما ان لـه امرة كلعقة الكلب أنفه » (١) ، وهو أبـو الاكبش الاربعة وستلقى الامة منه ومن ولده يوماً أحمر (٢) وفسروا الاكبش الاربعة بولد عبد الملك بـن مروان وهم الوليد وسليمان ويزيد وهشام الذين سودوا تاريخ الخلافة بل تاريخ الانسانية بجناياتهم الموبقة وخزاياتهم المهلكة .

٩ ـ هذا « عرفة » الازدي وهو من أصحاب النبى و « الصفة » وقد دعا له النبى ان يبارك لـه فى صفقته يقول : دخلنى شك فى شأن على (ع) فخرجت معه على شاطىء الفرات، فعدل عن الطريق ووقف ووقفنا حوله فقال مشيراً بيده هذا موضع رواحلهم ، ومناخ ركابهم، ومهراق دمائهم بأبى من لا ناصر له فى الارض ولا فـى السماء الا الله ، فلما قتل الحسين ، خرجت حتى أتيت المكان الذي قتلوا فيه ، فاذا هو الحال ما أخطأ شيئاً قال : فاستغفرت الله مما كان مـن الشك وعلمت أن علياً (ع) كان على حق لم يقدم الا بما عهد اليه منه (٣) .

١٠ ـ ما تنبأ به عليه السلام عندما عزم على حرب الخوارج ، قيل له : ان القوم قد عبروا جسر النهروان قـال : مصارعهم دون النطفة والله لا يفلت منهم عشرة ولا يهلك منكم عشرة .

قال الرضى: معنى بالنطفة ماء النهروهي أفصح كناية عن الماء وقال الشارح الحديدي : هذا الخبر من الاخبار التى تكاد تكون متواترة لاشتهاره ونقل الناس كافة له وهو من معجزاته وأخباره المفصلة عن الغيوب .

---

(١) تصوير عن تقصر مدتها ، وكانت تسعة اشهر ، وهذا تنبؤ آخر .

(٢) نهج البلاغة ط عبده ص ٧٠ .

(٣) اسد الغابة ج ٤ ص ١٦٩ .

والاخبار على قسمين :

احدهما : الاخبار المجملة ولا اعجاز فيها: نحو ان يقول الرجل لاصحابه: انكم ستنصرون على هذه الفئة التى تلقونها غداً ، فان نصر ، جعل ذلك حجة له عند اصحابه وسماها معجزة وان لم ينصره قال : تغيرت نياتكم وشككتم فى قولى، فمنعكم الله نصره ونحو ذلك من القول، ولانه قد جرت العادة على ان الملوك والرؤساء يعدون أصحابهم بالظفر والنصر ، ويمنونهم الدول ، فلا يدل وقوع ما يقع من ذلك على اخبار عن غيب يتضمن اعجازاً .

والقسم الثانى : في الاخبار المفصلة عن الغيوب ، مثل هذا الخبر ، فانه لا يحتمل التلبيس، لتقييده بالعدد المعين في أصحابه وفى الخوارج ووقوع الامر بعد الحرب بموجبه ، من غير زيادة ولا نقصان وذلك أمر الهي عرفه من جهة رسول الله صلى الله عليه وآله وعرفه رسول الله صلى الله عليه وآله من جهة الله سبحانه، والقوة البشرية تقصر عن ادراك مثل هذا، ولقد كان له من هذا الباب ما لم يكن لغيره .

وبمقتضى ماشاهد الناس من معجزاته، وأحواله المنافية لقوى البشر غلا فيه من غلا ، حتى نسب الى ان الجوهر الالهى حل في بدنه كما قالت النصارى في عيسى عليه السلام وقد أخبره النبي صلى الله عليه وآله بذلك فقال: « يهلك فيك رجلان محب غال ومبغض قال » .

وقال له تارة أخرى : «والذى نفسى بيده لولا انى اشفق ان تقول طوائف من أمتى فيك ما قالت النصارى في ابن مريم، لقلت اليوم فيك مقالا لا تمر بملاء من الناس الا اخذوا التراب من تحت قدميك للبركة » (١) .

ثم قال : واعلم انا ننكر ان يكون في نوع البشر أشخاص يخبرون عن الغيوب ولكن كل ذلك مستند الى البارىء سبحانه باقداره وتمكينه وتهيئة اسبابه

(١) الشرح الحديدى ج ٥ ص ٤ .

فان كان المخبر عن الغيوب ممن يدعى النبوة ، لم يجزان يكون ذلك الا باذن الله سبحانه وتمكينه ، وان يريد به تعالى استدلال المكلفين على صدق مدعى النبوة .

واما اذا لم يكن المخبر عن الغيوب مدعياً للنبوة ، نظر في حاله ، فان كان ذلك من الصالحين الاتقياء نسب ذلك الى انه كرامة اظهرها الله تعالى على يده ابانة له وتميزاً عن غيره ، كما في حق علي عليه السلام وان لم يكن كذلك امكن ان يكون ساحراً او كاهناً ، أو نحو ذلك .

وبالجملة فصاحب هذه الخاصية افضل واشرف ممن لا يكون فيه من حيث اختصاصه بها فان كان للانسان العاري منها مزية اخرى يختص بها توازيها اوتزيد عليها فنرجع الى التمثيل والترجيح بينهما والا فالمختص بهذه الخاصية ارجح واعظم من الخالى منها على جميع الاحوال (١) .

١١ ـ لما قتل الخوارج وقيل له : يـا امير المؤمنين هلك القوم باجمعهم فاجابهم :

كلا والله ، انهم نطف في اصلاب الرجال وقرارات النساء (٢) كلما نجم منهم قرن ، قطع حتى يكون آخرهم لصوصاً (٣) سلابين.

قوله عليه السلام : « كلما نجم منهم قرن قطع » استعارة حسنة، يريد: كلما ظهر منهم قوم استؤصلوا فعبر عن ذلك بلفظة « قرن » كما يقطع قرن الشاة اذا نجم وقد صح اخباره عليه السلام عنهم انهم لم يهلكوا بأجمعهم في وقعة النهروان وانها دعوة سيدعو اليها قوم لـم يخلقوا بعد ، وهكذا وقع وصح اخباره عليه السلام أيضاً انه سيكون آخرهم لصوصاً سلابين فان دعوة الخوارج اضمحلت

(١) المصدر نفسه ص ١٢ ـ ١٣ .

(٢) قرارات النساء كناية عن الارحام .

(٣) نهج البلاغة الخطبة ٥٩ .

ورجالها فنيت حتى أفضى الامر الى ان صار خلفهم قطاع طريق متظاهرين بالفسوق والفساد في الارض .

وممن انتهى امره منهم الى ذلك الوليد بن طريف الشيبانى في أيام الرشيد بن المهدي فأشخص اليه يزيد بن مزيد الشيبانى فقتله وحمل رأسه الى الرشيد.

ثم خرج في أيام المتوكل ، ابن عمرو الخثعمي بالجزيرة فقطع الطريق وأخاف السبيل، وتسمى بالخلافة، فحاربه أبو سعيد محمد بن يوسف الطائى.

وقد خرجت بعد هذين جماعة من الخوارج ، وكلهم بمعزل عن طرائق سلفهم وانما وكدهم وقصدهم اخافة السبيل والفساد في الارض واكتساب الاموال من غير حلها (١) .

١٢ ـ وقد أماط الامام الستر عن وجه الحقيقة وعن كمية علمه وكيفيته في بعض خطبه واقسم فيه بالله الذى نفسه بيده، أنهم لا يسألونه عن امر يحدث بينهم وبين القيامة الا أخبرهم به وانه ما صح من طائفة من الناس، يهتدي بها مائة وتضل بها مائة الا وهو مخبر لهم ان سألوه برعاتها وقائدها وسائقها ومواضع نزول ركابها وخيولها ومن يقتل منها قتلا ، ومن يموت منها موتاً حيث قال بعد ان فرغ من قتال الخوارج .

« أيها الناس فاني فقأت عين الفتنة ولم يكن ليجترىء عليها أحد غيرى ، بعد ان ماج غيهبها ، واشتد كلبها .

فاسألونى قبل أن تفقدونى، فوالذي نفسى بيده، لا تسألوننى عن شيء فيما بينكم وبين الساعة ولا عن فئة تهدى مائة ، وتضل مائة، الا أنبأتكم (٢) بناعقها وقائدها ، وسائقها ، ومناخ ركابها ، ومحط رحالها ، ومن يقتل من أهلها قتلا ، ومن يموت منهم موتاً .

---

(١) الشرح الحديدى ج ٥ ص ٧٣ ـ ٧٧ .

(٢) مخطوطة النهج : « نبأتكم » .

ولو قدفقد تمونى ونزلت بكم كرائه الامور ، وحوازب الخطوب، لاطرق كثير من السائلين، وفشل كثير من المسؤلين، وذلك اذا قلصت حربكم، وشمرت عن ساق ، وكانت الدنيا عليكم ضيقاً تستطيلون أيام البلاء عليكم ، حتى يفتح الله لبقية الابرار منكم .

ان الفتن اذا أقبلت شبهت ، واذا أدبرت نبهت، ينكرن مقبلات ، ويعرفن مدبرات ، يحمن حول الرياح ، يصبن بلداً ، ويخطئن بلداً .

الا وان أخوف الفتن عندي عليكم، فتنة بنى أمية ، فانها فتنة عمياء مظلمة! عمت خطتها ، وخصت بليتها ، وأصاب البلاء من أبصر فيها ، وأخطا البلاء من عمى عنها .

وايم الله لتجدن بني أمية لكم ارباب سوء بعدي، كالناب الضروس، تعذم بفيها ، وتخبط بيدها ، وتزبن برجلها ، و تمنع درها ، لا يزالون بكم حتى لايتركوا منكم ، الا نافعاً لهم ، أو غير ضائر بهم.

ولا يزال بلاؤهم عنكم ، حتى لا يكون انتصار أحدكم منهم الا كانتصار العبد من ربه، والصاحب من مستصحبه، ترد عليكم فتنتهم شوهاء مخشية، وقطعا جاهلية ، ليس فيها منها منار هدى ولا علم يرى .

نحن اهل البيت منها بمنجاة ولسنا فيها بدعاة، ثم يفرجها الله عنكم كتفريج الاديم ، بمن يسومهم خسفا ، ويسوقهم عنفا ، ويسقيهم بكاس مصبرة لا يعطيهم الا السيف ، ولا يحلسهم الا الخوف ، فعند ذلك تود قريش بالدنيا وما فيها لو يرونني مقاماً واحداً ، ولو قدر جزر جزور ، لا قبل منهم ما أطلب اليوم بعضه، فلا يعطونني » (١) .

---

(١) نهج البلاغة الخطبة ٨٩، قال الشارح الحديدى: وهذه الخطبة ذكرها جماعة من اصحاب السير، وهى متداولة مستفيضة، خطب بها على(ع) بعد انقضاء امر النهروان،ـ

قال ابن أبي الحديد: ولقد امتحنا اخباره فوجدناه موافقاً، فاستدللنا بذلك على صدق الدعوى المذكورة، كاخباره عن الضربة التي يضرب بها في رأسه فتخضب لحيته، واخباره عن قتل الحسين ابنه عليهما السلام، وما قاله في كربلاء حيث مربها، واخباره بملك معاوية الامر من بعده واخباره عن الحجاج، وعن يوسف بن عمر، وما اخبره به من أمر الخوارج بالنهروان، وما قدمه الى أصحابه من اخباره بقتل من يقتل منهم، وصلب من يصلب، واخباره بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين، واخباره بعدة الجيش الوارد اليه من الكوفة اما شخص عليه السلام الى البصرة لحرب أهلها واخباره عن عبدالله بن الزبير وقوله فيه: « خب ضب، يروم امراً ولا يدركه، ينصب حبالة الدين لاصطياد الدنيا وهو بعد مصلوب قريش ».

وكاخباره عن هلاك البصرة بالغرق وهلاكها تارة اخرى بالزنج وهو الذي الذي صحفه قوم فقالوا: بالريح، وكاخباره عن ظهور الرايات السود من خراسان وتنصيصه على قوم من اهلها يعرفون ببني رزيق، (بتقديم المهملة) وهم آل مصعب الذين منهم طاهر بن الحسين وولده واسحاق بن ابراهيم وكانوا هم وسلفهم دعاة الدولة العباسية وكاخباره عن الائمة الذين ظهروا من ولده بطبرستان كالناصر والداعي وغيرهما في قوله عليه السلام: «وان لال محمد بالطالقان لكنزاً سيظهره الله اذا شاء، دعاؤه حق يقوم باذن الله فيدعو الى دين الله».

وكاخباره عن مقتل النفس الزكية بالمدينة وقوله: « انه يقتل عند احجار الزيت » و كقوله عن اخيه ابراهيم المقتول بباب حمزه (١): « يقتل

– وفيها الفاظ لم يوردها الرضى من ذلك قوله: «سلونى قبل ان تفقدونى، فانى ميت عن قريب أو مقتول، بل قتلاما، ينتظر أشقاها ان يخضب هذه بدم» وضرب بيده الى لحيته. لاحظ النهج البلاغة ج ٧ ص ٥٧.

(١) كذا فى النسخه وكتب الينا المحقق الشيخ محمد تقى التسترى ان الصحيح « بباخمرى ».

بعد ان يظهر، ويقهر بعد ان يقهر »، وقوله أيضاً: يأتيه سهم غرب(١) يكون فيه منيته فيابؤساً للرامي شلت يده ووهن عضده » واخباره عن قتلي « وج » وقوله فيهم : « هم خير اهل الارض » .

وكاخباره عن المملكة العلوية بالغرب ، وتصريحه بذكر كتامة، وهم الذين نصروا ابا عبدالله الداعي المعلم وكقوله وهو يشير الى ابي عبدالله المهدي : وهو اولهم ثم يظهر صاحب القيروان الغض البض، ذو النسب المحض، المنتجب من سلالة ذى البداء ، المسجى بالرداء ، وكان عبيدالله المهدى ابيض مترفاً مشرباً بحمرة رخص البدن ، تار (٢) الاطراف ، وذو البداء اسماعيل بن جعفر بن محمد عليهما السلام وهو المسجى بالرداء لان اباه ابا عبدالله جعفر اسجاه بردائه لما مات ، وادخل اليه وجوه الشيعة يشاهدونه ليعلموا موته وتزول عنهم الشبه فى امره .

وكاخباره عن بني بويه وقوله فيهم : « ويخرج من ديلمان بنو الصياد » اشارة اليهم وكان ابوهم صياد السمك، يصيد منه بيده مايقوت هو وعياله بثمنه فاخرج الله تعالى من ولده لصلبه ملوكا ثلاثة، ونشر ذريتهم حتى ضربت الامثال بملكهم وكقوله عليه السلام فيهم : « ثم يستشري امرهم حتى يملكوا الزوراء ويخلعوا الخلفاء » فقال له قائل : فكم مدتهم يا امير المؤمنين؟ فقال: « مائة أو تزيد قليلا » وكقوله فيهم : والمترف ابن الاجذم، يقتله ابن عمه على دجلة وهو اشارة الى عز الدولة بختيار بن معز الدولة ابى الحسين، وكان معز الدولة أقطع اليد، قطعت يده للنكوص في الحرب، وكان ابنه عز الدولة بختيار، مترفاً صاحب لهو وشرب ، وقتله عضد الدولة فناخسرو ، ابن عمه ، بقصر الجص على دجلة في الحرب . وسلبه ملكه : فأما خلعهم للخلفاء فأن معز الدولة خلع المستكفى

(١) سهم غرب ، أى لايدرى راميه .

(٢) التار : الممتلىء جسمه وعظمه ريا .

ورتب عوضه المطيع ، وبهاء الدولة ابـا نصر بن عضد الدولة ، خلع الطائع ورتب عوضه القادر ، وكانت مده ملكهم كما اخبر به عليه السلام .

وكاخباره عليه السلام لعبد الله بن العباس رحمه الله تعالى عن انتقال الامر الى اولاده فان علي بن عبدالله لما ولد ، اخرجه ابوه « عبدالله » الى علي عليه السلام فأخذه وتفل في فيه وحنكه بتمرة ، قد لاكها ، ودفعه اليه وقال: خذاليك ابا الاملاك ، هكذا الرواية الصحيحة وهي التي ذكرها ابو العباس المبرد في «كتاب الكامل » (١) وليست الرواية التى يذكر فيها العدد بصحيحة ولا منقولة من كتاب معتمد عليه .

وكم له من الاخبار عن الغيوب الجارية هذا المجرى، ممالواردنا استقصاءه لكرسنا له كراريس كثيرة ، وكتب السير تشتمل عليها مشروحة (٢) .

١٣ - قوله (ع) في خطبة تسمى القاصعة ... ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الاسلام غير رسول الله صلى الله عليه وآله وخديجة وأنا ثالثهما ، ارى نور الوحى والرسالة واشم ريح النبوة ولقد سمعت رنة الشيطان حين نزل الوحى عليه (ص) فقلت : يـا رسول الله ما هذه الرنة ؟ ! فقال : هذا الشيطان آيس من عبادته انك تسمع ما أسمع وترى ماارى الا انك لست بنبي ولكنك وزير (٣).

قال الشارح الحديدى : روي عن جعفر بن محمد الصادق (ع)، قال: كان علي عليه السلام يرى مع رسول الله (ص) قبل الرسالة الضوء ويسمع الصوت وقال له (ص) « لـولا انى خاتم الانبياء لكنت شريكا في النبوة فان لا تكن نبيا فانك وصى نبى ووارثه بل انت سيد الاوصياء وامام الاتقياء » (٤) .

---

(١) الكامل ٢ : ٢١٧ .

(٢) شرح النهج ج ٧ ص ٤٨ - ٥٠.

(٣) نهج البلاغة طبعه عبده ج ٢ ص ١٨٢ - ١٨٣ .

(٤) الشرح الحديدى ج ١٣ ص ٢١٠ .

ولا دليل على حمل قوله : « انك تسمع ما اسمع » على سماع خصوص رنة الشيطان بل هو ظاهر في العموم حسب ما يظهر من الامام الصادق (ع) .

١٤ ـ مثل اخباره عن فتنة صاحب الزنج وهو علي بن محمد بن عبد الرحيم من بني عبد القيس حيث جمع الزنوج الذين كانوا يسكنون السباخ في نواحي البصرة وخرج منهم على المهتدى العباسي في سنة خمس وخمسين ومأتين واستفحل امره وانتشر اصحابه في اطراف البلاد للسلب والنهب الى ان قتله الموفق اخو الخليفة المعتمد سنه سبعين ومأتين .

«فتن كقطع الليل المظلم ، ولا تقوم لها قائمة ، ولا ترد لها راية ، تأتيكم مزمومة مرحولة يحفزها قائدها ويجدها راكبها اهلها قوم شديد كلبهم قليل سلبهم يجاهدهم في سبيل الله قوم اذلة عند المتكبرين ، في الارض مجهولون وفي السماء معروفون فويل لك يا بصر ، عند ذلك من جيش من نقم الله لا رهج له ولا حس وسيبتلى اهلك بالموت الاحمر والجوع الاغبر» (١).

قال الشارح الحديدى فسر قوم هذا الكلام بوقعة صاحب الزنج وهو بعيد لان جيشه كان ذا حس ورهج ولانه انذر البصرة بهذا الجيش الاتراه قال «فويل لك يا بصرة» ولم يكن قبل خروج صاحب الزنج فتن شديدة على الصفات التى ذكرها امير المؤمنين (ع) (٢) .

هذه أربعة عشر خبراً غيبياً من روائع نصوص الامام تدل على وقوفه على ما غاب عن الحس باذن من الله سبحانه . وقد نقل الشارح الحديدي كثيراً من اخباره الغيبية في اجزاء كتابه ، وقد نقلنا بعضها فيما تقدم فلاحظ بعضها في الجزء الثاني من شرحه ص ٢٨٦ ـ ٢٩٥ ترى فيه اخباراً غيبية كثيرة كيف وقد روى عنه (ع) اخبارات غيبية مبثوثة في كتب الحديث والتاريخ بحيث لو جمعها جامع لخرج بسفر جليل وضخم وفيما نقلناه كفاية للقارىء الكريم .

(١) نهج البلاغة طبعة عبده الخطبة ٩٨ .
(٢) شرح النهج ج ٧ ص ١٠٤ .

عثرة لاتقال

هـذا هو الحق الذي أحق ان يتبع ، وقد صدقـه كتاب الله العزيز وايدته النصوص المستفيضة واطبقت عليه الاعلام فى العصور المختلفة .

غيرأن هذه المسألة قد أثارت فى عصرنا قلقاً واضطراباً فى الاوساط الدينية فحامت حولها الشبهات، واكتنفتهاأجواء تثيرالسخط والاستياء، من أناس ابتلوا بعقـدة النقص او جنون العظمـة ، مع أن كتاب الله بين ظهرانيهم والنصوص المتضافرة بين أيديهم،فلورجعوا الى ذينك المصدرين، بقلب سليم وفكرمستقيم لعرفوا الحق واتبعوه ، والحق أحق أن يتبع .

وقد وقفت بعدماكتبت هذا الفصل على «كتيب» لبعض من يضمر لائمـة أهل البيت حقداً وعداءاً ، ويحارب كـل فضيلة تثبتها النصوص لهـم ، ويمتلىء صدره بالتعصب المقيت و قـد اعاد فيه ما ذكره ابـن تيميـة و نظراؤه مـن الذين أكل عليهم الدهر وشرب حيث انكر علـم النبي و أوصياءه بالغيب على وجه الاطلاق وعزاه الـى جمهور الامامية وفطاحلهم ، قائلا بأن فكرة علمهـم بالغيب ، أسطورة حدثت فى الاونة الاخيرة بيد الغلاة . واستشهد على ذلك بما ذكره امين الاسلام فى كتابه ، حيث قال فى تفسير قوله سبحانه : « يـوم يجمع الله الرسل فيقول مـاذا أجبتم قالوا لاعلم لنا انك انت علام الغيوب » (المائدة ـ ١٠٩) ما هذا الفظه :

وذكر الحاكم ابو سعيد فى تفسيره : انها تدل على بطلان قول الامامية : ان الائمة يعلمون الغيب واقول ان هذا القول ظلم منه لهؤلاء القوم ، فانا لانعلم احداً منهم بل احداً من أهل الاسلام يصف احداً مـن الناس بعلم الغيب ومن وصف مخلوقاً بذلـك فقد فارق الديـن ، والشيعة الامامية برآء مـن هذا القول ومن نسبهم الى ذلك فالله ما بينه وبينهم (١) .

(١) مجمع البيان ج ٢ ص ٢٦١ ط صيدا .

غير انه عزب عن هذا المسكين أن ما ذكره « أمين الاسلام » لايمثل رأي الشيعة الامامية فى الموضوع ، وانما هوراى واحد منهم ولا يمثل رأي الجميع ولا يؤخذ الجمع بفعل الواحد ورأيه .

اضف الى ذلك أن ما ذكره امين الاسلام لايهدف الا الى ما ذكرناه وان الممنوع توصيفهم باطلاعهم على الغيب على غرار علمه سبحانه، بشهادة قوله «ومن وصف مخلوقاً بذلك فقد فارق الدين » اذ أى صلة بين مفارقة الدين والقول بان الله سبحانه أظهر غيبه لاحد اوليائه ، واطلع هو على الغيب من تلك الناحية وتعرف بتعليم منه سبحانه .

ولو رجع الكاتب الى موضع آخر من كتابه ولم يقصر نظره على موضع واحد منه ، لوقف على مغزى مارامه فانه قدس الله سره قد حقق المسألة في موضع آخر من كتابه .

قال فى تفسير قوله سبحانه : « ولله غيب السماوات والارض واليه يرجع الامر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون» (هود ـ ١٢٣) ماهذا لفظه : وجدت بعض المشايخ ممن يتسم بالعدوان والتشنيع ، قد ظلم الشيعة الامامية فى هذا الموضع من تفسيره فقال: «هذا يدل على أن الله سبحانه يختص بعلم الغيب خلافاً لما تقول الرافضة : ان الائمة يعلمون الغيب » ولا شك أنه عنى بذلك من يقول بامامة الاثني عشر ويدين بانهم أفضل الانام بعد النبي(ص) فان هذا دأبه وديدنه فيهم ، يشنع فى مواضع كثيرة من كتابه عليهم ، وينسب الفضائح والقبائح اليهم ، ولا نعلم احداً منهم استجاز الوصف بعلم الغيب لاحد من الخلق ، فانما يستحق الوصف بذلك من يعلم جميع المعلومات لا بعلم مستفاد ، و هذه صفة القديم سبحانه ، العالم لذاته لا يشاركه فيها أحد من المخلوقين ومن اعتقد ان غير الله سبحانه يشاركه فى هذه الصفة فهو خارج عن ملة الاسلام .

فاما ما نقل عن امير المؤمنين (ع) ورواه عنه الخاص والعام من الاخبار بالغائبات في خطب الملاحم وغيرها مثل قوله وهو يومي به الى صاحب الزنج: كأني بأحنف وقد سار بالجيش الذي ليس له غبار ولا لجب ولا قعقعة لجم، ولا حمحمة خيل يثيرون الارض باقدامهم كانها اقدام النعام .

وقوله بشير الى مروان أما ان له امرة كلعقة الكلب أنفه وهو أبو الاكبش الاربعة وستلقى الامة منه ومن ولده موتا أحمر وما نقل من هذا الفن عن أئمة الهدى (ع) من أولاده مثل ماقاله أبو عبدالله (ع) لعبدالله بن الحسن وقد اجتمع هو وجماعة من العلوية والعباسية ليبايعوا ابنه محمداً والله ما هي اليك ولا الى ابنيك ولكنها لهم واشار الى العباسيين وان ابنيك لمقتولان ثم نهض وتوكأ على يد عبد العزيز بن عمران الزهري فقال له أرايت صاحب الرداء الاصفر يعني أبا جعفر المنصور قال نعم فقال : انا والله نجده يقتله فكان كما قال .

ومثل قول الرضا (ع) بورك قبر طوس وقبر ان ببغداد فقيل له قد عرفنا واحداً فما الاخر قال: ستعرفونه ثم قال: قبري وقبر هارون هكذا وضم اصبعيه(١) وقوله في القصة المشهورة لابي حبيب النباحي وقد ناوله قبضة من التمر لوزادك رسول الله (ص) لزدناك وقوله من حديث علي بن أحمد الوشاء حين قدم مرو من الكوفة «معك حلة في السفط الفلاني دفعتها اليك ابنتك وقالت اشتر لي بثمنها فيروزجاً » والحديث مشهور الى غير ذلك مما روى عنهم عليهم السلام . فان ذلك منلقى عن النبي (ص) مما اطلعه الله عليه فلا معنى لنسبة من روي عنهم هذه الاخبار المشهورة الى أنه يعتقد كونهم عالمين بالغيب وهل هذا الاسب قبيح وتضليل لهم بل تكفير لايرتضيه من هو بالمذاهب خبير والله يحكم بينه وبينهم

(١) نظير قوله لموسى بن مهران في مسجد المدينة عندما كان هارون يخطب: اترونني واياه ندفن في بيت واحد . عيون اخبار الرضا ج ٢ ص ٢٢٦ .

واليه المصير » (١) .

هل استاثر الله بعلم هذه الامور ؟

قد اشتهر بين المفسرين ان هناك اموراً خمسة استأثر الله بعلمها وحده ، لايجليها لغيره واستندوا فى ذلك على قوله تعالى :

« ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم مافى الارحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس باى ارض تموت ان الله عليم خبير » (لقمان - ٣٤) ويؤيده ما روى من اختصاص العلم بهذه الامور الخمسة بالله تعالى وأن غيره لا يطلع عليها ابدا وقد جرت مشيئة الله على كتمان العلم بهذه الامور عن خلقه .

ولقائل ان يقول : لامحيص عن صحة ما ذكروه فى الاربعة التالية : علم الساعة ، العلم بما فى الارحام ، العلم بما يكسبه الانسان فى مستقبل أيامه،وعلمه بالارض التى يموت فيها الانسان ، واما اختصاص العلم بوقت نزول الغيث به سبحانه فلا تفيده الاية اذ انه تعالى يقول: وينزل الغبث ، ولم يقل : وعنده علم نزول الغبث .

ويدفع بان العلم بوقت نزول الغيث لو لم يكن مثل الاربعة الباقية لكان الاتيان به عندئذ اقتضابا بلا جهة وعطفاً بلا مناسبة فلاى وجه اورده فى هذه الاية فى عداد الامور التى سلمنا اختصاص علمها به سبحانه وليس هو منها ، فلاجل الالتزام بوجود المناسبة بين المتعاطفات لامفر من القول باختصاص علمه به سبحانه أيضاً .

دفع شبهة :

ربما يتخيل بل يقال: كيف استأثر الله بعلم هذه الامور ، والنشرات الجوية

---

(١) مجمع البيان ج ٣ ص ٢٠٥ وقوله لمأمون عندما ذاكره بقوله ندخل بغداد ان شاءالله فنعمل كذا وكذا فقال له الرضا تدخل انت بغداد يا امير المؤمنين، ثم سئل عنه اصحابه فقال (وما انا وبغداد لاارى بغداد ولا ترانى) عيون اخبار الرضا ج ٢ ص ٢٢٥ .

لدائرة الانواء الجوية تعين اوقات نزول الغيث والوفر والاختبارات الطبية تبين وضع الجنين وانه ذكر او انثى . ولكنها مدفوعة بما يلي :

١ ـ ان الله سبحانه واقف على وضع الجنين من بدء تكونه فى رحم امه، حينما يكون خلية فيها ، ليس لها من الصور المعتورة عليه شيء ، الى أن تضعه امه ، فهو سبحانه يعلم حين ما هو خلية فى رحمها ، أنه ذكر او انثى ، وليس ذلك مقدوراً للبشر وان أطل بنظره عليها بأشعة قوية كهربائية او باختبارات طبية فالعلم بذكورة الجنين او انوثته ، من بدء وجوده الى ختامه ، مخصوص به سبحانه ، ولا يشاركه فى هذا الحد الوسيع أحد من البشر .

٢ـ ان تخصيص قوله سبحانه: ويعلم مافى الارحام باحد الوصفين المذكورين (الذكورة والانوثة) مخالف لاطلاق كلامه ، فان الظاهر منه انه سبحانه يعلم جميع حالات ما فى الارحام ، وأنه ذكر أو انثى ، قبيح أو جميل ، سخى او بخيل ، شجاع او جبان ، سعيد أو شقى ، مرافق النبيين فى الجنان او حطب لنار جهنم الى غير ذلك من الصفات والروحيات التي لايتمكن البشر من الوقوف عليها عندما كان صاحب الصفات جنيناً فى رحم امه. وهذا التعميم وشمول الاية للصفات الظاهرية والباطنية صريح كلام الامام امير المؤمنين (ع) فى نهج البلاغة (١) .

واما النشرات الجوية التى تصدرها ادارة الانواء الجوية الدارجة في الحضارة الفعلية، فهى أنباء ظنية على اصول وتجارب واستطلاع على أوضاع تكتسبها دائرة الانواء الجوية من مختلف البلدان قريبها وبعيدها ـ ومع ذلك ـ فلا تخرج عن دائرة الحدس والظن، وليست مصونة عن الخطأ كما هو الشاهد لكل من يصغى اليها ثم يرجع الى فسيح الكون ويطبقها عليه .

---

(١) راجع نهج البلاغة الخطبة ١٢٦.

توضيحه : ان لكل من الامم عبر الاجيال والقرون ، تجارب في هذا الباب كانوا يستكشفون بها على سبيل الظن والتخرص ، مواقع نزول المطر والثلج ، حتى أن القرويين والبدو، كانوا يستطيعون التنبؤ بحالة الطقس المقبلة من صحو أو مطر ، وما اشبه ذلك من بعض الظواهر الجوية كاتجاه الريح مثلا. بل كانوا يستكشفون بغير ذلك من نزول الكلب من سطح البيت الى داخله وقد حكى ان نصير الدين الطوسي (ذلك الفلكى العظيم) نزل فى بعض أسفاره على طحان له طاحونة خارج بعض البلاد فلما دخل المنزل صعد السطح لحرارة الهواء فقال له صاحب البيت انزل ونم في داخل البيت لاجل نزول المطر فنظر «نصير الدين» الى الاوضاع الفلكية، فلم يرشيئاً يورث الظن بنزول المطر فقال له الطحان ان لى كلبا ينزل فى كل ليلة يحس بأن المطر سينزل فيها ، الى البيت فلم يقبل ذلك منه المحقق ، وبات فوق السطح فأدركه المطر أثناء الليل وتعجب المحقق الطوسى (١) .

نعم الادوات الحديثة لتعيين درجة الحرارة فى الجو وارتباط مختلف البلدان بعضها ببعض ، بواسطة أجهزة البرق السلكية و اللاسلكية و تبادل المعلومات فيما بينها عن الحالة الجوية ساعة فساعة، هذه الادوات ـ احتلت مكان التجارب السالفة وساعد على امكان التنبؤ بتقلبات الطقس بالاستنتاج والتخمين .

ومع ذلك فان استنتاجات دائرة الانواء الجوية لا تكون صائبة دائماً فكثيراً ما تخطىء في تخمينها ، ولا تخبر عما تخبر الا بالظن والترديد ، بل على نحو الاجمال في جانب والاهمال في جانب آخر، ولا تستطيع أن تحدد وقت نزول المطر ومحال نزوله دقيقاً ، وانه في أى ساعة او على أى مكان من الارض العظيمة ينزل .

---

(١) مكاسب الشيخ الانصارى ص ٢٥ .

وأعجب منه انه اذا شوهـد منها التخلف حتى في مجمل ما اخبرته تراها تتمسك باعذار كاشفة عن قصور باعها وعدم احاطتها بما فى الجو الفسيح من الاحوال والاوضاع .

واما الاختبارات الطبية، فاعطف نظرك الى بعض ما ذكره بعض الاخصائيين في المقام لتقف على ان تحديد نوع المولود يرجع في جوهره الى الصدفة ، أو الى الاحتمالات التى يعجز العلم عن التنبؤ بها قال (١) :

توجد في كل فرد غدتان تناسليتان وتختلف الغدد الذكرية عن الغدد الانثوية فى مكانها التشريحى بالجسم ، وفي وظائفها الاولية والثانوية وفي تأثيرها على شخصية الفرد .

وتؤثر هذه الغدد، بهرموناتها المختلفة في التفرقة بين الذكر والانثى ولهذه الفروق الجنسية أثر قوى فى سرعة النمو ، وفي تباين واختلاف مظاهره .

هذا وتنشأ الاختلافات الجنسية منذ اللحظة الاولى التى تتكون فيها البويضة المخصبة اى عندما تلتقى الصبغيات الذكرية بالصبغيات الانثوية في نواة البويضة وتتميز البويضة بأنها تحتوي على صبغى خاص بالجنس ، يوجد دائما بصورة واحدة نرمز لها بالرمز (س) ويتميز الحى المنوي بوجود صبغى خاص بالجنس يوجد احيانا ، بصورة تماثل صورة الصبغى الانثوى ولذلك يرمز له بالرمز (س) ايضا ويوجد احيانا بصورة اخرى يرمز لها بالرمز (ص) فاذا احتوت البويضة المخصبة على الصبغيين (س س) كان الجنين انثى ، واذا احتوت على الصبغيين (س ص) كان الجنين ذكراً وهكذا يتحدد الجنس منذ اللحظة الاولى فى تكوين البويضة المخصبة وبذلك يسيطر الحي المنوى على نوع الجنس، أى ان الجنس ذكراً كان ام انثى يرجع فى الى جوهره الرجل لا الى المرأة واذا عرفنا ان عدد الحيوانات

(١) الاسس النفسية للنمو تأليف الدكتور فؤاد البهى مدرس علم النفس بجامعة عين شمس .

المنوية الذكرية فى كل نطفة يربو على ٢٠٠/٠٠٠/٠٠٠ حي ذكرى عرفنا بعد ذلك ان تحديد نوع المولود يرجع في جوهره الى الصدفة او الاحتمالات التى يعجز العلم عن التنبؤ بها .

نظرنا فى الموضوع :

الى هنا جرينا على مسلك المفسرين فى تفسير الاية ودفعنا عنهم ما اشكل عليهم وقد ارسلوه ارسال المسلمات وأيدوها بروايات سوف نوضح حالها ، ومدى صحتها غير ان هنا احتمالا آخر ، ربما يكون اقرب الى ظاهر الاية مما ذكروه ودونك بيانه :

ان لسان الاية في بيان علمه سبحانه بهذه الاشياء الخمسة ، ليس على نسق واحد بل على وجوه ثلاثة :

١ ـ لسان الحصر : وهذا يختص بالعلم بوقت الساعة من الامور الخمسة، فتراه يقول: « وعنده علم الساعة، بتقديم الظرف على المبتدأ وهو يفيد الحصر ولا تجد هذا السياق من الكلام فى الاربعة الباقية ولاجل ذلك تراه غير اسلوب الكلام عند ما اراد ان يبين تعلق علمه بغير الساعة وقال : « وينزل الغيث ويعلم ما فى الارحام و.. » وعلى هذا لا بأس بما ذكروه في هذا القسم فان ظاهر الاية يشير الى ان العلم بوقت الساعة مختص به سبحانه لا يعدو غيره .

وتؤيده آيات اخر، وردت فى هذا المضمار قال سبحانه : « يسألونك عن الساعة ايان مرساها قل علمها عند ربي لا يجليها لوقتها الا هو» (الاعراف ـ ١٨٧) وقال : « يسألك الناس عن الساعة قل انما علمها عند الله » (الاحزاب ـ ٦٣) ، وقال تعالى : « اليه يرد علم الساعة وما تخرج من ثمرات من اكمامها وما تحمل من انثى ولا تضع الا بعلمه » (فصلت ـ ٤٧) ترى انه سبحانه في هذه الاية الاخيرة عندما انهى غرضه عن رد علم الساعة اليه ، غير اسلوب كلامه من

الحصر، الى اسلوب لا يفيد سوى علمه بهذه الامور ، وانه لا تخرج ثمرة من اوعيتها وغلفها ، ولا تحمل انثى ، ولا تضع انثى ، الا في الوقت الذي يعلم سبحانه انه تخرج منها او تحمل وتضع فيه .

ونظيره قوله سبحانه : « وعنده علم الساعة واليه ترجعون » (الزخرف - ٨٥) وقوله : « يسألونك عن الساعة ايان مرساها فيم انت من ذكراها الى ربك منتهاها » (النازعات - ٤٤) وقد فسر الطبرسى قوله : « فيم انت من ذاكرها » بقوله : اى لست فى شيء من علمها وذكراها .

ولاجل اختصاص علمه بالله سبحانه، لماسئل عن وقت الساعة وتعيين تاريخها اعرض سبحانه عنه، واخذ ببيان علائمها واشراطها كما في قوله سبحانه: « يسئل ايان يوم القيامة فاذا برق البصر ، وخسف القمر وجمع الشمس والقمر يقول الانسان يومئذ أين المفر » (القيامة ٦ - ١٠)

فاذا امعنا النظر في هذه الايات وما فيها من السياق الواحد المفيد للحصر والقصر ، لا نشك فى صحة ما ذكره المفسرون في جريان مشيئته سبحانه على كتمان العلم بوقتها عن غيره ولعل هنا من يفرق بين قوله : «وعنده علم الساعة» وقوله : « قل لا يعلم من في السماوات والارض الغيب الا الله » حيث حملنا الثانى على العلم الازلي الذاتى ، وقلنا ان المختص بالله سبحانه، هو هذا القسم دون العلم المستفاد المفاض منه ، سبحانه الى عباده ، وان الاية لا تشمل ماكان من العلم اكتسابيا ، وعلى فرض عمومه لكلا القسمين ، يمكن تخصيصها بما دل على اطلاع الرسول على الغيب نظير قوله سبحانه : « فلايظهر على غيبه احداً الا من ارتضى من رسول » (الجن ٢٦ - ٢٧)

واما قوله سبحانه : « وعنده علم الساعة » فلان تضافر الآيات على حصر خصوص العلم بالساعة به سبحانه والتصريح به فى كل مورد تحدث عنه، بأسلوب

يغاير اسلوب ماعداه كما عرفت فيماتقدم من الايات، ربما يؤكد نظر المفسرين من انه مما استأثر بعلمه لنفسه نعم امكان اطلاع النبي على وقتها بمكان من الامكان الا ان البحث في وقوعه لا في امكانه (١) .

هذا كله راجع الى صدر الاية وهو القسم الاول من سياقها واليك بيان الثاني والثالث منه .

الثاني : اثبات علمه بوقت نزول الغيث وما في الارحام من دون قصر العلم بهما عليه سبحانه .

الثالث : التصريح بجهل البشر بمايكسب غداً وبالارض التي فيها تموت ولكن استفادة الاستئثار من هذين القسمين ، لا يخلو من غموض وخفاء بل لا يدل عليه فان اقصى ما يستفاد منها عدم اطلاع البشر عليها من عند نفسه ، وهذا لا ينافي اطلاعه عليها بتعليم من الله سبحانه كسائر الامور الغيبية، وتخصيص هذه الموارد بالذكر مع كون الجميع كذلك، للحث على علم الواجب سبحانه بجلائل الامور ودقائقها وجهل البشر بمايهمه ولا يدل على جريان مشيئة الله على كتمانها عن كل بشر وعدم اعلامها لاحد .

بل يمكن ان يقال: ان نفي العلم عن الانسان بهذه الامور الاربعة كما لاينافي امكان اطلاعه عليها باذن الله واعلامه ، فهكذا لا ينافي امكان وقوف البشر عليها في ظل النواميس الكونية التي تم اكتشافها، والادوات العلمية التي تم اختراعها فان مثل هذا العلم خارج عن مرمى الاية على احتمال قوي ، بل هي ناظرة الى ان البشر ، بما هو هو من غير ان يستعين بشيء لا يتمكن من الوقوف على هذه الامور . وهذا لا ينافي امكان اطلاعه عليها بتعليمه سبحانه او باتصاله بعوالم

---

(١) ومع ذلك كله فيمكن ان يقال : انه لو لم يكن هنا سوى قوله سبحانه: « وعنده علم الساعة » لم يصح لنا الحكم البات بانه مما استأثر بعلمه لنفسه وانما يصح الحكم بعد ملاحظة ما ورد في المقام من الايات التي عرفتها . فلاحظ .

روحية او باستخدام وسائل وادوات تورث الظن او العلم باوضاعها .

ان الطبيب ربما يحدس او يخبر على سبيل القطع عن حال مريضه ، وان الموت سوف تنشب اظفاره فيه فى وقت كذا ، ويصيب في اخباره هذا ، فكما انهذا النحو من العلم لاستناده الى الامارات والعلائم والادوات الطبية، المورثة للظن او العلم ، خارج عن مفاد الاية ، فهكذا ما يستند اليه الانسان في كشف المغيبات من الوسائل والاختبارات .

ولاجل ذلك نرى النبى والخلفاء من بعده ، تنبأ وا بمستقبل احوالهم ، وما يحل بهم من نعمة ونقمة وعن زمان موتهم ومكانه .

وقد رأينا بعض المخلصين من عباده ، تنبأوا بزمان موتهم ومكانه وما يحل بهم من ازمة وازمات ونقل ذلك ايضا عن كثير من الصلحاء فكيف يمكن القول بانه سبحانه استأثر بهذه الامور ، أو ما اخبر يوسف عما يكسبه صاحباه غداً فقال : «اما احدكما فيسقى ربه خمراً واما الاخر فيصلب فتاكل الطير من رأسه»(يوسف -٤١) واى فرق بين العلم بما يكسبه الانسان نفسه وما يكسبه الغير .

وما ربما يقال : من تخصيص ظاهر الاية بما ثبت من تنبؤ بعض المعصومين بما يحل بهم ومكان موتهم وزمانه لا طائل تحته ، فان لازم هذا التخصيص هو طرح تلكم الروايات لا تخصيصها لانه عندئذ ينتقض الاختصاص ولا يصدق الاستئثار ابداً فان الاستئثار يتوقف على كتمان العلم بها عن كل احد الى يوم القيامة .

اضف الى ذلك ان الممكن القريب ان تصبح الوسائل العلمية دقيقة فنطلع على مواقع نزول المطر ونعرف الجنين أهو ذكر او انثى .

عرض وتحليل :

اعتمد المشهور في تفسير الاية على روايات لم يصح اكثرها ولم تثبت

صحة اسنادها ودونك بيان ما وقفنا عليه :

١- روى الصدوق في خصاله عن ابن الوليد ، عن الصفار ، عن ابن هاشم عن عبد الرحمان بن حماد عن ابراهيم بن عبد الحميد عن ابى اسامة عن ابى عبدالله قال: قال لي ابى: الا اخبرك بخمسة لم يطلع الله عليها احدا من خلقه قلت بلى قال : « ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث . . » (١) .

ورجال الحديث كلهم ثقات غير عبد الرحمان بن حماد وعبد الحميد فان الاول مهمل لم يتضح حاله بوثاقة او ضعف، واما عبد الحميد بن ابى اسامة فانه مختلف فيه وان رجح شيخنا العلامة التسترى في قاموسه وثاقته .

٢- روى صاحب البصائر عن احمد بن محمد عن محمد بن سنان عن ابى الجارود عن الاصبغ بن نباتة قال سمعت امير المؤمنين يقول: ان لله علمين علم استأثر به في غيبه فلم يطلع عليه نبياً من انبيائه ولا ملكا من ملائكته وذلك قول الله تعالى « ان الله عنده علم الساعة ... » (٢) ، والحديث ضعيف الاسناد لاجل « محمد بن سنان » فقد ضعفه كثير من علماء الرجال واما ابو الجارود فهو زيدى .

٣ - ما رواه القمى فى تفسيره (٣) مرسلا عن الصادق ومضمونه قريب مما رواه الصدوق في خصاله .

وأما ما رواه الحافظ جلال الدين السيوطى في الدر المنثور عن عكرمة ان رجلا جاء الى النبى (ص) فقال يا محمد متى قيام الساعة ؟ وقد اجدبت بلادنا فمتى تخصب ؟ وقد تركت امرأتى حبلى فمتى تلد ؟ وقد علمت ما كسبت اليوم فماذا اكسب غدا ؟ وقد علمت بأي ارض ولدت فباى ارض أموت ؟ فنزلت

(١) الخصال ص ٢٩٠ طبع مكتبة الصدوق .

(٢) بصائر الدرجات ص ٣١ .

(٣) تفسير على بن ابراهيم القمى ص ٥١٠ وقد جمع احاديث الباب العلامة المجلسى فى بحاره راجع ج ٢٦ ص ١٠١ - ١٠٣ .

الاية (١) فلا ينطبق على ظاهر الاية فان المتبادر من قوله: «ويعلم مافي الارحام» هو العلم بخصوصية الجنين لا العلم بوقت ولادته كما هو ظاهر الحديث مضافا الى ما فى سنده من الضعف الظاهر لانحراف عكرمة عن امير المؤمنين، واخذه الحديث من أناس لاخلاق لهم من الدين .

هذه الاحاديث لا يصح الاعتماد عليها الا على ما نقله الرضى فى نهج البلاغة عن الامام (ع) من ان علم الغيب علم الساعة وما عدده الله سبحانه بقوله: « ان الله عنده علم الساعة .. » فهذا علم الغيب الذي لا يعلمه احد الا الله (٢).

وهو مما يجب تأويله وتوجيهه على وجه لا ينافي ماتواتر من الروايات من تنبؤ المخلصين بزمان موتهم ومكانه ، وما يلم بهم من خير وشر خصوصا اذا وقفنا على ان الامام القى كلامه هذا تجاه النواصب والمخالفين الذين سمعوا من الامام فى البصرة من الأسرار مالا يتحملون، فاعترضوا عليه بأنه تنبؤ بالغيب ، فأجابهم وصد اعتراضهم بأنه ليس بعلم الغيب ، بل تعلم من ذي علم ، وانما الغيب هو الساعة ، وما عدده سبحانه . . » .

وبما ان الكلام ورد في مقام اسكات الخصم يمكن تأويله باحدى الوجوه التى ذكرها العلامة المجلسى في بحاره (٣) .

واوضحها: ان يكون العلم الحتمى بها مختصاً به تعالى وكل ما اخبر الله به من ذلك كان محتملا للبداء والغرض من تخصيص هذه الموارد بالذكر مع ان الجميع كذلك لاجل الحث على جهل البشر بما يهمه ، والله سبحانه هو العالم بحقائق كتابه .

---

(١) الدر المنثور ج ٥ ص ١٦٩ .

(٢) قد اسلفنا لفظ الحديث فراجع ص ٤٩٦ من كتابنا .

(٣) بحار الانوار ج ٢٦ ص ١٠٣ - ١٠٤ .

واليك نص عبارته :

الاول : ان يكون المراد انتلك الامور لا يعلمها على التعيين والخصوص الاالله تعالىفانهماذا اخبروا بموت شخص فياليوم الفلانى فيمكن ان لا يعلموا خصوص الدقيقة التي تفارق الروح الجسد فيها مثلا . ويحتمل ان يكون ملك الموت ايضا لا يعلم ذلك .

الثانى : ان العلم الحتمي بها مختصاً به تعالى وكل ما اخبرالله به منذلك كان محتملا للبداء .

الثالث : ان يكون المراد عدم علم غيره تعالى بها الا منقبله فيكون كسائر الغيوب ويكون التخصيص بها لظهور الامر فيها أو لغيره .

الرابع : ما أومأنا اليه سابقا وهو ان الله تعالى لم يطلع على تلك الامور كلية احداً من الخلق على وجه لابداء فيه بل يرسل علمها على وجه الحتم فى زمان قريب من حصولها كليلة القدر اواقرب من ذلك وهذا وجه قريب تدلعليه الاخبارالكثيرة اذ لابد منعلم ملك الموت بخصوص الوقت كما ورد فى الاخبار وكذا ملائكة السحاب والمطر بوقت نزول المطر وكذا المدبرات من الملائكة باوقات وقوع الحوادث .

«٨»

سيرة النبى الاعظم ، وصفاته واسماؤه فى القرآن الكريم

قد استقصينا الكلام حول أمية النبي الاكرم ، كما اشبعنا الكلام فى اطلاعه (ع) على الغيب ولم تكن شخصيته منحصرة في هذه الصفة ، وانما كان يتحلى بصفات كثيرة ، تتجسد فيها مكارم الاخلاق ومحاسن الانسان الكامل ، وقد عرفه سبحانه في كتابه العزيز بأوصاف مدهشة للعقول ، ومثيرة للاعجاب، وقد عقدنا هذا الفصل لدراسة حياته ونشياته وصفاته العليا ، على ضوء القرآن المجيد . كل ذلك على وجه الاختصار فان استقصاء البحث حولها يحوجنا الى تأليف مفـرد .

وركزنا بشكل خاص، الكلام حول أحد أسمائه ـ أحمد ـ وفندنا الدعوى المنقولة عن بعض المغفلين من اتباع المشعوذ المتنبي «أحمد القادياني» حيث ادعى استلهاماً من قائده ، بانه الموعود والمبشر به في الانجيل والقرآن ، وقـد أظهرنا الحقيقة وأخذنا اللثام عن وجهها بما لا يدع مجالا لمعاند .

فى هذا الفصل :

١ ـ عناية المسلمين منذ فجر الاسلام بضبط مايرجع الى حياة النبى مما دق وجل.
٢ ـ عناية القرآن ببيان صفات النبى واسمائه (ص) .
٣ ـ حياة النبى (ص) المقتبسة من القرآن الكريم .
٤ ـ اسماؤه فى القرآن المجيد .
٥ ـ شبهة تافهة اختلقها رجال الكنيسة .
٦ ـ أن احمد ، احد اسمائه المعروفة ونقل بعض الروائع الشعرية فى هذا المقام.
٧ ـ خاتمة المطاف .

سيرة النبى الاعظم ، وصفاته واسماؤه في القرآن الكريم

بالرغم من أن جوانب حياة النبي (ص) واسعة المدى ، فسيحة الارجاء ، متعددة الجهات، مختلفة النواحي، فقد عني المسلمون منذ فجر الاسلام وانبثاق الدعوة الالهية في ربوع العالم ، بضبط مايرجع الى حياته (ص) مما دق وجل من قول ولفظ ، وفعل وعمل ، وما في تاريخه من نوادر وطرائف ونقاط ، فما صدر منه كلام الا نقلوه ، أو فعل الا ضبطوه ، أو سنة الا سجلوها ، وقد بلغوا الغاية في ذلك حتى دونوا حياة أصحابه وتابعيه وماينسب اليه واليهم بأدنى مناسبة. فترى في غضون المعاجم والسير كثيراً مما يرجع اليه (ص) من الامور التي قلما تخطر على بال بشر ان يصفها أو يسجلها كتوصيف نعله ، وسواكه، ومشطه ومكحلته ، ومرآته ، وقدحه ، وسيوفه ، ودروعه ، وتروسه ، ورماحه ، وسوطه ورأيته ، ومغفره ، وأعلام خيوله ، وابله ، وبغلته، وحماره ، ومنايحه من الغنم ومواليه وحجر ازواجه، وفسطاطه، وقصعته، وقعبه، وعمامته، وخاتمه، وأصناف لباسه ، وطولها ، وعرضها ، وشعره ، وشيبه، وكيفية خضابه ، ونومه ، ومأكله والطعام الذي يعجبه ، حتى سجلوا الابار التى شرب منها ، والخمرة التي كان يصلي عليها، الى غير ذلك من نوادر الامور التى لا يهتم بذكرها وضبطها بالنسبة

الى البشر العاديين .

كل ذلك دليل على شدة ما كان يتمتع به النبي من ود وحب عريق ، الى حد ، قيض همة ثلة جليلة من فطاحل المسلمين وأكابرهم لضبط وتسجيل كل ما يرجع اليه كبيراً أو صغيراً ، شرعياً أو عرفياً (١) .

فألفوا في كل ناحية من نواحي حياته كتباً زاخرة ورسائل طافحة أوعقدوا لها فصولا في كتب السير والتاريخ ، ولقد زخرت المكتبة الاسلامية باثار هذا النشاط بل زخرت مكتبات أخرى في لغات وأمم أخرى بكتب ورسائل فى هذا المضمار الى حد يقف العقل امامها حائراً مشدوهاً يخالجه مزيج من الاعجاب والمهابة .

والعجب ان الركب بعد سائر لم يقف، ولم يفتر، وهذه الكتب مع كثرتها لم تشبع نهمهم، وماقضت وطرهم في تحليل حياة النبي، حتى اننا نرى الاكابر من العلماء في كل عصر وجيل الى عصرنا هذا ، يكتبون كتباً زاخرة في حياة النبى ويؤلفون رسائل طافحة بالتحقيق والتحليل ، حتى يغنوا بذلك الناشىء الجديد عن أساطير التاريخ وأفانين الرواية ورسائل المستشرقين ويقدمون له ما يسد جوعته ويجعل المسلم الحر ، يرتشف من المنهل العذب .

وعلى ضوء هذه الكتب والجهود الجبارة التى تحملها الفيف من علماء المسلمين بل فئة كبيرة منهم ، لم يتركوا في حياة النبي مبهمة الا كشفوا أستارها ورفعوا النقاب عن وجهها ، أو جانباً مجهولا الا حدوده وعينوه بأدق وجه وأنصع بيان .

عناية القرآن ببيان صفات النبى (ص) :

ولم تكن عناية القرآن ببيان نواح من حياة النبى الجليلة وشؤنه الدقيقة بأقل من

(١) راجع الطبقات الكبرى ج١ ص ٣٦٠ وتاريخ الطبرى ج ١ ص ٤١٧ –٤٢٨ وبحار الانوار ج ١٦ ص ٨٢ – ٢٢٩ وغير ذلك من المجاميع التاريخية والحديثية .

عناية المسلمين ضبطاً وتسجيلا ، فان القارىء يجد في مختلف السور والايات، صوراً واضحة رائعة من صفات النبي وفضائل أخلاقه وكرائم نعوته الى حد يقف الانسان على روحياته ونفسياته ومختلف أقواله وافعاله ، ويقدر مع التدبر التام فيما نزل فى حقه من الايات على الاحاطة بمراحل حياته منذ بعث بل منذ نعومة أظفاره الى ان فارقها الى الرفيق الاعلى، ولعلنا نرجع الى ذلك في مستقبل الايام (١) .

فالرجوع الى نفس القرآن واستخراج سيرة النبي وصفاته ونفسياته وأفعاله عن خلال آياته الكريمة ، أوثق وأسد الطرق لدراسة شخصية النبي الاعظم ، فالتدبر في هذا القسم من الايات ، يعطى لنا صورة واضحة عن حياة النبى وشخصيته الفذة، وعبقريته النادرة ، وما اودعه الله فيها من مواهب وقوى خلقية ونفسية وعقلية ، بلغت الذروة والروعة والعظمة، ويغنينا عن المبالغات التى يعمد اليها بعض الفرق المسلمين من غير سند وثيق .

ان تلكم الايات تصلح ان تكون رداً حاسما وقوياً على الموقف المنكر الذى يقفه المغرضون من المبشرين والمستشرقين من أخلاق النبى وفضائله ، اذ يتجاهلون أو يغفلون عن مافي القرآن من نصوص، ويتمسكون دونها بالروايات التي ربما تكون مخترعة أو مدسوسة ومزورة ، فينسبون الى ساحة النبي الاكرم ما هو برىء منه ، في حين ان في القرآن من الايات ما فيه كل المقنع لمن لم يختم الله على قلبه بما كان عليه من الرحمة والصدق والبساطة والتجرد والزهد والاستغراق في الله والتحلي بالمثل العليا واعطاء القدوة الحسنى لذلك كله .

---

(١) وقد وقفنا بعد ما كتبنا هذا الفصل على ما الفه « محمد عزة دروزة » فى هذا المضمار وأسماه «سيرة الرسول» وهى صورة مقتبسة من القرآن الكريم وذكر فى مقدمة الكتاب ، الحوافز التى دفعته الى تأليف كتابه وقد طبع فى مطبعة الاستقامة بالقاهرة فى جزئين وقد راجعنا هذا الكتاب بعض المراجعة عند تقديم هذا الفصل الى الطبع .

فقداشار سبحانه الى مكانته المرموقة ولزوم توقيره وتكريمه : وانه لا يصلح دعاؤه كدعاء بعضنا بعضابقوله سبحانه: « يا ايها الذين آمنوا لا ترفعوا اصواتكم فوق صوت النبي ولاتجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ان تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون » (الحجرات ـ ٢) ، وبقوله سبحانه: « لا تجعلو دعاء الرسول بينكم كدعـاء بعضكم بعضاً » (النور ـ ٦٣) ، والى حرمة التسرع في ابداع الرأى والبدء في العمل بقوله عزوجل : «يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقو الله ان الله سميع عليم » (الحجرات ـ ١)

والى تأثره وغمه وهمه وحزنه من عدم استجابة قومه لدعوته واهتدائهم بهديها بقوله سبحانـه : « فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً » (الكهف ـ ٦)، وبقوله: «لعلك باخع نفسك الا يكونوا لمؤمنين» (الشعراء ـ ٣)، والى تحمسه وثباته في المعارك الطاحنة ومافيه من شجاعة وثبات جنان في مواقف الشدة وميادين الكفاح . والى موقفه امام العدو حين مادارت الدائرة على المسلمين وانهزموا وتفرق كثير من أعيانهم وأبطالهم، ووقف النبى وثبت في ميدان المعركة، ومعه من لا يتجاوز عدد الاصابع بقوله سبحانه : «اذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في اخريكم فأثابكم غماً بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما اصابكم والله خبير بما تعلمون »
(آل عمران ـ ١٥٣)

فكان النبي قطب الرحى في هـذا الموقف العصيب اذ ثبت ثبات الجبال ، رابط الجأش ، مطمئن النفس ، فصار اسوة حسنة للمؤمنين .

والى انه بلغ من الكمال الى حد ، صار اماماً وقدوة للمؤمنين يتأسون به في قيمه الروحية ومثله العليا بقولـه : « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الاخر وذكر الله كثيراً » (الاحزاب ـ ٢١)

والى انه قد رزق الكوثر والخير الكثير من كل جوانب الحياة ومظاهرها

فرزقه الله من بنت واحدة ، ما ملاء الخافقين بقوله : « انا أعطيناك الكوثر » (الكوثر - ١) وغيرها من الخيرات التي لا تعد ولا تحصى فلما رماه خصمه بأنه الابتر ، فرمى شانئه بأنه اولى بذلك لانبي العظمة .

وقد بلغ من العظمة موقفاً الى ان الله وملائكته يصلون عليه ، فأمر الله سبحانه المؤمنين ان يصلوا عليه و يسلموا تسليماً وقال سبحانه : « ان الله وملائكته يصلون على النبي يا ايها الذين آمنوا صلوا عليه وسلمو تسليماً » (الاحزاب - ٥٦)

روى الشافعي عن ابي هريرة انه قال لرسول الله كيف نصلي عليك قال تقولون: اللهم صل على محمد و آل محمد كما صليت على ابراهيم و آل ابراهيم وبارك على محمد و آل محمد كما باركت على ابراهيم و آل ابراهيم ثم تسلمون علي (١) .

قال ابن حجر صح عن كعب بن عجرة قال لما نزلت هذه الاية قلنا يارسول الله قد عرفنا كيف نسلم عليك فكيف نصلى عليك قال : قولوا اللهم صل على محمد و آل محمد - الى ان قال - وروى عنه (ص) انه قال: لا تصلوا على الصلاة البتراء فقالوا وما الصلاة البتراء ؟ قال تقولون اللهم صل على محمد وتمسكون بل قولوا : اللهم صل على محمد و آل محمد (ص) (٢) .

وقد نسب الزرقاني هذين البيتين الى الامام الشافعي :

يا آل بيت رسول الله حبكم فرض من الله في القرآن انزله

كفاكم من عظيم القدر انكم من لم يصل عليكم لاصلاة له (٣)

والى انه وصل الى الذورة من عظمة الخلق وقوة الروح وصفاء النفس ورجاحة

(١) مسند الشافعي ج ٢ ص ٩٧ .

(٢) الصواعق ص ١٤٤ .

(٣) شرح المواهب ص ٧ .

العقل بقوله : « وانك لعلى خلق عظيم » (القلم - ٤)

غير ان من المحتمل ان يكون « الخلق » بمعنى الدين اى انك على دين عظيم كما عليه قوله سبحانه : « ان هذا الا خلق الاولين » (الشعراء - ١٣٧) فالمقصود اكبار الدين الذي بعث النبي لبيانه وابلاغه، ويؤيده قوله سبحانه بعده: «فستبصر ويبصرون بأيكم المفتون» اى يامحمد ويرى الذين رموك بالجنون أيكم المفتون اى ايكم المجنون الذي فتن بالجنون أ أنت ام هم وحيث انك على دين عظيم يؤيدك الله وينصرك عليهم (١) .

والى دماثة خلقه وحسن معاشرته ورأفته وعطفه على أعدائه ، وتنزهه عن فظاظة الخلق، وغلظه القلب بقوله سبحانه: «ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم » (آل عمران - ١٥٩)

والى ما رزق من قلب نقي وسريرة طيبة ورغبة شديدة في خير المؤمنين وعظم ثقته بحسن نياتهم بقوله : «ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو اذن قل هو اذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم » (التوبة - ٦١)

والى حيائه وصبره على مايؤذى نفسه من أصحابه وتجنبه من كسر قلوبهم وجرح عواطفهم بقوله تعالى : « يا ايها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي الا ان يؤذن لكم الى طعام غير ناظرين اناه ولكن اذا دعيتم فادخلوا فاذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث ان ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيى منكم والله لا يستحيى من الحق » (الاحزاب - ٥٣)

والى مافطر من رحمة ورأفة وبروحرص شديد على مصلحة قومه وشعوره بما يلم بهم من آلام وما ينالهم من مشاق ، وما يلقى من جهد وعنت في سبيل ازالة آلامهم وتخفيف مايشق عليهم، واشتياقه الى ارشاد الناس وهدايتهم واشفاقه

(١) راجع مجمع البيان ج ٥ ص ٢٣٣ .

ورأفته بالمؤمنين وعطفه عليهم بقولـه : « لقد جاءكم رسول من انفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم » (التوبة ـ ١٢٨)

والى غزارة علمه بقوله سبحانه : « وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً » (النساء ـ ١١٣)

والى طهارة روحه وأهل بيته من الرجس ودرن الشرك والمعاصي بقولـه سبحانه: « انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » (الاحزاب ـ ٣٣)

والى عكوفه على عبادة ربـه وتهجده في الليل وسهره في طريق طاعة الله بقوله سبحانه: « ان ربك يعلم انك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك » (المزمل ـ ٢٠)

والى انه رسول الله الى الناس كافـة وخاتم النبيين وان الله سبحانه حافظ لدينه وكتابه الى يوم القيامة بقوله : « وما ارسلناك الا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن اكثر الناس لا يعلمون » (السبأ ـ ٢٨) ، وبقوله : « ما كان محمد أبـا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليماً» (الاحزاب ـ ٤٠) ، وبقوله : « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » (الحجر ـ ٩)

والى انه مصدق لما بين يديه من الكتب بقوله : « ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم » (البقرة ـ ١٠١)

والى صبره في طريق هداية الامة بقولـه : « واصبر وما صبرك الا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون » (النحل ـ ١٢٧)

والى اجره عند الله سبحانه بقوله : « وان لك لاجراً غير ممنون » (القلم ـ ٣)

والى قربه منه سبحانه، وتأثير استغفاره فى حق الامة ، وانهم لو طلبوا منه

ان يستغفر لهم ، لوجدوا الله تواباً وغافراً لذنوبهم بقوله سبحانه : « ولو انهم اذ ظلموا انفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً » (النساء ـ ٦٤)

الى ان عاد القرآن فأشار الى عظمة قدره وجلالة شأنه بتوصيفه بأنه: رسول نبي أمي، مكتوب اسمه في التوراة والانجيل، يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم الاصر ، ويرفع عنهم الاغلال حيث قال سبحانه : « الذين يتبعون الرسول النبي الامي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل، يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والاغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي انزل معه، اولئك هم المفلحون » (الاعراف ـ ١٥٧)

كما وصفه بأنه (ص) ، شاهد ، مبشر ، نذير ، داع الى الله ، سراج منير ، ورحمة للعالمين، وأنه أحد الامانين في الارض وأنه سبحانه لا يعذب الناس وهو فيهم تجد كل هاتيك الصفات والثناء في الايات التالية:

« انا ارسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً الى الله باذنه وسراجاً منيراً »

(الاحزاب ٤٥ ـ ٤٦)

« وما ارسلناك الا رحمة للعالمين » (الانبياء ـ ١٠٧)

« وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون »

(الانفال ـ ٣٣)

وفي الوقت نفسه لا يقتصر القرآن على بيان روحياته ونفسياته فقط بل يطري النبي ويصفه كوصف محب متجلد فيوجه نظره السامي الى تسمية أعضائه الظاهرة الخطيرة .

فيصف بصره بقوله : « ما زاغ البصر وما طغى » (النجم ـ ١٧)

ووجهه بقوله : « قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها » (البقرة - ١٤٤)

وقلبه بقوله : « من كان عدواً لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله » (البقرة - ٩٧)

وفؤاده بقوله : « ما كذب الفؤاد ما رأى » (النجم - ١١)

وصدره بقوله : « ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك الذى أنقض ظهرك » (الانشرح ١ - ٣)

وصوته بقوله: «يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي » (الحجرات - ٢)

الى أن يعود القرآن فيحلف بعمره ويقول : « لعمرك انهم لفي سكرتهم يعمهون » (الحجر - ٧٢)

ويصف سيره وعروجه في الليل الى المسجد الاقصى ومنه الى السموات العلى بقوله : « سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا » (الاسراء - ١) (١)

ويبين نهاية سيره وانه قد بلغ الى سدرة المنتهى التى عندها جنة الماوى قال سبحانه : ولقد رآه نزلة اخرى ، عند سدرة المنتهى، عندها جنة الماوى ، اذ يغشى السدرة ما يغشى مازاغ البصر وما طغى لقد رأى من آيات ربه الكبرى (النجم ١٣ - ١٨)

ويصف اوليات حياته وانه لم يزل محروساً بعين الله سبحانه ومشمولا لعنايته قال سبحانه: « والضحى والليل اذا سجى ماودعك ربك وما قلى وللاخرة خير لك من الاولى، ولسوف يعطيك ربك فترضى، ألم يجدك يتيما فآوى ، ووجدك ضالا فهدى ووجدك عائلا فاغنى ، فاما اليتيم فلا تنهر واما السائل فلا تقهر واما

(١) راجع فى قصة المعراج الى سورة النجم الاية السادسة الى الثمانية عشر .

بنعمة ربك فحدث » (الضحى ١ - ١١)

كما يصف شرح صدره لتحمل عب النبوة ، ورفع الوزر الذي انقض صدره فقال : « ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك الذي انقض ظهرك ورفعنا لك ذكرك فان مع العسر يسراً ، ان مع العسر يسراً فاذا فرغت فانصب والى ربك فارغب » (الشرح ١ - ٨) .

ويشير الى نزول الوحى عليه وان معلمه شديد القوى اذ قال سبحانه : « والنجم اذ هوى ما ضل صاحبكم وما غوى ان هو الا وحى يوحى علمه شديد القوى، ذو مرة فاستوى وهو بالافق الاعلى » (النجم ١ - ٥)، وقال سبحانه: «ذلك من انباء الغيب نوحيه اليك » (آل عمران - ٤٤)

والى برائته من كل مايلصق به من تهمة، فقال سبحانه : « فلا اقسم بالخنس الجوار الكنس، والليل اذا عسعس ، والصبح اذا تنفس، انه لقول رسول كريم ذى قوة عند ذى العرش مكين مطاع ثم أمين ، وما صاحبكم بمجنون ، ولقد رآه بالافق المبين وما هو على الغيب بضنين وما هو بقول شيطان رجيم »
(التكوير ١٥ - ٢٥)

والى لزوم الاستجابة لدعوته وان فيها حياتهم، قال سبحانه: « يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم » (الانفال - ٢٤) ، وقال سبحانه : « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم » (آل عمران - ٣١)

اسماؤه فى القرآن :

ان القرآن يتفنن في توصيف النبي وذكره بل في تسميته والايماء اليه، فتارة يشير اليه باحدى الصفات العامة الشاملة لكل انسان كما في قوله : « فأوحى الى عبده ماأوحي » (النجم - ١٠) غير ان فى اضافة العبد الى نفسه الماعاً الى تكريمه

وتقربه منه سبحانه: وأخرى يخاطبه بالالقاب الخاصة بأنبياءه ورسله ويقول: «يا ايها النبي حرض المؤمنين على القتال» (الانفال ـ ٦٥)، «يا أيها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك» (المائدة ـ ٦٧) (١)

وثالثة يخصه باسميه اللذين كان يدعى بهما في الاسلام أعنى محمداً وأحمد أما الاول فقد جاء في مواضع أربعة من القرآن:

١ ـ «ماكان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين» (الاحزاب ـ ٤٠)

٢ ـ «وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل» (آل عمران ـ ١٤٤)

٣ ـ «والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد» (محمد ـ ٢)

٤ ـ «محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم» (الفتح ـ ٢٩)

وأما الثانى فقد جاء في موضع واحد حيث يقول سبحانه: «ومبشراً برسول يأتى من بعدي اسمه أحمد» (الصف ـ ٦)

وليس الرسول (ص) بدعا من بين الرسل في كونه ذا اسمين فقد سبقه في ذلك ثلة من الانبياء كيوشع بن نون وهو ذو الكفل في القرآن ويعقوب بن اسحق وهو اسرائيل ويونس وهو ذو النون وعيسى وهو المسيح (٢).

---

(١) نعم جاء فى بعض الوثائق التاريخية والمجاميع الحديثية ان اسماءه (ص) يس طه، ن، غير انه لم يحقق ذلك اذ من المحتمل جدا ان تكون من الحروف المقطعة كما عليه اعلام التفسير.

(٢) سأل الشامى امير المؤمنين (ع) عن ستة من الانبياء لهم اسمان فاجاب بما ذكرناه واضاف الخضر وهو حلقيا ومحمد (ص) وهو احمد صلوات الله عليهم. عيون اخبار الرضا ص ١٣٦، بحار الانوار ج ١٦ ص ٩٠.

بصريح كتابها: « ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه احمد » (الصف ـ ٦) ويظهر من الروايات المتظافرة ان اسمه في السماء أحمد فقد جاء نفر من اليهود الى رسول الله (ص) ومما سأله انه لم سميت محمداً وأحمد وأبا القاسم وبشيراً ونذيراً وداعياً فقال النبي أما محمد فاني محمود في الارض وأما أحمد فاني محمود في السماء (١) .

ولعل المراد من السماء عالم الوحي ويطابق مضمونه ما تعطيه آية الصف من تبشير المسيح بمجيء نبي اسمه أحمد . وروى أهل السير والتاريخ عن الباقر (ع) ان « آمنة » أم النبي أمرت في المنام وهي حامل برسول الله أن تسميه أحمد وسماه جده محمداً بالهام من الله تفاؤلا بأن يكثر حمد الخلق له لكثرة خصاله الحميدة التي يحمد عليها والى ذلك يشير ابو طالب بقوله :

فشق لـه مـن اسمه ليجلـه فذو العرش محمود وهذا محمد

وفي الخصائص الصغرى : « أحمد » ولم يسم به أحد قبله (٢) فان العرب كانـوا مأنوسين بلفظ « محمد » لانـه سمي بـه في زمن النبي وقد عـد بعضهم بعضهم من سمي بمحمد ستة عشر ونظمهم بقوله :

ان الذين سموا باسم محمد من قبل خير الخلق ضعف ثمان

واما احمد فلم يسم به أحد قبله بل منع الله بحكمته ان يتسمى به أحد غيره ولا يدعى به مدعو قبله منذ خلقت الدنيا وفي خلال حياته الشريفة حتى لا يدخل لبس أو شك على ضعيف القلب وأول من سمي بأحمد في الاسلام ولد جعفر بن أبي طالب (٣). وكذلك محمداً أيضاً لم يسم به أحد قبل وجوده (ص) وميلاده

---

(١) امالـي الصدوق ص ١١٢ ، علل الشرائع ص ٥٣ ، معاني الاخبار ص ١٩ ، بحار الانوار ج ١٦ ص ٩٤ .

(٢) السيرة الحلبية ج ١ ص ٩٣.

(٣) كتب الينا المحقق التستري في ملاحظاته على الكتاب انه لم يجد باحمد بل كانوا مسمين بـ « عون » و« عبدالله » و« محمد » .

ولم يتحقق ذلك الا بعد أن شاع أن نبياً يبعث في الحجاز اسمه محمد وقد قرب زمنه فسمى بعضهم حينئذ أبناءهم بذلك وحمى الله تعالى هؤلاء من أن يدعي أحد النبوة أو يدعيها أحد له أو يظهر عليه شيء من سماتها الى ان تحققت دعوة النبي (١) .

لا ريب ان أحمد أحد أسمائه المعروفة ولا يتردد في تسميته بهذا الاسم من له أدنى تتبع في سيرته وتاريخ حياته، وماقيل في حقه من المدائح في الاسلام وقبله يوضح انه كان يدعى بهذا الاسم منذ نعومة أظفاره .

وهذا أبو طالب شيخ الاباطح حامي النبي وكفيله يذكره في أشعاره بهذا الاسم ويسميه به ومثله حسان بن ثابت شاعر الرسول في عهد الرسالة، ومادحه، وغيرهما من الشعراء المخضرمين، تراهم أصفقوا على تسميته بأحمد من دون تردد ولا ريب ، كل ذلك يدل على أن البيت الذي ولد ونشأ فيه النبي (ص) قد أسماه بهذا ، والبيئة التي شب وترعرع فيها ، كانت تعرفه به .

شبهة تافهة اختلقها رجال الكنيسة :

ان الغرب بعد ان اتم غزوه لبلاد الشرق واحتلها بالحديد والنار ، طفق يغزو الافكار ويبث الشبهات وقد بعث رجال التبشير الى هذه البلاد لتحريف أفكار شباب الاسلام منه ثم توجيههم الى المسيحية أولا واللادينية ثانياً حتى يسهل اصطيادهم وسحق حقوقهم ونهب منابعهم وأموالهم . ومن الشبهات التافهة التي نشرها بعض رجال الكنيسه في بلادنا قولهم :

ان المسيح بشر برسول يأتي من بعده اسمه أحمد غير أنه لا ينطبق على نبي الاسلام فان اسمه «محمد» بنص القرآن الكريم واتفاق المسلمين وغيرهم، والذي وقد اتفقت الامة الاسلامية على أن اسمه (ص) في الانجيل هو أحمد آخذة

(١) المصدر نفسه ص ٩٥ – ٩٧ بتلخيص منا .

بشر به المسيح انما هو أحمد وحينئذ فان ما بشر به هو غير ذاك ونحن نتربص بفارغ الصبر ، مجيىء نبي آخر اسمه أحمد ، يكون خاتم الانبياء والمرسلين .

وتلك شبهة لا تحتاج الى الجواب، ولا غرو من مبدعها فان من يعمد الى تغيير الشرايع بالتحريف، لا يتعفف عن تحويل الاسماء عن مسمياتها الى غيرها ممايرشده اليه هواه. اذ من الضروري ان احمد احد اسماء نبينا (ص) وكانت الحجاز والحرم والبيت ومن يعيش فيها، تعرفه بهذا الاسم كما كانت تعرفه باسمه الاخر.

أضف الى ذلك: انه لما نزل قوله سبحانه: « ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد » لم يعترض على النبي أحد من المسيحيين ولا من غيرهم . بل لم ينبس أحد ببنت شفة ، بأن من بشر بمجيئه المسيح انما هو أحمد ، وأي صلة بينك وبين هذه البشارة ، بل سكتوا عنه وتلقوه أمراً مسلماً وهذا دليل على أنه (ص) كان معروفاً بهذا الاسم يوم ذاك بل منذ ولادته ونعومة أظفاره (١) .

ودونك نماذج مما وفقت عليه من شعر عمه وغيره ممن ذكروا النبي فى اشعاره بهذا الاسم وسموه به ونكتفى من الكثير بالقليل ، حذراً من الاطالة .

قال أبو طالب رحمة الله عليه :

الا ان خير الناس نفساً ووالداً اذا عد سادات البرية أحمد (٢)

وقال :

ان يكن ما أتى به أحمد اليوم سناء وكان في الحشر دينا (٣)

وقال :

---

(١) والاوهن من تلك الشبهة ما حسبه بعض المغفلين من ان الاية اخبار عن نبوة غلام احمد القاديانى ذلك المتنبىء المشعوذ الذى خدم الاستعمار البريطانى عند احتلال الهند.

(٢) ديوان ابى طالب ص ١٣ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٩ .

وقوله (١) لاحمد أنت امرء خلوف الحديث (٢) ضعيف النسب

وان كان (٣) أحمد قد جاءهم بحق ولم يأتهم بالكذب (٤)

وقال :

تنالون أحمد أو تصطلو ظباة الرماح وحد القضيب (٥)

وقال :

أرادوا قتل احمد ظالموه وليس بقتلهم فيهم زعيم (٦)

وقال :

فلسنا وبيت الله نسلم أحمدا لعزاء من عض الزمان ولا كرب (٧)

وقال :

لقد أكرم الله النبي محمداً فأكرم خلق الله في الناس أحمد

وشق له من اسمه ليجله فذو العرش محمود وهذا محمد (٨)

قال الديار بكرى : انشأ أبو طالب في مدح النبى ابياتاً منها هذا البيت.

---

(١) وفى مجمع البيان : وقالوا .

(٢) وفى المجمع : اللسان .

(٣) وفى المجمع « الا ان » .

(٤) ومجمع البيان ج ٢ ص ٢٨٧ ط صيدا .

(٥) المصدر نفسه ص ٢٦ .

(٦) المصدر السابق ص ٢٩ .

(٧) المصدر نفسه ص ٢٠ وتجد بعض تلكم العسجدية مبثوثة فى طيات الكتب والمعاجم ونرى المقام غنيا عن الاشارة لمصادرها غير انا اخذناها من ديوانه المطبوع بالنجف الاشرف فى المطبعة الحيدرية وجامع ديوانه هو عبدالله بن مهزم البصرى كما صرح به النجاشى فى فهرسته ص ١٥١ وذكر طريق روايته اليه وذكره شيخنا فى الذريعة ج ١٤ ص ١٩٥ .

(٨) تاريخ ابن كثير ج١ ص ٢٦٦ ، الاصابه ج ٤ ص ١١٥ ، تاريخ الخميس ج١ ص ٢٥٤ .

وشق له من اسمه ليجله .....

وحسان بن ثابت ضمن شعره هذا فقال :

ألم تر ان الله أرسل عبده بآياته والله أعلى وأمجد

وشق له من اسمه ليجله .....

قال ابن هشام : ولما خشى أبو طالب دهماء العرب ان يركبوه مع قومه قال قصيدته التى تعوذ فيهابحرم مكة وبمكانه منها وتودد أشراف قومه وهوعلى ذلك يخبرهم وغيرهم فيذلك من أنه غيرمسلم رسول الله ولا تاركه لشيء أبداً حتى يهلك دونه . ومن تلك القصيدة قوله :

لعمرى لقد كلفت وجداًبأحمد واحببته حب الحبيب المواصل

فلا زال في الدنيا جمالا لاهلها وزيناً لمن والاه رب المشاكل

فأصبح فينا أحمد فى أرومة تقصر عنه سورة المتطاول (١)

روى ابن الاثير : ان ابا طالب رأى النبي وعلياً يصليان ، وعلي على يمينه فقال لجعفر رضي الله تعالى عنه صل جناح ابن عمك وصل على يساره وكان اسلام جعفر بعد اسلام أخيه على بقليل وقال أبو طالب :

فصبراً أبايعلي على دين أحمد وكن مظهراً للدين وفقت صابراً

وباد قريشاً بالذي أتيته جهاراًوقل ماكان أحمد ساحراً (٢)

روى شيخنا أبو الفتوح الرازى في تفسيره :

زعمت قريش أحمد ساحر كذبوا ورب الراقصات الى الحرم (٣)

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٧٢ وشرح النهج ج ١٤ ص٧٩.

(٢) اسد الغابة ج ١ ص ٢٨٧ ، كما فى الغدير ج ٧ ص ٣٥٨ بحار الانوارج١٨ ص ٢٢١ ، مجمع البيان ج٢ ص ٢٨٧ وفى الاخير: يحض ابوطالب اخاه حمزة على اتباع النبى (ص) .

(٣) تفسير ابى الفتوح ج ٤ ص ٢١٢ ونقله ابو على شمس الدين السيد فخار بن محمد الموسوى المتوفى ٦٣٠ صاحب كتاب الحجة على الذاهب ، الى تكفير ابى طالب ص ٧٢ .

الى غير ذلك مما نقل وأثر منه سلام الله عليه ولو استقصينا ما نقل عنه من الشعر في هذا الباب لخرجنا عن المقصود وقد نقل السيد الفخار عنه هذين البيتين في ضمن أبيات :

وانصر احمداً فان من الله رداء عليه غير مدال

فخير بني هاشم أحمد رسول الاله على فترة (١)

وقال :

يا شاهد الله علي فاشهد اني على دين النبي أحمد (٢)

وقد أثر عن أمير المؤمنين علي (ع) انه قد أمره والده أبو طالب بالصبر في الدفاع عن النبي بقوله :

أصبرن يا بني فالصبر أحجى كل حي بصبره مشعوب

فاجاب علي عليه السلام بقوله :

أتامرنى بالصبر في دين أحمد ووالله ماقلت الذى قلت جازعاً

ساسعى لوجه الله في نصر أحمد نبي الهدى المحمود طفلا ويافعاً (٣)

وأما مانقل عن غير أبي طالب متضمناً تسمية النبي بأحمد ، فكثير جداً تصعب الاحاطة به ويطول الكلام بنقل ما وقفنا عليه في مجاميع التاريخ والادب ولنكتفى بما يلي :

قال حسان بن ثابت شاعر عهد الرسالة في رثاه :

مفجعة قد شفها فقد أحمد فظلت لالاء الرسول تعدد

---

(١) كتاب الحجة ص ٧٤ .

(٢) شرح النهج ج ١٤ ص ٧٨ وقال وقد يروى لعلى فى ديوانه ، ولكنه موجود فى ديوان أبى طالب ص ٧٥ ولم نذكر فى عداد ما نقلناه عن ديوانه لمكان هذا الترديد .

(٣) شرح النهج الحديدى ج ١٤ ص ٦٤ .

اطالت وقوفاً تذرف العين جهدها على طلل القبر الذي فيه أحمد (١)

وقال ايضاً في رثاه (ص) :

صلى الا له ومن يحيق بعرشه والطيبون على المبارك احمد (٢)

وقال :

فمن كان أو يكون كاحمد نظام الحق أو نكال لملحد

* * *

وقال في رثاه جعفر الطيار :

بها ليل منهم وابن أمه علي ومنهم أحمد المتخير

وقال يرثى زيد بن حارثة

ذاكم أحمد الذى لا سواه ذاك حزنى معاله وسروى (٣)

وقال حسان :

فمن كف احمد قد فجرت عيون من الماء يوم الظمأ (٤)

وقال :

ففي كف احمد قد سبحت بتقديس ربى صغار الحصى (٥)

وقال كعب بن مالك :

فهذا نبي الله احمد سبحت صغار الحصى فى كفه بالترنم (٦)

وقد نقل عن ورقة بن نوفل انه بعد ما اطلع على امر النبي (ص) وانه ينزل

(١و٢) نقلها ابن هشام فى سيرته ج ٢ ص ٦٦٧و٦٦٩ ونقل الثانى منهما ابن سعد فى طبقاته ج ٢ ص ٣٢٣ .

(٣) أخذنا ما نقلناه الى هنا من شاعر عهد الرسالة من مواضع مختلفة من ديوانه راجع ص٥٩، ٦٣، ٦٥، ١٠٢، ١٠٩ ط بيروت تحقيق محمد عزت نصر الله مضافاً الى المصادر الاخرى التى أوعزنا اليها .

(٤و٥و٦) بحار الانوار ج١٦ ص٤١٣و٤١٤و٤١٥ .

عليه الناموس الاكبر الذي كان ينزل على موسى وعيسى انشأ يقول :

فانيك حقا ياخديجة فاعلمي حديثك ايانا فاحمد مرسل(١)

وقال :

بأن احمد يأتيه فيخبره جبريل انك مبعوث الى البشر(٢)

وقال :

وان ابن عبدالله احمد مرسل الى كل من ضمت عليه الاباطح(٣)

وقال احد بنى عامر ردا على حسان في افتخاره بالانصار :

بسيف ابن عبدالله احمد في الوغى بكف علي نلتم ذاك فاقصروا (٤)

وقال حمزة حين اسلم ، ابياتا منها :

اذا تليت رسائله علينا تهدر دمع ذي اللب الحصيف

رسائل جاء أحمد من هداها بآيات مبينة الحروف (٥)

وقالت عاتكة بنت عبد المطلب يرثي النبي (ص) :

يا عين جودي ما بقيت بعبرة سحاً على خير البرية احمد (٦)

ونقل المجلسى عن الخرائج : ان تبع بن حسان سار الى يثرب وقتل من اليهود ثلاث مأة وخمسين رجلا بالصبر وأراد خرابها، فقام اليه رجل من اليهود وقال انك لا تستطيع ان تخرب هذه القرية قال ولم ؟ قال لانه يخرج منها من ولد اسماعيل نبي يظهر من هذه البنية يعني البيت الحرام فكف « تبع » ومضى يريد مكة ومعه اليهود وكسا البيت وأطعم الناس وهو القائل :

(١و٢و٣) بحار الانوار ج١٨ ص١٩٥و١٩٦ وراجع بلوغ الاداب ج٢ ص٢٧٤ و٢٧٥ .

(٤) بحارالانوار ج٢٠ ص٢٥٩ .

(٥) سيرة ابن هشام ج١ ص٢٩٣ .

(٦) الطبقات الكبرى ج٢ ص٣٢٦ .

شهدت على أحمد أنه رسول من الله بارى النسم (١)

وقالت صفية في تزويجه (ص) :

ثم السعود لاحمد والسعد عنه ما برح

بخديجة بنت الكمال وبحر انامله طفح (٢)

وقال العباس فى تزويجه (ص) أيضاً خديجة واجتمع سادة القريش وأكابرها في اليوم السادس كعادتهم :

شاع في الناس فضلكم وعلا في المراتب

قد فخرتم بأحمد زين كل الاطائب

احمد سيد الورى خير ماش وراكب (٣)

وقال بعض المسلمين عند اجلاء بنى النضير وربما ينسب الى على بن أبي طالب (ع) :

رسائل تدرس فى المؤمنين بهن اصطفى أحمد المصطفى

الى ان قال :

وقلن لأحمد ذرنا قليلا فانا من النوح لم نشتف (٤)

* * *

خاتمة المطاف :

ولنختم البحث بذكر ماورد حول أسمائه فان صريح الاحاديث أن أسماءه في القرآن أكثر من هذين فقد روى الصدوق فى خصاله (٥) ان لرسول الله عشرة

(١) بحار الانوار ج١٥ ص٢١٤ .

(٢) بحار الانوار ج١٦ ص٧٥ .

(٣) بحار الانوار ج١٦ ص٧٢ .

(٤) سيرة ابن هشام ج٢ ص١٩٧ .

(٥) الخصال ج٢ ص٤٨ .

أسماء: خمسة منها في القرآن، وخمسة ليست في القرآن، فأما التى في القرآن: محمد ، أحمد ، عبدالله ، يس ، ن ، وأما التي ليست في القرآن : فالفاتح ، الخاتم ، الكاف ، المقفي ، الحاشر .

روى الشيخ الاكبر عن الكلبي (١) عن أبي عبدالله (ع) قال : قال لي كم لمحمد اسم فى القرآن قال : قلت اسمان أوثلاثة ، فقال ياكلبي له عشرة أسماء « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل » ، « ومبشراً برسول يأتى من بعدي اسمه أحمد » ، « وانه لما قام عبدالله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً » ، « طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى » ، « يس والقرآن الحكيم » ، « ن والقلم وما يسطرون » ، « يا أيها المزمل » ، « يا أيها المدثر » ، « قد أنزل الله اليكم ذكراً رسولا يتلوا عليكم آيات الله »، فالذكر اسم من أسماء محمد ونحن أهل الذكر فسل ياكلبى عما بدالك .

ومفهوم الحديثين واضح فان المراد من الاسم فيها أعم من الصريح والمؤل ومن العلم والوصف فان بعض ما عد اسماً له (ص) لا يعدو عن كونه وصفاً له كالمدثر والمزمل كما أن عد الحروف المقطعة علماً له انما هو بالتأويل المخصوص علمه لهم (ع) ، فلاحظ .

وقال الشيخ الطوسي في التبيان روي عن علي (عليه السلام) سمي الله تعالى النبي في القرآن بسبعة اسماء (٢) .

هذه سيرة النبي الاكرم وهذه صفاته ونعوته وأسماؤه ، وما قدمناه خطوة رائدة للتعرف على نفسياته وسيرته من أفق القرآن المبين، أو نواة طيبة يمكن البناء عليها ، وهو باجماله، يمثل شخصيته اللامعة، ومكانته المرموقة ، التي قرن الله طاعته بطاعته وقال سبحانه: « من يطع الرسول فقد اطاع الله » (النساء ـ ٨٠)

(١) بصائر الدرجات ص١٥٩ .

(٢) التبيان ج٢ ص٤٧٥ .

ومحبته بمحبته وقال سبحانه : « ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله » (آل عمران ـ ٣١)

وبيعته ببيعته وقال : « ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله » (الفتح ـ ١٠) الى غير ذلك .

وما أردت ان المح الى جميع مـا ورد في حقه (ص) في القرآن المجيد فان استخراجه عمل ضخم دونه طاقة انسان واحد .

وانما الذي استهدفت هو ان اشير الى نماذج حتى يكون فتحاً للباب واستنهاضاً للهمم وتقديماً للاسوة « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الاخر وذكر الله كثيراً » .

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين

المحتويات

الموضوع	الصفحة
كلمة قيمة للمفكر الاسلامي الكبير العلامة الطباطبائى	٣
اكبار وتقدير من المحقق المتتبع الشيخ محمد تقى التستري	٤
كتاب مبارك من الاستاذ الفذ الشيخ محمد الكرمي	٥
عواطف خالصة من فضيلة الاخ العلامة الشيخ محمد حسن طراد	٧
مقدمة الطبعة الثانية والثالثة	٣٩
الفصل الاول : عالمية الاسلام على ضوء القرآن المجيد	٣٩
مكاتيب النبي الى الملوك ورؤساء القبائل	٤٤
النصوص القرآنية في عالمية رسالته	٤٧
البرهان على عمومية رسالته بوجه آخر	٥١
الدعوة الى الفطرة اساس الاحكام الاسلامية	٥٧
الاسلام يكافح المباديء الرجعية	٥٨
نظرة في الايات المشعرة بعدم العمومية	٦٢
هل كانت نبوة نوح عالمية ؟	٧٧

الموضوع	الصفحة
هل كانت نبوة الكليم عالمية ؟	٨٢
موقف الكليم من القبطيين وغيرهم	٨٨
اسئلة واجوبة في المقام	٩٥
هل كانت نبوة المسيح عالمية ؟	١٠٢
ما المراد باولى العزم من الرسل	١٠٧
الفصل الثاني : الخاتمية في الذكر الحكيم	**١١٧**
وحدة الشرائع السماوية جوهراً واختلافها في الطرق والمناهج لا في المقاصد والغايات	١٢٠
التنصيص القرآني على ختم النبوة بالرسول الاكرم	١٢٤
الخاتم ومعناه في القرآن	١٢٥
تشكيكان حول دلالة الاية والاجابة عنهما	١٣٩
ختم النبوة يستلزم ختم الرسالة	١٣٥
نصوص قرآنية اخري على الخاتمية	١٣٦
النبي الاكرم نذير للعالمين وتحقيق في معنى « العالمين »	
الكتاب العزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه	١٤٠
النبي الاعظم ينذر بالقرآن كل من بلغه	١٤٢
الرسول الاكرم بعث الى الناس كافة	١٤٣
القرآن مهيمن على جميع الكتب النازلة قبله	١٤٤
اشارات الى الخاتمية ، مأة وخمس وثلاثون حديثا حول الخاتمية	١٤٨
الفصل الثالث : شبهات حول الخاتمية	**١٨١**
ماذا يحاول المستعمرون تحقيقه ؟	١٨٤
شبهات حول الخاتمية والاجابة عنها	١٨٥

الموضوع **الصفحة**

المغالطة في تفسير قوله سبحانه: «يابنى آدم اما يأتينكم رسل منكم» والاجابة عنها ١٨٦

اجابة العلامة البلاغى والشهرستانى عن الشبهة ١٩٣

الشبهة الثانية وتفسير قوله سبحانه : « رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح . . » ١٩٥

الشبهة الثالثة وتفسير قوله سبحانه : « ولكل امة أجل » ١٩٩

الشبهة الرابعة وتفسير قوله سبحانه : « يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق » ٢٠٨

الشبهة الخامسة وتفسير قوله سبحانه: «يدبر الامر من السماء الى الارض» ٢١٠

الشبهة السادسة وهي أعظم فرية على القرآن الكريم وتفسير قوله سبحانه: « ان الذين آمنوا والذين هادوا » ٢١٧

كلمة للكاتب الاسلامى ابي الاعلى المؤدودى ٢٢٦

خاتمة المطاف وتوضيح حول كلمة « الناس » ٢٣٢

الفصل الرابع : اسئلة حول الخاتمية ٢٣٣

كمال الشريعة يقتضي ختم النبوة التشريعية فلماذا ختمت النبوة التبليغية ايضا ؟ والاجابة عنها ٢٣٥

لماذا حرم الخلف من الامم من المكاشفه الغيبية ٢٤٤

التحول والتغيير ناموس عام للطبيعة فليس في العالم المادي اصل ثابت فكيف تبقى القوانين الاسلامية خالدة عبر القرون والاجيال والاجابة عنه ٢٦٠

اختلاف الوان الحياة يقتضى تطوراً في قوانين المجتمع فكيف تصح ادارة المجتمعات المحتولة بقوانين ثابته والاجابة عنه ٢٦٥

الموضوع **الصفحة**

كلماتكاملت نواحى الحضارة واجه المجتمع اوضاعاً واحوالا جديدة فكيف تفي القوانين المحدودة بالحاجات غير المحدودة والاجابة عنه ببيان اصول ٢٦٨

الاعتراف بحجية العقل في مجالات خاصة ٢٨٢

الاحكام تابعة للمصالح والمفاسد ٢٨٨

التشريع الاسلامى ذو مادة حيوية ٢٩٠

فتح باب الاجتهاد يملا الفراغ ٢٩٢

حقوق الحاكم الاسلامى ٣١١

مرونة الاحكام الاسلامية ٣١٣

الاسلام دين جامع والامة الاسلامية امة وسط ٣١٣

النظر الى الحقائق دون المظاهر ٣١٥

الاحكام التي لها دور التحديد ٣١٦

الفصل الخامس : أمية النبى الاكرم (ص) ٣١٧

لم يختلف اثنان من الامـة الاسلامية فى ان النبي كان أميا لايحسن القراءة والكتابة قبل بزوغ دعوته ٣٢١

نص القرآن على انه (ص) ماكان يتلو من كتاب ولا يخطه بيمينه وتوضيح مفاد الاية ٣٢١

نظرية شاذة للدكتور عبد اللطيف الهندي حول الاية ونقدها ٣٢٤

تنصيص القرآن على ان النبي الاكرم امى وتوضيح مفاد الاية وان المراد من الامى من لا يحسن القراءة والكتابة ٣٢٦

نقدما ربما يقال: ان المراد من الامي هو المنسوب الى ام القرى الذي هو علم من اعلام مكة ٣٢٩

نظرية ثالثة في معنى الامى وهى من لا يعرف المتون العتيقة السامية ونقد

الموضوع	الصفحة
هذه النظرية	٣٣٢
بحث وتنقيب حول ما ورد من الروايات في معنى الامي	٣٣٦
امر النبى في التلاوة والكتابة بعد بزوغ دعوته	٣٤١
نظرية شيخنا المفيد وان النبي كان عارفا بالقرائة والكتابة بعد البعثة وبيان الوجوه التي اعتمد عليها ونقدها	٣٤٢
الاستدلال بمفهوم الاية على عرفانه (ص) بهما بعد البعثة ونقده	٣٤٣
الاستدلال باية ثانية ونقده	٣٤٦
الاستدلال باية ثالثة (يتلوا صحفا مطهرة) ونقد ذلك الاستدلال	٣٤٩
الاستدلال باية رابعة (قالوا اساطير الاولين اكتتبها) ونقد ذاك الاستدلال	٣٥٠
الاستدلال بالاولوية ونقده	٣٥١
الاستدلال بان التجارة تتوقف على المحاسبات وعرفان الكتابة ونقده	٣٥٢
الامية في الاحاديث والاخبار، حديث بدء الدعوة وتوضيح سنده ومفاده	٣٥٤
حديث طلب القلم والدواة ، قصة الحديبية كتاب النبى الى العذار	٣٥٩
المسانيد والمراسيل الواردة من طريق الشيعة الامامية	٣٩٦
نحن وقساوسة الغرب والمستغربة	٣٧٣
الفصل السادس : علم الغيب فى الكتاب العزيز	٣٧٥
ما معنى الغيب في الكتاب العزيز	٣٧٧
انواع المغيبات	٣٨٠
الاخبار بالغيب احد وجوه اعجاز القرآن	٣٨٣
مغيبات القرآن وأخباره الغيبية	٣٨٧
تنبؤ القرآن بعجز البشر عن معارضته بمثله	٣٨٨

الموضوع	الصفحة
التنبؤ بانتصار الرومان على الفرس	٣٨٩
اخباره بصيانة النبى عن اذى الناس	٣٩٠
تنبؤه عن المنافقين والمخلفين من الاعراب	٣٩٢
الاخبار بالقضاء على العدو في المعركة	٣٩٦
التنبؤ بصيانة القرآن عن التحريف	٣٩٧
التنبؤ بنجاح الاسلام والرسول	٣٩٨
التنبؤ باحداث جزئية	٤٠٥
تنبؤ القرآن في مكة بما سيصيب كفار قريش	٤٠٧
التنبؤ حول اليهود والنصارى	٤١٠
اجابة عن سؤال وهو ما سبب نكسة الخامس من حزيران وكيف تجتمع مع تنبؤ القرآن	٤١٦
الفصل السابع : اختصاص العلم بالغيب بالله سبحانه	٤٢٨
العلم بالغيب مختص بالله سبحانه والاستدلال عليه بوجوه ثلاثة	٤٣٢
ما يجرى على الله سبحانه من صفات ونعوت تختلف عما يجرى على غيره سبحانه	٤٣٤
هل يمكن للانسان الاطلاع على الغيب باذن منه سبحانه	٤٣٦
كلام للشيخ الرئيس ابن سينا	٤٣٧
مايدل من الايات على امكان ذلك وتوضيح لفظ الغيب الوارد فيها	٤٣٧
الاستدلال باية التطهير على ذلك وعدم تمامية دلالتها عندنا	٤٤٤
القرآن بفضل نصوصه يدل على وقوع التنبؤ من الانبياء وغيرهم نظراء آدم ونوح وابراهيم و لوط ويعقوب ويوسف وصالح وسليمان والمسيح ومحمد صلوات الله عليهم ، وامرأة ابراهيم وام موسى وصاحبه ومريم والشهداء من الامة	٤٤٧

الموضوع	الصفحة
ماذا تهدف الايات النافية لعلم الغيب عن النبى وتوضيح ما ورد في هـذا المضمار من الايات التسع	٤٦١
تساؤلات خمسة حول علمهم بالغيب والاجابة عنها	
تنبؤات نبوية وعلوية ملات كتب الحديث والتاريخ	
عشرة لا تقال او افتراء على الامين الطبرسى	٥٢١
هل استأثر الله بعلم هذه الامور	٥٧٤
نظرنا في الموضوع	٥٢٨
الفصل الثامن : سيرة النبى واسماؤه وصفاته فى القرآن	
عناية المسلمين منذ فجر الاسلام بضبط ما يرجع الى حياة النبى مما دق وجل	٥٣٧
حياة النبي المقتبسة من القرآن الكريم	٥٤٠
اسماؤه في القرآن المجيد	٥٤٦
شبهة اختلقتها رجال الكنيسة	٥٤٩
احمد ، احد اسمائه والاستدلال عليه بنقل الروائع الشعرية	٥٥٢
خاتمة المطاف	٥٥٦
المحتويات	٥٥٩
التعريف بالموسوعة، بقلم الاستاذ جعفر الهادي	٥٦٦

والحمد لله رب العالمين

التعريف بالكتاب بقلم : الاستاذ جعفر الهادى

هذه الموسوعة وهذا الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الكتاب الذي بين يديك ، أيها القارىء العزيز ، هو الجزء الثالث من موسوعة قرآنية شيقة صدر منها جزء ان، الى الاسواق ، وتلقفتها أيدي القراء، هما :

١ ـ معالم التوحيد فى القرآن الكريم (فى ٥٨٤ صفحة) .

٢ ـ معالم الحكومة الاسلامية فى القرآن الكريم (فى ٦٦٤ صفحة) .

وهي محاولة جادة وموفقة من استاذنا المؤلف الجليل لتفسير القرآن الكريم على نمط «التفسير الموضوعي» الذي يهتم بتفسير الكتاب العزيز حسب المواضيع والمفاهيم ، ويكون مؤداه معالجة كل موضوع من تلكم المواضيع معالجة غنية متوفرة ، على ضوء جميع الايات المرتبطة به من قريب او بعيد .

ولقد قمت بتأليف وصياغة الجزئين السابقين، ولما كان هذا الجزء (الذى سبق ان نشر بقلم الاستاذ الجليل نفسه) جميلا في اسلوبه ، شيقاً فى بيانه ، غير محتاج الى اعادة الصياغة ، آثرنا تقديمه الى القراء كما نشر، مع زيادات مفيدة ومراجعات قيمة تفضل بها سماحته دام بقاؤه ، آملين ان يجد نفس الاقبال الذي

لقيه اخواه من قبل .

وحيث لا نريد ان نسبق القراء الاعزاء الى ذكر مواطن الممتعة في هـذا الكتاب القيم، كما لا نريد ان نسبقهم الى كشف مكامن المعرفة الغنية في صفحاته الغراء ندعوهم الى الوقوف بانفسهم على كل ذلك واثقين بانهم سوف لا يغادرن الكتاب الا بعد ان قرأوه من الغلاف الى الغلاف .

على ان الجزء القادم ـ الذي سنقوم بكتابته واصداره ـ ان شاء الله ـ سيدور حول بقية مسائل النبوة الخاصة التى تحوم حولها تساؤلات كثيرة و هو يشكل الجزء الرابع من هذه الموسوعة ويكون الجزء الخامس حول موضوع «المعاد» و اليوم الاخر ، الذي سيتناوله الاستاذ الجليل بالبحث ، والتحقيق والدراسة والتنقيب على ضوء القرآن الكريم ويعالج فيه كل الشبهات والتساؤلات على هدى آياته البينات وبذلك تكون هذه الموسوعة قد تناولت اصول الدين الاسلامى برمتها والله هو الموفق والمعين .

الجامعة الاسلامية العلمية فى مدينة قم المقدسة

الجمهورية الاسلامية الايرانية

جعفر الهادى

٢٣/ج٢/١٤٠٢

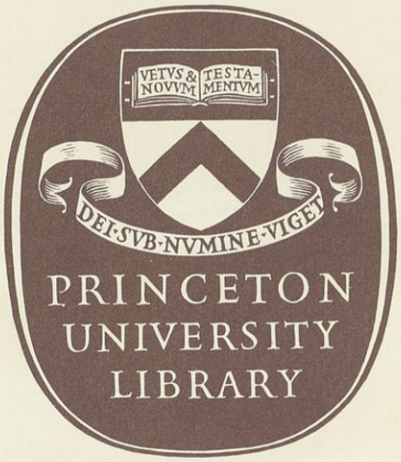
VETVS & NOVVM TESTA-MENTVM
DEI·SVB·NVMINE·VIGET
PRINCETON
UNIVERSITY
LIBRARY



٦٠٠ ريال